

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

عمّان

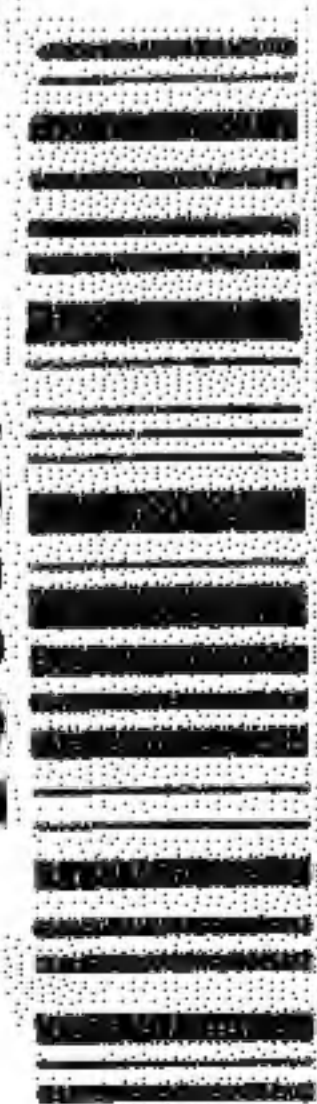
منذ ١٨٥٦

سيرار ورسيدرا

تأليف
رؤف بن عبد الله الوضوح

الطبعة الخامسة

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م



0198805

Bibliotheca Alexandrina

330



عُمان
منذ ١٨٥٦
مسيراً ومصييراً

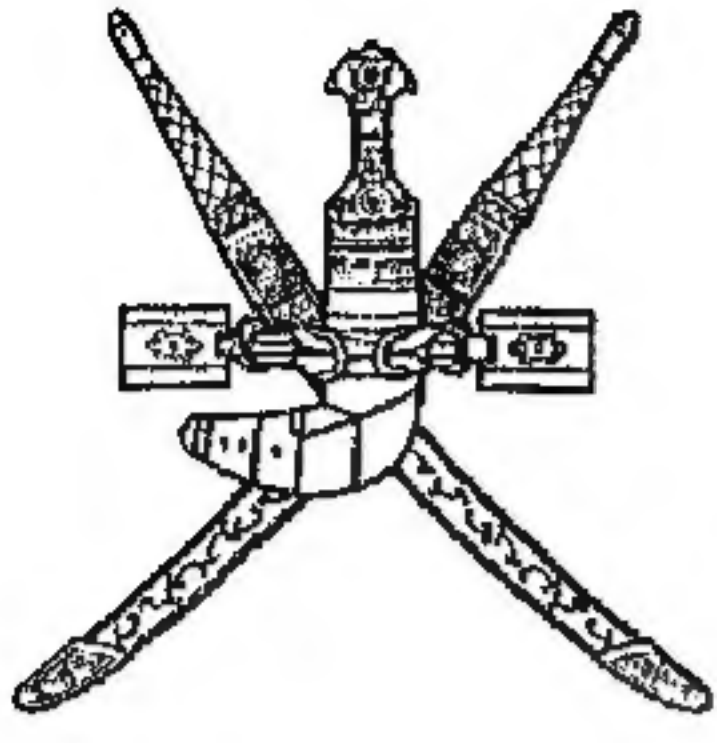
الطبعة الخامسة
١٤١٥ هـ ~ ١٩٩٤ م

اهداءات ١٩٩٨

وزارة التراث القومي والثقافة

سلطنة عمان

26136



سَلْطَنَةُ عُومَان
وِزَارَةُ التَّرَاثِ الْقَوْمِي وَالثَّقَافَةِ

عُومَان

مِنْذ ١٨٥٦

مَسِيرًا فِي مِصْرٍ

لِسَمَةِ الْعَامَّةِ الْكَتَبَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ

نِمْوَالِص: 953.53

ك. م. ع

رَقْمُ التَّسْجِيلِ: هـ/٥٧٢٢

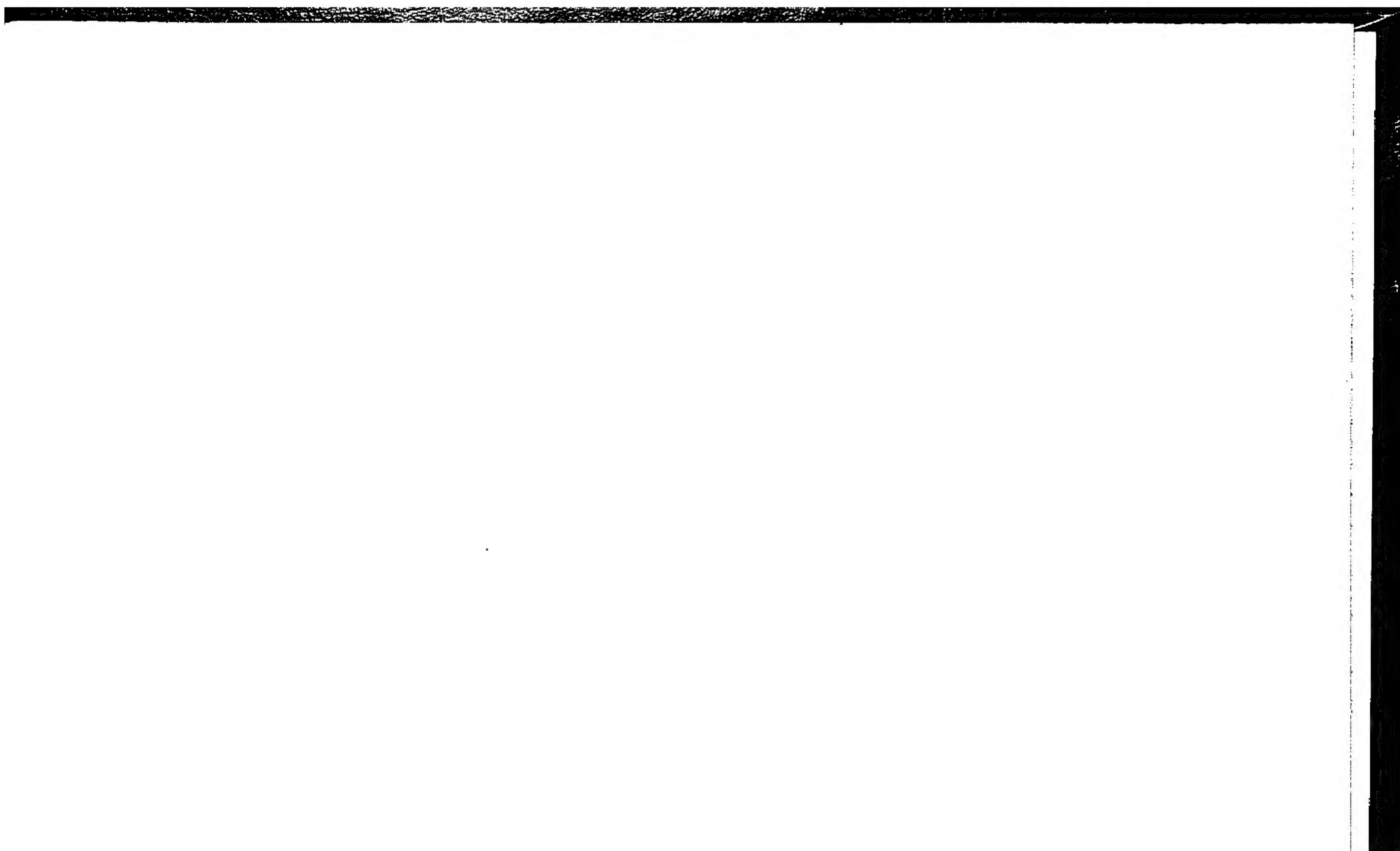
تَأَلِيفُ رُوبَرْت جِيرَان لَانْدِن

تَرْجَمَةُ مُحَمَّدٍ أَمِين عِبْدِ اللَّهِ



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

إِنَّ الْآرَاءَ وَالْمَعْلُومَاتِ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الْكِتَابِ
هِيَ عَلَى مَسْئُولِيَةِ الْمُؤَلِّفِ ، وَلَا تُعْبَرُ بِحَالٍ مِنْ
الْأَحْوَالِ عَنْ آرَاءِ حُكُومَةِ سَلْطَنَةِ عُومَان وَلَا تُتَحَمَّلُ
مَا أُنِيَّةَ مَسْئُولِيَّةٍ.



مقدمة المؤلف

بالمقارنة الى الأقاليم الأخرى في الشرق الأوسط ، لم يحظ الخليج العربي والمناطق المجاورة له الا باهتمام ضئيل من المؤرخين . . . وتتناول معظم كتاباتهم عن المنطقة ، الفترة التي تبدأ منذ الحرب العالمية الأولى . وتركز على موضوع استغلال موارد النفط في المنطقة وحسب . . . كما أن الأبحاث التاريخية التي تعالج العصر الذهبي للنشاط التجاري والملاحة في الخليج فيما بين القرن الثامن والسادس عشر وبداية الاتصالات الأوربية بالخليج فيما بين القرن السادس عشر ومطلع القرن العشرين قليلة هي الأخرى . . . أما الفترة الواقعة ما بين ١٨٥٠ و ١٩١٤ فقد اقتضت في المقام الأول وبمقدار ما اجتذبت من اهتمام المؤرخين . على نمو الوجود الأوربي وعلى الأخص البريطانى منه في المنطقة . . . وليس ثمة أى عيب في الطريقة هذه في تناولها لاحداث المنطقة ، غير أن احدى نتائج هذا النوع من الاهتمام بالشرق هي اننا نحصل على قدر يسير من المعلومات عن التاريخ القومى لشعوب الخليج في الفترة الواقعة بين أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين كما لا نحصل على معرفة نوعية ردود الفعل لتسلل المدنية الحديثة التي قلبت البيئة التقليدية للخليج رأسا على عقب .

ومن خلال الأبحاث التي قمت بها توصلت الى ان أواخر القرن التاسع عشر — وعلى الأخص بعد دخول المواصلات التلغرافية والملاحة البخارية الى الخليج ابتداء من سنة ١٨٦٢ — كانت مرحلة الأزمة التي احدثت في تراث المنطقة القديم تغييرا جذريا ، كما توصلت أيضا الى أن فهمنا لهذه الثورة المجهولة . قد يساعدنا على استنباط أبعاد المرحلة الراهنة من تاريخ الخليج ، كما قد يقنعنا بشيء واحد وهو أن عملية التحديث (*)

(*) كلمة من حدث الشيء أى جعله حديثا — من الحداثة .

في بعض المجتمعات قد تسفر عن آثار مدمرة أكثر مما تسفر عن آثار
بناءة .

وعلى أي حال فإن الخليج العربي . رغم التجانس الذي يسود
سكانه في كثير من المجالات ، منطقة ما تزال تضم أنواعا من الخصائص
المتنوعة الواضحة المعالم ، لكل منها تاريخها المميز ، وثقافتها البيئية .
ويركز هذا الكتاب على إحدى هذه الوحدات الجزئية ونعني بها عمان ،
في محاولة لتقييم الأحداث والاتجاهات التي تنفرد بها إحدى إمارات
الخليج خلال تلك الفترة الحاسمة التي استهدف فيها مجتمعها القبلي
ونشاطها الملاحي القديم لتغييرات كان شعبها أعجز من أن يستوعبها أو
يسيطر عليها . ولقد نذرت نفسي لا لمجرد اعطاء صورة حقيقية عن ذلك
الانقلاب ، وحسب . بل لتفسير الأحداث التي وقعت في عمان بعد عام
١٨٦٢ بالشكل الذي وقعت فيه . وبالرغم من تكريس الاهتمام على الفترة
الواقعة فيما بين ١٨٦٢ و ١٩٠٣ . عندما بدأت المنطقة تستوعب الحقائق
الاقتصادية والدولية ، والداخلية والسياسية الجديدة فإن الفصول الختامية
من الكتاب تتناول فترة القرن العشرين من تاريخ عمان حتى أوائل
الستينات منه . ومن الممتع حقا أن نلاحظ أن الفترة الممتدة من سنة ١٨٦٢
حتى سنة ١٩٦٢ ، تشكل وحدة تاريخية متميزة الملامح . الأمر الذي يعود
إلى الاكتشافات البترولية التي تم التوصل إليها في سنة ١٩٦٣ استشرافا
لمرحلة جديدة في تاريخ البلاد .

إن نظرة واحدة إلى فهرس الكتاب كافية لأن تكشف لنا أن هذه
الدراسة إن هي إلا محاولة استكشافية تعتمد في المقام الأول على المؤلفات
التاريخية العمانية ، والمراجع الرسمية وإنني لأعترف بما في هذا العمل من
قصور ، غير أنني أعلم أيضا أنه قصور لا بد منه في طبيعة العمل الذي
اضطلعت به . كما أنني أتوقع أن يخالفني الرأي كثير من الناس في بعض
تحليلاتي ، بل وفي صميم الفكرة التي يقوم عليها الكتاب . هذا أمر طبيعي

ان تاريخ الشرق الأوسط ميدان واسع والفرصة سانحة في هذه الظروف لتقديم تفسيرات متباينة عن هذا التاريخ . وسوف يسعدنى كثيرا لو حاز كتابى هذا القبول ، غير أنى سأشعر بالرضا أكثر لو أصبح هذا الكتاب حافزا لوضع مؤلفات جديدة حول المسائل التى تناولتها ، حتى ولو اختلف أصحابها معى اختلافا جوهريا فى تفسيرى للأحداث .

اننى لم أحاول أن أتناول كل الأحداث التى شهدتها المنطقة من زاوية موسوعية ، بل انتقيت بعض الحقائق ، كما أن ثمة معلومات تتضمنها الخرائط والرسوم البيانية ليست من صلب البحث ، وينبغى اعتبارها جزءا لا يتجزأ من النص . أما فيما يتصل بالصعوبة الدائمة فى ترجمة الاصطلاحات العربية ، فقد انتهجت بوجه عام نهج الصيغ العربية المألوفة فى نطق أسماء الأماكن والأعلام ، مستثنيا من ذلك مسقط فلق ككتبها بالقاف بدلا من الكاف فى الانجليزية ولما لم يكن ثمة اصطلاح عربى متفق عليه للنطق ، كما هو الحال فى الواقع ، فقد لجأت الى كتابة اللفظة العربية بالحروف الانجليزية (وهو ما يسمى بالانجليزية الترجمة) (*) وان كنت لم استخدم كل الحروف وحروف العلة العربية فى كتابتها . ويضم الفهرس أسماء الشخصيات والأماكن العربية مكتوبة بالحروف الانجليزية وفقها لنطقها بالعربية . وأخيرا فقد أدخلت بعض التتقيحات على أسماء الاعلام العربية التى ظهرت فى النصوص والهوامش حتى تخضع لطراز واحد من الكتابة .

لقد أسهم معى فى هذا الكتاب جمع غفير من الرجال والمنظمات ، وعلى حين اعتبر نفسى المسؤول عما فى الكتاب من أخطاء ، فانى أعترف بأن الفضل فى انجازه يعود الى المساعدات والارشادات الكثيرة التى قدمت الى ، وعلى الأخص من أساتذتى وعلى رأسهم الآنسة ميرى بويل والأنسة

(*) العبارة بين الهالين للمترجم .

روث ايل والسيد جون ماكنيلى والسيد روبرت كلمان أساتذتى بمعهد
وانترتون فى ولاية ماسوشوسيت الذين كان لهم تأثير على مؤلفاتى يفوق
ما تصورته يوم كنت أجلس طالبا فى المعهد . كما أدين بالشكر للاستاذين
دوجلاس ادير وآر بروس ماكولى اللذين تلقيت على أيديهما دراسة التاريخ
فى كلية (وليم وميرى) وكان لهما الفضل فى تلقينى حب النظام والتفكير ،
اللذين يظهران فى مؤلفاتى .. أما البروفيسور جورج حورانى ، الأستاذ فى
جامعة ميتشجن فقد أطلعنى على أسرار تاريخ الشرق الأوسط والدراسات
الملاحية الشرقية .. ولقد قدر لى ان التقى بعالم أغزر اطلاعا ومعرفة
 بالمنطقة هو البرفيسور سيريل آى بلاك ، الاستاذ فى جامعة برنستون الذى
اقتراح لأول مرة ان موضوع ادخال المدنية الحديثة الى المنطقة موضوع
جدير بالدراسة ، والذى تعتبر محاضراته القيمة والمثيرة مثالا يحتذى به كل
متخرج ممتاز . كما قدم لى كل من البرفيسور تى . كويلريونج وليوس
توماس معلومات وارشادات كثيرة ومساعدات قيمة . وانى لمدين بنوع
خاص لأعضاء هيئة التدريس السابقة بكلية برنستون منهم البروفيسور
فرحات زيادة ، بجامعة واشنطن ، الذى كرس جانبا كبيرا من وقته فى فترة
كان فيها مشغولا بأعمال أخرى ، والبروفيسور آر بيلى وندر بجامعة
نيويورك الذى وضع خبرته العميقة بالشؤون العربية وارشاداته الودية
الناضجة تحت تصرفى . وغيرهم آخرون أخصهم بالشكر بما فهم
البروفيسور جورج كريج الاستاذ بجامعة ستانفورد حاليا ، وجامعة
برنستون سابقا ، والسيد أبو حاكمه الاستاذ بجامعة الاردن فى عمان
والسيد دوجلاس ماثيوز نائب مدير مكتبة لندن ، ومكتبة وزارة شؤون الهند
سابقا والسيد والسيدة الفريد فنسنت من انجلترا ، والسيد ريتشارد
شامبرز والسيد جون مانفيلد والسيدة هند أبو السعود من الجامعة
الأمريكية فى القاهرة والسيدات الثلاث اللواتى طبعن النص على الآلة
الكاتبة وهن الآنسة شارون كى مارشال والسيدة ال رن والسيدة اليس
ويموث كذلك السيد روى جريشام المشرف على مطبعة جامعة برنستون الذى

أشرف على طبع الكتاب .. كما أشكر حموى وحمساتى السيدة والسيدة
(كلارك . ف . كيزيا) اللذين اشتركا معى صيفا بطوله لانجاز هذا
الكتاب .

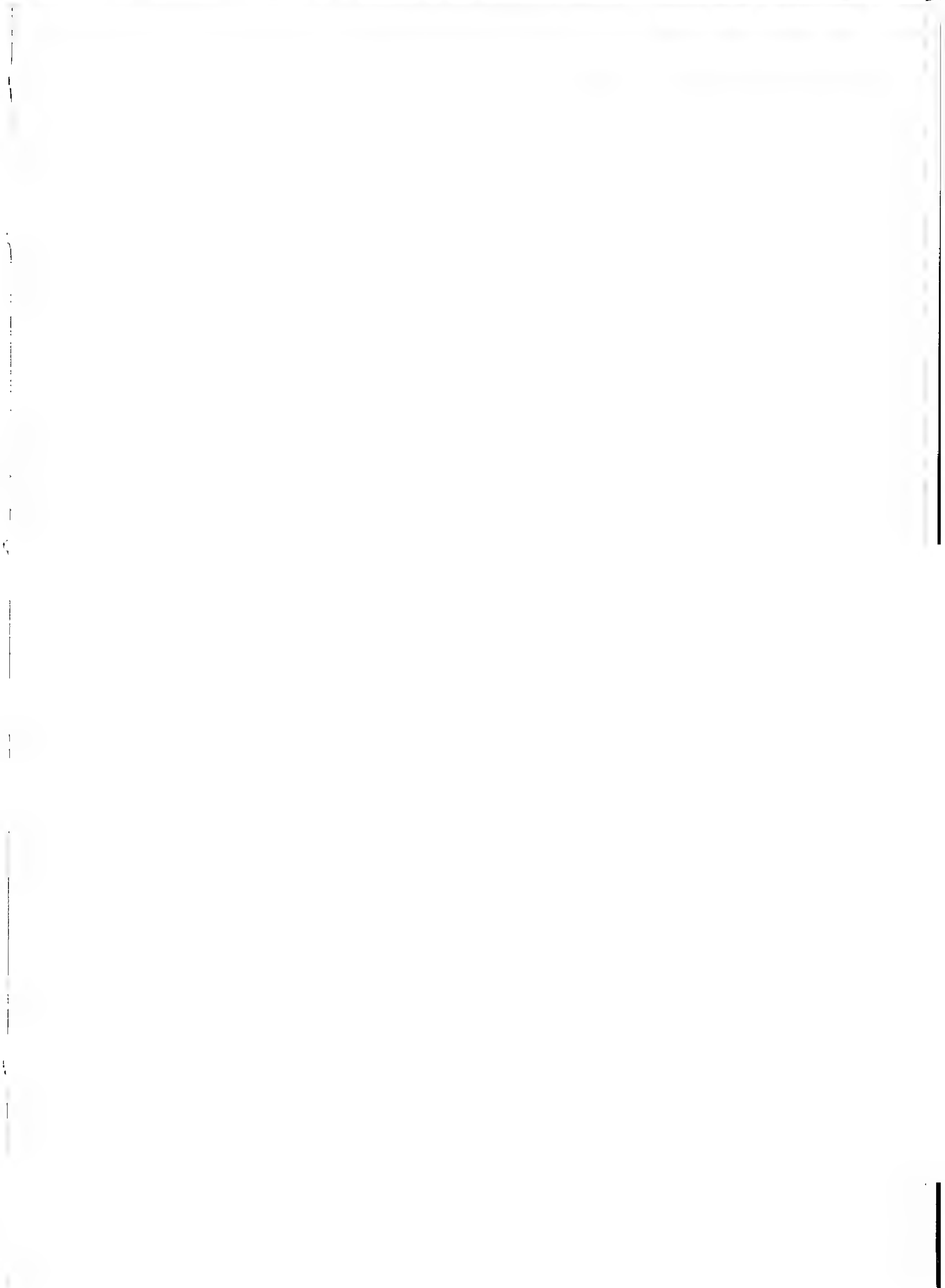
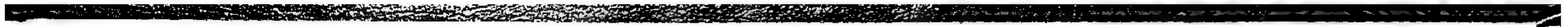
واننى مدين بالشكر أيضا لعدد من المؤسسات التى أسهمت بالتأييد
المالى وبتوفير البحوث والدراسات خلال اعداد الكتاب بما فيه جامعة
برنستون ، ومكتبة وزارة شؤون الهند ، وشركة الزيت العربية الامريكية ،
والجامعة الامريكية بالقاهرة ، ومكتب امامة عمان فى القاهرة ، والامانة
العامة لجامعة الدول العربية ، ومؤسسة فورد ، ومجلس أبحاث العلوم
الاجتماعية ، اللذين قدما لى منحة سخية للقيام بالدراسة ولتغطية نفقات
تنقلاتى فى منطقة الشرق الاوسط ، وكلية درماوث .

كذلك ازجى تقديرى وشكرى للسيد روبرت بى آر . هالر ، أستاذ
كلية اللغة الانجليزية بجامعة كاليفورنيا فى بركللى الذى قام بمراجعة الكتاب
والذى يعتبر مسؤولا عن أى خطأ لغوى فيه .. كما أشكر ميشيل وبوبى
وجل اللذين لولا وجودهم لتأخر ظهور الكتاب . أو أنه لم يظهر على
الاطلاق . وأخيرا أخص بالشكر قرينتى التى شاطرتنى الجهد فى اخراج
هذا الكتاب الى حد كتابة الملاحظات والنصوص ، كما رافقتنى فى رحلاتى
وفى الاهتمام بآرائى ومخاوفى وآمالى .

هنوفر — نيوهامفشاير

آر . جى . ال

يوليو ١٩٦٦



الجزء الأول

عُمان ووضعنا القديم في الخيلج



1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

1

الفصل الأول

الخليج قبل العصر الحديث

فيما بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر كانت عمان ، وعاصمتها مسقط ، تعد من أهم أقطار الشرق ومنطقة المحيط الهندي . وقد اكتسبت هذه الأهمية من النشاط التجاري والبحري للموانئ العمانية فضلا عن وضع البلاد كقوة سياسية اقليمية لها أهميتها البالغة .

ومنذ العصور الاسلامية الأولى لعبت مدينة مسقط وغيرها من العواصم البحرية التي تتناثر على ضفاف الخليج دورها كمحطات تجارية ومراكز لتوزيع البضائع وشحنها . فالخليج الذي يتوسط شبكة من الطرق البحرية التي تربط بين الهند ، وجنوب شرقي آسيا ، والشرق الاقصى ، وأفريقيا ، وأوروبا ، قد لعب دورا ضخما في التجارة الدولية وفي النشاطات الملاحية لنصف الكرة الشرقي . غير أن « العصر الذهبي » لما قبل التاريخ الحديث للخليج قد أسدل عليه الستار بظهور البرتغاليين في مياهه في مطلع القرن السادس عشر ، وبسبب ما تبع ذلك من تحول تجارة الشرق والأقطار الآسيوية مع أوروبا من الطرق التي تمر بالشرق الأوسط ، والخليج . وعلى الرغم من هذا فإن بعض الموانئ في الخليج لم تفقد أهميتها البحرية والتجارية وازدهارها حتى منتصف القرن التاسع عشر . فقد ظلت هذه الموانئ محتفظة بأهميتها الذاتية كمراكز اقليمية لنقل السلع وتوزيعها ، خدمة للتجارة مع الجزيرة العربية والعراق ، وإيران والشرق الأوسط الى جانب الأقاليم الأخرى المتاخمة للساحل الغربي للمحيط الهندي وغيرها من الأقطار في أفريقيا الشرقية وشبه القارة الهندية . ولقد كانت مدينة مسقط العمانية خلال المرحلة التي أعقبت ذلك في طليعة المدن التي تمثل أهمية تجارية وسياسية بين مدن المنطقة . وكمركز تجاري وبؤرة للنشاط

البحرى احتلت عمان وعاصمتها مسقط مكانة بارزة ورثتها من الدول التى قامت فى الخليج عبر مئات السنين •

والى سنة ١٨٣٠ كانت مسقط لا تزال محتفظة بأهميتها ، مما حدا بأحد الأوربيين الى أن يصفها على النحو التالى : « على الرغم من أن مسقط مدينة جذباء ، وليس فى مظهرها ما يوحي بالجمال ، الا أنها بحكم موقعها على مدخل مياه الخليج • تعج موانئها بالسفن القادمة من أقطار الشرق ، كما أن الحركة التجارية فيها تجسفى على طرقاتها مسحة من الحيوية • ان اجتماع كل هذه الضروريات ، ان لم نقل الكماليات ، قل أن يتحقق الا فى أجزاء قليلة من العالم » (١) •

ترد هذه التعليقات فى مؤلفات غيره من أوائل الرحالة فى معرض وصفهم لمختلف موانئ الخليج التى سبقت مسقط كمنطقة رائدة فى هذا المضمار • ان التماثل الجوهرى فى نشاط هذه الموانئ ليشير الى وجود طراز أو أسلوب يتميز بحضارة شهدها الخليج قبل القرن التاسع عشر • وهو يتمثل فى عدد من الخصائص التى ظلت سائدة رغم اختلاف الشعوب والنماذج والسياسات فى المنطقة عبر السنين • وعلى أى حال فلقد كانت أقوى العوامل التى ساعدت على الحفاظ على تلك الخصائص هى العوامل الجغرافية •

ان منطقة الخليج العربى تتألف فى الواقع من المياه العميقة والشواطئ المحيطة بخليجين : الخليج العربى الذى تحف به اليابسة من كل جانب ، وخليج عمان الذى يمتد لسانه الى داخل البحر العربى • ويؤلف هذان الخليجان كامتداد للمحيط الهندى حوضا يخترق قلب الشرق الاوسط • ويلتقى طرفهما الشمالى بسهل العراق والطرق المؤدية الى البحر الأبيض المتوسط ، بينما ينفتح طرفهما الجنوبى على سواحل المحيط الهندى وأفريقيا

(١) رحلات الى مدينة الخلفاء عبر شواطئ الخليج العربى والبحر الأبيض المتوسط •

الشرقية • ان كون الخليج ملتقى لأهم وأقدم طرق المواصلات الدولية ، وبحكم تكوينه الجغرافي كممر مائي قد ترك أثرا هائلا على تاريخ الخليج • وإذا كانت الأقدار قد قضت بوجود وحدة تاريخية قوية بين الاقطار الواقعة على ضفاف الخليج ، فمن المؤكد أيضا أن هناك اختلافات كبيرة في تفاصيل الاحداث التي شهدتها الخليج على اختلاف مناطقه ويمكن تقسيم المناطق المتاخمة للساحل الايراني وعمان الى أقسام اقليمية أربعة ، تنقسم بدورها الى وحدات أخرى محددة ولكنها أصغر • أما التقسيمات الأربعة الرئيسية فهي :

١ — البلدان المتاخمة للحدود الشمالية ، حيث تلتقى أنهار ثلاثة هي دجلة والفرات وقارون وهي تصب في مياه شط العرب ، وهذه المنطقة الجنوبية من العراق بالإضافة الى مقاطعة خوزستان الايرانية ، منطقة زراعية خصبة ، يعتمد عليها عدد كبير من سكان هذه البلدان •

٢ — الساحل الايراني من الخليج ، وخليج عمان ، والجزر القريبة من شواطئهما • وهي مناطق غير مأهولة ، وتمتد خلفها سلسلة جبال زاكروس التي تكثر فيها النتوءات وتتخللها الممرات التي تربط الساحل الايراني للخليج بالمنطقة الداخلية الخصبة والكثيفة السكان نسبيا •

٣ — السهل الشرقي الاجدب من شبه الجزيرة العربية ، ويمتد من الكويت جنوبا عبر شبه جزيرة قطر ، ويضم ساحل الصلح الذي تتناثر حوله كثير من الخلجان ، وهذا الجانب من الخليج تحيط به سلسلة من الجزر التي تبعد كثيرا عن الساحل ، أغلبها غير ذي أهمية ، ولكنه يشمل جزيرة البحرين الهامة وعددا من حقول النفط الحديثة •

٤ — الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية ، أو عمان • وهي بلاد تؤلف جزءا من شبه الجزيرة العربية ، الا أنها تحتفظ بطابع خاص ، ويحدها البحر من الجهة الأخرى •

ان مياه خليج عمان والخليج العربى تشكل عاملا من أقوى عوامل الوحدة بين سكان التقسيمات الاربعة للخليج • وثمة عامل آخر يعزز من هذه الوحدة • وهو أن جميع هذه التقسيمات مناطق ساحلية ، وأنها — باستثناء جنوب العراق وخوزستان — مناطق معزولة عن مراكز الحضارة فى العالم • فسلاسل جبال ايران والصحارى فى الجزيرة العربية تحد من سهولة الاتصال فيما بين المناطق الداخلية والمناطق الساحلية من الخليج • كذلك فان هذه المناطق الساحلية تشترك معا فى نوعية المناخ العام ، ونوعية مصادر الثروة ، والعوائق الطبيعية •

الحضارة التقليدية فى الخليج

ان من الخطأ طبعا أن نعالج مجتمع ما قبل العصر الحديث وتاريخه كشيء لا يتغير • فالتغيير صفة لازمت المجتمعات القديمة • كما تالزم المجتمعات الحديثة وان كانت سرعة التغيير فى الماضى أبطأ منها الآن وأقل تطرفا • كذلك فمن الممكن أن تتبلور الاحداث التى تتصل بحقبة معينة من التاريخ ضمن منطقة معينة من المناطق • فى اطار ما • وفى نطاق حدود معينة • لتتخذ مسارا واحدا منظما • واذا كان هذا التفسير ينطبق على شيء ، فانما ينطبق على الخليج فى الفترة التى سبقت القرن التاسع عشر ، عندما كان التغيير يتم ببطء والاحداث تتطور بشكل عادى • وفى اطارها التقليدى • وان كان مستمرا نسبيا •

ان الاستمرارية فى تطور الاحداث احدى السمات التاريخية للخليج اعتبارا من فترة ما قبل الميلاد حتى القرن التاسع عشر • وحتى بعد ان بدأت الحياة الثقافية فى الخليج تتأثر ، بل وتتغير أيضا تحت تأثير الحضارة الاوربية الحديثة ، فان جوانب كثيرة من السمات التقليدية للحياة فيه ظلت كما هى ، حتى أواخر القرن التاسع عشر ، بل وإلى يومنا هذا •

سبق أن أشرنا الى العامل الجغرافي وأثره على تاريخ الخليج ، خصوصا موقع هذه المنطقة باعتباره ملتقى عدد من طرق المواصلات الطبيعية . كما لا بد من الإشارة الى عامل جغرافي آخر وهو ما كانت تعانيه المنطقة من فقر مدقع في العهود الماضية . فعلى الرغم من شهرة الخليج كمصدر للؤلؤ ، فقد شحت الطبيعة عليه بالموارد الأساسية وعلى الأخص المياه باعتبارها عاملا ضروريا لتحقيق مستوى حضارى عال والاحتفاظ به .

ومن المعروف أن ظروف المعيشة في الخليج قاسية الى حد كبير . وبالتالي فقد كان من العسير على شعوبه أن ترتفع بمعيشتها عن مستوى الكفاف ، الا بجهد كبير وبشيء من الحظ . ومن هنا كان التنافس على موارد الرزق المتاحة ووسائل المعيشة حادا ، مما كان سببا رئيسيا في العنف الذي طبع تاريخ الخليج حتى عهوده الأخيرة . فلقد كانت القرصنة من الحرف العادية « المشروعة » ووسيلة مقبولة الى حد ما من وسائل المعيشة ، وسبيلا الى تحقيق منافع سياسية واقتصادية في أجزاء معينة من المنطقة ، بل قد يجوز أن نصف القرصنة بأنها كانت تعبيرا عن الصراع بين الذين يملكون والذين لا يملكون ، أكثر من كونها عيبا قطريا في النسيج الأخلاقي لأهل الخليج . ونحن غالبا ما نصادف مثل هذا التفسير في كتابات الاوربيين من جيل القرن التاسع عشر المؤيد للاستعمار (٢) .

(٢) « القرصنة والسياسة في منطقة الملايو » (طبعة ملبورن ١٩٦٣) ص ١ — ٢٠ ، تأليف آن تارلنج . ويناقتش بشكل متميز طبيعة القرصنة التي كانت منتشرة في دول الملايو والتي كانت تتشابه الى حد كبير مع القرصنة السائدة في الخليج العربى قبل منتصف القرن التاسع عشر . ويشير تارلنج الى ان التركيب السياسى والاقتصادى والاجتماعى لدول الملايو قد اوجد حالة كانت فيها أعمال العنف في البر والبحر — وهى أعمال تعتبر في نظر الاوربيين قرصنة ، من الوسائل المشروعة لتغيير الأوضاع السائدة كما كانت أداة عند بعض المجموعات لتحقيق أغراض سياسية وتجارية ولدعم مركزها . كما لم تكن هذه الاعمال تعبيرا عن سوء خلق أو اطماع فحسب كما يحذر المؤلف من مغبة تطبيق المقاييس الغربية الحديثة للقانون الدولى والقواعد الأخلاقية على الأوضاع الخضرارية للدول الافريقية الاسيوية القديمة .

وهناك عدد كبير من الامارات قد ظهر الى الوجود كنتيجة لعمل ناجح قام به بعض القراصنة وقطاع الطرق الذين تحولوا بمضى الوقت الى بنساة دول .

أما العامل الآخر الذى طبع الحضارة القديمة فى الخليج فهو استمرار أهميته كمركز من مراكز التجارة والنشاط الملاحي فى العالم . فبالرغم من فقر الخليج فهو يتمتع بموقع استراتيجى هام فيما كان يعتبر قديما خطا من خطوط المواصلات الدولية التى كانت تنتقل عن طريقها الافكار والمصالح التجارية فيما بين حضارات ما قبل العصر الحديث .

أما خطوط المواصلات الدولية المنافسة يومئذ فى « الدوران حول افريقيا » (وهو طريق لم يبدأ استخدامه الا قبيل نهاية القرن الخامس عشر) ، وطريق البحر الأحمر — السويس ، طريق ايران ، وطريق بحر قزوين — البحر الأسود ، ثم طريق آسيا الوسطى عبر بحر قزوين ونهر الفولجا . ولقد كان لكل طريق من هذه الطرق حظه من الاهمية النجاح ، كما أن عددا من الامبراطوريات قد ارتبط قيامها بازدهار هذه الطرق وتدهورها أو بعثها . كذلك فقد كان لكل طريق أسلوبه الخاص فى تنظيم التجارة التى كانت تمر منه . أما فيما يختص بالخليج فقد نشأت على ضفافه سلسلة من الدول البحرية التى أسهمت فى خدمة الحركة الملاحية التى كانت تمر عبر موانئها ، وفى الاستفادة من تلك الحركة وحمايتها . كما كانت هذه الموانئ تستقبل قوافل سفن البضائع والركاب التى كانت ترتاد سواحل الخليج والمحيط الهندى ، هذا فضلا عما كانت تقوم به من النشاط فى عمليات صيد اللؤلؤ والأسماك . وبوجه عام لم يكن فى مقدور أى فئة من سكان الخليج ، أن تحقق لمنطقتها قسطا من الازدهار ، الا بجهود بالغ من النشاط التجارى والملاحى ، وبالتالي كان رخاء كل منطقة يعتمد اعتمادا كليا على موضوع توفير الأعمال للسفن والملاحين . ونظرا لأهمية الخليج التجارية والملاحية فقد تركز معظم النشاط السياسى والاقتصادى

والاجتماعى للمنطقة فى الدول الساحلية وفى موانئها • وكانت هذه الموانئ تتمتع بالاستقلال على أساس الأمر الواقع • كما كانت تمثل مراكز التجمع التجارى بالنسبة لمنتجات المنطقة وحسب ، بل وبوجه أهم ، بالنسبة لما كان يرد من الأقطار الأخرى ويمر عن طريقها الى جهات أخرى خارج المنطقة • ولقد نشأت معظم الدول الساحلية فى الخليج من أساس قبلى ، بحيث كان من المتعذر التمييز بين الحكومة القبلية والحكومة المدنية أو بين الأهداف السياسية فى المدن الصغيرة • وكان من المألوف فى الموانئ الصغيرة أن يجمع الحاكم بين سلطة شيخ وحاكم المنطقة أو سلطة رئيس وحاكم الميناء • وعلى أى حال فبحكم نمو هذه المدن وازدياد قوتها كانت الروابط القبلية تفقد الكثير من تأثيرها ، كما قد يحدث أن تلجأ المدن عند الحاجة الى الحكام الذين يرتبطون بروابط قبلية ضعيفة • وحتى فى حالة وجود نوع من الروابط السياسية بين مدن لها أهميتها التجارية والسياسية والمناطق القبلية المتاخمة لها ، فإن المدن عادة تؤثر مصالحها المدنية الخاصة على مصالح المناطق القبلية •

ونظرا لأن المدن عادة تنتهج سياسة مرنة فى علاقاتها بالقوى القبلية ، فقد كان هذا يتيح لها أن تسيطر على الحياة التجارية ، وفى أغلب الأحيان على الحياة السياسية للمنطقة بأسرها • وكانت هذه السيطرة تتحقق عن طريق المناورات الاقتصادية • الا أن الاحتفاظ بها كان يتم عن طريق القوة البحرية واقامة الحاميات العسكرية فى النقاط الاستراتيجية • غير أن الادارة السياسية فى الخليج كانت بالأحرى ضعيفة • وبالتالى لم يكن فى وسع المدن أن تحول دون قيام مدن أخرى منافسة ، أو تقوم بتهدة بعض المناطق القبلية النائرة • وكان التنافس فيما بين المدن نفسها حادا وقاسيا ، وهذا ما يدل عليه تاريخ دولة قيس وهرمز ، وسيراف • فالقلاقل السياسية المستمرة • والحروب بين مدينة وأخرى ، أو بين مجموعة من المدن الى جانب النزاعات القبلية ذات الطابع الملاحى ، ثم الغارات التى كانت طابع الحياة فى كل شبر من أرض الجزيرة العربية ، فيما قبل العصر الحديث

كلها تزحم تاريخ الدول التجارية التي قامت في الخليج على اختلافها .
وكان المراقبون الغربيون غالبا ما يخلطون بين هذه الثورات وعمليات
القرصنة البسيطة في الخليج . بيد أنه حتى في الموانئ الصغيرة كانت
الحياة تختلف في كثير من جوانبها وبشكل ملحوظ ، عنها في المناطق الريفية
أو القبلية .

ان العناصر الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، بل والعناصر
السياسية في الموانئ الكبرى ، التي شكلت أسس حضارة الخليج الخاصة
كان محورها النشاط التجارى والملاحى . فمعظم مدن الخليج كانت تعتمد
على صيد اللؤلؤ في اقتصادها ، وكان اللؤلؤ مصدر دخلها وبالتالي مصدر
رخائها وسبب بقاءها . ومن هنا كانت حماية التجارة والتجار المهمة الرئيسية
لكل دولة . أما في المدن الكبيرة ، فقد كانت الواردات التجارية من
الضرائب الجمركية وغيرها تنفق على المنشآت العسكرية والبحرية ، أو تدفع
كرشاوى ، أو معونة لبعض الحلفاء أو لكسب عدو يهددها . ومع
نضوب موارد دولة ما كانت تتضاءل قوة تلك الدولة بسرعة . يما أن ضعف
وسائل الدفاع عند أى دولة من تلك الدول كان يغرى الآخرين بالاغارة
عليها ، كما يتيح الفرصة لدولة أخرى في المنطقة أن تستولى على المصالح
التجارية والسياسية للدولة المتدهورة .

لقد كان تركيب المجتمع في الخليج ، اذا استثنينا بعض المناطق
الساحلية ، تركيبا قبليا . فقد كان للمجموعات القبلية والريفية اليد الطولى ،
وكانت تمارس حياتها وفقا لقيم معينة . وعلى أى حال كان هناك قسم
كبير من القبائل الساحلية تتقن حرف ثابتة وتشغل مناطق تكاد أن تكون
محدودة . وفي بعض الأحيان كان يقوم نوع من الوئام السياسى فيما بين
القبائل المتاخمة لاحد الموانئ . كما كانت هناك علاقات تكافل بين الموانئ
الساحلية والقبائل المتاخمة لها . أما سكان المدن فكانوا يتألفون في الغالب
من الجماعات التي كانت تهاجر من المناطق المجاورة لها . كما كان يحدث

أن ينتقل بعض سكان الريف للعمل مؤقتا في المدن • وبالعكس كان رخاء المدن يتسلك الى الأرياف حيث تقوم المدن بتوفير الخدمات والسلع للمناطق الريفية • وكان يحدث أن يمارس حاكم المدينة سلطة اسمية على القبائل القريبة من مدينته اذا كانت المدينة كبيرة وعلى جانب من القوة ، غير أن مثل هذه السلطة لم تكن سلطة مطلقة كالتي يمارسها النحاكم على المدينة نفسها • أما القبائل التي تقيم في المناطق الريفية ، أو بعيدا عن المؤثرات الثقافية للموانئ فقد كانت أكثر اكتفاء ذاتيا من تلك التي تقع على الساحل ، وأكثر بعدا عن متناول نفوذ المدينة •

كانت القبائل الريفية تتألف في الدرجة الأولى من بدو الصحراء الذين يمكن في بعض الاحيان أن يثيروا مشكلة كبيرة من مشاكل الأمن بالنسبة للمدن الساحلية •

تاريخ الخليج قبل القرن التاسع عشر

خلال مرحلة الازدهار التي شهدتها عمان وعاصمتها مسقط — أي منذ النصف الأخير للقرن السابع عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر ظلت البلاد تتطور ضمن الخطوط التي أشرنا اليها آنفا • ولم يبدأ التفكك في أوضاع البلاد الا بعد أن ثبت البريطانيون أقدامهم في المنطقة • أما ان عمان قد ورثت خلال أعوامها المجيدة ، عادات وتقاليد وعيوب الدول التي سبقتها في زعامة المنطقة ، فيمكن تصوره من خلال اللقاء نظرة على تاريخ الخليج قبل القرن التاسع عشر ^(٣) ان وراء الخليج تاريخا عريقا • ومن المحتمل ، على

(٣) يتضمن كتاب « اى . تى ويلسون » الخليج العربى معلومات قيمة عامة ومفيدة تكشف عن جوانب كثيرة من تاريخ الخليج في الفترة الواقعة قبل القرن التاسع عشر . و « الملاحون العرب في المحيط الهندي خلال وفي أوائل العصور الوسطى » ، تأليف جى . اف . حوراني (طبعة برنستون ١٩٥١) =

سبيل المثال ، أن يكون الانسان قد أطلق الطلقة الأولى في مضمار التجارة البحرية على صفحة مياهه ، ومما لا يتطرق الشك اليه أن الخليج قد استخدم كطريق مائي منذ آلاف السنين . والأدلة غير متوفرة عن تلك الفترة التي سبقت العصور الاغريقية ، مما يحول دون كتابة بحث موثوق به عن التاريخ القديم للمنطقة ، غير أن عمليات الحفر التي أجريت في الحسا قد كشفت عن وجود حضارة ملاحية لا يقل عمرها عن ستة آلاف عام . وفضلا عن ذلك فإن علماء الآثار ^(٤) ، على ما يبدو ، قد وفقوا الى اكتشاف علاقة بين المدن التي قامت على ضفاف نهر الاندس عبر الطريق المائي الذي يخترق خليج عمان والخليج العربي . ولا يعرف على وجه التأكيد متى احتل العرب شواطئ الخليج ، ولكن يبدو أنهم جاءوا الى المنطقة كغزاة انطلقوا من بطن الجزيرة العربية وراحوا يطاردون سكانه الأصليين حتى سفوح الجبال الداخلية في عمان وظفار ، حيث لا يزالون يعيشون في هذه المناطق حتى اليوم . ثم زحف العرب على الخليج فأقاموا في جزره واحتلوا معظم سواحله الايرانية ^(٥) ومنذ ذلك الحين ظل الخليج يستقبل أفواجا لاتقطع من القادمين اليه عن طريق البحر أو عبر الصحراء ، غزاة أو نازحين ، أو تجارا أو عبيدا . وعلى الرغم من أن سكان الخليج شعب خليط ، إلا أن العنصر العربي كان له التفوق دائما ، وظلت الثقافة العربية هي الثقافة السائدة منذ أن وطئ العرب أرض الخليج .

= و « التقويم الجغرافي للخليج — عمان واواسط الجزيرة (طبعة كلكتا ١٩٠٨ — ١٩١٥) و « بحر فارس » ، تأليف سي أف بكنجهام مجلد ٢ فصل ١ ص ٩٢٧ — ٩٢٩ و « الانسان قديما وحديثا في جنوب غربي الجزيرة العربية » ، تأليف دبليو . أج . فيلد وفيه بحث وجيز وفهرس مفصل عن سلالات سكان المنطقة وتاريخها كما ساهم جي . دي . بيرسون بفهرس مفصل يتناول دراسة الخليج بعنوان « الفهرس الاسلامي » ١٩٠٦ — ١٩٥٥ (طبعة كامبردج ، ١٩٥٨) وملحقه ١٩٥٦ — ١٩٦٠ (طبعة كامبردج ١٩٦٢) .

(٤) حضارة نهر الاندس (طبعة كامبردج) ص ٦٠ و ٩٣ ، تأليف أم . ويلر . و « سواحل الجزيرة العربية » (طبعة نيوهافن ١٩٣٢) ، تأليف آر دوجرتي .

(٥) « الازد » ، تأليف جي سترنزيوك مجلد ٢ فصل ١ ص ٨١٢ .

وحتى خلال العصور الأولى كانت ثروات الخليج ، على ما يبدو ، شئ
التي تتحكم في الاتجاهات الرئيسية لتاريخ هذه المنطقة • وتكشف المعلومات
الحديثة عن القرن الأول بعد الميلاد ، انه عندما كانت الامبراطوريات الكبرى
في أوروبا وآسيا في أوج ازدهارها ، كان الملاحون العرب ينشطون كوسطاء
تجارين بين الشرق والغرب ^(٦) ، وفي عهد الرومان كان الغربيون يفضلون
ارتداد طريق البحر الأحمر على طريق الخليج في رحلاتهم الى الهند ، لأن
رأس الخليج ، وهو العراق كان في قبضة الامبراطوريات الفارسية من
البارثيين وخلفائهم الساسانيين خصوم الرومان • أما الفرس كشعب يسكن
المنطقة الداخلية فكانوا يفضلون طريق القوافل البرى عبر ايران أما الخليج
العربى فانه لم يصبح طريقا تجاريا رئيسيا حتى العصر الاسلامى ، حين
أخذ الملاحون العرب من سكان المنطقة يستخدمون شتى نواحي نشاطهم
الملاحى ، كصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ •

« العصر الذهبى » تعتبر الفترة الواقعة بين سنة ٧٥٠ وسنة ١٥٠٧
بعد الميلاد الفترة المجيدة في تاريخ الخليج أو ما يطلق عليه بالعصر الذهبى ،
غير أن بريق هذا الذهب أخذ يخبو منذ أول القرن الحادى عشر عندما
تحولت الحركة الملاحية من طريق الخليج الى طريق برزخ البحر الأحمر
السويس باعتباره المعبر الرئيسى للتجارة بين الشرق والمغرب • وأيا كان
فمما لا شك فيه ان أكثر المراحل ازدهارا في تاريخ الخليج ، اذا استثنينا
الازدهار الحالى الناتج عن تدفق النفط ، هى الفترة التى تبدأ بالخلافة
العباسية وتنتهى بسقوط دولة هرمز في أيدي البرتغال •

غير أن ظهور الاسلام في القرن السابع عشر وما تبعه بعد مضى قرن
ونصف من قيام الخلافة العباسية سنة ٧٥٠ بعد الميلاد يعتبر بداية العصر

(٦) « ارض اللبان والمر في الجنوب العربى » مجلة الجمعية الشرقية -
الأمريكية (١٩٥٨) ص ١٤٧ - ١٥١ و « روما فيما وراء الحدود الامبراطورية » ،
تأليف أم . ويلر (طبعة لندن ١٩٥٤) فصل ٣ •

الذهبي للمنطقة • ومع قيام امبراطورية اسلامية مترامية الأطراف تضم كل منطقة جنوب غربى آسيا وتمتد من سواحل المحيط الأطلسى حتى ضفاف الاندس ثم ما تبع ذلك من اقامة جهاز سياسى مركزى عاصمته المركزية بغداد — لتوجيه هذه الامبراطورية وادارتها ، أصبحت الظروف ملائمة لى تزدهر الحياة فى أرجاء الخليج ، يوم كانت مياهه تخرق كالسهم قلب المركز الاقتصادى والسياسى والثقافى للعالم الاسلامى • وفضلا عن ذلك فانه فى الوقت الذى كانت الامبراطورية الاسلامية العالمية بزعامه الخلفاء العباسيين فى أوج عظمتها ، كان هناك الى جانبها دول قوية أخرى فى مناطق مختلفة من مراكز الحضارة فى العالم •

ففى الصين كانت أسرة تانج قد استعادت نفوذها فى البلاد ، كما استطاعت الامبراطورية البيزنطية اعادة تحقيق الازدهار فى الجزء الشمالى الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، بينما استطاعت أوروبا الغربية بقيادة الملوك الكارولينجيين أن تتخلص من الفوضى التى أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية • أما بغداد فبالاضافة الى كونها قلب النشاط الاقتصادى وعاصمة الامبراطورية ، فقد كانت تقع مباشرة عند ملتقى طرق رئيسية تربط بين مراكز هذه الحضارة كلها •

ولما كانت الطرق البرية بين غرب وجنوب شرقى آسيا ذات امكانيات محدودة ، فان نمو واتساع النشاط الاقتصادى للعالم خلال القرن الثامن عشر استوجب استخدام الطرق البحرية ولما لم يكن طريق الدوران حول افريقيا قد بدأ فى الاستعمال حتى ذلك الوقت ، انحصر الخيار بين طريقى البحر الأحمر والخليج العربى باعتباره الحلقة الرئيسية للتجارة البحرية التى كانت تتحرك عبر منطقة غربى آسيا • وطبيعى أن استخدام أى من الطريقين المذكورين كان يتوقف الى حد كبير على امكانيات المحطات النهائية للطريق وعلى ازدهاره وأهميته السياسية — كمصر والعراق والأقاليم الواقعة فى ما وراءهما والتى كانت تتعامل معها تلك الأقطار • وكانت مصر

وهى فى أوج عظمتها تخضع للعباسيين • وكانت تجارتها مع البلاد الأوربية والممالك البيزنطية قد انخفضت الى المستويات التى شهدتها العصور الرومانية • ومن ناحية أخرى كان العراق يحتل موقعا هاما فى أرجاء الامبراطورية • كما كان سكانه فى تزايد واقتصاده يسير فى طريق النمو والازدهار • لهذه الأسباب كان تفضيل طريق الخليج على طريق البحر الأحمر الذى توقف النشاط فيه نسبيا لبضعة قرون بعد سنة ٧٥٠ م (٧) •

وسجلت تجارة العراق مع الشرق الأقصى تطورا كبيرا حتى أصبح للتجار الفرس والعرب مستعمرات فى بعض المدن الصينية • وبالرغم من موقع بغداد فى صميم طرق التجارة العالمية • وازدهارها فقد كانت بعيدة عن طرق المواصلات البحرية بحيث لم تكن تصلح كمحطة بحرية للسفن الكبيرة التى كانت تبهر الى الهند وشرق آسيا • ومن هنا وقد الاختيار على مينائى البصرة والأبلة كمحطة للسفن عابرات المحيط التى كانت تتولى نقل التجارة الى الشرق • وفى البصرة كان يعاد شحن البضائع الى السفن النهرية لنقلها الى بغداد حيث كان يتم توزيعها • وكانت مناطق ساحل الخليج تخضع لسلطات بغداد ، التى كثيرا ما كانت ترسل الحملات لاضمار حركات التمرد التى كانت تنشب فى عمان والبحرين وغيرهما من الاقاليم •

أو لمطاردة القراصنة الذين كانوا يهاجمون السفن فى عرض البحر • ولعل البصرة هى الميناء التى كان يخرج منها ملاحو السندباد البحرى فى مغامراتهم • ولكن من المؤكد أيضا أن الملاحين العمانيين قد أسهموا بنشاط واغبر فى مضمار التجارة العالمية • وقد بدأت البصرة كمدينة تقع على أحد الانهار ، تفقد أهميتها كميناء عميق بسبب زحف طمى النهر على الساحل •

وقد استوجب هذا الوضع اقامة فئائر لتحذير السفن بالابتعاد عن المناطق الخطرة وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات فقد تبين أنه لابد من

(٧) الملاحون العرب • ص ٥١ — ٦١ ، تأليف حورانى •

ارساء سفن ذات غاطس عميق في بعض المناطق القريبة من الساحل الايراني ليتم عن طريقها تفريغ البضائع الى السفن الصغيرة التي يمكنها الابحار في مياه الانهار • ومن بين المواقع التي اتخذت كمحطة لنقل حمولات السفن الكبيرة الى القوارب سد رملى اطلق عليه فيما بعد ميناء سراف • وقد اجتذب تجمع السفن والحركة التجارية في هذا الموقع نشاط الحركة التجارية في الموانئ الأخرى الصغيرة على ساحل الخليج ، وبمضى الوقت حلت سراف محل البصرة كأهم مركز للتبادل التجارى والحركة الملاحية في المنطقة • ولم تكن سراف منطقة صغيرة اذ لا تزال أنقاضها موجودة حتى الآن وتمتد الى نحو ميلين داخل البحر (٨) •

وقد بقى هذا الميناء كمستودع رئيسى للبضائع في الخليج وأكبر محطة تجارية عبر الطريق البحرى الرئيسى الذى يربط بين الشرق والغرب خلال الفترة الواقعة بين عام ٩٠٠ ميلادية وسنة ١١٠٠ ميلادية كما أصبح منطقة التجميع والمنفذ الرئيسى للسلع القادمة من بلاد فارس • ويقع هذا الميناء بالقرب من احدى الثغرات في الحاجز الجبلى الذى يفصل بين داخلية ايران والبحر • ومن خلال هذا الممر كانت تتدفق شحنات الحرير الايراني من شيراز • ويرجع ذلك الى أهمية ميناء سيراف التجارية • ومن الأسباب التى كانت تغرى الناس بالاقامة في هذا المكان القاحل الشديد الحرارة هو وجود المستودعات ومناطق التخزين بجانب الارباح التى كان التجار يحصلون عليها من عمليات التبادل التقدى والتجارى •

وفي أعقاب التحول الفكرى الذى طرأ على الجو السياسى في الشرق الأوسط أخذت حالة ميناء سيراف تتدهور • فمع انهيار سلطان الخلفاء العباسيين في العراق وانتشار الفوضى السياسية • أخذ الغزاة يهاجمون سيراف من البر والبحر • كما ومن ناحية أخرى فان ظهور مصر كقوة

(٨) العراق والخليج — الاميرالية البريطانية (لندن ١٩٤٤) ص ١٥٨ •

سياسية وثقافية واقتصادية لم يساعد على تدهور حالة الميناء المذكور وحسب • بل والى تحول تدريجي في التجارة البحرية عن موانئ الخليج ، بينما كان العراق في ذلك الوقت نهبا لقتل واضطرابات سياسية عنيفة • وقد تمخضت الاوضاع في مصر عن قيام الخلافة الفاطمية هناك كقوة منافسة لدولة العباسيين في العراق • وفي القرن الحادي عشر اكتسب طريق البحر الاحمر — السويس أهمية تضارع الأهمية التي كان يحتلها الخليج في عهد ازدهار العراق — وهو الازدهار الذي انهار والدولة هناك في أوج قوتها • ومن جهة أخرى كانت مصر في ذلك الوقت تستعيد المكانة التي كانت قد بلغت أيام الرومان كوسيط للحركة الملاحية بين أوربا والأقطار الآسيوية • ولقد أسفرت الثورات والغزوات التي كانت تجتاح العراق عن تحول حركة التجارة والملاحة عن طريق البحر الأحمر — السويس كما أدى انهيار حكم العباسيين في العراق الى تدهور الأوضاع في الخليج متمثلا في ازدياد القلاقل الملاحية وضعف النشاط التجاري عبر الخليج وهو في أوج قوته ^(٩) •

حلت ميناء قيس كمستودع رئيسي لتجارة الخليج محل ميناء سيراف • وتقع قيس في منطقة تبعد نحو ١٣٠ ميلا الى الجنوب ، على جزيرة لا تبعد أكثر من عشرة أميال تقريبا عن ساحل ايران • ومع هذا فلم تحتل قيس الأهمية التي احتلها ميناء سيراف ، بسبب ظهور مصر الى الوجود واستخدام طريق البحر الاحمر — السويس • ورغم ذلك لعبت قيس دورا كبيرا كمركز رئيسي للتجمع والتوزيع للبضائع التي كانت تمر بالخليج في الفترة بين سنة ١١٠٠ وسنة ١٣٠٠ ونستدل من الآثار العضوية التي تم اكتشافها ان قيس أصغر من سيراف في المساحة ، اذ تمتد أنقاضها مسافة تربو على نصف ميل في جوف البحر ولا تعود أهمية ميناء سيراف الى أهمية العوامل الاقتصادية بقدر ما كانت ترجع الى استيلاء احدى الاسر العربية التي تنتمي الى ما يعرف الآن بساحل الصلح على الجزيرة المذكورة

(٩) الخليج العربي « فصل ٧ ، تأليف ويلسون والسيراف » تأليف

سى • هورات م ١ ف ٣ ص ٤٤٤ •

والى سيطرة أسطولها التجارى على النشاط التجارى فيها وارغام التجار على استعمال ميناء قيس بدلا من ميناء سيراف . وبفضل ما كان لقيس من أسطول بحرى فقد سيطر حكامها على الجزر والمقاطعات الكبيرة على كل من جانبى الساحلين الايرانى والعربى للخليج ، وفى سنة ١١٧٠ دانت سيراف لحكام قيس ، وبالتالي تضاءلت أهمية الميناء الأول الكبير . وبما أن قيس جزيرة فقد كان هذا العامل يسهل للأسطول مهمة الدفاع عنها وحمايتها ، كما كان سببا فى تجنبها القلاقل التى كانت تجتاح ايران فى أعقاب حكم العباسيين ، مما يسهل نقل السلع التى ترد من شيراز عن طريق هذا الميناء لبعده عن مناطق الاضطرابات التى كانت تسود داخلية ايران فى ذلك الوقت (١٠) .

غير أن ميناء قيس رغم أهميته لم يحل دون قيام قوة منافسة للحكم فيه . وفى أواخر القرن الثالث عشر برزت الى الوجود دولة هرمز التى غدت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية فى الخليج وأكبر منافس لميناء قيس . وكانت هرمز التى بدأت تأخذ دورها فى القرن الحادى عشر فى شؤون المنطقة الداخلية من ايران تحتل موقعا استراتيجيا على المضيق الذى يربط خليج عمان بالخليج العربى ويبلغ عرض هذا المضيق نحو أربعين ميلا . وكانت المياه متوفرة بكثرة فى المنطقة المحيطة بهرمز نسبيا . وكانت تنتج كمية وفيرة من المحاصيل الزراعية . غير أن الميناء نفسه لم يكن أكثر من ممر للسلع القادمة من مقاطعتى كرمان وسيجستان الايرانيتين . وقد ظلت هرمز لعدة سنوات خاضعة للأسر التى كانت تحكم فى كرمان وغيرها من عراصم ايران الداخلية كما عقد حكامها العرب علاقات زواج مع حكام دولة قيس . وقد أتاحت الاضطرابات التى اقترنت بغزو المغول لايران فى القرن الثالث عشر الفرصة لحكام هرمز ان يدخلوا تغييرات على الوضع وبالتالي أخذوا ينهجون سياسة أكثر استقلالا من ذى قبل . فعندما حاولت السلطات

(١٠) « الخليج العربى » فصل ٧ و « قيس » تأليف ام سترك مجلد ١
فصل ٢ ص ٦٤٩ — ٦٥١ .

الایرانية. فی الداخل فرض ضرائب جدیدة على سكان هرمز على سبیل المثال ، غادر هؤلاء المیناء الى قلعات ، احدى المناطق التابعة لهرمز على خلیج عمان ومن هناك أخذوا یغیرون على القوافل التجارية البحرية وهی فی طریقها الى ایران ، وبذلك أرغموا حکام کرمان على الوصول الى اتفاق معهم حتى لا یحرموا من نصیبهم من الأرباح التي كانت تدرها هذه التجارة علیهم . وأخیرا فی سنة ١٣٠٠ قرر حکام هرمز وضع حد للمتاعب الناجمة عن السیاسة العدائية التي كان حکام المنطقة الداخلية من ایران یمارسونها ضدهم . وذلك كان بنقل نشاطهم الى جزيرة صغيرة قاحلة تبعد نحو ١٥ میلا عن الساحل المواجه للموقع القديم ، حیث أنشأوا لهم مرکزا جدیدا . وهكذا أخذت التجارة تتدفق على هرمز الجديدة التي أصبحت بمضی الوقت مدینة یسكنها نحو ٤٠٠٠٠ نسمة .

غیر أن قیس كدولة هامة فی الخلیج لم تستسلم بسهولة . فقد نشبت حرب تجارية طويلة تخللتها مصادمات مسلحة ، لم تنته الا فی سنة ١٣٣٠ عندما استطاعت هرمز بزعامة ملکها الرشید طوران شاه (ویبدو أن الاسم هذا یحمل معنی مزیجا من الدم والتقالید العربية والترکیة والمغولية) أن تجرد دولة قیس من أهمیتها الى حد کبیر .

ویرجع فضل المكانة والثروة التي حققتها هرمز الجديدة لنفسها الى موقعها الاستراتيجی الذی یتحکم فی المضائق المؤدية الى المیاء الداخلية للخلیج ، مما أتاح لها أن تسهم بدور هام فی تجارة الهند مع العراق ، وإیران ، والجزيرة العربية ، ومصر أيضا . فهي تقع على مقربة من الخط الرئیسی للمواصلات بین الشرق والغرب الذی یربط مصر والهند بالاسواق النامية فی أوربا . ومن هذا المیناء كانت تخرج معظم السلع التي كانت تمر عبر ذلك الطریق الطویل . كما أدى انتصار دولة هرمز على قیس الى تحول تجارة ایران — وفی مقدمتها المنسوجات الحريرية — بالاضافة الى التجارة المحلية لمنطقة الخلیج الى میناء هرمز .

خلال العصر الذهبي (١٣٣٠ — ١٥٠٧) كان ملك هرمز يحكم البلاد اسما ، بينما كانت السلطة الفعلية في أيدي مجموعة أوليغاركية من تجار البلاد ، الذين لم يكن في مقدور الملك أن يقف ضدهم اذا أراد أن يظل ملكا وان يستمتع بامتياز الملك . وكان الخلاف بين أفراد العائلة الحاكمة مزمن ، غير أن بعض أفراد هذه الاسرة احتلوا مناصب عالية كولاية ومحافظين في بعض المناطق الخارجية . وكان مجلس الملك برئاسة الوزير هو الذي يقوم بتعيين الولاية في مناصبهم ، كما يشرف على القوات البحرية وعلى جيش من المرتزقة يربط في أنحاء البلاد ويستخدم في قمع حركات التمرد التي تقوم في المحميات بين حين وآخر . وكانت هرمز تسيطر على ضفتي خليج عمان وعلى بعض الجزر كالبحرين وعلى عدد من الأقاليم الكبيرة . كما كانت تدفع جزية سنوية الى حكام ايران ولم يكن في هذا الاجراء ما يمس استقلالها الحقيقي وانما كان ضروريا للمحافظة على مصالحها التجارية وكانت لهرمز علاقات تجارية مع معظم المناطق التجارية الرئيسية في حوض المحيط الهندي . ولعل أهم العلاقات المذكورة علاقتها بالهند ومصر التي كانت في ذلك الوقت محور شبكة الحركة التجارية الزاحفة في عهد المماليك . ومن الأسباب التي أسهمت في تنمية الحركة التجارية بهرمز هو بعدها عن مناطق القلاقل بالإضافة الى السياسة التجارية المستقلة التي كانت تنتهجها حكومتها . حتى أن عدد المراكب في الميناء كما يقول أحد شهود الصيانة ، قد بلغ في سنة ١٥٠٣ نحو ٣٠٠ سفينة لأن نسبة الضرائب الجمركية كانت قليلة جدا . وكان أغلب البحارة من عرب عمان واليمن ، فضلا عن وجود عدد من الهنود والافريقين المخصصين للرحلات البعيدة . على أن النشاط الملاحي في مجمله لم يكن منظما تنظيما كافيا فقد كان ربابنة السفن يجرون كيف يشاؤون مدفوعين بدافع المصلحة التجارية والربح وحسب . أما الحكومة نفسها فلم يكن يتعدى دورها نطاق الاشراف على الحركة التجارية في هرمز وغيرها من الموانئ التابعة لها ، باعتبارها مناطق تجميع للبضائع ، كما كانت مهمتها توفير الحماية للتجار والسلع التي كانت تتجمع ضمن حدودها من وقت الى آخر .

ولم يكن للدولة أسطول تجارى خاص بها ، وان كان يحق للملك وأفراد أسرته اقتناء السفن التجارية ، وهى سفن يمكن تحويلها الى سفن حربية اذا اقتضت الضرورة لذلك لاستخدامها ضد كل من تسول له نفسه بتهديد وجودها كمركز تجارى هام . وكانت علاقة تجار هرمز علاقة متكافئة ولم تكن علاقة السيد بمسوده ولقد وصف أحد الرحالة ثروة هرمز فى ذلك الوقت فقال : انها ثروة خيالية وان هرمز كما تقول المؤلفات الأوربية الحديثة ، كانت رمزا حيا لثراء الشرق وازدهاره فى تلك المرحلة من التاريخ . وحتى لو كان فى هذا الوصف شئ من المبالغة ، فالذى لاشك فيه أن هرمز فى أوج ازدهارها كانت احدى الاسواق الكبرى فى آسيا (١١) .

العصر الفضى للخليج : يسجل وصول البرتغاليين الى مياه المحيط الهندى نهاية للعصر الذهبى للخليج غير أن الخليج مع ذلك ظل محتفظا بأهميته على مدى النصف الأول من القرن التاسع عشر . لقد تم طرد البرتغاليين من الخليج فى منتصف القرن السابع عشر . ولكن رغم ظهور السفن البريطانية والهولندية والفرنسية بين حين وآخر فى مياه الخليج فقد ظل تحت سيطرة شعوبه حتى أواخر القرن التاسع عشر ، عندما جاءت بريطانيا لتبدأ فرض السيطرة الأوربية على هذه المنطقة . أما خلال العصر الفضى ، فقد كانت عمان وعلى رأسها مدينة مسقط تسيطر على الخليج خصوصا من الناحية الاقتصادية .

(١١) ثمة فهرس كبير من المراجع عن هرمز أهمها طوران شاه - تاريخ ملوك هرمز وقد صدر كملحق لكتاب « رحلات بدرو تكسيرا ، ترجمة دبليو أن سنكلير (طبعة لندن ١٩٠٢) وولسون فصل ٧ ، ثم النص العربى لرحلات ابن بطوطة ترجمة واعداد سى دفريميرى وبى آر سانجونيتى (طبعة باريس ١٨٥٤) مجلد ٢ ودى بربوزا فى كتاب دورات بربوزا ، ترجمة أم ال ديبس (مترجم) (طبعة لندن ١٩١٨) ص ٤١ ، ٧٥ - ٧٩ و ٩٠ - ١٠٠ ، وهرمز تأليف آر ستوب مجلد ١ فصل ٢ ص ٣٢٥ - ٢٦ و « هرمز » ، مجلد ١٨ (١٩١٤) ص ٥٣١ - ٥٤٣ ، تأليف شوارتز و « امراء هرمز من القرن الثالث عشر حتى القرن التاسع عشر » تأليف جى اوبين - المجلة الآسيوية (١٩٥٣) ص ٧٧ - ١٣٨ و « الملاحون العرب » تأليف حورانى ص ٨٧ - ١٢٢ .

يعتبر وصول الربان فاسكو ديجاما الى الهند سنة ١٤٩٨ بداية للعصر الجديد • وبفضل الجهاز الادارى والتوجيه السياسى والاقتصادى المنظم وبفضل التطور الذى طرأ على صناعة بناء السفن والأسلحة وبدافع الحماس الدينى الصليبي اضحى البرتغاليون سادة البحار العربية فى سنة ١٥٣٠ • كما تمكنوا بفضل سلسلة من الهجمات المدمرة على النقاط الاستراتيجية فى المحيط الهندى ان يخضعوا الشرق كله لسيطرتهم • وكان الهدف من السيطرة على النقاط الاستراتيجية (بما فى ذلك هرمز) هو السيطرة على التجارة واحتكارها وبصورة خاصة تجارة السلع الكمالية • وقد طلبوا الى السفن المحلية ، بما فيها سفن عدن ، وعرب الخليج ان تحمل تصريحات من السلطات البرتغالية والا تعرضت للهجوم والمصادرة • وقد تسببت هذه السياسة بتحول الحركة التجارية من طريق المواصلات الرئيسى عبر السويس والبحر الى الطريق المهمل حتى ذلك الوقت أى ، الطريق الذى يدور حول الطرف الجنوبى للقارة الافريقية الى ساحل المحيط الاطلسى فى أوروبا • وهكذا خفت حدة النشاط التجارى عبر الشرق الاوسط وبدأت المنطقة تعاني من تدهور اقتصادى ما لبث أن تطور الى كارثة اقتصادية شاملة فى منتصف القرن السادس عشر عندما أخذت شحنات الذهب والفضة الرخيصة تتدفق على العالم الجديد لتقوض التركيب المالى للمنطقة فى ذلك الوقت •

وقد أدرك ممالك مصر ثم العثمانيون الخطر الذى تمثله محاولة البرتغاليين التحكم فى التجارة واحتكارها لمصلحتهم فقاموا بارسال بعض قطعهم الى المحيط الهندى وعقدوا تحالفا فيما بينهم لطرد البرتغاليين من المنطقة غير أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح بسبب المشاكل التنظيمية ، الأمر الذى حال بين الدول الاسلامية الكبرى وبين الاحتفاظ بقوة بحرية ضاربة فى البحار الشرقية • ان تسلل النفوذ البرتغالى وما أعقبه من احتياج الدول الغربية للشرق كان فى مقدمة العوامل التى ساعدت على ادخال الوسائل التكنيكية والآلية الى المنطقة والسيطرة على مختلف الوسائل

التي يستطيع بها الناس أن يسيطروا على بيئاتهم ومجتمعاتهم • وعلى الرغم من أن طرق المواصلات القديمة ظلت محتفظة بنشاطها ردحا من الوقت ، إلا أن السفن الأوربية بدأت في نحو سنة ١٦٢٦ أى بعد مضي نحو قرن على سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندي تقوم بنقل البضائع الى بلاد الشام ، وهى نفس البضائع التي كانوا قبل نحو مائة عام يشترونها من تلك البلاد (١٢) •

استولى البرتغاليون على هرمز سنة ١٥٠٧ إلا أنه بعد وقوع بعض الاشتباكات التي ساعدت على حماية مؤخرة الطريق الجديد الذي يستخدمه البرتغاليون ، استعاد الخليج وضعه القديم تقريبا • على الرغم من أن البرتغاليين أنشأوا القواعد والقلاع في المنطقة ، إلا أن استراتيجيتهم كانت تقوم على أساس وضع القسم الأكبر من السلطة في أيدي الحكومات المحلية لتحكم من خلالها بطريق غير مباشر وبالتالي يتجنبون كل ما كان ينفوئ عليهم الحكم المباشر من نفقات ومشاكل وتعبئة للطاقة البشرية • وعلى الرغم من التحول الذي طرأ على هرمز من دولة مستقلة الى دولة تابعة للبرتغاليين فقد ظلت محتفظة بملكها حتى القرن السادس عشر • والواقع أن العيب الوحيد في حكم البرتغال ليس في أنهم كانوا يحكمون حكما صارما بل في اهمالهم للمنطقة • فهم لم يفعلوا شيئا لتشجيع التجارة في الخليج • فعندما استولى البرتغاليون على هرمز كانت هذه المنطقة من أغنى مصادر الدخل في امبراطورية الهند البرتغالية • لكن الوضع قد تبدل في سنة ١٥٨٥ حيث انخفض الدخل الى حد كبير (١٣) • بل كادت هرمز أن تختفى من الوجود بحلول القرن السابع عشر • وليس من الانصاف أن يعزى سبب تدهور تجارة الخليج الذي بدأ في مطلع القرن الحادى عشر الى البرتغال •

(١٢) مكتب محفوظات الملك — جدول الوثائق الحكومية — السلسلة الخاصة بفينيسيا ، ٢٦/١٦٢٥ (طبعة لندن ١٩١٣) مجلد ١٩ ص ٢٨٠ •
(١٣) رحلات تكسيرا ص ٦٦/٢٦٥ •

وعلى الرغم من الحرب الخاطفة التي عمد اليها البرتغاليون واهمالهم للناحية التجارية للمنطقة فانهم لم يحاولوا احداث أى تغيير فى أسلوب الحياة فى الخليج • كما لم يتمكنوا من فرض سيطرة كاملة على تجارة الهند ، بينما لم يكن دورهم أكثر من دور السيد المهيمن • أما ادارة شؤون المنطقة فقد تركوه لأهلها ، ولم يتدخلوا فى تقاليد البلاد أو أنظمتها طالما لم تكن هذه تتعارض مع السلطة البرتغالية تعارضا سافرا ، أو تمس المصالح الملاحية أو الاحتكارات التجارية الأوربية • وحتى هذه السيطرة الضعيفة بدأت تواجه تحديات جديدة فى مطلع القرن السابع عشر ازاء تدهور السيطرة البرتغالية على السواحل الشرقية تدهورا ملحوظا • وقد اتضح من ذلك ان فرض سيطرة احتكارية على منطقة واسعة كالمحيط الهندى مهمة عسيرة على دولة صغيرة ذات امكانيات محدودة • والواقع أن البرتغال نفسها أصبحت مجرد مقاطعة من المقاطعات الأسبانية بعد أن تربع على عرشها الملك فيلب الثانى حيث أهملت الامبراطورية البرتغالية فى الشرق وتركز الاهتمام على المستعمرات الأسبانية فى أمريكا (١٤) •

وفى مطلع القرن السابع عشر بدأت السفن البريطانية والهولندية تتدخل فى مناطق النفوذ البرتغالية الضعيفة فى المحيط الهندى ، مما أدى الى نشوب صراع بين الدول فى سبيل السيطرة على المنطقة وفى سنة ١٦٢٢ طرد البرتغاليون نهائيا من هرمز بالتعاون بين قوات شاه عباس الصفوى حاكم ايران والانجليز • غير أن فجر السيطرة الاوربية على الخليج لم يكن ليحل بتلك السرعة فقد ظل النشاط الملاحى لسكان الخليج مستمرا حتى فى عهد البرتغاليين • كما أخذ الملاحون العرب يثبتون وجودهم بصورة متزايدة مع انحسار النفوذ البرتغالى • ولقد احتفظ البرتغاليون ببعض مراكزهم فى الخليج بعد طردهم من هرمز • غير أن هذه المراكز قد فقدت هى الأخرى مع مرور الوقت • وعلى أى حال فمن الجدير بنا أن نؤكد

(١٤) نفس المصدر ص ١٨ — ٢٤ و ١٦٧ — ٧٨ وابن رزيق ٢٣ و « جزر البحرين » ، تأليف أف عظيمات (طبعة نيويورك ١٩٥٥) ص ١٥ — ١٦ •

بأن هذه المراكز لم تسقط في البداية في يد الانجليز ، وانما استعادها العرب أنفسهم في القرن السابع عشر .

ومنذ سنة ١٦٤٢ حتى مطلع القرن الثامن عشر كان العمانيون في مقدمة الدول التي أسهمت في اقضاء البرتغاليين وتصفية نفوذهم ، فبعد أن أجلوا البرتغاليين عن مدينة مسقط على ساحل عمان واصلوا عملياتهم الى أن استولوا على الجزء الاكبر من افريقيا الشرقية وعلى حين اتهم الاوربيون العمانيين بممارسة القرصنة فان من الانصاف أن نقول بأن العمليات العسكرية التي قام بها العمانيون خلال الفترة المشار اليها كانت من قبيل الحروب الملاحية . وقد سيطر العمانيون على الخليج سيطرة تامة بعد خروج البرتغاليين . وفي أعقاب الستينات من القرن السابع عشر أخذ الانجليز ، والهولنديون والفرنسيون يرتادون منطقة الخليج ، كما أنشأوا لهم مراكز تجارية هنا وهناك . الا أن الغاية الأساسية من ذلك النشاط كانت تجارية أكثر منها سياسية . ولم يكن لتلك المراكز رغم تحصينها صفة سياسية أو عسكرية لأن الخليج يومئذ لم يكن مسرح الصراع بين الدول الاوربية في سبيل السيطرة على المحيط الهندي وعلى الشرق . وبالتالي لم كن يهتمهم سيطرة عمان على جزء صغير منه .

غير ان الفترة التي تألفت فيها عمان لم تكن فترة متصلة فقد كان يتخللها من وقت لآخر تحديات من جانب الحكام المناوئين لها . ففي خلال القرن الثامن عشر خضعت عمان مؤقتا لنادر شاه حاكم ايران وكان هذا الاحتلال جزءا من سياسة نادر شاه التوسعية وقد عرف كيف يستغل الخلافات السياسية الداخلية التي كانت تمزق عمان في ذلك الوقت . وبذلك فرض نفسه على منطقة الخليج — وبالرغم من أن عمان قد استعادت مركزها بعد وفاة نادر شاه . فقد ظلت القوى البحرية الأخرى في الخليج والموالية لكريم خان زند (١٧٧٣ — ١٧٥٠) تشكل تهديدا لعمان وعلى كل فقد كان الأسطول الفارسي في عهد كريم خان بوجه عام تحت اشراف وادارة الربابنة

العرب سكان الشاطئ الايرانى من الخليج • والواقع أن مصالح ايران في الخليج في القرن الثامن عشر كانت تتمثل في محاولات عرب ايران تأكيد زعامتهم في الخليج •

وفي منتصف القرن الثامن عشر بعد طرد القوات الايرانية من عمان انتقل مركز الثقل السياسى في عمان من المنطقة الداخلية الى ميناء مسقط التى أصبحت محطة التجميع الرئيسية واحد المراكز الاقتصادية الهامة في الخليج • وكان هذا الحدث دليلا على مسعى الزعماء العمانيين الى دفع البلاد لتبوء مركز الصدارة في مضمار التجارة على غرار ما كانت عليه هرمز وقيس •

في أواخر القرن الثامن عشر بدأت عمان ومركزها الدولى في الخليج يستهدفان لخطر جديد ليس من جانب ايران وانما من الجزيرة العربية نفسها فخلال هذه الفترة مرت الجزيرة العربية بسلسلة من التغيرات العاصفة التى لا تزال آثارها باقية حتى اليوم • ومن الأسباب التى مهدت لهذه التغيرات ظهور عدد من المجموعات الملاحية النشطة التى ماتزال موجودة حتى الآن على الساحل الغربى للخليج من الكويت حتى عمان (١٥) •

وبالرغم من أن هذه الدويلات الناشئة كانت متأثرة بتقاليدها القبلية • فقد تطورت بسرعة حتى أنها أصبحت قادرة في أواخر القرن الثامن عشر على تحدى نفوذ العمانيين على النشاط الملاحى والتجارى في الخليج • وكالعادة حين تحاول بعض القوى الجديدة تحقيق أطماع سياسية واقتصادية معينة •

(١٥) لوريير مجلد ١ وارتشيف وزارة شؤون الهند ، ويضم من المراجع سجلات حكومة الهند مجلد ١ ويعتبران من أهم المراجع الاوربية عن نشوء امارات الخليج العربى في القرن الثامن عشر أيضا « تاريخ شرقى الجزيرة العربية » تأليف أبو حاكمه (طبعة بيروت ١٩٦٥) وقد اعتمد المؤلف على المراجع العربية وحدها وتركز أهمية الكتاب في تخصصه لدراسة تاريخ الخليج استنادا الى المصادر المحلية •

نشبت حرب ملاحية بين العمانيين والقوى الأخرى المناوئة لهم • وفي الوقت الذي كانت تتطور لمصلحة عمان • ظهر عامل جديد زاد الموقف تعقيدا ونعنى به ظهور الحركة الوهابية الدينية • بتأييد السلطة المركزية في السعودية وما أن حل عام ١٨٠٠ حتى كان القسم الأكبر من شرقي شبه الجزيرة العربية قد اعتنق الدعوة الوهابية وصار من أتباعها مما أضاف بعدا أيديولوجيا ودينيا الى معترك الصراع بين عمان وعرب الخليج • ولقد شجع التأييد الوهابي القوى المناوئة لعمان وبعث الحياة فيها • وقد كادت الحرب التي نشبت نتيجة لذلك تدخل مرحلة جديدة — اذ كان من المحتمل أن تقضى على الدور القيادي لعمان • أو بالأحرى على استقلالها — عندما انعكس انفجار السياسة النابليونية في أوروبا على الاوضاع في الخليج (١٦) •

دعم السيطرة البريطانية في الخليج : في سنة ١٨٠٠ تمخضت المنافسة بين الدول الأوروبية للسيطرة على المحيط الهندي عن نشوب صراع مدمر بين بريطانيا وفرنسا • وما بين سنة ١٧٩٨ وسنة ١٨١٠ كانت هاتان الدولتان الأوربيتان تتنافسان على تأييد بعض دول آسيا الغربية ولما كانت عمان دولة بحرية واستراتيجية هامة من هذه الدول فقد سعى البريطانيون بالحاح الى كسب تأييدها • وقد نجحت بريطانيا في ذلك فعقدت معاهدة تجارية وسياسية بين بريطانيا وعمان في سنة ١٧٩٨ • الأمر الذي أسهم في درء الخطر عن الجانب الشرقي للخط البحري الذي كانت تعتمد عليه الحكومة

(١٦) للاطلاع على تاريخ السعودية القديم انظر « مذكرة الحكومة السعودية » ١٣٧٤ — ١٩٥٥ مجلد ١ و « محمد عبد الوهاب » ، تأليف جى . أس . رنتز (١٧٠٢/١٧٠٣) ١٧٩٢ ٢ و « رسالة للحصول على الدكتوراه لم تنشر وكانت بعنوان « بداية امبراطورية الموحدين » جامعة كاليفورنيا • بركلي ١٩٤٨ و « تاريخ الدولة السعودية من ١٢٣٣/١٨١٨ حتى ١٨٩١/١٣٠٨ » وهي رسالة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة برنستون ١٩٥١ • وقد نقحت وأعيد نشرها بعنوان « السعودية العربية في القرن التاسع عشر » (طبعة نيويورك ١٩٦٥) •

البريطانية الى حد كبير (١٧) . وأثناء المحاولات التي كانت تقوم بها بريطانيا لتأمين خطوط مواصلاتها تدخلت سفنها في الاشتباكات التي كانت تنشب بسبب الحروب الملاحية التي كانت تحدث سنوياً عديدة بين عمان والامارات العربية الناشئة لكن هذه الأحداث لم تكن تعنى بالنسبة للبريطانيين والاوربيين سوى أعمال سلب ونهب اعتاد عليها رجال البحر العرب . ولم يدرك البريطانيون آنئذ الأسباب الحقيقية الكامنة وراء انتشار تلك الفوضى في الخليج . وبالتالي فقد ارتكبوا خطأ فادحاً بتدخلهم في حرب ملاحية وتجارية عربية . وكانوا يغللون أسباب تلك القلاقل بأعمال القرصنة التي كان يمارسها عرب الخليج بتحريض من الوهابيين . ولهذا عمدوا الى تأييد العمانيين ودفعهم الى مهاجمة القراصنة الذين كانوا في نفس الوقت من خصوم العمانيين . وقد شن العمانيون ثلاث هجمات ضد القراصنة ما بين سنة ١٨٠٥ وسنة ١٨٢٠ . وبعد أن تم القضاء على نشاطهم الى حد كبير فرض البريطانيون رقابة مسلحة على الخليج كانت تقوم بها بعض الوحدات البحرية والبحرية التابعة لهم . وأخيراً تمكنوا من عقد معاهدة سلام بحرية « تحظر على امارات الخليج العربي اعلان الحروب على بعضها البعض بغير موافقة صريحة من السلطات البريطانية » . وقد اعتبرت اتفاقية السلم المعقودة في سنة ١٨٣٥ اجراء مؤقتاً وحسب . وعلى كل فقد ظلت هذه المعاهدة تتجدد تلقائياً حتى سنة ١٨٥٣ عندما تم التوصل الى معاهدة سلام بحرية شاملة بين بريطانيا وأغلبية المشيخات العربية . وفي منتصف القرن التاسع عشر عقدت معاهدات واتفاقيات أخرى شبيهة رسمية بين هذه الأطراف ، منحت بمقتضاها امتيازات اقليمية لرعايا الدول العربية المقيمين والمتعاملين بالتجارة في الخليج . كما شملت هذه الاتفاقيات تحديد رسوم الواردات بالاضافة الى بعض القيود التي فرضتها هذه

(١٧) لوريير مجلد ١ ص ١٦٩ — ٢١٠ و « فرنسا ومسقط في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » تأليف اوزو — استعراض لتاريخ الدبلوماسية — ٢٣ (١٩٠٩) ص ٥١٨ — ٥٤٠ .

الاتفاقيات على اشتراك الملاحين العرب في تجارة الرقيق • وبهذه الخطوات التي كان رائدها المصلحة ، سددت بريطانيا أول ضربة الى نظام الحياة في الخليج • فعلى الصعيد الرسمي أعلنت بريطانيا سياستها على أساس عدم التدخل في الشؤون الداخلية لآمارات الخليج ، بينما كانت سياستها من الناحية الفعلية سببا مباشرا في قلب مفاهيم وديناميكية الحياة التقليدية للمنطقة • واذا كانت بريطانيا قد أدخلت بعض أساليب الحياة الغربية الى سكان المنطقة ، فان هذا قد تم على حساب الأنماط السياسية التقليدية ، وفي كثير من الأحوال على حساب العلاقات التي كانت تربط بين دولها • وعلى أساس هذه الاعتبارات عدلت أو سويت أو ألغيت تماما كثير من الالتزامات التي كانت تخول لدولة من دول المنطقة السيطرة على الأخرى أو التمتع بمركز الأولوية على الدول الباقية (ومن الأهمية بمكان أن نقرر بأن الخليج كان وما زال مسرحا لتغيرات سياسة مزمنة ، وانه ما زال يحتفظ بنفس الجغرافية السياسية التي كان عليها يوم بدأ الانجليز تقويضهم لأسس الحياة التقليدية للمنطقة) •

ما بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٦٢ بدأ النشاط البريطاني في الخليج يغير من الاطار التقليدي للواقع السياسي ، وبدرجة أقل للوضع الاقتصادي والاجتماعي • وحتى سنة ١٨٦٢ كان نشاط بريطانيا في معظمه سلبيا بمعنى انه كان مقصورا على مكافحة القرصنة والنخاسة أو على منع الحروب البحرية بين دول المنطقة • وانطلاقا من الفلسفة الاستعمارية أدركت بريطانيا ان دورها في الخليج يومئذ لا ينبغي أن يتعدى دور رجل البوليس المحايد أو اللامبالي (١٨) • ولم يفتن البريطانيون الى الدور الذي كان

(١٨) لوريمر مجلد ١ و « الخليج العربي » وتقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ ، سجلات حكومة بومبي — ١٩٥٨ و « الدولة السعودية » ، تأليف وندر و « الطرق البريطانية الى الهند » (طبعة نيويورك ١٩٢٩) ، تأليف اج هوسكنز ويضم كل من هذه المراجع معلومات قيمة عن تطور النفوذ البريطاني في الخليج =

عليهم أن يضطلعوا به بنشر مزايا التقدم والحضارة بمفهومها الأوربي الا
في القرن التاسع عشر ومن هنا كانت العلاقات الاجتماعية التقليدية في
الخليج خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر لا تزال متينة وان الاطار
القديم لهذه العلاقات لم يبدأ في التفكك الا في سنة ١٨٦٢ .

= خلال أوائل القرن التاسع عشر . غير أن مرجعين آخرين هما « السياسة
البريطانية في الخليج » — ١٨١٣ — ١٨٤٣ . وهي موضوع اطروحة لم تنشر
(طبعة لندن ١٩٥٦) و « الأسس القانونية والتاريخية للوجود البريطاني في
الخليج » ، في مجلة شؤون الشرق الاوسط (طبعة لندن ١٩٥٨) ص ١١٩ .
قد يتضمنان معلومات أدق عن السلوك البريطاني في المنطقة خلال الفترة
المذكورة .

الفصل الثاني

عمان قبل القرن التاسع عشر

البلاد — أهلها — مواردها

قبل أن تتوطد السيطرة البريطانية على الخليج العربي في مطلع القرن التاسع عشر ، كانت عمان تسيطر على الشؤون الملاحية والتجارية والسياسية للخليج على امتداد فترة القرن والنصف التي سبقت ذلك • ومن المؤكد أن أهمية عمان بين دول الخليج لم تتدهور بشكل ملحوظ قبل الستينات من القرن الثامن عشر • ولما كانت الغاية من وضع هذا الكتاب هي توضيح عملية انهيار البناء القديم لنظام الحكم في عمان في أواخر القرن التاسع عشر ، فإن هذا يلزمنا تقديم بيان موجز عن أوضاع البلاد قبل العصر الحديث •

لقد ظهر في عمان في فترة مبكرة جدا من التاريخ نموذج لحضارة متميزة شهدتها منطقة الخليج فكان البحر والجبال التي تحيط بعمان والصحراء التي تخترقها تأثير أساسي على نفسية الشعب وكيفية تطوره • ومن بين الأقاليم الأربعة التي تحيط بالخليج ، تعتبر عمان من أكثرها عزلة • فالى جانب احتواء البحر لعمان من جهاتها الثلاث ، ورمال الربع الخالي من الجانب الرابع ، تكاد عمان أن تكون جزيرة • ولقد كان البحر همزة الوصل الوحيدة بين عمان والعالم الخارجى • وفضلا عن أهمية البحر كطريق دولى يربط عمان ومدنها الساحلية بالعالم الخارجى فهو مورد هام لمعيشة الجانب الأكبر من سكان البلاد • وعلى الرغم من امكان اجتياز الصحراء فانها لا تزال تشكل العائق الرئيسى الذى يحول بين عمان والاتصال المباشر بداخلية شبه الجزيرة العربية • كما ان سلاسل الجبال الشاهقة ، والوديان التى تتخلل عمان تشكل سدا منيعا يحميها من التدخلات الخارجية ، سواء كانت جيوشا غازية أو أفكارا غريبة •

ولعل لفظ عمان يعنى الموطن (Abode) أو الأرض • هذا بالرغم من ان هناك روايات أخرى تؤكد أن اللفظ مشتق من اسم رجل يدعى عمان ابن قحطان^(١) • باعتباره أول من استوطن هذه البلاد كما يقال •

وعمان في مساحة انجلترا تقريبا ومقسمة الى عدد من المقاطعات ، يعبر اسم كل منها عن موقعها أو خصائصها • وهكذا :

١ — مقاطعة الغربية تعبر عن موقع هذه المقاطعة الذي يقع في الجهة الغربية من البلاد وهي المنطقة التي تعرف في الغرب « بعمان المتصالح » أو (ساحل الصلح) •

٢ — مقاطعة الباطنة ومعناها الداخلية أو الواطية •

٣ — المقاطعة الثالثة هي مقاطعة الظاهرة ومعناها الخارجية أو البارزة ثم عمان ومعناها كما قلنا الموطن (وتسمى غالبا بعمان الداخلية ، أو الوسطى وهي التي تستمد منها المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية اسمها) ، والشرقية أي المقاطعة الواقعة في الجهة الشرقية من البلاد ، ومقاطعة جعلان التي اشتق اسمها من اسم سكانها القدامى ، أي الخنافس المائية والحجر أي المنطقة الصخرية من البلاد والتي هي عبارة عن كتل من الجبال تتألف من قسمين :

(الحجر الغربى) و (الحجر الشرقى) ، وتفصل بين سلاسل الجبال هذه منطقة وادى سمايل الذى يعتبر الطريق الرئيسى بين المنطقة الساحلية من عمان وداخلية البلاد • وهناك منطقة الجبل الأخضر الذى يعتبر مقاطعة مستقلة ولكنه جغرافيا يمثل ذلك الجزء من عمان الذى يضم أعلى قمم

(١) السالمى في الفصل الأول ص ٤ .

سلسلة جبال الحجر الغربى أى جبل وشام الذى يصل ارتفاعه الى عشرة آلاف قدم ويمكن مشاهدته من على بعد مئات الأميال من جهة البحر • وهناك مقاطعات أو مناطق أخرى تعتبر جزءا من عمان كمطقة رؤوس الجبال التى هى امتداد لسلسلة الحجر الغربى ، الذى يشكل شبه جزيرة تفصل بين خليج عمان والخليج العربى • وتمتد الى رأس مسندم • وبالإضافة الى ذلك توجد منطقتان تابعتان لعمان هما مصيره وهى جزيرة يبلغ طولها أربعين ميلا وتقع فى منطقة لا تبعد كثيرا من مقاطعة جعلان ، ومقاطعة ظفار على الساحل الجنوبى للجزيرة بالقرب من حضرموت •

وعلى حين يعتبر البحر وسيلة هامة من وسائل المواصلات بين المدن الساحلية فى عمان فإن طريق المواصلات فى داخلية عمان وعرة وشاقة • ومنذ الأزمنة القديمة كانت هناك ثلاث طرق للمواصلات فى عمان تربط ساحلها بالمقاطعات الداخلية • ومن المؤكد أن أسهل هذه الطرق وأهمها الطريق الوسط الذى يمتد من ارباض مدينة مسقط حتى وادى سمايل حيث يتفرع من هناك الى طريقين • الطريق الذى يؤدى الى الجزء الداخلى • وطريق الشرقية • أما الطريق الشمالى • ويأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية فيبدأ من ميناء صحار ومنه الى مقاطعة الظاهرة • وواحة البريمي امتدادا الى الشمالية (عمان المتصالحة) مارا بسلسلة جبال الحجر الغربى • وثمة طريق جنوبى يمتد من ميناء صور حتى مقاطعة جعلان • كما أن هناك طرقا أخرى تلتف على مدار منحدرات سلاسل جبال الحجر ، حيث تلتقى فى نهاية الطرق الثلاث الممتدة من الساحل • ومنذ وقت غير بعيد (أى فى سنة ١٩٥٥) شق طريق برى بين داخلية عمان وظفار بالإضافة الى طريق أخرى تمتد الى منطقة حقول النفط على حافة الربع الخالى • أما فى المناطق الجبلية فالطرق قليلة وضيقة وهى تتألف فى العادة من الصخور الجافة للأودية الكثيرة التى تنساب بين سفوح الجبال • ولا تزال الحمير والجمال حتى الآن وسيلة المواصلات فى أنحاء كثيرة من البلاد •

وربما كانت عمان أفضل من بقية المناطق الساحلية في الخليج من حيث وفرة المياه وغيرها من موارد الطبيعة ، غير أن مناخها ، اذا شئنا أن نكون موضوعيين في حكمنا ، قاس جدا • إذ أن الجو في مدينة مسقط في شهور الصيف أشبه بحمام تركي ، عندما ترتفع درجة الحرارة هناك الى ١٠٠ درجة فهرنهايت تصاحبها موجات من الرطوبة الساخنة • وعلى غرار المناطق القليلة الأمطار ، تعاني عادة من فترات جفاف طويلة بين حين وآخر • ويبلغ معدل هطول الأمطار في فصل الشتاء في بعض المناطق الجبلية أكثر من ١٠ بوصات ، مما يجعل زراعة بعض المرتفعات أمرا ميسورا • وأهم من ذلك ، على أي حال ، أن مياه الأمطار تتسرب الى باطن التربة فتكون مصدرا من مصادر الري الكثيرة في شكل آبار وينابيع وأفلاج (قنوات جوفية) • وعلى كل فان الزراعة الطبيعية ومناطق الرعي تكاد أن تكون نادرة في عمان باستثناء المناطق التي تتوافر فيها المياه • وزراعة النخيل هي أهم الزراعات الموجودة كما هو الحال في بقية أنحاء الخليج • كما أن البلح والسمك هما المادة الغذائية الرئيسية لسكان البلاد • ويتركز زراعة النخيل في مقاطعة الباطنة الساحلية ووادي سمائل والشرقية فضلا عن وجود مزارع أصغر حجما في كثير من الواحات • ومن الفواكه التي تنتجها عمان بكثرة فواكه المناطق شبه الاستوائية ، كالتين ، والليمون ، والمانجو ، والرمان ، والزيتون ، والجوز وهي المحصولات الزراعية التي كانت تصدر الى الأقطار الخارجية بالإضافة الى البلح • أما العنب الذي تستقطر الخمر من بعضه — بما يعارض تعاليم القرآن — فينمو في منطقة الجبل الأخضر ، ويبدو ان البرتغاليين قد استفادوا من محصول العنب العماني في صنع نوع من الخمر كانوا يسمونه مسكتل ، وهو تحريف للفظه العمانية الأصلية • كذلك تزرع الحبوب • وأهمها الحنطة أو الشعير ، أما الذرة فتزرع على نطاق ضيق غير أن الغذاء الرئيسي لسكان عمان هو الأرز الذي يستورد من الهند • وتربى الجمال التي تعتبر أجود أنواع الجمال في العالم في مقاطعتي الشرقية والباطنة وعند القبائل التي ترتاد صحراء الربع الخالي • أما الحمير والأغنام فتوجد بكثرة في المناطق الجبلية • بينما تستخدم الإثيران في أعمال

الرى فى مقاطعة الباطنة • أما الماعز فتوجد فى كل مكان من عمان • وحتى الستينات من القرن التاسع عشر كانت عمان تصدر أحسن أنواع الجياد ، رغم أن أكثرها من أصل إيراني • وفيما يتعلق بالموارد الطبيعية فهى أما أن تكون غير مستغلة أو نادرة ، هذا على الرغم من أن عمان قد اشتهرت فى الماضى بوجود مناجم للنحاس والفضة فيها • ومنذ الخمسينات من القرن التاسع عشر أصبحت عمان مسرحاً لعمليات التنقيب والبحث عن النفط • ويستدل من الحقول التجريبية التى تم حفرها فى بعض مناطق الربع الخالى على الحدود السعودية عن وجود ثلاثة حقول كبيرة للنفط بالقرب من الفهود ، وفى مقاطعة ظفار التابعة لعمان ^(٢) ويعيش على هذه الموارد سكان البلاد ويبلغ تعدادهم تعداد سكان جزيرة قبرص ، أو ما يزيد على ٥٠٠٠٠٠ نسمة وهو نفس عدد السكان ، كما جاء فى تقدير أحد المراقبين ، قبل قرن مضى • ويشكل العرب الأغلبية الساحقة من المواطنين ، الى جانب مجموعات أخرى من الأجناس هى البلوش ، والفرس والزنوج الذين يعيش معظمهم فى المناطق الساحلية • وما يزال العمانيون حتى اليوم يتناقلون قصة وفود العمانيين الأوائل الى البلاد • ويبدو أن أوائل العمانيين قد نزحوا الى عمان على موجتين كجزء من الهجرة الشاملة التى قام بها العرب الى ساحل الخليج العربى فى فترة ما قبل التاريخ • وعلى حين لا تتوفر المعلومات الأكيدة عن هجرة العمانيين الأوائل الى البلاد ، قد

(٢) المعلومات الجغرافية عن عمان ومواردها الطبيعية توجد فى أكثر من مرجع وفى المجلد الثانى من التقويم الجغرافى الذى ألفه لوريمر معالجة مستفيضة لهذا الموضوع كما تناوله أيضاً أج . هزارد فى كتابه « شرقى الجزيرة العربية » (طبعة نيوهافن ١٩٥٦) وفى كتاب « عمان والساحل الجنوبى للخليج » اعداد شركة الزيت العربية الامريكية (طبعة القاهرة ١٩٥٢) وفى « رمال العرب » تأليف الرحالة تيسيجر (طبعة نيويورك ١٩٥٣) وفى « قصة رحلة الى داخلية عمان » ، تأليف جى آر وولستد مقال فى المجلة الجغرافية الملكية ، و « سلطنة مسقط وعمان » ، مع وصف لرحلة المؤلف الى داخلية البلاد فى سنة ١٩٢٥ بقلم آل اكليس فى مجلة « جمعية آسيا الوسطى الملكية » مجلد ١٤ (١٩٢٧) ص ١٩ — ٤٢ بالاضافة الى فهرس الجزيرة العربية ويعد من انفس المراجع الذى نشرته الجمعية الجغرافية الامريكية بقلم أج . هزارد (طبعة نيوهافن ١٩٥٦) :٥١

استغرق توزيعهم عبر المنطقة فترة طويلة من الوقت • وهؤلاء ينتمون الى قبائل اليمن الجنوبية التي كانت من أوائل المستوطنين في اليمن • وكان يطلق على أوائل المهاجرين الى عمان أسماء مختلفة كاليمنيين • والازد والقحطانيين ، والهنأوية • والمعروف أن الموجة الثانية من المهاجرين جاءوا الى عمان من شمال وأواسط الجزيرة ، قبل ظهور الاسلام ببضعة قرون • وكان يطلق على الدفعة الثانية من المهاجرين أسماء عديدة منها : النزارية والقحطانيون ، وتنتمي الفئات الأخيرة من هؤلاء الى الغافرية • ولقد ظل العداء بين المجموعتين مستعرا على امتداد ألفى عام من التاريخ • أو منذ وصول الدفعة الثانية من المهاجرين الذين ما زالوا يمثلون عاملا فعالا في السياسة الداخلية للبلاد • وفي الوقت الذي يسيطر الغافرية على الشمال العربي من عمان يسيطر الهناوية على الجنوب الشرقي منها • غير أنه قد حدث تداخل ملحوظ بين المجموعتين • وبالتالي فقد لا ينطبق الحكم الذي أسلفنا اليه في كل الظروف • ان الدفعة الأولى من المهاجرين قد ارتبط أفرادها بمذهب الذات والتمسك الشديد بالصيغة الاباضية للاسلام باعتبارها أقرب المذاهب الايديولوجية « القومية » السائدة في البلاد • أما الغافرية فقد كانوا أكثر تسامحا ازاء المؤثرات الخارجية • وثمة شبهة بين المذهب الذي يدين به قسم كبير من الغافرية والمذهب السني في الاسلام • كما يلتقى البعض منهم بالمذهب الوهابي المنتشر في المملكة السعودية • وقد بدأ استخدام لفظي « هناوي » و « غافري » كتمييز بين القبيلتين الرئيسيتين في عمان منذ القرن الثامن عشر • فبعد نشوب صراع داخلي عنيف • انحاز بعض القبائل المائتين التي تسكن عمان الى الزعيمين القبليين • محمد بن ناصر من بني غافر • وقد انحازت اليه قبائل الشمال وقبائل نزار • بينما انضوت قبائل المنطقة الجنوبية تحت لواء خلف بن مبارك الهناوي زعيم الهناوية • ومنذ القرن الثامن عشر حتى الآن ظلت كل قبيلة تفخر بزعيمها • كما ظلت الهناوية والغافرية — السمتين الشعبيتين للقبيلتين •

ولقد لعبت القبيلة وسياستها دورا مؤثرا في تاريخ عمان • لأن معظم

سكان المنطقة يخضع للزعامة القبلية أو له ارتباطات قبلية • وهناك عامل آخر لتعريف القبائل العمانية ضمن انتمائها الى الأصليين الهناوى والغافرى • ونعنى به القبائل الحضرية والقبائل البدوية • فمعظم القبائل البدوية يقيم على امتداد حدود الصحراء الداخلية موزعين على مقاطعات الظاهرة وعمان الداخلية • وجعلان • أما فى المرتفعات والسواحل فالتركيب القبلى يكاد يكون مانعا فى الغالب • ويرئس المجموعة القبلية اما شيخ أو زعيم (تميمة) وفى حالة الطوارئ يمتد نفوذ الزعيم القوى الذى يتصدر قيادة أو الشيخ يصل الى مركز الزعامة من الناحية الرسمية عن طريق الانتخاب • المجموعة الى كافة المجموعات الفرعية للقبلية • وعلى الرغم من أن الزعيم أو الشيخ يصل الى مركز الزعامة من الناحية الرسمية عن طريق الانتخاب الا أنه ينتقل الى المجموعة الطليعية من العناصر الرئيسية للفرع القبلى بعد انتخابه • وقد كان لكل من القبيلتين الرئيسيتين الهناوية والغافرية امام خاص بها • غير ان هذا التقليد لم يعد يسرى منذ ان بدأ القرن التاسع عشر • ومن المؤلف ان تعتبر كل قبيلة (على اختلاف الفرع الذى تنتمى اليه • نفسها مستقلة عن القبيلة الأخرى • وان تخضع لسلطان زعيمها أو شيخها وحده • دون سواه من الشيوخ أو الزعماء • وتفتت سلطة القبيلة بهذا الشكل يحد من سلطة القبيلة • وبالتالي فان القبائل الخاضعة لامام واحد يمكنها أن تمارس نفوذا أقوى من تلك التى تفتقر الى الوحدة السياسية ، رغم كثرة عددها • وبسبب هذا التفتت داخل التشكيلات القبلية ، قل عدد القبائل التى تمارس سلطة مباشرة فى عمان • وتلجأ القبائل بتلافى هذا الوضع أحيانا الى الدخول فى سلسلة من الولاءات والاتلافات القبلية (٣) •

(٣) المعلومات التى يمكن الاعتماد عليها عن القبائل العمانية وعن الاوضاع الاجتماعية للبلاد قليلة أهمها تحفة الاعيان ، تأليف السالى جزء ١ ص ٣ و ١٥ — ٢٦ و جزء ٢ ص ١٢١ — ١٢٩ و « التقويم الجغرافى للخليج » ، تأليف لوريمر مجلد ٢ ص ١٣٨٩ — ١٣٩٠ و ١٤١٤ — ١٧ و « معلومات عن بدو عمان » ، تأليف أس بى • مايلز و « التقرير الادارى — ١٨٨٠ — ١٨٨١ ص ١٩ — ٣٤ و « بلدان الخليج و قبائلها » (طبعة لندن ١٩١٩) و « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية و « جزيرة العرب » ، جى • ونتر مجلد =

وقد ظل العمانيون حتى الآن يعيشون في بيئة قبلية ريفية • هذا على الرغم من الدور البارز الذي لعبته المدن العمانية في تاريخ المنطقة ذاتها • وفي صنع الأحداث التي شهدتها الخليج ومنطقة المحيط الهندي • فقد كانت هذه المدن تقوم بثلاث وظائف : وظيفتها كموانئ تجارية • ووظيفتها كمراكز قبلية ، ثم كأسواق تجارية أو خطوط دفاع لتلك المدن • وقد تطور بعض تلك الموانئ البحرية الى مدن هامة على غرار ما كان يحدث يومئذ في مناطق أخرى من الخليج • وتعتبر مسقط من أهم الامثلة على ذلك • فلقد احتلت مكانا بارزا بين مدن عمان بسبب مرفئها الجميل وموقعها الجغرافي • أما المدن الداخلية فيقع عادة بين عدد من الواحات • وقد أنشئت في كل مدينة من هذه المدن قلعة أو حامية تشرف على المناطق الريفية وتتحكم في مداخل المدينة • وتتولى هذه الحاميات حراسة النقاط الاستراتيجية • وخطوط المواصلات ، كما تعمل كمراكز للتجمعات القبلية • يتضح مما سبق ان عمان بلد متعدد السمات وعلى الأخص فيما يتعلق بالخصائص التي تميز سكان المناطق الساحلية عن المناطق الداخلية • وأيا كان فمن الخطأ أن نبالغ في هذا التعدد لدرجة تؤدي الى اشاعة الغموض على الظروف والمصالح التي تشد المجتمع العماني بعضه الى بعض • وحتى المراقبون اللذين يقررون بالطابع الفريد للمجتمع العماني وبأثر العوامل التي تفرق بين سكان الداخل والساحل ، لا يقللون من أهمية الروابط الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تجمع بين الشطرين • وأهم من هذا كله ان الأغلبية من العمانيين تدين بدين واحد وتنتمي الى أيديولوجية واحدة ، على الرغم من الغموض الذي يسود هذا الجانب في مجال التطبيق • ومن المؤكد ان أغلبية الرحالة الذين سجلوا انطباعاتهم وآراءهم عن المجتمع العماني لم يغفلوا ذلك التجانس والتشابه بين سكانه • الا أن الاختلافات بين المناطق الاقليمية في عمان لها

= ٢ ص ٥٣٣ — ٥٥٦ و « البدوي » ، تأليف سي . كون مجلدي ٢ و ١ ص ٨٧٣ — ٨٩٢ و « الازد » تأليف جي سترنرك مجلدي ٢ و ١ ص ٨١١ — ٨١٣ وابن رزيق ص ٥ — ١٠ .

اهميتها أيضا • فإذا ما قارنا بين المنطقتين الساحلية والداخلية من البلاد ، نرى الزراعة في المنطقة الساحلية وهي تتمثل بمزارع النخيل الواسعة التي تمتد الى مسافة ميل عبر الساحل تنتج من محاصيل البلح والفاكهة ما يزيد عن حاجة البلاد ويكفى لتصديره الى الخارج • أما الزراعة في الجزء الداخلي فقد كانت محدودة ، اذا استثنينا بعض المناطق ، ولا يزيد ما تنتجه من المحاصيل عن حاجة الاستهلاك المحلي الا في أحوال نادرة • أما من الناحية الصناعية فان الإمكانيات محدودة بالنسبة لكلتا المنطقتين • فقد كان الانتاج الصناعي في معظم الأحوال انتاجا يدويا ، في المنطقة الداخلية بينما هو اخر تطورا وانتشارا في الأجزاء الساحلية من البلاد • وربما كان للبحر تأثير كبير على مزاج أهل المنطقة الساحلية فصيد الأسماك كان ولا يزال المهنة الرابعة حتى في الأوقات التي يتدهور فيها النشاط الملاحى • وعلى الرغم من أن عمان قد فقدت كثيرا من تجارتها البحرية ، ومن أهميتها التجارية فهي ما تزال تصدر كميات كبيرة الى الخارج مما تنتجه سواحلها • فقبل الستينات من القرن التاسع عشر كان سكان المنطقة الساحلية يعتمدون على التجارة والنشاط الملاحى في معيشتهم وقد لعب كل من هذين المرفقين دورا نسبيا في تنمية الثروة القومية • أما بالنسبة للمنطقة الداخلية فقد كانت مثل هذه الحوافز مفقودة • أضف الى ذلك التقاليد الاجتماعية في الجزء الساحلى من البلاد قد تميزت بالانفتاح على المؤثرات الخارجية ، مما يتمثل بوجود عدد من العلاقات والتقاليد الهندية • لذلك فقد كان سكان الساحل أكثر تسامحا تجاه الأجانب من سكان الداخلية المنعزلين • وذلك على الرغم من وجود قاعدة مشتركة من العقيدة توحد بين كل من سكان الداخلية البلاد وساحلها • وأغلبية العمانيين أباضيون وهو المذهب الذى ظل منذ القرن السابع عشر شعار عقيدة العماني ومحور تفكيره وفلسفته — باعتباره مضمون الايديولوجية العمانية • كما لا يزال نفس المعلمين الدينيين يحظون بالتقدير والاحترام في كل من شطرى البلاد • وينسحب التنوع في خصائص المجتمع العماني على النواحي الدينية أيضا ، ولكنه تنوع لا يمس صلب الوحدة القائمة بينهما ، على الرغم من أن سكان المنطقة الساحلية أكثر

اعتدالا في ممارستهم للعقيدة الدينية من سكان الداخلية حيث العزلة والانغلاق والتزمت • وعلى العموم فقد كانت عمان الساحلية على مدى القرون أكثر استجابة للأحداث العالمية ، وأكثر استعدادا للقيام بدور فعال في تلك الأحداث ، على عكس عمان الداخلية التي آثرت العزلة والانغلاق ، والاعتماد على مواردها الداخلية الضئيلة •

وبالتالي فإن دقائق التاريخ العماني وعلى الأخص الجانب الداخلي منه ، كان تعبيرا عن التوتر المستمر بين عناصر الوحدة وعناصر التنوع ، الأمر الذي كان له أثره في توحيد أو تفريق نصفى البلاد الساحلى والداخلى ، وذلك ما سوف نعود اليه في فصول لاحقة من الكتاب •

الخلافة — التيار المحافظ — الامامة في القرون الوسطى

في القرن التاسع عشر انعكس التوتر بين المنطقة الساحلية والداخل ، أو بين الوحدة والتعدد ، بين المعتدلين والمحافظين • انعكس بوضوح في تيارين سياسيين ظلا يشغلان التاريخ العماني منذ دخول عمان في الاسلام في القرن السابع : التيار الذي تمثل في المحاولات الدائبة لاقامة مجتمع اسلامى مثالى ، محوره نظام الامامة التى كانت عمان تحكم بموجبه خلال القسم الأكبر من العصور الوسطى • والتيار المتمثل بالدور الذى كانت تقوم به عمان كعامل هام في النشاط الملاحى والتجارى في منطقة المحيط الهندى • وطبيعى الى أبعد الحدود أن يترتب على هذا الدور ظهور موقف معتدل ومتسامح تجاه شعوب العالم الأخرى • فهذان التياران كانا يلتقيان أحيانا ، ولكنهما كانا يصطدمان في أكثر الأحيان • ان معرفة السمات التقليدية للاهوت الاسلامى بالنسبة للغربيين المعاصرين ليس شرطا أساسيا لفهم التطورات الحديثة في أقطار الشرق الأوسط ، ومع ذلك فإن النظام الأساسى التقليدى يقوم على أيديولوجية وتركيب قيمي وتطلعات ظلت لقرون عديدة حافزا للفكر والعمل ضمن اطار معين • وبالتالي ، فلكى نشهم حركة التطور

الحديث في الشرق الأوسط — كحركة تتطوى قبل كل شيء على تغييرات أو اتجاهات حديثة على صعيد الأيديولوجية والتطلعات والقيم — لا بد أولاً من فهم النظام الدينى الإسلامى التقليدى (٤) .

منذ القرن السابع اقترن اسم عمان بالمذهب الإباضى فى الإسلام — وهو مذهب لم يكن يرضى بأقل من إقامة مجتمع مثالى — خلافة الله على الأرض — والتي تهيب للأفراد البيئة التى تحقق لهم الخلاص الأبدى . بهذا جاء الإسلام على يد محمد بن عبد الله ، الذى أعلن أن رسالته الى الملأ هى تطبيق شريعة الله وإقامة مجتمع يقوم على الشرائع الإلهية المنزلة ويتمسك بها على مر العصور . ويعتقد المسلمون أن أول جماعة أنيط بها تحقيق مثل هذا المجتمع هى عندما خرج محمد فى سنة ٦٢٢ بعد الميلاد (بداية التاريخ الإسلامى) على رأس قلة من أنصاره من مكة الى المدينة لوضع اللبنات الأولى فى صرح مجتمع اسلامى مستقل سياسياً . وبهذا أصبح المسلم هو ذلك الذى ينضوى تحت لواء الجماعة متمثلاً لقوانينها السياسية والاجتماعية المطلقة فى سلوكه .

وفى أيام الرسول لم تنتشب خلافات على طريقة تنظيم الحكم وإدارة دفتة . ولكن ما أن توفى الرسول حتى حدثت فتنة بين ضعاف الإيمان ، بحيث باتت تهدد المجتمع الإسلامى بانقسامات حادة فى صفوفه . على أن هذه الخلافات لم تكن تمس جوهر العقيدة ، أو صورة المجتمع الإسلامى كما بشر به الرسول : وإنما تناولت التطبيقات التكتيكية وما كان يتطلبه تنظيم مثل ذلك المجتمع . وقد انصب الخلاف على طريقة الحكم وبمعنى أخص على المؤهلات التى ينبغى أن تتوفر فى الرجال الذين سيخلفون الرسول فى زعامة الأمة الإسلامية ، ذلك أن نوعية الزعامة السياسية تعتبر

(٤) تعتمد المناقشة التالية للإسلام ، والخوارج ، والإباضية بشكل خاص على ما ورد فى كتاب « الإسلام فى العصر الحديث » (طبعة برنستون ١٩٥٧) تأليف دبليو . سى . ستمث .

في نظر المسلمين موضوعا حيويا ، اذ ان مثل هذه الزعامه لا تتوفر الا فيمن يتق المسلمون في قدرته على رفع رايه الاسلام والحفاظ على الصوره المحمديه للحكم ، مع توفيق البيئه الاسلاميه الحقيقيه التي تهيب للأفراد الحياه التي تضمن لهم الخلود في الحياه الأخرى • والخليفه وفق هذا المفهوم هو الشخص القادر على فرض اى خلاف قد ينتسب حول تفسير الشريعه الالهيه ، ولا يحق للخليفه ان يستمر في السلطه اذا لم يضع تلك التشريعات موضع التنفيذ • وهكذا يعتبر اى خلاف حول التكتيك السياسى والتنظيمى في ظل التشريع الاسلامى التقليدى الذى يعتمد على الجمع بين الدين والسياسة • خلافا دينيا وسياسيا في ان واحد •

وكنتيجه للخلافات التكتيكيه والتنظيميه • خلال الثلاثين عاما التي أعقبت وفاة الرسول انقسم المسلمون الى ثلاث فرق ، ثم ما لبث هذا الانقسام أن تطور الى انقسام مذهبي ينافس كل طرف منه الأطراف الأخرى • وأهم التقسيمات الثلاثة وأقواها هم أهل السنة « المتطرفون » الذين أصروا على اختيار خليفة الرسول من بين أفراد الأسرة القرشيه التي ينتسب اليها الرسول ، بشرط أن ترضى عنه الغالبية المطلقة من المسلمين • ويناقض هذا الرأي تماما الاجراءات المتبعة بين أهل البادية في طريقة اختيارهم للزعيم ، حيث يتم اختياره من بين صفوة المرشحين لهذا المنصب من بين أعلى مراتب الفروع القبليه • غير أن انتخاب الزعيم أو الخليفه بهذه الطريقة ينطوى على تباين بين المركز الذى يحتله الفرع الأكبر من القبيله والفرع القبلى الأقل مرتبة • أما الفرقة الأخرى من المسلمين فهم الشيعة (نسبة لتشيعهم لطرف معين) • وينادى هؤلاء بعمل الخلافة وراثيه ومقصورة على آل البيت ، ويرى أصحاب هذا المذهب أن الخلافة بعد وفاة الرسول كان ينبغى أن يعهد بها الى على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول وصهره عن طريق زواجه من كريمته فاطمة ، وفي اعتقاد هؤلاء أن الخلافة منصب الهى ولا يجوز تشويبه بعمليات الانتخاب • وعلى عكس هذا المفهوم للخلافة ما ينادى به الفريق الثالث من المسلمين وهم الخوارج

الذين يرون بأن خليفة المسلمين ينبغي أن يكون من أتقاهم بغض النظر عن قبيلته أو طائفته • وان يتم اختياره بالانتخاب • ومن هذا الفريق يتكون أهل عمان •

ويعود الفضل في ظهور الخوارج في البداية الى قيام تحالف بين بعض المجموعات القبلية التي استهوتها الديمقراطية البدائية • وبعض النخبة من المثقفين وجماعة القراء الذين كانوا يريدون الاحتفاظ بالاسلام كما هو وحمايته من السفسطاتيات والأفكار الغريبة • فالكتاب بالنسبة للخوارج هو الملهم الروحي ، والدستور السياسى ، ومنبع الفلسفة الاجتماعية من الوجهتين التطبيقية والنظرية • ودستوره مستمد من حياة الرسول ، ومن بعض الأحاديث النبوية التي قام بجمعها لفيف من خيرة العلماء • وبما أن الخوارج يرفضون فكرة الاجماع ، والقياس (الاجتهاد) كسبيل لتعديل الشريعة ، فقد كانوا أقل الفرق الاسلامية تقبلا لفكرة التغيير • ويشمل موقفهم هذا الدولة نفسها اذ يصرون على التقيد الصارم بالتركيب الأساسى للدولة وبالقوانين الأساسية ، ويعارضون ادخال أى تعديل عليها • تنطلق هذه الجماعة في فكرتها هذه من الايمان بأن وظيفة الدولة ان هى الا تنظيم المجتمع بما يحمى روح أفرادہ • وان فى القرآن ما يضمن تحقيق المجتمع الانسانى المنشود ، وبالتالي لا داعى فى مفهومهم لأى تعديل على التشريعات الاسلامية بحيث تخرجها عن هذه الأسس • ولما كان المعنى الحقيقى للعقيدة الأباضية هو رفضها للتجديد أو التغيير ، فقد كان من الطبيعى أن لا يستطيعوا الاستقرار الا فى المناطق المعزولة من العالم فى أغلب الأحوال (٥) •

لقد ظل الخوارج حتى عهد الخليفة الاسلامى الأول ضمن الجماعة الاسلامية ولم ينشقوا عنها الا فى عهد خلافة على بن أبى طالب (سنة

(٥) النظرية والمؤسسات السياسية للخوارج ، تأليف اى . سالم
(طبعة بليزور ١٩٥٦) ص ١٤ — ١٨ و ٦٧ — ٦٨ •

٦٥٦ — ٦٦١) بعد الميلاد عندما اتهموه بالانحراف بعد قبوله لبدأ التحكيم في معركة صفين . منذ ذلك الحين انسحب الخوارج وانتخبوا لهم أماما من بينهم بعد أن تعهد لهم بالحفاظ على جوهر الدين ونظامه بين الجماعة الاسلامية . والخوارج يعارضون هذه التسمية ويعتقدون بأنها تنطبق أكثر على الفرق الاسلامية الأخرى لأنها خالفت الشريعة الاسلامية (٦) . ويرى الأباضيون أن من حقهم مهاجمة أهل الضلالة والبدع من زعماء المسلمين أو من يسمون بخلفائهم واحلال زعماء أتقياء متمسكين بالمثل الاسلامية محل الزعماء غير الأكفاء . الخوارج ينظرون الى العالم نظرة كلها تزمّت ، انهم فئة هجرت الحياة الدنيا واتجهت الى الحياة الأخرى . ويحرم الخوارج كل أنواع الوسائل الترفيحية كالرقص ، والموسيقى ، والغناء والتدخين وكل ضروب الترف ، كما ان حياتهم تغطسها الألوان القائمة ، وطبيعي أن تنشب في مجمع متزمت كهذا ، تتحكم فيه النظرة الجامدة الى الخير والشر ، خلافاً داخلية . وقد تمخضت هذه الخلافات ، بالاضافة الى رفض الخوارج تأييد السلطة المركزية للخلافة عن تردى هذه الجماعة الاسلامية في هوة الشقاق الطائفي ، فأخذت كل طائفة تسفّه الطوائف الأخرى وتصر على أن الحق في جانبها . وقد ظهرت هذه الطوائف في العراق وتعددت أجنحتها ، من غلاة المحافظين الذين ينادون باعدام كل معارض الى المعتدلين . ومن بين الفريق الثنائي العالم الديني العراقي عبد الله أباض (سنة ٦٦١ — ٧٠٥) . ويبدو ان الجماعة الأباضية قد اتسمت باسم العالم المذكور بينما يزعم البعض أن التسمية مشتقة من الكلمة العربية « الابيض » (٧) .

(٦) التحفة جزء ١ ص ٦٥ و ٦٨ و « الخوارج » ، تأليف سالم ص ٦١ .
(٧) الهداية الأولى الاسلامية للملوك والأمراء في الداء والدواء ، تأليف مصطفى بن اسماعيل (طبعة القاهرة ١٩٠٣) ص ٧٩ — ٨٨ . أما السالمى فلم يتعرض الى التسمية الى أنها مشتقة من ابن أباض . ويشير الى جماعته بكلمة المسلمين . غير أن ابن رزيق (ص ٣٨٥ — ٣٨٦) يؤيد هذا الرأي وان كان لا يعلق أى أهمية على اشتقاق الكلمة من الأبيض . وعلى أى حال فان الأباضيين المحافظين يستعملون علما أبيض اللون ، ويلبسون عمائم وقمصانا بيضاء ، ويعتقدون أن العمام البيضاء هي بشرى خير .

الامامة في العصور الوسطى :

يعود السبب في عمق جذور المذهب الإباضي في عمان الى عدد من المصادفات • فقد كان عبد الله بن أباض مؤسس المذهب في العراق أيام ولاية الحجاج بن يوسف للعراق من قبل خلفاء بني أمية • وكانت جهود الحجاج منصبة بشكل خاص على قمع العناصر المتمردة من الخوارج في العراق كما في توطيد سلطان بني أمية في منطقة الخليج كلها • وفرارا من اضطهاد الحجاج خرجت مجموعات من علماء الدين الإباضي من العراق وتفرقت في أنحاء عديدة ومتباعدة من العالم العربي كشمال أفريقيا وعمان • وقد لقي اللاجئون ترحيبا حارا في عمان بسبب الروابط القبلية من جهة ولأن العمانيين كانوا من ضحايا الحجاج أيضا الذي كان يستخدم قوته في دعم نفوذ الأمويين في الخليج • وقبل أن يشن الحجاج هجومه كانت عمان جزءا مستقلا من الامبراطورية الاسلامية تحت حكم الجندى الذي بدأ منذ اعتناق العمانيين للإسلام في مستهل القرن السابع عشر • وقد أفلح الحجاج مؤقتا في إخضاع عمان وارغام حكامها على الانسحاب مؤقتا الى شرق افريقيا • ومما ساعده على ذلك الحرب الأهلية التي نشبت بين الهناوية والغافرية • وقد توثقت من خلالها الصلة بين الجنديين والقبائل اليمنية التي كانت من أنصار الاستقلال الذاتي • ولما كان الاثنان من خصوم بني أمية ، فلقد كان التقاؤهما من أهم العوامل التي أسهمت في دعم مذهب الصفوة الذي كان ينادى به الإباضيون (٨) •

أما سيطرة بني أمية على عمان فانها لم تدم طويلا ، ففي منتصف القرن التاسع عشر قاد بنو العباس ثورة ناجحة انتهت باستيلائهم على الخلافة سنة ٧٥٠ • ومن ناحية أخرى فان الفوضى التي عمت العالم

(٨) الساملي جزء ١ ص ٦١ — ٧١ وابن رزيق ص ٢ — ٥ . ويقول الساملي أن العمانيين ، يعترفون بان أبا بكر وعمر كانا خليفين ، إلا أنهما كانا يواليان عبد الله بن وهب ، بوصفه أول زعيم للخوارج يظهر على المسرح بعد معركة صفين .

الاسلامى ، وتوافقها مع انتقال الخلافة الى العباسيين ، مكنت العمانيين من استعادة استقلالهم كما أن ازدياد نفوذ المنادين بحكم الصفوة وبالمفهوم الأباضى للإسلام قد تمخض فى عام ٧٤٩ عن انتخاب الجلندة بن مسعود ، وهو من أفراد الأسرة المخلوعة • وعلى أساس هذه الاعتبارات أصبح بيد الأئمة مبرر لحماية الاسلام من جميع الهراطقة والدخلاء (٩) •

وما أن فرغ العباسيون من تدعيم جهاز الحكم المركزى للامبراطورية الاسلامية ، حتى أخذوا يعملون على تثبيت دعائم ملكهم فى جميع الاقاليم التى سبق أن خضعت لبنى أمية • وعلى الرغم من أن عمان كانت ضمن الأقاليم المذكورة الا أنها استطاعت أن تقاوم كل محاولات العباسيين لفرض سيطرتهم عليها من جديد • وقد نشبت معارك متفرقة بسبب ذلك بين الطرفين ، ولكن عمان استعصيت على العباسيين وكل ما حققوه أنهم تمكنوا من فرض سيطرة جزئية على المناطق الساحلية بينما ظلت الامامة فى الداخل منيعة الجانب • وهكذا غدت الامامة محور المقاومة العمانية ضد بنى العباس ويتمثل هذا فى مصرع الامام الجلندى فى احدى المعارك التى وقعت بعد سنتين من انتخابه • وفى القرن العاشر بعد الميلاد انسحب العباسيون من عمان تحت ضغط احداث أكثر خطورة تاركين البلاد لأهلها • وبزوال الخطر الخارجى خفت حدة الحماس والتضامن داخل الامامة بعد أن كانت من عوامل قوتها واستقرارها وفى عام ١١٥٠ عادت النزعة القبليّة تفرض نفسها من جديد وانتقل مركز الثقل الى تحالف قبلى مائع بزعامة بنى نبهان أسفر عن تولي أحد شيوخهم الامامة فى عمان • هذا مع العلم بأن السُلطة السياسية ظلت محتفظة بطابعها العلمانى البسيط على امتداد سنوات كثيرة حتى القرن السابع عشر •

(٩) « الازد » ، تأليف جى سترنزويك مجلد ٢ فصل ١ ص ٨١٢ — ٨١٣ •
والتحفة ، تأليف السالى جزء ١ ص ٧٢ — ٧٦ وابن رزيق ص ٧ — ٨ •

وعلى أى حال فقد ظلت الامامة على مدى فترة العصور الوسطى النظام المفضل للحكم فى عمان حتى فى الحالات التى تعذر فيها وجود امام تتوفر فيه الصفات المطلوبة • بل هى لا تزال حتى الآن تعتبر أفضل الأنظمة • بالنسبة للعمانيين • وتتألف المناطق التى يسيطر عليها الامام فى الفترة الواقعة بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩٥٥ عند خلعها من جانب قوات سلطان مسقط بمساعدة البريطانيين من ثلاث مقاطعات : الشرقية • والجبل الأخضر • وعمان الداخلية • ولا يزال الامام حتى هذه الساعة يعتبر نفسه الحاكم الشرعى لعمان • وقد ألفت حكومة فى المنفى ، هذا بينما يظهر دوره فى السياسة العربية ، وفى الصراعات الدولية على النفط فى المناقشات التى تشهدها أروقة الأمم المتحدة حول قضية عمان • ولا يوجد مثيل فى أقطار الشرق لنظام الحكم المتبع فى عمان ، حيث لا يزال هذا النظام البالى القوة المحركة للشعب •

فما هى طبيعة الامامة فى العصور الوسطى ؟ من الناحية الاساسية تعتبر الامامة نظاما غايته حماية المجتمع وتوفير بيئة صالحة يعيش فيها الأفراد وفق ما أمر به الله • ويشترك الأباضية الخوارج — نظريا على الأقل فى تمسكهم الشديد بهذا المفهوم للسلوك السياسى والاجتماعى والدينى • ان واجب الامام وفق هذا المفهوم هو الدفاع عن حقوق المسلمين وحمايتهم من الأفكار الدخيلة والبدع • ان مهمة الامام بصورة أوضح تتلخص فى تنظيم وقيادة الجيش • وتعيين الولاة وقادة الجيش • وتنظيم جميع الضرائب وتطبيق نصوص الشريعة الاسلامية ومد يد العون الى الفقراء وائتمام صلاة الجمعة • وتتألف الايرادات فى نظام الامامة من الضرائب التالية : الزكاة (ضريبة دينية) والصدقات • والمريع • ثم الضرائب الجمركية • ويتم صرف هذه الايرادات على الأغراض العامة • كالدفاع ، والجهاد فى سبيل الله ، والمنشآت العسكرية ، والمساجد • وعلى العجزة وكبار السن واليتامى وأبناء السبيل ، ويتقاضي الامام لنفقاته

الخاصة مبلغاً زهيداً ، اذ من المفروض أن يعيش الامام حياة الزهد والتقشف (١٠) .

ان هذا المفهوم عند العمانيين لم يتغير رغم مرور القرون عليه . أما الصفات التي ينبغي أن تتوفر في الامام فهي التواضع ، والورع ، والعدل ، والاحاطة الشاملة بالعقيدة والكفاءة العسكرية . ولقد كان معظم أئمة عمان من الفئة العسكرية ، أو من فئة العلماء مع الأولوية للفئة الثانية . ويعتبر الامام بمثابة خليفة الله على الأرض . ويمكن التأكد من توافر هذه الصفات في الامام المنتخب من الطريقة التي تتم بها الاجراءات الانتخابية (١١) .

وتتم عملية الانتخاب بسلسلة من الاجراءات ، تبدأ باجتماع جمهور من أبرز القادة السياسيين والدينيين في مكان من البلاد — وهو عادة مدينة نزوى — برئاسة أحد العلماء حيث تجرى المباحثات بين المرشحين . فاذا اتفق المؤتمر على ترشيح رجل معين منحوه ولاءهم . وتعتبر هذه الخطوة أول عملية في الاحتفالات التي تقام لمبايعة الامام . أما المرحلة الثانية فتتمثل في اعلان البيعة على الناس . وعندئذ يكون من حق الجماهير أن تؤيد أو ترفض الامام المرشح . ان الدور التي تقوم به جماهير الشعب في اجراءات البيعة ليست مجرد شكليات فارغة . اذ أن كثيرين ممن رشحهم وجهاء البلاد وعلماءها ، لم ينالوا ثقة الشعب . وبالتالي لم يتولوا هذا المنصب . ومن المميزات الطريفة لنظام البيعة في المذهب الإباضي الشروط التي يتعهد الامام بها عند انتخابه . وكننتيجة لهذا الالتزام أصبح في عمان أئمة ضعفاء لم يكن في مقدورهم اتخاذ قرارات هامة بدون الرجوع الى زعماء البلاد السياسيين

(١٠) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٣٧ وابن رزيق ، ص ٣١ — ٣٢ و ٣٨٣ — ٣٨٤ ، « والخوارج » ، تأليف سالم ص ٥٩ — ٦٠ .
(١١) رحلة ابن بطوطة مجلد ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٩ و « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الامريكية ص ٧١ و « التحفة » تأليف السالمى جزء ١ ، ص ٢٣٩ — ٤٠ و جزء ٢ ص ٢١٨ و « الخوارج » ص ٥٩ — ٦٠ ، تأليف سالم .

والدينيين • ولكن عمان عرفت أئمة أكفاء لم يضطروا الى هذا الاجراء (١٢) •

وقد يخلع الامام اذا عجز عن القيام بالمسؤولية على الوجه الأكمل • ومن ناحية أخرى فان منصب الامامة الذى يعتمد على حسن نية المرشحين من أهل العقيدة لا يلزم المسلمين بانتخاب امام على الدوام • ان كل ما يهم المسلمين هو أن تسود شريعة الله ، وبالتالي يمكن لأى مجموعة من العلماء عن طريق التشاور والتفاهم المشترك فيما بينها أن تقوم بمهمة الامام • وان كان مثل هذه الهيئة لا يمكن أن تصدر أحكاما قد تضيف أى تغير بدرجة كبيرة من الشريعة الاسلامية • على أن وجود امام يحكم جماعة الأباضيين ينبع فى التحليل النهائى من الحاجة الى سلطة مركزية موجهة فى ظروف معينة (١٣) •

ومن الواضح ان علماء الدين والفكر الأباضيين قد أسهموا بدور هام فى تاريخ عمان • فالفكر الدينى مكانة سامية فى نفوس العمانيين ، كما هى الحال فى بلاد الاسلام الاخرى • ولقد أسهمت هذه المكانة التى يتبوأها التراث الدينى فى تدعيم السلطة السياسية لرجال الدين بوصفهم المشرعين الدينيين والعلميين ورواد الثقافة • ولكن سلطة رجال الدين لم تكن سلطة مباشرة ، وان كانت تعلن عن نفسها أحيانا فى التهديدات بخلع الائمة أو بالتحريض على ثورة شعبية ، اذا لم يذعن رجال السلطة التنفيذية لنصائح العلماء •

ولعل أهمية الصلاحيات التى يتمتع بها علماء الدين فى عمان تكمن فى أنهم يشكلون سلطة تشريعية عليا تراقب سلوك الزعماء السياسيين والجمهور

(١٢) التحفة ، تأليف السالمى جزء ١ ص ٢٣٩ — ٤٠ وجزء ٢ ص ٢٣٧ « وابن رزيق » ص ٣٠ — ٣٢ و ص ٣٨٠ — ٣٨٢ ، و « الخوارج » ، تأليف سالم ص ٥٣ — ٥٤ •

(١٣) التحفة ، تأليف السالمى جزء ١ ص ٢١٧ ، و « الخوارج » ، تأليف سالم ص ٥١ •

على حد سواء • ومن الأهمية بمكان ان نلاحظ بأن معظم الثورات التي اندلعت في تاريخ عمان وأدت الى اطلاحة الائمة ، أو الى نشوب حروب أهلية ، كانت من تدبير بعض الفئات المتنفذة من رجال الدين • وأغلب التهم التي توجه الى أئمة عمان هي الضلالة أو البدع • وفي هذه الحالة يكون من حق رجال الدين خلع الامام ، اذا لم يصلح من نفسه • كما أن أى امام يحيد عن هذه القوانين يجرد من لقب الامام ويعتبر ملكا ، وليس للملوك مكانة بين الأباضيين (١٤) •

وفي مثل هذا النظام الذى تختلط فيه السياسة بالدين ، فانه من البائس أن يكون للعلماء دور هام في البناء الحكومى للدولة ، كما في نقد الدكم ومراقبته ، اذ أن تطبيق الشرع لا يقتصر على شخص الامام وحده ، بل وعلى رجال الدين أيضا باعتبارهم الرجال التشريعيين • وكل منطقة في عمان تختار لها قاضيا بعد أخذ رأى الامام في الشخص المرشح ولما كان القضاة هم الذين يبتون في القضايا العادية وفقا للتفسيرات الأباضية للكتاب والسنة فانه لابد لهؤلاء من التطلع في المسائل الدينية • وفي أحيان كثيرة تحال القضايا الهامة الى أحد الرجال البارزين من علماء الدين أو الى هيئة القضاء ، أو الى الامام نفسه للحكم فيها • والواقع أن دراسة الفقه الاسلامى تعتبر حجر الزاوية بالنسبة للمثقفين ، لان أبرز المفكرين العمانيين هم دائما من فئة كبار القضاة ، أو المؤرخين ، أو الفلاسفة ، كما ان الثقافة الدينية هي الوعاء الأكبر لمناهج التعليم في عمان (١٥) •

(١٤) التحفة ، تأليف السالى جزء ١ ص ٦٦ — ٦٨ •
(١٥) الخوارج ، سالم ص ٧٩ — ٨٠ ، ابن رزيق ص ٣٨٤ • لا تختلف الشريعة الأباضية بوجه عام عن شريعة السنة انظر كذلك الشريعة الاسلامية في أفريقيا ، جى • آن • دى أندرسون (طبعة لندن سنة ١٩٥٤) وثمة مؤلفات كثيرة للعلماء الأباضيين غير معروفة في الغرب ، ويتناول معظمها الشريعة الاسلامية أما العلماء الفرنسيون الذين قصروا اهتمامهم على الطوائف الأباضية في أفريقيا الشمالية قد قاموا بمجهود واسع لتوضيح العقيدة الأباضية • راجع فهرس كتاب « الخوارج » تأليف سالم • كذلك فان ثلاثة من مؤلفات العلماء العمانيين كانت تتناول الموضوعات الشرقية ، وقد ظهر أحد هذه المؤلفات في

ان ثقة الأباضييين في مفهومهم للحق ثقة مطلقة • وهم يؤمنون بأن من عداهم من المسلمين على خطأ • ونجدهم في كل ما يكتبون أو يصرحون يسمون أنفسهم « بالمسلمين » بينما يعتقدون أن الفرق الإسلامية الأخرى مخطئة وأصحابها ضالون ، وأن مسؤولية ردهم الى حظيرة الحق والصواب انما تقع على عاتق الأباضييين • أما الخوارج فقد أفتوا باعدام غيرهم من المسلمين • أما الأباضييون فان موقفهم من الفرق الإسلامية الأخرى هو أنهم لن يكونوا البادئين بالقتال • كما أنهم يرحبون بكل من يرغب في اعتناق مذهبهم • ويعرف المفكرون الأباضييون ان الفرق الإسلامية الأخرى تعتبرهم من الخوارج • وبالرغم من هذا فقد استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم شخصية محددة ومستقلة • ومما يدل على اعتدال موقف الأباضييين أنهم يقبلون شهادة المسلم غير الأباضي ، كما يسمحون بالتزاوج والتوارث بين الطرفين • أما موقفهم من المسيحيين ففيه كثير من التسامح ، لأنهم من أهل الكتاب • وتظهر هذه النظرة بشكل أوضح في الأجزاء الساحلية من عمان حيث الاتصالات بالأجانب أكثر (١٦) •

أما بالنسبة للأباضييين أنفسهم فلا مجال للتساهل عندهم فيما يتصل بتطبيق الشريعة الإسلامية فهي في نظرهم لا تحقق الرفاهية المادية للإنسان وحسب بل والخلاص الروحي • وهم يستمدون مبادئهم هذه من كتاب الله وسنة نبيه وفق تفسير العلماء الأباضييين لها • فالقرآن في اعتقادهم قد أحصى كل صغيرة وكبيرة ، وبالتالي لم تعد ثمة ضرورة للبحث والاجتهاد في سبيل الوصول الى الحقيقة • وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد علماء الدين الأباضييين في بيان حذر فيه قومه من « أهل الشك » فالأباضييون كذا من طوائف الخوارج لا يعتقدون بان « مجرد الايمان هو مبرر كاف

== القرن الثالث عشر — بيان الشرع ، تأليف محمد بن سليمان ، والمصنف أحمد بن موسى وأخيرا قاموس الشريعة من تأليف جميل بن خميس السد منتصف القرن التاسع عشر • (انظر التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ١ (١٦) التحفة ، تأليف السالمى جزء ١ ص ٤ و ٦٤ — ٦٨ ، وابن ص ٣١٠ •

ذاته » ويقولون بأن المحك هو عمل الفرد • ويدعى بعض العلماء أن القرباط الوثيق بين النظرية والتطبيق هو من أعظم ما ساهم به الخوارج في علم اللاهوت الاسلامي بوجه عام • وقد أدى الأصرار على تقيد الفرد الإباضي بنوع معين من قواعد السلوك الى الاستمرار بالدعوة لتعاليم الدين ، حتى لا يكون الجهل بها سببا في ارتكاب الأخطاء • ومن هنا يصر الإباضيون على حضور صلاة الجمعة والاستماع الى الخطباء الدينيين في أيام الجمع • وترى الغالبية من الإباضيين أن موقفها هذا يتسم بالاعتدال • وأن ترديد الإباضيين لعبارة « اننا لا نغالي في أمور ديننا ، أو لا نترك أمورنا بيد الجهلاء » يعبر تعبيرا واضحا عن موقف الإباضيين من الدين (١٧) •

ان الخلاف بين المحافظين والمعتدلين كما تعكسه أيديولوجيتهم الدينية والسياسية يعتبر من خصائص التاريخ العماني • فنظرة المعتدلين الى الحياة تختلف عن نظرة المحافظين أو الصفوة • بمعنى أن المعتدلين لا يرفضون التعامل أو التعاون مع بقية الملل الأخرى • فعقيدتهم تقوم على أساس التوفيق بين الروح والمادة ، كما أنهم لا يضيفون الى العقيدة أشياء من عندهم • والخلاف بينهم وبين المتزمتين خلافا على اهمال المعتدلين لبعض التطبيقات وليس في التطبيقات نفسها • كذلك لا يمكن اعتبار موقف المعتدلين خروجاً على تعاليم الاسلام الصحيح ، لأن ظهور هذه الفئة قد جاء نتيجة للمواقف المتزمتة لبعض فرق الخوارج • ومن ناحية أخرى فان التساهل الذي أظهره بعض الإباضيين ، قد اتخذته المتزمتون سببا لتعزيز رأيهم في وجوب التمسك الحرفي بالعقيدة ، حتى لا يحييد المسلمون عن طريق « الحق » • وعلى أي حال فقد كان لهذا الخلاف بين شذاري الجماعة الاباضية مضاره على تاريخ عمان حتى هذا القرن • فهو لم يكن خلافا بين دينين مختلفين ، وانما على مبلغ تمسك كل طائفة بمذهب واحد • وكانت قوة المحافظين تتركز في المنطقة الداخلية من عمان حيث لم

(١٧) « الخوارج » ص ٣٣ ، تأليف سالم ، والتحفة ، تأليف السالمى

جزء ١ ص ٦٤ — ٧٠ •

تكن تتعارض مواقف هؤلاء مع ذوى المصالح تعارضا كبيرا • أما نفوذ المعتدلين فقط كان يتركز في المدن الساحلية حيث الانفتاح على المؤثرات الخارجية • وعلى كل فقد ظلت الكفة بين الفريقين تتأرجح باستمرار غير أن الفترات التي ظهرت فيها الامامة كقوة وظهر نفوذ علمائها ، هي الفترات التي ساد فيها نفوذ المحافظين ، بينما الفترات التي ازدهرت فيها الحركة الملاحية والتجارية والتوسع هي الفترات التي ساد فيها نفوذ المعتدلين • وحتى القرن السابع عشر كانت عمان خاضعة لنفوذ المحافظين الى حد كبير ، بينما تحول التيار منذ ذلك الوقت لصالح المعتدلين •

ازدياد أهمية عمان الملاحية والتجارية

وظهور حركة الأباضية المعتدلة

قبل انتشار الاسلام في عمان بوقت طويل كانت الموانئ العمانية مسرحا لحركة ملاحية وتجارية هامة . وحتى وقت قريب كان نشاط عمان التجاري والملاحي في منطقة المحيط الهندي بالإضافة الى الجهود التي كان يبذلها الأباضيون لاقامة مجتمع اسلامي مثالي ، تمثل أحد تيارين رئيسيين في تاريخ البلاد . فخلال العصر الذهبي للخليج ، أي مجيء البرتغاليين في مستهل القرن السادس عشر لعب الملاحون والتجار العمانيون دورا هاما في الحياة التجارية للشرق . وكان أبناء عمان من أوائل الذين أبحروا الى الصين ، وأسهموا بدور ملحوظ في انشاء سلسلة من المدن البحرية على امتداد شواطئ أفريقيا الشرقية ، على غرار المدن التي أنشأوها على شواطئ الخليج . كذلك أقاموا لهم صلات وثيقة مع موانئ الهند نظير اقامة عدد من التجار الهنود في عمان . وعلى امتداد العصور كان نمو الحضارة الملاحية وتطور المصالح التجارية يسيران جنبا الى جنب . وكان سكان عمان الساحليون متحررين من التقاليد والقيود التي يفرضها سكان الداخل الأباضيون على أنفسهم . ويرجع هذا النجاح الى أن سلطة الامامة كانت مقصورة على المنطقة الداخلية وحدها ، ولم تكن تمارس نفوذا على الموانئ العمانية . وكنا تحدثنا عن محاولات الأمويين والعباسيين للسيطرة على الساحل العماني .

ولقد سيطرت دولة هرمز على هذه الموانئ من سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٥٠٠ عندما بدأ النفوذ البرتغالي يتسلل الى المنطقة ويفرض عليها سيطرته التي دامت حتى منتصف القرن السابع عشر (١٨) .

(١٨) انظر « الملاحون العرب » تأليف حوراني ويتضمن معلومات عن تطور المصالح التجارية والملاحية العمانية ابان العصور الوسطى . وابن رزيق ص ١٩ - ٢٠ و ٥ ويتحدث فيه عن الامراء الجلنديين الذين نزحوا الى « بلاد =

اليعارية والتوسع الامبريالى العماني :

فى سنة ١٦٥٠ أجلت القوات العمانية المسلحة المحتلين البرتغاليين عن الاراضى العمانية وعن مدينة مسقط بالذات مسجلة بذلك بدايه النفوذ العماني فى الخليج الذى امتد زهاء قرنين . لقد كانت عملية اجلاء البرتغاليين من مسقط أحد الاعمال البطولية التى صاحبت نمو القوة العمانية الذاتية ، وهى قوة استطاعت أن تحقق بالمقاييس الاقليمية ، مركزا تجاريا وملاحيا وسياسيا عظيما . وقد بدأ نجم عمان فى الصعود فى مطلع القرن السابع عشر فى اعقاب الفترة التى شهدت بعث الامامة فى داخلية البلاد تحت الزعامة الجادة لمجموعة من القادة الذين ينتمون الى قبيلة اليعارية . وعلى عكس من سبقهم من الأئمة الذين اقتصر حكمهم على داخلية عمان ، اتبع اليعارية سياسة هجومية لتوحيد البلاد تحت راية حكمهم . وبانحسار نفوذ البرتغاليين فى عمان ضاقت الدائرة على ممتلكاتهم حتى لم تعد تتجاوز خلال الاربعينيات من القرن السابع عشر أسوار مدينة مسقط . وهكذا أصبح يعارية من القوة بحيث أنهم لم يكتفوا ، بعد احتلالهم لمدينة مسقط فى بداية الخمسينات من القرن السابع عشر ، بطرد البرتغاليين من البلاد . وما أن توحدت عمان لأول مرة منذ مئات السنين ، وتحررت الطبقات التجارية والملاحية من قيود السلطة البرتغالية حتى أخذوا فى العمل على توسيع نفوذهم السياسى والاقتصادى الى ما وراء البحار . ولم تنته الحرب بين العمانيين والبرتغاليين ، وانما امتدت بالاحرى الى بقية الأجزاء الغربية من المحيط الهندى . ومما ساعد العمانيين على نجاحهم فى هذا الصراع هو

= الزنج « — أفريقيا الشرقية فرارا من بنى أمية ، ولانشاء الجاليات العربية خلال القرن السابع عشر . انظر أيضا « رحلة ابن بطوطة » مجلد ٢ ص ٢١٤ — ٢٢٨ وكتاب بربوزا ص ٦٨ — ٧١ ويتحدث فيه عن المدن السياسية العربية فى شرقى أفريقيا فى القرن الخامس عشر و Les Premiers Commerçants Arabes en CHINE تأليف تى ليويكى مجلد ١١ (١٩٣٥) ص ١٧٣ — ٨٦ ، وهو من تأليف واحد من أبرز العلماء فى شؤون الاباضية . و « الخليج العربى » ، تأليف ويلسون فصل ٤ .

تسلحهم بنوع جديد من السفن الحربية والمدفعية • فقد تخلوا عن السفن التقليدية وبدأوا باستخدام سفن كبيرة الحجم على الطراز الأوربي • وما أن حل القرن الثامن عشر حتى كانت جميع الأساطيل البحرية تضم سفنا من الطراز الغربى بنى معظمها فى الهند وكانت مزودة بمدفعية حديثة (١٩) •

فرض العمانيون فى أول الأمر سيطرتهم على ضفتى خليج عمان على غرار ما فعل سكان هرمز قبلهم بثلاثة قرون • كما أقاموا مراكز لهم فى النقاط الهامة على الساحل الجنوبى من الخليج العربى • وقد عززوا هذا الاجراء بتوطيد سيطرتهم على الجزء الأكبر من ساحل افريقيا الشرقية ، بعد طرد البرتغاليين منها • ولعل أهم جانب فى تعاظم القوة السياسية العمانية هو النمو السريع لمدينة مسقط التى أصبحت نقطة التجمع فى منطقة الخليج وأحد الموانئ الكبرى فى المحيط الهندى • وهكذا ما أن بدأ القرن الثامن عشر حتى كان اليعاربة يحكمون دولة يمتد نفوذها السياسى عبر منطقة الخليج كله الى سواحل أفريقيا الشرقية والجنوب العربى غربا ، والى مشارف وادى الأندلس فى الشرق • كما كان نفوذها الاقتصادى يمتد عبر شواطئ الخليج الى داخلية ايران والعراق والجزيرة العربية ، أما على الجهة الغربية فقد وصل هذا النفوذ الى البحيرات الوسطى فى أفريقيا بينما وصل على الجانب الشرقى الى دلتا نهر الجانج • وعلى الرغم من ارتياد سفن الدول الأوربية لمياه الخليج من وقت الى آخر ، فان هذه الدول لم تكن تطمح فى المناطق التى كانت خاضعة يومئذ للنفوذ العمانى ، اذ أن هذه الدول كانت مشغولة بتوطيد نفوذها فى شبه القارة الهندية ، مما

(١٩) كتاب آر • اى • واديا « مرفأ وبناء السفن فى بومبى » (طبعة بومبى ١٩٥٥) يتحدث عن رواج بيع السفن المبنية فى الهند على الطراز الاوربى الى العرب • و « الملاحون العرب » ، تأليف جورانى ص ٧٨ و « ملاحظات حول السفن الشراعية » — الداو من مجلة مارينرز ميورر Mariners Mirror مجلد ٢٦ (١٩٤٠) بقلم آى • مور A. Moore ، و « تصنيف صناعة السفن العربية » بقلم جى • طورنل • مجلة مارينرز ميورر مجلد ٢٧ (١٩٤٢) و « الخليج العربى » ، ويلسون فصل ٩ — ١١ ويقدم ملخصا وافيا عن طرد البرتغاليين من الخليج •

هيا للدول الواقعة على ضفاف الخليج ومنها عمان الفرصة للمناورات السياسية والطموح في انشاء امبراطورية لها •

غير ان العمانيين لم يتمكنوا من احتكار النفوذ السياسى فى الخليج كما فعلت بعض دول المنطقة قبلهم • فقد واجه النفوذ العماني تحديات كثيرة كانت ناجحة فى بعض الاحيان • وتكمن أسباب هذا التحدى فى نجاح اليعاربة بدعم المصالح السياسية والاقتصادية مما سبب لهم مشكلات كبيرة لم يستطيعوا التغلب عليها • واذ كانت الامامة القديمة قد استطاعت أن تحافظ على وجودها عن طريق السياسة المترتبة التى كانت تسير عليها ، فانها من ناحية اخرى كانت تقف ضد كل محاولة للتغيير داخل المجتمع الاسلامى الذى تحكمه ، غير ان هذه الفلسفة لم تكن تصلح أساسا عمليا لدولة تهدف الى اقامة امبراطورية تجارية واسعة ومجتما من تجار ينتمون الى جنسيات مختلفة • ولهذا تغير بالفعل (وان كان بالقوة أيضا) طابع الامامة بعد سيطرة اليعاربة على الأجزاء الساحلية من عمان • فقد ارتبطت زعامة البلاد بالمثل العلمانية للدولة ، وضعف اهتمامها بالجوانب الروحية • بل أنشأ اليعاربة فى سنة ١٧٠٠ أسرة حاكمة نشأت عنها تقاليد تسمح للحكام باختيار خلفائهم قبل وفاتهم بل بلغ ببعضهم الأمر ان عينوا بعض أبنائهم أئمة على البلاد • ولا شك بأن مثل هذا التقليد كان يتعارض مع المبادئ الأساسية للأباضية والخوارج ، وهكذا فجر التوتر بين الحقائق الجديدة والعصبية القديمة أزمة حادة •

وفى مطلع القرن الثامن عشر لم يكن الأئمة أكثر من صنائع فى أيدي الفئات المتصارعة ، التى كان كل همها هو تحقيق مصالحها عن طريق سيطرتها على صنائعها من الحكام واستغلالهم • وبمضى الوقت أصبح الامام نفسه من كبار التجار وأصحاب السفن ، كما تحولت الامامة من نظام دينى مترمت الى أداة لجنى الأرباح وتحقيق مطالب فئات التجار • وهكذا أصبح امام عمان فى سنة ١٧٠٠ يسيطر على قوة اقتصادية وبحرية تسيطر بدورها على

منطقة تمتد آلاف الأميال عبر المحيط الهندي وتربطها بملوك هرمز التجار علاقات مشتركة أكثر مما كانت تربطها بأئمة عمان الجلنديين الذين كانوا أول من وضع أسس العقيدة الإباضية في جنوب شرقي آسيا (٢٠) .

وقد رافق هذه التطورات عملية أخرى لتحويل الامامة الى معقل من معقل المذهب الإباضي المعتدل . وبالتالي الى اضعاف نفوذ الفئات المتعصبة . غير أن المتطرفين أبوا التخلي عن موقفهم بسهولة مما فجر اضطرابات داخلية خطيرة في العشرينات من القرن الثامن عشر انتهت الى انشقاق الجماعة الى فريقين ظلت خلافتهما تستنزف امكانيات البلاد وقواها فترة من الزمن . وأخيرا نشبت حروب واضطرابات قبلية بين جماعتي الهناوية والغافرية استمرت حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وقد أدى هذا كله بامام البلاد ، وكان آخر امام في أسرته ، الى أن يطلب مساعدة عسكرية من نادر شاه حاكم ايران (١٧٣٣ — ١٧٤٧) لاضمار التمرد الذي كان يهدد حكمه ، وكان نادر شاه أخبث حكام ايران ، ومؤسس امبراطورية فارسية تمتد من العراق حتى سهول البنجاب . وكان يتحين مثل هذه الفرصة ليزيد من رقعة امبراطوريته في الخليج ، ولهذا استجاب فوراً لطلب الامام وبعث بجيش وأسطول الى عمان . وقد أسفر التدخل الفارسي عن احتلال الفرس للساحل العماني وسقوط دولة اليعاربة في عمان وسيطرة الفرس مؤقتاً على امتداد الجزء الأكبر من الثلاثينات والأربعينات من القرن الثامن عشر (٢١) .

(٢٠) التحفة : تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢ — ٩٠ ، وابن رزيق ص ٢١ — ٣١ و ٥٣ — ١٠٠ و « خطر مسقط ونتائجه » خلال أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، مجلة « آشيائيك ريفيو » السلسلة الجديدة (١٩٥٢) بقلم لوكهارت عدد ١٥٢ ص ٣٦٣ — ٦٩ . وسجلات حكومة الهند — ١ مجلد ١٩ ولوريمر مجلد ١ فصل ١ و « الخليج العربى » فصل ٩ — ١١ ، تأليف : ويلسون .

(٢١) التحفة ، تأليف السالمى ، وابن رزيق ص ١٠٠ — ١٥٥ و « حملات نادر شاه على عمان » ١٧٣٧ — ١٧٤٤ — ٩٠ — ١٩٠ نشرة معهد الدراسات الشرقية مجلد ٨ (١٩٣٥) جزء ١ ص ١٥٧٠ — ١٥٧١ ، بقلم آل لوكهارت =

وقد بدا ان الظروف والمواقف التي تسببت في سقوط دولة الخوارج في الأيام الأولى من ظهور عمان كدولة على المسرح ، عادت من جديد في القرن الثامن عشر ، وأدت الى اسقاط دولة اليعاربة • وفي كل من المرحلتين الأولى والثانية وجد الخوارج أنفسهم أمام طريقتين : اما أن يتكيفوا مع شعوب وقيم متباينة أو أن يسقطوا • ولما كان الخوارج قوما ضيقى الأفق وينظرون الى الأشياء من زاوية الأبيض والأسود ، فقد كان لابد ان يصطدموا بالجماعات الأخرى من طائفتهم ممن كانت تحاول التكيف مع الظروف الجديدة • وقد هيا هذا الوضع الفرصة للقوى الخارجية للتدخل مرة أخرى لتقويض مجتمع منقسم على نفسه • وبما ان اليعاربة لم ينجحوا بتسوية الخلافات بين القيم الدينية القديمة وبين متطلبات مجتمع تجارى متوسع فقد انهار حكمهم •

دولة البوسعيد وذروة الدولة الاباضية

تمخض احتلال الفرس لعمان عن اقرار زعيم جديدة للبلاد قام ليسترد لها استقلالها وسيادتها ويعيد لها امبراطوريتها وما ضاع من نفوذها في الخليج وليعمل على تحقيق الوحدة الوطنية • وبرز هذا الزعيم — وهو أحمد بن سعيد من بين صفوف احدى الطوائف الفرعية من قبيلة الهناوية التي تقطن داخلية عمان وتعرف بالبوسعيد • وقد لمع اسم هذا الزعيم في مدينة صحار الساحلية الواقعة في مقاطعة الباطنة حيث كان من تجارها الناجحين عندما تم تعيينه محافظا لمدينة صحار • وعندما هاجم الفرس عمان رفض هذا الاستسلام ونظم ائتلافا من القبائل الهناوية ومن المجموعات الاباضية المعتدلة من فريق التجار والملاحين كما ومن رجال الدين المحافظين • وقد كوفى على عمله هذا بانتخابه اماما للبلاد فكانت ولايته بداية لحكم دولة البوسعيد التي ما تزال تحكم البلاد حتى اليوم •

= « بحث جديد عن الهند الشرقية » (طبعة أدنبرة ١٧٢٧) مجلد ١ ، ويحتوي معلومات عن عمان فيما بين ١٦٨٨ و ١٧٢٥ .

وقد برهن أحمد بن سعيد عن ارادة غولاذية فاستطاع تحقيق الوحدة القومية عن طريق القوة بصرف النظر عن الوسائل التي استعان بها لتحقيق هذا الهدف . غير أن قبائل الغافرية لم تمنح أحمد غير ولاء أسـمى مما اضطره الى شن حملات ضدهم وضد حلفاء القواسم سكان رأس الخيمة . ولم يدخر أحمد جهدا للتوفيق بين المعتدلين والمتطرفين من الأباضيين غير انه لم يحرز في المدى الطويل أى نجاح يذكر ولكنه استطاع أن يحد من الخلافات التي كانت تفصل بين الفريقين . ويبدو ، في التحليل النهائي ان الامام أحمد اختار الاتجاه العلماني للحكم باعتباره الاتجاه الذى كان سائدا خلال المرحلة الأخيرة من حكم اليعاربة ، وقد استعان أحمد بسلطاته التقليدية وبتحالفه الوثيق مع حكام اليعاربة . وبالثروة التي كانت تدرها عليه مشاريعه التجارية ، وبارادته الصلبة لدعم مركزه في البلاد . وعرف عنه أنه كان يستخدم تكتيكا عجيبا في التخلص من خصومه ، فقد كان يقيم لهم المآدب ثم يقوم باعدامهم الواحد تلو الآخر قبل أن يغادروا مائدة الطعام . كما كان من أنصار التجديد ، فاليه يعود الفضل في ادخال بعض الأساليب الجديدة الى الجهاز الادارى . وقد استحدث فوق البناء الحكومى للدولة مناصب جديدة كمنصب « جباة الضرائب » و « قادة الأسطول » كما أنشأ جيشا احتياطيا قويا من المرتقة والرقيق . وعين أبناءه في عدد من المناصب المسؤولة سواء في الادارة المركزية أو كولاة ومحافظين في المقاطعات والمدن الهامة ، ومن المشروعات التي تعزى اليه قانون بمنح امتيازات وألقاب عائلية لأفراد الأسرة الحاكمة كلقب « سيد » الذى كان يلقب به أبناؤه (٢٣) . وعلى أى حال فقد عاد حكم أحمد يسوده الاضطراب من جديد نتيجة للثورات التي أشعلها ضده بعض أبناؤه وأفراد أسرته طمعا بالسلطة .

(٢٢) يطلق لقب سيد في البلاد الاسلامية على الاشخاص المنحدرين من سلالة النـبى محمد ، بينما يحمله في عمان أفراد أسرة البوسعيد الحاكمة ، ولا علاقة له بالنسب مع الرسول .

وما أن تم لأحمد توطيد دعائم الحكم حتى خاض صراعا ناجحا لاستعادة النفوذ العثماني في الخليج وكان أحد خصم له في هذه المنطقة كريم خان زند (١٧٥٠ — ١٧٧٩) مؤسس دولة الجنوب الإيراني خلفا لامبراطورية نادر شاه . وكان كريم خان ملتزما بسياسة التوسع الفارسي التي بدأها نادر شاه في الخليج ، إلا أن الأخير كان يعمل عن طريق صنائعه أمثال شيخ المحمرة الذي ورث القسم الأكبر من أسطول نادر شاه . وعلى كل ، فقد استطاع الامام أحمد في أواخر أيام حكمه وعن طريق الدخول في بعض الأحلاف وشن الحروب ، وكنتيجة للتدهور التدريجي في نفوذ خصومه ، وعلى رأسه وفاة كريم خان زند أن يستعيد بشكل قاطع سيطرة عمان على الخليج وتدعيم مركز مدينة مسقط كأهم الموانئ التجارية الحرة في منطقة الخليج . كما عقد حلفا مع العثمانيين كان يدر على خزينته مبلغا من المال كل عام ، في مقابل حماية عمان للجناح الجنوبي للعراق (٣٣) .

وعندما شاخ أحمد انقضت ضده الفئات الأباضية المتطرفة ، غير أن هذا الموقف لم يتطور الى محاولة لخلعه احتراما لكبر سنه . وكانت نزوى التي تقع في داخلية عمان ، وعاصمة الامامة الوسطى ، والمقل التقليدي للعناصر المتطرفة بؤرة الحركة المضادة ضد حكم أحمد . وبعد وفاته في نحو سنة ١٧٨٣ خلفه ابنه سعيد بن أحمد بن سعيد ، غير أن الامام الجديد لم تسنح له الفرصة بأن يتمتع لفترة طويلة بثمار هذا المنصب ، رغم انه كان على جانب كبير من الدهاء السياسي . فهو لم يستطع أن يتفادى الصراعات العائلية التي كانت تتفجر وتهدد مصيره ، أو يحد من سخط المتطرفين الذي تحول في سنة ١٧٨٤ الى ثورة شاملة ضده . وقد اتهم المتطرفون سعيد بتأييده للبدع والهرطقات ، وبأنه قد انحرف عن التعاليم الاسلامية

(٢٣) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ١٦١ — ٦٦ ، وابن رزيق ص ١٥٦ — ١٨٨ وبلدان الخليج وقبائلها مجلد ٢ . ولوريمر مجلد ١ ص ٤٠٠ — ٤١٧ — وسجلات حكومة الهند — ١ مجلد ٢٠ — ٢١ وحتى سنة ١٨٢٦ كان الحلف العثماني العثماني لا يزال ساري المفعول .

الحقيقية مما أدى في النهاية الى اسقاطه • ومن المآخذ التي نسبت اليه هو انه منح ابنه حمد الذي كان ينوب عن والده في الحكم لقب « وكيل » أو « وصى » وكان هذا يعنى تسليم سلطة الحكم في المنطقة الساحلية من عمان الى عائلة البوسعيد (الذين لقبوا أنفسهم بعد عام ١٨٦١ بالسلطين) وكانوا يحكمون البلاد حكما علمانيا لا يحظى بتأييد رجال الدين • ولكن سعيد تمسك بلقب الامام حتى وفاته ، غير أن لقبه هذا لم تعد له أية أهمية سياسية أو دينية في كل من داخلية البلاد والمنطقة الساحلية • وهكذا كاد الانقسام بين « المعتدلين » الذين كانوا وقتها يسيطرون على دولة تجارية ملاحية في الجزء الساحلى من البلاد ، و « المحافظين » الذين كانوا يحكمون المنطقة الداخلية من عمان ويحاولون بعث الامامة على النمط الذى نشأت عليه في القرون الوسطى أن يكون تاما في نهاية القرن الثامن عشر • ومن الطريف أن نلاحظ هنا ان معظم الأسر التى اقترن حكمها بحركة المحافظين هى التى ظلت تمتد الجناح الأباضى المحافظ بالقادة والزعماء حتى وقتنا هذا (٢٤) •

وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية التى عكرت صفو الأوضاع في القرن التالى على انشاء دولة البوسعيد ، فقد انتعشت الحالة الاقتصادية في البلاد لا سيما في النصف الساحلى • ويعود هذا الانتعاش الى ثلاثة عوامل :

١ — نشاط الملاحين العمانيين الذين كانت أساطيلهم تجوب المحيط الهندى على امتداده من سواحل أندونيسيا حتى شرقى أفريقيا •

٢ — المساهمة الفعالة للطبقة التجارية العمانية التى عرف أفرادها

كيف يستفيدون من تدهور نشاط الموانئ الإيرانية لدعم مركز مدينة مسقط باعتبارها المركز الأول للحركة التجارية في الخليج ، وواحدة من أهم الموانئ على ساحل المحيط الهندي •

٣ — نجاح حكام البوسعيد في استغلال موارد الدولة لتنشيط الملاحة والتجارة في الخليج أو دعمها •

بين عام ١٧٥٠ وعام ١٨٠٠ ازداد النشاط التجاري والملاحي لمدينة مسقط ، بحيث ارتفع مستوى هذا النشاط ارتفاعا ملحوظا في مطلع القرن التاسع عشر عما كان عليه في عهد الامام أحمد • ويعود هذا التحسن الى حد كبير للحماية والرعاية التي كان يلقاها التجار والبحارة والمغتربون من جانب السلطات المحلية في المدينة • فلم تكن نسبة الرسوم الجمركية تزيد على ستة ونصف بالمائة بل أنها خفضت الى خمسة بالمائة فقط • كما ان الدوريات الحراسية قد قللت من خطر القرصنة على الخطوط الملاحية الساحلية ، بينما كانت الأسوار التي تحيط بالمدينة سدا يحمي التجار والسلع من الغارات المفاجئة •

فقد كان التجار العمانيون من أنشط التجار في المنطقة • كما استفادت مدينة مسقط من تحول النشاط التجاري اليها من المركز التجاري البريطاني في بندر عباس بعد أن هجر الأوروبيون ذلك المركز في سنة ١٧٦٣ أثر الفوضى السياسية التي اجتاحت إيران • كذلك فان طريقة التجار المسقطيين في التعامل والبيع والشراء قد اجتذبت صغار التجار اليها ، بينما كانت البيوت التجارية الكبيرة تتعامل على الأسس الطويلة المدى ، وتستفيد من نظام الوكلاء التجاريين في الموانئ الهندية • وتقدر قيمة التبادل التجاري خلال الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر بنحو خمسة أثمان مجموع التجارة ذات المدد الطويلة التي تعبر ميناء مسقط • فقد كان هذا الميناء يحتكر توريد البن الى إيران والعراق ، كما أن جزءا هاما من تجارة المنطقة

المحلية يتركز فيها أيضا • والواقع ان التجارة بجميع أنواعها كانت تزاوّل في أسواق المدينة ومناطق التفريغ فيها من العمليات الخاصة بالسلع الكمالية من اللؤلؤ الى بيع وشراء العبيد ، الى تصدير واستيراد الحبوب كالقمح والبن ، والأسماك والفواكه • كما كانت السلع الهندية المصنعة — كالمنسوجات القطنية بصورة خاصة — من أهم بنود تجارة البلاد • بينما كانت السلع الأوروبية الصنع تصل اليها عن طريق الهند ، على الرغم من أن بعضها كان يأتي عن طريق الشام • وفي التسعينات من القرن الثامن عشر كانت البصرة كميناء بحري في المرتبة الثانية من الأهمية ، بينما كانت المحمرة الميناء الرئيسي الوحيد على الساحل الإيراني • وفي أواخر القرن الثامن عشر أخذت الامارات العربية الناشئة ، كالبحرين ، والكويت وموانئ ساحل عمان تتحدى بشكل عدواني سيادة عمان التجارية في الخليج ، وهو وضع أشعل حروبا بحرية بين هذه الامارات وعرب عمان • ومع ذلك فقد ورد في تقرير أحد الرحالة البريطانيين في سنة ١٧٩٠ « أن مدينة مسقط كانت أغنى وأكثر ازدهارا من أية مدينة بحرية أخرى على شواطئ الخليج » ، وان « التجارة فيها ستظل مزدهرة الى أجل غير مسمى » (٢٥) •

يعزز هذا الوجه المشرق ، التطور السليم لصناعة بناء السفن في عمان خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٧٥٠ وسنة ١٨٠٠ • فقد كان في مدينة مسقط وحدها نحو ١٥ سفينة من الطراز الغربي المربع الهيكل و ٣ مراكب صغيرة ونحو ٢٥٠ سفينة شراعية أغلبها من سفن الشحن الكبيرة الحجم والحمولة • الى جانب ١٠٠ سفينة أخرى تزاوّل نشاطها الملاحي في ميناء صور • كما كانت هناك أساطيل أخرى من السفن في موانئ عمان الأخرى كميناء صحر • وفضلا عن الرحلات التقليدية التي كانت تقوم بها هذه

(٢٥) « تقرير حول تجارة بريطانيا مع ايران والجزيرة العربية » اعداد اس مانستي واج جونز مؤرخ ١٧٩٠/١٢/١٨ من سجلات الحكومة الهندية — ١ مجلد ٢١ •

السفن الى سواحل الهند الغربية ، واليمن ، والبحر الأحمر ، وأفريقيا الشرقية ، وموانئ الخليج الأخرى ، كانت السفن الكبيرة من الأسطول التجارى العمانى تصل فى رحلاتها الى كلكتا ، وملاكا وبتافيا (جاكارتا) (٢٦) .

بلغ النشاط التجارى والملاحى العمانى ذروته فى أواخر القرن الثامن عشر . وكان مركز مدينة مسقط فى ذلك الوقت يعتبر على الصعيد الدولى فى المرتبة الثانية من الأهمية حيث كان يجرى التبادل التجارى فى السلع والمنتجات القادمة المتجهة الى بلاد كثيرة فى جنوب غرب آسيا وفى أفريقيا . وكانت المراكز التجارية الرئيسية فى منطقة المحيط الهندى فى ذلك الوقت ثلاثة مراكز : كلكتا وبتافيا وملاكا . وكانت تزورها السفن الأوروبية وعلى اتصال مباشر بمراكز التجارة العالمية كلندن وأمستردام ونيويورك . وكانت السفن العمانية والتجار العمانيون يلعبون دوراً هاماً فى تجارة المحيط الهندى ، كموزعين ومنظمين للسلع التجارية التى ترد من كلكتا وملاكا وبتافيا ، فضلاً عن التجارة الداخلية لمدينة مسقط وميناء زنجبار الخاضع لعمان .

وقد قدر لزنجبار أن تلمع كمركز تجارى وذلك فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . واعتباراً من سنة ١٨٠٣ حتى سنة ١٨٥٦ فقدت مدينة مسقط أهميتها كمركز تجارى دولى للامبراطورية العمانية ، وان كانت قد احتفظت بأهميتها كميناء رئيسى لمنطقة الخليج . وعلى كل ففى العشرينات من القرن الثامن عشر أخذ سعيد بن سلطان (١٨٠٤ — ١٨٥٦) يركز اهتمامه على ممتلكاته على الساحل الشرقى من أفريقيا ونظراً للفترات الطويلة التى كان يتغيب فيها عن البلاد ، فقد نقل مقره الى زنجبار وابتداء من سنة

(٢٦) سجلات الحكومة الهندية ١٨٥٦ ص ٣٠٠ — ٣١٢ « الطريق البرى الى الهند » ، تأليف دى . كروتز (طبعة لندن ١٩٢٩) ، ولوريمر مجلد ١ ص ١٦٣ — ٦٦ و Precis Commerce ص ٤٢ — ٥٩ .

١٨٣٢ أخذت زنجبار والمنطقة الرئيسية المواجهة للجزيرة تجنى ثمار سياسة الازدهار الاقتصادي من محاصيل مزارع القرنفل وجوز الهند التي أنشأها سعيد ، بالإضافة الى ما كانت تدره لخزينته تجاره الرقيق . وهكذا أصبح ميناء زنجبار خلية تجارية ، وأخذت البلاد تجتذب اليها أفواج التجار من العرب والهنود ، والأوروبيين والأمريكيين . وبمضى الوقت استطاع التجار الهنود بمهارتهم المعروفة أن يسيطروا على الجزء الأكبر من النشاط الاقتصادي المتزايد . وكان لتجارة الرقيق التقليدية التي اتسع نطاقها بفضل الازدهار الاقتصادي ، دور في خلق نفوذ سياسى أسمى لعمان كنتيجة لتسلل تجار الرقيق العرب الى أعماق المنطقة الشرقية من أفريقيا وأواسطها . وحتى بعد أن شرعت بريطانيا في مكافحة هذه التجارة ، ظلت زنجبار محتفظة بانتعاشها الاقتصادي . وفي نهاية حكم سعيد في سنة ١٨٥٦ ظلت ممتلكاته في أفريقيا موردا يمد خزانته بما يوازي نصف ما كانت تمد به الممتلكات العمانية في آسيا (٢٧) .

أما في عمان نفسها فقد شهد حكم سعيد بداية لفترة كساد طويلة وبطيئة ، تفاقمت بسرعة في الستينات من القرن التاسع عشر ، ثم اتسع نطاقها في أواخر القرن ، عندما تعرضت البلاد الى حالة من الركود الاقتصادي الشديد . وكان تركيز سعيد على زنجبار . أحد العوامل التي أسهمت في هذا التدهور ، اذ أنه أهمل الوضع التجارى في عمان على عكس من سبقه من الحكام . وبمضى الوقت أخذ السلطان سعيد يتعرض لمزيد

(٢٧) عن المعلومات الخاصة بدور زنجبار كمركز تجارى رئيسى خلال حكم سعيد بن سلطان راجع « أفريقيا الشرقية وغزاتها بداية من العصور الاولى حتى وفاة سعيد سنة ١٨٥٦ » تأليف : آر . كوبلاند (طبعة أكسفورد سنة ١٩٣٨) . و « زنجبار » تأليف أربرتون (طبعة لندن ١٩٧٢) و « زيارة الى زنجبار سنة ١٨٣٨ » من سجلات الحكومة الهندية ، و « تقرير عن مملكة زنجبار (دموينيون) » تأليف : سى . بى . رجبى — من سجلات حكومة بومبي (بومبي ١٨٦١) .

من المتاعب من جانب العناصر المتزمتة والمحافظة مما أسهم في تدهور الأوضاع في بعض أجزاء المملكة • وترجع أسباب المشاكل الداخلية التي أخذ يواجهها سعيد الى امتداد النفوذ الوهابي الى أواسط الجزيرة ، مما جعل لهذا الوضع انعكاساته السيئة على الحالة الاقتصادية في عمان • وعلى سعيد أوسع أصبح التدخل الأجنبي في شؤون البلاد عاملا له تأثيره على سياسة المنطقة ، وبصورة غير مباشرة على حياة سكان الامارات الواقعة على الخليج وذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر • ولسوف نعود الى بحث المضاعفات السياسية للتدخل الأجنبي لاحقا ، غير أنه يبدو من المناسب أن نشير الى أن اقتصاديات منطقة الخليج بأسرها بدأت تتضرر نتيجة لتدفق السلع الأوروبية الصنع الى المنطقة • ففي الأربعينات من القرن التاسع عشر حل التدهور بصناعة المنسوجات المحلية في ايران بعد أن أغرقت أسواق المنطقة بالسلع القطنية البريطانية الرخيصة ، وبالتالي سادت المدن الايرانية موجة من الكساد الشامل مما أثر على شركاء ايران التجاريين كعمان (٢٨) • وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر أيضا أرغم البريطانيون سعيد على الحد من تجارة الرقيق ضمن مملكته • بحيث انخفض معدل أرقام تصدير العبيد من زنجبار في الخمسينات الى خمس معدله السابق تقريبا (٢٩) • وكان من الطبيعي أن تعاني السفن العمانية والتجار العمانيون من تلك التطورات • ومما يدل على تدهور الوضع الاقتصادي أن السلطان لم يكن يحصل مقابل الامتيازات الجمركية على أكثر من ٨٠ ألف ريال نمسوى في سنة ١٨٥٤ مقابل ١٠٥٠٠٠ ريال نمسوى في سنة

(٢٨) بالرغم من معالجة هذا الكتاب للموضوع على أساس المفهوم الطبقي الماركسي ، فإنه يعتبر من أفضل المراجع التي تتناول التصدعات الاقتصادية في ايران في الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر • الكتاب من تأليف : آم : أس اينانوف .

(٢٩) مذكرات انطباعات عن رحلة الى مانجونجا ، وزنجبار ، ومسقط ، وعدن ، والى غيرها من الموانئ الشرقية .

١٨٣٥ (٣٠) • وبالرغم من تدهور الحالة الاقتصادية في عمان بالمقارنة الى وضعها في سنة ١٨٠٠ فقد ظلت مدينة مسقط خلال حكم سعيد ميناء ومنطقة للتبادل التجاري في الخليج ، بالاضافة الى دورها كنقطة ارتكاز للنشاط التجاري في منطقة المحيط الهندي ، يحث كان يتم نقل نصف تجارة الخايج في السفن العمانية (٣١) • وهكذا وبرغم الكساد الذي طرأ على تجارة المنطفه بوجه عام فان ذلك لم يؤد الى تدهور اقتصادي خطير ، كما لا ينبغي أن نبالغ في تصوير الاثار التي ترتبت على ذلك الركود الاقتصادي •

ومن رأى الرحالة الذين زاروا مدينة مسقط في أيام سعيد أن المدينة ظلت محتفظة بازدهارها وجمالها ، وتطل مدينة مسقط على البحر حيث يزدحم ميناؤها بالنشاط والحركة وهو على شكل خليج يحيط بالمدينة من جانبيها وتقوم على كل جانب منه احدى القلعتين اللتين بناهما البرتغاليون • وتضفى المنازل البيضاء مشهدا خلابا على المدينة من البحر ، وذلك على عكس حقيقتها اذ هي مدينة قذرة بالنسبة للأوربيين ، وتنبعث منها رائحة كريهة في حين أنها مزدحمة بالسكان • وهي محاطة من جميع جهاتها باستثناء الناحية البحرية بسور يبلغ ارتفاعه ١٥ قدما ، تخترقه بوابتان ، لحراستها ، وتتناثر الأسواق في المنطقة الواقعة ضمن السور ، ومعظم شوارع المدينة ضيقة لا يزيد عرضها على ١٠ أقدام وتحميها من الشمس المحرقة سقوف من سعف النخيل • وقد وزعت المحال التجارية داخل السوق ، بحيث يضم كل قسم منها نوعا من السلع ، وتتكون الحوانيت من فتحة مربعة مظلمة سعتها نحو ١٠ أقدام حيث يكدح فيها الصناع أو يعرض التجار سلعهم على الأرصفة التي تفصلها بين الجانبين طريق • أما منازل الأثرياء فتتكون من طابقين أو ثلاثة طوابق ، تحيط بها ساحة مسورة لها حوائط داخلية من

(٣٠) رحلات الى العربية ج . آر . وولستد .

(٣١) أو سنجود .

الخيزران وسقوف بيضاء مزينة برسوم هندسية بديعة • أما الأرضيات فمغطاة بالحصر أو السجاجيد • بينما يعيش أفراد الطبقات الفقيرة في أكواخ وعشش قذرة • وبالإضافة الى سكان البلاد العرب يقيم فيها الهنود ، والایرانيون ، والتجار والحرفيون اليهود ، الى جانب العمال الوافدين اليها من منطقة بلوشستان ، ومن العبيد الأفريقيين • وتعتبر الظروف المادية لهذا الخليط ، في نظر المراقبين : « أفضل بكثير » من أوضاع أمثالهم في أغلب المدن الآسيوية • وإلى جانب الطبقة الغنية يوجد الفقراء والشحاذون • وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر كان عدد سكان مدينة مسقط يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ ألف نسمة • ذلك بفضل ما كانت تزخر به من امكانات الثراء والنشاط التجاري ، حيث كان في امكان أى فرد أن يجمع ثروة ، وذلك بالرغم من الكساد التجاري الذي كانت تعاني منه في تلك الفترة (٣٢) •

ان الجو الاقتصادي المضطرب الذي كانت تعيشه عمان في الفترة بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٥٦ لم يكن يضارعه في الاضطراب والتصدع غير الجو السياسى خلال نفس الفترة • ويعود ذلك الى الانقسامات التي كانت تمزق القبائل الأباضية ، وبصورة خاصة الخلاف بين الجناح المعتدل والجناح المتطرف خلال حكم سعيد ، الذي انفجر بعد وفاة الامام أحمد وتفاقم بسبب الخلافات التي نشبت بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها ، بالإضافة الى الخطر الذي كان يمثله تغلغل الوهابيين في منطقة جنوب شرقي الجزيرة وأخيرا التدخل البريطاني المتزايد في شؤون عمان •

لقد ألمنا بردود فعل المحافظين ضد ما كانوا يعتبرونه خروجاً على تقاليد الدين من جانب حكام آل بوسعيد ، غير أن اطاحة سلطان البوسعيد ،

الذين كانوا يتمتعون بمركز ونفوذ قويين في ذلك الوقت لم يكن من الأمور السهلة • وبمضى سنوات القرن التاسع عشر ، ارتبط حكم آل بوسعيد بمنطقة الساحل ارتباطا أكثر باعتبارها المنطقة التي كانوا يستغلون ثروتها ويشرفون على حمايتها • وكان أول الحكام المهمين في أسرة البوسعيد بعد الامام أحمد ، هو سلطان بن أحمد ، أحد أبنائه (١٧٩٣ — ١٨٠٤) الذي يعتبر عهده من وجوه عديدة ذروة ما بلغه حكم الأسرة المذكورة من مكانة وازدهار • لقد كانت أمنية سلطان الكبرى هي تحويل عمان الى امبراطورية بحرية تخضع لحكم صارم وتضم ضفتي الخليج العماني ، والجزر الرئيسية في الخليج ، بالإضافة الى النقاط الاستراتيجية على الجانب العربي للخليج ، والمستعمرات العمانية في أفريقيا الشرقية • وحتى ذلك الوقت كان النفوذ العماني في الخليج مائعا ، ولم يكن يهدف الى فرض سيطرة كاملة على النشاط التجاري فيه ، وانما كان يكتفى بمجرد الوجود • وعلى أي حال فقد أدخل أحمد بعض القوانين ، منها فرض رسم عبور على السفن أثناء دخولها الخليج وخروجها منه • غير أن تلك القوانين قد ضاعفت من حدة العداء بين عمان والامارات النامية في الخليج ، وتسبب في النهاية في اشعال حرب سافرة بينهما • وقد كان الصراع في البداية يسير في مصلحة سلطان ، غير ان هذا الموقف تغير بعد حصول الامارات على مساعدات من حلفائهم الوهابيين السعوديين الذين كانوا أثناءها يسيطرون على أواسط الجزيرة العربية • فبالإضافة الى تمسك حكام الامارات المذكورين بالصيغة الوهابية للإسلام وقبولهم الوصاية الاسمية السعودية على اماراتهم ، تلقى هؤلاء الحكام مساعدات كبيرة منها قيام الوهابيين بغارات برية مسلحة على عمان • وفي غمرة هذه الأحداث لقي سلطان مصرعه في احدى العمليات الحربية التي كان يقودها ضد قواسم رأس الخيمة ، احدى الامارات المناوئة لعمان • وقد بدا يومئذ ان عمان ، وهي تحت ضغط العصبية الطائفية التي تمزقها ، وفقدانها للزعامة السياسية ، وازاء أعداء أقوياء يحاصرونها ويتربصون بها

من البر والبحر ، سوف تسقط لقمة سائغة في قبضة النفوذ الوهابي (٣٣) .
ولكن أمكن تفادي هذا المصير بفضل ثلاثة أحداث : الأول نجاح سعيد
النجل الأصغر والمتحمس لأحمد في الوصول الى السلطة وملء الفراغ الناتج
عن فقدان الزعامة سنة ١٨٠٧ — الأمر الذي وضع نهاية لحرب أهلية استمرت
أربع سنوات بعد وفاة سلطان ابن أحمد . وكانت أول خطوة قام بها هي
اقناع الوهابيين عن طريق الرشوة بالكف عن مهاجمة الحدود العمانية .
والعامل الثاني تحالفه مع بريطانيا منذ سنة ١٧٩٨ كرد على هجمات العرب
المؤيدين من الوهابيين في مياه الخليج مما أدى في سنة ١٨٢٠ الى قمع
القوى البحرية المناوئة لعمان ، أما العامل الثالث فهو الجزر التدريجي
للفوذ الوهابي ، بعد أن اضطروا الى تحويل قواتهم لمواجهة الحملات التي
أخذت تشنها عليهم بعض دول الشرق الأوسط ، وكنتيجة للغزو الذي قامته
به جيوش محمد علي والى مصر سنة ١٨١١ م للحجاز انهارت الدولة
السعودية نفسها مؤقتا في نحو سنة ١٨١٨ م (٣٤) .

ومن العوامل التي أسهمت في تفجير الموقف السياسي في عمان بين
سنة ١٨٠٠ م وسنة ١٨٥٦ م هو التسلل الغربى الى المنطقة ، ممثلا في
التدخل البريطاني الذي كان مقدرا أن يترك آثارا بعيدة المدى . وبالرغم من
أن الوجود الغربى لم يتخذ صورة شاملة قبل النصف الثانى من القرن التاسع
عشر ، فان الوجود البريطانى قد تحول الى سيطرة دائمة على الخليج في بحر
السنوات الأولى من القرن . فهذا النفوذ الذى تمثل في معاهدات الصلح
البحرية ، وتدعمه الدوريات المسلحة ، والاشراف السياسى ، كان له تأثيره
في احداث التغييرات السياسية . بيد أن هذه التأثيرات قد تبلورت في النهاية

(٣٢) سيرة حياة السيد سلطان بن أحمد : اس . مايلز من تقرير للاميرالية
البريطانية ١٨٨٧ — ١٨٨٨ وابن رزيق ص ٣٣ — ٢٣٩ ، والسالى فصل ٢ ،
ولوريمر جزء أول ص ٢٤٠ — ٤٣٥ وانطباعات عن السعودية مجلد ١ ص
١٠٠ — ١٤١ .

(٣٤) ابن رزيق ص ٢٥٥ ، وفيه يتناول الفترة الاولى من حكم سعيد .

الى الحد الذى أفضت الى قلب المفهوم التقليدى لحضارة الخليج ، كما وضعت الأسس الأولية لتسلسل الثقافة الحديثة الى المنطقة • ولما كانت عمان متحالفة مع بريطانيا ، فقد كانت تمارس حدا كبيرا من الحرية نظير الرقابة التى كانت تمارسها بريطانيا على الخليج • كما أنها لم تكن من الدول الموقعة على معاهدة الصلح التى كبلت الامارات العربية الأخرى فى الخليج • وعلى أى حال فقد اتضح ، فى منتصف القرن التاسع عشر ان بريطانيا تمكنت من تجريد عمان من الصلاحيات التى كانت تمارسها على شؤون الخليج ، مما أصبح يحد من استقلالها وحريتها فى العمل ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالحروب البحرية ، وبتجارة الرقيق ، والشؤون الاقتصادية • ومن ناحية أخرى فان فشل المحاولة العمانية فى الاستيلاء على البحرين سنة ١٨٢٨ م قد وضع خاتمة لسياسة خارجية هجومية مستقلة فى الخليج • وفى الأربعينات من القرن عززت الاتفاقية الجديدة التى عقدتها عمان مع الحكومة البريطانية والاتفاقيات الأخرى التى عقدت مع فرنسا والولايات المتحدة من الوجود الغربى والامتيازات الأجنبية فى عمان • فقد أعفى رعايا الدول الغربية ومستعمراتها من الخضوع لسلطة القوانين المحلية ، كما حددت نسبة أدنى من الرسوم على المنتجات الأوربية مقدارها ٥ بالمائة هذا فضلا عن أن البريطانيين ، استنادا الى « معاهدة مورسبى Moresby Treaty » ظلوا يضغطون على سعيد للحد من تجارة الرقيق الرابحة ، وهو اجراء كانت تعارضه جميع طبقات الشعب العمانى ، الأمر الذى أسهم فى زيادة المشاكل فى البلاد (٣٥) •

ومن ناحية أخرى فان تدخل الوهابيين السعوديين قد أسهم فى مضاعفة

(٣٥) وردت تفاصيل نمو النفوذ البريطانى والعلاقات الانجليزية العمانية فى مطلع القرن التاسع عشر فى كتاب Precise Gulf كما تناول الموضوع كل من كيلي فى « السياسة البريطانية » ١٨١٣ — ١٨٤٣ م وكتاب « وضع بريطانيا فى الخليج » .

موجة القلاقل التي كانت تجتاح البلاد • وبالإضافة الى أن الوهابيين دنوا يشكون تهديدا مستمرا لاستقلال عمان السياسى ، فمما لا ريب فيه أن هذه الاحداث قد هزت الأبازيين العمانيين على كلا الصعيدين الدينى والعائدى • غير أن بعض قبائل الغافرية من سكان الصحراء قد اعتنق المذهب الوهابى • ولئن الأهم من هذا ان رجال الفكر الأبازيين أخذوا يقيمون الأوضاع الأمر الذى أسهم فى تثبيت دعائم الاتجاهات المذهبية المحافظة فى عمان • ورغم أن الخطر الوهابى قد خف مؤقتا فى الفترة من سنة ١٨١٨ م الى سنة ١٨٣٣ م الا أنه لم يزل نهائيا قبل عام ١٨٧٠ م •

وازاء الأوضاع الاقتصادية غير المضمونة ، والحروب ، والتدخل الأجنبى ، والغليان العائدى ، لم يكن غريبا أن يصطدم آل بوسعيد بمعارضة متزايدة لحكمهم فى عمان (٣٦) •

لقد تحدثنا عن المعارضة التى كان يمثلها الجناح المحافظ • غير أن هناك جانبا آخر للمعارضة وهو الجانب الذى تمثل فى ظهور صراعات عائلية بين أفراد الأسرة الحاكمة أنفسهم • وفى مطلع القرن التاسع عشر تبلور هذا الصراع ضمن فريقين من أبناء أحمد ، فريق سلطان بن أحمد وفريق قيس ابن أحمد والى مقاطعتى الباطنة ومدينة صحار • وعندما نجح سعيد بن سلطان فى احتلال مركز والده فى سنة ١٨٠٧ م ، ترك عمه فى حالة مسخط مرير عليه ان لم يكن قد تركه فى وضع الخصم المهزوم • ولقد ظل الصراع بين أبناء سلطان وقيس من السمات المميزة للتاريخ العمانى على امتداد القرن التاسع عشر • وعلى وجه العموم فقد كان فريق سعيد يؤيد الجناح المعتدل بينما كان فريق قيس يظاهر الجناح المحافظ • والواقع أن

(٣٦) لقد تناول موضوع التدخل السعودى فى عمان وندر فى كتابه « الدولة السعودية » كما تناوله ج . ب كيلي فى كتابه « الحدود الشرقية للجزيرة العربية » الذى قام بنقله الى العربية مترجم هذا الكتاب .

فريق العلماء المؤيد للجناح المحافظ وبقيادة شخصية سوف نعرف عنها الكثير لاحقا ، وهى سعيد بن خلفان الخليلى — وكانت أحد العوامل الفعالة فى حركة الامامة المتطرفة فى منتصف القرن التاسع عشر ، أخذ يتآمر لبعث الامامة فى عمان تحت زعامة حمود بن عزان ، انطلاقا من مبدأ الأمر الواقع الذى كان يمارسه على منطقة صحار وساحل الباطنة الشمالى، وذلك باطاحة حكم سعيد من البلاد . ولما كان سعيد يومئذ مشغول بمشروعاته الناجحة فى أفريقيا الشرقية حيث كان يمضى معظم أوقاته فى زنجبار ، فانه لم يكثر بالخطر الذى كان يهدده فى عمان . ولم يعد الى البلاد الا فى سنة ١٨٥١ م بعد أن نصحه البريطانيون الذين بدأ الخوف يساورهم من تغلب العناصر المتطرفة ، وبعد اقضاء جماعه قيس من الباطنة واحتواء حركتهم مما أعاد الاستقرار الى الجزء الساحلى من عمان، بينما بقيت المنطقة الداخلية تضطرم بالقلق (٣٧) .

عمان فى سنة ١٨٥٦ — ونهاية عهد : كانت وفاة سعيد سنة ١٨٥٦ م نهاية لعهد كان يعتبر حاكمه آخر حاكم بارز فى الخليج ويعتبر عهده مرحلة ناجحة فى اطار الحضارة التقليدية للمنطقة ونظامها الديناميكي القديم ، اذ أن تأثير الامبريالية الغربية وعملية التحديث للمنطقة دمرت البناء السياسى العام ان لم تكن قد دمرت كل خاصية من خواص ذلك النظام وذلك بعد

(٣٧) ان ظهور المعارضة ممثلة فى الفئات الاباضية المحافظة للسلطان سعيد والتي بلغت ذروتها سنة ١٨٤٦ م عند انتخاب محمود بن عزان ولكن الاخير اعرض عن قبول منصب الامامة . ممكن الاطلاع على تفاصيلها فى التحفة للسالمى فصل ١ ص ١٨٦ ، — ٢٢٠ . راجع أيضا كتاب ابن رزق ص ٢٥٩ — ٣٧١ وفى « موجز تاريخ عمان » ، تأليف آى روس ، والتقارير الادارى سنة ١٨٨٢ و « سيرة حياة السيد سعيد » ، تأليف أس . مايلز والتقارير الادارى ١٨٨٣ — ١٨٨٤ و « سعيد بن سلطان » ، تأليف : آر . سعيد روييتى (١٧٩١ — ١٨٥٦) و « حكام عمان وزنجبار » (طبعة لندن ١٩٢٩) ، و « Precis Gulf ويتناول حكم سعيد بن سلطان فى عمان . أما موقف البريطانيين من اهمال السيد سعيد لشؤون عمان بعد سنة ١٨٢٨ . فيمكن الرجوع اليه فى سجلات حكومة الهند — ١٨٥٦ ص ٢٠٥ و ٢١٧ — ١٩ .

أعوام قليلة من وفاة سعيد • غير أن الخليج ظل حتى سنة ١٩٥٦ م محتفظا على وجه العموم بحضارة ما قبل القرن السادس عشر في إطار ما أسميناه « بالمعهد الفضي » فحتى ذلك التاريخ كانت عمان لا تزال قوة سياسية كبرى بين دول الخليج كما كانت مدينة مسقط مركزا ملاحيا وتجاريا هاما في المنطقة •

كما ظلت الدولة العمانية حتى ذلك الوقت امبراطورية ملاحية تمتد ممتلكاتها آلاف الأميال عبر سواحل المحيط الهندي • وكانت سفنها تجوب آفاق ذلك المحيط وكانت هذه الامبراطورية تتألف من ساحل عمان الشرقي ، وشمال صحار ، وميناء جواذر في مكران وجزيرتي زنجبار وبمبا على الساحل الشرقي لافريقيا ، والمنطقة الأم في أفريقيا وهي التي تحيط بممباسا ودار السلام ، كما كانت هذه الامبراطورية تمارس نفوذا على عمان الداخلية ومكران فيما وراء مستعمرة جواذر ، والساحل الشرقي من أفريقيا ، شمال موزمبيق حتى الصومال ، وفي اتجاه الداخل نحو البحيرات الكبرى في أواسط أفريقيا • كما كانت دولة عمان تستأجر ميناء بندر عباس في ايران وجزيرتي كشم وهرمز على الجانب الايراني من الخليج العربي • وكانت مسقط عاصمة هذه المنطقة التي تشعبت كخيوط العنكبوت والتي ترتبط ببعضها البعض عن طريق الخطوط البحرية ، وبالرغم من زنجبار وهي المكان المفضل لدى سعيد ، كانت قد وصلت الى نفس المستوى من الأهمية ، وكان يشد هذه الامبراطورية الى بعضها البعض صلات تجارية متينة قوامها الملاحون العمانيون الذين كانوا يستغلون المستعمرة الافريقية الغنية التي كانت تمثل أكبر مورد للتجارة والثراء وأكبر سوق للعبيد •

وأيا كان الوضع فلا يجوز أن نبالغ في تصوير التناسق الذي اتسمت به المملكة العمانية في ذلك العهد أي في سنة ١٨٣٦ م • فالسلطة المركزية لم تكن قوية الا في بعض أجزاء البلاد كمدینتی مسقط وزنجبار ، بينما كانت مزعزعة في المناطق الأخرى ، أما في داخلية عمان فقد كادت

الاضطرابات القبلية والمعارضة ضد الحكم التي كانت تتمثل في الجناح المحافظ ، والاعتداءات الوهابية المستمرة على الأراضي العمانية كل هذه العوامل كادت أن تنسف سلطة البوسعيد في المنطقة الساحلية ومن البلاد ، غير أن دبلوماسية سعيد وحسن استغلاله لإمكانياته قد نجحت في تأمين الأوضاع في عهده . فعن طريق التحرك الدبلوماسي ، وتقديم الرشاوى وردفع الجزية استطاع سعيد وقف الخطر الوهابي بعد أن تجدد هذا الخطر في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر . ومن ناحية أخرى نجح سعيد في احباط محاولة الفرس لضم مناطق النفوذ العمانية على الساحل الايراني . والواقع ان المحافظة على مناطق النفوذ العمانية الشاسعة كانت تعتمد في الغالب على الاستغلال الأقصى لموارد الدولة التي كانت التجارة الخارجية من أهم مصادرها . ومن هذه الموارد كانت الدولة تسد نفقاتها والاعانات القبلية والمنح والرشوات الى النفقات الحربية . ويقدر دخل الدولة في سنة ١٨٤٠ م بمبلغ ٦١٠٠٠٠ ريال نمسوى أو ١٢٠٠٠٠ ج . س . وثمانية بنود أخرى للدخل هي الضرائب الجمركية وتجارة الرقيق ، والايجارات بالاضافة الى الأرباح التجارية وبيع العقارات الخاصة بالسلطان نفسه . كما كان يحصل على مبلغ ٢٠٠٠٠٠ ريال نمسوى من بيع محاصيل القرنفل التي كان يملكها في زنجبار^(٣٨) . وكان هذا البند يمثل نحو ثلثي دخل البلاد .

وعلى الرغم من أن عددا لا يستهان به من الرحالة الأوروبيين قد أطلقوا على السلطان سعيد لقب الامام سعيد ، الا أنه لم يكن يتخذ من الدين أساسا للحكم . وانما كان حكمه حكما علمانيا أشبه بنظام الحكم الفارسي القديم في امارات الخليج التجارية . ولكن هذا الطابع العلماني لنظام الحكم كان هدفا سهلا للعناصر المتطرفة التي كانت تتهمه بالانحراف

(٣٨) ابن رزيق ومذكرات أسكود ص ٢٣ — ٢٤ وسجلات ارتشيف حكومة بومباي لسنة ١٨٥٦ م ص ٢٣٨ ، ٢٧٦ — ٢٨٨ و ٦٣١ .

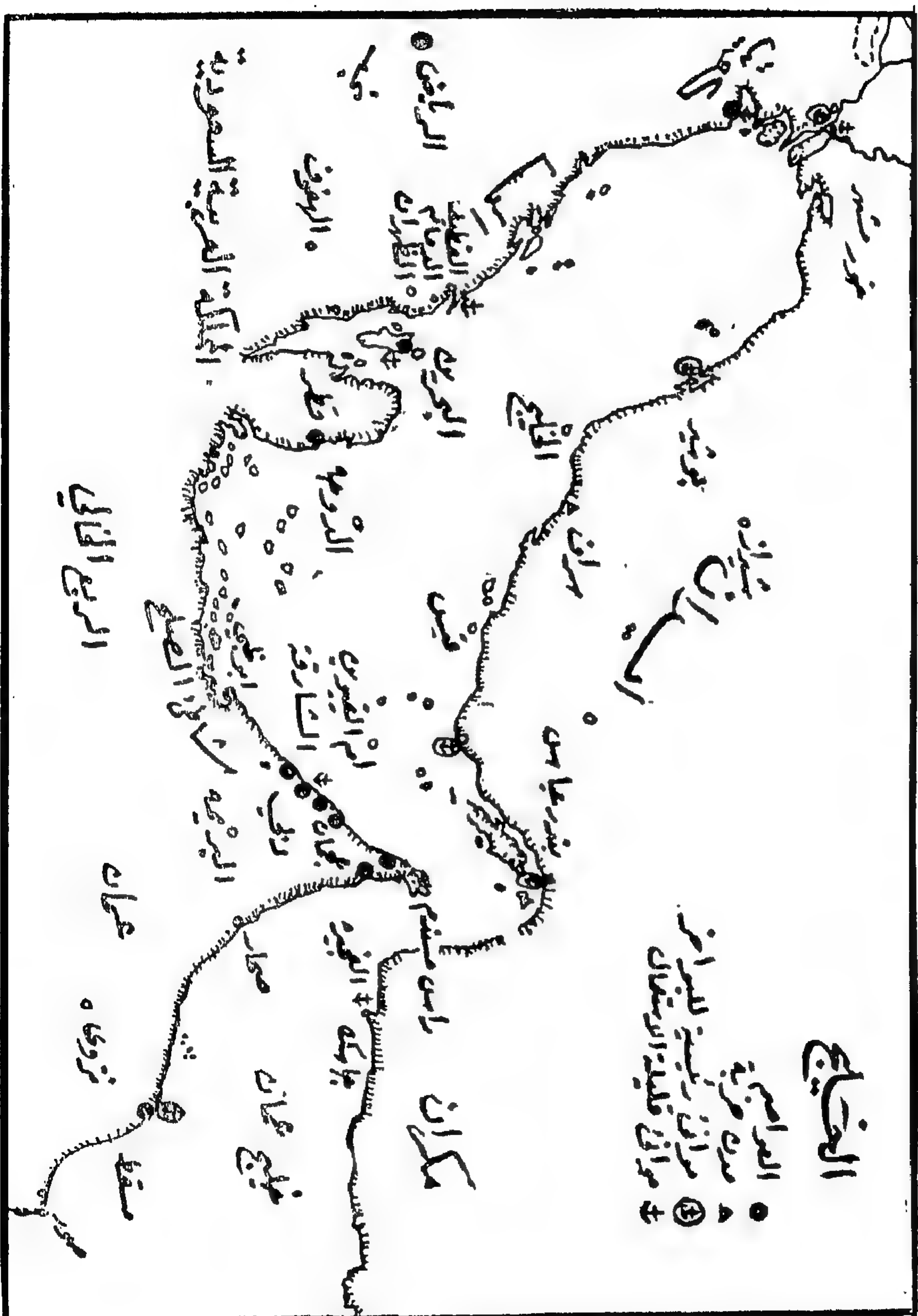
وبإقامته نظاما ملكيا يتعارض مع تعاليم الدين الحق (٣٩) ، وكرجل ادارى كان سعيد يوزع أوقاته بين زنجبار ومسقط . وكان ينيب عنه أحد أبنائه عندما كان يتغيب من منطقة أو أخرى من مناطق حكمه وكان ينفق الجزء الأكبر من موارده على دعم الأسطول الذى كان يتألف فى أوج قوته من ١٥ سفينة حربية من الطراز الأوروبى و ٧٤ سفينة مقاتلة وخمس فرقاطات وعدد كبير من السفن الغربية الطراز . وفى أوقات السلم كان يعمل هذا الأسطول على الخطوط التجارية والمشروعات المربحة . وعلى الرغم من أن هذا الأسطول لم يكن على درجة كبيرة من الفاعلية القتالية ، على حد رأى خبراء البحرية البريطانية ، إلا أنه كان فى استطاعته ، على حد تقديرهم ، نقل ٢٠.٠٠٠ رجل . وكان سعيد ، كزميله ولیم الرابع ، ملك إنجلترا من « هواة البحر » وكان يستمتع بهذه الهواية أيما استمتاع وكان أسطوله همزة الوصل بين أجزاء مملكته المبعثرة . ورغم احتفاظه بحيش صغير من المرتزقة ، تقتصر مهمته على أعمال الحراسة فقد كان سعيد أكثر ميلا إلى التجارة منه إلى المناورات السياسية ضد القوى القبلية فى البلاد (٤٠) .

(٣٩) السالى فصل ٢ ص ١٨٦ ومن ١٨٦ — ٢٢٠ وابن رزىق ص ٣٦٨ —

٣٧٠ .

(٤٠) رحلات إلى الجزيرة العربية فصل ١ ص ٤٠٠ تأليف وولستد وتقرير عن زنجبار تأليف رجبى . من السلسلة الجديدة لسجلات حكومة بومبى رقم ٩ (١٨٦١) ، ص ١٨ — ١٩ و « ترسانة بومبى » ، تأليف واديا ص ٣٣٤ و ٣٣٧ . تكاد تكون كل قطع أسطول السيد سعيد قد تم بناؤها فى الهند وفقا للطراز الأوروبى . وقد دشنت أكبر سفينة فى هذا الاسطول واسمها ليفربول ومسلحة بـ ٧٤ مدفعا وحمولتها ١٨٨٩ طنا فى بومبى فى سنة ١٨٢٦ . غير أن السيد سعيد قد أدرك أنه لا يستطيع الاحتفاظ بهذه المدرعة ، فقرر الاستغناء عنها فقدمها هدية للملك ولیم الرابع فى سنة ١٨٣٦ كمحاولة لتحقيق مضمون دبلوماسى .

وقد أعيد تسمية السفينة باسم « الامام » تكريما لمهديها . وقد تم تفكيكها فى سنة ١٨٥٢ بعد أن ظلت تعمل فى جمايكا كسفينة استقبال . وفى الثلاثينات كان الاسطول العمانى يعادل ٣ أضعاف أسطول الهند الشرقية البريطانى على حد رأى وولستد . على أن التقديرات لهذا الاسطول تتراوح . وربما كان للسلطان قوة من ١٥٠٠ رجل فى عمان ، و ١٣٠٠ فى زنجبار ، كما كان فى وسعه أن يجند قوة اضافية من ٥ آلاف و ١٠ آلاف من القبائل العمانية فى الأحوال الطارئة .



لقد كان النفوذ الأجنبي — والبريطاني منه على الأخص — في عملية تصريف سعيد لشؤون الدولة على جانب كبير من الخطورة في سنة ١٨٥٦م ، إلا أننا لا ينبغي أن نبالغ في تصوير هذا النفوذ . لقد كانت الحقيقة البارزة في علاقات عمان الخارجية هي التحالف مع البريطانيين . وهو تحالف قد أثبت فعاليته على امتداد الفترة التي حكم فيها آل بوسعيد ، وعلى الأخص في احباط محاولات الوهابيين للسيطرة على عمان . وعلى أي حال ، فقد كان لهذا التحالف جانبه السلمى أيضا . وهو اضطرار سعيد الى إلغاء تجارة الرقيق التي يبيحها الاسلام والتي كانت تدر عليه دخلا كبيرا .

كذلك فان بريطانيا وغيرها من دول الغرب قد حققت نفوذها في عمان بوسائل غير الوسائل الدبلوماسية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . لقد كانت نسبة كبيرة من تجارة عمان مرتبطة بالهند عن طريق السلع الاستهلاكية التي كانت تستوردها عمان من تلك البلاد الأمر الذى كان يتمثل في وجود عدد كبير من التجار الهنود في الأضى العمانية . وتعد اجتذب الازدهار التجارى لزنجبار أعدادا كبيرة من التجار العرب والهنود ، والأوربيين والأمريكيين تمخض عن ابرام اتفاقيات تجارية بين عمان من ناحية والولايات المتحدة سنة (١٨٣٣ م) ، وبريطانيا (١٨٣٩ م) من ناحية أخرى ، فضلا عن سلسلة من المعاهدات السياسية كما مع فرنسا في (سنة ١٨٤٢ م) . وبمقتضى هذه المعاهدات حصل الغربيون على امتيازات تجارية حددت الرسوم الجمركية على أساسها بنسبة ٥ بالمئة فقط . وبما أن تلك المعاهدات قد أعطت الغربيين امتيازات اقليمية خاصة في عمان ، فقد كان طبيعيا أن تعفى الجاليات التجارية في عمان من الخضوع للسلطة المحلية (٤١) .

(٤١) للاطلاع على نصوص هذه المعاهدات وغيرها بين عمان والدول الغربية التى أبرمت قبل سنة ١٩٣٠ . راجع تقارير ايتشيسون — ١٩٣٢ — =

وخلاصة القول أنه عندما قضى سعيد تنجبه سنة ١٨٥٦ م كان حاكما
مستقلا الا أنه كان يحكم في مجتمع يخضع لنفوذ أجنبي واسع وبلد معرض
لفوضى داخلية واقتصاد مزعزع •

= ١١ و ٢٧ و ٣٤ كانت الامتيازات الاقليمية في الخليج شيئا مألوفنا بحكم العادة
والعرف ، قبل أن تتحول الى نصوص محددة في المعاهدات .

الجزء الثاني

تأثير المرحلة الاقتصادية والتكنولوجية
الحديثة على الوضع في عمان

الفصل الثالث

بداية المرحلة العصرية في الخليج

عندما فرضت بريطانيا نظام الرقابة البحرية على المياه الإقليمية للخليج عام ١٨٢٠ ، كان هذا الحدث ايذاناً بالتحول النهائي لا في النظام السياسي القائم يومئذ ، وانما في التركيب العام للحضارة التقليدية للمنطقة في مختلف جوانبها . ومهما يكن فمئذ عام ١٨٢٠ وحتى الستينات من القرن التاسع عشر كان تأثير النفوذ البريطاني في المنطقة محصوراً في نطاق الطبقة السياسية العليا ، ولم يكن يمس الجماهير العريضة الا في أضيق الحدود ، وحتى على مستوى الطبقة العليا فقد كان هذا النفوذ يمارس في شكل ضيق . ولم يكن الهدف الأساسي منه تحقيق مطامع مادية أو سياسية ، أو فرض السيطرة ، بقدر ما كان للحيلولة بين حكام الخليج والقيام بأعمال حربية أو تخريبية في المنطقة . ولم يبدأ الصدام بين المصالح البريطانية ومصالح الطبقات التجارية والملاحية في الخليج قبل الأربعينات من القرن التاسع عشر عندما قررت بريطانيا الحد من تجارة الرقيق . وعلى الرغم من أن المحاولات الأولى لفرض سيطرة امبريالية سافرة وأشد مفعولاً وعنفاً ، كانت قد بدأت في الفترة الواقعة بين العشرينيات والستينيات من القرن التاسع عشر ، الا أن الحياة العادية في الخليج لم تتأثر بذلك اطلاقاً .

وفي الستينيات من القرن التاسع عشر حدث أول تحول حقيقي وعميق وشامل في حياة الخليج الاقتصادية ، كنتيجة للتسلل الواسع النطاق للمؤسسات الاقتصادية الخاضعة للإشراف الغربي ، وما صاحب ذلك من أدوات تكنولوجية حديثة . ومن الآراء التي تقال في هذا الشأن أن التطور الاقتصادي بالمعنى العصري للكلمة لم يبدأ قبل ظهور صناعة النفط في الخليج . غير أن هذا الرأي ليس صحيحاً الى حد كبير ، إذ أنه في عام ١٨٦٢ م بدأت السفن البخارية بين الهند والخليج ، وغيرها من موانئ

المنطقة الغربية للهند نشاطها الملاحى • كما أنه فى منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر أدخلت المواصلات التلغرافية الى منطقة الخليج • وفى أواخر هذه الفترة كانت تجارة المنطقة تنتقل من أصحابها الى أيدي الهنود وغيرهم من وكلاء المؤسسات التجارية الحديثة ، التى كانت تمارس نشاطها من مراكزها فى الهند وأوروبا • وقد أسفر تسلسل المصالح الاقتصادية الغربية والتكنولوجيا الحديثة الى المنطقة عن تدهور فى أوضاع الطبقة التجارية والملاحية ، وعن انهيار للنظام الاقتصادى التقليدى والأسس المجتمع بكافة أوجه نشاطه وجوانبه بعد أن ظلت لفترة طويلة تعتمد على العمليات التجارية والملاحية التقليدية للمنطقة • وهكذا اكتشف البحارة العرب أن السفن البخارية الجديدة انما جاءت لتقضى على تجارة النقل القديمة التى كانوا يزاولونها • وما أن أخذت البواخر تزور موانئ الخليج حتى فقدت مدينة مسقط أهميتها كمركز لتجميع السلع وتوزيعها فى منطقة الخليج ، كما فقدت وضعها كمطقة اقتصادية رائدة للمنطقة استمرت نحو مائتى عام • والأدهى من ذلك أنه لم ينج أى مواطن من سكان ساحل الخليج من عواقب ذلك الوضع • وفى مستهل هذا القرن أصبحت حتى الأقمشة القطنية لسكان الريف من صنع معامل النسيج فى لانكشاير ، وكانت تنقل الى عمان بالبواخر •

ويجوز القول بأن ظهور صناعة النفط فى الخليج فى مطلع القرن العشرين ، تطور ايجابى من حيث الأساس ، اذ أنه على الرغم من تعجيله لعملية انهيار الأسس القديمة للأنظمة القائمة ، فقد تمخض عن البدء فى بناء نظام اقتصادى متين يمكن أن يقوم على أساسه نشاط اقتصادى حديث فى المستقبل • وعلى كل فان انشاء الخطوط الملاحية الحديثة كان له فى بداية الأمر تأثير مدمر على الحضارة الملاحية القديمة فى الخليج ، فضلا عن أن ادخال نظم حديثة على أى مجتمع غالبا ما يحمل فى طياته عوامل تدمير

حيث تنهار الأساليب القديمة في غمرة التيارات الجديدة (١) .

وعلى كل فان تاريخ الشرق الأوسط ومناطق أخرى كثيرة من العالم الأفريقي — الآسيوي ، كان على ما يبدو موضوع دراسة تستهدف بحث التفكك الناتج عن عملية المؤثرات الحديثة ، أكثر مما تستهدف محاولات بناء مؤسسات حديثة سليمة ومتينة بين ربوعه . وعلى غرار الخليج كان حل من إيران ، والأناضول ، ومصر ، وسوريا ، ولبنان يمر في ذلك الوقت بمرحلة غير مشجعة ، كنتيجة لظهور معالم حضارية جديدة تحل محل المؤسسات والقيم والتطلعات القديمة المنهارة .

وعلى الرغم من أن القرن التاسع عشر كله كان مرحلة من مراحل التغيير الثوري في الخليج العربي ، فقد كانت الفترة من سنة ١٨٦٢ م حتى سنة ١٨٧٢ م بصورة خاصة بمثابة ثورة حقيقية في الأوضاع . فخلالها تمت تغييرات جذرية وسريعة في التقاليد السياسية والاقتصادية للمنطقة أعقبها ظهور تنوع في الأوضاع الاجتماعية لا يقل أهمية عن التطورات نفسها . وقد تضررت عمان ، الدولة التجارية والملاحية الرائدة ، والقوة السياسية الهامة ، ان لم تكن المسيطرة في تلك الفترة التي وافقت وفاة سعيد سنة ١٨٥٦ م تضررا مباشرا من تلك التطورات ، ان سقوط عمان من المركز الذي كانت تتبوأه في الخليج الى جضيض الضعف السياسي والركود الاقتصادي ، سوف يبقى مثالا حيا للآثار المدمرة التي تنطوي عليها عملية التغيير في بعض المجتمعات .

(١) يرد اصطلاح ادخال الأنظمة الحديثة أو « التحديث » في هذا الكتاب كتعريف للطريقة التي يواجه بها المجتمع أو يتكيف مع تلك المجموعة من الأفكار الثورية والتكتيكية التي ظهرت لأول مرة في أوروبا الغربية ابتداء من القرن الثاني عشر وأدت الى دعم قدرة الانسان على تفهم بيئته والسيطرة عليها ، كما أسهمت مساهمة جذرية في تغيير علاقة الفرد ببيئته . وهي عملية يمكن النظر اليها من زاويتين :

تدمير ضمنى للعلاقات القديمة ، واقامة مؤسسات ومواقف وعادات جديدة . وهذا الكتاب يتناول الجوانب التدميرية للعملية .

أثر الخصائص الهندية على التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية في الخليج

تعتبر الهند من الناحية التقليدية من أقدم وأهم الشركاء التجاريين والملاحين لسكان الخليج العربي . وقد ظلت عمليات المقايضة للسلع الهندية مثل الحبوب ، والتوابل والأقمشة ، والأدوات الحديدية والكماليات لمئات السنين حتى القرن التاسع عشر وتمثل نسبة كبيرة من النشاط التجاري والملاحي لتجار الخليج وملاحيه . ومن المؤكد أن تجارة السلع والنقل التي بدأت من الهند كانت تشكل أهم عنصر في نشاط عمان التجاري . ومضى قرنان على هذا النحو حتى الستينيات من القرن التاسع عشر عندما سيطرت مدينة مسقط على النشاط التجاري للخليج وعلى الجانب الأكبر من تجارة النقل البحري للمنطقة الغربية من المحيط الهندي . وفي القرن التاسع عشر قبل أن تتحقق السيطرة الاقتصادية للمنتجين الغربيين على الخليج ، كانت الصناعة وتجارة التوزيع والتسويق للتجار الهنود من أهم العناصر في الحياة الاقتصادية لقسم واسع من سكان المناطق القريبة الى الهند في آسيا وأفريقيا . أما قبل العصر الحديث فقد كانت غالبية سكان ساحل المحيط الهندي تعتمد في حياتها على امتنان بعض الحرف والصناعات . وكانت الهند ، وهي وحيدة في الساحة ، تتمتع بمصادر غنية ، وبالتالي كان في وسعها تصدير الفائض من أغذيتها ومواردها الأولية ومنتجاتها ورؤوس أموالها ، بل وخبرتها التكتيكية الى جيرانها الأقل حظا من التقدم . ومن قدر له أن يزور مسقط في الثمانينات من القرن الثامن عشر ، كان لابد أن يلتقى فيها بعدد كبير من التجار ورجال الأعمال الهنود ، كما ويجد أن الجانب الأكبر من البضائع ، بما فيها الأقمشة التي يصنع منها أهل البلاد ملابسهم — اما أن تكون من إنتاج الهند أو وردت عن طريقها ، وقد يتناول طعامه على موائد تصطف فوقها أطباق كثيرة من الأرز الهندي .

وخلال معظم الفترة الطويلة التي اتسمت بوجود علاقة وثيقة بين

الخليج والهند ، كانت امارات الخليج تحتل من الناحية الاقتصادية مركزا ثانويا وان كان مهما بالقياس الى الهند . وكان بحسرة الخليج يملكون ويديرون جانبا كبيرا من السفن التي كانت تقوم بنقل المنتجات الهندية على امتداد منطقة المحيط الهندي . وكانت بعض مدن الخليج التي تعمل كنقطة لتجميع السلع التجارية و كمركز ثانوي لتوزيع البضائع الخاصة بمنطقة الساحل الغربي للمحيط الهندي تعتبر المركز الاقتصادي الرئيسي لمنطقة حوض المحيط الهندي بأسرها ، وذلك لنقل السلع من وإلى شبه القارة الهندية . كانت هذه هي طبيعة العلاقة الأساسية التي تربط عمان في عهد السيد سعيد بالهند خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فلقد كانت الدولة العمانية مركزا لشبكة توزيع السلع والمنتجات لمنطقة الساحل الغربي للمحيط الهندي ، وبالتالي كانت مشدودة الى النظام التجاري للهند ، ذلك النظام الذي كان منذ القرن السادس عشر جزءا من النظام الاقتصادي العالمي الخاضع للسيطرة الأوروبية .

على ضوء هذه العلاقات التاريخية ، لا يبدو غريبا أن تتم الاتصالات الأولى للخليج بالغرب ، ثم بالحضارة الغربية عن طريق الهند . وما أن دخل البرتغاليون الى الخليج بعد أن ثبتوا أقدامهم في شبه القارة ، حتى أخذوا يحولون تجارة الخليج الى الموانئ الواقعة على الساحل الهندي التي كانوا قد احتلوها ، كما يدافعون عن الخطوط البحرية المؤدية الى مستعمراتهم الجديدة . وكذلك الحال بالنسبة للبريطانيين ، فعندما أخذوا يتدخلون بالقوة في سياسة الخليج ويقيمون ما سمي فيما بعد « بالنظام المسالم » سنة ١٨٢٠ م ، انما كانوا في الواقع يدافعون عن مؤخرتهم ، وعن خطوط المواصلات البحرية التي كانت تربط امبراطوريتهم الجديدة في الهند . ومما لا يرقى اليه الشك أن البواعث التي حملت الانجليز في النهاية الى القيام بأول غزو تكنولوجي واقتصادي حديث للخليج في بحر الستينات من القرن التاسع عشر ، هي الآثار الجانبية للعديد من المشروعات البريطانية

التي كان الهدف منها دعم التنظيمات الحديثة في الامبراطورية الهندية .
وعلى ضوء المسيرة التاريخية ، فقد كان لابد وأن تنعكس التغييرات
الاقتصادية في الهند على الأوضاع في الخليج (٣) .

ادخال الوسائل الحديثة على المواصلات

في الهند ، ومنها الى الخليج

أشرنا سابقا الى النشاط الصناعي والتوزيعي والتسويقي للهند
قبل القرن التاسع عشر ، وكيف كان ذلك النشاط يسيطر على الأسواق
الآسيوية والافريقية الشرقية ، ليس لهذا وحسب ، بل ان المنسوجات
القطنية الهندية أيضا كانت تسيطر على جانب كبير من السوق الأوروبية في
القرن الثامن عشر . وعلى أية حال ففي مطلع القرن التاسع عشر بدأ
المنتجون الهنود يفقدون هذه الأسواق بعد غزو المصانع البريطانية الآلية
للشرق وكانت منتجات هذه المصانع تنقل الى الهند مباشرة على السفن
الأوروبية (وقد أخذ يتزايد عدد هذه السفن بعد سنة ١٨٤٠) ومن الهند
كان يتم توزيع تلك المنتجات على نطاق المحيط الهندي بالناقلات المحلية ،
أو بالسفن العمانية . وكان تأثير المنتجات الأوروبية على الهند والمناطق
الانتاجية الأخرى كإيران هائلا ، ففي منتصف القرن التاسع عشر انهارت
الصناعات اليدوية في الهند وبالأخص صناعة النسيج المهمة . ولم ينج
التجار الهنود من الكارثة الا عن طريق العمل كموزعين تجاريين للمنتجات
الأوروبية ، وللسلع المحلية وبذلك تكيفوا مع الأوضاع الجديدة (٣) .

(٢) انظر « تاريخ المحيط الهندي » تأليف ج . اوير (طبعة تاناناريف ،
بمدغشقر سنة ١٩٥٥) من ص ٢٢٩ الى ص ٢٦٠ وذلك للاطلاع على المركز
الذي كانت تحتله في حوض المحيط الهندي ، و « الاقتصاد الهندي » (طبعة
لندن ١٩٢٩) « تاريخ الهند » من اصدار اكسفورد تأليف في . آي . سميث
(طبعة اكسفورد ١٩٥٨) ص ٦٤١ — ٦٤٢ .
(٣) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد الطبعة الثالثة — اعداد بي سبير
(اكسفورد ١٩٥٨) ص ٦٤١ — ٦٤٢ .

ان التغييرات المدمرة التي تناولت البناء الاقتصادي للهند لم تؤثر في بداية الأمر على تجارة التوزيع في منطقة المحيط الهندي • فقد واصلت السفن العمانية وسفن الخليج نقل السلع من الهند — رغم كونها سلعا أوروبية الصنع — الى المناطق الأخرى على ساحل المحيط الهندي طوال عهد السيد سعيد • ولم يتدهور نظام التوزيع ومركز عمان وأقطار الخليج التجاري والملاحي في المحيط الهندي الا في الستينيات من القرن التاسع عشر تحت زحف التطور التكنولوجي الحديث •

وعلى كل ففى الثلاثينات من القرن اتضحت الأمور فقد أخذ حجم وتنظيم التجارة العالمية يدخل مرحلة من التصاعد السريع ، في ذلك الوقت كانت أوروبا منهكة في تطوير صناعة السفن البخارية ، والسكك الحديدية ، والصناعات الهندسية والتلغرافية ، مما ضاعف من كفاءة المواصلات وزاد من سرعتها •

وكنتيجه لهذه التطورات التي أملتتها الرغبة في زيادة الانتاج والصراعات الدولية ، كالحرب النابليونية ، فكرت الدول الأوروبية وعلى الأخص بريطانيا بصورة جدية في ايجاد طريق قصير وسريع يربط أوروبا بالشرق • وكان الجانب الأكثر من هذا الاهتمام يتركز على تطوير الخطوط البحرية التي تمر بالشرق الأوسط وتتجنب الطريق الدائري الطويل حول أفريقيا ، الذي كان يعتبر في ذلك الوقت أهم طريق بين الشرق والغرب ، منذ أن بدأ البرتغاليون يستخدمونه في القرن السادس عشر • وفي العشرينيات من القرن التاسع عشر بدأ التفكير في بريطانيا باستخدام السفن والمحركات البخارية عبر ساحل الشام ، ومنطقة ما بين النهرين ، وعن طريق الخليج الى الهند ، وبدأت التجارب العملية لاستخدام السفن البخارية على هذه الخطوط في الثلاثينيات • وكان هناك مشروع يقوم على فتح خطين ملاحيين بحريين ، خط بين بريطانيا والشام ، وخط بين بريطانيا من ناحية والخليج والعراق من ناحية أخرى عبر خطين آخرين ، أحدهما

نهرى والآخر برى عن طريق الشام فالعراق ، وبذلك يتم انشاء خط ملاحى سريع بين الغرب والشرق • وقد وضعت عدة تصميمات لهذا المشروع ، الا أنها فشلت كلها لأن الحكومة البريطانية رفضت أن تتعهد بالنفقات المالية اللازمة لانشاء الخط ، ولم يبدأ العمل فى تسيير السفن عبر نهرى العراق قبل عام ١٨٦٠ ، عندما بدأت مؤسسة لنش فى فتح خط للسفن البخارية ، غير أن هذا المشروع اقتصر على المدن العراقية الواقعة على ضفتى النهر ، وتموين الخطوط الملاحية التجارية المتجهة الى الخليج ، وبالتالي لم يكن جزءا من مشروع ملاحى شامل (٤) •

فى الأربعينيات من القرن تركزت الأنظار على مصر كموقع محتمل للاتصال المقترح بين الشرق والغرب • وخلال الحروب النابليونية وضعت فرنسا مشروعا لشق قناة عبر برزخ السويس ، الا أن هذا المشروع صرف النظر عنه بعد فشل الحملة النابليونية على مصر • ومع أن المشروع أعيد التفكير فيه من جديد فى نفس الفترة ، الا أن بريطانيا وقفت ضده خوفا من أن يستغل الفرنسيون وغيرهم من خصوم البريطانيين القناة للوصول الى المحيط الهندى • وكبديل للخطة الفرنسية اقترحت بريطانيا انشاء خط سكة حديد من الاسكندرية الى السويس عبر القاهرة لتسهيل الانتقال بين المدينتين مع الابقاء على البحر الأبيض المتوسط ضمن حدوده الشرقية • وفى عام ١٨٤٠ شرعت مؤسسة باننشولار اند أورينتال لاين Peninsular

& Oriental Lines فى تسيير خط ملاحى بين انجلترا والاسكندرية ، ثم أعقبت ذلك بخط آخر بين السويس والهند فى سنة ١٨٤٤ • وبإتهاء العمل فى خط سكة الاسكندرية السويس عام ١٨٥٨ ، وربط الخطين البحرين أحدهما بالآخر ، تحقق المشروع البريطانى فى صورته النهائية • وعلى

(٤) « الطريق الى الهند » فصل ٦ — ٧ : هوسكنز ولوريمر مجلد ١ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ والخليج الفارسى : ولسون فصل ٥ و ١٦ و « الدبلوماسية فى الشرقين الادنى والاوسط » هروتييز (طبعة برنستون ١٩٥٦) •

أية حال فإن هذا النجاح سرعان ما غطى عليه مشروع فيردناند دي ليسبس ،
عندما نجح هذا في اقناع سعيد باشا حاكم مصر ، والفرنسي الميول
بالموافقة على شق قناة السويس ، وهو المشروع الذي انتهى العمل فيه
سنة ١٨٦٩ . وبالرغم من المرارة التي كان يحس بها الفرنسيون نتيجة
فشلهم في الحرب الفرنسية - الروسية ، فقد توخوا من فتح قناة السويس
أن تمكنهم من توسيع نطاق مصالحهم السياسية والاقتصادية الى منطقة
المحيط الهندي . أما فيما يختص بالمشروعات الفرنسية في الخليج فقد
كانوا يفكرون في انشاء مستعمرة زراعية بالقرب من البصرة ، وانشاء
قنصليات لهم في الموانئ الكبرى ، الى جانب مستودع للوقود في مسقط
كجزء من مشروع آخر خاص بمنطقتي عدن - جيبوتي (٥) .

ومنذ سنة ١٨٤٠ حتى سنة ١٨٦٠ أنفق الجانب الأكبر من الجهود
والأموال المخصصة سابقا لانشاء خطوط مواصلات حديثة في منطقة حوض
المحيط الهندي في تقوية الخط الملاحي المباشر بين السويس والهند التابع
لشركة باننشولار اند اورينتيل . وبعد ذلك بقليل بدأ التفكير في انشاء
خطوط ملاحية اضافية بين موانئ المحيط الهندي ، فيما اذا توفرت
الامكانيات الاقتصادية والتكنولوجية اللازمة لتنفيذ هذه الخطوط قبل
استكمال الخط الرئيسي . أما في الهند نفسها فقد شهدت هذه الفترة حركة
لادخال النظم الحديثة وهي الحركة التي بدأت بتولى اللورد وليم بنتك
منصب الحاكم العام في الهند . فلقد حاول المصلحون الانجيليون في
بريطانيا تغيير كل شيء في الهند من المثل الأخلاقية والنظم التعليمية الى
البيئة المادية للمجتمع الهندي . وقد بلغت حركة التغريب هذه ذروتها فيما
بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٦ عند تعيين اللورد دلهوسي حاكما عاما للهند .

(٥) « الطريق الى الهند » فصل ١٢ و ١٤ هوسكنز ، و « الدبلوماسية »
تأليف هرويتز فصل ١ ص ١٤٦ - ١٤٩ ورسالة من اتكنسون الى جون مؤرخة
١٨٦٨/١٢/٩ برقم ٥٥٥ ورسالة أخرى من فريز الى وود بتاريخ ١٨٦٢/٢/١٠
و ١٨٦٣/٥/٢٢ و ١٨٦٥/٢/١٢ .

وقد بدأ دلهوسى سياسة نشطة ومركزة ولكنها صارمة فى أغلبها بهدف خلق دولة هندية موحدة ومتجانسة وعصرية تحت السيطرة البريطانية . وكان أساس سياسة دلهوسى هو اقامة شبكة من خطوط المواصلات تربط بين المقاطعات الهندية كلها . ولعله من سخریات القدر أن يتم تحقيق مشروع اللورد دلهوسى بعد احالته على المعاش على يد الرجل الذى كان من أشد المعارضين لبرنامج الاصلاح ونعنى به السر بارتل فريير (Bartle Frere) الذى تسلم عمله فى الهند سنة ١٨٣٤ بعد تخرجه من كلية هل برى Hailey bury التابعة لشركة الهند الشرقية . وبمضى الوقت رأى فريير أن ادخال الحضارة العصرية الى الهند وبقيّة أقطار الشرق تقع مسؤوليتها على بريطانيا . وكان هذا أيضا رأى اللورد دلهوسى غير أن فريير كان ينادى باتباع الأساليب الدبلوماسية واللباقة فى تحقيق هذه الأهداف ، وكان يعارض أسلوب القوة لفرض العصرية فرضا على سكان الهند . وكان من رأيه أن احترام تقاليد الثقافة الهندية وقيمها على اختلافها وحكمتها ونشر مفاهيم الحضارة الحديثة بين ربوعها عن طريق الحكومات المحلية والنفوذ غير المباشر ، وبت أفكارها عن طريق أدوات التعليم ، سوف يؤدي فى النهاية الى نجاح المشروع . وكان يعتقد أن هذا الأسلوب لمطبق فإنه سيرتفع بالهند الى المستويات الحضارية فى الغرب ، بينما سيحفظ لها فى نفس الوقت أهم قيمها الثقافية . وعلى كل فقد كان فريير كغيره من المحافظين والاداريين البريطانيين المناهضين للحركة الاصلاحية ، يؤيد المضى فى تنفيذ الخطط التى تساهم فى تنمية رصيد الهند من مزايا « الحضارة » المادية ، كما يؤيد ادخال وسائل التكنولوجيا الحديثة اليها . الا أنه كان يؤمن بأن المشروعات الاقتصادية أفضل من الوسائل الثقافية والسياسية لنشر الحضارة الحديثة (٦) .

(٦) تاريخ الهند اعداد اكسفورد — الطبعة الثالثة ص ٦٤٣ الى ٦٦٢ و « حياة ورسائل السر بارتل فريير » تأليف ج . مارتينو (طبعة لندن سنة ١٨٩٥) جزء ١ ص ١٦٨ — ١٦٩ و « رجال حكموا الهند » تأليف بى ماسون وفيليب وبى وودروف (طبعة لندن سنة ١٩٥٤) ص من ٣٧ الى ٤١ .

وقد أمضى فريير سنوات عمله في مناطق غرب الهند المجاورة لبومباي، وفي مقاطعة السند والأقاليم المطلة على شواطئ نهر الأندلس . وفي الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر طالب فريير بتطويع وسائل النقل في هذه المناطق ، وأكد بأن إنشاء خطوط للسكك الحديدية سوف يعزز من وسائل الدفاع عن الهند ، كما يفتح في نفس الوقت المناطق المغلقة أمام الحركة التجارية . ومن مشروعاته مشروع احاطة إقليم بومباي بشبكة من السكك الحديدية تمتد غربا الى كلكتا ، وميناء كراتشي على ساحل السند بإقليم البنجاب كما أن التحسينات التي أدخلها على ميناء كراتشي الذي كان قبل الخمسينيات من القرن التاسع عشر محدود الامكانيات ، قد زادت من كفاءته بحيث أمكن استخدامه في انزال القوات المسلحة عندما انفجرت ثورة ١٨٥٧ في الهند . وبفضل السياسة البعيدة النظر التي اتبعها فريير بالنسبة لحاجة الهند الى وسائل المواصلات ومعارضته لسياسة القوة في فرض الاصلاح ، حظيت آراؤه بالتأييد في الدوائر العليا لحكومة الهند ، ففي سنة ١٨٦١ تم العمل في خط سكة حديد البنجاب — كراتشي وأخذت هذه المدينة تكتسب طابع المدنية الحديثة ، كما أصبحت أحد الموانئ الهامة في غرب آسيا . ومن مشروعاته الخاصة الأخرى لتطويع حركة المواصلات شق طرق ثانوية أو مساعدة لخطوط السكك الحديدية الرئيسية وبهذا المشروع كان فريير ينوي توسيع طرق المواصلات بحيث تشمل كل الهند وبالتالي يسهل الاتصال بين المناطق الداخلية والمناطق الساحلية^(٧) . وقد عمت مشروعات فريير في أرجاء الهند كلها ، بعد تعيينه في مجلس الحاكم العام اللورد كاننج الذي شغل منصب حاكم عام ونائب الملك في الهند وهو المنصب الذي شغله من سنة ١٨٥٦ حتى سنة ١٨٦٢ . وأثناء وجوده في هذا المنصب اتسعت دائرة صداقاته وعلاقاته وبالأخص بين أفراد الجالية التجارية الأوروبية في كلكتا . ومن الأصدقاء الذين تعرف عليهم فريير ولیم ماكينون (السر ولیم

(٧) حياة فريير : تأليف مارتينو جزء ١ ص ٤٥ و ٩٣ — ١٠٣ و ٢٦٨ .

ماكينون فيما بعد) الرجل الذى قدر له أن يلمع كأحد واضعى خطة التوسع البريطانى فى شرق أفريقيا — بوصفه مؤسس الشركة البريطانية الهندية للملاحة • كما كان واحدا ممن أشعلوا ثورة ملاحية فى أرجاء الخليج •

وكان ماكينون اسكوتلانديا هاجر من جلاسكو الى كلكتا فى سنة ١٨٤٧ ، للحاق بصديق له من زملاء الدراسة يدعى روبرت ماكنزى ولشاركته فى ادارة مؤسسة تجارية عامة • وفى سنة ١٨٥٤ اشترك الاثنان فى مؤسسة للنقل تعمل فى سواحل خليج البنغال • وفى نفس العام عقد الشريكان الشيطان والطموحان اتفاقية لنقل الركاب والبضائع والبريد بين كلكتا ورانجون • واقترضا مبلغا لشراء سفينتين بخاريتين صغيرتين وهو مشروع تطور فى النهاية الى مؤسسة ملاحية جبارة تمارس نشاطها عبر مياه المحيط الهندى كله • وفى عام ١٨٥٦ أطلق على هذه المؤسسة اسم « شركة كلكتا وبورما للملاحة البخارية

(Calcutta & Burmah Steam Navigation Co.)

وبفضل الاعتمادات الخاصة بالخدمات البريدية والصفقات الربحية التى عقدتها الشركة مع السلطات خلال حركة التمرد تغلبت المؤسسة على الصعوبات التى كانت تعترضها • وفى عام ١٨٦٢ عاد ماكينون من رحلة الى انجلترا يصحب معه رؤوس أموال وبواخر عديدة ، وفى جعبته مشروع جديد لتوسيع خط كلكتا — رانجون الملاحى الى ٣ خطوط : خط يلتف حول الساحل الهندى ، وخط يمتد الى سنغافورة ، وخط ثالث يمتد غربا الى الخليج العربى ويرتبط بخط بخارى للملاحة النهرية يعمل بالعراق (٨) •

(٨) للاطلاع على سيرة حياة السير وليم ماكينون راجع « معجم السير القومية » — السير وليم ماكينون ملحق ٢ جزء ٣ ص ١٢٧ — ١٢٨ — الملحق رقم ٣ ص ١٢٧ — ٢٨ تأليف آى كارلايل ومقال صحيفة التايمز اللندنية بعنوان « السير ماكينون — ترجمة حياه » عدد ١٨٩٣/٦/٣٠ للاطلاع على التاريخ المبكر لشركة الملاحة التجارية الهندية البريطانية راجع « مائة عام من تاريخ شركة بى انداو للملاحة البخارية » ، تأليف آى . آى . ايوارت وييد كيبل (طبعة لندن ١٩٣٧) ص ٢٠٢ — ٢٠٧ .

لقد كانت هذه كلها مشروعات طموحة ، ولئن كان لدى ماكينون وماكنزى الخبرة والدافع لانجاز تلك المشروعات ، فقد كان ينقصهما رأس المال . وهنا يجيء دور السر بارتل فريير بوصفه عضواً في مجلس الحاكم لكى يمارس ما كان له من نفوذ في دفع المشروع ، وكان من الطبيعى أن يتحمس فريير لمشروع ماكينون ، لأن تصور فريير لرسالة بريطانيا الحضارية لم يكن ينحصر ضمن حدود الهند وحسب ، ومن هنا كان فريير يؤيد أى مشروع من شأنه أن يدعم نفوذ بريطانيا الحضارى . وكان من رأى فريير أن بواخر شركة ماكينون تؤدى دورين فى آن واحد : خدمة المصالح التجارية من جهة ، ونشر الحضارة من جهة أخرى ، وأن أى مساعدة يمكنه أن يقدمها الى مشروع ماكينون فانما يقدمها من أجل تحقيق ذلك الحلم .

ولب المشكلة أن ماكينون كان ينقصه رأس المال اللازم لتنفيذ المشروع . وبالرغم من أن « الوعى الرأسمالى » لم يكن مألُفا يومئذ فى انجلترا ، فقد أعربت حكومة الهند البريطانية عن عطفها على المشروع سيما وأنه مشروع يتعلق بالمواصلات . فالسكك الحديدية فى الهند قد أنشئت بأموال اعتمدت لها من ميزانية الدولة ، وهى مشروعات لم تكن فى رأى الدوائر الرسمية مشروعات تجارية ، بل من مستلزمات الدفاع عن الهند . وعلى أساس هذه الاعتبارات اعتمد بارتل فريير فى طلب معونة حكومية لمشروع ماكينون وقد تعهدت مؤسسة ماكينون فى مقابل ذلك بنقل البريد وبوضع سفنها تحت تصرف حكومة الهند فى أوقات الطوارئ وبذلك أعفت حكومة الهند من أعباء الاحتفاظ بأسطول خاص للنقل . وقد ذلت حكمة بومباى لعدة سنوات تطالب بخط ملاحى منتظم الى شاطئ الخليج ولهذا ما أن وافق اللورد كاننج والوايت هول على المشروع حتى أعيد تنظيم خط كلكتا — بورما تحت اسم « الشركة البريطانية الهندية للملاحة البخارية » هذا وقد باشر هذا الخط عمله ابتداء من سنة ١٨٦٢ (٩) .

(٩) Precis Turkish Arabic ص ١٩٩ حياة فريير جزء ١ ص ٢٩٧

وقد رأى البعض أن إنشاء خط ملاحى منتظم الى الخليج مجازفة خطيرة غير أنه من حسن حظ ماكينون أن افتتاح هذا الخط قد جاء فى فترة شهدت ارتفاعا دوليا فى الطلب على القطن حدث فى أعقاب خفض الكميات المصرح بتصديرها من القطن الأمريكى كنتيجة للحرب الأهلية الأمريكية . ويوم أبدت مصانع لانكشاير فى انجلترا استعدادها لدفع أسعار أعلى للقطن شجع هذا زراع القطن فى مصر ، والهند وغيرها من الأقطار على زيادة انتاجهم منه .

وقد وافق ازدياد الطلب العالمى على القطن تولى السير بارنل فريير منصب حاكم ولاية بومباى ، كبرى الولايات الهندية يومئذ . وقد اعتبر تولى فريير لهذا المنصب وهو ثانى منصب هام فى الهند ، ويجىء فى المرتبة الثانية بعد منصب الحاكم العام نفسه ، من سنة ١٨٦٢ حتى سنة ١٨٦٧ من الأعمال الناجحة . وبمجرد أن تولى فريير عمله شرع فى العمل على تحسين وسائل الرى ، والنقل والمواصلات وتطويرها . وبجانب تحويل مناطق شاسعة الى أراضى زراعية جديدة ، مدت شبكة من خطوط النقل والموانئ . وهكذا أصبحت مدينة بومباى مركزا لنشاط متزايد للمستثمرين وأصحاب رؤوس الأموال الذين ألغوا بثقلهم فى حملة زيادة انتاج القطن فى الهند . وقد جاء الانتعاش فى تجارة القطن لصالح المؤسسة ولم تحقق الشركة أرباحا كثيرة من وراء هذه العمليات وحسب ، بل ضاعفت خطها الثانى عبر الخليج تحت تأثير هستيريا القطن التى اجتاحت ايران أيضا . وكما فعلت كل من مصر والهند ضاعفت ايران من مساحة أراضى زراعة القطن . وعندما كانت البواخر تعود من موانئ الخليج الى الهند كانت عنابرها تمتلئ بالقطن الذى ما أن يصل حتى يتخاطفه وكلاء المصانع البريطانية هناك (١٠) .

(١٠) نفس المصدر من ص ٣٩٨ الى ص ٤١٤ جزء ٢ ص من ١ الى ٢٧ رسالة من فريير الى وود مؤرخه ١٨٦٣/٥/١٢ و « التنمية الاقتصادية فى الهند » تأليف . انستى (طبعة لندن ١٩٥٢) ص ٢٠٨ وص ٢٦١ و « مملكات من =

هذه هي معالم النجاح للخطوط الملاحية التجارية التي ظهرت في الستينيات من القرن التاسع عشر • كما تم أيضا التنسيق بين رحلات هذا الخط وخط شركة باننشولار واورينتل بين إنجلترا والهند عبر السويس • وقد نشأت بعض المشاكل من افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الحدث قد ساهم في دعم الشركة في المدى الطويل الى حد بعيد • ففي عام ١٨٩٥ كان لدى الشركة ٨٥ باخرة ، ووكلاء تجاريون موزعون على مناطق جنوب آسيا ، وأفريقيا الشرقية ، وأستراليا ، كما بدأت خطا ملاحيا الى لندن أيضا • وعلى أية حال فإن ظهور بواخر شركة الهند البريطانية في مياه الخليج ، يعتبر بداية مرحلة من الحضارة الاقتصادية والمادية في المنطقة ، أدت في النهاية لا الى تشويه المفهوم التقليدي لحياة سكانها وحسب بل والى القضاء عليها أيضا •

مساعي حكومة الهند البريطانية

لادخال النظم الحديثة الى الخليج

تمثل رحلات بواخر شركة الهند البريطانية الى الخليج جانبا من قصة انتقال المؤثرات الهندية عن طريق محاولة ادخال التطور التكنولوجي الحديث الى المنطقة • أما الجانب الآخر فهو أن حكومة الهند البريطانية — أو بعبارة أدق — حكومة بومباي برياسة فرير — قد بدأت في تطبيق سياسة نشر مفاهيم الحضارة الغربية بعد سنة ١٨٦٢ • وكان مقر المقيم البريطاني في الخليج أداة هذه السياسة • ومنذ سنة ١٨٦٢ حتى سنة ١٨٧٢ وهي الفترة التي شهدت تغييرات حاسمة في الخليج كان على رأس البعثة البريطانية في الخليج رجل من ألمع الشخصيات البريطانية هـــــ ليويس بلي • وقد وقع اختيار فرير على بلي وكان من الضباط البريطانيين

الشجعان والمتحمسين والأكفاء في سلاح الفرسان للاشراف على مصالح الحكومة البريطانية والهند في منطقة الخليج • وكان فريير على يقين من أن اختياره بلى لتلك المهمة يلبي حاجة بريطانيا الى شخصية تشارك بلى آراءه فيما يمكن أن يكون عليه الخليج في ظل المدنية الغربية • وإذا كان فريير هو صاحب « النظرية الجديدة » لرسالة الرجل الأبيض الاستعمارية التي بدأت في الستينيات من القرن التاسع عشر فقد كان بلى أداة تنفيذها • ويعتبر فريير في مستوى ليفنج ستون وفراود كصاحب فلسفة تشكل جزءا لا يتجزأ من « الامبريالية الحديثة » للقرن التاسع عشر ، بينما يعتبر كل من بلى وماكينون من أوائل روادها •

وفيما بين عام ١٨٢٢ وعام ١٨٦٢ اقتصر دور المقيم البريطاني في الخليج بوجه عام على المحافظة على النظام في المنطقة • وكأحد مساعدي فريير وأنصاره لعب بلى دورا فعالا وإيجابيا وان لم يكن ناجحا دائما في أحداث الخليج • وكان بلى يتعاون مع رجال الأعمال والتجار البريطانيين كما كان يفعل ماكينون الذي كان يحثهم على توسيع نشاطهم في المنطقة • ولا نستطيع القول فيما اذا كان بلى في ممارسته لواجباته يفرق بين الأهداف السياسية والاقتصادية • ولكنه قام بتدعيم وتوسيع الامتيازات الإقليمية البريطانية في الخليج كسبيل لضمان حرية الأعمال التجارية ، أكثر منه لتدعيم النفوذ البريطاني في المنطقة • وفي سنة ١٨٦٦ لم يتردد بلى في اللجوء الى القوة (دبلوماسية القوارب المسلحة) عندما اعتدى الوهابيون على التجار الهنود في ميناء صور • وكان يلجأ الى فرض أشد العقوبات على الذين يرتكبون مثل هذه الأعمال ومن خلال تنقلاته في مناطق الخليج أدرك بلى مجموعة من الحقائق — في اطار المفهوم العام لنظريات فريير عن أفضل الوسائل لتطوير المنطقة حضاريا — غير أن بعض تلك الآراء لم يكن واقعيًا • فقد كان بلى يؤيد توسيع النشاط الملاحى للسفن البريطانية ضمن المنطقة حتى وان أدى ذلك الى وقف صناعة السفن المحلية • كما كان يعتقد أن خلاص المنطقة يكمن في قبولها غير المشروط

لمفاهيم الحضارة الغربية بدلا من تشبثها بتقاليدها القديمة التي عفى عليها الزمن • وكان من رأيه أن حجم تجارة المنطقة ونوعيتها سوف يزداد حتما ، إذا لم تعترض السلطات المحلية هذا النشاط التجاري • وبالتالي كان يؤيد تطوير وسائل النقل والمواصلات والخطوط التجارية ، كطريق وادي قارون في ايران ، الذي ينفتح على الخليج ، غير أن بلى لم يكن يضع في اعتباره الصعوبات التي كانت تعترض مثل هذه المشاريع • وانبرى الى الكشف عن كل الامكانيات التي يمكن استغلالها في هذا الغرض • وكان يتنبأ لنقطة الخليج بدور هام في مستقبل التجارة العالمية • اذا قدر للمشروع الذي طرح في أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أن يبعث من جديد • وهو يتضمن مد خط بين الشام وسواحل الخليج عبر الصحراء (١١) •

وكخطوة لادخال النظم الحديثة الى الخليج وضع مشروعا لانشاء مستعمرة في رأس مسندم تخضع للسيطرة البريطانية وهي المنطقة التي تلتقي عندها مياه خليج عمان بمياه الخليج العربي • ولما كان بلى لا يعرف شيئا عن قسوة المناخ ، فقد اقترح أن تتخذ هذه المنطقة مقرا للمقيم البريطاني في الخليج بدلا من أبو شهر (المدينة الساحلية في ايران) كما كان يأمل أن تتحول هذه المنطقة الى ميناء حرة ومركز تجاري جديد لتوجيه النشاط التجاري منه • وكان يأمل في أن تصبح هذه المدينة في يوم من الأيام مركز اشعاع حضارة لسكانها وحافزا لادخال الحضارة الغربية الى الخليج فضلا عن أنها ، كما كان يتصور ، يمكن أن تقوم بنفس الدور الذي يقوم به جبل طارق دون أن تثير لبريطانيا أى مشاكل قانونية • وكان يعتقد أن سلطان مسقط وعمان سوف يوافق على بيع المنطقة التي اقترح انشاء المستعمرة المذكورة عليها • وعلى الرغم من أن الاقتراح لقي اهتماما من فرير الا أن السلطات الحكومية في كلكتا رفضت المشروع خوفا من

(١١) تقرير تجارى عن الخليج — ١٨٦٣
من ص ٣١ الى ٣٧ ورسالة من بلى الى دبليو نيكول وشركاء بتاريخ =

التورط في السياسات الداخلية للمنطقة ، بالإضافة الى التكاليف الباهظة التي كان سيكلفها المشروع (١٢) .

ولم تكن آراء بلى في كيفية تطوير منطقة الخليج ماديا واقتصاديا ، تختلف عن آراء فريير من حيث أنها جزء من فلسفة عامة واحدة ، فلقد كان بلى داعية لا يكل لأهمية الخليج الاقتصادية البالغة ومنذ سنة ١٨٦٣ ، وفي تقاريره الرسمية ، وفي ما كان ينشره من المقالات الصحفية كان بلى يدعو بريطانيا الى استغلال التغييرات التي يمر بها الخليج كنتيجة لدخول الحضارة الأوروبية . وكان من رأيه أن منطقة الخليج تضم امكانيات هائلة للنمو الاقتصادي ، لو أنها استغلت على الوجه الاكمل . وكان طبيعيا أن يدق بلى ناقوس الخطر من المنافسة المحتملة في الخليج . فخلال الستينيات من القرن التاسع عشر كانت هناك مشروعات فرنسية كثيرة لتطوير منطقة الخليج كجزء من خطة فرنسية للوصول الى منطقة الخليج الهندي ، بعد افتتاح قناة السويس . غير أن تحذيرات بلى ذهبت كلها أدراج الرياح ، لا في الدوائر العليا لحكومة الهند البريطانية وحسب ، بل وبين المسؤولين البريطانيين في لندن أيضا ، وذلك رغم تأييد فريير له . ومما يدل على

= ١٨٧٢/٦/١٣ رقم ٨٩٦ — ٣٧٨ من سجلات دار المقيم البريطاني في الخليج مجلد ٢٠ ورسالة بتاريخ ١٨/١٠/٦٨ من بلى الى ديوك أوف ارجيل برقم ١٨٧١ وفي الستينيات من القرن التاسع عشر عدلت بريطانيا عن محاولاتها الرامية الى تشجيع الملاحة في الخليج .

(١٢) رسالتان من بلى الى اندرسون احدهما بتاريخ ١٨٦٣/١/١٢ والثانية بتاريخ ١٨٦٣/٢/١ . راجع أيضا
Precis Int'l Rivalry من ص ٢٥ الى ٣٠ .

(١٣) رسالة من بلى الى اندرسون بتاريخ ١٨٦٣/٢/١٦ وص ٢٩ من
Precis Int'l Rivalry ، ورسالة من بلى الى حكومة بومباي بتاريخ ١٨٦٦/٥/١٢ . وص ٢٩ الى ٣٠ من
Precis Commerce لقد كتب بلى أكثر من مقالة اعلانية عن الامكانيات الاقتصادية للخليج وأهم تلك المقالات مقال بعنوان « ملاحظات عن قبائل المناطق الساحلية وتجارتها ومواردها » من مطبوعات جمعية بومبي الجغرافية مجلد ١٦ (١٨٦٣) ص ١١٣ — ٣٢ .

تحمس فريير لآرائه ، أنه استطاع خلال الفترة التي أمضاها في المنطقة تحقيق جانب كبير من المشروعات التي وضعها رغم قلة النقود والامكانيات التي كانت تحت يده . وكان فريير بوصفه حاكم ولاية بومباي يؤيد مشروعات بلى . وبالرغم من محاولة الاثنين اقناع الحكومة بأهمية تلك المشروعات وتنفيذها كمشروع انشاء مستعمرة بريطانية في الخليج ، فان سياسة الحكومة كانت في الحقيقة مشدودة ولم تكن تؤيد فكرة ادخال الحضارة الى الخليج . وعلى الرغم من اجماع المسؤولين على تأييد حرية التجارة ، واتباع سياسة التحفظ الأقصى ، فان العوامل المشتركة في ادخال الوسائل العصرية الى الخليج في الستينيات من القرن التاسع عشر ونعني بها — بواخر شركة الهند البريطانية للملاحة ، وأفراد الجالية الهندية البريطانية المقيمين في الخليج ، والمقيم البريطاني في الخليج ، والخط التلغرافي بين أوروبا والهند عبر الخليج — كل هذه العوامل كانت تحظى بالتأييد المباشر أو غير المباشر من حكومتى لندن وكلكتا . غير أن هذا التأييد في حد ذاته كان أمرا لا غنى عنه بالنسبة للدفاع عن الهند كما كان تعبيرا عن مسؤولية الحكومة عن حماية حقوق رعايا البريطانيين والهنود ومصالحهم . غير أن انعكاسات التأييد المشار اليه خصوصا من حيث مساهمته بالحضارة التقليدية للخليج التي قد تجاوزت في الواقع حدود الدفاع عن الهند . ومن ناحية أخرى فان التغييرات التي طرأت على الوضع في الخليج كنتيجة لجهود كل من فريير ، وماكينون وبلى تصور أن تطلعات بعض رجال الأعمال المسؤولين في الخليج قد تجاوزت حدود الهند ، وان محاولات ادخال الحضارة العصرية لم تقتصر على الهند وحدها بل شملت المناطق المجاورة لها . ففي الستينيات من القرن التاسع عشر كانت الهند هي مصدر التيارات الحضارية التي أخذت تمتد الى مناطق المحيط الهندي .

الثورة والركود الاقتصادي في الخليج العربي

١٨٦٢ - ١٩١٤

يعتبر عام ١٨٦٢ بداية للحضارة الاقتصادية والتكنولوجية في الخليج . وكانت أهم التطورات التي شهدتها المنطقة في الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ والحرب العالمية الأولى هي انهيار النظام الاقتصادي التقليدي بجميع صوره وأنماطه ، وفي السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى تميزت الحالة في المنطقة بازدياد في مظاهر المجتمع الصناعي الحديث ، كنتيجة لاكتشاف النفط فيها . وتعتبر الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى على جانب كبير من الأهمية من حيث ادخال النظم العصرية على اقتصاديات المنطقة . وبالمثل تعتبر المرحلة الفاصلة بين سنة ١٨٦٢ والحرب العالمية الأولى على جانب أعظم من الأهمية . فمن زاوية التطورات الاقتصادية ، تفرعت عن هذه المرحلة مرحلة أخرى بداية من سنة ١٨٧٢ . وما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ اندلعت ثورة اقتصادية بفعل المواصلات الحديثة التي دخلت المنطقة . وفي الفترة التي أعقبت ظهور المؤسسات التجارية الموجهة من قبل الأوروبيين أو الخاضعة لسيطرتهم ساد الغموض معالم النشاط الاقتصادي القومي ، بحيث أصيب هذا النشاط بالشلل أو التدمير في معظم جوانبه . وما بين سنة ١٨٧٢ والحرب العالمية الأولى اتضح بشكل مؤلم للأوروبيين أن الآمال التي عقدوها على مرحلة الستينيات من القرن قد انهارت . وان الصدمة الناتجة عن التغييرات الثورية التي واكبت مولد المرحلة الجديدة ، قد قصت على جوانب هامة من العلاقات الاقتصادية القديمة ، وتركت جانبا كبيرا من الاقتصاد القومي للمنطقة في حالة من الكساد أصبح معها عاجزا عن الاستجابة بصورة ايجابية لتحديات المرحلة الجديدة واحتمالاتها . وحتى في الوقت الذي بدأت اكتشافات البترول الموجهة من قبل الأجانب توجد مفهوماً اقتصادياً جديداً في المنطقة . وامتيازات النفط توفر رؤوس الأموال اللازمة ، ظلت المنطقة تعاني من

الذقر المدقع في الأموال والمهارات الفنية الحديثة ، وفي وضع مضطرب
لا يسمح بتطور سليم للتجارة والاقتصاد العام .

الثورة الاقتصادية : ١٨٦٢ - ١٨٧٢ : تعتبر الحقبة الواقعة بين
سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ بالمعنى المجرد قفزة كبرى في حجم التجارة
والنشاط الاقتصادي في الخليج . ولسوء الحظ هبط نصيب التجار والملاحين
العرب من النشاط الاقتصادي للمنطقة بالمقارنة الى الأوروبيين ووكلائهم
والتجار الهنود المستوطنين الذين حصلوا على الجانب الأكبر من الأرباح
الجديدة . وكانت أسوأ الأوضاع التي حاقت بمصالح سكان المنطقة هي
عملية - التصاعد - فالركود - فالانتعاش التي سادت المناخ التجاري في
الستينيات من القرن التاسع عشر . وتقدر قيمة تجارة الخليج لما وراء
البحار في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر بـ ٣٥٠٠٠٠٠٠ ج . س .
معظمه من نصيب الملاحين والتجار المحليين (١٤) . أما في سنة ١٨٦٦ فقد
بلغت قيمة هذه التجارة نحو ٥٠٠٠٠٠٠ ج . س . وقد تحقق معظم

(١٤) ينبغي أن نؤكد أن هذه الأرقام ان هي الا تقريبية ، تم التوصل
اليها بعد تقييم للمعلومات القليلة والمعثرة ، وغير الدقيقة الى حد كبير مما
أمكن جمعه من مختلف المصادر وعلى الأخص كتاب وولستد « رحلة الى جزيرة
العرب » مجلد ١ ص ٢٢ - ٢٤ وكتاب اف آر شسني بعثة المسح الى نهري
دجلة والفرات ، (طبعة لندن ١٨٥٠) مجلد ١ ص ٥٦٩ . وقد وضعت هذه
التقديرات على أساس العوامل الآتية : قيمة تجارة مسقط ٨٠٠٠٠٠٠ ج .
س : قيمة صادرات البحرين من اللؤلؤ ٤٠٠٠٠٠ ج . س ، قيمة تجارة
أبو شهر ٨٠٠٠٠٠ ج . س . قيمة تجارة موانئ الخليج الأخرى (الكويت ،
البصرة ، المحمرة الخ) ٥٠٠٠٠٠ ج . س . وهذا الرقم الأخير هو مجرد تقدير
ويعتمد في المقام الأول على افتراض أن خمسة أثمان مجموع التجارة البعيدة
المدى للخليج يمر عن طريق مسقط خلال أواخر القرن الثامن عشر ، وبداية
التاسع عشر . ان دقة أرقام تجارة الخليج بوجه عام ، كانت موضع شك حتى
قبل سنوات الحرب العالمية الأولى . ومع ذلك فان تلك الأرقام على الأقل
تعبر عن الاتجاهات العامة لتلك التجارة .

الزيادة في قيمة التجارة في فترة الستينيات من القرن التاسع عشر (١٥) . وبمعنى أصح فقد كان هناك ارتفاع في أرقام قيمة التجارة فيما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٦٥ كنتيجة لانشاء خط شركة الهند البريطانية للبواخر ، وتصاعد الطلب على القطن . فالارتفاع في حجم تجارة الخليج كان يرجع أساسا الى ارتفاع أسعار القطن في الأوساط التجارية في بومباي ، الى جانب شحنات خيوط الصوف الى بومباي والأفيون الى شرقى آسيا ، وواردات السكر من الهند واندونيسيا . ورغم الارتفاع في أسعار النقل فقد تحققت أرباح كثيرة من تلك العمليات . كما أسفر تدفق الثروة على أقطار الخليج عن ارتفاع في أرقام الواردات الى الهند . وكنتيجة لهذا الانتعاش ، حققت الخطوط الملاحية للخليج والبواخر البريطانية أرباحا كثيرة من العمليات المذكورة ولم تتوقف عن نشاطها خلال أوائل الستينيات . كانت هذه الفترة خاتمة المطاف بالنسبة للمرحلة المجيدة للملاحين العرب في الخليج ، اذ ان ذلك النشاط الملاحى والتجارى الذى بلغ ذروته ابان ذلك العهد ، عاد فتهوور مع نهاية الحرب الأهلية الأمريكية ، وظهور القطن الأمريكى في الأسواق العالمية . وبنهاية مرحلة الانتعاش انخفضت الأرقام التجارية ابتداء من سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٦٨ الى نصف مجموعها في سنة ١٨٦٤ (١٦) .

كانت الملاحة المحلية في الخليج الضحية الأولى للنكسة الاقتصادية . ومنذ ذلك الوقت خفضت أجور النقل على البواخر البريطانية مما أدى الى انتعاش تجارة الخليج في سنة ١٨٦٩ ، وبالتالي أتاح لتجار المنطقة فرصة لممارسة نشاطهم في أسواق الهند من جديد . وعلى كل فقد اضطر عدد من

(١٥) Preci Commerce ص ٢٩ ، ٣٢ — ٣٧ ، ١٠٧ .

(١٦) رسالة مؤرخة ١٨٦٤/٨/٢٣ برقم ١ من بلى الى أندرسون نفس المصدر ص ٢٧ — ٢٨ ورسالة مؤرخة ١٨٧٠/٤/٢٥ رقم ٣٤/٨٦ من بلى الى جون — نفس المصدر ص ٣٥ — ٣٧ .

ربابنة السفن المحلية وقف عملياتهم التجارية بسبب ذلك الركود ، وبعد أن عجزوا عن منافسة التخفيضات في أجور النقل التي أجراها أصحاب البواخر البريطانية ، ولم يعد ثمة عمل لسفن كلا الطرفين (وكانا قد زادا من رحلاتهما الى مرتين في الشهر خلال عام ١٨٦٦) وهكذا فعندما انتعشت التجارة في الخليج من جديد كانت الخطوط الملاحية المستفيد الأول من ذلك الانتعاش . وفي عام ١٨٦٥ أصبحت السفن المحلية عاجزة عن منافسة البواخر بصورة فعالة في ميدان النقل التجاري — على خطوط الهند — الخليج . وأخذ نشاط السفن المحلية يقتصر على العمليات الساحلية المحدودة والرحلات غير المنتظمة ، أو على النشاط غير المسموح به كالتهريب (١٧) .

وعلى الرغم من التوازن التجاري الذي شهدته المنطقة في أعقاب الانتعاش الاقتصادي فيما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٦٩ فقد استمر نشاط البواخر بالازدياد في أواخر القرن التاسع عشر . ويصور الجدول رقم ١ النمو المطرد في رحلات البواخر الى الخليج من سنة ١٨٦٢ حتى سنة ١٩٠٤ . كما يعكس مدى السيطرة البريطانية على تلك الرحلات وعلى الرغم من أن سفن بلاد أخرى أخذت تزور موانئ الخليج من وقت الى آخر ، فإن بعضها افتتح بالفعل خطوطا ملاحية ، إلا أن الشركات المذكورة لم تنجح في مواجهة الاحتكار البريطاني في النقل التجاري وبواخر الركاب حتى للفترة الواقعة بين سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩١٤ عندما بدأ الخط الملاحى لشركة هامبورج وأميركا ينافس الخطوط البريطانية بشكل خطير . وفي سنة ١٨٩٧ بلغت نسبة البواخر المسجلة في بريطانيا والعاملة في موانئ الخليج ٨٤ بالمئة ، كان معظمها يرفع علم بواخر شركة الهند البريطانية

(١٧) نفس المصدر ص ٣٢ و ٣٧ و ٣٨ تقرير ادارى : ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ص ١٢٩ ولوريمر جزء ١ ص ٢ ومن ص ٣١٩ الى ٣٣٢ . في أواخر عام ١٨٥٤ لم يزد عدد البواخر البريطانية العاملة بين أبو شهر وبومباي عن ٣ فقط .

للملاحة • وما تزال بواخر شركة الهند البريطانية حتى اليوم ، باستثناء ناقلات النفط ، البواخر الرئيسية لنقل البضائع والركاب بين موانئ الخليج • ومع بداية القرن العشرين كانت هذه البواخر تصل تقريبا الى جميع الموانئ الهامة في المنطقة بين وقت وآخر • ومعظم هذه البواخر كان يبحر من بومباي الا جزءا قليلا منها كان يبحر من الموانئ الأخرى في المحيط الهندي • غير ان عددا متزايدا منها كان يأتي من أوروبا مباشرة — خصوصا في الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩١٢ ، عندما كان استيراد الأسلحة الى موانئ الخليج أو تهريبها عنصرا هاما في النشاط التجاري للمنطقة • غير ان التجارة الملاحية في الخليج كانت تجارة مربحة الى حد كبير نظرا لأن متطلبات الأسواق المتعاملة كانت محدودة في غالبيتها ، كما كانت أسعار النقل في صعود وهبوط وبشكل صارخ في بعض الأحيان ، وذلك على الرغم من الكساد العام الذي ساد أواخر القرن التاسع عشر • ولئن كان لهذا الوضع بعض المزايا للتجار المحليين ، فإنه من ناحية أخرى قد أسهم في اضعاف قدرة المساومة لدى التجار المذكورين وفي حجم الرحلات الملاحية الأسبوعية التي أخذت تفرض نفسها على تجار الخليج العربي ^(١٨) وبجانب صناعة السفن سقط معقل آخر من معقل النظام الاقتصادي التقليدي في الخليج أمام التغييرات الثورية للسنتينيات من القرن التاسع عشر ، وهو نظام « مركز التجمع » أو « المناطق الحرة » فقبل عام ١٨٦٢ كانت مدينة مسقط أهم المراكز التجارية في الخليج بلا منازع ، غير ان الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ شهدت نهاية ذلك النظام • وبالتالي تدهورت مكانة مسقط تدهورا سريعا كميناء تجاري • وكان افتتاح خطوط البواخر السبب الأساسي لذلك التدهور ، هذا فضلا عن عوامل أخرى كثيرة نشأت عن التقسيم السياسي للدولة العمانية في سنة ١٨٦١ الى سلطتين احدهما افريقية عاصمتها زنجبار والأخرى عمانية عاصمتها مسقط • من هنا فان

(١٨) « الدبلوماسية » تأليف هروتر جزء ١ ص ٢٢٧ وتقرير اداري سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ ص ٢١ سنة ١٨٨٢/١٨٨٣ ص ١٨ — ٢١ •

التكنولوجيا البحرية التقليدية التي قامت عليها أهمية عمان الملاحية لم يعد لها وجود بعد سنة ١٨٦٢ ، ولم يكن لدى البحارة العمانيين الخبرة أو رأس المال ، أو التنظيم للتحويل الى بناء السفن البخارية • ولم يتمخض هذا عن انعدام الحوافز التجارية لدى الملاحين العمانيين وحسب ، بل والى تجريد مدينة مسقط من أهميتها كمركز للتجميع أيضا • وهكذا تداعت الأسس التي كان يقوم عليها رخاء المدينة والجانب الأكبر من تجارتها ، كنتيجة لمقاطعة بواخر الخطوط الملاحية البخارية لميناء مسقط •

لقد كانت مسقط تعتمد في ثرائها وأهميتها على مركزها كنقطة لتجميع البضائع وإعادة شحنها الى أقطار الخليج الأخرى والموانئ الغربية للمحيط الهندي ، وبالتالي فان مسقط لم تكن تصدر من إنتاجها الا بنسبة ضئيلة من السلع المذكورة (١٩) • وقد صادف تدهور مسقط التجاري والاقتصادي ظهور موانئ جديدة على ضفاف الخليج ، الا أنه لم يتسن لأى من الموانئ المذكورة أن يحقق ما حققته مدينة مسقط من الأهمية قبل عام ١٨٦٢ • وربما كان أهم الموانئ الناشئة في الخليج قبل الحرب العالمية الأولى ميناء أبو شهر ، الذى يربط المنطقة الجنوبية الوسطى من ايران ، ومقر المقيم البريطانى في الخليج • وقد لمعت لبعض الوقت مدينة بندر عباس الواقعة على الساحل الايرانى الى الجنوب من مضيق هرمز ، كم منطقة للتبادل التجارى غطى نشاطها مساحة واسعة من جنوب وسط آسيا ، غير ان الميناء عاد ففقد أهميته في التسعينيات ، واقتصر نشاطه على تجارة المنطقة الجنوبية الشرقية من ايران ، كنتيجة للتغيرات التي طرأت على الجو السياسى لمنطقة آسيا الوسطى • كان طبيعيا أن يتمخض ضم روسيا لمنطقة آسيا الوسطى عن زيادة كبيرة في حجم السلع الروسية المستوردة الى المنطقة ، كما أدى الى تسلل المنتجات الروسية الى الجزء الشرقى من

(١٩) رسالة مؤرخة ١٨٦٤/٨/٢٣ رقم ٤١ من بلى الى اندريسون ،
Precis Commerce ص ٢٩٢٧ •

جدول رقم ١
نمو حركة الملاحة البخارية في الخليج ، ١٨٦٢ — ١٩٠٤

السنة	الشركة	منطقة التسجيل	الرحلات	الميناء
١٨٦٢	شركة الهند البريطانية	المملكة المتحدة	٨ رحلات سنويا	بومباي
١٨٦٦	شركة الهند البريطانية	المملكة المتحدة	رحلتان شهريا	بومباي
١٨٦٨	شركة الهند البريطانية	المملكة المتحدة	رحلتان شهريا	بومباي
١٨٦٩—٧٩	برشين ميل —	المملكة المتحدة	غير منتظمة	بومباي
١٨٧٠	بومباي اند برشيا	المملكة المتحدة	غير منتظمة	بومباي
١٨٧٠	عمان واوتومان	تركيــــــــــــــــا	غير منتظمة	اسطنبول
١٨٧٠	أتجلو أربيان وبرشين	جلف المملكة المتحدة	مرة كل شهر	لندن
١٨٧٤	برتش انديا	المملكة المتحدة	اسبوعيا	بومباي
١٨٨٣—٨٥	ماسا جريز ماريتيم	فرنســــــــــــــــا	غير منتظمة	مرسيليا
١٨٩٦—٩٧	ماسا جريز ماريتيم	فرنســــــــــــــــا	شــــــــــــــــهريا	بومباي
١٩٠١	رشين أندبرشين جلف	روســــــــــــــــيا	شــــــــــــــــهريا	أوديسا
١٩٠٤	برشين انديا	المملكة المتحدة	اسبوعيا	بومباي
			سريع وعادي	

ايران • وكان هذان العاملان من الأسباب التي أدت الى تخفيض معدل السلع التي ترد من انجلترا عن طريق بندر عباس • كما أن انشاء سكة حديد كويتا — سحستان في التسعينيات من القرن قد هيأ طريقا بديلا من الهند ، وشرق ايران ، وبلوشستان وأفغانستان • وهناك ميناء ايراني آخر ازدهر بعض الوقت ، ونعني به ميناء لنجه الذي ظل لفترة طويلة من الوقت مركزا لتجميع السلع وتوزيعها من البحرين وموانئ ساحل الصلح • وعلى كل فبعد سنة ١٩٠٢ ، هبط مستوى هذا الميناء بسبب القيود الجمركية الخانقة التي كانت تفرضها الحكومة الايرانية ، مما أدى الى اثاره المتاعب في وجه بندر عباس • ومن ثم بدأت البواخر رحلات مباشرة وأن لم تكن منتظمة الى ساحل عمان والبحرين • أما فيما يتعلق بميناء البصرة في العراق فقد انتعش من جديد بعد فترة من الركود في منتصف القرن التاسع عشر وذلك لسببين : افتتاح خط البواخر النهري سنة ١٨٦١ وابتداء شركة الهند البريطانية للملاحة بتسيير رحلاتها الى ميناء البصرة سنة ١٨٦٢ • ومن

الموانئ النامية الأخرى على الخليج في أواخر القرن التاسع عشر ميناء خور مشهر (المحمرة) عند ملتقى شط العرب ونهر قارون • وقد استفادت المحمرة من افتتاح خط الملاحة النهري عبر نهر قارون سنة ١٨٨٨ وإنشاء خط تجارى يربط بين قارون ، والاهواز وأصفهان في سنة ١٩٠٠ • وقد أخذت هذه المدينة تجتذب نسبة متزايدة من التجارة حتى أصبحت لفترة من الوقت بعد الحرب العالمية الأولى في طليعة موانئ الخليج • وفيما يتعلق بالكويت التى كانت المنفذ الى قلب الجزيرة العربية وآسيا الوسطى، فقد غدت في سنة ١٩٠٠ الفردوس الجديد لما تبقى من خطوط الملاحة البعيدة المدى للأساطيل الشراعية المحلية • غير ان البواخر لم تكن ترسو فيها الا نادرا (٢٠) •

ومن المعقبات الهامة الأخرى للثورة الاقتصادية سنة ١٨٦٢ — ١٨٧٢ سيطرة التجار الهنود على الجانب الأكبر من النشاط التجارى لمدن الخليج • فقد ظل الهنود لمئات السنين عاملا هاما في اقتصاديات المنطقة ، حتى أنهم كادوا أن يحتكروا التجارة المحلية بعد الستينيات من القرن التاسع عشر • أما التجار العرب والفرس فقد كانوا مرتبطين أكثر بتجارة التوزيع التى كانت سائدة قبل عام ١٨٦٢ ، بحكم افتقارهم الى الخبرة ، والامكانات والمرونة التجارية للتكيف مع الأوضاع الجديدة • أما الهنود فبحكم صلتهم بشبه القارة والتسهيلات الائتمانية التى كانوا يتمتعون بها هناك استطاعوا التغلب على الصعوبات التى واجهوها في البداية ، بالإضافة الى استغلال الفرص التى أتاحتها لهم الأساليب التجارية العصرية والمواصلات •

والواقع ان الهنود أخذوا يعملون كوسطاء تجاريين بين عرب الخليج



(٢٠) التجارة ، تأليف : انستى ص ٢٤ — ٢٥ و Precis Commerce

من ص ٤٤ الى ص ٥٧ • وتقرير ادارى ١٩٠٠ — ١٩٠١ ، ص ٩٨ — ٩٩ •

ورجال الأعمال الأوربيين الذين كانوا يشرفون على تطوير الهند ، وأصبحوا المسيطرين على التجارة في نهاية الأمر .

لم يكن البخار هو التجديد الوحيد الذى طرأ على وسائل المواصلات في الخليج في الستينيات من القرن التاسع عشر ، بل شهدت المنطقة ادخال الخطوط التلغرافية في نفس الفترة . ويعتبر انشاء هذه الخطوط المائية منها والسطحية ، احدى المنجزات الهامة التى يعود الفضل فيها الى مشروع خطوط المواصلات النهرية عبر الفرات في الفترة الواقعة بين الثلاثينيات والخمسينيات من القرن . فقد هيا انشاء تلك الخطوط في الستينيات من القرن التاسع عشر أى في أعقاب الثورة الهندية سرعة نقل المعلومات بين بريطانيا وأوربا من ناحية والهند من ناحية أخرى ، كما هيا حفر قناة السويس مرور الركاب ، والجنود والمعدات عن طريقها . وقد مر مشروع مد الخطوط التلغرافية بين الهند وأوربا في مرحلتين المرحلة السياسية التى سبقت تنفيذ المشروع والمرحلة الثانية التى تم فيها مد هذه الخطوط .

كانت أول محاولة لربط الهند بأوربا عن طريق الخطوط التلغرافية سنة ١٨٥٩ — ٦٠ وقامت بها « شركة التلغراف الى الهند » — Telegraph To India Co. وكانت تنوى مد أسلاك تحت مياه البحر عن طريق يمر بالبحر الأحمر والبحر العربى الى الهند ، مع انشاء محطات مراقبة الخط في كل من عدن ، وجزر كوريا موريا ، ومسقط ومونز (بالقرب من مدينة كراتشى) . ومن سوء الحظ ان الخبرة الفنية والامكانيات المالية لم تكن متوفرة للشركة المتبنية للمشروع . وبعد تعطل الخطوط أكثر من مرة ، فشل المشروع وعلى كل حال فان حاجة الحكومة البريطانية الى الخطوط التلغرافية المذكورة جعلتها تفكر في تجربة طريق آخر لمد الخطوط يجمع بين المناطق البرية والبحرية .

وكان أصلح الطرق لهذا الخط يمر عبر الخليج العربي • وما بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٥ دارت مفاوضات بين بريطانيا ومختلف الحكومات والرؤساء الذين يمر الخط التلغرافي في أراضيهم • وقد انتهى الأمر بإبرام اتفاقيات مع حكومات تركيا ، وعمان ، وإيران ، بينما تم عقد مجموعة من المعاهدات الإضافية مع رؤساء العشائر في سواحل مكران وبلوشستان • وبطبيعة الحال تعهدت بريطانيا بدفع مكافآت مالية الى رؤساء هذه الامارات نظير تعهدهم بتوفير القوى العاملة والحماية المسلحة للخطوط التلغرافية في أراضيهم • وقد استدعى ذلك فرض السيطرة البريطانية على منطقة بلوشستان حتى يمكن تأمين الخطوط السطحية للمواصلات التلغرافية • وكان وجود شبكة واسعة من خطوط المواصلات من المنشآت الخاصة بالخطوط التلغرافية في الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٥ • ثم ضمت هذه الخطوط الى الخط التلغرافي العثماني في بغداد ، وغدت امتدادا للشبكة الأوروبية الموسعة عبر مدينة اسطامبول • وفي عام ١٨٦٥ أضيفت طهران وغيرها من المدن الايرانية الى نظام الخطوط الأوروبية الهندية عن طريق ايصالها بخطوط أبو شهر وبغداد • ومن هنا امتدت هذه الخطوط في أواخر الأمر الى أوروبا عن طريق شبكة الخطوط التلغرافية الروسية • على الرغم من أن الغرض الأساسي من مد الخط التلغرافي بين الهند وإنجلترا ، هو التقريب بين أرجاء الامبراطورية البريطانية ، فقد كان له تأثيره على أحوال الخليج • كذلك فان وضع المقيمين من رعايا بريطانيا في الخليج أخذ يخضع لرقابة أشد من جانب المسؤولين البريطانيين في الهند • كما تم تدعيم نفوذ حكومات القاجار على الامبراطورية الايرانية بما فيها الموانئ الخاضعة للإدارة الواهية — أما على الجانب العربي من الخليج فلم تكن توجد تسهيلات تلغرافية قبل أن يتم مد خط جاشك — مسقط — سنة ١٩٠١ ، وبالتالي لم يكن لتلك التسهيلات أي أثر في محاولات حكام الامارات السيطرة على مناطقهم • ومن ناحية أخرى ، فان التجار العرب

والهنود منهم على الأخص قد استفادوا من التسهيلات الجديدة في ممارسة نشاطهم التجارى من حيث عامل السرعة (٢١) .

ومن أهم الفوائد التى حققتها المواصلات الجديدة كنتيجة لتسيير البواخر ، هو إنشاء الخدمات البريدية . فقبل سنة ١٨٦٢ كان الخطاب المرسل من بغداد الى الهند يمر عادة عن طريق سوريا ، ومصر ، ومنهما بالسفن عبر البحرين العربى والأحمر . كما كان البريد المرسل من أبو شهر الى الهند يمر عن نفس الطريق بعد مروره أولا ببغداد عن طريق طهران . ويعود ذلك الى عدم انتظام حركة النقل ، ولكنه يعود بالدرجة الأولى الى عدم توفر الأمان للرحلات المتبادلة بين الهند والخليج قبل بدء البواخر لرحلاتها المنتظمة عبر المنطقة . وكان من الطبيعى أن يستغرق وصول الخطاب الى الجهة المرسل اليها عدة شهور . وعلى كل فبعد سنة ١٨٦٤ ، افتتحت حكومة الهند مكاتب بريد لتعزيز مراكزها الدبلوماسية فى مسقط ، وأبو شهر ، والبصرة وقد خفضت الخدمات البريدية الوقت اللازم لوصول الرسائل بين الخليج والهند الى بضعة أسابيع فقط . وفى أواخر القرن التاسع عشر كان نظام البريد الهندى — البريطانى هو الجهاز البريدى المنظم الوحيد فى الخليج ، وكما هو الشأن بالنسبة للمواصلات التلغرافية التى أدخلت الى المنطقة ، كان لإنشاء مكاتب البريد انعكاساتها السياسية والاقتصادية على أوضاع المنطقة .

(٢١) يعتبر بحث السرافة . ج . جولد سمد بعنوان « التلغراف والاسفار » من أحسن البحوث التى تناولت عملية مد الخط التلغرافى بين بريطانيا والهند : وهو عرض عن إنشاء وتطوير المواصلات التلغرافية بين إنجلترا والهند (طبعة لندن سنة ١٨٧٤) راجع كذلك Preci Commerce ص ٢٧ ومن ص ٦٧ الى ص ٦٨ و « الخليج الفارسى » تأليف : ولسون من ص ٢٦٦ الى ص ٢٦٩ كذلك راجع ايتشسون — سنة ١٨٩٢ للاطلاع على المعاهدات الخاصة بالخطوط التلغرافية مجلد ٩ ص ٧٤ ، ٣٩٤ — ٣٩٥ ، ٤٠١ — ٤٠٦ ومجلد ١٠ ص ٧٦ و ٨٠ — ٩٣ و ١٣٧ ومجلد ١١ ص ٢٦ — ٣٠ .

سبق أن أشرنا الى نمو الحركة التجارية في الخليج بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ ، وكيف أنه بالرغم من ذلك اعتبر التحول الاقتصادي من أكثر الأحداث ثورية في تلك المرحلة • وكان تدهور نظام التجميع والتوزيع ، وانهيار الوضع الاقتصادي لمدينة مسقط ، وتوقف صناعة السفن المحلية ، حصيلة لذلك الانقلاب • ومن سوء حظ المنطقة أن المرحلة الجديدة في حياتها لم يواكبها نمو اقتصادي سريع وثابت • فلقد اعتقد فريير وبلي أن الثورة الاقتصادية في الستينات من القرن التاسع عشر • لا بد وأن تصطحبها مرحلة طويلة وسريعة من التنمية الاقتصادية الشاملة والتنظيم العصري • وكان من رأى بلي أن أقطار المنطقة سوف يههما ، بل وستكون قادرة على استيعاب التكنولوجيا الحديثة • ويبدو أنه قد أغفل تعقيدات المرحلة التي كان يتم فيها ذلك التحول • الأمر الذي حال دون الهدف • أما ان سكان الخليج لم يرحبوا بالمظاهر العصرية للحياة ، وأنهم ، في الواقع ، ظلوا متمسكين بالقيم والتقاليد والأساليب التي عاشوا عليها تمسكا شديدا ، فان هذا لم يتصوره بلي •

الركود الاقتصادي ، ١٨٧٢ — ١٩١٤ : من سوء حظ الخليج ان التطور الاقتصادي فيه لم يكن سريعا وشاملا خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٧٢ والحرب العالمية الأولى • وبالتالي فان الآمال التي كانت تراود المهتمين ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ لم يكتب لها النجاح • وباستثناء بعض الحالات فان كل مناطق الخليج أخذت تعاني من ركود اقتصادي طويل ، أو بالأحرى تدهور امتد حتى سنوات الحرب الأولى واستمر حتى الحرب العالمية الثانية بل ما يزال مستمرا حتى الآن في بعض المناطق التي لم يتفجر فيها البترول • وقد ساهم الجو السياسي المضطرب • في أواخر القرن التاسع عشر في خلق تلك الأوضاع • فلقد كانت الاضطرابات السياسية طابع الأوضاع في داخل شبه الجزيرة العربية التي غدت مسرحاً لصراع

(٢٢) لوريير مجلد ١ ص ٢٣٨ ، و « الخليج الفارسي » تأليف : ولسون
من ص ٢٦٤ الى ٢٦٦ •

قبلى مرير • وعلى الأخص بين السعوديين وقوات ابن رشيد • كما ان موقف السلطات العثمانية وضعفها كانا من العوامل التي ساعدت على الاستثمارات الأجنبية في العراق • وكذلك ايران التي كانت تتركز فيها نصف تجارة الخليج ، كانت هي الأخرى ضحية لسياسة حكومة مركزية ضعيفة وفاسدة وجشعة فضلا عن وجود فوضى قبلية في مناطقها الريفية • ومن ناحية أخرى فقد كان لوجود مصالح امبريالية غربية متزايدة دور في طمس الصورة الحقيقية للأوضاع في الخليج والمناطق المجاورة له • ومن ناحية أخرى أدى الصراع السياسى بين روسيا وبريطانيا في ايران الى زيادة الفواجع الاقتصادية للامبراطورية القاجارية • فلم تكن أى من الدولتين ترغب في أن تكون للأخرى اليد الطولى في المنطقة ، وبالتالي كان كل منهما يعمل على سد الطريق في وجه الآخر ومنعه من توسيع نطاق مصالحه التجارية أو الاستثمار بامتيازات استغلال الموارد الطبيعية فيها • وخوفا من أن تحقق إحدى الدولتين مكاسب على حساب الأخرى اتفقتا أخيرا على وقف انشاء خطوط حديدية طويلة في البلاد (٢٣) • وكان الخاسر الأكبر في هذه اللعبة هو ايران طبعاً ، فضلا عما ألحقته هذه المؤامرات من ضرر بتجارة ايران • وقد ازدهر ميناء المحمرة بفضل رحلات البواخر التي بدأت سنة ١٨٨٨ عبر نهر قارون • ويعد هذا دليلا على ما يمكن أن يحققه الخليج بأسره من خلال التحسينات التي تم ادخالها على وسائل المواصلات • ومن المؤكد ان رداءة الطرق التجارية بين داخلية أقطار الخليج وموانئها ، وحاجة تلك الطرق الى الاصلاح والتطوير ، وقفت عائقا أمام تطور التجارة وسببا رئيسيا لتردى الأحوال الاقتصادية للمنطقة بعد سنة ١٨٧٢ •

أشرنا الى أن القيمة التقديرية للتجارة البحرية البعيدة المدى للخليج سنة ١٨٦٦ قد بلغت ٥٠٠٠٠٠ ر.هـ ج • س • وفي عام ١٨٦٩ ، بعد الانتعاش من أزمة سنة ١٨٦٥ — سنة ١٨٦٨ ارتفع مجموع القيمة التقديرية الى

(٢٣) الدبلوماسية ، تأليف : هروتر جزء ١ ص ٢٠٧ •

٦٠٠٠٠٠٠ ج . س . ويتضح الكساد التجارى والركود الاقتصادى فى الخليج من خلال تجارة المنطقة البعيدة المدى لسنة ١٨٩٩ التى لم تتجاوز نفس النسبة أى ٦٠٠٠٠٠٠ ج . س . (٢٤) . على أن التوسع المطرد فى الرحلات الملاحية لأواخر القرن التاسع عشر ، قد ضاعفت فى الأزمة من بعض الوجوه . وفى أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر كانت البواخر البريطانية والأوربية تغرق المنطقة بوارداتها . وفى سنة ١٨٨٣ تكسبت البضائع فى الموانئ الإيرانية بانتظار وصول القوافل التى تنقلها الى داخل المنطقة . ومن الطبيعى أن يسفر هذا التكدس عن هبوط دورى فى أسعار تلك البضائع (٢٥) . وفى التسعينيات من القرن التاسع عشر كانت عبارة « السنة الحالية لم تكن ملائمة للعمليات التجارية » تتكرر كثيرا فى التقارير الرسمية البريطانية من خلال استعراضها للنشاط التجارى السنوى فى الخليج .

وما بين سنة ١٨٧٢ وسنة ١٩٠٢ ظلت أرقام تجارة ايران ، ومنطقة جنوب آسيا الوسطى ، والعراق ، والأناضول ، وشرقى شبه الجزيرة العربية — وجميع المناطق التى تزودها موانئ الخليج من وقت لآخر ، ظلت فى ارتفاع مطرد وان لم يكن مثيرا ، غير أن نصيب الخليج من تلك الزيادة لم يكن كبيرا . ففى سنة ١٨٩٠ كانت بريطانيا وروسيا تسيطران على ٤٠ بالمائة من تجارة ايران الخارجية ، بينما كان نصيب روسيا وحدها من التجارة المذكورة قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ٦٠ بالمائة . بينما لم تكن حصة بريطانيا تزيد عن ٢١ بالمائة . وإذا كانت تجارة بريطانيا كلها تقريبا مع ايران ، تمر عن طريق الخليج العربى ، فان أرقام تجارة الخليج عن كل الفترة ، كانت مشجعة ، وكانت نسبة هذه التجارة فى سنة ١٩١٤ أقل

(٢٤) نفس المصدر ص ٢٢٧ .

(٢٥) تقرير ادارى سنة ١٨٨١ — سنة ١٨٨٢ ص ٢١ وتقرير ادارى

سنة ١٨٨٢ — ١٨٨٣ ص ١٨ — ٢١ .

منها في سنة ١٨٩٠ مما يدل على أن نشاط الخليج الاقتصادي نسبيا لم يكن راكدا وحسب ، بل وامتدهور أيضا خلال تلك الفترة .

ومن المؤكد أن المنطقة الداخلية من إيران قد شهدت توسعا اقتصاديا ، غير أن الجانب الأكبر من تلك التجارة كان يصلها عن طريق الخليج . وباستثناء فترات متقطعة وغير مضمونة من الانتعاش المحلي ، ترجع أسبابها الى وفرة غير عادية في حاصلات المنطقة من البلح ، أو الحبوب ، أو اللؤلؤ ، أو الى تصاعد غير عادي في تجارة السلع الواردة كالأسلحة والذهب ، فان انتعاش المنطقة لم يبدأ في الحقيقة قبل اكتشاف النفط في أراضيها (٢٦) .

على الرغم من ان بعض موانئ الخليج والمجموعات التجارية قد استفادت من التحول الذي صاحب التغييرات الاقتصادية ، فان النظام الملاحي والتجاري القديم لم يسترد قوته نتيجة للنشاطات الاقتصادية الحديثة . كما أن المنطقة لم تشهد تقدما زراعيا واسعا أو حركة شاملة لاكتشاف الثروات المعدنية ، التي تعتبر من العوامل الأساسية للحياة الحضارية في المناطق الاستوائية أو شبه الاستوائية قبل عصر البترول . وعلى أي حال فان النشاط التكنولوجي الحديث الذي بدأت تشهده المنطقة خلال الفترة المذكورة — كالبخار والتلغراف — كان تحت اشراف العناصر الأوروبية . وعلى أية حال ففي الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ ، سنة ١٩١٤ توفر عدد من الشروط اللازمة لهذا النشاط ، مما كان له تأثيره على مجرى الأمور ، مثل عملية ادخال مظاهر الحياة العصرية الى المنطقة التي بدأت مع

(٢٦) التجارة ، تأليف انيسى ص ٢٢ — ٢٤ . وزارة الجمارك والبريد — اللائحة العمومية للتجارة مع البلاد الأجنبية (طهران ١٩٠٢) و « التطور الاقتصادي ومشكلاته في إيران » ، تأليف سوتوده (طبعة باريس ١٩٣٦) . ان احسن صورة لركود الحركة التجارية في الخليج خلال القرن التاسع عشر هي ما ورد في التقارير الادارية المختلفة من ١٨٧٦ الى ١٩٠٤ وفي

بداية استغلال موارد النفط المحلية قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة • ان النظام القديم الذي كان يقوم على أساس تحكم منطقة اقليمية واحدة ، وعلى تحركات وحسابات رجال البحر العرب وتجارهم ، قد انهار ، وانحدر الخليج من مركزه الأول الى وضع المنطقة التابعة لمصالح الدول الغربية ، وفي مقدمتها بريطانيا • على أننا سوف نعود الى شرح هذه الآراء العامة بتفصيل أكثر في الفصل التالي من الكتاب ، حيث سنناقش التغييرات التي طرأت على البناء الاقتصادي في عمان في أواخر القرن التاسع عشر •

الفصل الرابع

التغيرات الاقتصادية في أواخر القرن التاسع عشر

ان مضاعفات المراحل الأولى للتطور الاقتصادي والتكنولوجي في الخليج يمكن تقييمها من الوجهة الانسانية على ضوء الأحداث التي شهدتها عمان في أواخر القرن التاسع عشر . فخلال تلك المرحلة ، وعلى الرغم من التغيرات الاقتصادية العميقة التي سادت القطر العماني ، نجد البلاد لم تحقق أى تطور اقتصادي هام . ولا يوجد قطر في الخليج أضرت به التطورات الاقتصادية لأواخر القرن التاسع عشر كعمان . فدخل الموصلات الحديثة الى البلاد بوجه خاص قد قوض البيئة الاقتصادية القائمة يومئذ في الجزء الساحلي من عمان . وحتى في فترة تصاعد الطلب على القطن في أوائل الستينات من القرن التاسع عشر ، منيت عمان بتدهور اقتصادي لم تتخلص من آثاره حتى اليوم ، هذا على الرغم من ازدهار الأقطار الأخرى في الخليج في نفس الفترة . فمن ذروة المركز الاقتصادي والتجاري القديم الذي كانت تحتله عمان بين أقطار المنطقة الغربية من المحيط الهندي ، تدهورت أوضاعها خلال سنوات قليلة . أما الآن فمع اكتشاف حقول غنية بالنفط ووضع الخطط لاستغلالها أصبح من المحتمل أن تستعيد البلاد بعض ما فقدته من الأهمية والازدهار . ولكن حتى يأتي ذلك اليوم ويترتب على استغلال حقول النفط تطور اقتصادي يسهم في تغيير أوضاع البلاد ، فان عمان سوف تبقى مثلاً صارخاً لبلد عانى كثيراً ، ولكنه لم ينتفع من معطيات التطور الحديث .

وضع الاقتصاد العماني في سنة ١٨٥٦

سبق ان أشرنا الى أن تفاصيل حياة العمانيين وتاريخهم كانت في معظمها انعكاساً للصراع بين عناصر الوحدة ، وعناصر التنوع ، وهي

العناصر التي كانت العامل في توحيد أو تجزئة البلاد الى منطقتين ساحلية وداخلية . ولقد طبعت هذه الأوضاع ، التي تتمثل في التوتر ، أو الوحدة ، أو التنوع بين الجزئين من البلاد ، الحياة الاقتصادية من عمان بطابعها الخاص خلال الفترة التي توفي فيها السلطان سعيد . والواقع كان في عمان نوعان من الاقتصاد ، أحدهما خاص بالمنطقة الداخلية ، ونوع آخر خاص بالمناطق الساحلية المجاورة لميناء مسقط . وقد مر اقتصاد المنطقة الساحلية وتوابعها بتغييرات جذرية بفضل انتشار التكنولوجيا والمؤسسات الاقتصادية الحديثة في الخليج بعد عام ١٨٦٢ ، بينما ظل اقتصاد المنطقة الداخلية من عمان على حالته الأولى ، غير متأثر بالأوضاع الجديدة .

في عام ١٨٥٦ كانت هناك عوامل كثيرة تتحكم في النشاط الاقتصادي للمنطقة . وهي العوامل التي تضاعفت لتجعل من الاقتصاد العماني اقتصادا زراعيا يقوم على الاكتفاء الذاتي واقتسام ما كان يعتبر موردا دائما ، وان كان شحيحا للمواد الاستهلاكية . لقد كانت الحواجز الجغرافية ، كسلاسل الجبال والصحراء بوجه عام تعوق نمو التطلعات الاقتصادية نحو العالم الخارجي وتفرض قيودا رهيبية على رؤيا أهل عمان للعالم ، وبالتالي كانت حركة سكان المنطقة تخضع للقيود التي فرضتها العزلة الجغرافية ، والمواصلات البدائية التي تعتمد على الجمال . فبالإضافة الى النظرة الضيقة لأهل عمان فإنهم يخضعون لايدولوجية محافظة جدا . وكان المجتمع العماني مجتمعا متحجرا جدا وموجها نحو غرض واحد الا وهو المحافظة على البيئة الأباضية المحافظة . وكان الرأي الغالب بين أهل عمان هو أن الغاية من النشاط الانساني هي تحقيق الخلاص الأبدي للفرد ، بدلا من الجري وراء متع دنيوية تافهة وحياة فانية ، أما فكر الفرد العماني فقد كان محصورا كله فيما يستطيع أن يحصل عليه من النخل ، والجمال ، والأغنام ، والجواري والزوجات . وحتى هذه المقتنيات لا ينبغي أن تكون

على حساب القيم الروحية ، والتمسك بما جاء في الكتاب ، بل وفي حدود ما تسمح به الشريعة الإباضية التي تحرم اكتناز المال ، ومن ثم فان نشاط سكان الجزء الداخلى من عمان كان مكرسا للشؤون الروحية ومطالب الأسرة ، والسياسات المحلية . وكل الجهد المبذول في الناحية الاقتصادية ينحصر في الدرجة الأولى برحلات الى الأسواق المحلية ، أو برحلات نادرة الى المراكز التجارية بحثا عن المواد المعيشية الضرورية التي لا يمكن انتاجها في الداخل . وفضلا عن ذلك فان رؤساء القبائل وغيرهم من زعماء عمان الداخلية لم يكونوا يفكرون في شيء أكثر من الحصول على اللوازم الاقتصادية للمعيشة ، هذا على الرغم من أنهم لا يدخرون وسعا في دعم مركزهم السياسى القبلى ، بل وعلى استعداد لأن يموتوا في سبيل العقيدة الإباضية اذا ما تطلب الأمر .

ان المذهب الإباضى المحافظ في الوقت الذى كان يهتم كثيرا بضمان توزيع عادل للسلع ، لم تكن لديه حلول لمعالجة الندرة المزمنة للموارد الاقتصادية . فالنشاط الاقتصادى في داخلية عمان كان يهدف في المقام الأول الى المحافظة على وجود الفرد ، وعلى تعليمه وخلاصه الروحى . لأن الاقتصاد ليس غاية في حد ذاته . وان تناقض هذا المفهوم الاقتصادى مع المفهوم الاقتصادى في مسقط والموانىء والمناطق التابعة لها ، لهو تناقض صارخ جدا .

أما الاقتصاد في المنطقة الساحلية فعلى خلاف التنظيمات الاقتصادية القائمة في المقاطعات الداخلية من البلاد يخضع لمجموعة من العوامل المعقدة . ولما كانت سواحل مسقط تشكل طريقا يربط موانئها وموانىء عمان الأخرى بالأقطار الواقعة على شواطئ المحيط الهندى فان سكان هذه المناطق يتمتعون بفرص تجارية كثيرة ويحتكون بالشعوب والحضارات الأخرى . لقد كانت الضفاف الغربية للمحيط الهندى تعتبر بنظر العماني من سكان الساحل هى العالم كله ، وبالتالي لم تكن نظرتهم الى العالم محصورة في نطاق سفوح الجبال والوديان حيث يقيم العماني الداخلى . واما من حيث

التكنولوجيا الملاحية فقد كان العمانيون سكان الساحل في سنة ١٨٥٦ يتمتعون بقسط كبير من النشاط • فإذا كانت الأحوال الجوية مؤاتية يكون يوسع هؤلاء العمانيين أن يبحروا بسفنهم من زنجبار الى مسقط في بحر أسبوعين ، أو من مسقط الى عدن أو بومبي في ظرف اثنى عشر يوما • وبسبب الروابط الوثيقة بين سكان الساحل والهند ، فقد كانت أحداث الهند وعلى الأخص الاقتصادية منها تؤثر بدورها على عمان • وعلى عكس الاقتصاد الزراعى المعيشى في داخلية عمان كان اقتصاد المنطقة الساحلية في سنة ١٨٥٦ اقتصادا يقوم على المنافسة ، وعلى تجارة المسافات الطويلة ، وتبادل السلع والمنتجات بين منطقتة والأقطار الأخرى • فهو بالتالى اقتصاد وسطاء ، يعتمد فى نجاحه على نقل السلع المستوردة من منطقة عرض المحيط الهندى أو المصنوعة فيها الى المناطق المجاورة لها •

ومن الناحية الاجتماعية ، كانت مسقط مجتمعا متفتحا يركز اهتمامه على النشاط التجارى • كما كان التعايش الاجتماعى داخل السلطنة بين التجار والملاحين الأباضيين من سكان البلاد ، والتجار الهنود ، والصناع اليهود والعمال البلوشستانيين ، والبحارة والحرفيين من الشيعة ظاهرة مألوفة • ومع هذا فان ذلك كله لم يمنع مسقط من أن تكون بلدا عمانيا وأباضيا فى نفس الوقت • لقد كانت الأباضية فى مسقط ، شأنها فى بقية البلاد العمانية عقيدة محافظة ، غير انها فى مسقط ، وبحكم المؤثرات الخارجية كانت متسامحة وأقل تطرفا منها فى داخلية عمان • وكان أباضيو مسقط فى هذه الفترة متمسكين بمعتقداتهم التقليدية فيما يتصل بموقفهم من العلوم وطبيعة الكون ، كما كانوا يخضعون لنفس الاعتبارات الدينية التى كان يخضع لها سكان المنطقة الداخلية • ورغم ذلك فقد كان العمانيون فى الساحل يعانون ، على ما يبدو ، من بعض التوتر وعدم التوازن كنتيجة للصدام بين الانغلاق الأباضى والاهتمامات العملية لمجتمعهم الذى يعتمد على النشاط التجارى والتجارة الخارجية • ومن ثم فقد كانت الأباضية فى الساحل أقل تزمنا وانغلاقا منها فى الداخل بدليل انها كانت تشتمل على

تيارين : التيار الروحي الدينى ، والتيار العلمى الدنيوى بينما كان هذان التياران فى داخلية عمان متداخلين ومختلطين الى حد كبير ، وذلك بحكم تغلب النزعة الروحية بوجه عام على أفرادهما • أما فى الجزء الساحلى من البلاد فان اهتمام الناس بالجوانب المادية الى جانب النزعة الدينية للمجتمع كان يسبب لهم بعض المتاعب النفسية •

ان مفهوم سكان الساحل للثروة أكثر تعقيدا من مفهوم اخوانهم لها فى المنطقة الجبلية • ولئن كانت زراعة البلح هى الاستثمارات المفضلة فى كل من المنطقتين ، فان الاستثمارات النقدية ، والملاحية ، والأعمال التجارية ، والتجارة الخارجية ، عند التجار الهنود على الأقل ، تعتبر مصدرا هاما للنشاط الاقتصادى فى عمان الساحلية • كما ان سكان هذه المنطقة لم يكونوا مرتبطين ، كسكان الداخل بالمراتب الأدنى للامكانيات المادية • ومن هنا كانت الفجوة واسعة بين الساحل والداخل فى موقف كل جزء منهما تجاه المؤسسات الاقتصادية • ففى الساحل كان رجل التجارة والنشاط التجارى له احترامه ومكانته فى المجتمع • ويعتبر الحاكم السيد سعيد أكبر رأسمالى فى منطقة الساحل • فقد كان يملك أسطولا كبيرا من السفن ومجموعة كبيرة من المزارع • كما كانت الحكومة تشجع الأعمال التجارية بكل امكانياتها لدرجة انها كانت ترحب بالتجار الأجانب الذين أخذوا يلعبون دورا متزايدا فى تجارة البلاد وتهىء لهم الحماية اللازمة • وكنتيجة لازدياد النفوذ البريطانى فى المنطقة الغربية من المحيط الهندى ، أخذ سلطان حكام مسقط فى توجيه النشاط الاقتصادى والسياسى فى الخليج لصالح عمان يضعف • ويعود الفضل فى المركز التجارى الذى كانت تحتله سلطنة مسقط فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الى امكانياتها الواسعة فى ميدان المنافسة التجارية ، مما هيا لها أن تحتل مركزا مرموقا بين دول الخليج • وهكذا يصبح التنافس الحاد فى سبيل السيطرة على الامكانيات التجارية ، من المميزات الأساسية للقوى التقليدية فى منطقة الخليج فى تلك المرحلة • الا انه فى أعقاب معاهدة الصلح البحرى التى فرضتها بريطانيا فرضا على

حكومات الخليج اختفى هذا النشاط من الوجود • وربما كان هذا أحد الأسباب التي دفعت بعدد كبير من تجار عمان وعلى رأسهم السلطان سعيد بعد العشرينات من القرن التاسع عشر الى نقل نشاطهم التجارى الى زنجبار وافريقيا حيث لم تكن توجد دولة أوربية قوية تحول بينهم وبين ممارسة أعمالهم التجارية •

الركود الاقتصادى ، ١٨٦٢ — ١٩٠٠

اقتصرت التغييرات التي مر بها الاقتصاد العماني في أعقاب وفاة السلطان سعيد سنة ١٨٥٦ في الدرجة الأولى على النصف الساحلى من البلاد • فبعد سنة ١٨٥٦ تعرضت عمان لموجة عنيفة من الركود الاقتصادى أعقبته فترة جمود اقتصادى طويلة • وثمة أسباب عديدة للسرعة والخطورة التي حدث بهذا التدهور الاقتصادى في الجزء الساحلى من البلاد لعل أهمها الاضطرابات السياسية التي اجتاحت عمان بعد سنة ١٨٥٦ • وفي مقدمتها الحرب الأهلية التي نشبت للاستيلاء على السلطة بين ورثة سعيد وأخذت تهدد الامبراطورية العمانية كلها بالتمزق والانهيار • ولقد أخذت غيوم الحرب تتجمع بعد أن فرض البريطانيون عام ١٨٦١ مشروع تقسيم المملكة التي خلفها سعيد بن سلطان الى دولتين : دولة آسيوية مستقلة عاصمتها مسقط ، ودولة افريقية مستقلة عاصمتها زنجبار • غير ان الحل الذي فرضته حكومة الهند البريطانية للمشكلة كان أسوأ من المشكلة نفسها من وجوه عديدة ، فالتقسيم شطر دولة قائمة وموحدة وصفها أحد المراقبين البريطانيين « بالدولة البحرية الأولى » كما قوض اقتصاد هذه الدولة ووحدتها السياسية ، وأسهم بالتالى في اضعاف النشاط التجارى للملاحين العمانيين ويرى بلى بأن التقسيم كسبب في تقويض دعائم الاقتصاد العماني في الستينات من القرن التاسع عشر ، لا يضارعه في الأهمية سوى ادخال خط الملاحة التجارية الى المنطقة • ان وقوع مسقط في قبضة مجموعة من الأباضيين المتزمتين من سكان المنطقة الداخلية يعتبر السبب الرئيسى في

تفجير الاضطرابات السياسية التي كانت من أخطر عوامل تدمير الاقتصاد العماني . كذلك فان المحاولات التي بذلت ما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧١ لبعث نظام الامامة المترمة قد ضاعفت من الكارثة الاقتصادية في البلاد . ان حماس المتطرفين الأباضيين لفرض مفاهيمهم الشكلية للتقوى ، كان على حساب التسامح الاجتماعي لسكان النصف الساحلي من عمان ، كما قضى على البقية الباقية من تجارة المنطقة لدرجة كان يخشى معها أن تتحول هذه البلاد الى قرية مهجورة من قرى الصيادين^(١) . وخلال الفترة التي سيطر فيها هؤلاء المتطرفون ، أصبح التجار المتمتعون بالحماية البريطانية في وضع لا يحسدون عليه ، مما اضطر عدد كبير منهم الى مغادرة البلاد ونقل ممتلكاتهم وتجارتهم ، أما البعض الآخر ممن مضى عليه في البلاد سنوات كثيرة فقد أخذوا يغادرون مسقط الى موانئ أخرى . ومن هؤلاء التاجر صاحب السفينة كلكتا مارشنت (Calcutta Merchant) وهو من أصل هندي وكان قد مضى على اقامته بالبلاد حوالي خمسين سنة ، فقد حمل معه أمتعته وغادر مسقط الى زنجبار . أما التجار الهنود الأقل حظا من الثروة ، والذين يملكون بعض العقارات والمحال التجارية ، ولم تكن امكانياتهم المادية تسمح لهم بمغادرة البلاد فقد استنجدوا بالسلطات البريطانية لتحميمهم من المتطرفين القادمين من الداخل والذين كانوا يهددونهم في معيشتهم . وعندما تمكن السلطان تركي بن سعيد في سنة ١٨٧١ من طرد المتطرفين العمانيين من مسقط استعادت البلاد سياستها التقليدية القائمة على تشجيع التجارة^(٢) .

لقد مر المناخ الاقتصادي في المنطقة الغربية من المحيط الهندي ، وفي

(١) رسالة رقم ٢٩٧ مؤرخة ١٨٦٩/١٢/٩ من دسبراو الى جاون راجع ايضا سجلات حكومة الهند المتعلقة بمسقط — الجزء الثاني — المجلد ال .
(٢) رسالة رقم ٤٦٤ صادرة من مسقط بتاريخ ١٨٦٩/٨/١١ من دسبراو الى جاون وأخرى رقم ٦٨٣ بتاريخ ١٨٦٩/١١/٢٥ من سجلات حكومة الهند جزء ١ مجلد ال .

الخليج العربى بتغيرات جذرية فى الستينات من القرن التاسع عشر • ويبدو واضحا من هذا ان أى محاولة من جانب حكومة مسقط لتشجيع التجارة لم يكن فى وسعها أن تعيد الى البلاد ما فقدته من امكانيات تجارية • وبنجاح حركة البواخر فى أوائل الستينات من القرن التاسع عشر ، واقتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ لم يعد لوجود مركز لتجميع السلع فى الخليج أى أهمية • وبالتالي تحتم على مسقط أن تقنع بوجودها كميناء من الموانئ التى تستقبل السفن البخارية فى الخليج • وبمرور الوقت وكنتيجة للمنافسة القوية من جانب شركات الملاحة التجارية فقدت مسقط ما تبقى لها من أهمية • وهكذا لم يتبق لأصحاب السفن التجارية فى مسقط فى أوائل سنة ١٨٦٤ الا النزر اليسير من النشاط التجارى الذى كان يقتصر على نقل الملح من بندر عباس والبلح من عمان الى الهند • وقد تمخض هذا الوضع عن انخفاض فى نسبة دخل الجمارك الذى كان يشكل مصدرا هاما من مصادر دخل الحكومة ، كما ان الاجراءات التى اتخذها السلطان لرفع الضرائب الجمركية قد عجلت بالتدهور الاقتصادى وخلال الستينات تحولت التجارة عن موانئ مسقط ، كما انتقل بعض أصحاب السفن الى صور حيث تتوفر بعض الحرية التجارية (٣) • وما ان حل عام ١٨٦٨ حتى أصبحت مسقط شبه مدينة مهجورة ، على حد وصف البعض لها كما كانت ماضية فى طريق التدهور (٤) • وخلال الستينات من القرن التاسع عشر وكنتيجة لمشاكل مسقط السياسية ومنافسة البواخر لنشاطها التجارى ، وتدهور النشاط الذى كانت تنبض به موانئها منيت بانتهيار اقتصادى عميق •

(٣) رسالة بتاريخ ١٨٦٢/٢/١٦ من بلى الى اندرسون ورسالة أخرى رقم ٤١ مؤرخة فى ١٨٦٤/٨/٢٣ من المقيم البريطانى • انظر أيضا كتاب Precis Int'l Rivalry ص ٢٧ •

(٤) رسالة رقم ٤١٢ مؤرخة فى ١٨٦٨/٩/١٧ من اتكنسون الى جاون •

تدهور النشاط التجارى والملاحى :

سبق أن أكدنا بأن صناعة السفن ، فى عمان كانت تمثل دعامة الاقتصاد فى المنطقة الساحلية على مدى آلاف السنين قبل الستينيات من القرن التاسع عشر . وفى العصور الوسطى كان الملاحون العمانيون رواد الرحلات البحرية الى بلاد الصين . كما كانوا بناة امبراطورية ملاحية ازدهرت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وفى كل من العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة كانت التكنولوجيا البحرية العمانية تضم خبرة تعد فى طبيعة الخبرات التكنولوجية فى العالم أجمع ! غير أن التكنولوجيا الملاحية العمانية قد تجمدت منذ وقت طويل . ومن ثم كنتيجة ظهور السفن البخارية على المسرح أصبح العمانيون غير قادرين على مواجهة هذا التحدى الثورى ، وبذلك تدهورت صناعة بناء السفن فى عمان . وحاول العمانيون فى القرن السابع عشر أن يقلدوا الاسلوب التكنولوجى الغربى فى بناء السفن غير أنهم لم يكونوا فى مستوى الصناع الغربيين وفى فهم أسرار صناعة السفن البخارية التى أخذت تزاوّل نشاطها فى القرن التاسع عشر .

لم تكن المشاكل التى تواجه صناعة بناء السفن فى عمان فى الستينيات من القرن التاسع عشر تختلف عن المشاكل التى كان يواجهها أصحاب السفن فى أقطار الخليج الأخرى . وكنتيجة للنشاط الإقتصادى الناتج عن ظهور السفن البخارية وتزايد الطلب على القطن فى الوقت نفسه فى أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر شهدت المنطقة نشاطا تجاريا كبيرا كانت تقوم به كل من السفن المحلية والسفن البخارية التابعة للشركات الأجنبية . غير أن النشاط الإقتصادى المشار اليه قد سبب ارتفاعا فى مستوى الأسعار فى الخليج بوجه عام ، وهو الارتفاع الذى استمر حتى عام ١٨٦٨ ، مما أدى الى رفع أجور الشحن فى السفن المحلية . وبتزايد الطلب على القطن فى سنة ١٨٦٥ ، اضطر الارتفاع فى الأجور ، النقل ، وضعف النشاط التجارى ، وازدياد الطلب على السفن البخارية ، قسما كبيرا من أصحاب

السفن المحلية الى بيع سفنهم ، أو سحبها الى الشاطئ . • اما السفن البخارية فلم تكن تعتمد على مستوى الأجور ، كما كان يفعل أصحاب السفن المحلية . • وقد لجأت البواخر لمعالجة أزمة سنة ١٨٦٥ الى تخفيض أجور النقل مما شجع تجار المنطقة الى التحول الى البواخر ، الأمر الذى أسهم فى انعاش تجارة الخليج مرة أخرى فى سنة ١٨٦٩ وقد حقق هذا الاتجاه نجاحا ملحوظا مما زاد فى عدد الرحلات التى تقوم بها البواخر الى الخليج فى سنة ١٨٦٦ . • غير أن أصحاب السفن ، لم يكن فى مقدورهم أن يتحملوا أزمة السنوات الأربع أو المنافسة على الأسعار . • وبالتالى وحتى فى الفترة التى انتعشت فيها الحالة على أثر التحسن الشامل فى النشاط الاقتصادى للخليج ، ظلت معظم الأرباح الناتجة عن العمليات الملاحية من نصيب البواخر ، ولم ينل الملاحه المحلية سوى نسبة ضئيلة منها . • ولقد تضررت الملاحه المحلية من هذه الأزمة ضررا بالغا ، وذلك من جراء محاولاتها للتغلب على مشاكلها الاقتصادية والصمود لمنافسة السفن البخارية لها (٥) .

ومن ناحية أخرى أسهم تدهور حالة الأسطول العمانى الكبير فى اضعاف الحركة الملاحية لعمان فى الستينات . • وعند وفاة السلطان سعيد سنة ١٨٥٦ كان الجانب الأكبر من هذا الأسطول راسيا فى ميناء زنجبار ، وحتى القطع التى بقيت فى ميناء مسقط تم بيعها فى الستينات . • وقد اعتبر هذا جزءا من المؤامرة البريطانية لشطر الامبراطورية العمانية وتفتيتها . • وهكذا اختتمت هذه الحقبة من تاريخ عمان ، ولم يعد لها قوة بحرية يعتد بها . • وقد كان لهذه التطورات آثارها السياسية والاقتصادية على البلاد لأن السيد سعيد كان يستخدم الأسطول فى النواحي التجارية والعسكرية وكان أكبر أسطول فى المنطقة . • وهكذا فى الستينات من القرن التاسع عشر تخلت عمان التى ظلت على امتداد قرن ونصف عاملا هاما فى تجارة النقل

والنشاط الملاحي في منطقة الخليج ، عن صناعة بناء السفن الأمر الذي أسهم الى حد كبير ولأسباب سياسية أكثر منها اقتصادية في تدهور عمان كدولة ملاحية كبرى في المنطقة (٦) .

وعندما كان المحافظون الأباضيون على رأس السلطة في مسقط ما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧١ فر عدد كبير من أصحاب السفن من البلاد وعلى كل فان الاجراءات الشديدة التي فرضتها هذه الحكومة في مسقط قد خففت في عام ١٨٧٠ ، وبدأت التجارة تستعيد نشاطها (٧) . وقد شارك في خلق هذه الأوضاع بعث الحكم المعتدل في مسقط . وكان عدد السفن التي يملكها العمانيون في مسقط سنة ١٨٧١ ١٦ سفينة كبيرة بعضها من أصل بريطاني وأمريكي (٨) . غير أن صعوبة الاحتفاظ بسفن قديمة في حالة ملاحية جيدة ، ونتيجة للمنافسة الشديدة من جانب السفن البخارية لم يزد عدد سفن مسقط على ٦ فقط ، وحتى هذا العدد انخفض فيما بعد الى سفينتين فقط . وكانت آخر سفينة تملكها مسقط هي السفينة (County of Forts) التي اختفت في سنة ١٩٠١ وهي تنقل شحنة من الحبوب الى كلكتا . ومن

(٦) للاطلاع على مصير اسطول السيد سعيد راجع ما كتبه رجبى في « تقرير عن زنجبار » وسجلات حكومة بومبي رقم ٩ ال (١٨٦١) ص ١٨ — ١٩ ورسالة دسبراو الى جاوون رقم ١٣٩ بتاريخ ١٨٦٩/٣/٤ من سجلات حكومة الهند جزء ٢ مجلد ال وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٦٩ وفيه معلومات عن انسحاب حكومة مسقط من مسرح النشاط الملاحي . وبالإضافة الى اسطول السيد سعيد المؤلف من ١٥ سفينة حربية ، كان يملك عشرين سفينة تجارية ، كما كانت الارباح الناتجة عن التجارة الملاحية موردا اضافيا لخزينة الدولة حيث لم يكن يوجد خط فاصل بين الدخل الخاص والدخل العام للحاكم . انظر كذلك كتاب « صيد العبيد » ، تأليف السرج . س . ا . كولومب ص ١١٧ . (طبعة لندن ١٨٧٣) . وجاء فيه أن آخر سفينة في اسطول السيد سعيد غرقت بعد أن داهمها اعصار وهي راسية في زنجبار سنة ١٨٧٢ .

(٧) رسالة من بلى الى ديوك أرجيل ٧ مايو ١٨٧٠ رقم ١٤٧ — ٢ سجلات الهند ٢ مجلد ال .

(٨) تقرير ادارى — ١٨٧٦ — ١٨٧٧ ص ٨١ .

الطريف أن نلاحظ أن أغلب السفن العمانية قد اشترت من شركات أوروبية كانت على وشك تفكيكها وبيعها كخردة^(٩) .

وما أن حل عام ١٨٧٨ حتى كانت محاولات بعث النشاط الملاحي الذي شهدته مسقط في السبعينات من القرن التاسع عشر والملاحة المحلية على اختلافها قد انخفض عددها من ٩٩٩ سفينة سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ الى ٧١٦ سفينة في سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٩ ، ثم الى ٣٧٤ سفينة في سنة ١٨٩٣ — ١٨٩٤ وأخيرا انخفض العدد في سنة ١٨٩٥ — ١٨٩٦ الى ٢٣٨ سفينة^(١٠) . ويبين الجدول رقم ٢ الانخفاض المطرد في مستوى النشاط الملاحي في نهاية القرن التاسع عشر ، كما يوضح الزيادة المطردة في الرحلات التي تقوم بها السفن الأوربية والبواخر بصورة خاصة الى ميناء مسقط في نفس الفترة . ويبلغ مجموع حمولة البواخر التي زارت ميناء مسقط عام ١٨٩٥ ١٩٤٠٠٠ طن ، بينما لم تزد حمولة السفن المحلية في الفترة نفسها على ٢٤٩٠٠ طن^(١١) . ومن الواضح أن السفن الأوربية قد استحوذت على الجانب الأكبر من تجارة النقل التي كانت في يوم من الأيام حكرا على الملاحين العمانيين ، كما انخفض عدد السفن العمانية العاملة انخفاضا مخيفا (شمل جميع الموانئ العمانية) ولم يعد للملاحة المحلية غير دور محدود ويقتصر على النشاط الساحلي . فما أعظم الفرق بين هذا الوضع وبين وضع عمان الملاحي في الأربعينات من القرن التاسع عشر حيث كانت تملك ١٤ سفينة من الحجم الكبير ومائتي سفينة على الأقل من عابرات المحيط ومئات غيرها من سفن الصيد لا تقل حمولة كل منها عن ٥٠ طنا تمارس نشاطها في منطقة مسقط وحدها . وكذلك كانت السفن العمانية تقوم بنقل أكثر من نصف تجارة

(٩) نفس المصدر : تقرير ادارى ١٩٠١ — ١٩٠٢ ، ص ٩ وكتاب لوريير
مجلد ١ ص ٢٣١٩ — ٢٣٣٢ .
(١٠) Precis Commerce ص ٢٢٠ — انظر كذلك تقرير ادارى
١٨٩٥ — ١٨٩٦ ص ٥٢ .
(١١) Precis Commerce ص ٢٢١ انظر كذلك تقرير ادارى ١٨٩٥ —
١٨٩٦ ص ٥٢ .

الخليج وقد استمر هذا الوضع حتى عام ١٨٥٤ ، على ما جاء في تقرير أحد المراقبين الغربيين (١٢) .

وقد ارتفع مجموع حمولة السفن التي تغادر موانئ الخليج ما بين سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٩٤ ، الا ان أرقام رحلات السفن المحلية انخفض الى حد كبير . أما السفن الأوربية فقد ظلت محتفظة بنشاطها . غير أن أحجامها كانت تزداد . ومن ناحية أخرى انخفض عدد السفن التي كان يقودها الملاحون المحليون في نهاية القرن التاسع عشر عن عددها قبل هذه الفترة . ويلاحظ منذ عام ١٨٧٧ أن السفن الأوربية الكبيرة والمربعة الشكل التي كانت تمارس نشاطها التجاري بين موانئ مسقط والهند قد أخذت تستبدل بسفن أصغر حجما (١٣) .

ان اختفاء السفن الكبيرة وظهور السفن الصغيرة في أعداد متزايدة ، كان له تأثيره الحتمي الخطير على حركة أحواض بناء السفن العمانية والاقليمية . ففي أوائل القرن التاسع عشر كان نوع السفن الكبيرة المسمى (Trankis) ترانكيس يعمل في مياه الخليج ولكنه اختفى بعد فترة ، كما اختفت أيضا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر السفن الشراعية التي تسمى « بالبعلة » من مياه الخليج . ويصف اللفتنانت وليستد ، أحد ضباط الأسطول البريطاني هذا النوع من السفن الشراعية بعد أن شاهد احداها وهي راسية في ميناء مسقط فيقول « انها سفينة هائلة الحجم مشوهة الشكل لا تقبل حمولتها عن ٤٠٠ طن ولها خرطوم بارز طويل ومؤخرة واسعة عليها نقوش وحفريات . ولها سارية واحدة وشراع واحد اذا فرش على الأرض فإنه يغطي مساحة طولها ١٥٠ قدما ويضم من القماش

(١٢) من سجلات حكومة بومباي سنة ١٨٦٥ ص ٦٣١ — ٦٣٢ انطباعات اسكود ص ٨٦ و ٨٢ — ٨٣ .

(١٣) Preci Commerce ص ٢١٩ — ٢٢٢ انظر أيضا « تقرير اداري » ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ص ١٤٩ .

جدول ٢ - بواخر تارت و غادرت مسقط بين ١٨٧٤-١٨٩٤

بواخر غادرت		١٨٧٤ - ٧٥	١٨٧٥ - ٧٦	١٨٧٦ - ٧٧	١٨٧٧ - ٧٨	١٨٧٨ - ٧٩	١٨٧٩ - ٨٠	١٨٨٠ - ٨١	١٨٨١ - ٨٢	١٨٨٢ - ٨٣	١٨٨٣ - ٨٤	١٨٨٤ - ٨٥	١٨٨٥ - ٨٦	١٨٨٦ - ٨٧	١٨٨٧ - ٨٨	١٨٨٨ - ٨٩	١٨٨٩ - ٩٠	١٨٩٠ - ٩١	١٨٩١ - ٩٢	١٨٩٢ - ٩٣	١٨٩٣ - ٩٤
امريكية	٤	٥	٥	٥	٤	٤	٣	٣	٣	٥	٣	١	١	١	١	١	٢	٣	١	٤	١
سفينة	١				٣	١	١	١	١	٣	٣	٧	٧	٩	٣	١٥	١٣	١٢	١٣	١١	١٣
هندية	١٨	١٢	١٨		٢٢	١٧	٢٧	٢٠		٢٢	١١			١٠	١٥	١٦	١٢	١٢	١١	١٢	١٣
لندن										٣				١	٣	٢	١	١	١	١	١
شركة الهند الهولندية	٨١	١١	٥٤		٥٢	٥٨	٧٢	٧٢	٨١	٨٤	٧٢	٧٩	٧٤	٧٤	٧٤	٧٧	٦٠	٦١	٦٢	٦٥	٦٥
فرنسية										١١	١٤	٨									
جزيرة موريشيوس	٥	٣	٨		١٤	٥	٥	٣	٤	١	٣	٦	٣	٢	٢	١	٤	٤	١	٢	٢
الملايكة	٥	٧	١٣		١٥	١٣	٦	٤	٦	٣	٧	٥	٣	٣	٦	١٠	٨	١٠	٦	٩	١٦
البحر الأحمر	١	٢	٣		٧	٣	٢	١	١	١	١	٢	٥	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٣	٥
سفينة					٢	٣	٢	١	٢												
زنجبار			١		٣	٤	١	٢	٣	٢	٥	٤	١		٤	٢	٢	٣	٣	٣	٢
برايض اخرى	١٢	٤	٣		٢٦	١٥	١٢	١٢	١٤	٩		١									
المجموع	١٢٨	٨٩	١٠٧		١٥٣	١٢٨	١٢٦	١٢٠	١٢٨	٩٩	١٢١	١٢٧	١٠٧	١٠٣	١٠٨	١١١	٩٤	٩٦	٩٠	٩٩	١٠٦
السفن الليرة																					
الريند	٤٠٠	٣٠٠	٤٥٠		٥٠٠	٣٠٠	٤٥٠	٤٠٠	٤١٥	١٤١	١٤١	١٣٢	١٤٨	١٧٠	١٨٠	١٩٠	١٥٠	١٧٠	١٥٠	١٦٠	٩٩
القلبي	١٠٠	٢٠٠	٩٥		١٤٠	٢٠٠	١٨٠	٢٠٠	٢٠٠	١٥٠	١٥٠	١٤٨	١٤٥	٤٥	٤٠	٥٠	٥٠	٤٥	٤٠	٤٤	٤٥
مكرات	٥٠	١٥٠	٩٤٠		١٠٠	٢٠٠	٦٠	٦٠	٥٥	٨٤	٨٤	٨٠	١١٠	١٠٢	٩٠	٧٥	٨٦	٨٥	٨٠	٧٥	٧٥
المين	٦٠	٢٠٠	٥٠		٢٠	٤٠	٤٠	٤٠	٤٠	٤٦	٤٦	٢٧	٢٥	٢٥	٢٠	٢٢	٢١	٨١	١٨	٢٠	٢٤
زنجبار	٤٠	٦٠	٢٥		٢٠	٤٠	٢٥	٢٥	٢٢	٢٢	٢٢	٢٥	٢٥	٢٥	٢٥	٢٥	١٨	٢٠	٢٤	٢٠	٢٠
المجموع	٦٥٠	٩١٠	٧٤٠		٧٩٠	٧٨٠	٦٤٥	٥٠٠	٥٢٢	٤٤٣	٤٤٣	٤٢٣	٣٥٨	٣٧١	٣٦٥	٣٦٥	٣٤٥	٣٤٠	٣١٢	٣١٨	٢٦٨
المجموع الكلي	٧٧٨	٩٩٩	٨٤٧		٩٤٢	٩١٨	٧١٦	٦٢٠	٦٧٠	٥٤٢	٥٤٤	٥٦٠	٤٦٥	٤٧٥	٤٧٢	٤٧١	٤٦٩	٤٦٦	٤٠٤	٤١٢	٣٧٤

كمية تزيد على القماش المستعمل في أكبر وأقدم سفن أسطول صاحبة
الجلالة» (١٤) .

وتتسع السفينة التي شاهدها وولستد لمائة وخمسين رجلا ، كان أغلبهم
من الزنوج الأفريقيين . وكانت هناك سفن أخرى تتسع لأربعمائة شخص
ويصل طولها الى ٢٠٠ قدم وعرضها ٥٠ قدما . وعلى أى حال ففى نهاية
القرن التاسع عشر لم تكن تزيد حمولة أكبر السفن التي كانت تبني في عمان
على ١٠٠ الى ٢٠٠ طن . وكان النوع المفضل من السفن هو النوع الصغير
الذى لا يتجاوز طوله ٣٠ قدما وحمولته ١٠ أطنان . وهذا يعنى انه على
الرغم من الرحلات الطويلة التي كانت تقوم بها السفن العمانية الى بحار
أفريقيا والهند ، فقد كان البحارة العمانيون يفضلون الرحلات الساحلية
القصيرة . وكانت مطرح — المدينة التوأم لمسقط أحد مركزين لبناء السفن
في عمان — وتبعد مطرح عن مسقط بحوالى خمسة أميال . أما صور فقد
كانت تصدر السفن الى الخارج . الا أن الكويت أصبحت في سنة ١٩٠٠
أهم مركز لبناء السفن في الخليج . ولقد ظلت صناعة بناء السفن في عمان
في هبوط مطرد بحيث لم تعد لها أى أهمية الآن . وكان من المحتم أن
يتدهور التركيب العام لنشاط الموانئ الخاص ببناء السفن في عمان ،
والذى كانت له أهميته بالنسبة للبلاد تبعا لتدهور صناعة بناء السفن (١٥) .

غير ان اختفاء الأنواع الكبيرة من السفن لم يؤثر ، عندما حدث ،
على عدد كبير من أصحاب السفن العرب . ففى الستينات من القرن التاسع
عشر تمخض تركيز الثروة والنشاط التجارى في أيدي التجار الهنود المقيمين
في الخليج عن امتلاكهم للمزيد من السفن باعتبار ذلك المجال الوحيـد

(١٤) رحلة الى جزيرة العرب فصل ١ ص ٢٨ ، تأليف : وولستد .

(١٥) بلدان وقبائل الخليج جزء ٢ ص ٤١٢ : مايلز وكتاب لوريير مجلد ١

ص ٢٣٢٠ — ٢٣٢٦ . كذلك راجع « جزيرة العرب وحدودها الشرقية » ص

٣٢٦ (١٦) كتاب لوريير مجلد ١ ص ١١٨١ — ١١٨٦ .

للاستثمار • وفي السبعينات كان الهنود يملكون السفن الكبيرة المسجلة في كل من مسقط ومطرح بينما يملك العرب ويديرون السفن الصغيرة (١٦) •

لقد ذكرنا آنفا بأن مجالات النشاط المفتوحة قد أخذت تضيق أمام السفن العمانية في الستينات من القرن التاسع عشر • وعلى الرغم من الرحلات التي كانت تقوم بها السفن من وإلى الهند لنقل الملح والأرز ، فقد ظل عدد السفن العمانية في تناقص مطرد • ولقرب ميناء كراتشي من عمان ، حلت هذه المدينة محل كل من بومبي وكلكتا كمحطة رئيسية لما بقى من تجارة عمان مع الهند • ولقد زاد ، كما كان متوقعا ، عدد الرحلات التي تقوم بها السفن العربية للموانئ التي تترتادها البواخر •

وعلى الرغم من تدهور النشاط الملاحي مع الهند فقد احتفظت بعض الموانئ ، كميناء مكران لتعذر وصول البواخر إليه ، بأهميتها كموانئ تقصدها السفن العمانية • وفي سنة ١٩٠٠ لم تعد السفن العمانية تزور مياه البحر الأحمر إلا في حالات نادرة ، كما انخفض عدد رحلاتها إلى زنجبار أيضا على الرغم من أنها كانت تقوم ببعض الرحلات الخاصة بجلب العبيد • وهكذا أصبح النشاط التجاري المحظور كتجارة الرقيق وتهريب الأسلحة بوجه عام المنفذ الأخير لعدد كبير من الملاحين العمانيين ، والنشاط الرئيسي للملاحي صور • ولم يبق من النشاط التجاري المشروع لعمان سنة ١٩٠٠ غير الرحلات الساحلية المحدودة ونقل السلع من الموانئ الصغيرة إلى موانئ البواخر ، إلى جانب صيد الأسماك • وحتى الملاحة المشروعة منيت بضربة ساحقة في سنة ١٩٠٢ عندما غاجت القوات البرتغالية أسطولا لأهالي صور في أحد موانئ موزمبيق وفيه شحنة من العبيد فاستولت على معظمه ودمرت الباقي • أما أن السفن قد واصلت رحلاتها إلى موانئ مسقط فإن ذلك يدل ، على أي حال ، على أن هذا الميناء ظل محتفظا بنشاطه ، ولكن بشكل محدود • وبعد سنة ١٨٧٤ أخذت سفن شركة الهند البريطانية للملاحة البخارية تتوقف في ميناء مسقط في طريق رحلاتها • أما

سفن شركة بومبي وفارس للبواخر فلم تكن تزور مسقط في فترات منتظمة، كما كانت تفعل البواخر التابعة للشركات الأخرى • أما الرحلات المنتظمة الوحيدة للرحلات المباشرة بين أوربا ومسقط فهي بواخر الشركة الانجليزية العربية — الفارسية التي أخذت تزور ميناء مسقط اعتباراً من سنة ١٨٨٦ وكانت رحلاتها من لندن الى المنطقة تستغرق أربعة أسابيع • كما كانت فرنسا تسير رحلات على نفقتها ، وقامت برحلات الى مسقط خلال ١٨٨٣ — ٨٥ و ١٨٩٦ — ٩٧ • وكذلك روسيا افتتحت خطاً تجارياً الى مسقط ابتداء من سنة ١٩٠١ ، ولكنه لم يستمر طويلاً •

وكانت الموانئ المزدهرة الوحيدة في عمان هي الموانئ التي كانت تستقبل تجار العبيد ومهربى الأسلحة • فودام التي كانت مجرد قرية بيوتها من سعف النخيل وعدد سكانها لا يزيد على مائة نسمة في سنة ١٨٤٠ تحولت في عام ١٩٠٠ الى أحد مراكز التهريب النشطة التي كان يغادرها كل عام ما لا يقل عن أربعين سفينة في طريقها الى موانئ الخليج والهند واليمن (١٧) وكانت صور أهم مدينة يتركز فيها النشاط التجاري غير المشروع ولم يكن لحكام مسقط حتى في أوج سلطانها أى نفوذ على صور • وفي أعقاب الستينات من القرن التاسع عشر ، ونتيجة لاختفاء الأسطول العماني من الوجود ، انعدم هذا النفوذ انعداماً تاماً • وعندما أخذ البحارة العرب يتدفقون على هذه المدينة هرباً من الرقابة والضرائب أصبحت صور أكبر الموانئ الملاحية في نهاية القرن التاسع عشر كما جعلها تعداد سكانها الذي وصل في سنة ١٩٠٠ الى اثني عشر ألف نسمة أكبر المدن العمانية كلها • غير أن هذه الأهمية عادت فانتقلت منها الى مطرح فيما بعد • وقد بلغ عدد السفن التي صادف أن كانت متجمعة في ميناء صور في ذلك الوقت مائة سفينة كلها من عابرات المحيط ، غير أن هذا الرقم لا يعتبر شيئاً

(١٧) سجلات حكومة بومبي : ١٨٥٦ ، ص ٦٢٧ وكتاب لوريير فصل ١١ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ •

بالمقارنة الى مجموع السفن التي كانت تعمل في الثلاثينات من القرن التاسع عشر وعددها ٣٠٠ سفينة • وباستثناء صور ، وودام وبضع موانئ أخرى صغيرة ، فان الأربعين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر تعتبر فترة ركود في نشاط السواحل العمانية • فقد تدهورت كل أوجه النشاط الملاحى في موانئ البلاد فيما عدا صيد الأسماك • وقد اضطر عدد كبير من العائلات التجارية العربية الى الانسحاب الى مزارعها في داخلية البلاد تاركة ما بقى من التجارة الملاحية للتجار الهنود (١٨) •

تدهور تجارة مسقط وازدهارها . لقد كان من أسوأ النتائج التي تمخض عنها تدهور مسقط كمركز ملاحى ، وكمطقة حرة ، هو سقوط أهميتها التجارية وازدهارها الاقتصادى الى جانب انخفاض عدد سكانها • فالفترة التي شهدتها البلاد في أعقاب وفاة السيد سعيد سنة ١٨٥٦ تعتبر كارثة لمسقط وملحقاتها • ففي الأربعينات من القرن كانت حوالى خمسة أثمان تجارة الخليج تأتي عن طريق مسقط ، غير أن هذه النسبة قد انخفضت في سنة ١٨٧٤ الى ١ من ١٢ • وبما أن هذه النسبة لم ترتفع في سنة ١٩٠٠ ففي ذلك دليل على أن الركود قد تحول الى تجمد في النشاط التجارى • ان الأرقام التجارية لهذه الفترة انما تعكس انخفاض نسبة النشاط التجارى وما أعقبه من ركود اقتصادى أصاب المنطقة الساحلية بالشلل التام • وقد بلغت أرقام القيمة التقديرية لصادرات مسقط التجارية ووارداتها في الثلاثينات من القرن مبلغ ١٨٠٠٠٠٠ جنيه استرلينى • ولا يعتبر هذا رقما زهيدا اذا قورن بالنشاط التجارى الخارجى للشرق الأوسط عن الفترة

(١٨) رحلة الى جزيرة العرب جزء ١ ص ٤٣ — ٤٤ ، تأليف وولستد ورسالة رقم ٢٥٣ مؤرخة في ١٨٨٤/٩/١٥ من مايلز الى روس • من سجلات الحكومة الهندية — ٣ مجلد ٤ والتقارير الادارى لسنة ١٨٧٩ — ١٨٨٠ ، ص ١٣٤ وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ١٤١٣ — ١٤١٤ وص ١٨٤٧ — ١٨٥٠ •

التي سبقت العصر الحديث ، بينما قدرت قيمة تجارة الصادرات والواردات العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر بأحد عشر مليوناً من الجنيهات الاسترلينية (١٩) . وعلى أى حال ، فإن نسبة مجموع قيمة التجارة عن سنة ١٨٧٤ — ١٨٧٥ قد انخفض الى ٢٥٧٩٤ ج . س . كما ورد في سجلات القنصلية البريطانية . كما تبين الجداول رقم ٣ و ٤ و ٥ بدورها نسبة الانخفاض في معدل تجارة مسقط الذي حدث في أعقاب ذلك التدهور . كذلك يتضح من هذه الجداول بأرقام صادرات البلاد و وارداتها ومجموع تجارتها الخارجية انها ظلت محتفظة بنفس المعدل الذي وصلته في منتصف السبعينات من القرن ، هذا باستثناء بعض حالات الضعوف والهبوط في الأرباح التجارية . وفي الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر زادت نسبة الواردات على الصادرات ، غير أن العجز الناتج عن ذلك قد تمت تسويته عن طريق القروض والأرباح الناتجة عن بعض الخدمات التي تقوم بها السفن والنشاط المحظور كالاتجار في الأسلحة وتهريبها . ولقد شهدت مسقط قبل الستينات من القرن التاسع عشر حركة تبادل (مقايضة) واسعة في عدد من السلع منها الكماليات تبعا لنظام التبادل المعمول به في المنطقة . أما في الربع الأخير من القرن التاسع عشر فقد تركزت المقايضة في المواد الغذائية والسلع الضرورية ، كالأرز ، والمنسوجات وخيوط الغزل ، والسكر ، والبن الذي كان على رأس الواردات ، بينما تركزت الصادرات في البلح ، والفواكه والأسماك واللآلئ ، كذلك النقود الفضية على اختلاف كمياتها ،

(١٩) رحلة الى جزيرة العرب ، تأليف : ولستد فصل ١ ص ٢٢ — ٢٤ للاطلاع على أرقام التجارة العثمانية أنظر بحثا بعنوان « رسائل من تركيا » ويتناول الكاتب فيه الحالة الدينية والسياسية ، والاجتماعية ، والتجارية للإمبراطورية العثمانية وقد قامت الليدى ايستوهوب بترجمته عن الفرنسية (طبع لندن ١٨٥٦) فصل ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

والأسلحة المهربة الى الأقطار الآسيوية الأخرى التى كانت أهم بنود التجارة فى القرن التاسع عشر (٣٠) .

وبسبب الانفجارات السياسية داخل عمان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر انخفض معدل التجارة انخفاضاً كبيراً لأن الظروف لم تكن تشجع الناس على التصدير . وكنتيجة للانتكاسات التى سببتها الأوضاع السياسية للبلاد سنة ١٨٧٨ و ١٨٨٤ و ١٨٩٥ أغلق الطريق بين داخلية عمان وموانئ البلاد لفترة من الوقت . وتتضح أبعاد الانتكاس فى النشاط التجارى والأزدهار الاقتصادى للبلاد أكثر ما تتضح فى الشلل الصارخ الذى أصاب الموانئ العمانية . وفى بداية الخمسينات من القرن التاسع عشر ، كان عدد سكان مدينة مسقط ٥٥٠٠٠ نسمة تقريبا فى الوقت الذى لم يكن يزيد عدد سكان المدينة التوأم مطرح على ٨٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ نسمة وفقاً لتقدير بعض المراقبين (٣١) . ان الاضطراب السياسى والاقتصادى الذى عم البلاد نتيجة لوفاة السيد سعيد . قد اضطر عدداً كبيراً من أهل البلاد ، على ما يبدو ، الى مغادرتها ، بحيث انخفض عدد السكان فى الستينات من القرن التاسع عشر الى ٤٠٠٠٠ نسمة فقط . وينعكس هذا التدهور الذى تعرضت له المدينة فى أعقاب أزمة الستينات فى الانخفاض الحاد فى عدد السكان الى نحو ٨٠٠٠ نسمة ، وهو الرقم الذى وصل اليه تعداد السكان فى السبعينات من القرن التاسع عشر (٣٢) .

(٣٠) Preci Commerce ص ١٨٢ — ٨٦ والتقارير الإدارى لسنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ لسنة ١٩٠٢ — ١٩٠٣ . لقد ظلت أرقام تجارة عمان فى قلب حتى العشرينات من القرن العشرين ، غير أن الاحصاءات الاولى تشير الى الاتجاهات العامة لهذه الأرقام .
(٣١) انطباعات ، اسكود ص ٥٢ ورحلة الى جزيرة العرب ، تأليف وولستد .

(٣٢) اخبار رحلة عام عبر شرقى واواسط آسيا . الطبعة الثالثة (لندن ١٨٦٦) فصل ٢ ص ٣٦٩ وفصل ١ ص ٣٢ .
(٣٣) كتاب لوريير مجلد ٢ ص ١١٨١ — ٨٦ ان اجراء احصاء سكانى لمدينة مسقط امر بالغ الصعوبة وذلك لتراوح عدد هؤلاء السكان وفقاً لفصول العمل وارتفاع وانخفاض نشاط الميناء .

تغييرات اقتصادية في عمان

(جدول رقم ٣)

مستوردات مسقط ١٨٧٤ — ١٩٠٣

سنة	ريال نمسوى	روبية	جنيه استرليني
٧٥—١٨٧٤	٣٠.٣٧٦٨١١٠٤٤٦٠٥١٥		٢٨.٠٢٢٨
٨٠—١٨٧٩	٣٦٤٦٠٢٣.١٠٧٣٦٠٣٠٠		٣٠.٣٨٥٢
٨٥—١٨٨٤	٤٠١٢٢٠٣٥٢١٠٩٦٣٠.٢٥		٣٢٩٠٧٨٨
٩٠—١٨٨٩	٤٠١٩٥٠٢٢٤١٠٩٩٧٠٧٢٦		٢٨٨٠٥٢٩
٩٥—١٨٩٤	٤٠٣٦٧٠١٦.٢٠.٧٩٠٦٠٠		٢٢٨٠٣٨٢
١٩٠٠—١٨٩٩	٣٠٢٥٠.٠٩٠.٢٠٦٠.٠٧٢٠		٢١٦٠٤٣٨
١٩٠٣—١٩٠٢	٤٠.٠٦٠٧٩٣٣٠٢.٥٠٤٣٥		٢٦٧٠١١٩

(جدول رقم ٤)

صادرات مسقط بين ١٨٧٤ و ١٩٠٣

سنة	ريال نمسوى	روبية	جنيه استرليني
٧٥—١٨٧٤	١٠٥٧٧٠٩٤. ٠٧٥.٠٤٠٠		١٤٥٠٥٦٦
٨٠—١٨٧٩	٣٠١٩٦٠٥٦٧١٠٥٢٢٠١٧٥		٢٦٦٠٣٨٠
٨٥—١٨٨٤	٣٠٤٤٧٠٢٦٥١٠٦٤١٠٥٥٥		٢٧٥٠٧٨١
٩٠—١٨٨٩	٢٠٩٥٣٠٨٧٠.١٠٤٠.٦٠٦٠٥		٢٠.٣٠١٥٤
٩٥—١٨٩٤	٣٠٤٢٠.٠١٨١٠٦٢٨٠٥٨٠		١٨٦٠٦٨٢
١٩٠٠—١٨٩٩	١٠٩١٦٠٦٢٥١٠٥٣٣٠٣٠٠		١٢٧٠٦٠٤
١٩٠٣—١٩٠٢	٣٠١٣٣٠١٤٣٢٠٥٠.٦٠٥١٥		٢٠.٨٠٨٧٦

(جدول رقم ٥)

قيمة مجموع الصادرات والمستوردات في مسقط بين ١٨٧٤ و ١٩٠٣

سنة	ريال نمسوى	روبية	سعر الجنيه	جنيه بالروبيات
٧٥—١٨٧٤	٤٠٦١٥٠٦٢١٢٠١٩٧٠٩١٥		٤٢٥٠٩٧٤	١٠.٨٤
٨٠—١٨٧٩	٦٠٨٤٢٠٧٩٧٣٠٢٥٨٠٤٧٥		٥٧٠.٢٣٢	١٢٠.
٨٥—١٨٨٤	٧٠٥٦٩٠٦١٧٣٠٦٠.٤٠٥٨٠		٦٠٥٠٥٦٩	١٢٠٥.
٩٠—١٨٨٩	٧٠١٤٩٠.٠٩٤٣٠٤٠.٤٠٣٣١		٤٩١٠٦٨٣	١٤٠٥٤
٩٥—١٨٩٤	٧٠٧٨٧٠١٧٨٣٠٧٠.٨٠١٨٠		٤٢٥٠.٦٤	١٨٠٣٢
١٩٠٠—١٨٩٩	٥٠١٦٧٠٥٢٥٤٠١٣٤٠.٢٠		٣٤٤٠.٤٢	١٥٠.٢
١٩٠٣—١٩٠٢	٧٠١٣٩٠٩٣٦٥٠٧١١٠٩٥٠		٤٧٥٠٩٩٥	١٥٠.٠

* الاحصاءات من Precis Commerce صفحة ١٨٢ — ٨٦ وتقارير الادارة ١٨٧٥ — ١٩٠٣ .

وتنتضح الأزمة التي تعرضت لها مسقط بعد سنة ١٨٥٦ في التغييرات التي طرأت على أوضاعها المادية • غفى أوائل السبعينات كان الوضع التجارى والازدهار المادى والتعداد السكانى فى تدهور مستمر والبلاد تخطو نحو الخراب ، كنتيجة لمنافسة البواخر والخسارة التي أصيبت بها البلاد فى تجارة التوزيع والقتلاقل السياسية • ويذكر الرحالة البريطانى تيودور بنت Theodore Bent الذى زار مسقط فى عام ١٨٩٥ بأن أسواق المدينة التي كانت تزدان بالمعروضات الجميلة ، لم تعد ترضى ذوق الباحثين عنها ، وبأن جزءا كبيرا من هذه الأسواق قد تهدم وأصبح أنقاضا ، وأن مطرح أصبحت العاصمة التجارية للبلاد بعد أن جردت مدينة مسقط من هذه الميزة (٢٤) •

ولم تكن مطرح فى سنة ١٩٠٠ من حيث الحجم أكبر من مسقط بكثير ، كما لم يكن عدد سكانها يزيد على ١٠ آلاف نسمة فى الأحوال العادية و ١٤ ألف نسمة فى الفصول التجارية • غير أن أهمية مطرح تنبع من حيث أنها بوابة عمان الداخلية • غير أن عدد السفن التي تزورها قد انخفض من ٥٠ الى ٢٧ سفينة فى غضون الأربعين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، كما أصبح التجار الهنود فى سنة ١٩٠٠ هم الذين يملكون هذه السفن (٢٥) • ومن ناحية أخرى كانت مدينة صحار فى سنة ١٨٤٠ تضم ٩٠٠٠ نسمة ويملك تجارها أربعين سفينة من عابرات المحيط ، غير أن عدد السفن انخفض فى الثمانينات من القرن التاسع عشر الى ثمانى سفن صغيرة فقط تستخدم فى الرحلات الداخلية ، بالإضافة الى عدد من سفن الصيد • كما انخفض

(٢٤) التقرير الادارى ١٨٧٦ — ٧٧ ص ٥١ و « الجنوب العربى » ، تأليف بنت (طبعة لندن ١٩٠٠) ص ٨٣ — ٨٦ •

(٢٥) السجلات الرسمية لحكومة بومبى : ١٨٥٦ ص ٦٢٩ وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ١١٩٧ — ١٢٠١ فى سنة ١٩٠٧ انخفض عدد سكان مدينة مطرح الى ٧ آلاف نسمة فقط •

عدد سكانها في سنة ١٩٠٠ الى ٤٠٠٠ نسمة (٢٦) . وبالإضافة الى ذلك تدهورت حالة عدد آخر من المدن الساحلية مثل بركا وشناص ، وصهم ، والمصنعة والسويق التي كانت تمتد خزانة الحكومة في مسقط بعشرين ألف ريال نمسوى كل عام في صورة ضرائب ورسوم . بينما انخفض ما قدمته في عهد خليفة سعيد سنة ١٩٠٤ الى ألفي ريال فقط (٢٧) . وهناك مدن أخرى على ساحل الباطنة احتفظت بعدد سكانها بحكم اعتمادها على صيد الأسماك وزراعة البلح ، ولم يكن لها أى نشاط تجارى آخر . ولا نعرف بالتأكيد المناطق التي هاجر اليها سكان هذه المدن على أثر تلك الأحداث . وقبل سنة ١٨٥٦ كان الأجانب يشكلون نسبة كبيرة من سكان مسقط ، وذلك بسبب فرص ومجالات العمل التي توفرها لهم . ومن هنا يمكن القول بأن هؤلاء عادوا الى مواطنهم الأصلية . أما العثمانيون فكان في امكانهم العودة الى الأرياف حيث قراهم ومواطنهم الأصلية . ومن المؤكد أن البلاد قد شهدت هجرة مستمرة في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر (٢٨) . ولم ينج من نتائج التدهور التجارى والاقتصادى والمادى الذى اجتاحت السواحل العمانية في نهاية القرن التاسع عشر غير مدينة صور ، وذلك لاعتمادها على النشاطات التجارية المتنوعة .

أزمة النقد في عمان : غير أن البلاد منيت بكارثة أسوأ من سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩٠٠ وهى كارثة لم تنج منها أى منطقة في عمان ، ونعنى بها أزمة العملة والنقد التى تفاقمت بسببها المشكلات الاقتصادية الأخرى التى

(٢٦) رحلة الى جزيرة العرب ، تأليف : وولستد جزء ١ ص ٢٢٩ والسجلات الرسمية لحكومة بومبي ، ١٨٥٦ ص ٦٢٥ — ٥٢٦ وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ١٨٢٨ — ١٨٤٠ وكتاب « الجزيرة العربية مهد الاسلام » تأليف : اس . دبليو زويمر (طبعة نيويورك ١٩٠٠) ص ٨٤ .

(٢٧) السجلات الرسمية لحكومة بومبي — ١٨٥٦ ص ٦٢٤ — ٦٢٨ وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ٢٥٦ — ٢٦٦ و ١٦٤٥ و ١٨١٠ و ١٨١٥ .

(٢٨) التقرير الادارى ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ص ١٢٦ — ١٢٩ .

كانت تعاني منها البلاد يومئذ • وتعود أسباب هذه الأزمة الى هبوط احتياطي عمان من النقد والعملة الذي كان يتركز في الريال النمساوي (ويسمى أيضا التاج الألماني) وذلك في الثلاثين عاما الأخيرة من القرن • وكان سعر هذا الريال يتحدد بعد فترة السبعينات من القرن التاسع عشر وفقا لأسعار الفضة السائدة حسب القانون العماني (٢٩) • وإلى جانب الريال النمساوي توجد عملات أخرى من مختلف الأنواع من معدن فضي رديء منها الريال البصراوي ، والعملات المسوخة أو المكسورة والريالات النحاسية ، ولكنها كانت عملات رخيصة • وبعبارة أخرى كانت عملة عمان تخضع لتقلبات الأسعار العالمية للفضة •

وبحكم العلاقة التجارية الوثيقة بين مسقط والهند ، كانت عملة البلاد مرتبطة بالروبية الهندية بصورة غير رسمية منذ سنة ١٨٣٥ • وكان الريال النمساوي يعادل ٢١١ آنة بالعملة الهندية رغم أن سعر التحويل كان يتغير وفقا لتغيرات السعر • وكان من السهل تغيير الروبية الى الريال النمساوي ، لأن الفضة التي يتكون منها الريال يمكن إعادة صكها الى روبيات في مراكز الصك الحكومية في بومبي وكلكتا • وفي نهاية القرن التاسع عشر تعرضت العملات الفضية لأزمة عالمية • ومن هذه العملات الريال الفضي الأمريكي • وبعد عام ١٨٧٣ أخذ السعر الذهبي لجميع العملات الفضية في العالم في الانخفاض بسبب الزيادة في الانتاج العالمي من الفضة • وقد سمرت أوقية الفضة التي كانت تباع بـ ٢/٦٠ ر١ ستين بنسا ونصف في سنة ١٨٧١ — ٧٢ بـ ٢٦ ١/٢ بنسا في سنة ١٨٩٨ — ١٨٩٩ (٣٠) • أما في الهند فقد

(٢٩) مبايعة الامام عزان بن قيس وقد ورد كمرفق في خطاب رقم ٨١ — ٧ بتاريخ ١٨٧١/١/١٤ من بلى الى ديوك أوف أرجيل راجع سجلات الحكومة رقم ٢ مجلد ١٧ •

(٣٠) النظام النقدي في الهند (طبعة بومبي ١٩٥٥) ص ١٨٨ أيضا موجز تاريخ العملة في الهند . تأليف ك ان . اس نامبودريباد (طبعة بونا ١٩٥٥) ص ٥٠ •

عولجت هذه المشكلة باصدار كميات اضافية من الروبيات — وعملات أساسها الفضة — كمحاولة لتسوية ميزان المدفوعات البريطانية حيث ظلت عملتها التي تعتمد على الذهب ثابتة طوال هذه الفترة • وبمرور الوقت تسبب الاصدار التضخمى للروبية الهندية في زعزعة استقرارها المالى ، مما أضر كثيرا بعلاقاتها التجارية مع بريطانيا وكعلاج لهذه المشكلة قررت الهند اتخاذ الذهب قاعدة لنظام عملتها • غير أن الخطوة الحاسمة في هذا الموضوع اتخذت على سبيل المثال في سنة ١٨٩٣ حينما قررت الهند منع سك الفضة في معامل السك التابعة لها ، كاجراء للحد من كمية الروبيات المتداولة • وعلى الرغم من أن الهند لم تتخذ من الذهب قاعدة لعملتها ، فان الانخفاض في سعر العملة الهندية قد توقف في سنة ١٩٠٠ • وقد تمت عملية تثبيت سعر الروبية بتحويلها الى قيمة اسمية تعادل ثلثنا وأربع بنسات أو ١٥ روبية للجنيه الاسترلينى (٣١) • ولقد انجرفت عملات الخليج شرقا نحو الهند ، وطوال الفترة التي كان سك العملات الفضية مسموحا به في الهند كانت عملية تبادل العملات بالصورة التقليدية المعمول بها قائمة حتى في حالة انخفاض قيمة الريال على أثر التحول الذي حدث في أسعار الفضة عام ١٨٧٣ • ومن المؤكد أن الأسعار كان من الممكن أن ترتفع ، غير أن هذه المشكلة كان يمكن حلها عن طريق التبادل بالفضة لتغطية أى زيادة في الأسعار • وعلى أى حال ، فبعد اغلاق معامل سك العملة في الهند سنة ١٨٩٣ تعرضت عمان وغيرها من بلدان الخليج العربى لعملية استنزاف خطيرة لاحتياطياتها من الروبية الهندية والعملات النحاسية التي تسمى بلغة أهل البلاد (البيسة) وقد استحال تعويضه • ومن جهة أخرى فان انخفاض أسعار الفضة ، أدى بدوره الى خفض سعر الريال النمساوى • واذا كان سعر الجنيه الاسترلينى في سنة ١٨٦١ يساوى ٤٧ ريالاً نمسويا فان سعره في سنة ١٩٠٢ قد ارتفع الى ١١ ريالاً نمسويا •

(٣١) التنمية الاقتصادية في الهند ص ٤٠٩ — ٤١٠ •

وقد أسفر هذا عن عجز خطير في العملة والنقد وعلى الأخص في الوحدات الصغيرة من العملة العمانية وهي البيسات النحاسية التي تستعملها الطبقات الفقيرة ومما زاد المشكلة أن أسعار الصادرات بل والأسعار بوجه عام ظلت في تصاعد ، بينما أخذت أسعار الفضة في التقلب وان كان هذا التقلب يتجه نحو الانخفاض . وقد تمخض هذا الوضع عن سخط عارم بين التجار ، كما فجر مضاربات مميته في العملات . ولقد كان أساس المشكلة هو أن الريال النمساوي في سنة ١٨٩٣ كان يحتفظ بمركزه بالنسبة الى الروبية التي كانت تتمتع بالثبات آنئذ ، على غرار الروبية غير الثابتة بالنسبة الى الجنيه الذهب فيما بين سنة ١٨٧٣ و سنة ١٨٩٣ . غير أن الموقفين مختلفان ، بمعنى أنه لم يعد بالامكان سد العجز في احتياطي العملة في مسقط ، بعد أن أصدرت حكومة الهند قرار وقف سك الروبيات الفضية في معاملها وبالتالي لم يبق هناك في التسعينات من القرن رصيد من العملة يكفي لتغطية الفرق في أسعار الواردات التي أخذت أرقامها ترتفع بينما أخذ سعر الريال في الانخفاض (٣٢) .

ولقد عانى كل عماني تقريباً من هذه الحالة ، وعلى الأخص المناطق الساحلية . كما تفاقمّت الأزمة السياسية بعد أن اضطر السلطان الى الاقتراض لتسديد النفقات الحكومية . وقد وجدت الطبقات الفقيرة نفسها بين فكي الرحى : الارتفاع في أسعار العملة حيث ارتفع سعر الريال النمساوي في سنة ١٨٦١ من ١١٠ بيسات الى ١٣٠ بيسة بينما أصبح سعره في سنة ١٩٠٤ ٢٢٠ الى ٢٧٠ بيسة من جهة والنقص في كمية العملات المتداولة واللازمة لشراء الضروريات من الأسواق من جهة أخرى . وبالتالي انخفضت الواردات . كما لم تفلح الجهود لزيادة الصادرات لسد العجز .

(٣٢) رسالة مؤرخة ١٨٦٤/٢/٢٧ من فريز الى وود والتقارير الاداري ١٨٩٣ — ١٨٩٤ ص ٩٣ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٨٦ وكتاب Precis Maskat ١٣٤ و ١٣٩ .

وفي هذا الجو النقدي الملبد سدت الأبواب أمام التجار للحصول على القروض والائتمانات ، وبالتالي انخفضت القيمة الفعلية للقروض غير المدفوعة • ولقد فكر السلطان في فرض قيود على تصدير النقد الى الخارج وبالأخص العملات النحاسية غير أنه تراجع في قراره هذا بعد أن تأكد أنه سوف يقضى على البقية الباقية من تجارة البلاد • وأخيرا قرر السلطان صك العملات النحاسية داخل البلاد كمحاولة لسد النقص في العملات الهندية الصغيرة ، غير أن هذه الخطة لم تنجح في معالجة نقص العملة النحاسية • وقبل أن ينتعش سعر الريال النمساوي من جديد سنة ١٩٠٤ في أعقاب الثبات في عملة الروبية ، قرر السلطان اتخاذ العملة الهندية عملة رسمية للبلاد والتخلي نهائيا عن فكرة العملة المستقلة لعمان (٣٣) •

ولأزمة العملة في عمان جانبان جديران بالاهتمام • أولهما ارتباط عمان بالنشاط الاقتصادي العالمي بعد سنة ١٨٦٢ • الأمر الذي يجعل أقل اهتزاز في مستوى أسعار المواد والنقود ، يؤثر على رخاء سكان البلاد كلها • وعلى الرغم من تأثير الاقتصاد العماني بالاتجاهات التجارية في العالم ، إلا أنه كان أكثر استقلالاً ومرونة ، وضماناً • أما الجانب الآخر من الأزمة فهو أن الأرقام المنعومة عن تجارة عمان يجب أن لا تؤخذ على علاقتها • فبالنسبة للريالات النمساوية ، ارتفع مجموع قيمة تجارة مسقط من ١٩٧٩١٥ر ٢ ريالا في سنة ١٨٧٤ — ٧٥ الى ٧١١٣٥٠ره في سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٣ • وبالتالي فإن تجارة البلاد في مجموعها قد سادها الكساد ، وذلك لأسباب عديدة أهمها أزمة النقد والعملات العالمية التي أطلت برأسها في أواخر القرن التاسع عشر •

سيطرة التجار الهنود على التجارة :

لقد كان التاجر الهندي من السمات المألوفة في الخليج والصفاف الغربية للمحيط الهندي منذ أزمان بعيدة • ومنذ فجر الاسلام على أقل تقدير كان التجار الهنود يترددون على الأجزاء الساحلية من المحيط الهندي وعندما اجتاز فاسكو ديجاما هذه المناطق شاهد عددا من المستعمرات الهندية المزدهرة في شرقي أفريقيا • أما في الخليج فقد كان محور نشاط التاجر الهندي بوجه عام التجارة • ويمكن تقسيم التجار الهنود الى فئتين : البانيان أى البوذيين والخوجا — المسلمون • ولفظة البانيان هي تحريف لكلمة « بهاتيا » وهو اسم إحدى الطبقات التجارية في الهند اقترن تاريخها بالتجارة مع الخارج • وأفراد هذه الطبقة بالاضافة الى الطائفة المعروفة باسم لوهانا وانبا تشكل المجموع الأكبر من الجالية التجارية في الجزء الغربي من المحيط الهندي • والمعروف عن التجار الهنود — بوذيين ومسلمين — انهم يتكيفون مع بيئة سكان البلاد التي يقيمون فيها مع احتفاظهم بتقاليدهم وطريقة حياتهم (٣٤) • وعلى الرغم من أن هؤلاء التجار قد اضطروا بعد وصول الأوروبيين الى المياه الشرقية الى إعادة النظر في أساليبهم التجارية ، إلا أنهم ظلوا محتفظين بمركزهم السابق وعلى الأخص في بعض موانئ الجهة الغربية من المحيط الهندي • ويقيم بعض التجار الهنود في مسقط بصفة دائمة • وفي القرن السابع عشر كان التاجر الهندي ناروتام ، وهو من عباد البقرة ، أحد الذين حرضوا على الحرب التي كان لها الفضل في طرد البرتغاليين من عمان (٣٥) • وبحلول القرن الثامن عشر ، كان الهنود يؤلفون جالية تجارية ناجحة في مسقط ، ولكنهم نادرا ما كانوا يستوطنون المناطق الأخرى في الخليج أو في افريقية الشرقية • وفي أواخر سنة ١٨٢٠ لم يبق من التجار الهنود في زنجبار أو

(٣٤) فريير Precis Slave ص ٧ — ٨ مجلد ١٦ اكتوبر ١٨٧٣ •

(٣٥) ابن رزيق ، ص ٨١ •

افريقية الشرقية الا عدد أقل ممن استوطنوها قبل أربعين سنة مضت . وكان التجار الهنود فخوريين بهذا . غير أن اقامة التجار الهنود ترتبط بتوفير الأمن لهم ولملكاتهم قبل أن يفكروا بالاقامة وهذا ما لم يكن متوفرا لهم في زنجبار وغيرها من موانئ شرقى افريقيا (٣٦) .

ومن المفارقات العجيبة أن النفوذ التجارى الهنـدى وعدد التجار الهنود فى المنطقة الغربية من المحيط الهندى قد زادا رغم خضوع الاقتصاد القومى فى الهند للاقتصاد البريطانى الحديث ، غير أن الخطوات التى اتخذها السيد سعيد لتطوير تجارة زنجبار وافريقية الشرقية كانت حافزا لتكاثر التجار الهنود فى المنطقة فى غضون القرن التاسع عشر : فلقد أراد السيد سعيد بذلك أن يتولى التجار الهنود عمليات تسويق وتمويل محاصيله الزراعية من جوز الهند والبلح ، كما أسهم هؤلاء التجار أيضا فى تمويل عمليات تجارة الرقيق فى افريقيا . وكان تصاعد النشاط التجارى فى مستعمرات سعيد عاملا من عوامل استقرار الهنود فى الأجزاء الآسيوية من دولته ، فقد بلغ عدد التجار الهنود الذين نزحوا الى مسقط ومطرح فى سنة ١٨٤٠ نحو ألفى هنـدى (٣٧) .

لقد كانت أهمية الهنـدى بالنسبة للامبراطورية العمانية فى أوائل القرن التاسع عشر أنه التاجر الوحيد الذى كان يمكنه الاضطلاع ببعض القطاعات الاقتصادية ، خصوصا عمليات التمويل ، ومن هنا كان من مصلحة السلطات العمانية تشجيع مثل هذا النشاط . ويتم تنفيذ العمليات التجارية بالتعاون بين التجار الهنود والمؤسسات التجارية المماثلة فى أنحاء أخرى من

(٣٦) « البيان » فرير و Precis Slave ص ٧ — ١٣ والتقـرير الادارى لسنة ١٨٨٧ — ١٨٨٨ ص ٢٢ .

(٣٧) « افريقيا الشرقية وغزاتها » ص ٣١٤ السجلات الرسمية لحكومة بومبى — ١٨٥٦ ص ٦٣١ — ٦٣٢ وابن رزىق ص ٨١ .

الامبراطورية العمانية ، وفي الهند نفسها • ويبدأ التجار الهنود أعمالهم التجارية برؤوس أموال صغيرة ، ويمكنهم أن يعيشوا في ظروف وأوضاع لا يمكن أن يعيشها غيرهم من الجاليات • وتمكن التجار الهنود تدريجيا وقبل سنة ١٨٥٦ أن يستردوا ما كان لهم من مركز تجارى في المحيط الهندى قبل وصول فاسكوديجاما • فالأعمال التجارية التى لم يكن العرب يتوقعون لها أى نجاح ويعتبرها الأوروبيون أعمالا تافهة ، سطا عليها الهنود ، وحولوها خلال فترة قصيرة الى أعمال ناجحة (٣٨) •

وكان المرابى أو السمسار يعتبر تاجرا نموذجيا ، كما كان الهنود يعملون وكلاء للسفن التجارية الأوروبية • وكان لبعض التجار الهنود نفوذ عند السيد سعيد ، ومما يؤيد ذلك أن السلطان كان يمنح بعض هؤلاء التجار امتياز الادارات الجمركية في كل من مسقط وزنجبار نظير مبالغ معينة • وقبل أن تندلع الثورة الاقتصادية في الستينات من القرن التاسع عشر أفرز النظام التجارى في عمان نموذجا خاصا به ، كان الهنود يقومون فيه بدور الممولين ، وتجار الجملة والتجزئة ، ووكلاء المؤسسات الأوروبية الأجنبية • أما العرب فكان نشاطهم يتحصر في الملاحة رغم أن عددا ملحوظا منهم كان يمارس الأعمال التجارية أما السلطان سعيد فلم يكن له نشاط تجارى من هذا النوع بل كان يملك خطوطا ملاحية وملوكيات زراعية • وعلى حين كان رأس مال التجار الهنود يستثمر في السلع المنقولة التى يسهل توزيعها كالحبوب والأقمشة ، كان العرب يستثمرون رؤوس أموالهم في بناء السفن وفي العقارات • وقد أدخلت تعديلات على هذا النمط من الأعمال التجارية في الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر ، ومرد ذلك في المقام الأول الى أن العرب وعلى رأسهم السلطان ، كانوا يستفيدون من

(٣٨) « البانيان » من كتاب Precis Slave ص ٧ — ١٣ ، تأليف :

• فريير •

الامكانيات المالية لرجال الأعمال الهنود وكانوا يعقدون معهم قروضا طويلة الأجل . وقد ارتفعت نسبة القروض الهندية للتجار العرب مع مرور الوقت، بحيث غدا الهنود في أواخر حكم السلطان سعيد يملكون ، بل ويسيطرون على الجانب الأكبر من السفن العربية . وكانت نتيجة هذا الوضع تجميد الديون بعد أن تعذر على التجار العرب تسديدها . وسبق أن ذكرنا كيفية انتقال الأساطيل التجارية العربية في نهاية القرن التاسع عشر الى الهنود ، كنتيجة لعجز التجار العرب عن الصمود للأزمات القاسية التي شهدتها المرحلة (٣٩) . وفي سنة ١٨٥٦ أصبح من المتعذر على الأسواق الأوربية ، أو الأمريكية أو الهندية ، أو المحلية عقد صفقات تجارية مع أى جزء في الامبراطورية العمانية ما لم يكن للتجار الهنود نصيب في تلك الصفقات بصورة أو بأخرى ، وان ظل في الامكان توزيع بعض السلع والمنتجات الأوربية في الأسواق المحلية مباشرة ومن غير وساطة الوكلاء التجاريين الهنود . وكانت بعض المحال التجارية الهندية في عمان محال قد مضى عليها زمن طويل ، ولديها امكانيات كبيرة من رؤوس الأموال ، وهى مكونة من أطراف متعددة وتستخدم جيشا من الموظفين . وفي أكثر الحالات كان هؤلاء من شباب التجار الذين أمضوا فترة من التدريب في محال تجارية أخرى لها مراكزها وبدأوا نشاطا تجاريا مستقلا بأموال أو بضائع اقترضوها من تجار آخرين من أبناء جلدتهم . ولقد كانت هناك علاقات وثيقة متداخلة على الدوام تربط بين أفراد المؤسسات التجارية العاملة في مناطق ساحل المحيط الهندي وفي الهند نفسها . وبالتالي فمن الجائز أن يقوم أحد تجار الهنود في مسقط بتمثيل مجموعة كبيرة من المؤسسات لها فروعها في مناطق أخرى مثل زنجبار ، والبحرين ، وأبو شهر ، وكرايتشى ، وبومبى ، وكلكتا . وهكذا سرعان ما أخذ التجار الأوروبيون العاملون في المنطقة يستعينون بخبرة

(٣٩) نفس المصدر « تقرير عن زنجبار » تأليف رجبى السجلات الرسمية لحكومة بومبى رقم ل ٩ سنة ١٨٦١ . ص ٥ — ٢٠ وص ٦٣١ — ٦٣٢ .

التجار الهنود في جميع مجال النشاطات التجارية • ولقد كان التاجر الهندي ينظر الى الملاحين والتجار ، أوروبيين كانوا أم عربا أم أفريقيين كحلقة في مؤسسة تجارية هندية من حيث الأساس (٤٠) •

لقد أكدنا آنفا ان دخول السفن البخارية الناقلة الى منطقة غربى المحيط الهندي والخليج العربى ابان الستينات من القرن التاسع عشر كان عاملا أساسيا من عوامل تفجير ثورة اقتصادية عميقة في المنطقة • وطبيعى أن يضار كل من التجار العرب والهنود من تدهور الوضع الاقتصادى للمنطقة ، مما أدى الى هجرة عدد من التجار الهنود الى المنطقة الأكثر ازدهارا • ومما يثير الفضول ان من بقى من أولئك التجار في مسقط وعمان استفاد من التطورات الاقتصادية الحديثة التى شهدتها المنطقة • ان المحاولات العامة لاعادة تنظيم المجتمع التجارى في الخليج خلال الستينات من القرن التاسع عشر ، قد فتحت أمام التجار آفاقا واسعة للافادة من التغييرات التى تناولت العلاقات الاقتصادية في المنطقة • وأصبح التاجر الهندي ، كوكيل مباشر للمؤسسات التجارية وخطوط الملاحة التجارية الأوروبية ، عاملا في اقتصاد الخليج أكثر من أى وقت مضى ، على الأخص بعد انسحاب عدد كبير من رجال الأعمال العرب المحنكين من ميدان التجارة • وفى السبعينات من القرن التاسع عشر أصبح الهنود يسيطرون على جانب كبير من تجارة الخليج الداخلية •

غير ان التاجر الهندي في عمان لم يكن يعتبر في نهاية القرن التاسع عشر كجزء من النظام التجارى الغربى ، كما انه لم يكن جزءا من المجتمع العربى الذى يمارس فيه نشاطه التجارى • بل لم يكن دوره يتعدى دور

(٤٠) « البانيان » ، Precis Commerce ، تأليف فريير من ص ٧ الى ص ١٣ ورسالة رقم ٧٦٤ — ٧٥ بتاريخ ١٨/٥/١٨٧٢ من بلى الى دوق أرجيل دار المقيم البريطانى — من سجلات حكومة الهند — رقم ٢ مجلد ٢٠ •

الوسيط بين أوربا الحديثة ، وعمان التقليدية الشرقية • وحتى بعد ازدياد التغلغل الأوربي في الشؤون الاقتصادية للخليج في أعقاب الستينات من القرن التاسع عشر ، لم تكن المؤسسات التجارية الأوربية باستثناء عدد محدود منها كشركة جري ماكنزى (المحدودة) Gray Maekenzie LTD تتعامل مباشرة مع سكان المنطقة فقد كانت غالبيتها تؤثر التعامل عن طريق التجار الهنود المقيمين ، ويعود السبب لهذا الاتجاه الى وجود « نظام الوكلاء الاداريين » وهو عنصر أساسى في التنظيم التجارى الذى يشمل مناطق واسعة من الشرق •

وما يميز البيوت التجارية الهندية هو التقليد الذى يجمعها في عضويته مع مجموعة من المؤسسات التجارية المتحالفة والمتداخلة • وعلى أثر انتهاء احتكار شركة الهند الشرقية للتجارة الخارجية ، وإعادة تنظيمها سنة ١٨٣٣ ، تشجعت المؤسسات التجارية المحلية في الهند على تنظيم شبكة مؤسساتها التجارية ودعمها • فكان من نتيجتها ادخال « نظام الوكلاء الاداريين » كخطوة في سبيل ضمان متطلبات المرحلة الاقتصادية الجديدة (٤١) •

ولقد كانت أهم نتيجة أسفر عنها هذا الارتباط بمجموعة المؤسسات التوكيلية ، هي توفير الخبرة بالأسواق الجديدة وبالأجهزة التجارية العاملة وتوزيع المسؤوليات على عدد كبير من الشركاء أهمها ضمان مصادر القروض القصيرة والطويلة الأجل • ولا بد لأى مؤسسة تجارية غربية ترغب ، مثلا ، في القيام بأعمال تجارية في مسقط ، أن تتفق مع شريك من التجار الهنود ، لأن هذا يسهل لها كثيرا من المشاكل التجارية التى قد تواجهها • لأن دور التاجر الهندى هنا ضرورى في تقديم المشورة للمؤسسة الغربية وتمهيد الطريق لها للدخول الى الميادين الاقتصادية المحلية • وعلى الرغم من

(٤١) الاقتصاد الصناعى في الهند ص ٤٢١ ، تأليف كوشال (Kushal)

ارتباط التاجر الهندي في مسقط بالنظام الغربي للمؤسسات التجارية المتمركزة في الهند ، فقد كان يزاوُل أعماله التجارية على النمط التقليدي المعمول به في البلاد . وفي أكثر الحالات كان الوكلاء التجاريون الهنود في مسقط يعينون لهم وكلاء محليين في كافة أنحاء البلاد . وإلى جانب الكفاءة التي يتمتع بها الوكلاء التجاريون الهنود في الأسواق المحلية ، بحكم معرفتهم بالتقاليد والأوضاع المحلية ، كانوا يعرفون كيف يحلون مشكلة إدارة هذه المؤسسات التي لم يكن ممثلوها موجودين أو يستطيعون البقاء في المنطقة ، وعلى هذا الأساس كانت المؤسسات الرئيسية تتفادى بنفسها المشاكل والمجازفات التي قد تتعرض لها من وجود فروع لها في مناطق ليست لها معرفة أو اتصال سابق بها . وبالتالي فإن نظام الوكلاء الإداريين معناه إدارة مؤسسات تجارية حديثة ، أو مؤسسات غربية متمركزة في الهند في مناطق كعمان من جانب أشخاص لا يعملون مباشرة في المؤسسات المنتدبة لها (بكسر الدال) ، أو بالأحرى تقوم المؤسسات العاملة فعلا بتمثيل الشركات الرئيسية في المناطق المفروض أن تمارس فيها نشاطها التجاري . وكانت المؤسسات المثلة تتمتع بسمعة طيبة في المناطق التي تعمل فيها . كما كانت تقوم بعمليات تجارية واسعة لحسابها الخاص ، ولا علاقة لها بمصالح المؤسسات الأخرى الداخلة ضمن المجموعة . وفضلا عن ذلك كان قسم كبير من المؤسسات التوكيلية يشرف على مجموعة من بيوت التجارة العامة ، غير مختص بنوع معين من النشاط ، وفي الوقت نفسه يمثل عددا من الشركات الأوروبية . أما الوضع الحقيقي لأغلب المؤسسات التوكيلية في الهند ، فقد كان أقرب إلى وضع الشريك المقيم منه إلى وضع الشريك التابع للشركات الأصلية . وكانت العلاقة بين الوكيل وصاحب المؤسسة الأصلية ، أو بين الوكلاء العاملين في مختلف المناطق تقوم على أساس العمولة أو الرسم المباشر . ومن مزايا هذا النظام أنه في وسع أي مؤسسة توكيلية عاملة في مسقط أن تحصل على قرض أو مقدم من الأموال من المؤسسات الرئيسية . وهو يشبه نظام التأمين ضد الحريق المعمول به في الولايات المتحدة حاليا .

حيث يمثل الشركات الرئيسية آلاف مؤلفه من الوكلاء المحليين الخبيرين بأحوال المناطق المباشرة التي يمارسون فيها نشاطهم على الأساس المذكور (٤٢) .

غير أن هذا النظام كانت له عيوب خطيرة ، على رأسها عمليات الغش التجاري ، أو سوء الإدارة من جانب الوكلاء المحليين . لأن الشركات المحلية يهتمها ما تحصل عليه من أرباح محلية ، أكثر مما يهتمها مصالح الشركات الأم . ولقد كان اغراق الأسواق المحلية بالسلع التي ترد إليها من الشركات الأم إحدى الوسائل التي تلجأ إليها الشركات التوكيلية لمنافسة بعضها البعض . غير أن هذا الأسلوب كان يثير مشاكل تجارية دورية ، تدفع بالمؤسسات إلى هوة الإفلاس في الوقت الذي لا تخدم مصالح الشركات الأم . وعلى الرغم من أن المؤسسات العربية الضعيفة التنظيم والمحدودة التمويل كانت أولى ضحايا هذا النظام ، إلا أن عددا من الشركات الهندية قد خربت صريعة معها . وهكذا أخذ نظام الوكلاء الإداريين يعزز من عمليات المضاربة والتلاعب وسيطرة العمليات القصيرة في ميدان إدارة الأعمال (٤٣) .

ويعود نجاح التجار الهنود في السيطرة على المرافق التجارية في عمان كما هو واضح ، إلى القروض وعمليات تصدير رؤوس الأموال من وإلى المناطق التي يعملون فيها عبر شبكات عديدة من المؤسسات والشركات الرئيسية المتداخلة المنتشرة في منطقتي المحيط الهندي والخليج العربي . فالنشاط التجاري الهندي بحكم طابعه التعاوني كان يتعارض بكل وضوح مع النشاط الفردي للتجار العرب من أهل البلاد .

(٤٢) نفس المصدر ص ٤٢١ — ٤٣٢ وكتاب « التجارة » ، تأليف : انستى ص ١٣٤ — ١٣٨ .
(٤٣) « الاقتصاد الصناعي للهند » صفحة ٤٣٣ — ٣٦ تأليف كوشال .
وانتسى صفحة ١٣٤ — ١٣٨ .

غير ان الأحداث السياسية والاقتصادية في الستينات من القرن التاسع عشر ، قد عززت من سيطرة التجار الهنود على الحياة الاقتصادية لعمان الساحلية حتى أصبح هؤلاء يسيطرون عليها سيطرة كاملة في سنة ١٨٧١ • كما انهار في هذه الفترة البناء التقليدي الذي قامت عليه تجارة ورفاهية العرب سكان المنطقة • فقد شلت حركة تجميع السلع في ميناء مسقط ، ولم يبق للسفن المحلية أى شئ من أعمال النقل • كما أسهم التصدع السياسى للإمبراطورية العمانية في فصم العلاقات التجارية مع أفريقيا ، ومن ناحية أخرى قضت الأزمات السياسية في عمان بتولى العناصر المحافظة للحكم في الشطر الساحلى من البلاد سنة ١٨٦٨ وذلك قضى على نشاط التاجر العربى قضاء مبرماً ، حتى انخفض عدد التجار من ذوى الشأن على حد ما جاء في تقرير أعده بلى في سنة ١٨٦٩ الى اثنين أو ثلاثة • وعلى الرغم من مواصلة التجار العرب لنشاطهم التجارى الداخلى ، وعلى المدن الساحلية الصغيرة بعد السبعينات من القرن ، الا أن غالبية التجار الذين كان لهم نشاط في وقت من الأوقات في المدن الساحلية الرئيسية ، قد هجروها الى قراهم في الداخل أو غادروها الى زنجبار • وهكذا مهد الجو للتجار الهنود (٤٤) •

وعلى أى حال فان التجار الهنود لم ينجوا بدورهم من الكساد التجارى الذى قضى على التجار العرب • فقد انخفض عدد الجالية التجارية الهندية من ألفى رجل في الأربعينات من القرن التاسع عشر الى مائتين وخمسين تاجراً في سنة ١٨٦٩ • كما بقى في مدينة مطرح نحو ألف شخص من التجار الهنود المسلمين — طائفة الخوجا غير ان عدد الذكور في هذه الطائفة لم يكن يتجاوز المائتين وخمسين شخصاً (٤٥) • أما عدد الجالية

(٤٤) رسالة رقم ٤١ بتاريخ ١٨٦٤/٨/٢٣ من بلى الى اندرسون ورسالة أخرى رقم ١٤٠ بتاريخ ١٨٦٩/٦/١٩ من بلى الى جاون وكتاب
Commerce ص ٢٨ — ٣٠ .
Precis

(٤٥) رسالة رقم ٢٨٥ مؤرخة ١٨٦٩/٥/١٤ من دسبراو الى جاون •

الهندية في كل من مسقط ومطرح فقد ظل كما هو خلال الفترة الباقية من القرن ، ومن الطريف أن نلاحظ أن عدد التجار العرب الهامين لم يكن يربو في سنة ١٩٠٢ على ثلاثة تجار^(٤٦) .

وفي عام ١٩٠٠ أصبح التجار الهنود يسيطرون نسبيا على جانب أكبر من تجارة عمان الخارجية ، بينما انخفض عدد أفواد الجالية ، على ما يبدو عما كان عليه عام ١٨٥٦ ، كما شمل الركود والجمود اللذان منى بهما اقتصاد مسقط التجار الهنود ككل في عمان .

ما بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩٠٠ كان نشاط الهنود التجارى يشمل : التصدير ، والاستيراد ، وتجارة التوزيع والجملة والتجزئة ، وأعمال البنوك . والوظائف الحكومية والملاحة . والواقع انه لم تكن ثمة بنوك بالمعنى الحقيقي للكلمة ، وانما كان العمل يتمثل أساسا في نظام الكمبيالات ، أو كما كانت تسمى هناك (هنديةز Hundis) وهى كمبيالات تحرر في الهند . وكان نحو نصف رؤوس الأموال الهندية في مسقط تستثمر في الهند ، بينما يستخدم الباقي في النشاط المحلى . وتعتمد الصفقات والمعاملات التجارية في مسقط على الأموال والقروض التى يقدمها التجار الهنود . وفى سنة ١٩٠٠ كان السعر للفائدة في مسقط يتراوح بين ١ ونصف في المئة الى ٣ في المئة في الشهر . وعلى الرغم من الرهونات والقروض كانت من الاستثمارات المرغوبة ، الا أن الهنود كانوا يربحون أكثر من التجارة . ويتقاضى التاجر الهندى في مسقط نظير السلع التى يقوم بتوزيعها عمولة قدرها ١٠ بالمئة من القيمة بينما لا يزيد ما يتقاضاه التجار في الهند على ٢ ونصف في المئة عن نفس العملية . كذلك كانت تجارة الأسلحة وهى أهم بنود التجارة في عمان

(٤٦) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٣٨٢ — ٢٣٨٣ ومجلد ٢ ص ١١٩٧ — ١٢٠١ ، وتقرير تجارى ١٩٠١ اعداد أوتافى ، السجلات الفرنسية مجلد ٢ .

ما بين سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩١٢ من أرباح العمليات التجارية اذ تصل نسبة أرباحها من ٢٠ بالمئة الى ٣٠ بالمئة . وفي سنة ١٩٠٠ كان غالبية المراهين ، وتجار الأقمشة ، والمواد الغذائية ونحو ٢٠ تاجر أسلحة من الهنود ، كما كانت هناك عشرة بيوت تجارية هندية يعتبر أصحابها الخمسة والثلاثون أغنى تجار مسقط . والواقع أن أكبر تجار مسقط في القرن التاسع عشر كانوا من الهنود . ويعتبر التاجر الناجح رتنسى برشوتام Ratansi Purshotam أكبر تجار التصدير والاستيراد ، بل وأهم تاجر أسلحة في منطقة الخليج في التسعينات من القرن التاسع عشر . وكان يملك جزءا كبيرا من عمارات مسقط . كما ان قروضه للسلطان ومنصبه كمدير للجمارك قد جعل له نفوذا سياسيا وان لم يكن مباشرا (٤٧) .

وغالبية الهندوك أو البانيان في مسقط قد هاجروا اليها أصلا من منطقة غربى الهند . ولقد اعتاد هؤلاء الإقامة في المدينة فترات تتراوح بين ١٥ و ٢٠ عاما تتخللها زيارات طويلة الى عائلاتهم ومواطنهم في الهند . ولم يكن هؤلاء يحضرون معهم عائلاتهم الى مسقط خوفا عليها من قسوة المناخ . واحتكاكهم ببيئة غريبة عنهم ومعادية لهم . وعلى الرغم من ان التاجر الهندي يعتبر من أذكى التجار ، الا أنه كان يعيش في عزلة عن المجتمع الذى يقيم فيه بقدر الامكان . وكان الهنود يؤدون طقوس ديانتهم في معابدهم الخاصة ويتمسكون بتقاليدهم الطائفية . وبوجه عام كانوا يعيشون في عزلة تامة من الوجهة الاجتماعية (٤٨) .

(٤٧) « البانيان » ، من Preci Slave ص ٧ — ١٣ ، تأليف فريير وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٥٧٨ و ٢٦٢٩ وجزء ٢ ١١٨١ — ١١٨٦ و « علاقات بريطانيا بالخليج » م . داود وكان موضوع رسالة لنيل درجة الدكتوراه (لندن ١٩٥٧) وكذلك « التخطيط الطبى في مسقط » اى . اس جابكار .

(٤٨) انطباعات ، اسكود ص ٣٥ — ٣٩ .

أما الطائفة المسلمة من الهنود — الخوجا باعتبارها أكبر من الجالية الهندوكية في عمان ، فيقيم أفرادها في مدينة مطرح • ويتعاطون الأعمال التجارية والحرف • ففيهم نجارون وبناءة سفن ، وأصحاب محال وحرفيون وتجار صغار • وقد نرح هؤلاء الى مدينة مطرح من منطقة كجرات في الهند • وعلى عكس الهنود فقد استوطنوا البلاد بصفة دائمة ويرتبط هؤلاء في الأصل بالاسماعيلية ، أتباع أغاخان ، غير أنهم في الستينات من القرن انفصلوا عن أغاخان واعتنقوا مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، والواقع أن عددا ضئيلا منهم يهتم بتفاصيل الدين ، ولهذا كانوا يركزون نشاطهم على التجارة • وعلى غرار الطوائف الاسلامية الهندية العديدة ، كان الخوجا مرتبطين ارتباطا وثيقا بجالياتهم ، وخاضعين لمجموعة معقدة من القوانين والتقاليد الطائفية لا تختلف في كثير من جوانبها عن تقاليد الطائفة الهندوكية • ولا يقيمون علاقات اجتماعية بالعناصر الأخرى للمجتمع العماني (٤٩) •

وكان هناك نوع من التنافس التجاري والاقتصادي بين الهنود المسلمين والبوذيين • وتضم كل طائفة منهما نحو ٢٥٠ من الذكور • ولئن كان البوذيون أقوى من حيث المركز الاقتصادي (ولا يزيد عدد التجار البارزين من المسلمين على أكثر من ١٢ تاجرا بالمفهوم السائد) فأنهم أكثر عرضة للمضايقات والمتاعب المادية ، اذن يعتبرهم بعض الأباذيين من عبدة الأوثان • وقد وقعت في سنة ١٨٩٤ حادثة تصور طبيعة العلاقة بين المجموعتين الهنديتين الاسلامية والبوذية • فقد امتنع التجار الهنود في مطرح عن وزن محصول البلح الخاص بالمسلمين ، مما اضطر هؤلاء الى التوجه به الى مسقط لوزنه هناك في الموازين الخاصة بالهندوك المقيمين في العاصمة • ويقيم البانيان

(٤٩) الجاليات الاسلامية في كجرات (طبعة نيويورك) و « البانيان » ، تأليف فريز ص ٧ — ١٣ تأليف اس . سى مسرا وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ٣٢١ — ٣٢٣ ، ١٠٣٤ ، ١١٩٧ ، ١٢٠١ وحياة فريز ، تأليف مارتينيو .

على امتداد منطقة الساحل العماني ، وغالبيتهم من التجار • وفي عام ١٩٠٠ كان مجموع التجار الهنود في عمان ٣٨٠ تاجرا ٢٥٠ منهم يقيمون في العاصمة مسقط ، و ٣٧ في مطرح و ٢٨ في صور والباقي موزعين على المدن الساحلية الأخرى • ولم يكن مجموع عدد الذكور من الهنود المسلمين (الخوجا) المقيمين في عمان يزيد على ثلث العدد الكلي • وأكبر جالية من هؤلاء تقيم في مطرح ويصل عددها الى ٦٨٥ شخصا • وهناك نحو ١٢٠ يسكنون مسقط و ١٠٧ في الخابورة و ٣٤ في السويق و ٣١ في صور • غير ان أفراد كلتا الجاليتين الهنديتين في عمان — المسلمين والبوذيين — هم جزء من شبكة تجارية يتحكم كبار تجارهم في مصير المدينتين • وهذه الشبكة في حد ذاتها تعتبر صورة مصغرة لنظام الوكلاء الإداريين ، الذي يشكل التجار الهنود في مسقط ومطرح جزءا لا يتجزأ منه • وبوجه عام فان عدد الهنود المسلمين في المناطق النائية من البلاد أكبر من عدد الهندوك ، وذلك لتعرض الأمن والنظام في هذه المناطق الى الخطر من وقت الى آخر ، وبالتالي تكون حياة الهندي غير المسلم أكثر عرضة للخطر (٥٠) من الهندي المسلم •

وتعتبر الأساليب التي يستخدمها التجار الهنود في العمليات التجارية الخاصة بالبلح ، نموذجا للنشاط التجاري والحركة التجارية • ويعتبر البلح أثمن الصادرات العمانية ومصدرا للعملة الأجنبية في نهاية التسعينات من القرن التاسع عشر اذ بلغ رصيد البلاد من هذه التجارة خلال الفترة المذكورة رقما قياسيا يزيد على ٧٥٠٠٠٠ ريال نمسوى • ويجلب البلح المخصص للتصدير من مزارعه في المنطقة الداخلية من البلاد من وادي سمايل وعمان الوسطى ، والشرقية بوجه عام ، ومن مقاطعة الباطنة كذلك • ويقوم التجار في مدينة مطرح بتجميعه • ويتم شراء البلح من داخلية عمان عن طريق السماسرة والتجار بعد دفع مقدم من الثمن يدفعه التجار الهنود • فيقوم

(٥٠) Precis Maskat ص ٨٩ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٣٥١ ومجلد ٢ ص ١٤١١ — ١٢ و ص ١٤٢٥ •

السماسة بجولة في المناطق الزراعية لشراء المحصول وشحنه الى مسقط ومطرح . ويحصل السماسة العرب من هذه العمليات على عمولة تتراوح بين ٢ ونصف بالمئة الى ٥ بالمئة من سعر البلح النهائي . كما يجوز أن يذهب التجار الهنود — من مسلمين وبوذيين — بأنفسهم الى الداخلية للتعاقد على شراء كميات البلح المطلوبة . وعلى أى حال فقد كان من المألوف أن يبقى الهنود في مراكزهم التجارية لتنظيم عمليات تصدير البلح الى الخارج . ولقد ظلت مدينة مسقط — كمركز للتجار الهنود — المنطقة الرئيسية في عمان لتصدير المنتجات العمانية الى ما وراء البحار لأنها الميناء البحرى الوحيد الذى تزوره البواخر . أما الهنود المسلمون (الخوجا) فقد كانت مهمتهم تنحصر في جمع وتوزيع البلح في داخلية عمان ، وبالتالي كان من الطبيعى أن تكون مدينة مطرح مركزا لنشاطهم . وهى مدينة ساحلية وميناء بحرى هام ، بل هى أكبر موانئ التوزيع بالنسبة لتجارة عمان الداخلية . ولا يختلف النظام التجارى بالنسبة لتجارة البلح عن النظام المتبع في غيره من النواحي التجارية الأخرى . فالتجار البوذيون يسيطرون على العمليات الخارجية — بينما يتولى الخوجا عمليات التوزيع في الداخلية ، أما التجار العرب فيعملون كوسطاء وسماسة للمؤسسات التجارية الهندية في المناطق الأخرى من البلاد معتمدين على رؤوس أموال التجار الهنود . كما يملكون قوافل الابل والسفن التى تقوم بنقل المنتجات والسلع عبر البلاد كلها (٥١) . ان موقف العماني العربى بوجه عام من الهنود موقف التسامح المقرون بالكبرياء . فبينما كان الهنود المسلمون (الخوجا) أقل عرضة للمشاكل والاهانات ، نرى أن البوذيين كثيرا ما كانوا يتعرضون لحوادث الاغتيالات ، سواء في العاصمة نفسها أو في خارجها . ولما كانت الاغتيالات تحدث بسبب السرقة وليس لأسباب دينية فمعنى هذا أن أفراد الجالية الهندوكية في الستينات من القرن التاسع عشر لم يكونوا يتمتعون بنفس المعاملة والحماية

التي كانوا يتمتعون بها على عهد السيد سعيد • ولقد زادت متاعب هؤلاء التجار عندما استولى الأباضيون المحافظون على مقاليد السلطة في المنطقة الساحلية (١٨٦٨ — ٧١) ، وكننتيجة لأحداث سنة ١٨٧١ اضطرت الحكومة البريطانية الى أن تتعهد بنفسها بحماية الهنود المقيمين في عمان •

في سنة ١٨٧٣ وضع البريطانيون صيغة اتفاق الامتيازات الاقليمية للجالية الهندية التي يعتبر أفرادها أنفسهم من رعايا حكومة الهند — البريطانية • وبذلك أصبحوا غير خاضعين للقوانين المحلية وأصبحت السلطات البريطانية الجهة الوحيدة المسؤولة عنهم • وبالتالي أصبح القنصل البريطاني أو بالأحرى سفن الأسطول البريطاني هي المسؤولة عن حمايتهم في حالة تعرضهم لأي اعتداء أو تهديد • وإذا تعرضت أموال أي تاجر هندي أو ممتلكاته لأي تلف من جانب العمانيين • فإنه يكون مستحقا لتعويضات يقررها البريطانيون يدفعها المتهم ، أو في حالة فرار الجاني من جانب السلطات الحاكمة • وقد أوضحت الحكومة البريطانية خلال المحقات الأخيرة من القرن التاسع عشر بأنها لن تتساهل اطلاقا تجاه أي تدخل في حرية المستوطنين الهنود أو معاملاتهم التجارية في عمان • وما ان حلت سنة ١٩٠٣ حتى أصبح التاجر الهندي يتمتع بالأمن والكرامة (٥٢) •

وعلى الرغم من عدم خضوع أفراد الجالية الهندية للسلطات المحلية بحكم اكتسابهم للجنسية البريطانية فإن هذا لم يغير من وضعهم كأهم فئة تجارية في عمان • وقد مكنتهم هذه الأهمية المستمدة في الدرجة الأولى من براعتهم التجارية ، من ممارسة بعض النفوذ على السياسة المحلية ، لا سيما وان الأموال التي ترد الى خزينة السلطان كانت تعتمد على القروض التي يقدمونها لحكومته ، وعلى اشرافهم على المصالح الجمركية البلاد • فكلما

استطاعت حكومة السلطان توفير المناخ التجارى الملائم للهنود ، كلما أمكنها الحصول على قروض مالية منهم • ولم يكن التجار الهنود يميلون الى التدخل فى الشؤون السياسية تدخلا مباشرا ، وكانوا يؤثرون ان يتم ذلك من وراء الستار ومع ذلك فان جميع الأعمال السياسية التى اشترك فيها التجار الهنود ، ومن بينها سيطرتهم على الجمارك ، لم يكن لها من هدف سوى تحقيق الربح التجارى •

لقد كان الهنود تجارا بالفطرة ، وكانوا يمارسون التجارة فى تفران وبذهن مركز • كما كانوا الجسر الذى يربط بين المجتمع التقليدى للعرب العمانيين وعالم الغرب المتمددين وبالهند التى غدت فى القرن التاسع عشر المصدر الثانى من مصادر المؤثرات الحضارية للشعوب المجاورة للمحيط الهندى • غير ان التجار الهنود المقيمين فى عمان كانوا عازلا ثقافيا أكثر منهم موجهين ثقافيتين • كما أنهم يفضلون القيام بأعمالهم التجارية من غير ضجة ويحاولون دائما التكيف مع عادات أهل البلاد وتقاليدهم قدر المستطاع • ولم يحاولوا قط العمل على تغيير تلك التقاليد والعادات ، أو تغيير تقاليدهم أو أساليبهم التجارية بدرجة تهز الأسس القائمة وتهدد نفوذهم التجارى بالزوال • وعلى الرغم من أن كثيرا من مظاهر الحضارة العصرية قد تسلمت الى عمان عن طريق المؤسسات التجارية الهندية • بوجه عام :

١ - كانت تحقق أرباحا من أعمالها التجارية •

٢ - وتزاول أعمالها اليومية باستخدام الأساليب التقليدية •

٣ - راضية عن وضعها المحدود فى عمان • الا أنها كانت وسيطا ضعيفا للحضارة العصرية •

تدهور الصناعات اليدوية :

لم تكن عمان في أى وقت من تاريخها مركزا هاما من مراكز الصناعة في العالم . صحيح كان في عمان بعض المصانع اليدوية ذات الأهمية المحلية . وعلى غرار ما حدث في كثير من بلدان العالم الاقرواسوى ، فقد تدهورت هذه الصناعات بعد غزو المنتوجات الغربية الرخيصة الأسواق هذه الأقطار في القرن التاسع عشر . وفي الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر كانت مسقط ومطرح أهم المراكز الصناعية العمانية فضلا عن وجود صناعات هامة أخرى في صحار والمقرى الداخلية كوادى سمايل ونزوى ، وبلاد بنى بو حسن ، وعبرى . ويذكر وولستد « ان المهنة الأساسية في مطرح هي حياكة الأقمشة ، والعباءات الصوفية البنية التى يرتديها العمانيون . ومن النادر أن يوجد كوخ أو بيت في المدينة ولا يكون فيه مغزل تعمل عليه سيدة البيت » (٥٣) . ومما لا خلاف عليه ان حياكة الأقمشة القطنية والصوفية ، الى جانب الأقمشة الحريرية في بعض مناطق عمان كبلاد بنى بو حسن كان يشكل الصناعة اليدوية الرئيسية في عمان عند وفاة السيد سعيد . أما الحدادة فكانت تتركز في المدن الكبرى . وربما تأتى صناعة المجوهرات والسيوف ، والرماح ، والخناجر ، والبنادق ، والمدافع التى تصنع خصيصا لأسطول الحاكم . في الدرجة الثانية بعد صناعة الأقمشة . أما صناعة السكر فكانت مقصورة على نزوى ومسقط وكانت هاتان المدينتان العمانيتان تصدران نوعا من الحلوى الى ايران والهند . ويدخل في صناعة الحلوى السكر والسمن ، واللوز . ويشترك في هذه الصناعة بالاضافة الى العرب ، الايرانيون والخوجا ، بل واليهود أيضا ممن وفدوا الى البلاد من البصرة سنة ١٨٢٨ (٥٤) . في الستينات من القرن التاسع عشر بدأت المصنوعات

(٥٣) « رحلة الى جزيرة العرب » وولستد مجلد ١ ص ٣٢ .

(٥٤) نفس المصدر ص ١٣ ، ٢٢ ، ١٢٣ و ٣١٥ — ٣٢٢ وكتاب « انطباعات » ، تأليف اسكود ص ٩٠ — ٩١ كذلك « انطباعات رحلة حول العالم بما فيها احدى السفارات في مسقط ، وسيام » ص ٨٥ (طبعة فلادلفيا ١٨٣٨) .

الأوربية تغزو عمان بكميات كبيرة • وبنهاية القرن سيطرت هذه المنتجات على الجانب الأكبر من الأسواق المحلية • وحتى قبل وفاة السيد سعيد كانت المنسوجات الأمريكية والبريطانية تصل متسللة الى البلاد • وعلى أثر وصول الأقمشة البيضاء والملونة الرخيصة من أوروبا في الستينات انخفضت نسبة انتاج الأقمشة المحلية لدرجة باقت تهدد تلك الصناعة بالبوار • ولم يبق من الصناعات العمانية الهامة التي استمر الطلب عليها قائما محليا ودوليا ما يبرر الاستثمار فيها غير الكماليات التي كانت مدينة صحار تنتج منها أنواعا مختلفة كالأقمشة ، ومدينتا مسقط ومطرح العمائم العمانية ، ومدينة سمائل العباءات الصوفية والقطنية البنية اللون ، ومدينتا صحار ومسقط قماش الأشرعة • وحتى سنة ١٩٠٠ كان انتاج الأقمشة في كل من مسقط ، ومطرح ، وصحار ما يزال قائما • غير ان هذه الصناعة كغيرها من صناعات عمان الأخرى كانت تستخدم المواد الأولية الأجنبية الصنع • أما صناعة المواد الغذائية — كتجفيف الليمون والبلح والأسماك — فقد احتفظت بمركزها كمورد لبعض سكان المدن الساحلية في عمان ، وقد كان يعمل في هذه الصناعات عدد كبير من العمال بما فيهم السيدات وكانوا يقومون بجنى محصول البلح والأسماك في مواسمهما • وفي أعقاب سنة ١٨٩٢ تدهورت صناعة الحديد أمام تدفق هذه السلع من الخارج • وعلى حين استمرت صناعة النحاس قائمة في نزوى على نطاق أضيق ، فإن استيراد الأسلحة من أوروبا وتوقف صب المدافع للأسطول العماني قد قضى على صناعة الأسلحة المحلية • والصناعة الوحيدة التي بقيت في عمان سنة ١٩٠٠ هي صناعة المجوهرات والخناجر (النصال) التي كان يقوم بصنعها الصناع العرب والهنود في مسقط • كما ظلت صباغة الأقمشة من الصناعات القائمة في عبرى ، وان كانت هذه الصناعة تستخدم المواد الأولية الأوربية الصنع • ولكن نخل الواقعة في منطقة وادي سمائل احتفظت بصناعة انتاج الجرار الفخارية المعروفة • ومعنى هذا ان غزو المنتجات الآلية الحديثة قد أثر عموما تأثيرا خطيرا على الصناعات في عمان وأسهم في تدهور أوضاع المدن

العمانية في نهاية القرن التاسع عشر • كما تدهورت صناعة بناء السفن بعد سنة ١٨٥٦ (٥٥) •

وعلى عكس الصناعة فإن الزراعة لم تتأثر بتلك التطورات • فقد ظل البلح والسّمك المادة الغذائية الرئيسية للسكان • ولقد ارتفعت نسبة صادرات البلح في أواخر القرن التاسع عشر حتى أصبح المادة الوحيدة التي تصدرها البلاد الى الخارج • أما من حيث التدهور الاقتصادي عموماً فيظهر ذلك في الارتفاع غير المعهود في القيمة النسبية لمحصول البلح • وفي سنة ١٨٨٠ زادت نسبة البلح العماني الذي يصدر الى الهند والولايات المتحدة (وتنتج عمان نوعاً من البلح يسمى الفرض باصطلاح أهل البلاد ، وكان النوع المفضل لدى المستوردين الأمريكيين) ولقد كان الطلب على بلح عمان قوياً بوجه عام فيما بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٩١٤ ، حتى ان بعض أصحاب مزارع البلح والتجار الهنود المشتركين في هذه التجارة وفي عمليات تصدير هذه السلعة قد حققوا ثروة عظيمة منها • وسهل تطور المواصلات في الهند من عملية تصدير البلح العماني اليها ، كما تضاعفت صادرات البلح الى كراتشي حيث كان يتم تفريغها ومنها تنقل بالسكك الحديدية الى أقاليم البنجاب المكتظة بالسكان • وتقدر قيمة صادرات البلح العماني خلال التسعينات بمبلغ ٧٥٠٠٠٠ ريال تمسوى في العام الواحد •

أما المنتجات الزراعية الأخرى فقد احتفظت بأسواقها الداخلية والخارجية • ولقد استمرت عمان في تصدير الفاكهة والبلح الى الهند وايران ، كما ظل معدل الاستهلاك من الحبوب والفواكه ثابتاً • ولقد أصيبت

(٥٥) تقرير تجاري ، ١٩٠١ ، أوتافى من السجلات الفرنسية مجلد ١ ولوريمر مجلد ٢ ص ٧٥٧ — ٧٥٨ وص ١١٨١ — ١١٨٦ ، و ١٣٥٩ — ١٣٦٦ ، ١٨٣٨ — ٤٠ وتقدير وزارة التجارة البريطانية عن حالة ومستقبل التجارة البريطانية في عمان أو البحرين وغيرها من المدن العربية •

الزراعة ببعض الأضرار فانتاج القطن الذى لم يكن فى أى يوم من الأيام انتاجا كبيرا ، قد أضر من تدهور صناعة النسيج العمانية • كما كان تصدير الخيل الى الهند وجزر هوريشيس ، والحمير الى الهند من العمليات التجارية الناجحة فى أوائل القرن التاسع عشر ، غير أن هذه التجارة لم يعد لها وجود فى السبعينات من القرن • وبما أن أغلب الخيل العمانية من أصل إيراني والحمير من أصل بحريني ، فان تدهور هذه التجارة كان تعبيرا صارخا عن مركز عمان كمناطق لتجميع السلع وتوزيعها ، أكثر منها تعبيرا عن وضعها الزراعى الداخلى • غير ان الجمال العمانية ظلت تعتبر من أجود الأبل العربية • وكان بعض هذه الجمال يجد طريقه الى مناطق أخرى من الجزيرة العربية فى الفترة التى أعقبت وفاة السيد سعيد (٥٦) •

ولم يقيم رجال الأعمال الغربيون بإنشاء أراض زراعية على غرار ما فعلوه فى المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية الأخرى • وإذا استثنينا أهمية عمان كبلد منتج ومصدر للبلح فان الحالة الزراعية فيه ظلت على الحالة التى كانت فيها منذ مئات السنين • ولم يعد للمحاصيل النقدية أى مجال فى البلاد فيما عدا بعض انتاج النخيل والفاكهة • اذ كان النشاط الزراعى فيها نشاطا معيشيا استهلاكيا • كما ظلت أنماط الملكية وأساليب العمل والانتاج بشكلا البدائى البالى غير متأثرة بالأنماط العصرية •

الأهمية النسبية للتجارة غير المشروعة :

نظرا للتدهور العام الذى منيت به الحركة التجارية فى عمان بعد سنة ١٨٦٢ • اكتسبت التجارة غير المشروعة — فالتهرب ، والنخاسة ،

(٥٦) تقرير ادارى ١٨٧٦ — ١٨٧٧ ص ٧٩ — ٨٠ ، و Precs Commerce ص ٢١٢ والتقرير التجارى اعداد أوتافى ١٩٠١ نقلا عن السجلات الفرنسية وكتاب « بعثة الى مسقط وسيام » تأليف روشنبرجر و « تقرير عن تجارة عمان » ص ٢٢٨١ وثائق اجتماعات مجلس العموم البريطانى سنة ١٩٠٥ •

وتجارة الأسلحة أهمية نسبية بالنسبة لاقتصاد المنطقة الساحلية من عمان .
والواضح ان جانبا هاما من تجارة عمان لم يكن يخضع للتفتيش الجمركي
من جانب السلطات المحلية . ولم يكن لحكومة مسقط جمركيون في صور
أكبر مدن عمان وأكثر موانئها نشاطا في سنة ١٩٠٠ غير انه لم تتوفر معلومات
كافية عن أعمال التهريب ومن ثم لا يمكن اصدار أحكام عامة . ومن العوامل
التي ساعدت على اضعاف تجارة التهريب استخدام البواخر في نقل الجزء
الأكبر من الصادرات والواردات العمانية بشكل متزايد . ونظرا لوجود
ميناء واحد في عمان هو ميناء مسقط فقد أمكن تنظيم هذه التجارة . وكانت
تجارة الأسلحة والرقيق القطاعين التجاريين الوحيدين من التجارة الممنوعة
الذين أمكن جمع معلومات عنهما . لقد كان الاسترقاق عملا غير مشروع في
عمان بعد سنة ١٨٧٣ ، وذلك على خلاف الاستيراد . لكن تجارة الأسلحة
بالرغم من انها كانت تجارة مشروعة ، كانت ممنوعة في عدد كبير من الأقطار
التي تصدر اليها هذه السلعة .

أما تجارة الرقيق فقد كانت ذا طابع اقتصادي أكثر منها مصدرا لليد
العاملة في عمان . ففي منتصف الثلاثينات كانت مسقط سوقا رائجة للعبيد
وكانت تصدرهم الى منطقة الخليج كلها والى العراق وايران . وكان السيد
سعيد شخصيا يتجر بالعبيد ويجنى من وراء هذه التجارة أرباحا تصل الى
٦٠٠٠٠ ريال نمسوى في السنة الى ان عدل عن هذه التجارة في سنة ١٨٤٥
مرضاة لأصدقائه البريطانيين . وقبل سنة ١٨٤٥ كانت الحكومة تفرض رسم
استيراد قدره ريال واحد عن كل عبد يستورد في زنجبار ونصف هذا المبلغ
عن العبد الذي يستورد الى مسقط . وكان استيراد العبيد في الأربعينات
من القرن التاسع عشر بندا رئيسيا من بنود تجارة عمان وكانت تدر على
أصحابها أرباحا أكثر مما كانت تدره على خزينة السلطان . وقد بلغت أرقام
معدل مبيعات العبيد في مسقط في الثلاثينات من القرن التاسع عشر نحو
٤٠٠٠ عبد كل عام . وكان تجار العبيد يحصلون على ربح قدره ٢٠ بالمائة
عن العبيد المستوردين من أفريقيا ، أما اذا صدر العبيد الى البصرة فان

معدل الربح يصل الى ٥٠ بالمائة وكانت أسعار العبيد تحدد وفقا لأعمارهم وجنسهم ومظهرهم ومنشئهم • وفي سنة ١٨٤٠ كان يباع العبد المخصى المستورد من إقليم أدفو في السودان بمبلغ ٢٠٠ الى ٣٠٠ ريال للإيرانيين • أما الفتاة الحبشية فكان ثمنها يتراوح بين ٦٠ الى ٢٠٠ ريال نمسوى والرجل الحبشى من ٥٠ الى ١٥٠ ريالا • أما العبد الأفريقى البالغ ، فكان ثمنه يتراوح بين ٢٠ و ٦٠ ريالا والفتى من ١٥ الى ٣٠ ريالا ومن حق العبد الأفريقى اذا قدر له أن يجتاز مخاطر الرحلة ويصل الى مسقط ، أن يطلب الى القاضى أن يعرضه للبيع في مزاد علنى اذا أساء سيده معاملته • غير أن العبيد يلقون معاملة طيبة من أسيادهم عندما يصلون • وكان التجار الهندي العنصر الأساسى في تجارة العبيد ، لأن الهنود هم الذين يمولون سماسة العبيد • ويبدو أن الهنود المسلمين (الخوجا) كانوا متورطين في هذه التجارة أكثر من التجار البوذيين (٥٧) •

في الستينات من القرن التاسع عشر أخذت تجارة الرقيق تفقد أهميتها بشكل ملحوظ ، وذلك بسبب الدوريات التى كان يقوم بها الأسطول البريطانى لطاردة تجار هذه المهنة ، هذا بالرغم من وصول نحو ٤٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ عبد تقريبا الى الخليج خلال هذه الفترة • غير أن الحد من استيراد العبيد أدى بدوره الى ارتفاع في أثمانهم • وبأيعاز من الحكومة البريطانية بدأت حكومة الهند باتخاذ اجراءات لوضع حد لاشتراك التجار الهنود في هذه التجارة • ففي الستينات من القرن التاسع عشر بدأ تقديم التجار الهنود الذين يمارسون هذه التجارة أو يشتركون فيها للمحاكمة ، وما أن حل عام ١٨٧٣ حتى كانت الحكومة نجحت بمنع الهنود من الاشتراك في

(٥٧) رحلة الى جزيرة العرب ، تأليف ولستد فصل ١ ص ٣٨٧ — ٩٠ سجلات حكومة يومبى سنة ١٨٥٦ ص ٦٤٨ — ٦٤٩ وتقرير حول زنجبار « اعداد رجبى من سجلات حكومة يومبى رقم ال ٩ ص ٩ — ١٢ وكذلك « الخليج العربى » تأليف ولسون ص ٢٠٣ — ٢٣٠ •

تجارة الرقيق وأصدرت مرسوما يقضى بإرسال المخالفين منهم لأحكام هذا القانون للمحاكمة • وفي سنة ١٨٧٣ اشتركت كل من حكومة مسقط وزنجبار في تحريم تجارة الرقيق • وهكذا سددت خلال عامين اثنتين ضربتان قاضيتان الى تجارة الرقيق (٥٨) •

غير أن ربابنة السفن العرب استمروا ب جلب العبيد ، على الرغم من تحريم هذه الأعمال بعد سنة ١٨٧٣ • ولهذا أخذت سفن الأسطول البريطانى تطاردهم • ولعل الرسالة التالية التى بعث بها أحد الحكام العرب الى سلطان زنجبار توضح أسباب اصرار الملاحين العرب على جلب العبيد :

« كنا قد حذرناهم بالامتناع عن هذه التجارة يا أخى • وبعثنا اليهم من يبلغهم ذلك وأذعنا مضمون خطابكم على الجمهور ، غير انى لا أعتقد ان هذا له أثر فعال فى ردعهم • لأن الأرباح التى يحصلون عليها من هذه التجارة كبيرة جدا وانه لمن الحماسة أن نفكر فى منعهم عن ممارستها • فمقابل عشرة جرب (شوالات) من البلح يستدينها الفرد يمكنه أن يشتري عشرين عبدا يدرون عليه ألف ريال نمسوى » (٥٩) •

وفى سنة ١٨٧٢ ذكر أحد البحارة العرب الذين يتعاملون فى العبيد ان أى صاحب سفينة يتمكن من نقل عبد الى الخليج يحصل على ٣ ريالات

(٥٨) « البانيان » من كتاب « Precis Slave » ، تأليف فريير ص ١٢ — ١٩ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٤٩٨ و « صيد العبيد » تأليف : كولومب ص ٤٦ — ٤٨ • وكانت تقديراته لعدد العبيد الذين صدروا الى الجزيرة العربية سنة ١٨٧٠ فقط ١٣٠٠٠ عبد بينما لم يزد عدد الذين وصلوا الى مسقط سنة ١٨٦٦ على ٥٠٠ عبد •

(٥٩) رسالة من شيخ ابو ظبى الى سلطان زنجبار من وثائق مجلس العموم البريطانى سنة ١٨٧٠ رقم ال ١١ ص ٤٦ •

مقابل ذلك هذا اذا لم يقبض عليه « النصارى » وتجح في نقل العبد • أما التاجر فيبيع العبد الواحد بستين أو مائة ريال في مسقط بينما لا يكلفه هذا العبد أكثر من ٢٠ ريالاً • وبعد سنة ١٨٦٢ أصبحت تجارة الرقيق أكثر أهمية بالنسبة للملاحين العرب لأن منافسة البواخر لهم قد انتزعت منهم مجالا آخر من مجالات النشاط التجارى المشروع (٦٠) •

وما بين سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٨٤ تمكنت وحدات من الأسطول البريطانى الخاصة بمكافحة تجارة الرقيق من خنق نشاط المهربين بمكران • غير ان هذا النشاط عاد مرة أخرى ما بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٩٠٢ الى حد ما لأن بعض المتعاملين بالرقيق أخذوا يعملون تحت حماية الفرنسيين ويرفعون العلم الفرنسى على سفنهم وكانوا يحصلون عليه بمنتهى السهولة • غير أن نقل الرقيق على نطاق واسع على شواطئ المحيط الهندى قد انتهى فى عام ١٩٠٢ وذلك عندما اعتقل البرتغاليون ١١٤ عربيا من سكان صور و ١٢ سفينة و ٧٢٥ عبدا فى قاعدة شحن العبيد بأحد موانئ موزمبيق • وقد حكم عليهم بالسجن ١٢ عاما فى أتجولا وهو الاجراء الذى جعل أهالى صور يقيمون المناحات والمآتم على ذويهم المقبوض عليهم • كما وضع الاجراء هذا نهاية لأهمية صور كقاعدة لتوزيع الرقيق (٦١) •

غير أن مرسوم السلطان الذى صدر سنة ١٨٧٣ ، اذا كان قد حرم تجارة الرقيق فإنه لم يمنع العمانيين من امتلاكهم للعبيد • ونظرا لهذا ، ونتيجة لتساهل السلطان فى تنفيذ بنود القانون بدافع من حسن النية ، وبسبب اعتقاد أهل عمان بأن ملكية العبيد عمل مشروع فى اطار العقيدة

(٦٠) رسالة بتاريخ ١٨٧٢/١٠/٥ من بلى الى دوق أرجيل من سجلات الحكومة الهندية .

(٦١) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٥٠٠ — ٢٠١٤ « شكوى مضادة بخصوص التحكيم فى قضية السفن العمانية فى محكمة التحكيم الدائمة فى لاهاي » (طبعة لندن ١٩٠٥) ص ٥ (٦١)

الاسلامية ، فقد استمرت تجارة الرقيق في عمان ولو بشكل غير مطرد اذا قدر لها أن تفلت من حصار الأسطول البريطاني • وكانت غالبية العبيد الذين يستوردون لعمان ينزلون في ميناء صور • وكانت ثمة أسواق خاصة داخل بيوت تجار العبيد في المدن الكبيرة • وخلال السبعينات من القرن التاسع عشر كان أشهر سمسار للرقيق من أصل أفريقي • ويتراوح عدد الرقيق الذين كانوا في عمان في أواخر القرن التاسع عشر بين ١٥ ألفا و ٥٠ ألفا • بينما يزداد هذا العدد في بعض السنوات بنسبة حوالى ١٠٠٠ عبد (٦٢) وتتخذ اناث العبيد كجوارى وكعاملات في البيوت • أما الذكور فيعملون في المزارع والمنازل والسفن • والعلاقة بين العبد وسيده علاقة روتينية بحتة ، فالعبد يمكنه أن يعمل ان شاء ، ويدفع الى سيده جزءا من أجره • ومن الأشياء المألوفة أن يحتل بعض العبيد مراكز هامة • أما الطلب على العبيد فقد كان يتغير بتغير الظروف • ففي جعلان والشرقية حيث وسائل الرى لا تتطلب عمالا ، تقل نسبة الطلب عليهم ، بينما تزيد في منطقة الباطنة حيث وسائل الرى تحتاج الى خدمة مستمرة • ويتم انزال شحنات العبيد الى الموانئ العمانية في البداية ومنها يتم توزيعهم على ايران وساحل الصلح حيث يعملون كبجارة وغطاسين • وتعتبر ودام الواقعة على ساحل الباطنة في عمان مركز توزيع للعبيد • وعلى أثر حظر استيراد العبيد من أفريقيا نهائيا بعد سنة ١٩٠٢ ، بدأت ودام تستورد أسرى من بلوشستان وتبيعهم • وكانت أسعار العبيد في عمان ثابتة : فثمان الصبية من العبيد هو ١٢٠ ريالا للواحد ، والكبار ١٥٠ ريالا للعبد أما البنات فكان ثمنهن يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ ريال للواحدة • أما في أفريقيا فقد ظل سعر العبيد منخفضا في

(٦٢) رسالة رقم ٩٢ — ١٢ بتاريخ ١٨٧٣/١/٢٥ من رس الى دوق أرجيل — من السجلات الرسمية لحكومة الهند — ٢ مجلد ٢٢ ورسالة رقم ١٦٥ — ٥٧ بتاريخ ١٨٧٦/٤/٢٨ من مايلز الى بوريدو وتقرير أوتافى التجارى — ١٩٠١ •

حدود ثلاثة جنيهات استرلينية للعبد ، في الوقت الذي كان العاج يباع
بسعر أعلى من سعر العبد في ذلك الوقت (٦٣) .

وبانتهاء القرن التاسع عشر تدهورت تجارة الرقيق تدهورا كبيرا .
ويعود ذلك في الدرجة الأولى الى الجهود البريطانية . غير أن تدهور هذه
التجارة في نظر العمانيين كان دليلا جديدا على تدخل الغربيين في تجارة
ملاحية قديمة . بل ان أحد العرب السعوديين الساخطين على هذا الوضع
قد أبلغ الكولونيل بلي بأن حملة مكافحة الرقيق قد جعلت البريطانيين
« قراصنة ناجحين » (٦٤) .

وكانت تعتبر تجارة الأسلحة وتطهيرها من الأعمال التجارية المشروعة
في عمان في أواخر القرن التاسع عشر . وما بين سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩١٢
غدت مسقط مركزا هاما لتجارة الأسلحة الرائجة . أما الأسلحة وأهمها
البنادق فقد كانت تستورد من أوروبا الى مسقط بالبواخر بدون قيود
قانونية . غين أن ٩٥ بالمئة من الأسلحة المستوردة كان يعاد تصديرها
وبطريقة غير مشروعة عادة ، الى مناطق في جنوب آسيا . ففي التسعينات
من القرن كانت مسقط تستورد كل عام ٢٥٠٠٠ بندقية ، قيمة كل منها من
٣٠ الى ٥٠ ريالاً نمسويا ثم ارتفع العدد الى ٨٥٠٠٠ بندقية في سنة
١٩٠٨ . كما كانت نسبة الأرباح التي يحصل عليها تجار الأسلحة تتراوح
بين ٢٠ بالمئة الى ٣٠ بالمئة (٦٥) .

(٦٣) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٤٩٩ — ٢٥٠٣ و Preci Commerce
ص ٥٣ .

(٦٤) « صيد العبيد » ، تأليف كولومب ص ٥٠ و « عمان » اعداد شركة
الزيت العربية الامريكية ، ص ٤٥ — ٤٦ و ٦٣ وقد تلقى السلطان احتجاجات
كثيرة على تدخل البريطانيين في تجارة الرقيق .

(٦٥) « الخليج العربي » ، تأليف ويلسون ص ٢٦٣ — ٢٧١ و « علاقات
بريطانيا بالخليج » . تأليف داود ص ٣٤٨ و Preci Maskat ص ١٣٥
و « تقرير عن تجارة الأسلحة » — ١٩١٣ و « تقرير حول تجارة الخليج » سنة
١٩٠٩ من سجلات الحكومة الهندية — ٥ .

ولقد كان لهذا النشاط تأثير هام في دعم تجارة عمان الخارجية خلال المرحلة الاقتصادية الدقيقة من التسعينات من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين • ولعدة سنوات كان دخل البلاد من استيراد الأسلحة يشكل ربع الدخل العام من الواردات • وما بين سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩١٢ كان تقلب أرقام مجموع الواردات اجمالاً يتفق مع ارتفاع وانخفاض الواردات من الأسلحة • ولقد كان لهذه التجارة فضل كبير في الحيلولة دون تدهور التجارة الخارجية الى مستوى خطير خلال أزمة العملة في عمان • وعلى الرغم من التقلب الحاد في أسعار الأسلحة من سنة الى أخرى ، فقد ارتفعت قيمة واردات مسقط من البنادق من أرقامها المتواضعة في التسعينات الى ٧٣٦٦٦ ج • س في سنة ١٨٩٧ — ٩٨ والى ١١٠٩٩٣ ر في سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٠٥ ثم بلغ أقصاه في سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٠٨ ثم عاد فانخفض انخفاضاً صارخاً في عام ١٩١٠ — ١٩١١ كنتيجة للحصار البحري الذي فرضه الانجليز على تهريب الأسلحة من مسقط • ولقد أنهارت تجارة الأسلحة في مسقط سنة ١٩١٢ عندما تمكن البريطانيون من اقناع السلطان بإنشاء مستودع للأسلحة وفرض رقابة على هذه التجارة • وقد خصص الانجليز معونة مالية للسلطان مقدارها ١٠٠٠ ر • أو ما يعادل ٦٦٦ ر • ج • س • كتعويض له عن الخسائر التي سيتكبدها نتيجة لحظر هذه التجارة (٦٦) •

وفي أوائل سنة ١٨٩٨ بدأت السلطات البريطانية محاولات للحد من تجارة الأسلحة في مسقط نفسها ، اذ أن معظم الأسلحة التي كانت ترد الى عمان كانت تجد طريقها الى الأقطار الآسيوية الأخرى ، مما كان يؤدي الى تعكير السلام في كثير من بلدان الشرق الأوسط وجنوب آسيا ، وعلى الأخص على الحدود الشمالية الغربية للهند ، حيث كانت القبائل في هذه المنطقة تملك في سنة ١٩٠٦ نحو ٩٤٠٠٠ بندقية تقض بها مضاجع البريطانيين في

(٦٦) كتاب لوريير مجلد ٢ ص ٢٥٨٧ — ٨٨ و « تجارة الأسلحة » ١٩١٣ •

الهند • وقبل اتخاذ الاجراءات لوقف هذه التجارة سنة ١٨٩٨ كانت انجلترا هي المصدر الذى ترد منه الأسلحة الى عمان وتقوم بنقله السفن البريطانية عن طريق وكلائها في الهند أما بعد سنة ١٩٠٠ وتحت ضغط حكومتهم البريطانية تخلى المصدرون البريطانيون عن جانب كبير من تجارة الأسلحة ، ليحل محلهم المصدرون الفرنسيون • غير أن التجار الهنود في مسقط بحكم اشتراكهم في هذه التجارة ، كاشفراك زملائهم من قبل في تجارة الرقيق ، قد استاءوا بوجه عام من قرار حكومتهم بالحد من تدفق الأسلحة ، ولهذا ظل عدد كبير من هؤلاء يمارس هذه التجارة رغم الحظر • كذلك فإن الحكومة الفرنسية ظلت ترفض التعاون مع الحكومة البريطانية لفرض قيود على تصدير السلاح الى عمان حتى سنة ١٩١٤ عندما تعهد البريطانيون بتعويض المصدرين الفرنسيين عن الموجودات من الأسلحة التى لم يتم تصريفها (٦٧) •

انعدام التكنولوجيا الحديثة في عمان :

في أواخر القرن التاسع عشر لم تكن قد ظهرت بوادر محاولات لادخال التكنولوجيا الحديثة الى عمان ، وكان المظهر الوحيد للحياة الحديثة يتمثل في الدرجة الأولى في بعض الأوربيين المقيمين في البلاد • كما أن المحاولات المتقطعة والمتعثرة لادخال مظاهر المدنية الحديثة الى عمان كانت تقابل برفض وبمقاومة من جانب سكان البلاد في كل من شطريها الساحلى والداخلى • وكان من النادر في عهد السيد سعيد وجود فرد عمانى له ثقافة علمية أو معرفة بالعالم الحديث • وكان القرآن وبعض المؤلفات التاريخية الأباضية وبعض نظريات القرون الوسطى عن طبيعة الكون هي أفضل ما يشبع شهية المثقفين العمانيين كما أن الوضع لم يتغير تغيرا يذكر بعد سنة ١٨٥٦ •

أما المشروعات الحديثة التي وضعت خصيصا لعمان فهي تعد على أصابع اليد الواحدة وكان الممثل البريطاني يؤيد الجهود التي تبذل لادخال مظاهر العصرية في ميدان الصحة العامة . ولما كانت الكوليرا والطاعون تهاجم هذه المنطقة من وقت الى آخر كجزء من العدوى العالمية التي كانت تجتاح أقطار آسيا وتهدد أوروبا ، فقد كانت السلطات البريطانية وحدها هي التي تتولى مكافحتها . ولم يكن هناك أى عمانى يؤيد ادخال الأساليب الصحية الحديثة الى البلاد حتى سنة ١٩٠٠ عندما هاجم الوباء المنطقة وحصد ١٢ ألفا من سكانها أى بنسبة ٦١ بالمائة . وقد دفع هذا الحادث السلطان الى انشاء مستشفى واستئجار طبيب من بومبى لتطعيم السكان وتعقيم المنطقة ، غير أنه لم يوافق على انشاء وحدات فعالة للحجر الصحى قبل سنة ١٩٠٣ . والواقع أن سكان مسقط بوجه عام ، وأفراد الجالية الهندية المقيمين بها كانوا يعارضون التطعيم والوسائل الصحية الوقائية و « المستشفى الأهلى » الوحيد فى مسقط ، ويتبع ادارة الاعتماد السياسى البريطانى لم يحصل على أكثر من ٩ روبيات كتبرع من جانب سكان البلاد فى سنة ١٨٩٩ . وكان يشرف على المستشفى أحد الأطباء الهنود . وعلى أية حال ففى نفس العام بلغ عدد الزوار اليوميين للمستشفى ٥٨ مريضا ربعمهم من الهنود . وفى سنة ١٩٠٠ أخذ السلطان يستعين بطبيب المعتمد السياسى البريطانى فى معالجته أو معالجة أفراد العائلة الحاكمة . ورغم هذا فلم يفكر السلطان بالعمل على توسيع أو تطوير الشؤون الصحية للبلاد (٦٨) .

ومع قدوم البعثات التبشيرية البروتستانتية الى مسقط ، بدأت مرحلة جديدة من المحاولات الهادفة الى ادخال العصرية الى عمان . وقد بدأ

(٦٨) « المسح الطبى لمسقط » والتقرير الادارى ١٨٧٦ — ١٨٧٧ وسنة ١٨٩٨/٩٩ ص ٢٨ — ٢٩ ، ١٨٩٩ — ١٩٠٠ ص ٢٠ — ٣٥ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٧٣ — ٧٨ ، لقد كان اليخت البخارى الذى يملكه السلطان فى الثمانينات من القرن التاسع عشر المظهر الوحيد لدخول الآلة الحديثة الى عمان .

النشاط التبشيري في عمان سنة ١٨٩١ ، غير أن المركز الرئيسي للبعثات التبشيرية لم يتم بإنشاء مركز دائم له في البلاد قبل انقضاء تسع سنوات على المحاولة الأولى . وإلى جانب الأعمال التبشيرية ، كانت البعثة تدير مستوصفا ومدرسة . وقد لقيت هذه المحاولة في البداية ترحيبا بين أوساط الزنوج العبيد المحررين الذين كان يوجد عدد كبير منهم في مسقط ومطرح . وعند وصول الدكتور تومس سنة ١٨٩٨ تم توسيع الأعمال الطبية في المنطقة الداخلية من البلاد . كما أن المدرسة التي أنشأتها البعثة فتحت عيون الطلاب على العالم الحديث ، غير أن نتائج هذه المدرسة التي لا تزال ضئيلة حتى اليوم ، لم تتضح قبل حلول القرن العشرين^(٦٩) .

في سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٠٢ بدا أن عمان قد تصبح مسرحا لنشاط بريطاني للبحث عن الثروات المعدنية . فقد كان بعض الخبراء يعتقد أن ثمة مناجم غنية بالفحم على بعد نحو ٣٠ ميلا داخل البلاد من ناحية صور . ولقد تمت محاولتان من جانب الجيولوجيين للبحث وذلك رغما عن المضايقات التي أبدتها القبائل في هذه المنطقة ، غير أن عروق الفحم كما تبين من البحث لم تكن في مستوى المحاولة . وبالتالي توقفت الجهود عند ذلك الحد^(٧٠) .

وبرغم التغييرات التي أحدثتها التكنولوجيا الحديثة في المواصلات في منطقة الخليج ، في الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر فإن ظروف عمان لم تتعقد بشكل ملحوظ . كما أن مواقف وسلوك ومعتقدات العمانيين الذين عارضوا الطب الحديث سنة ١٨٩٩ ، أو الذين أطلقوا الرصاص على

(٦٩) كتاب لوريير مجلد ١ ص ٢٣٨٦ — ٢٣٩٩ . راجع أيضا مجلة « الجزيرة العربية المجهولة » و « الجزيرة العربية إلى أين ؟ » استعراض لمجالات البعثات التبشيرية تأليف دبليو أ . ج . ستورم .

(٧٠) إيتيشيسون — سنة ١٩٠٩ المجلد ١٢ وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٥٧٦ — ٥٧٧ .

الجيولوجيين البريطانيين كانوا ينقبون عن مناجم الفحم سنة ١٩٠٢ ، انما هى تعبير عن نفور العمانيين من التجديد • ففى الشطر الداخلى من البلاد على الأخص لم يكن هناك ميل الى الأشياء الأجنبية الحديثة أو الاهتمام بها • ولم يكن بالبلاد فئة قومية تؤيد ادخال الوسائل المدنية العصرية الى عمان • فالمعارضة الأباضية المتطرفة للتجديد كانت احساسا فطريا وعقيدة فكرية فى نفس الوقت • أما السلطان الذى كان يعتمد على الحراب البريطانية ، فلم يلق تشجيعا من المواطنين لادخال النظم الحديثة الى أجهزته العسكرية ، وبالتالي جنب بلاده كثيرا من المضاعفات التى كانت سببا فى حدوث تغييرات كثيرة فى أقطار منطقة الشرق الأوسط • أما الجاليات الهندية المستوطنة ، فكانت تكتفى بما يدخل الى جيوب أفرادها من الأرباح التجارية وبسيطرتها على المقومات الاقتصادية للبلاد ، كما لم تكن عمان مجتمعا يجتذب أو يشجع على ادخال تحسينات تكنولوجية ، أو استثمارات أوروبية • فعمان بثقافتها الملاحية التقليدية المتدهورة لم تسهم بشئ يؤهلها لأن تتبوأ مكانها بين الدول الأخرى •

الاقتصاد العماني فى سنة ١٩٠٠

تعتبر الأربعين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر فترة تدمير وهدم لاقتصاديات عمان • ففى الجزء الساحلى من عمان على الأخص اتسمت هذه التغييرات الثورية بحيث أنها كانت تنظيما أساسيا للحياة الاقتصادية للمنطقة • ونظرا للتوسع الذى طرأ على نشاط البواخر ، وغيرها من مظاهر التكنولوجيا الحديثة انهار اقتصاد الطبقة المتوسطة الذى ساد المنطقة الساحلية من البلاد وتجارة المسافات الطويلة ، ومراكز التجمع التى كانت قائمة قبل سنة ١٨٥٦ • وهكذا فقدت مسقط وضعها كمركز تجارى رائد فى الخليج وهو المركز الذى احتلته منذ القرن السابع عشر • كما أن دور السفن العمانية فى مياه الخليج والمحيط الهندى قد تدهور هو الآخر تدهورا يكاد يكون شاملا والى جانب ذلك تدهور نشاط الموانئ العمانية بشكل خطير

وظل على مستواه المنخفض • وكنتيجة للحالة التي انحدرت اليها تجارة النقل والتجميع ، وكافة النشاطات المترتبة عليها ، فقد انتكس الاقتصاد العماني الى وضعه المعيشي القائم على مزاولة الصيد والزراعة ، والتجارة الداخلية والنشاطات الأخرى غير المشروعة في الجزء الساحلي من البلاد •

ومن خلال النكسة التي منى بها اقتصاد الطبقة المتوسطة ، ظهرت في المجتمع العماني تلك النظرة المتشائمة اليائسة تجاه العالم • فالتجار العرب الذين أثروا من خلال النشاط التجاري والملاحي ، تراجعوا الى مجتمعاتهم الزراعية وسلموا ما بقي من تجارة عمان ونشاطها الملاحي الى التجار الذين أصبحوا في سنة ١٩٠٠ المسيطرين الحقيقيين على الحياة التجارية للبلاد • أما في أوساط العمانيين الداخلين ، فان هذه الأزمة قد تمخضت عن تراجع الى معازل القيم الأباضية القديمة ، بدلا من محاولة جادة لمواجهة حقائق الحياة الاقتصادية الجديدة • كما أن زعماء البلاد السياسيين الذين قادوا عمان الى مراكز التحكم في شؤون الخليج في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قد حال الوجود البريطاني بينهم وبين استخدام القوة لتحقيق الرفاهية الاقتصادية ، فأصبحوا عاجزين عن انتهاز الفرص بشكل فعال ، وبذلك قنعوا من السلطة بفتاتها • ومن ناحية أخرى أصبحت السلطة الفعلية مركزة في يد شيوخ القبائل من جهة والبريطانيين من جهة أخرى • أما الشيوخ فقد ظلوا متمسكين بموقف اللامبالاة من تنمية المصالح الاقتصادية القومية ، بينما اكتفى البريطانيون بضمان استتباب النظام والأمن في المنطقة بحيث لم يعد هناك ما يهدد مواسلاتهم الامبراطورية أو النشاط التجاري لأفراد الجالية التجارية الهندية — البريطانية في عمان •

ومما زاد في تأزيم الموقف ، حلول المنتجات الأوربية الصنع في الأسواق المحلية محل المنتجات اليدوية الأهلية • كما تأثر النظام النقدي بأزمة النقد العالمية لأواخر القرن التاسع عشر ، الأمر الذي أسهم في تفاقم الحالة الاقتصادية في البلاد • والواقع أن هذه الأزمة تعتبر مثالا صارخا

لبقاء الاقتصاد العماني تحت رحمة قوى لا يستطيع المجتمع فهمها أو التحكم بها •

وعلى نقيض كثير من الأقطار التي مرت بنفس المشاكل ، فإن وضع أسس لاقتصاد عماني حديث لم يتحقق • وفي سنة ١٩٠٠ ظهر أنه يوجد في عمان احتياطي من الثروة المعدنية ، كما لم تكن ظروفها المحلية تسمح بدخول الاستثمارات والتكنولوجيا الغربية ولم تقم في عمان زراعات حديثة تستفيد منها البلاد • ورغم ذلك فإن الجزء الساحلي من البلاد كان أكثر أجزاء عمان تأثراً بالثورة الاقتصادية للمستينات من القرن التاسع عشر بينما لم يتأثر الشطر الداخلي من تلك التطورات ، إلا فيما يتعلق بالصناعات الريفية ، وبأزمة النقد • كذلك فقد كان اعتماد المقاطعات الداخلية في اقتصادها على الاكتفاء الذاتي الزراعي ، عاملاً في التخفيف من حدة المشكلات التي رافقت التغييرات الاقتصادية •

ان الآثار التي تركتها التغييرات الاقتصادية لأواخر القرن التاسع عشر على الأجواء السياسية في عمان تعتبر هامة • فتدهور الامكانيات التجارية في الجزء الساحلي من البلاد قد أسهم في اضعاف خطة التقشف الاقتصادي التي كانت تدعم الجهاز السياسي الذي يتربع فوقه حكام الساحل المعتدلون وبانخفاض معدل الدخل من الضرائب الجمركية وغيرها من المصادر ، لم يبق للسلطان مصدر آخر يمكنه من التحكم في سير الأحداث ، كما فعل قبل سنة ١٨٥٦ • وبما أن الاقتصاد العماني بوجه عام قد تدهور بعد سنة ١٨٥٦ ، فقد تعرضت المنطقة الساحلية الى أسوأ صورة لذلك التدهور • وفي أعقاب الستينات من القرن التاسع عشر لم يعد في حوزة المنطقة الساحلية والجناح المعتدل من مصادر الثروة ما يفوق ما عند المحافظين في الداخل • ولقد انعكس تدهور المنطقة الساحلية بالمقارنة الى الجزء الداخلي من البلاد على الأوضاع السياسية الخطيرة التي شهدتها عمان بعد وفاة السيد سعيد في سنة ١٨٥٦ •

أما عن أهمية المركز الذي كانت تتبوأه عمان في تجارة المحيط الهندي قبل هذه الفترة فقد كان ينبع من قوة النشاط الاقتصادي للجزء الساحلي من البلاد • وبالتالي فان مركزها في الميدان الدولي قد تدهور الى أدنى حد في المدة الواقعة بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٩٠٠ أي بعد انهيار اقتصاد الطبقة العمانية المتوسطة • وهكذا غفى أعقاب سقوط عمان في الستينات ران عليها سبات طويل دام زهاء قرن من الزمان • ولم تظهر في الأفق بشائر حدوث تغيير الا في سنة ١٩٦٣ عندما أكدت شركة للبترول أن كثبان الرمال الجرداء في منطقة فهو تضم احتياطيا ضخماً من النفط وبكميات تجارية • وتقع فهود على حدود صحراء الربع الخالي وعبر المنطقة غير المخططة مع المملكة السعودية • وسوف يتم وصلها بالساحل عن طريق خطوط أنابيب يبلغ طولها مائتي ميل يمر عبر جبال الحجر عن طريق وادي سمايل وتقيد التقديرات المتحفظة أن معدل انتاج عمان من النفط سيصل الى ١٠ ملايين طن في السنة ، وهو نفس معدل آبار نفط قطر في سنة ١٩٦٣ والذي حصلت قطر في مقابله على ٦٠٠٠٠٠٠ ر • ج • س خلال ذلك العام وبما أن إيرادات سلطان مسقط وعمان في الوقت الحاضر لا تزيد على ٣٠٠٠٠٠٠ ر • ج • س ، فمن الواضح أن هذه الأموال سوف تأتي بتغييرات عظيمة في السلطنة قبل وقت طويل • ومن المحتمل خلال سنوات قليلة أن يسدل الستار على الركود الاقتصادي الطويل في عمان وتصبح البلاد شريكة لا ضحية للعالم المتحضر •

الجزء الثالث

دعم السيطرة السياسية البريطانية في الخليج

الفصل الخامس

نشوء الحكم غير المباشر

١٨٦٢ - ٩٢

يعتقد البعض أن الأساليب والأجهزة التي استعانت بها بريطانيا للسيطرة على الخليج العربي على مدى الخمسين سنة الأخيرة هي حصيلة الفترة الأولى للقرن التاسع عشر • غير أن هذا ليس صحيحا • فالتركيب الذي تقوم عليه السيطرة البريطانية في المنطقة قد ظل يتطور عبر فترة طويلة من الوقت ، وبالتالي فإن طبيعة الوجود البريطاني قد مرت هي الأخرى بتغييرات كثيرة خلال الفترة الواقعة بين القرن السابع عشر ومنتصف القرن العشرين •

ولعل أهم مظاهر التغييرات التي مرت بها منطقة الخليج في أواخر القرن التاسع عشر هي عملية تدعيم السيطرة السياسية البريطانية هناك • ان النفوذ البريطاني في الخليج ، وهو يقوم على أساس من العلاقات يمتد تاريخها الى أوائل القرن السابع عشر ، وقد تحددت بصورة أوضح في النصف الأول من القرن التاسع عشر ظل ، على أي حال ، نفوذا مرنا نسبيا حتى سنة ١٨٦٢ • وعلى كل ففى أواخر القرن التاسع عشر اشتدت قبضة هذا النفوذ وأخذت مظاهره المحلية تقوى يوما بعد يوم • وقد تكون حاجة بريطانيا الى دعم وسائل الأمن بالنسبة الى وجودها في الهند ومحافظتها على تنفيذ معاهدة السلم البحرية المعقودة في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والرغبة في نشر المفاهيم الثقافية الأوروبية وعلى الأخص ذات الطابع الانساني ، والحملة لتوسيع الاتصالات الاقتصادية المربحة ، ونشر

المفاهيم الادارية السياسية الحديثة في مختلف الامارات ، هي الأسباب الرئيسية في ازدياد التدخل البريطاني في السياسة الداخلية للخليج في أواخر القرن التاسع عشر • لقد سبق أن تناولنا المضاعفات المترتبة على تغلغل المواصلات والتكنولوجيا الغربية الحديثة الى المنطقة • غير أنه بالإضافة الى ذلك كانت هناك حملة شاملة وخبیثة لفرض العبودية السياسية • وفي عام ١٨٦٢ كانت السياسة الرسمية ، أو بالأحرى الفعلية للحكومة البريطانية في الخليج تكتفى بالاشراف على الشؤون الخارجية للمنطقة دون أن تحاول التدخل في الشؤون الداخلية للامارات العربية • وعلى كل حال فعلى الرغم من أن السياسة الرسمية البريطانية لم تتغير في سنة ١٩٠٠ ، إلا أن حكام الخليج لم يكونوا يستطيعون معالجة أية مسألة هامة تمس شؤونهم الداخلية دون الرجوع الى الممثلين البريطانيين في المنطقة •

ازدياد السيطرة السياسية البريطانية في الخليج قبل سنة ١٨٦٢

هناك خمس مراحل مر بها الوجود البريطاني في الخليج مع الأجهزة التي كان يعتمد عليها ذلك النفوذ في تأمين مصالحه ^(١) • المرحلة الأولى وتبدأ من سنة ١٦١٦ عندما استطاعت بريطانيا أن توجد لها موطئ قدم في رأس جاشك بالقرب من الخليج على الحدود الإيرانية الجنوبية وتنتهي في أواخر القرن التاسع عشر • وهي مرحلة يغلب عليها الطابع التجاري أكثر من الطابع السياسي • فقد جاء بعض أصحاب الأعمال التابعين لشركة الهند الشرقية الى الخليج بحثا عن الامكانيات التجارية في العراق ، وايران وآسيا

(١) ربما كان ادق تحليل لتطور الوجود البريطاني السياسي في الخليج ما كتبه كيلي « الوجود البريطاني في الخليج » وثائق معهد سسانت أنتوني رقم ١ ص ١١٩ — ١٤٠ وكذلك « العلاقات الدولية لجزيرة العرب والمناطق التابعة » • بقلم هـ • لايبزني (H. Liebesney) في مجلة الشرق الاوسط عدد (١٩٤٧) ص ١٤٨ — ١٦٨ وكتاب « جزيرة العرب » المحميات والمشيكات مستقاة من « المجلة المصرية للحق الدولي » ص ٥ — ٣٨ مجلد ٣ (١٩٤٧) •

الوسطى • وبالتالي فان اهتمام بريطانيا بشؤون الخليج ناتج عن وجودها في الهند ، وأن مصالحها في الهند تعتبر من أهم العوامل التي أسهمت في تشكيل أبعاد الوجود البريطاني في منطقة الخليج • ومما يؤيد هذا أن حكومة الهند وليس حكومة لندن هي التي كانت تشرف على الجانب الأكبر من المصالح البريطانية في المنطقة • كما أن المراكز البريطانية القديمة في بندر عباس كانت مراكز تجارية أكثر منها مراكز سياسية ، رغم التحصينات المسلحة التي زودت بها • فخلال المرحلة الأولى من الوجود البريطاني لم تكن المصالح البريطانية تستهدف الساحل العربي ، بل كانت وجهتها إيران والعراق وعلى الأخص البصرة وأبو شهر حيث توجد المراكز البريطانية التي كانت تمثل قاعدة النشاط البريطاني بعد الانسحاب من مركز بندر عباس سنة ١٧٦٣ ، هذا اذا استثنينا بضع رحلات عرضية كانت تقوم بها البواخر البريطانية لمسقط والكويت • أما المركزان البريطانيان المشار اليهما آنفا ، بالإضافة الى المصالح البريطانية الأخرى فقد كانت تخضع لسلطة « المقيمين البريطانيين » وفي الوقت الذي كان المقيمان البريطانيان في كل من البصرة وبغداد هما اللذين يشرفان على المصالح البريطانية في العراق ، كان المقيم البريطاني في أبو شهر هو الذي يشرف على الالتزامات البريطانية في الخليج بعد سنة ١٧٧٨ • وعلى الرغم من التغييرات التي طرأت على طبيعة النفوذ البريطاني ووظيفته ، فقد ظل المقيم البريطاني في أبو شهر — باستثناء الفترة الواقعة بين سنة ١٧٩٨ وسنة ١٨١٠ التي أنشئ خلالها تمثيل سياسي بريطاني مستقل في مسقط الجهة التي تمثل المصالح البريطانية في الخليج حتى سنة ١٩٤٦ عندما نقل مقر المقيم البريطاني الى البحرين •

المرحلة الثانية من الوجود البريطاني في الخليج تمتد عبر فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر • وعلى الأخص منذ سنة ١٧٩٨ حتى سنة ١٨٦٢ فخلال هذه المرحلة تحول الوجود البريطاني في الخليج من دور يقوم على النشاط التجاري الى دور سياسي بحث • وكانت متطلبات الدفاع عن (م ١٣ — عمان)

الهند والامبراطورية ، والمحافظة على خطوط المواصلات ، وحماية الدول البحرية في الخليج محور المصالح السياسية البريطانية ، يضاف الى ذلك أن بريطانيا قد أخذت تمارس نشاطا متزايدا في شؤون الجزيرة العربية لدرجة أصبحت هذه المصالح بنفس أهمية مصالحها القديمة في كل من العراق وايران • وقد حدثت كل هذه التطورات بعد أن وضعت شركة الهند الشرقية يدها على ممتلكات اقليمية واسعة في شبه القارة الهندية في الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر • وتبعاً لهذا تغير وضع هذه الشركة من مؤسسة تجارية الى سلطة سياسية ذات سيادة تخضع الهند من أقصاها الى أقصاها للسيطرة البريطانية • وبظهور امبراطورية الهند الى الوجود ، أصبح من المحتم أن تكتسب منطقة الخليج أهمية استراتيجية وسياسية بالتسبة الى بريطانيا وذلك لقرب موقعها من خطوط المواصلات التي تربط انجلترا بامبراطوريتها الجديدة في جنوبى آسيا •

ان غزو نابليون لمصر وانكشاف خطته لمهاجمة الهند قد أرغم البريطانيين على تأمين مصالحهم الاستراتيجية في الخليج بالوقوف في وجه أية دولة تحاول الاستيلاء على الهند • وفي أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر قامت الدوائر الهندية — البريطانية بحملة دبلوماسية مشتركة واسعة لاحتباط مناورة فرنسية في غربى آسيا ، وذلك بعقد معاهدات بين الحكومة البريطانية ودول هذه المنطقة • وقد وقعت أول معاهدة من هذا النوع في سنة ١٧٩٨ بين بريطانيا واحدى دول المنطقة وقد وقعها السيد سعيد حاكم مسقط المعتدل بالنيابة عن العمانيين ، بينما وقعها عن الجانب البريطانى شركة الهند الشرقية • وقد عرفت بمعاهدة الحلف (٢) • وفي سنة ١٨١٠ ارتفع الخطر النابليونى عن الهند والشرق الأوسط بعد استيلاء البريطانيين على جزر موريشيس • وفي نفس الوقت أعلن البريطانيون عن تصميمهم على منع أى دولة من استخدام منطقة الخليج بشكل يهدد الهند أو المواصلات الامبراطورية بالخطر •

(٢) ايتيشيسون — ١٩٣٣ ، ١١ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ •

وقد عادت بريطانيا فعززت من هذا الاجراء باتخاذ احتياطات مضادة ضد تهديد بعض موانئ الخليج الشرقية للمواصلات الامبراطورية • فمئذ الثمانينات تفاقمت الفوضى في مياه الخليج بحيث اشترك فيها العمانيون أيضا الذين كانوا يتحرقون الى بسط نفوذهم على تجارة الخليج ، بالإضافة الى عرب ساحل الصلح والبحرين ، والكويت • فقد كانت هذه الشعوب تحاول أن تنشئ لها دولا جديدة وتدعم استقلالها السياسى في تلك الفترة • وفي عام ١٨٠٠ أخذت هذه الفوضى أبعادا جديدة عندما أخذ الوهابيون السعوديون يزحفون على الساحل الشرقى من الجزيرة ويدخلون في تحالف مع خصوم عمان • وقد أدى اتساع هذا الصراع الى اشتراك السفن البريطانية فيه ، كما تعرض البريطانيون لهجمات عديدة من جانب هذه القرى • وقد اعتبر البريطانيون تلك الأعمال مجرد قرصنة ، ولم يدركوا ان سفنهم كانت تبخر في مناطق حربية وأخذت المخاوف تشتد من أن يظهر قراصنة من بلدان الخليج ليقتكوا بخطوط المواصلات الملاحية بين أوروبا والهند ، بل وقد يقومون بمهاجمة الهند نفسها • ومن هنا قررت بريطانيا القضاء على الخطر الجديد الذى يهدد مواصلاتها الامبريالية وحدود الهند أيضا • ففي سنة ١٨٠٥ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٩ ، ١٨١٠ ، ١٨١٩ ، ١٨٢٠ قامت السلطات الهندية — البريطانية في بومبى بالتعاون مع العمانيين بتجهيز حملات مسلحة لردع القراصنة عن امارات ساحل الصلح (أو ساحل القراصنة) كما يسميه الأوروبيون غير ان الحملات فشلت في تدمير القوة البحرية للعرب (٣) •

وفي سنة ١٨٢٠ قررت حكومة الهند — الانجليزية البدء في فرض رقابة دائمة على مياه الخليج لمنع وقوع حوادث السلب والنهب في المنطقة • وعهد الى المقيم البريطانى في أبو شهر بالاشراف على هذه الاجراءات • وقد

(٣) الخليج العربى — ويلسون فصل ١٣ سجلات حكومة بومبى سنة ١٨٥٦ وتاريخ الاسطول الهندى ، تأليف اس . اركوو ١٦١٣ — ١٨٦٣ (طبعة لندن ١٨٧٧ مجلد ١ فصل ١) •

استقر الرأي في البداية على أن ترابط بضع فصائل من القوات الهندية في الخليج لحماية الأمن والنظام • وأقيم لهذا الغرض معسكر في جزيرة قشم الواقعة على مضيق هرمز الاستراتيجي ، غير أن لنفقات هذه الحامية ، ولتأعب المناخ واحتجاجات الحكومة الإيرانية ، وللخوف من التورط في شؤون الخليج الداخلية تقرر سحب الجنود سنة ١٨٢٢ وبعد هذا اعتمد الوجود البريطاني على دوريات تقوم بها وحدات الأسطول البريطاني • ويبدو ان تردد الحكومة البريطانية بتوريط نفسها في تدخلات عسكرية داخل الجزيرة العربية ، أو بالدخول في التزامات تفرض عليها القيام بحملات برية دفعها الى وضع منهج للسياسة البريطانية في الخليج بعد سنة ١٨٢٢ (٤) •

وقد عقدت سلسلة من المعاهدات والتسويات مع امارات المنطقة على اختلافها تحدد طبيعة الوجود البريطاني • ومن هذه الاتفاقات معاهدة عامة لمكافحة القرصنة وتجارة الرقيق المعقودة سنة ١٨٢٢ اشترك في التوقيع عليها الى جانب شيوخ ساحل القراصنة حاكم البحرين أيضا (٥) • وعلى

(٤) هناك مقتطفات من الوثائق الاصلية لهذا الموضوع مع معالجة واسعة لنمو الالتزامات البريطانية في منطقة الخليج في اوائل القرن التاسع عشر موجودة في كتاب Frejis Gulf . ولعل المرجع الثاني للفترة نفسها يأتي Kelly في كتابه « السياسة البريطانية بين ١٨١٣ — ١٨٣٤ » وللتوسع بالمعلومات هذه أكثر يراجع « كلى » في « الوضع البريطاني في الخليج » • وورد في محفوظات سانت أنتوني رقم ٤ ان القطعات العسكرية الانكليزية — الهندية قد استخدمت في عمليات عديدة فوق الارض العربية منذ ١٨٠٢ حتى ١٨٢٢ •

(٥) ايتشيسون ١٩٣٣ ، ١ ، ٢٤٥ — ٤٧ • وفي سنة ١٨٢٠ شملت المعاهدة دولة رأس الخيمة والشارقة التي قسمت الى مشيختين مستقلتين سنة ١٨٦٦ ثم انفصلتا نهائيا ١٩١٩ ، ثم مشيخة أم القيوين ، ومشيخة عجمان ومع ان هناك من البلاد من لم تناصب بريطانيا العداء مثل أبو ظبي ودبي التي بقيت تابعة لها حتى سنة ١٨٣٤ ، فقد وقعت معاهدة السلام سنة ١٨٢٠ وجميع اتفاقات الهدنة الأخيرة • وقد اقتفت البحرين خطا أبو ظبي ، ولم تعتبر عادة =

الرغم من توقف الهجمات على السفن البريطانية فان تلك الاتفاقات لم تضع حدا نهائيا للاضطرابات الملاحية في ساحل الامارات • وأخيرا في سنة ١٨٣٣ نجح الانجليز في اقناع شيوخ المنطقة العليا من الخليج بعقد هدنة مدتها بضعة أشهر تمتنع كل دولة خلالها من مهاجمة الأخرى في مواسم المغوص • ومن هذا ظهرت فكرة الصلح بالمعنى الحقيقي للكلمة • وقد ظلت هذه الاتفاقية تجدد تلقائيا كل عام حتى سنة ١٨٤٣ عندما أبرمت معاهدة العشر سنوات التي تحظر الأعمال الحربية في البحر • وقد توجت الاتفاقات الموقعة سنة ١٨٥٣ بمعاهدة الصلح البحرية الدائمة التي ما تزال سارية المفعول حتى الوقت الحاضر (٦) • ويعتبر توقيع حكام الخليج على المعاهدات المذكورة اعترافا منهم بحق بريطانيا بمنع وقوع اضطرابات في الحركة الملاحية وفي حمايتها للأمن في مياه الخليج وفي تدخلها لتسوية المنازعات بين دوله ، كما نصت الاتفاقيات المذكورة على تنظيم المسائل التجارية والأوضاع القانونية للرعايا البريطانيين ، وتجارة الرقيق • كذلك فقد هيأت الاتفاقيات نوعا من الاشراف على الشؤون الخارجية للخليج ، رغم ان هذا البند لم ينص عليه صراحة في المعاهدات •

== كعضو مع الدويلات المتصالحة بالمعنى الحرفي للكلمة لكونها غدت ذات ارتباطات معقدة في أواخر القرن وفي سنة ١٨٦٨ قام شيخ الدوحة ، رغم ارتباطاته بالبحرين والسعودية التي كانت تبعده عن الاستقلال التام كباقي المشيخات ، قام بالامتناع عن الاشتراك في أي حرب بحرية • وبذلك دخل في نظام المصالحة • ولكن هذا لم يلزم خلفاءه بعده ، وسيما أن قطر لم تنضم الى المعاهدة حتى سنة ١٩١٦ • وحتى اليوم لا تزال قطر غير محسوبة مع الدويلات المتصالحة • ولم تدخل الكويت في معاهدة مع البريطانيين حتى سنة ١٨٩٩ • وقد نصت هذه المعاهدة على علاقات الكويت العالمية ولم تنص على السلام البحري • فهكذا لم تعتبر الكويت من وجهة قانونية فريقيا في نظام المصالحة ، بل هي كعمان حفظت مركزها للعمل • وفي سنة ١٩٥٢ اعتبرت الفجيرة رسميا فريقيا بنظام المصالحة • وقد كانت جزءا من الشارقة وأصبح لها وجود منفصل منذ سنة ١٩٠٢ • وبين سنة ١٩٣٦ و ١٩٥٢ اعتبرت أيضا « كاليا » مشيخة مستقلة وفريقيا في نظام المصالحة ، لكنها الآن تعتبر جزءا من الشارقة •

ولم تشترك في هذه الاتفاقات اثنتان من الدول العربية الهامة ونعني بهما عمان والسعودية هذا بالرغم من ان تحركاتهما في المنطقة قد بدأت تخضع بصورة متزايدة لنصوص معاهدات السلم • فقد أمكن على سبيل المثال كبح جماح التوسع السعودي في المنطقة عن طريق ما تعهدت به امارات الخليج من احترام لاتفاق الصلح البحري فيما بينها ، مقابل تعهد بريطانيا بتأييدها تأييداً تاماً وغير محدود يرقى الى مستوى الضمان الفعلى لاستقلال الدول الساحلية الصغيرة • وأخيراً في عام ١٨٦٦ اعترف السعوديون رسمياً بهذا الوضع بتوقيعهم على تعهد باحترام كيانات الدول الشرقية الأخرى في شبه الجزيرة العربية المرتبطة بمعاهدات مع الحكومة البريطانية (٧) • وقد انتظمت العلاقات البريطانية — العمانية بحلف ١٧٩٨ ، وفقاً للتعديلات التي أدخلت عليه سنة ١٨٠٠ ، والاتفاقيات الأخرى الخاصة بمكافحة تجارة الرقيق الموقعة سنة ١٨٢٢ ، ١٨٣٩ ، ١٨٤٥ (٨) وكان المفروض أن يحترم العمانيون ، كما فعل السعوديون ، روح معاهدة الصلح فيكبحوا جماح أطماعهم في البحرين وبعض مناطق الساحل الإيراني • ورغم ان الانجليز لم يتعهدوا بشكل صريح بتأييد استقلال عمان ، إلا أنهم بعد سنة ١٨٠٦ كانوا في أغلب المناسبات يظهرون سلطات الحكم في مسقط ويدعمون موقفهم ، هذا فضلاً عن تأييدهم لهم دبلوماسياً في كل مرة يتعرض فيها حكمهم للخطر • وبهذه الاجراءات خلقت بريطانيا المبررات والسوابق التي تسمح لها بالتدخل في الأوضاع السياسية في الخليج ، كجزء من محاولاتها للمحافظة على الأمن والنظام في هذه المنطقة ومن ناحية أخرى تجنبت بريطانيا الدخول في التزامات وتعهدات مسبقة ، أو اعطاء ضمانات قاطعة باستقلال هذه الامارات وقد أثرت انتهاج سياسة مرنة تعالج بموجبها كل مشكلة تطرأ في حينها • غير أن هذه التسويات ، سواء الرسمية منها وغير

(٧) نفس المصدر ص ٢٠٦ •

(٨) المصدر نفسه ص ٢٨٦ — ٣٠٢ •

الرسمية ، في مجموعها ، قد خلقت مناخا سياسيا يشبه المناخ الذى كان يسود الهند خارج مناطق النفوذ البريطانى المباشر • فقد قام حزام من « الدول القومية » يرتبط ببريطانيا بمعاهدات خاصة لحماية المداخل الغربية للهند ، كما وسع في نفس الموقف من نطاق النفوذ البريطانى دون أن يكلفها مزيدا من الأعباء الادارية المباشرة • فقد تناولت هذه التغييرات طبيعة العلاقات السياسية بين دول الخليج بشكل ثابت ، بمعنى ان استخدام القوة في مياه الخليج قد استبعد أو أصبح عملا محظورا ، وبالتالي فإن الخريطة السياسية للخليج التى ظلت تتأرجح باستمرار قد استقرت على قواعد ثابتة ، منذ ذلك الوقت • ومن هنا لم يعد في وسع أى دولة من دول الخليج ، بحرية أو غير بحرية أن تلجأ الى القوة كوسيلة للسيطرة على أجزاء أخرى من المنطقة • أما البريطانيون فكانوا يتصورون أن سياستهم في الخليج سياسة تقوم على « عدم التدخل » • ولكنهم بهذا الرأى يتجاهلون عمق أو بعد التغييرات التى أحدثوها في الطابع التقليدى للحياة السياسية في الخليج • كانوا من ناحية يعلنون بأن دورهم في الخليج لا يتعدى دور رجل البوليس الذى يحمى النظم القائمة من أى اضطرابات قد تهدد خطوط مواصلات الامبراطورية • وهى سياسة مبنية على اللامبالاة ، أو بالأحرى على عدم التدخل في الشؤون الداخلية لشعوب المنطقة • وعلى الرغم من أوجه النشاط الذى كان يقوم به الانجليز ، كحملاتهم ضد تجارة الرقيق التى كانت من المجالات التجارية الرائجة ، وباعتبارها عملا يبيحه الدين الاسلامى ، فقد كان البريطانيون لا يتدخلون في عادات أهل البلاد وأسلوب حياتهم • وفي الواقع حدثت تحولات هامة كثيرة في بيئة الحياة التقليدية للبلاد في النصف الأول من القرن التاسع عشر فهذه الفترة ترسم بداية عملية التغيير في التقاليد السياسية للخليج • ومن الواضح أن القرارات التى اتخذها واضعو اسياسة البريطانية كانت لها أهميتها في بدء هذه المرحلة من تاريخ الخليج •

واذا كانت النتائج الأولية لفرض رقابة بريطانية نشطة على مياه الخليج

نتائج سياسية في طبيعتها أساسا ، فلا بد من بعض الايضاحات عن دور الأجهزة التي كانت تمارس بها السيطرة السياسية على المنطقة • فمنذ القرن السابع عشر كانت ممارسة الوجود البريطانى في الخليج تتم بالتعاون والتفاهم بين حكومة لندن المركزية ، وسلطات الهند البريطانية في كل من بومباي وكلكتا ، والممثلين البريطانيين في الخليج • وكان تقرير السياسة البريطانية في الخليج يخضع في أعلى مستوياته لمتداً توازن القوى بين الدول الأوروبية الكبرى ولظروف المواصلات الامبراطورية المتشعبة ، وكحقل تجرى فيه التجارب لنشر « الحضارة الغربية » في العالم • أما السلطات البريطانية في كلكتا وبومباي فكانت تنظر الى الخليج من وجهة نظر الحدود • وكانت المنطقة تشكل حلقة في سلسلة من المحميات والمناطق العازلة ، وبعض البلاد المحايدة التي تحيط بالهند وتحمل حدودها من أى عدوان خارجي وتمتد من برما في الشرق عبر الهماليا ، وأفغانستان ، وبلوشستان وإيران الجنوبية والخليج العربي وتنتهي غربا عند الحدود الجنوبية لشبه جزيرة العرب • ومن ناحية أخرى كانت مهمة الممثلين البريطانيين في المنطقة تنحصر في تصريف الشؤون اليومية ، ومعالجة المشاكل والاضطرابات ، والتعامل مع المسؤولين في المنطقة والعمل على تنفيذ المعاهدات • وكل تعاون يقوم بين طرفين فان الأبعاد الثلاثة للحكومة الامبريالية ، قد خلقت نوعا من المصالحات بين الأطراف المعنية لا تعتبر مرضية بالنسبة لأى منها • ان المسؤولين البريطانيين في الهند هم الذين وضعوا تصميم الأجهزة التي اعتمدت عليها بريطانيا في تأمين مصالحها في الخليج • وكان نظام التمثيل السياسى البريطانى هو أساس هذه الأجهزة • فمن الناحية النظرية كان المقيم الهندي — البريطانى يقوم مقام السفير في تمثيل بريطانيا باعتباره السلطة العليا بالنسبة الى الحكام المحليين المرتبطين بالنفوذ البريطانى ^(٩) والواقع ان المقيم البريطانى كان هو الذى يقوم بتمثيل السيطرة البريطانية وممارستها

(٩) يرقى منصب المقيم البريطانى في الخليج في الوقت الحاضر الى رتبة سفير •

في الدولة « الحليفة » أو المرتبطة • وبالتالي لم يكن في وسع أى حاكم محلى أن يرفض نصيحة المقيم البريطانى وقبل عام ١٨٢٢ كان لبريطانيا مقيم سياسى فى أبو شهر غير ان مسؤولياته كانت تنحصر فى الشؤون التجارية أكثر منها فى الشؤون السياسية : وتعتبر مهمته بمثابة امتداد للعهد الماضى عندما كانت شركة الهند البريطانية مجرد مؤسسة تجارية • أما فى سنة ١٨٢٢ وكنتيجة للدور الجديد الذى ترقب على بريطانيا أن تضطلع به فى المنطقة ، تغير لقب الممثل البريطانى من « المقيم البريطانى فى أبو شهر » الى « المقيم البريطانى فى الخليج » وتبعاً لذلك تغيرت مسؤوليته من مسؤولية تجارية الى مسؤولية سياسية ، كما منح صلاحية الاشراف على جميع الممثلين البريطانيين فى الخليج بما فيهم المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط • الذى بدأ عمله هناك فى سنة ١٧٩٨ • وقد عهدت الحكومة البريطانية الى المقيم المذكور بالاشراف على نظام الرقابة على المنطقة ، الى جانب دعم السيطرة السياسية البريطانية فى المنطقة ، وحتى سنة ١٨٦٢ كان دور المقيم البريطانى فى الدرجة الأولى يقتصر على منع أو قمع الاضطرابات وأعمال الشغب • ولم يقيم المقيمون البريطانيون فى أوائل ومنتصف القرن التاسع عشر بتشجيع أهالى الخليج على تغيير أسلوب حياتهم القديم ، واعتناق المدنية الغربية الحديثة •

وكما هو معروف عن الادارة البريطانية فى الهند ، فقد كان المقيم السياسى البريطانى يمارس أعماله بحد أدنى من الاداريين • وكان يعاونه فى أعماله مقيم مساعد ، وطبيب ، ومحاسب ، وكاتب وأمين خزينة ، فضلاً عن عدد من الكتبة العرب والاييرانيين ، والخدم المحليين ، وفصيالة من الحرس • كما كانت حكومة الهند تعين سياسيين ملحقين (غالباً من أصل هندى) فى كل من الشارقة ، والبحرين ، ولنجه ، وشيراز وفى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨١٠ أى على أيام التهديد النابليونى • ثم فى سنة ١٨٤٠ كان يقوم بتمثيل بريطانيا فى مسقط مقيم سياسى من أصل أوربى الا أنه فى أغلب الأحوال حتى سنة ١٨٦١ كان المعتمد الذى يمثل بريطانيا فى

عمان من أهل البلاد • وكان المقيم في أبو شهر على صلة وثيقة في أعماله بالمقيم البريطاني في العراق الذي نقل مقر عمله في سنة ١٧٩٨ من البصرة الى بغداد التي اتخذت مقرا دائما للمثل البريطاني في سنة ١٨٣٢ • وفيما بين سنة ١٨٠٦ وسنة ١٨٧٣ كان المقيم البريطاني يخضع من الناحية النظرية للحكومة المركزية في الهند — البريطانية ، غير أنه بالرغم من ذلك كان يرجع في نشاطه ومسؤولياته الى حاكم اقليم بومبي الذي كان يشرف على المصالح الهندية — الانجليزية في كل المنطقة الغربية من حوض المحيط الهندي • وكان يتم تعيين المقيم أو مساعده عادة من بين رجال الأسطول الهندي وذلك لتنسيق الأعمال مع نشاط هذا الأسطول • والواقع ان الأسطول الهندي — البريطاني كان يعتبر الخليج من مناطق نفوذه ، وكان ضباطه يمثلون الادارة البريطانية فيه حتى سنة ١٨٦٢ • ومن ناحية أخرى ، كان من المألوف أن تترك حكومتا الهند وبومبي للمسؤولين في الخليج حرية اتخاذ القرارات في حينها • ولعل من الأسباب التي دعت الى ذلك هو عدم وجود مواصلات سريعة بين الهند والخليج قبل افتتاح الخطوط التلغرافية في سنة ١٨٦٤ (١٠) •

أما العامل الثاني في نظام الرقابة البريطانية في الخليج بعد سنة ١٨٢٠ فهو الدوريات التي كانت تقوم بها سفن الأسطول الهندي ، فقد كانت السفن الحربية جنبا الى جنب مع دوريات سلاح الفرسان في الجيش تقوم بحراسة حدود الهند • وكان في الامكان توجيه الأسطول الى أى بقعة على امتداد ساحل الخليج • غير ان بعض الاضطرابات التي كانت تشب في المناطق الداخلية كحركة الوهابيين مثلا ، لم تكن في متناول الأسطول البريطاني بشكل مباشر •

غير ان حكومة الهند البريطانية لم تكن تحتفظ بأسطول بحري كبير في

الخليج • ويعتبر عام ١٨٣٠ فترة هامة ، اذ بلغ عدد سفن الدوريات خمس بوارج ، بينما لم يكن يتجاوز عددها في سنة ١٨٣٤ سفينتين غير أن هذا العدد ، فيما يبدو لم يكن كافيا وبالتالي زيد عدد السفن في عام ١٨٣٥ كنتيجة لانفجار الموقف في ساحل عمان • وكان الجانب الأكبر من نشاط هذه القوة البحرية يقتصر على عمليات المسح ، وتقديم المساعدة للملاحة وهى الأعمال التى كانت قد بدأتها بحرية بومبى سنة ١٧٧٢ التى كانت مسؤولة عن المنطقة قبل انشاء الأسطول الهندى (١١) • ومنذ سنة ١٨٢٢ حتى سنة ١٨٦٢ تولى شؤون الخليج وعقد الاتفاقيات مع حكامه المقيم السياسى البريطانى في المنطقة • ويستثنى من هذا ما حدث سنة ١٨٣٧ — ٤١ عندما أظهرت حكومة لندن اهتماما أكثر بشؤون الخليج • وقد توافقت هذه المرحلة مع نشوب أزمة دورية في المشكلة الشرقية ، وهو التعبير السياسى عن الصراع الذى كان يدور بين الدول الأوروبية على المنطقة التى تقع فيها الامبراطوريتان الفارسية والعثمانية في مرحلة انهيارهما • فالخليج العربى كانت له أهميته بالنسبة للشرق ، اذ أنه يشكل نقطة محورية نتصارح حولها المطامع والمخططات • وفي سنة ١٨٤٠ كانت المصالح البريطانية قد توطدت في الخليج بصورة ثابتة • ومن جهة أخرى فان مصر محمد على — حليفة فرنسا غير الرسمية — قد وطدت سلطتها في شبه الجزيرة العربية بينما كان النفوذ الروسى يسيطر على بلاط الحكم في ايران • وبالتالي فان هذا التحالف الفرنسى الروسى القوى ، سوف يتمكن لو ترك وشأنه ، من تصفية الوجود البريطانى في الخليج وخلق أوضاع قد تهدد المواصلات الامبريالية البريطانية تهديدا خطيرا في منطقة الخليج • ومما زاد في تعقيد المشكلة ، ذلك المثلث الجغرافى الذى يربط بين البحر الأبيض المتوسط ، والخليج العربى ، والبحر الأحمر باعتباره موقعا هاما لأقصر الطرق التى تربط أوروبا بالمحيط الهندى • ولما كانت حركة النقل تتطور بسرعة ، فان سيطرة دولة قوية واحدة على ذلك المثلث يعطيها ميزة التحكم بالطرق القصيرة التى تربط أوروبا بالأسواق

المتعاضمة في آسيا وأفريقيا الشرقية • ولقد استطاع اللورد بالميرستون ببراعته الدبلوماسية أن يسجل نصرا هاما في أزمة عام ١٨٣٧ — ٤١ ففى الوقت الذى نجحت بريطانيا فى الاحتفاظ بنفوذها فى الشرق الأوسط ، بل ووسعت من رقعة هذا النفوذ (باحتلالها لعدن ١٨٣٨) كانت تقاوم محاولات (فرنسا وروسيا) للتسلل الى المنطقة • ولم يواجه الوجود البريطانى تحديا جديدا لنفوذه فى الخليج قبل سنة ١٨٩٩ — ١٩٥٢ • وقد ترتب على أزمة سنة ١٨٣٧ — ٤١ دعم شبكة المعاهدات التى تربط امارات الخليج بالحكومة البريطانية • وحتى عمان التى لم تكن قد تأثرت بالوجود البريطانى كالدول الأخرى فى الخليج ، اضطرت هى الأخرى الى الالتزام بالمعاهدات البريطانية (١٢) •

وكانت أزمة سنة ١٨٥٦ — ٥٧ أقل خطورة من أزمة سنة ١٨٣٧ — ٤١ ، فقد تقلدت السلطات الهندية الانجليزية زمام التوجيه المباشر للسياسة البريطانية فى الخليج مؤقتا • وانتهت الأزمة بوقف التحركات الفارسية ضد هرات وهى التحركات التى اعتبرت تهديدا للحدود الشمالية الغربية للهند ، لمنع ارسال قوات هندية الى الخليج واحتلالها بعض المواقع على ساحل ايران كتدليل من جانب بريطانيا على اعتبار الخليج جزءا من خطوط الدفاع عن حدود الهند (١٣) • وفيما عدا هاتين الحادثتين ، فقد تركت مهمة الدفاع عن المصالح البريطانية فى الخليج للعناصر التقليدية المحلية • وبالتالي فان الأبعاد الثلاثة للسياسة البريطانية فى الخليج — وهى البعد الامبريالى ، والبعد الهندى والبعد السياسى ، كان لكل منها نصيب فى تكييف السيطرة البريطانية • أما فى التحليل النهائى فان المصالح البريطانية فى الخليج ما بين

(١٢) « طريق الهند » هوسكنز فصل ١٦ — ١٧ واتشيسون ١٩٣٣ مجلد ١١ ص ٢٨٩ — ٣٩٢ •

(١٣) « الدبلوماسية » هروتر فصل ١ ص ١٦١ — ٦٣ وكذلك « تاريخ الاسطول الهندى » مجلد ٢ فصل ٢ ، تأليف لوى •

سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٦٢ ظلت في واقع الأمر في أيدي الممثلين البريطانيين المقيمين ، فيما عدا بعض حوادث متفرقة تتعلق بالتدخل الخارجي • وكان المقيمون يمارسون صلاحياتهم عادة في شكل مخفف ويشرفون على الشؤون المحلية ويراقبون حركة الرقيق من وراء الستار • وبالتالي فإن هذه العوامل ولعدم وجود مصالح اقتصادية حديثة ومتطورة للبريطانيين في الخليج قبل عام ١٨٦٢ ، قد هيأت العرب ليمارسوا نصيبا أكبر من السيطرة على شؤونهم الداخلية •

في سنة ١٨٦٢ بدأت المرحلة الثانية من مراحل تطور الوجود البريطاني في الخليج ، وهي التي استمرت حتى عام ١٩٠٣ • ولقد ولدت هذه المرحلة من تطورات ثلاثة : إعادة تنظيم الحكم البريطاني في الهند وملحقاتها كنتيجة لثورة ١٨٥٧ ، دخول التكنولوجيا والمواصلات الحديثة الى الخليج بعد سنة ١٨٦٢ ، ومحاولات بعض المسؤولين البريطانيين في الهند نشر المفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحديثة في المنطقة • وانتهت هذه المرحلة باحباط البريطانيين محاولات دول امبريالية أخرى الحصول على مناطق نفوذ لها في الخليج • وفي الفترة ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٩٠٣ نقل الممثلون البريطانيون في المنطقة النظم والقواعد وأدوات الحكم الأساسية البريطانية التي تم وضعها في أوائل القرن التاسع عشر الى الخليج وطبقوها بشكل يدعم من النفوذ البريطاني فيها بعد ادخال بعض التعديلات عليها • ومن ثم أصبح البريطانيون في سنة ١٩٠٣ يمارسون نفوذا فعليا ، وان لم يكن مباشرا على نواح كثيرة من دقائق الحياة السياسية — الداخلية والخارجية — لامارات الخليج • كما تم خلال هذه الفترة توضيح وتحديد هوية المصالح الاستراتيجية البريطانية وأبعادها في المنطقة • وسنتناول هذا الجانب بالدراسة في الفصلين القادمين • وأيا كان ذلك ، فمن الجدير أن نشير بهذا الصدد الى أقرب مرحلتين من مراحل تطور الوجود البريطاني في الخليج •

في الفترة ما بين سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٤٧ وصل النفوذ البريطاني في

الخليج الى أقصى درجاته • فالسيطرة الاقليمية التي فرضتها بريطانيا عليه سنة ١٩٠٣ من جانب واحد فقط ، أصبحت وضعا معترفا به من الدول الامبريالية الأخرى المنافسة لها — وهى فرنسا ، وروسيا ، وألمانيا ، والامبراطورية العثمانية • وقد تم هذا الاعتراف من خلال المفاوضات الدبلوماسية التي أجريت ما بين سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩١٤ • واعتبرت نتيجة الحرب العالمية الأولى التي انتهت باحتلال الانجليز للعراق ، وجزء كبير من ايران بمثابة تثبيت للسيطرة البريطانية على المنطقة • وأصبح من المألوف بعد هذا أن يرى الانسان بريطانيين مثل شارلس بلجريف في البحرين ، وبرترام توماس في عمان كمستشارين اداريين في حكومات الأمراء العرب • وعلى كل فقد أخذت قبضة هذا النفوذ البريطاني تضعف من بعض النواحي في العشرينات من هذا القرن • فلقد تأكد استقلال ايران ، كما ان الضغط الدبلوماسي الأمريكي قد أخذ يدعم مصالح النفط الأمريكية في المنطقة على حساب الاحتكار البريطاني للثروة البترولية المتزايدة • وفي عام ١٩٤٧ انسحب البريطانيون من الهند ومنذ ذلك الوقت يحاول البريطانيون أن يتكيفوا مع حقائق الأوضاع الجديدة في المنطقة ، والبحث عن أساليب أفضل للبقاء على وجودهم في الخليج فكان عليهم أن يوفقوا بين مطالب القوميين العرب والاييرانيين من ناحية ، وزغبتهم في تحقيق وعودهم السياسية القديمة ، وضمن تدفق النفط الذي يسد جانبا هاما من حاجة بريطانيا وغرب أوروبا من الطاقة والوقود من ناحية أخرى •

اعادة تنظيم الحكم البريطانى فى الهند

وانعكاساته على الأوضاع فى الخليج

أشرنا فى سياق هذا الكتاب الى التحولات الكبرى فى الهند وانعكاسها على الأوضاع فى الخليج • ولعل ما يؤيد هذا الرأى التغييرات السياسية التى شهدتها الخليج فى أعقاب ثورة سنة ١٨٥٧ الهندية وهى الثورة التى تمخضت عن اعادة تنظيم جهاز الحكم البريطانى التابع لها • ففى عام ١٨٥٨ حلت شركة الهند الشرقية — الاداة القديمة للسيطرة البريطانية على الهند بموجب مرسوم حكومة الهند لسنة ١٨٥٨ • وأصبحت السلطة العليا فى توجيه دفة السياسة البريطانية بعد أن كانت خاضعة للملك ومجلس الوزراء ، فى يد « وزير الدولة لشؤون الهند » الذى كان عضوا فى مجلس الوزراء ، وكان يساعد الوزير مجلس وزراء خاص بالهند • اختير أعضاؤه من بين المسؤولين البريطانيين المتقاعدين فى الهند وممن كانوا يحملون أرفع الألقاب ويتمتعون بكفاءة وخبرة علمية واسعة • أما الاجراءات الادارية فقد عهد بها الى نخبة من الرسميين المحترفين ، وذلك بالرغم من تغير الوزراء وكانت مهمة هؤلاء الأشراف على سير الاجراءات الدستورية ، واستخدام أفضل الطرق بل كاد أن يكون هؤلاء المخططون للسياسة • وفى الفترة الأخيرة من حياة شركة الهند الشرقية ، تقلص نفوذها فى مجالات السياسة العليا تقريبا • وعندما بدأت وزارة شؤون الهند عملها سنة ١٨٥٨ دبت فى ادارة الهند البريطانية روح جديدة • كما ان رغبة حكومة لندن فى خلق دولة منظمة وفعالة فى الهند انتشرت كالعوى بين مختلف أوساط حكومة الهند البريطانية • وهكذا انطلقت روح التغيير الى الخارج سنة ١٨٦٠ ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى انتقلت هذه الروح الى منطقة الخليج أيضا (١٤) •

(١٤) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد (الطبعة الثالثة) ، ص ٦٧٥ ، تأليف ت . ار . متكاف و « ثورة الهند » ، ١٨٥٧ — ١٨٧٠ (طبعة برنستون ١٩٦٤)

أما في الهند فقد احتفظ النائب العام بالسلطة العليا ، غير أنه كممثل شخصي للملك كان يحمل لقب (نائب الملك في الهند) وكان له مجلس للوزراء يساعد في أعماله ، وان كان هو المسؤول الوحيد عن الشؤون الخارجية التي كان يساعد فيها أيضا « وزير خاص » ودائرة أو وزارة للشؤون الخارجية . وكانت الادارة الخارجية هي التي تشرف على شؤون الولايات الهندية وغيرها من المناطق العازلة في الخليج وحتى سنة ١٨٧٣ كان محافظ اقليم بومبي الشخص المسؤول عن العلاقات الخارجية في منطقة غربى المحيط الهندي . غير ان هذا الوضع كامتداد للمرحلة التي سبقت ظهور المواصلات السريعة ، قد تغير في سنة ١٨٧٣ ، بتسلم حكومة الهند المركزية مقاليد السلطة على جميع ممثليها خارج دائرة النفوذ المباشر . وقد عهد بالاشراف على شؤون الخليج بعد سنة ١٨٧٣ الى مكتب وزير الخارجية التابع لنائب الملك ومقره كلكتا . وكان اهتمام هذه الادارة ينصب على ناحيتين ، علاقة حكومة الهند بالولايات الهندية داخل الحدود الهندية ، والعلاقات الخارجية الحقيقية أى علاقة الهند بالدول الأجنبية . وكان المفروض في مثل هذه العلاقات أن تخضع للسياسة الامبريالية . وبالإضافة الى هيئة الموظفين في حكومة كلكتا ، كان يعمل حشد من رجال السلك السياسى الدبلوماسى ، وعدد كبير من وحدات الجيش المخصصة « لرجال التمثيل » ومن الناحية التنفيذية كان اختيار الرسميين يتم عادة من بين المتخصصين في شؤون الامارات الواقعة ضمن الامبراطورية الهندية نفسها أو في مناطق الحدود ، والمناطق الخارجية كالخليج العربى (١٥) .

وعلى الرغم من تعقيدات جهاز الحكم الامبريالى بحكم تراكم السلطة في أعلى مستوياتها ، فقد كان هذا الجهاز كله (بعد سنة ١٨٧٣) يرتبط بخط تلغرافى مع نائب الملك في الهند الذى يرتبط بدوره بخط تلغرافى مع حكومته

(١٥) سيرة حياة السر مورتيمور دوراند ، تأليف بى سايكز (لندن ١٩٢٦) ص ٥٥ — ٥٦ ، ٢٢٤ — ٢٥ و الجارديانز ، تأليف ماسون ، ص ٢٧٠ وكتاب لوزيرير مجلد ١ ص ٢٦٥ — ٦٦ .

في لندن (١٦) • وعلى كل حال فقد كان نواب الملك في الهند يخضعون في تصريف شؤونهم لمجموعة من القواعد والسوابق • وبالتالي كانت قراراتهم تخضع لتلك القواعد أكثر مما كانت تخضع لميولهم الخاصة (١٧) ، أما الحكومة نفسها فلم تكن تهتم بالتفاصيل ، وهذا ينطبق أكثر على شؤون الخليج • ومن هنا كانت الفرصة مهيأة ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٩٠ أمام الأقوياء من الرسميين لفرض ارادتهم ، أما فيما يتعلق بمنطقة الخليج فقد كان التركيب الذي تقوم عليه السيطرة البريطانية ، وطريقة ممارستها يتقرران سرا ، من حيث المضمون أو من حيث التفاصيل وعلى هوى الممثلين البريطانيين وحدهم •

قضية جونز ، ١٨٦٢ — ١٨٦٣ اتجاهات

جديدة للسيطرة البريطانية في الخليج

في عام ١٨٦٢ تولى السر بارتل غرير منصب حاكم اقليم بومبي ، كما بدأت السفن التجارية رحلاتها المنتظمة الى موانئ الخليج • ويعتبر هذان الحدثان اشارة الى بدء مرحلة جديدة في تاريخ الخليج • فالنظام الاداري القديم السلبي كان يتعارض مع فكرة بارتل كاداري يعنى ، كما سبق أن أشرنا ، رسالة بريطانيا الحضارية في العالم • وكان بارتل هذا واضح الرؤية بالنسبة للاتجاه الذي ينبغي أن تحرك فيه الأحداث في الخليج • وبنوعية الرجال الذين يجب أن يقودوا المصالح البريطانية هناك • وكان من رأى هذا الرجل أن لا يتقيد المقيم البريطاني بمهمته كرجل بوليس ، بل عليه أن يسعى الى توسيع نطاق نفوذه مع سائر الحكام الذين يتعامل معهم • وبهذه الطريقة يستطيع المقيم أن يقوم بدور المستشار لا في الشؤون السياسية وحسب ،

(١٦) الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار ص ٢٥٥ (كامبردج ١٩٥٠) •

(١٧) الجارديانز ، تأليف ماسون ص ٧٦ •

بل وفي الشؤون الداخلية أيضا • غير انه لا ينبغي للمقيم في رأى فريير أن يحشر نفسه في الادارة الداخلية ، بل أن يراقب كل ما يجرى حوله في البلد أو الامارة التي يعمل فيها • كما ينبغي عليه أن يقف الى جانب رؤساء المنطقة طالما احتفظوا بعلاقات ودية و مرضية مع البريطانيين • وأخيرا ينبغي على المقيم أن يرشد حكام المنطقة الى أهمية أساليب الحياة الحديثة المستنيرة ، وأن لا يفرضها عليهم فرضا • وعلى حين كان يرى فريير بأن وضع المبادئ العامة لسياسة المقيم تقع على عاتق رؤسائه ، فان تفاصيلها ينبغي أن تكون من اختصاصه •

وبالتالى كان دور المقيم البريطانى في الخليج وفق تصور فريير يرتبط بالخطط التي يضعها لتعديل السياسة البريطانية وبآرائه العامة في دور الامبراطورية البريطانية في العالم وبدلا من أن يضع بارتل أسس نظام ادارى بريطانى مباشر ، فقد آثر أن يدخل هذا النفوذ من النوافذ الخلفية وأن يحترم الثقافات القومية ، على أن يمارس نشاطه عن طريق الحكام المحليين ، في الوقت الذى يضيف الى الأوضاع القديمة السائدة قوة دافعة جديدة • غير أنه لا ينبغي أن يكون ثمة أى لبس فيما يتعلق بالجهة التي ينبغي أن تقبض على السلطة النهائية وعلى الحكومات المحلية أن ترضخ من حيث الأساس لمفاهيم الخطأ والصواب البريطانية • وفوق ذلك ينبغي أن يكون الاشراف البريطانى الجسر الذى تعبر عليه المبادئ الحديثة للفكر والتكنولوجيا • وقد أطلق على هذا النوع من النفوذ البريطانى « السيطرة غير المباشرة » وبعبارة أخرى كان بارتل يعتقد بأن التحضير (لادخال الأساليب الحضارية) شرط أولى لغرس الأخلاقيات المسيحية في العالم ، وبالتالي فان مفهوم فريير للامبريالية ، هو جزء من التقاليد الليبرالية البريطانية ، وبدرجة أقل من الانجليين • ان الامبراطورية مسؤولة في عقيدة فريير ، وبالتالي فهي حركة لنشر المدنية والحرية في آن واحد (١٨) •

(١٨) « سيرة حياة فريير » ، تأليف : ماريتو فصل ١ ص ٥٠ — ٥١ و ٦٩ — ٧٠ و ١٦٨ و ٦٩ — ٤٩٥ •

وكان يعتقد فريير بأن بريطانيا كانت متخلفة عن مسؤولياتها في الخليج • ولم يكن راضيا عن المقيم البريطاني في أيامه الكابتن فلكس جونز، الذي كان يتولى التمثيل في أبو شهر منذ سنوات قبل تعيين السير بارتل فريير حاكما على اقليم بومبي • وكان جونز من ضباط الأسطول الهندي وكانت له خبرة طويلة بالعراق ومنطقة الخليج العربي • وقد ظل التمثيل البريطاني في عهد جونز من حيث الأساس كما كان منذ سنة ١٨٢٢ • وكانت السياسة المتبعة في أيام جونز سياسة تقوم على أساس عش ودع غيرك يعيش • وكان هذا متزوجا من سيدة أرمنية فارسية وكان قد تشرب تقاليد الحياة في الخليج • وإذا كانت هذه السياسة تعتبر سياسة مقبولة في سنة ١٨٤٠ ، فقد أصبح جونز في نظر بارتل فريير نموذجا غير صالح لتمثيل أفكار البريطانيين وسلوكهم وحضارتهم في سنة ١٨٦٢ ، وبالتالي بدأ فريير حملة ضد جونز في التقارير التي كان يبعث بها الى رؤسائه يطالب بنقل جونز الذي لم يعد صالحا لتمثيل النفوذ البريطاني في المنطقة وفق رأيه • وعندما سافر جونز في الاجازة الى انجلترا سنة ١٨٦٢ ، انتهر فريير الفرصة فعين مقيما بالنيابة عن جونز ، وكان هذا الأخير ضابطا متحصسا من سلاح الفرسان ويدعى ليويس بلي Lewis Pelly وكان قد لمع في المناصب التي سبق أن شغلها في الشرق الأوسط وزنجبار • واستمر فريير بعد ذلك في ارسال الخطاب تلو الخطاب الى وزارة شؤون الهند في لندن يحثهم على الغاء عودة جونز الى الخليج والموافقة على تعيين بلي في محله • وكان في كل الخطابات التي يبعث بها الى لندن يركز على أن منطقة الخليج مقبلة على مرحلة جديدة لم يعد يصلح لتمثيل بريطانيا فيها ، لأنه رجل ليس في وسعه مواجهة متطلبات منطقة تستقبل مرحلة جديدة من اليقظة الحضارية الحديثة •

ولقد قاوم جونز بعنف للاحتفاظ بمنصبه في الخليج ولكنه لم يفلح ،

وتم تعيين بلى أخيرا كمقيم في الخليج خلفا لجونز (١٩) . لقد كان جونز يمثل « الطغمة القديمة » من ضباط الأسطول الهندي الذين يعتبرون الخليج منطقة نفوذهم الخاصة . وبما أن هذه الجماعة كانت تؤمن بأنها تعرف عن الخليج أكثر من غيرها ، فقد كانت نظرتها ضيقة جدا ، ولم تكن تنظر الى الخليج من زاوية المصالح البريطانية في الهند وانما من زاوية الامبريالية البريطانية . وبقتسام بلى منصبه كمقيم بريطاني في الخليج بدأت مرحلة جديدة من العلاقات بين بريطانيا وسكان المنطقة ، وقد تمثلت في مزيد من التدخل في شؤون السياسة الداخلية لامارات الخليج . وبذلك أخذت القرارات السياسية البريطانية تؤثر بصورة متزايدة على مجرى التاريخ القومى للخليج . وهكذا ما أن حلت سنة ١٩٠٠ حتى كانت جميع امارات الخليج قد فقدت استقلالها بحيث أصبحت من الوجهة الفعلية جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية .

ليويس بلى والتوسع البريطانى فى الخليج

لقد اتسمت الفترة التى تولى فيها ليويس بلى منصب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج بحركة توسعية للنفوذ البريطانى فى المنطقة . فقد شهدت المرحلة انتشار المؤسسات الاقتصادية ، والمواصلات الحديثة ، وتزايد التدخل السياسى البريطانى فيها . وعلى الرغم من أهمية هذه الأحداث فى حد ذاتها ، فانها ستبدو أكثر اثارة ، اذا ما تذكرنا بأن الستينات كانت مرحلة تتسم بالحذر السياسى من الجانب البريطانى وفى أغلب الأحوال مرحلة تدعيم لامبراطورية الهند البريطانية . أما من حيث أهمية الخليج كمنطقة عازلة فقد كان يحتل موقعا فريدا ، وهذا يعنى أن

(١٩) رسائل من بارثل فرير الى وود بتاريخ ١٢ فبراير و ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٦٢ و ١٢ مايو سنة ١٨٦٤ انظر أيضا « سيرة حياة فرير » ، تأليف مارتينو .

السياسة البريطانية في سنة ١٨٧٠ كانت أهم منها في سنة ١٨٦٠ ولهذا
ثلاثة أسباب :

١ — ازدياد حجم الالتزامات الاقتصادية البريطانية في الخليج
كنتيجة لادخال خطوط الملاحة التجارية الى المنطقة .

٢ — انشاء الخطوط التلغرافية (السلكية) بين أوروبا وشبه القارة
الهندية عبر الخليج ، وما أعقب ذلك من زيادة في سرعة المواصلات داخل
المنطقة نفسها من جهة ، وبينها وبين العالم الخارجى من جهة أخرى .

٣ — وضع المصالح البريطانية في يد شخصيتين متحمتين ومخلصتين،
هما السير بارنل فريير ، حاكم اقليم بومبى ، ومعاونيه في الخليج المقيم
البريطانى ليويس بلى .

لقد تحدثنا آنفا عن رأى فريير بالنسبة الى الامبريالية البريطانية ،
والى ما كان يؤمن به هذا الرجل من آراء تتعلق بالتطور الاقتصادى في
الخليج وبالدور الذى يمكن أن تضطلع به بريطانيا في ادخال الحضارة
العصرية الى المنطقة . وعلى أى حال ، فالشئ المهم أن نرى كيف استطاع
بلى أن يحول أحلامه ، الى حقائق ! ولما كان بلى يؤمن بضرورة توفير
الأجواء والشروط السياسية اللازمة التى يمكن في ظلها التمهيد لنشر
الحضارة الحديثة فقد ركز الجانب الأكبر من جهوده على النواحي
السياسية أكثر منه على النواحي الاقتصادية . وكان من رأيه أنه ما لم
تشرف بريطانيا اشرافا فعليا ، فلا يمكن تحقيق هذا الهدف . ولهذا وجه
بلى كل همه الى تدعيم النفوذ السياسى البريطانى في الخليج ولا يمكن
خلق بيئة تسمح بنمو « الحضارة والتجارة » ما لم يدعمها نظام سياسى
متين . وبالتالي لم يكن غريبا أن يحاول فريير التدخل في بعض تقاليد
ومؤسسات الحضارة التقليدية في الخليج وكانت هذه موضع احترام
السياسيين البريطانيين حتى ذلك الوقت . وأخذ بلى يعمل بلا كلل ، ولكنه

كان يبالغ أحيانا مبالغة كبيرة في تقدير امكانيات المنطقة الاقتصادية وكان يبحث مواطنيه على استغلال نفوذهم في المنطقة لدعم المصالح التجارية ، كما كان يحذرهم من ان أى تقاعس من جانبهم سوف يعرض مركز بريطانيا لتحديات خطيرة • وكان من رأيه أيضا أنه لم يكن فى الامكان تطبيق السياسة البريطانية فى الخليج بشكل فعال اذا كان ثمة من يعترض على وجوده على رأس الممثلين البريطانيين وخضوع بقية المسؤولين من مدنيين وعسكريين فى المنطقة لأوامره وتعليماته • ويبدو من الصعب تحديد خط فاصل بين قيام بلى بواجباته الرسمية ، وبين عملية ادخال الوسائل العصرية الى الخليج فهو لم يكن يفصل بين الناحيتين وكان يقف فى وجه كل من يحاول اثاره المتاعب فى طريقه أو احباط مشاريعه • وعلى كل فقد كان ابويس بلى فى تلك المرحلة من « الاستعمار الجديد » يعبر عن رأى حكومته فى الطريقة التى يمكن أن تتم بموجبها عملية ادخال الحضارة الحديثة الى المنطقة • وهى طريقة تقوم على أساس فرض السيطرة الغربية على المنطقة الى حد كبير • وعلى الرغم من أن طريقته لم تكن معقدة الى درجة كبيرة ، الا أنها من الوجهة العلمية لم تكن طريقة تجديدية ، أما من الناحية العملية فقد كانت تعتمد على عدد من المشروعات المحددة والمعدة سلفا لمنطقة معينة أكثر ، منها على نظريات عامة للتطور •

غير أن ميزة بلى الادارية — المستمدة من ايمانه بدور بريطانيا الحضارى فى الخليج — هى أكثر الصفات التى تركت آثارها بعد وفاته • فقد كان وراء اندفاعه وصموده فى وجه العواصف ، شجاعة وحماسة مقرونتين بالكبرياء • كما ان أسلوب قيادته كان يكشف عن شخصيته كفارس متمرس لم يفقد حبه للمغامرة والاقدام • لقد كان أمامه طريق محفوف بالأخطار • وفى عام ١٨٦٠ قام بلى برحلة على ظهر جواد من ايران الى الهند عن طريق أفغانستان مرورا بمناطق تسكنها قبائل متوحشة • كما قام بعد تعيينه فى سنة ١٨٦٥ برحلة شاقة أخرى الى قلب الجزيرة العربية عندما زار الرياض فى محاولة لتسوية الأزمة الخطيرة التى وقعت بين

السعودية وبريطانيا • وكان بلى يدافع بحرارة عن مفهومه للمصالح
البريطانية في الخليج في تلك الفترة التي كانت تشهد تغييرات جذرية في
أسس الحياة التقليدية للمنطقة • وعند احالة بلى على المعاش سنة ١٨٧٢
نقل نشاطه الى أفغانستان والهند حيث لعب دورا لامعا في الميادين
الدبلوماسية منح عليها سنة ١٨٧٧ لقب الفارس • وهكذا أخذت تنهال عليه
الألقاب والرتب حتى وفاته في سنة ١٨٩٢ ، وكان يومها قد وصل الى رتبة
لفتنانت جنرال ، كما برز اسمه في مناقشات مجلس العموم كأحد الناطقين
باسم الاستعمار •

وعلى الرغم من صفات الحماسة والشجاعة ، والقدرة على الاقناع
والذكاء التي كانت يتصف بها بلى ، الى جانب غروره وتعنته ، فقد أسهمت
كل تلك الصفات في تدعيم مركز بريطانيا في الخليج ، في الوقت الذي كان
من المتوقع لذلك الوجود أن ينهار ، لو عهد بالمسؤولية الى رجل آخر أقل
كفاءة وثقة بنفسه من ليويس بلى • وقد يكون من حسن حظ بلى أن منصب
المقيم في بعض الأحيان كان تعبيرا عن قوة شخصية صاحبه أو ضعفه
أكثر منه تعبيرا عن المنصب نفسه • وعلى عكس منصب الحاكم العام ، فإن
فعالية أي منصب آخر لا تتحدد بمدى قوة التركيب الإداري الذي
يسنده • فمنصب المقيم هو بالأحرى صورة مكبرة لشخصية الرجل الذي
يشغله • فالمفروض في المقيم البريطاني في الخليج أن يعمل في حدود
مسؤوليته وهي الاحتفاظ بعلاقات ودية مع حكام المنطقة التي يمثل فيها •
أو تقديم مشورته اليهم ، لا في المسائل الخارجية وحسب ، بل وفي الشؤون
السياسية الداخلية أيضا • وقد قام بلى بواجبه هذا على الوجه الأكمل •
والحق أنه كان سياسيا ثوريا ، وكان يسمى نفسه رائد التغيير ورسول
الحضارة والعهد الجديد في الخليج • غين أن مهمة بلى في الخليج واجهت
كثيرا من العقبات والخيبات ، ولما كان المبشر بالامبريالية الجديدة

باعتبارها فلسفة الرجل الأبيض — فقد ظل نجاحه يتصاعد وكذلك مركزه في المنطقة (٢٠) .

وكانت هناك ثلاث مشاكل رئيسية تواجه بلي : أولها الخلافات التي دبت بينه وبين رؤسائه في كلكتا حول السياسة التي ينبغي أن تتبع في الخليج وعلى الرغم من أن رئيسه المباشر بارتل فريير كان يؤيد موقفه عموماً ، غير أن سياسة رؤسائه المتزمتة في كلكتا وكانت مصدر مضايقات كثيرة له . أما المشكلة الثانية فهي أنه كان يواجه بعض العقبات في فرض سلطته الرسمية على غيره من المسؤولين البريطانيين في الخليج . أما المشكلة الثالثة فهي عقلية الحكام الذين كان عليه أن يتعامل معهم والمعبء الملقى على عاتقه فيما يتعلق بالمحافظة على النظام السياسي في الخليج في فترة من التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العميقة ، فضلاً عن محاولاته لخلق مناخ سياسي في بلدان الخليج ، يسمح بدخول وسائل المدنية الحديثة إليها .

ليويس بلي ، ورؤساؤه والسياسة البريطانية في الخليج

لقد كانت متاعب بلي مع رؤسائه ثمرة صدام بين فلسفتين امبرياليتين . فقد كان هذا من دعاة « الامبريالية الجديدة » وكان يدعو الى قيام بريطانيا بتعميق وجودها والتزاماتها في منطقة الخليج حيث كانت توجد بالفعل

(٢٠) للاطلاع على صورة وافية لحياة بلي انظر « معجم السير القومية » (١٨٩٥) ص ٢٧٥ — ٧٧ وكتاب « سيرة حياة فريير » ، تأليف مارتينو فصل ١ ص ٥٠ — ٥١ و ٥٠٣ . راجع أيضاً رسالة بلي الى اندرسون بتاريخ ١٦/٢/ ١٨٦٦ و Precis in' Rivalry ص ٢٩ ورسالة بتاريخ ١٢/٥/ ١٨٦٦ من بلي الى اندرسون و Precis Commerce ص ٣٠ ورسالة مؤرخة ٢٣/١٠/ ١٩٠١ من هاملتون الى كرزن .

مقدمة لعلاقات غير عادية بين بريطانيا ودول المنطقة • أما المسؤولون البريطانيون في الهند ، وعلى رأسهم السير جون لورنس Sir John Lawrence نائب الملك من سنة ١٨٦٤ حتى سنة ١٨٦٩ ، وتشارلس ايتشيسون Charles Aitchison ، المسؤول عن الادارة الخارجية في الهند من ١٨٦٨ حتى ١٨٧٨ فقد كانوا ينادون بسياسة ودية أو سياسة « عدم التورط » أو كما كان يحلو للورنس أن يسميها « سياسة غير نشطة » ووجهة نظر أصحاب هذه المدرسة السياسية ان امبراطورية الهند البريطانية يجب أن تحاط بحزام من الحدود الواضحة بحيث لا تتعدها • أما في المناطق التي تقع خارج حدود الهند ، وتتقضى الضرورة باقامة علاقات دبلوماسية معها ، أو تحمل نوع من المسؤولية ازاءها ، فان أصحاب هذه المدرسة يوافقون على الحد الأدنى من التدخل في الشؤون الداخلية لتلك المناطق وتقاليدها ، أو بتجنب ذلك اذا أمكن • غير ان هذه السياسة بالنسبة الى العلاقات الدولية والامبريالية ، قد تأثرت في الستينات من القرن بحدثين خاصين ، الأول هو رغبة كل من حكومتى لندن وكلكتا في الوصول الى اتفاق مع حكومة سانت بيترسبرج حول امتداد نفوذ كل من بريطانيا وروسيا في آسيا • وكان المسؤولون في كلكتا يطالبون بأن تتوقف الدولتان عن توسيع نفوذهما عبر القارة وان تتفقا على تعيين منطقة محايدة عازلة تفصل بين مناطق نفوذ كل منهما • ولتفادى وقوع أى صدام بين روسيا وبريطانيا في آسيا كانت كلكتا ترى استبعاد كل من أفغانستان وايران من الصراع تحسبا لترشيحهما كمنطقتين عازلتين بين مناطق نفوذ كل من الدولتين • وانه في حالة قيام دولة من الدول كفرنسا أو روسيا بتجاوز حدود المناطق العازلة فان معالجة هذا الوضع يمكن أن تتم بالطرق الدبلوماسية من جانب حكومة لندن في عاصمة الدولة المعنية (٢١) •

(٢١) « سيرة حياة فريير » ، تأليف مارتينو فصل ١ ص ٨٢ و « السر مورتيمار ديوراند » ، تأليف سايكز ص ٨٤ و « أسس السياسة الخارجية للهند » ، تأليف : ب . براساد ص ٢٦ و ٤١ (طبعة كلكتا ١٩٥٥) •

كانت سياسة تجنب المشاكل والامتناع عن المغامرات في مرحلة كانت الهند تقيق لتوها من آثار ثورتها الكبرى ، أحد العوامل التي أسهمت في تشكيل سياسة حكومة كلكتا في الستينات • وهى سياسة وضع أسسها اللورد كانبنج ، ثم جاء جون لورنس فقام بتنفيذها • ومن ناحية أخرى فإن الثورة التي اجتاحت الهند وما أعقبها من أحداث قد أسهمت في استنزاف ميزانية الحكومة الهندية ، وبذلك أضافت بعدا جديدا الى الوضع • وقد بلغت ديون الحكومة في سنة ١٨٦٣ ٣٨٠٠٠٠ ر • س • بينما بلغ العجز في الميزانية ٧٠٠٠٠ ر • س • ومن ثم فإن سياسة الضغط على النفقات واصلاح الجهاز المالى للدولة كانت أهم بالنسبة الى حكومة كلكتا ، مما كانت تعتبره مشروعات خارجية باهتة ومغامرات تضر أكثر مما تنفع وتؤدي الى اضعاف الاقتصاد (٢٢) •

وبالنسبة للخليج فكانت ترى حكومة كلكتا أن يستمر العمل بالسياسة القائمة ، دون الدخول في ارتباطات جديدة قد تحيد بها عن الخط المقرر بشكل جذرى • ونما يبعث على السخرية أن سلطات حكومة الهند المركزية كانت تؤيد مشروع مد الخط التلغرافى بين الهند وأوربا ، وتمويل مشروع الخط الملاحي لبواخر شركة الهند الشرقية في الخليج باعتباره اجراء دفاعيا عن الهند • غير ان مضاعفات وضع هذه المشروعات موضع التنفيذ كانت في الوقت نفسه سببا في زيادة التورط البريطانى في الخليج ، وهو ما كانت الحكومة تحاول أن تتفاداه • وعلى العموم فإن حكومة لندن كانت تؤيد سياسة حكومة كلكتا النسلية حتى السبعينات من القرن التاسع عشر عندما بدأت السياسة البريطانية دبلوماسية أكثر نشاطا •

(٢٢) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد الطبعة الثالثة ص ٦٧٧ و « التنمية الاقتصادية في الهند » ص ٣٧٣ ، تأليف اينستى وكتاب « سيرة حياة فريز » فصل ١ ص ٢٨٩ — ٩٩ ، تأليف : مارتينو و « معقبات الثورة » تأليف متكاف (Metcalfe) .

وفي مقابل شعار « عدم التورط » ظهر خلال الستينيات شعار « الامبريالية الجديدة » الذي لم يصل الى أقصى مداه قبل الثمانينات • ومفهوم هذا الشعار ان الامبريالية مسؤولية أخلاقية وليست شرا لا بد منه ، ولئن كان « الامبرياليون الأوائل » ، قد تراجعوا عن شعاراتهم القديمة ، التي كانوا سيحرمون بها أقطارا كثيرة من نعمة المدنية الحديثة ، فان الامبرياليين الجدد يرون في تلك المؤثرات مؤثرات حضارية • لقد كان النموذج البريطاني للاستعمار الجديد في مرحلته الأولى على الأقل متأثرا بدرجة عميقة بالنزعة الانسانية والأخلاقية • وكان ديفيد ليفنجستون David Livingstone أول من دعا اليه • وقد استطاع بكتاباته أن يقنع كثيرين من البريطانيين بأن رسالة البريطانيين المسيحية في العالم هي العمل على نشر النفوذ السياسى البريطانى في آسيا وأفريقيا ، كخطوة أولى في سبيل غرس قيم المدنية الحديثة بين ربوعهما ، ولم تكن غاية الامبرياليين الأوائل هي تحقيق المجد الامبريالى أو النفوذ الدولى ، بل كانوا بالأحرى دعاة للانسانية ولحياة مستنيرة للناس • غير أنه مع انتشار المفهوم الجديد للاستعمار ، اتخذت الدعوة للأسف ، طابعا عنصريا ، بل وشيطانيا ، يعكس مفاهيم دارون الاجتماعية التي شاعت في أوائل القرن التاسع عشر • ولقد كان السر بارتل فريير من أوائل الذين اعتنقوا الفلسفة الاستعمارية الجديدة • وبما أن فريير قد نجح في كسب واحد من شباب العقيدة وتعيينه في منصب المقيم البريطانى في أبو شهر ، فقد كان الخليج العربى أول منطقة في أفريقيا وآسيا تحظى بنصيبتها من الاستعمار الجديد ، ومن مقر عمله كحاكم لاقليم بومبى كان فريير يدير المصالح البريطانية على امتداد رقعة واسعة من الساحل الغربى للمحيط الهندى • وكان على يقين من امكان نشر القيم الحضارية الحديثة والتأثير على حكام المنطقة — بما فيها الخليج العربى — اذا توفرت الظروف اللازمة لها •

وقد تولى بلى منصبه كمقيم بريطانى في الخليج في فترة تشهد صداما بين فلسفات استعمارية متعارضة • وعلى الرغم من اصطدامه بين الحين

والآخر مع الساسة في كلكتا ، ومع ممثلى الخارجية الهندية ، فقد كان يلقي كل دعم وتأييد من جانب السير بارتل فرير ، كلما اشتدت معارضة حكومة كلكتا لسياسته • وكان فرير يعتقد بأن السياسة البريطانية في الخليج كانت تقوم على أساس التدخل الحقيقى ، وان سياسة الحكومة في كلكتا لم تكن سياسية واقعية بحكم التصرفات البريطانية السابقة ، والمسؤوليات التى كانت تتحملها بالنسبة للمنطقة (٢٣) غير ان كلكتا كانت مضطرة الى أن ترضخ لمقترحات فرير بوصفه الرجل الثانى في الهند ، حتى وان كانت تتجاهل مسؤولا صغيرا نسبيا مثل بلى • وعلى مدى الستينيات كان الخلاف مستعرا • وفي الوقت الذى كان فرير وبلى يواصلان مساعييهما لتوسيع نطاق الالتزامات البريطانية في الخليج ، كانت الحكومة في كلكتا تحت ضغط الأزمة المالية الحادة تعارض تلك الجهود •

وكان الخلاف واضحا بصورة خاصة بين الاتجاهين ، وفي التضمينات المتعلقة بالاشراف على حماية الخليج • وكان بلى يقتدى في ذلك بقائده العسكرى القديم الجنرال جون جاكوب ، الذى عمل بلى تحت امرته في سلاح الفرسان على حدود السند ، وهى أحد أقاليم الهند • وكانت طريقة جاكوب في حماية الحدود تقوم على تسيير دوريات من الفرسان تجوب المناطق مع الاحتفاظ بالمنطقة الواقعة مباشرة كمنطقة سلام ، وذلك عن طريق النفوذ الشخصى للمسؤولين البريطانيين المقيمين في مناطق الحدود (٢٤) • وبعبارة أخرى كانت منطقة الحدود وفقا لهذه الطريقة بالأحرى منطقة غير محددة ، يبدو فيها النفوذ البريطانى باهتا كلما توغل الانسان عبر المنطقة • أما لورنس فقد كان ينادى بسياسة تقوم على تخطيط الحدود تخطيطا واضحا ، وباستخدام القوة اذا وقع أى غزو

(٢٣) خطاب بتاريخ ٢٦/٤/١٨٦٦ من فرير الى لورانس وقد ورد في كتاب « سيرة حياة فرير » تأليف : مارتينو فصل ١ ص ٥٠٩ — ٥١٠ وص ٤٨٣ •
(٢٤) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد — طبعة ٣ ص ٦٩٨ •

أو اعتداء من جانب منطقة أخرى • ولكنه أعلن من ناحية أخرى وجوب التمسك بمبدأ التدخل في الشؤون الداخلية للقبائل المجاورة ، أو في نزاعاتها المحلية ، أي كانت الظروف (٢٥) • ولقد أخذ بلى على عاتقه أن يوفق بين طريقة جاكوب والأوضاع القائمة في الخليج • وقد لخص هذه السياسة ، كما كان يتصورها هو ، وأسبابها والمصاعب التي تقف في طريق تنفيذها على الوجه الآتي « ... ان المحافظة على السلام الملاحي على امتداد حدود الامارات الساحلية مسألة على جانب من الصعوبة • ولا يكفي مجرد الظهور المفاجيء أو الدورى لاحدى السفن الحربية في المنطقة ليستقر السلام • وانما المطلوب نوع من التنسيق بين ممارسة يقظة وفرض ضغط على المنطقة • ان مهمة المقيم البريطانى في الخليج كحكم في المشاكل الملاحية للمنطقة أشبه بدور ضابط الحرس الذى يحمى الحدود ضد منطقة خارجة على القانون ... الأمر الذى يتطلب ضغطا مستمرا عن طريق وجود حاميات متقدمة ومستعدة في أى لحظة للرد على أى عدوان ، والمحافظة على المناطق المسالمة التى لا تضر أى نوايا شريرة ... وبالتالي فان قواربنا المسلحة هى بمثابة تلك الدوريات والنقاط الأمامية بالنسبة للساحل الغربى » (٢٦) •

لم تكن معارضة حكومة كلكتا هى التى تقلق بال بلى في محاولاته الرامية الى المحافظة على السلام في الخليج • وانما هى عدم اهتمام الحكومة المذكورة في الستينات من القرن بالمناطق الواقعة وراء حدود الهند وبالتالي اهمالها للخليج العربى • وكان الأسطول هو الدعم الوحيد لبلى ولكل مقيم بريطانى في الخليج بالنسبة لمشكلة الحدود • وحتى عام ١٨٦٣

(٢٥) خطاب رقم ١٠٤٤ من موير الى جاون — كلكتا — سجلات حكومة الهند • عند كتابته لهذا الخطاب كان موير يشغل منصب سكرتير الشؤون الخارجية لنائب الملك في كلكتا بينما كان جاون سكرتيرا لحكومة بومبى •
(٢٦) التقرير التجارى : ١٨٦٩ اعداد بلى وقد ورد في كتاب
Commerce ص ٣٣ •
Precis

كانت سفن الأسطول الهندي هي التي تمتد الخليج بالوحدات اللازمة (٢٧) .
فيما بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٦٢ كانت وحدة من ٤ أو ٥ سفن تقوم بأعمال
الدورية في مياه الخليج بانتظام . وعلى كل فقد ألغيت هذه الدوريات في
شهر ابريل سنة ١٨٦٣ عندما تقرر العمل على إعادة تنظيم الأسطول الهندي
في أعقاب الثورة التي اجتاحت الهند . وقد ألغيت الدورية بناء على اتفاق
تعهدت الحكومة البريطانية بموجبه أن يتولى عمليات الدورية الأسطول
الملكي بنفسه . غير ان الاستفادة من هذا الأسطول بشكل فعلى لم تبدأ
قبل سنة ١٨٧١ . وخلال هذه الفترة اضيرت المصالح البريطانية في الخليج ،
كما تصدعت حالة الأمن والسلام في المنطقة (٢٨) . ومما يثير السخرية حقا
ان السر بارتل فريير كان قد تنبأ بهذه المصاعب ففي سنة ١٨٦٣ أعرب عن
نقاط الضعف في الأسطول الهندي ، كما نبه الى عدم كفاءة ضباطه ورجاله .
وكانت اعترافات فريير تذكر على ان الأسطول الهندي لم يعد في مقدوره
الاضطلاع بمهمة حماية المصالح البريطانية على سواحل الجزيرة
العربية (٢٩) .

غير ان احلال الأسطول الملكي محل الأسطول الهندي لم يكن خطة
ناجحة لأسباب عديدة ، فلقد كانت قاعدة هذا الأسطول في الجزء المشرقي
من الهند كبيرة جدا ، كما كان الطقس شديد الوطأة على السفن والبحارة ،
وكانت العمليات كثيرة جدا تشمل كل منطقة المحيط الهندي التي كان

(٢٧) يعود تاريخ انشاء الاسطول الهندي الى اوائل القرن السابع عشر ،
وان كان لم يعلن عن انشائه رسميا قبل سنة ١٨٣٠ . وقد كان هذا جزءا من
برنامج إعادة تنظيم الادارة البريطانية في الهند في أعقاب ترك الهند الكبرى .
حين ألغى الاسطول سنة ١٨٦٣ غير ان سلاح النقل والمسح البحري التابع
لحكومة بومبي تولى بعض مهام الاسطول الهندي بعد الغائه .

(٢٨) precis Naval ص ١١ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٤٧ .

(٢٩) خطاب مؤرخ ١٨٦٢/٤/١٢ وآخر مؤرخ ١٨٦٢/٨/٢٦ من فريير

الى وود .

الإشراف عليها إشرافا فعالا يكاد يكون مستحيلا • وكان عدد السفن أقل من العدد المطلوب في الستينات • ومن ناحية أخرى فإن سفن الأسطول الملكي لم تكن تستطيع البقاء في مياه الخليج إلا في فصل الشتاء ، وذلك بالرغم مما تتطلب أعمال الدورية من وجودها باستمرار على حد رأى الوزير (٣٠) • وفي الفترة الواقعة ما بين سنة ١٨٦٤ — ٦٥ وسنة ١٨٦٦ — ٦٧ لم تصل الى الخليج أى سفينة من سفن الأسطول الملكي • ومن ناحية أخرى لم تكن طلبات المقيم لإرسال سفن تلقى استجابة من نائب الملك في الهند ، أو من السير تشارلز وود وزير شؤون الهند في لندن الذى كان يتصل به بلى (٣١) • كما توقف الجانب الأكبر من عمليات المسح والاسعافات الملاحية ما بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٧١ بدوره (٣٢) •

وقد ألحق هذا الإهمال أضرارا خطيرة بمركز بريطانيا في الخليج • حيث وقعت اضطرابات كثيرة في منطقة الخليج في الستينات ، وانتهت سنة ١٨٦٧ — ٦٨ بتجدد القتال بين الأساطيل العربية في المنطقة القريبة من البحرين • وقد بلغ من خطورة الوضع أن بلى اضطر الى الاستيلاء على بعض السفن التجارية العابرة وعلى المراكب الشراعية العربية ، لعدم وجود خطوط ملاحية منتظمة • وكان يشكو دائما من الشكوى من استحالة القيام بواجبه على الوجه الأكمل من غير وجود قوة بحرية تسنده (٣٣) • وكان فريير يؤيد مطالب بلى بتأييد قوي ، ولكم حاول اقناع رؤسائه بوضع طراد

(٣٠) Preci Naval ص ١١ ورسالة مؤرخة ١٨٦٤/٤/٢٨ من فريير الى وود •

(٣١) Preci Naval ص ١١ •

(٣٢) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٤٧ •

(٣٣) رسالة مؤرخة ١٨٦٦/٤/٢٣ من بلى الى فريير وقد وردت في Preci Trucial Chiets ص ٣٣ — ٣٤ ورسالة مؤرخة ١٨٦٦/١٠/٢ من فريير الى اللورد كرنبورن ، وقد وردت في كتاب « سيرة فريير » ، تأليف : مارتينو جزء ١ ص ٤٦٥ •

تحت تصرف المقيم بصورة دائمة (٣٤) . وفي عام ١٨٦٥ — ٦٦ وصلت
الأزمة الى ذروتها عندما قرر لورنس وضع شؤون الخليج في عهدة قنصل
عام مقره اصفهان الواقعة على السهل الداخلى من ايران ، وسحب القوة
البحرية من الخليج بصورة نهائية ، غير أن فرير وبلى هاجما هذه الخطة .
وأخيرا أبلغ لورنس فرير بأنه لا يريد أن يشغل نفسه بموضوع سياسة
الخليج بعد ذلك . وانه سيتترك شؤون هذه المنطقة لحكومة لندن نفسها (٣٥) .
ولكن الوضع تغير في سنة ١٨٦٧ عندما عين فرير عضوا في وزارة شؤون
الهند بلندن . فخلال احتلاله لهذا المنصب استطاع التأثير على وزير الدولة
لشؤون الهند . كما ان لورنس نفسه غادر الهند في سنة ١٨٦٩ . وبذلك
أزاح داعية لسياسة « عدم التدخل » وسنحت الفرصة لوضع سياسة
خارجية وامبريالية في الهند تشق طريقها الى الوجود وفقا لشعار
« الامبريالية الجديدة » .

(٣٤) رسالة مؤرخة ١٨٦٤/٤/٢٨ من فرير الى وود وأخرى بتاريخ
١٨٦٦/١٠/٢٨ .

(٣٥) Precis int'l Rivary ص ٣١ — ٣٢ ورسالة مؤرخة ١٨٦٦/٤/٢١
من لورانس الى فرير . وقد وردت في مؤلف مارتينو ، « سيرة فرير » جزء ١
ص. ٥٠٩ وكذلك ص ٤٦/٤٤٥ .

جـ جدول رقم ٦

السفن الحربية البريطانية في مياه الخليج سنة ١٨٦٣ — ١٨٧٢

السنة	اسم السفينة	ملاحظات
١٨٦٣ — ٦٤	السفينة كلايد	الغاء الأسطول الهندي
	السفينة هيوروز	
١٨٦٤ — ٦٥	لا توجد أى سفينة	
١٨٦٥ — ٦٦	السفينة هايغلاير	عمليات ضد السعودية
	السفينة بارينيس	
١٨٦٦ — ٦٧	لا توجد أى سفينة	
١٨٧٧ — ٧٨	السفينة هيوروز	
١٨٧٨ — ٧٩	السفينة البريطانية درياد	عمليات بالقرب من البحرين
	السفينة البريطانية فيجيلانت	دوريات ضد تجارة الرقيق
	السفينة البريطانية هيوروز	
	السفينة الهندية السند	
	السفينة الهندية كلايد	
١٩٦٩ — ٧٠	السفينة الهندية كلايد	عمليات في مسقط
	السفينة الهندية هيوروز	
	السفينة الهندية دالهاوسى	
١٨٧٠ — ٧١	لا توجد أى سفينة	
١٨٧١ — ٧٢	السفينة الهندية بلفنش	الأسطول الهندي يقوم بدوريات
	السفينة البريطانية ماجبى	متواصلة تم الاتفاق عليها ٦٩
	السفينة فلتشر	
	السفينة لينكس	
	السفينة نمبل	

ومما يدل على تغيير الأوضاع هو الاتفاق بين حكومة الهند-الانجليزية والأسطول الملكي المعقود سنة ١٨٦٩ والذي بدأ تطبيقه في سنة ١٨٧١ • وبموجب هذا الاتفاق تعهدت حكومة الهند بدفع مبلغ ٧٠٠٠٠٠ ج • س • كنفقات سنوية للأسطول الملكي مقابل تعهد الأخير بتزويد الهند بتسع سفن حربية كل عام ترابط ثلاث منها في منطقة غير بعيدة من سواحل افريقيا الشرقية لمكافحة نشاط تجار الرقيق • بينما ترابط ثلاث أخرى في مياه الخليج للقيام بدوريات منتظمة لحراسة المنطقة ومنع عمليات توريد الرقيق وبيعهم • على أن تخضع هذه السفن لسلطة المقيم البريطاني في الخليج ، وغير مسموح لها القيام بعمليات هجومية الا بموافقة المقيم نفسه (٣٦) • غير أن مشكلة الأسطول هذه انما تصور الجهد والصراع الذي تكلفته سياسة الاحتفاظ بالسيطرة البريطانية في الخليج من أجل الرقابة البحرية على المنطقة • ولقد كان اهمال حكومة لندن لموضوع القوة البحرية في الخليج أحد الأمثلة على المتاعب التي كان يواجهها بلى في تنفيذ مشروعاته هناك • وكانت سياسة عدم التدخل التي ارتبطت بها كل من حكومتى لندن وكلكتا في الستينات ستؤدي الى انهيار النفوذ البريطاني في الخليج • كما كان هناك عدد لا يستهان به من الرسميين الانجليز يؤيدون هذا الاتجاه • غير ان فريير وبلى كانا يحذران باستمرار في تقاريرهما ورسائلهما للمسؤولين من مغبة هذه السياسة التي قد تخلق أزمات خطيرة على مناطق الحدود مع الهند وبالنسبة للمواصلات الامبريالية • وكان فريير على الأخص لا يألو جهدا في التنبيه الى ما قد ينشأ من مواقف خطيرة اذا استمرت بريطانيا في تجاهلها لتحذيرات المسؤولين في المنطقة كما كان يعتمد الى اختلاق سخط وهمى بين العمانيين والفرس والعرب ، كما كان يقول ، عملاء بعض الدوائر الأوربية المغرضة • وكان يتصور ان اثاره فكرة التدخل أو التسلل الأوربي للخليج

(٣٦) تعليمات الى قيادة شرقى الهند كما وردت في « مختصر تاريخ الاسطول » ص ١٧ وفي كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٣٥ . راجع ايضا « صيد العبيد » ، تأليف : كولوبب ص ١٣٦ — ١٣٨ وذلك للاطلاع على آراء رجال الاسطول الملكي فيما يتعلق بأعمال الدوريات الحراسية في الخليج •

سوف تدفع بحكومتى لندن وكلكتا الى الاهتمام بالمنطقة • ورغم ذلك فقد كانت لندن وكلكتا تؤثران تجنب المواقف المكشوفة أو القيام بمغامرات باهظة ومعقدة في مناطق تقع خارج دائرة النفوذ البريطانى المباشر ، وذلك طوال تولى جون لورنس لمنصب نائب الملك في الهند • الذى كان يعارض عادة ، ومن حيث المبدأ ، جر بريطانيا الى تورطات جديدة • وعلى ضوء هذه الاعتبارات كان موقف لورنس وبلى على طرفى نقيض ، غير أن نائب الملك لم يكن مع ذلك يرغب فى الدخول فى نزاع مكشوف مع فريير الذى كان يدافع عن وجهة نظر بلى فيما يتعلق بأوضاع الخليج بعد أن كان لورنس يعتبرها موضوعا تافها (٣٧) •

ولعله « أن حسن الحظ أن بلى كان يحظى بتأييد رئيسه المباشر الذى كان من أشد المتحمسين له • ففى خطاب بعث به فريير الى وزير الدولة لشؤون الهند أعرب عن اعجابه ببلى وبحساسيته التى ورثها عن العهد الفكتورى • وقال فى خطابه « بأن فريير قد قدم لنا معلومات عن المنطقة أكثر من أى مسؤول بريطانى آخر هناك خلال العشرين سنة الماضية وفى رأى أن آراءه سليمة بوجه عام ، كما انه مفاوض وجواب لا مثيل له وقد نجح فى تكوين صلات و صداقات مع أقطار متعصبة ومتوحشة • دون أن يكون لخالقه الانجليزى أى تأثير على هذه المواقف (٣٨) •

ويعود الفضل فى الاحتفاظ بالنفوذ البريطانى فى الخليج خلال الفترة العصبية من الستينات الى جهود و اخلاص بلى ، كما والى مركز بارتيل فريير وموهبته • وقد أخذ بلى يدافع عن وجهة نظره بالنسبة الى الخليج وامكانياته المحتملة فى تقاريره الرسمية وفى الصحف وعن طريق الكتابة كما شن حملة من المقالات والرسائل فى الصحف البريطانية والهندية — دافعا عن آرائه • وحتى مغادرة بلى للهند فى سنة ١٨٦٩ لم يكن واثقا من مصير دعوته ، فلقد

(٣٧) خطاب مؤرخ ٢٢/٥/١٨٦٣ من فريير الى وود / مارتينو « حياة فريير » مجلد ١ ص ٥٠٧ — ١٠ مجلد ٢ ص ١٥٧ — ١٠٨ •
(٣٨) من فريير الى وود تاريخ ٢٢ ابريل ١٨٦٥ محفوظات الهند مجلد ١ •

كانت السياسة المألوفة لكل من حكومتى لندن وكلكتا هي اهمال الخليج . بحيث لم يكن هناك وقت للتراجع عن فكرة الانسحاب من المنطقة • وبما انه لم تكن ثمة أى أزمة خطيرة في الخليج يومئذ فقد ظلت الحكومتان متمسكتين بموقفهما • وكان مصير اقتراحات بلى كمصير الخليج نفسه هو الاشمال التام في معظم الدوائر الحاكمة • غير ان بلى برغم الامكانيات المحدودة مضى في اقامة أسس العهد الجديد في الخليج •

بلى ومروءسيه :

كانت المشكلة الكبرى الثانية بالنسبة الى بلى هي اخضاع كافة المسؤولين البريطانيين في الخليج لسلطته • ولم يواجه بلى صعوبات كثيرة في تحقيق هذا الهدف • كما تأكدت سلطته على رجال الأسطول العاملين في الخليج بصورة نهائية في سنة ١٨٦٩ الا أن نقطة الخلاف الرئيسية كانت في علاقة بلى بالمثل البريطاني في مسقط • ففي عام ١٨٦١ استأنف البريطانيون علاقاتهم السياسية بمسقط على أثر تقسيم الامبراطورية العمانية الى شطرين ، شطر أفريقي وشرط أسوي بتعيين معتمد سياسي أوربي للإشراف على علاقة بريطانيا بعمان • وكان هناك اعتماد بريطاني غير رسمي في مسقط منذ حكم الامام أحمد (١٧٤٩ — ١٧٨٣) وبصورة رسمية ابتداء من سنة ١٨٠٠ ، وكان المسؤول عنه معتمد هندي غير مدرب ، وكانت مهمته تقتصر على الشؤون التجارية والقنصلية • ولم تبذل أى محاولة لممارسة أى نفوذ سياسي في المنطقة الا عندما تم تعيين قنصل أوربي بالوكالة ، كما حدث في سنة ١٨٠٠ — ١٨٠٩ وسنة ١٨٤٠ •

ففي عام ١٨٦١ عين اللفتنانت دبليو • ام • بنجلى من ضباط الأسطول الهندي معتمدا سياسيا في مسقط غير ان صلاحيات بنجلى لم تحدد بوضوح كما لم تجدد رتبته في سلسلة القيادات البريطانية في الخليج : اذ ان هذه المسألة لم تسو قبل أن تفاجأ حكومة الهند — الانجليزية بموقف بنجلى المتردد من الثورة التي نشبت ضد السلطان • وقد حل محل بلى ضابط آخر

يدعى الماجور جرين ، ولكنه نقل أيضا وتم تعيين معتمد آخر هو اللفتانت كولونيل هيربرت دسبراو It. Col. Horbert Disprowe ، وذلك في نفس الفترة التي تم فيها تعيين بلى مقيما بريطانيا في الخليج (٣٩) .

ومنذ البداية كان الوفاق معدوما بين بلى ودسبراو . فقد كان دسبراو يعمل مساعد لفلكس جونز سنة ١٨٥٣ وكان يمثل العقلية النسلية ، كما كان يعتقد انه يعرف عن الخليج أكثر مما كان يعرف بلى . وبعبارة أخرى كان دسبراو بمثابة خط الرجعة لعهد مضى وانقضى (٤٠) .

أما بلى فقد كان تصرفه تجاه دسبراو تصرفا دبلوماسيا وكان يعامل معاملة الرئيس لرؤوسيه . وفي أحد خطاباته الى دسبراو طلب بلى بأن يوجه دسبراو جميع رسائله عن طريق ادارة المعتمد البريطاني من أبو شهر غير أن دسبراو فسر هذا الاجراء بأنه محاولة منه لفرض التبعية عليه (وهو ما كان في الواقع) لا غير . ولقد حاول فريير وضع حد للصدام بين الرجلين . فأصدر تعليماته الى دسبراو بارسال تقاريره عن طريق بلى ، أو أى مقيم بريطاني آخر . باعتباره السلطة العليا في المنطقة . وكان بلى يؤيد فريير في هذا الرأي (٤١) . وعلى أى حال فقد ترك فريير لدسبراو منفذا واحدا اذ سمح له بتوجيه رسائله مباشرة الى بومباي في الأحوال الطارئة . غير أن دسبراو ظل يوجه رسائله مباشرة خلال معظم الفترة التي تولى فيها عمله في مسقط . وكان يدافع عن تصرفه هذا بأن الظروف السائدة يومئذ لم تكن ظروفًا عادية .

في سنة ١٨٦٧ غادر دسبراو مسقط لمدة سنتين ، تولى خلالها شؤون

(٣٩) كتاب لوريير مجلد ١ ص ٤٧٢ و ٧٣ .

(٤٠) للاطلاع على رأى دسبراو نفسه في كفاءته ومؤهلاته بالمقارنة الى بلى انظر خطاب رقم ٥١٤ بتاريخ ١٨٦٩/٩/١٥ من دسبراو الى جاون (من سجلات الحكومة الهندية) .

(٤١) خطاب رقم ٢٧٣٧ مؤرخه ١٨٦٥/١١/١٧ من جاون الى دسبراو سجلات حكومة الهند .

الوكالة ضابط شاب يدعى الكابتن جى • اى • اتكنسون • ورغم صغر سنه فقد ظل يكافح لتحرير دار الاعتماد فى مسقط من سيطرة أبو شهر عليها • ولقد ضاق بلى ذرعا بتصرفات اتكنسون الذى حذا حذو سلفه دسبراو الذى كان يرى بأن المعتمد البريطانى لا يمكنه اتخاذ أى إجراء اذا اضطر الى مراجعة أبو شهر فى جميع المسائل • ولقد أظهر بلى تجاه اتكنسون نفس روح الاصرار على موقفه ، كتنفيس عن مشكلته وذلك بمهاجمة كل من لا يتفقون معه فى رأى • وفى سنة ١٨٦٩ عاد دسبراو الى مقر عمله فى مسقط • وحتى شهر يناير سنة ١٨٧٠ عندما أرغم على ترك منصبه • واصل دسبراو معركته ضد المقيم البريطانى • وعند عودة المعتمد الى مسقط سويت هذه المشكلة نهائيا • ومنذ ان استأنف دسبراو عمله فى مسقط أخذ يمطر حكومتى بومبى وكلكتا بسيل مدرار من الرسائل يهاجم فيها بلى ويصفه بالجهل « والتأمر عليه لاضعاف مركزه » وبافتقاره الى روح المجاملة • وسواء كان على حق فى حملته على بلى ، أو لم يكن ، فقد تبين لرؤساء دسبراو فى الهند بأن عقده ضد بلى قد بلغت فى خريف ١٨٧٩ حدا لم يعد معها قادرا على القيام بمسؤوليته على الوجه الأكمل فى رعاية المصالح البريطانية فى عمان • ولقد واجه بلى حملة دسبراو بالهدوء وترك دسبراو يحطم نفسه بنفسه فى سلسلة من رسائل القذف والتشنيع • ويكشف كل هذا أن دسبراو كان خصما عنيدا ، كما يكشف عن بعد نظره وأهميته كممثل لبريطانيا فى الخليج (٤٢) • وفى سنة ١٨٧٠ حل محل دسبراو الماجور أى • كوتون وى A. Cotton Woy • وعلى أى حال فقد تقرر أن يخضع الماجور وى لسلطة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج • وهكذا أصبح المعتمد السياسى فى مسقط خاضعا نهائيا لأبو شهر (٤٣) • وكنتيجة لهذا الإجراء تقرر أن يمارس المقيم سلطة كاملة على الادارة البريطانية فى الخليج ، وبذلك يكون المقيم

(٤٢) خطاب رقم ٤٦٤ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٢١ من بلى الى دسبراو • غير ان دسبراو ظل متمسكا بموقفه واستمر فى ارسال تقاريره وخطاباته الى بومبى مباشرة وكان يهاجم فيها بلى : سجلات حكومة الهند •

(٤٣) خطاب رقم ١٧ مؤرخ ١٨٧٠/١/٨ من دسبراو الى جاون •

مطمئنا بأن جميع رجال الادارة البريطانية في منطقة الخليج يتلقون أوامرهم منه ويقفون وراءه .

بلى وتطور « الحكم غير المباشر » في الخليج :

المشكلة الثالثة التي واجهها بلى هي تقوية العلاقات مع حكام الخليج وذلك لكي يعزز من قدرة المقيم البريطاني على اقرار السلام وتشجيع الجهود المبذولة لتحديث الخليج في وقت كانت حضارة الخليج القديمة تواجه تحديات خطيرة . وقد استخدم بلى طرقا متعددة لمواجهة الوضع ، غير أن استراتيجيته الأساسية ظلت كما هي : فلقد استمر بلى في محاولاته لتدعيم النفوذ السياسي البريطاني بحيث يتسنى للمقيم أن يمارس أكبر قدر من هذا التفوذ في تحديد الجو السياسي في أمارات الخليج والسيطرة على شؤونها الخارجية . وعلى الرغم من العراقيل التي اعترضت بلى فقد تمكن في النهاية من تحقيق نجاح كبير في هذه السياسة واستطاع بلى أثر توليه لمتصب المقيم البريطاني في الخليج عام ١٨٧٢ أن يضع النظام الذي يضمن المصالح البريطانية في المنطقة ، بحيث لا يقتصر هذا الضمان على المعاهدات الخاصة التي تربط أمراء الخليج بالحكومة البريطانية ، ولا على الأجهزة الادارية . أو الأسطول وحسب ، بل وعلى التعاون الفعال من جانب معظم الحكام المحليين للمنطقة . ولقد استعان بلى بطرق كثيرة لايجاد صيغة تجمع بين المصالح البريطانية في الخليج ومصالح الحكام . وهي المصالح التي ورد معظمها في المعاهدات الخاصة التي أبرمت قبل سنة ١٨٦٢ ، وان يكن بشكل مؤكّد دائما . وعن طريق البيانات الرسمية والاجراءات التي كان يتخذها المقيم البريطاني كان يعلن بها عن تصميمه على تأييد حكومته لدول الخليج على اختلافها ابتداء من عمان حتى البحرين . وفي سنة ١٨٦١ ، أي قبل تعيين بلى مقيما بريطانيا في الخليج ، اتخذت حكومة الهند البريطانية أول خطوة من نوعها عندما أعلنت في بيان لها عن ضمان استقلال وأمن حاكم البحرين ضد أي تدخل أو عدوان خارجي (٤٤) . وكان الغرض من اصدار

(٤٤) النص كما ورد في تقرير ايتشيسون — ١٨٩٢ مجلد ١٠ ص ١١٨ كذلك انظر « الوجود البريطاني في الخليج » تأليف ، كيلي .

هذا البيان هو احباط محاولة من جانب الحكومة السعودية لشن هجوم على البحرين بقصد الاخلال بميزان القوى في المنطقة وتهديد السلام • وقد قام بلى بعد تسلمه لمنصبه كمقيم بريطاني في الخليج بترجمة بيانه هذا عمليا عندما أصدر أوامره في سنة ١٨٦٥ ثم في سنة ١٨٦٦ الى السفن الحربية البريطانية بضرب بعض المعقل الساحلية التي كان يحتلها الوهابيون وحلفاؤهم ردا على التهديدات الوهابية للأوضاع الاقليمية القائمة • وأخيرا في سنة ١٨٦٦ حصل بلى على بيان رسمي من عبد الله الفيصل ، حاكم السعودية يتعهد فيه باحترام السيادة الاقليمية لدول الخليج التي ترتبط بمعاهدات خاصة مع بريطانيا (٤٥) • غير ان ربط الحكام العرب في الخليج بعجلة النفوذ البريطانية قد تجاوزت حدودها المقررة ، وهي حماية هؤلاء الحكام من تدخل أو عدوان خارجي الى تأييد هؤلاء الحكام ضد الثورات الداخلية والأعداء الداخليين • ويعتبر هذا الاتجاه خروجاً على القواعد — الانجلو — هندية في الخليج تعارضه الادارة الخارجية لحكومة الهند بشدة • غير ان بلى كان يعمل على أساس فرض الأمر الواقع على كلكتا • وكان يلجأ الى طرق كثيرة لتحقيق هدفه كالتهديد بالقوة البحرية ، وتأييد بعض الحكام ضد البعض الآخر ، واستغلال المساعدات المالية • كل هذه التدابير استعان بها المقيم بلى لدعم موقف الحكام المواليين للحكومة البريطانية ، أو الضغط على العناصر التي ترفض التعاون معه أو تقاوم خطته •

وبإضافة بنود جديدة الى المعاهدة التي تحدد سياسة المنطقة ، ازداد تدخل بريطانيا في الشؤون الداخلية لحكومات الخليج • كما عقدت اتفاقيات ثنائية ، وتعهدات جماعية ، كذلك أضيفت أحكام وقرارات جديدة الى صلب نظام المعاهدات المعمول به بين الطرفين • كما أضيفت نصوص خاصة بالامتيازات الاقليمية للرعايا البريطانيين — وأغلبهم من الهنود — المقيمين في الخليج • كذلك لم يكن المقيم البريطاني قد تردد في استخدام الضغط

(٤٥) الدبلوماسية ، هروترز مجلد ١ ص ١٧٢ •

الدبلوماسية ، أو حتى القوة المسلحة أحيانا ، لحماية التجار الهنود ، أو الحصول على تعويضات مالية لهم اذا ما تعرضت أملاكهم لأى اعتداء .

لقد استخدمت كل الأساليب على اختلاف أشكالها لتوطيد دعائم السيطرة البريطانية فى المنطقة وتعتبر علاقة عمان ببريطانيا خلال الستينات من القرن التاسع عشر مثالا للنمو السريع للنفوذ البريطانى فى احدى دول المنطقة . ففى عمان ، كما كان الحال فى أجزاء أخرى من المنطقة ، تم اتخاذ عدد كبير من القرارات الخاصة لتعزيز التدخل البريطانى فى الشؤون الداخلية للبلاد ، كنتيجة للأوضاع الجديدة المترتبة على التغييرات السريعة التى طرأت على الأسس التقليدية للحياة فى الخليج . وفى عام ١٨٦٥ أصبح فى وسع البريطانيين من غير شك ، التأثير فى شؤون عمان الداخلية ، غير ان نفوذهم لم يكن نفوذا حاسما حتى تلك الفترة . اذ كانت العلاقة بين عمان وبريطانيا لا تزال تقوم على أساس معاهدة التحالف المعقودة فى سنة ١٧٩٨ ، والمعاهدة التجارية المعقودة فى سنة ١٨٣٩ ، الى جانب الاتفاقيات الأخرى بشأن تحريم تجارة الرقيق التى عقدت آخر اتفاقية منها فى سنة ١٨٤٥ .

وفى أعقاب وفاة السيد سعيد ، أخذ الوضع يتغير . فخلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٦١ كانت عمان تعاني من صراع مرير بين أبناء الحاكم الكثر ، حيث كان كل منهم يسعى للاستئثار بالحكم . ولكى يتفادى البريطانيون اتساع نطاق هذا الصراع الذى يمكنه أن ينشر الفوضى على امتداد منطقة حوض المحيط الهندى اقترحوا على المتنازعين على الساطة باحالة الخلاف على هيئة تحكيم هندية بريطانية . وبعد اجراء تحقيقات فى هذا النزاع أعلن اللورد كاننج فى سنة ١٨٦١ ، نائب الملك فى الهند تقسيم عمان كحل للخلاف . وبمقتضى هذا الحكم انقسمت الامبراطورية العمانية الواسعة الى دولتين : دولة افريقية غنية ، ودولة أسيوية فقيرة مقرها مسقط . ومراعاة للعدالة فى عملية التقسيم المذكورة تعهدت الدولة العمانية الافريقية فى زنجبار بدفع تعويضات مالية منتظمة لسلطنة مسقط فى حدود ٤٠٠٠٠ ريال نمسوى كل عام ، كما تقرر أيضا بموجب هذا الحكم أن يستمر

هذا الحل على تعاقب الورثة من حكام الدولتين ، وأطلق لقب « سلطان » على كل حاكم منهما • كما اعتبر التعويض المالى السنوى الذى تدفعه حكومة زنجبار لسلطان مسقط ثمنا لقاء تنازل الأخير عن كل حقوقه ومطالبه فى انقسم الافريقى من المملكة (٤٦) • وفى سنة ١٨٦٢ ، وبدون علم بلى ، أو فريير ، أو حكومة كلكتا ، اتفقت حكومة لندن مع الحكومة الفرنسية على اصدار بيان مشترك تعلنان فيه احترامهما لاستقلال كل من المملكتين العمانيتين الآسيوية والافريقية ، مع تصديقهما للحكم الذى أصدره اللورد كاننج (٤٧) غير أن هذا البيان البريطانى - الفرنسى المشترك قد كلف البريطانيين ثمنا باهظا فيما بعد •

وعلى الرغم من أن حكومة كلكتا كانت تنادى بسياسة «عدم التدخل» فى شؤون عمان • الا أن الحكومة البريطانية نفسها لم يكن فى وسعها التقيد بهذا الشعار وفقا لحكم كاننج • وبالتالي فإن المناسبات الكثيرة التى تدخلت فيها بريطانيا فى الشؤون الداخلية لعمان ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ ، انما تعكس التدخل المتزايد بين سياسة حكومة الهند البريطانية كما كان يطبقها المقيم بلى ، والأحداث الداخلية فى المنطقة وما بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٥ تدخل بلى أكثر من مرة فى النزاع العمانى الوهابى ، انطلاقا من رغبته الشخصية فى الدفاع عن بلد ، كان يعتبره « مركزا متقدما للحضارة » • ومن خلال هذه السياسة شارك بلى فى تنظيم القوى المناوئة للسعودية فى عمان ، كما قذف بعض المعازل السعودية فى القطيف والدمام ، ودمر بعض السفن التابعة لقبائل الجنبه الموالين للوهابيين فى عمان ، وفرض على أفرادها دفع غرامة قدرها ٢٧٧٠٠ ريال نمسوى ، عقابا على اعتدائهم على ممتلكات المرعيا الهنود فى إقليم صور • وأخيرا استطاع بلى أن يستكتب الحاكم السعودى فى سنة ١٨٦٦ تعهدا يلتزم فيه بعدم التعرض لامارات الخليج

(٤٦) للاطلاع على النص راجع تقرير ايتشيسون - ١٩٢٣ - مجلد ١ ص ٣٠٣ •

(٤٧) « الدبلوماسية » ، تأليف هروتر جزء ١ ص ١٦٨ - ١٦٩ •

وعمان التي تربطها بالبريطانيين معاهدات خاصة (٤٨) . أما الشيء الآخر الذي تمخض عن حكم كاتنج ، فهو ان الحكومة البريطانية وجدت نفسها ملزمة بالاشراف على عملية دفع التعويض المالى المستوى الذى تعهدت حكومة زنجبار بدفعه لسلطان مسقط ، أو حتى التعهد بدفعه من جانبها اذا لزم الأمر . ففى الستينات من القرن التاسع عشر كثر عدد المطالبين بالسلطة فى عمان وكان من الواضح ان اعتراف بريطانيا بأى من هؤلاء كحاكم للبلاد سوف يعزز من مركزه ويخوله الحصول على التعويض السنوى من زنجبار ، حتى ولو لم يكن يؤيده الشعب ، ولقد ازدادت أهمية هذا التعويض بالنسبة لحكام عمان بعد الأزمة التى تعرضت لها الحركة التجارية فى عمان فى الستينات ، هذه الأزمة التى سببت انخفاضا فى حاصلات الجمارك ، التى كانت تشكل المصدر التقليدى الرئيسى للدخل الحكومى . وتتضح أهمية اعتراف الحكومة البريطانية بحكام عمان أو عدم الاعتراف بهم مما كتبه المقيم البريطانى فى الخليج ليويس بلى الذى يقول : « على الرغم من أن السكان العرب يعلمون ان اعتراف بريطانيا بالحاكم لا يعنى تأييدها له ، فانهم ، وجميع الرعايا البريطانيين المقيمين فى البلاد متأكدون ، بأن مثل هذا الاعتراف ضرورى لتأمين الثقة فى الحركة التجارية التى يتركز معظمها فى أيدي رعايانا الهنود ... اذ أن العرب يعتبرون عدم الاعتراف كدليل على رغبتنا فى تغيير الحاكم ، وبالتالي فان مثل هذا الاعتقاد يثير الشكوك بالنسبة للمستقبل » (٤٩) وبفضل التأييد البريطانى والتعويض المالى من زنجبار ، استطاع سالم بن ثوينى الاحتفاظ بالحكم من سنة ١٨٦٦ حتى

(٤٨) للاطلاع على النزاع العماني السعودي خلال هذه الفترة ، والتدخل البريطانى فى المنطقة ، راجع « مختصر تاريخ نجد » من ص ٧ الى ص ٣٠ و « عمان » اعداد شركة النفط العربية الامريكية ص ٢٠ — ٢٤ و ٢٥٥ — ٢٥٧ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٤ — ٤٧٥ و « مختصر تاريخ حاكم ساحل الصلح » ص ١١ — ٢٥ و « الدولة السعودية » ، تأليف ونذر ص ٢١١ — ٢١٥ و « التحفة » للسالى ص ٢٢٣ — ٢٢٥ و « جزيرة العرب وحدودها الشرقية » ص ٨١ — ٨٦ و « انطباعات عن العربية السعودية » جزء ١ ص ٢٢٦ — ٢٤٠ .
(٤٩) خطاب رقم ١٤٥ — ١٧ بتاريخ ١٣/٢/١٨٧١ من المقيم البريطانى بلى الى دوق ارجيل .

سنة ١٨٦٨ بالرغم من عدم تأييد العمانيين له ، بينما لم يستطع عزان بن قيس المؤيد من جانب الشعب أن يستمر في الحكم أكثر من ثلاث سنوات ١٨٦٨ — ١٨٧١ لعدم اعتراف البريطانيين به أو تأييدهم له • ولم يكن في وسع أى حاكم عمانى أن يبقى في السلطة ، اذا لم يكن البريطانيون راضين عنه • ولقد ذهب أحد الزعماء العمانيين الى حد قبوله الحماية البريطانية ، مقابل تأييد الانجليز له • غير أنه لم يحصل على رد ملزم من جانبهم (٥٠) وفي سنة ١٨٧١ عندما حاول تركى بن سعيد ، نجل السيد سعيد ، الاستيلاء على السلطة وطرد الحاكم ، أبلغ الانجليز مقدما بتحركاته حتى يضمن تأييدهم له (٥١) • وبمجرد أن استولى على الحكم طالب بريطانيا بالاعتراف به ودفع التعويض المالى لحكومته مقابل تأييده لسياستهم (٥٢) وبهذا أكد تركى أنه أداة طيعة في يد الانجليز ، ففى عهده (١٨٧١ — ١٨٨٨) تحولت عمان الى باد تابع للحكومة البريطانية كما كان عهده بداية للنفوذ البريطانى غير المباشر في عمان •

وفي الستينات أثير موضوع السيادة الاقليمية على الرعايا البريطانيين في عمان ، بعد أن ساءت الأحوال هناك وما ترتب على ذلك من أهمية توفير الحماية البريطانية لهم • فلقد كان هؤلاء الرعايا يتمتعون بامتيازات عملية أخرى في ذلك الوقت كاعفائهم من قانون التفتيش أو الحجز ، والتدخل المباشر من جانب السلطات المحلية في شؤونهم • كما كانوا معفيين من جميع الضرائب التى يدفعها سكان البلاد ، ومن تسديد الديون التى تستحق عليهم في حالات الافلاس ، ومساعدتهم على استيفاء ديونهم الى جانب اشتراك المعتمد السياسى في محاكمة أى فرد منهم في القضايا الجنائية •

-
- (٥٠) خطاب رقم ١٥٦ — ١٩ مؤرخ ١٨٧١/٢/١٩ من بلى الى دوق ارجيل (من السجلات الرسمية لحكومة الهند ٢) م ١٧ •
- (٥١) خطاب مؤرخ ١٨٧١/١/١ من تركى بن سعيد الى وى •
- (٥٢) خطاب مؤرخ ١٨٧١/٣/١٣ من تركى بن سعيد الى بلى وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٣١٤ — ٣٧ بتاريخ ١٨٧١/٣/١٢ من بلى الى دوق ارجيل • وخطاب آخر بتاريخ ١٨٧١/٢/١٢ من تركى بن سعيد الى حكومة بومبى وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٣٤/١٥٤ مؤرخ ١٨٧١/٢/١٣ من بلى الى دوق ارجيل •

• وكان في عمان فئتان من الرعايا الهنود الذين يطالبون بالحماية البريطانية • فئة تعيش في عمان منذ أجيال عديدة ، وفئة البحارة الذين من أصل عماني هاجروا الى الهند للعمل كبحارة في السفن وسجلوا أنفسهم كرعايا هنود وحصلوا بموجب ذلك على الجنسية الهندية ، ثم عادوا الى عمان وطالبوا بالحماية البريطانية (٥٣) • وفي سنة ١٨٧٠ طلب موظفو شركة الهند البريطانية للملاحة اعفاءهم من الضرائب بحجة انهم تابعون للحكومة البريطانية بحكم عملهم في شركة بريطانية • وعلى الرغم من ان الشركة قد تتعرض لمشاكل كثيرة فيما لو حرمت من خدمات مثل هؤلاء الموظفين ، الا ان الحكومة البريطانية كانت توفر لهم الحماية اللازمة ، بالرغم من انها كانت تشك في سلامة مثل هذا الاجراء ، ومن الجائز أن لا يحدث هذا الا اذا أحس الموظف المعنى بغبين يقع عليه كنتيجة لفرض ضريبة باهظة عليه (٥٤) • غير ان مثل هذه الاجراءات لا بد وان تثير مشاكل بين الحكومة البريطانية والسلطات المحلية في عمان • فوجود جالية هندية بريطانية كبيرة في مسقط غالباً ما كان يتخذ ذريعة للتدخل البريطاني في شؤون عمان الداخلية • وحتى سنة ١٨٦٧ كان المعتمد السياسي والقنصل البريطاني في مسقط يمارس سلطة قانونية على الرعايا البريطانيين المقيمين ، وذلك بموجب معاهدتي سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٣٩ ، وكان العمل بهذا يتم وفقاً للقوانين البريطانية المعمول بها في الهند ، ويمكن استئناف أحكام المعتمد البريطاني لدى المحكمة العليا في بومبي وفي سنة ١٨٦٧ حاول المجلس القانوني توضيح ماهية سيادة القنصل البريطاني في مسقط ، غير أن هذا الموضوع ظل على غموضه ولم يكن هناك سجل دقيق للرعايا البريطانيين المقيمين في عمان ، كما ان المسائل التجارية لم تكن تنظر أمام المحاكم القنصلية ، لأن السلطة القانونية لهذه المحاكم

(٥٣) خطاب رقم ٣٨ مؤرخ ١٨٧٠/٧/٢٠ من وى الى بلى •

(٥٤) خطاب رقم ٤٧٠ مؤرخ ١٨٧٠/٩/٢٤ من وى الى بلى — من سجلات

حكومة الهند المجلد ١٦ •

سواء في مسقط أو في غيرها من أقطار الخليج كانت محدودة جدا ، كما لم تكن المعاهدات تتضمن نصوصا محددة لسلطة القناصل على رعايا الولايات الهندية (٥٥) . ولم تحل هذه المشكلة الا بعد مغادرة بلى للخليج . ومن ناحية أخرى فقد أدت محاولات بلى لتدعيم وتحديد السيادة الإقليمية البريطانية في عمان الى المزيد من التدخل في شؤونها الداخلية . كذلك اتضح خلال الفترة المذكورة نوع العلاقة بين عمان وبريطانيا ، كما كان يتصورها البريطانيون . وحتى العشرينات من القرن التاسع عشر كانت الثقافة الشرقية موضع احترام الغربيين ، غير أن هذا الوضع قد تغير فيما بين سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٧٠ تحت تأثير فكرة التطور وجماعة الانجيليين . وعلى الرغم من أن العمانيين يعتبرون أكثر عرب الخليج تحضرا الا أنهم في نظر هؤلاء مازالوا شعبا يحتاج الى الثقيف والتحكم في مقدراته (٥٦) . وبالتالي فمن الطبيعي أن يرى المسؤولون البريطانيون ان تدخلهم في الخليج ومحاولاتهم لفرض الأنماط الغربية للحياة السياسية ومفاهيمها ، ان هو الا عمل سليم . ومن هذا الاعتقاد يستمد البريطانيون مفهومهم للحاكم العربي الصالح — أى الحاكم الذى يتعاون معهم وينقاد لنصائحهم وتوجيهاتهم ، بينما يعتبر الحاكم الذى يرفض التعاون حاكما « منحرفا وهمجيا » . وفي عام ١٨٧١ أصبح البريطانيون برغبة أو غير رغبة منهم سادة الموقف في الخليج . فكافوا لا يؤيدون أى حاكم من حكامه الا اذا كان مستعدا للتعاون معهم والانصياع لتوجيهاتهم .

وفي الستينات من القرن التاسع عشر حدد البريطانيون موقفهم من الجناحين الأباضيين اللذين كانا يتنازعا الحكم في عمان ، الجناح المعتدل ، والجناح المحافظ . ولقد كان لهذا التحديد تأثيره الكبير على وضع السياسة

(٥٥) تقرير ايتشيسون — ١٩٠٩ وسنة ١٨٩٢ م ١١ ص ٧٨ و « مختصر اريخ الخليج » ص ٨٧ .

(٥٦) كتاب لوريمر جزء ١ ص ١٣٩١ .

الداخلية في البلاد في أواخر القرن التاسع عشر • وقد استمر حكم المعتدلين الذين كانوا يتعاونون مع الانجليز ابتداء من عهد الامام أحمد • أما قبل سنة ١٨٦٨ فقد كان الاعتقاد السائد من المحافظين انهم جماعة ساذجة متعصبة كل هدفها هو القضاء على الأنظمة الموالية للانجليز في عمان • ولكن عندما تولى الامام المحافظ عزان بن قيس الحكم فيما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧١ فوجيء الرسميون البريطانيون باستقرار الأوضاع في البلاد وذلك على عكس ما كانوا يتوقعون • غير ان هذه المرحلة شهدت بعض الأحداث التي اصطدمت فيها المصالح العمانية بالمصالح البريطانية ، كما شهدت انكماش ملحوظا في النشاط التجاري • وظلت الأوضاع في تأرجح طوال بقاء السلطة في يد المحافظين • وما أن تمكن الحاكم المعتدل تركي بن سعيد من انتزاع السلطة من المحافظين سنة ١٨٧١ حتى وجد البريطانيون مستعدين للاعتراف به وتأييد حكمه • ومنذ ذلك التاريخ ظل البريطانيون يؤيدون باستمرار الحكم المعتدل في عمان ، بل وكانوا يقاومون بالقوة المسلحة كل محاولة يقوم بها المحافظون في عمان لاسترجاع الحكم •

بعد هذا بدأ الانجليز ينظرون الى الدولة العمانية من وجهة النظر الأوربية العصرية للدولة أي على أساس ولاء الشعب للحاكم الشرعي في مسقط دون أن يضعوا في حسابهم تاريخ عمان الحافل بالقلق والاضطرابات وبالتالي أصبح كل من يعارض الحاكم في مسقط أو يثور على حكمه يعتبر في نظرهم متمردا أو اهابيا ، أو قاطع طريق ، أو « قرصانا » بل « وقاتلا » أو مجرما • أما من وجهة نظر الشعب ، فقد كان كل حاكم لا يستمد حكمه من شريعة الدين ، حاكما غير صالح يرفضه الشعب ويقاومه ، وان مما كان يعتبر في نظر العمانيين المحافظين جهادا في سبيل الله ، كان يعتبر في نظر البريطانيين شغباً أو تمردا على النظام • ومن ثم فإن الفكرة التي كونها البريطانيون عن عمان لم تكن تتفق وحقائق الوضع • وتعتبر الفترة التي كان بلى يشغل فيها منصب المقيم البريطاني في الخليج فترة بالغة الأهمية ، فهو الذي تزعم فكرة ترسيخ النفوذ البريطاني في المنطقة ، بالرغم من أن بعض الشخصيات الهامة في حكومة كلكتا كانت تعارض سياسته • كما نجح

بلى أيضا فى حمل حكومة كلكتا على الموافقة على اقتراحه بوجوب خضوع جميع المسؤولين من عسكريين ومدنيين فى الخليج لسلطة المقيم • غير ان بلى رغم ذلك لم يستطع أن يمنع وقوع عمليات انتهاك خطيرة للسلام فى المنطقة خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٦٨ ، غير أن أسباب هذا الفشل تعود الى عدم وجود الأسطول البريطانى فى مياه الخليج خلال تلك الفترة • والى جانب ذلك قام بلى فى أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر بدور كبير فى توثيق علاقة حكومته بكثيرين من أمراء الخليج العرب • كما استغل هذه فى دعم النفوذ البريطانى فى المنطقة ، غير انه لم يتمكن من بث الدوافع اللازمة للتطور الاقتصادى فى المنطقة أو اقناع أهلها بالتخلى عن تقاليدهم وقيمهم فى سبيل اعتناق الأفكار الجديدة للحياة العصرية •

لقد تدخل بلى فى شؤون الخليج الداخلية بشكل لم يسبقه اليه أى مسؤول بريطانى ، ويوم ترك منصبه كان قد حقق بطرقه المتنوية بعض التغييرات فى طريقة العلاقات بين بريطانيا وعدد من امارات الخليج العربى ، وان لم تكن تغييرات حاسمة • وحتى سنة ١٨٦٢ كانت الفرصة لا تزال مؤاتية لاجداث تغييرات هامة فى سياسة المنطقة وفى أجهزتها الادارية المحلية دونما حاجة الى استخدام بريطانيا لنفوذها أو اشراكها فى اتخاذ القرارات الخاصة بتلك التغييرات • كما ان احداث مثل هذه التغييرات ، أو على الأقل تحقيقها بصفة دائمة لم يعد ممكنا بعد سنة ١٨٧٢ بغير موافقة الحكومة البريطانية •

ادوار روس — وذروة الوجود البريطانى فى الخليج

١٨٧٢ — ١٨٩٢

فى سنة ١٨٧٢ انتهت خدمة ليويس بلى فى الخليج ، وعين ادوار شارلس روس ، أحد المسؤولين الذين كانوا يعملون تحت امرة بلى فى جواذر ثم مسقط ، خلفا له كمقيم بريطانى فى الخليج • وكان ثمة بون واسع بين شخصيتى المقيمين البريطانيين وطريقة تفكير كل منهما • وعلى

حين كان روس أقل عجباً بنفسه وحباً للظهور من سلفه ، فقد كان مثله في الحيوية والنشاط وأكثر لباقة في تعامله مع رؤسائه ومرؤوسيه من ناحية ، وحكام الخليج من ناحية أخرى • ولئن كان هدف بلى الأساسى هو توفير الشروط اللازمة لاقامة المجتمع العصرى في الخليج ، فإن روس كان يركز اهتمامه على الشؤون الادارية والسياسية في أضيق صورها • وإذا كان بلى يسعى الى تحقيق عصر جديد للخليج ، فإن روس كان يهتم بتدعيم الوجود البريطانى وازفاء المزيد من الشرعية عليه • وعلى الرغم مما أظهره روس من روح العالم في دراسته لتاريخ الخليج ، فإنه لم يكن يشاطر بلى حماسه الصليبي في الدعوة للقيم والتقاليد الحديثة • صحيح ان روس قد حذا حذو سلفه في دعم النفوذ البريطانى في الخليج ، غير ان اهتمامه كان ينصب على تحقيق الاستقرار السياسى كشرط أساسى لدعم المصالح الامبريالية البريطانية أكثر منه لتوفير الشروط السياسية اللازمة لاقامة المجتمع المدنى الحديث في المنطقة •

في سنة ١٨٧٤ استولى حزب المحافظين على مقاليد السلطة في لندن ، وفي سنة ١٨٧٦ عين دزرائيلى اللورد ليتون (Lytton) ذا النزعة الاستعمارية نائبا للملك في الهند • وعندئذ انتهت مرحلة سياسة « عدم التورط » و « المواقف السلبية » لتفسح الطريق لسياسة القرن التاسع عشر الامبريالية التوسعية • وبالتالي لم يواجه روس الموقف الذى كان يواجهه من اهمال حكومتى لندن وكلكتا لشؤون الخليج • وعلى أى حال فخلال اقامة روس في منطقة الخليج كانت حكومة الهند البريطانية مشغولة بمشكلات الحدود مع ايران ، وأفغانستان ، وبرما ، وتايلاند • في ذلك الوقت لم يكن قطاع الخليج العربى من حدود الهند الدولية ، يتعرض لتهديد أى دولة من الدول العظمى ، وبالتالي كانت الفرصة مهيأة أمام روس لتوجيه اهتمامه الى شؤون الخليج كما يشاء • وفي الفترة بين ١٨٨٧-١٨٩٢ توج روس فترة خدمته في الخليج بعقد سلسلة من المعاهدات بين بريطانيا والامارات العربية • وبهذه المعاهدات حدد روس طبيعة الحماية البريطانية

(م ١٦ — عمان)

للخليج وعززها وفقا لسياسة الأمر الواقع • وعلى الرغم من أن امارات عربية أخرى في الخليج قد انضمت الى القائمة فيما بعد ، الا أن الأسس القانونية للوجود البريطاني في الخليج وفق التعديلات التي أدخلها روس عليها ، لم تتغير من حيث الأساس ، الا بعد أن اعترفت بريطانيا باستقلال الكويت اعترافا قاطعا في سنة ١٨٦١ (٥٧) • ولم يحدث في تاريخ الخليج ان مارس مقيم بريطاني في الخليج ما مارسه ادوارد روس من نفوذ عليه • فكانت توصياته واقتراحاته تجاب على الفور ، كما كان له نفوذ واحترام بين حكام الخليج بفضل الهيبة التي يتمتع بها في المنطقة • كذلك فان معرفته الموسوعية بالتراث الشعبي للخليج ، وكفاءاته الادارية ، ولباقته ، ودقة أحكامه كل هذه العوامل قد أسهمت في القرارات المستقلة التي كان يتخذها •

معاهدة حظر تجارة الرقيق سنة ١٨٧٣ :

المرّة الوحيدة التي تم فيها اتخاذ قرار سياسي هام يمس الوضع في الخليج دون الرجوع الى المقيم البريطاني في المنطقة هي القرار الذي اتخذ في سنة ١٨٧٣ بعد تسلم ادوارد روس لمنصبه مباشرة ، وقد وقع بموجب هذا القرار كل من سلطان مسقط وسلطان زنجبار على وثيقة يتعهدان فيها بحظر عمليات تصدير الرقيق أو استيراده حظرا باتا • وذلك بعد أن استهدفت تجارة الرقيق لهجوم عنيف من جانب بعض الفئات الدينية في بريطانيا منذ أوائل القرن التاسع عشر • وفي سنوات ١٨٢٢ و ١٨٣٩ و ١٨٤٥ أرغمت الحكومة البريطانية امبراطور عمان السيد سعيد على التوقيع على معاهدات تحد من تجارة الرقيق في أراضيه (٥٨) • وعلى أي حال فحتى سنة ١٨٧٠ كانت هذه التجارة لا تزال مزدهرة الى حد كبير ،

(٥٧) ظلت جميع المعاهدات المعقودة أيام الحكم البريطاني في الهند مع امارات الخليج سارية المفعول بعد استقلال الهند سنة ١٩٤٨ • وقد حلت وزارة الخارجية البريطانية محل حكومة الهند في الاضطلاع بمسؤولية تطبيق هذه المعاهدات •

(٥٨) تقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ ص ٢٨٩ — ٣٠١ م ٤٠ •

ولم ينل الا عدد ضئيل من العبيد حريتهم • كما ان عرب المنطقة ظلوا متمسكين بهذه العادة لأنها تجارة مربحة ومشروعة في نفس الوقت • وحتى أوائل القرن الحالى كان اقتناء العبيد من العادات المألوفة في شبه الجزيرة ، كما كان أى انتقاد لهذه العادة يلقي اعتراضا واستهجانا في الأوساط الاجتماعية • فالدين العماني يبيح اقتناء العبيد ، بينما يجيزه النظام الاجتماعى •

في الستينات من القرن التاسع عشر تجددت الحملة لمكافحة الرقيق في منطقة المحيط الهندي • وكان يتزعم هذه الحملة الدكتور ديفيد ليفنجستون (David Livingstone) وفي سنة ١٨٧٠ تألفت لجنة للتحقيق في هذا الموضوع وتقدمت بتقريرها الى البرلمان ^(٥٩) • وفي سنة ١٨٧٢ أوفدت الحكومة البريطانية السير بارتل فرير ، أحد المناهضين للرقيق الى كل من سلطان زنجبار وسلطان مسقط لمفاوضتهما في عقد معاهدات تحد من تدفق الرقيق الى بلديهما • وقد نجح فرير في اقناع برغش بن سعيد ، سلطان زنجبار بحظر هذه التجارة ، غير ان هذا لم يحدث الا بعد أن وجه الى السلطان انذارا شديد اللهجة بهذا الشأن ، أما تركى بن سعيد ، سلطان مسقط ، فقد أبدى استعدادا بمحض رغبته في وقف هذه التجارة • وبهذا الصدد وقع تركى اتفاقا مع فرير تعهد فيه باتخاذ الاجراءات القانونية اللازمة لتحريم استيراد الرقيق الى بلاده وأصدر مرسوما بذلك جاء فيه : « ليكن معلوما للعموم اننا نمنع منعا باتا جميع أنواع الاتجار بالعبيد ، سرا أو علنا ، وكل من يخالف هذا الأمر ويتعامل في بيع وشراء العبيد في جزء من مملكتنا أو توابعها سوف يقبض عليه وتصادر أملاكه » ^(٦٠) • غير ان تركى

(٥٩) اصطياد العبيد : (من سجلات وزارة الخارجية البريطانية . ملخص تقرير أعدته لجنة التحقيق في تجارة الرقيق في أفريقيا الشرقية وقدم الى ايرل اوف كلارندن .

(٦٠) نص المرسوم الذى أصدره السلطان تركى بن سعيد وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٥٧٢ — ٣٠ مؤرخ ٣٠ مايو ١٨٧٣ من روس الى دوق أرجيل . راجع أيضا تقرير ايتشسون — ١٨٩٢ . وللإطلاع على نص المعاهدة يمكن الرجوع الى كتاب « سيرة حياة فرير » ص ٦ — ٧ ، تأليف : مارتينو .

بإصداره لهذا المرسوم قد قامر بشعبيته ارضاء للبريطانيين ولكسب تأييدهم له • ولعل تركى بن سعيد اضطر الى مجاراة البريطانيين فى هذا الموضوع بسبب سوء الحالة المالية • اذ بعد توقيعہ على الاتفاق المذكور تسلم تركى من فرير ٤٠٠٠٠ ريال نمسوى كما تقرر أن يدفع اليه مبلغ ٢٠٠٠٠ ريال نمسوى أخرى بعد مضي ثلاثة أشهر على توقيع الاتفاق • وقد ساعد هذا المبلغ السلطان تركى على دعم حكمه المنهار فى البلاد (٦١) •

أما النتيجة الأساسية التى تمخضت عنها معاهدة حظر تجارة الرقيق لسنة ١٨٧٣ فهى اعتماد عمان أكثر على التأييد البريطانى • كما ضاعفت من اعتماد السلطان على الانجليز فى النواحي المالية • ومن المؤكد ان مسألة التعويض الذى تعهدت حكومة زنجبار بدفعه لسلطان مسقط ، كانت ترتبط برمتها ارتباطا وثيقا بالمفاوضات التى سبقت توقيع معاهدات حظر تجارة الرقيق المعقودة سنة ١٨٧٣ على اختلافها • فخلال المحادثات التمهيدية للاتفاق على هذا التعويض أكد سلطان زنجبار انه لا يستطيع دفع التعويض المقترح ، والتنازل فى الوقت نفسه عن الرسوم التى تدخل خزينته من تجارة الرقيق ، كما كان ينص على ذلك حكم كاننج الصادر سنة ١٨٦١ • وقد أخذت حكومة لندن وجهة نظر السلطان هذه بعين الاعتبار • ومن ناحية أخرى أشارت حكومة الهند البريطانية الى أن عمان قد تفقد ثقتها فى الحكومة البريطانية اذا لم تحصل على التعويض ، مما سيؤدى الى فشل نظام المعاهدات الخاصة الذى رسمته بريطانيا لربط امارات الخليج بعجلة نفوذها • ولما كانت حكومة الهند فى ذلك الوقت تمر بأزمة مالية فقد طلبت الى حكومة لندن أو تتكفل بدفع التعويض السنوى الى سلطان مسقط ، اذا تقرر اعفاء سلطان زنجبار من هذه المسؤولية • وكانت هذه المشكلة لا تزال قائمة عندما طالب بارنل فرير حكومة الهند فى سنة ١٨٧٣ بأن تتحمل

(٦١) خطاب رقم ٥٧١ — ٤٩ بتاريخ ٣ مايو سنة ١٨٧٣ من روس الى دوق

ارجيل •

دفع التعويض لحاكم مسقط مكافأة له على توقيع الاتفاق الخاص بتحريم
تجارة الرقيق • وبمضى الوقت أصبح دفع هذا التعويض يشكل عبئا على
حكومة الهند • وبالتالي على الرغم من احتفاظ المعونة السنوية التي تدفع
عن زنجبار بطابعها حتى سنة ١٨٧٣ ، فقد تحولت الى مكافأة تدفعها السلطات
البريطانية الى حاكم عمان • ولما كان هذا المبلغ يشكل جزءا هاما من دخل
السلطان ، فقد كان البريطانيون يستغلونه كأداة للضغط على السلطان
للسير في ركابهم (٦٢) •

وقد تأزم موقف السلطان من جراء اتفاقيته مع الانجليز الذي لم
يؤيده الشعب فيها ، ومن ثم أصبح التأييد السياسى والعسكرى البريطانى
للسلطان مسألة حياة أو موت لبقائه فى الحكم • وفى سنة ١٨٧٣ وقع
السلطان على معاهدة أخرى تجيز للبريطانيين اتخاذ كافة التدابير اللازمة
لقمع تجارة الرقيق وتصنيفها ، كما تطلق أيديهم فى التصرف بتجار العبيد
وفى العبيد أنفسهم ، كما والتصرف فى السفن التى تستخدم فى هذه
الأغراض ، وتسيير دوريات بحرية فى المياه العمانية لمطاردة تجار العبيد
وسفنهم •

وعلى الرغم من المعاهدات التى وقعت فى سنة ١٨٧٣ ، الا ان القضاء
على تجارة الرقيق لم يتم بشكل فعال قبل سنة ١٩٠٢ • وحتى بعد هذه
الفترة استمرت بعض مجموعات من العبيد تصل خلصة الى البلاد • غير ان

(٦٢) دوق ارجيل الثامن — السر جورج دوغلاس — ذكرياته وسيرة
حياته ، تأليف دوق ارجيل (طبعة لندن ١٩٠٦) ص ٢٧٧ ج ٢ • وخطاب
رقم ٩٢ — ١٢ مؤرخ ١٨٧٣/١/٢٥ وخطاب رقم ٥٧٢ — ٥٠ بتاريخ ١٨٧٣/٦/٣
من روس الى دوق ارجيل و « محاضر » وزارة شؤون الهند ١٨٧٥/٤/١٩
و « سيرة حياة فريير » ، تأليف مارتينو جزء ٢ ص ٦٦ — ٧٠ وكتاب « اصطيات
العبيد » ص ٣٨٦ ، اعداد كولومب وجاء فيه « ان السلطان كان يحصل على
١٠٥٠٠ ج . س من تجارة الرقيق وهو مبلغ يعادل ٥٢٥٠٠ ريال نمسوى •
وهذا قبل أن توضع اتفاقيات ١٨٧٣ موضع التنفيذ .

محاربة البريطانيين لتجارة الرقيق وتجارها قد جلبت سخط أهل عمان (٦٣) كما ان مرابطة الطراد البريطانى « لندن » بالقرب من سواحل زنجبار بين سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٨٣ كاد أن يقضى قضاء تاما على تجارة الرقيق ، غير ان هذه التجارة عادت فانتعشت بعد سنة ١٨٨٣ عندما انسحب الطراد من مياه زنجبار . وفى التسعينات نشطت هذه التجارة على يد ملاحى صور تحت حماية العلم الفرنسى مما حال بين تفتيش السفن المثبتة فيها من جانب الأسطول البريطانى ، وأساء الى العلاقات الانجلو — فرنسية قبل أن تتم تسوية هذا الخلاف (٦٤) .

الادارة البريطانية فى الخليج فى عهد روس

وصل نشاط ادارة المقيم البريطانى فى الخليج الى ذروته فى عهد روس . كما ان النظام فى هذه الادارة لم يكن معقدا جدا فى أواخر القرن التاسع عشر . وفى سنة ١٨٧٣ أنهى ارتباط المقيم بحكومة بومبى ، وأصبح تحت امرة الادارة الخارجية لحكومة كلكتا مباشرة . غير ان هذا لم يؤد الى تغييرات كبيرة فى الادارة الفعلية للمقيم البريطانى فيما عدا ان القرارات والتوصيات التى يتخذها المقيم لم تعد تقوم عن طريق حكومة بومبى ، وانما توجه الى حكومة كلكتا مباشرة . وقد بلغ عدد الضباط والمسؤولين والعسكريين الذين يعملون تحت سلطة المقيم بضع مئات . وفى أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر بلغ ما أنفقته حكومة الهند على أعمال المقيم فى الخليج نحو ٨٠٠٠ جنيه استرلينى ، كما أسهمت بمبلغ ١٢٠٠ ج . س . كنفقات لبعض القوات الهندية المرابطة فى منطقة الخليج ، بينما كانت تنفق أكثر من ٣٠٠٠٠ ، على وحدات الأسطول البريطانى العاملة فى المنطقة (٦٥) .

(٦٣) كتاب لوريمر مجلد ٢ ص ٢٥٠٠ — ٢٥١٤ .

(٦٤) التقرير الادارى — ١٨٨٥ — ٨٦ ص ٨ — ٩ و Precis slave

ص ٤٩ — ٥٥ .

(٦٥) انظر الدبلوماسية لهروتز ج ١ ص ٢٢٧ .

ويعتبر المعتمد السياسى والقنصل البريطانى فى مسقط الشخصية الهامة الثانية فى الخليج • وعلى الرغم من ان عدد من الأشخاص قد تناوبوا على شغل هذا المنصب ، الا أن اللفتانت كولونيل سمويل مايلز (Lt. Col. Sumnel B - Miles) الذى يشاطر روس اهتمامه بتاريخ الخليج قد أمضى أطول فترة فى هذا المنصب • بدأ مايلز حياته العملية فى المنطقة العربية أولا فى عدن سنة ١٨٦٧ ، ثم عين معتمدا سياسيا فى مسقط سنة ١٨٧٢ ، حيث استمر فى هذا المنصب حتى عام ١٨٨٧ ، « وكمعتمد سياسى » كان مايلز يعتبر مسؤولا تابعا لحكومة الهند البريطانية ، بينما مسؤوليته كقنصل تعود الى وزارة الخارجية البريطانية فى لندن •

وعلى الرغم من أن بلى قد كسب الجولة الرئيسية فيما يتعلق بوضع القوة البحرية فى الخليج بالنسبة للنظام البريطانى المطبق فى المنطقة ، فان روس قد خاض معركتين فى سبيل هذه الفكرة • وابتداء من سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٨٧٦ كانت ترابط باستمرار السفينة الحربية هيو روز (Hugh Rose) من البحرية الهندية التابعة لاقليم بومباى تحت تصرف المقيم • وعندما سحبت هذه السفينة عام ١٨٧٦ لم تحل محلها سفينة حربية أخرى ولقد طالب روس بايفاد سفينة حربية أخرى بدلا من السفينة المسحوبة ، وقال بأن وجود سفينة كهذه ضرورى بالنسبة للمقيم البريطانى حتى يتمكن من القيام بمهامه على الوجه الأكمل ، وحتى لا يضطر الى استدعاء السفن المسلحة التابعة للأسطول الملكى فى أعمال عادية • وقد ظل النقاش محتدما حول هذه المسألة حتى سنة ١٨٨٤ عندما وصل الى مياه الخليج القارب المسلح سفنكس الذى بنى خصيصا لهذه الأغراض • غير ان هذا القارب لم يكن من النوع السريع الذى يطالب به المقيم روس • عندئذ تقدم روس باقتراح جديد أسفر عن بناء سفينة حربية خاصة تسمى لورنس • ولقد برهنت هذه السفينة عن فائدتها فى مساعدة المقيم على أداء مهمته فى الخليج • وبهذه السفينة كان فى استطاعة روس أن يقطع المسافة بين

أبو شهر ومسقط في ظرف أربعين ساعة بدلا من ثمانين ساعة كانت تستغرقها القوارب القديمة •

ولقد تجددت مشكلة وجود قوة بحرية بريطانية في الخليج بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٨٨ • عندما أثير موضوع تخفيض وحدات الأسطول البحري الملكي من جديد ، أما روس فقد تمسك بموقفه بوجوب احتفاظ القوة البحرية بمستوى ما قبل سنة ١٨٧١ ، غير أن ضباط البحرية كان من رأيهم ان القاربين سفنكس ولورنس كافيان للقيام بأعمال الدورية التي يتطلبها الوضع في الخليج • وأخيرا تقرر الاحتفاظ بقارب واحد في الخليج وآخر في مياه عمان ، مع وجود قاربين آخرين كاحتياطي في الهند • وعلى الرغم من هذا الاتفاق ، فقد ظل رجال الأسطول يشكون باستمرار من عملهم في الخليج • وقد جاء من تقارير رجال الأسطول ان الخدمة المنتظمة في مياه الخليج قاسية جدا على الملاحين البريطانيين • كما احتج هؤلاء على السلطات التي يمارسها المقيم البريطاني في الخليج عليهم • وعلى أى حال فقد استطاع روس بحنكته أن يحتفظ بجميع التدابير البحرية التي كانت قائمة على عهد بلي • وقد كانت هذه التدابير عاملا أساسيا في احتفاظ بريطانيا بمركزها في الخليج وبالسلم البحري في المنطقة (٦٦) •

دفاع روس عن النفوذ البريطاني في الخليج :

لقد نجح بلي بلباقتة ومرونته في تعزيز النفوذ البريطاني في الخليج ، متجنباً في الوقت نفسه الاصطدام مع حكاه • ومن العوامل التي ساعدت على انجاح ذلك هو الاعتقاد الذي كان يسود أوساط حكام الخليج من أن بريطانيا متكلفة بحمايتهم من أى تهديد داخليا كان أو خارجيا • أما من وجهة نظر الحكومة البريطانية فقد كانت تعتبر أن السعودية هي الدولة

الوحيدة التي تشكل تهديدا للأوضاع في امارات الخليج في عهد بلى • غير ان الخطر السعودي على المنطقة قد انحسر خلال الستينات بعد أن اجتاحت الاضطرابات الداخلية والصراع على السلطة الدولية الوهابية • ومع ذلك فقد أصبح التهديد الوهابي للسلام الاقليمي والاستقرار السياسى في المنطقة ، أقل خطرا من تحدين جديدين أخذت تتعرض لهما المنطقة خلال السبعينات ونعنى بهما بعث المصالح العثمانية وبعث المصالح الايرانية في سواحل الخليج •

وعلى الرغم من أن الضعف قد دب بالفعل في أوصال هاتين الدولتين في أواخر القرن التاسع عشر • غير أنه كان ضعفا نسبيا وليس شاملا • أما اذا قورنت هاتان الدولتان بالدول الأوروبية ، فانهما تعتبران دولتين متدهورتين • وعلى كل فان جهود دولة القاجار في ايران ، وانصراف دولة العثمانيين لتطوير جيوشها ونظام مواصلاتها واداراتها ، رغم انها جهود لم تصل الى مستوى التطور الحديث في الدول الأوروبية ، قد نجحت في تعزيز قوة الدولتين في السيطرة على شعوبهما وشعوب مناطق الحدود الضعيفة الخاضعة لسلطانهما • كما استطاعت الدولتان الحد من تدهورهما الى حد ما بالمقارنة مع الدول الغربية ، عن طريق السيطرة على المقاطعات الداخلية في أراضيها وهى المقاطعات التى ظلت تتمتع بالاستقلال الذاتى التام لفترة طويلة من الزمن ، وعلى مناطق الحدود التى تعهد كل من حكومتى طهران والقسطنطينية باحترام استقلالها • ولما كان الخليج يندرج ضمن « مناطق الحدود الضعيفة » من وجهة نظر الدولتين ، فقد أصبح محور نشاط الدولتين السياسى في نهاية القرن التاسع عشر •

أما بالنسبة للعثمانيين الذين وجدوا أنفسهم يسيطرون على امبراطورية مترامية الأطراف فقد كانت نتيجة تلك الأوضاع تبنيهم لفكرة الوحدة الاسلامية التى بعثها من مرقدتها المفكر الاسلامى جمال الدين الأفغانى ثم تبناها السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى الذى دعا المسلمين الى الالتفاف حول راية خلافة اسلامية واحدة تقف فى وجه الامبريالية

العربية • وبطبيعة الحال نصب عبد الحميد من نفسه رائدا لتلك الحركة • وقد استعان السلطان عبد الحميد في دعوته الى توحيد المسلمين في نطاق دولة اسلامية واحدة بزعامته ، بالنظريات الفلسفية لتبرير فرض سلطانه على المناطق التي سبق ان خضعت لغيره من السلاطين العثمانيين • وعلى الرغم من استحالة تطبيق هذه النظرية على كل بلد سبق ان خضع لحكم القسطنطينية ، فقد كان شبه الجزيرة العربية يبدو مجالا ممكنا لمحاولة استرداد بعض ما فقدته الدولة العثمانية من مناطق النفوذ •

في شبه الجزيرة العربية كان العثمانيون يسيطرون على الأماكن المقدسة في الحجاز لعدة قرون • وفي عام ١٨٧١ قبل خمسة أعوام من استيلاء السلطان عبد الحميد الثاني على مقاليد السلطة ، وقبل أن يبدأ بالدعوة الى الوحدة الاسلامية بسنوات كثيرة ، كان العثمانيون قد بدأوا فعلا بتوسيع مناطق نفوذهم عبر شبه الجزيرة العربية • فلقد كانوا بدأوا حركة اختراق واسعة النطاق عبر شواطئ البحر الأحمر والخليج العربي ورافقت هذه المحاولة حملة عثمانية ، اتسمت بالمبالغة تطالب بشبه الجزيرة العربية ، بما في ذلك عمان والساحل الجنوبي من شبه الجزيرة باعتبارها جزءا من الامبراطورية العثمانية على الأساس التاريخي والقانوني (٦٧) •

وفي سنة ١٨٧٣ بلغ الضغط العثماني على جنوب غربى الجزيرة العربية أشده بحيث اضطرت حكومة الهند الى اصدار بيان تعتبر فيه المطالب العثمانية خطرا على خطوط المواصلات الامبريالية وحذرت الحكومة العثمانية من أنها عازمة على وضع حد نهائى لتلك المطالب (٦٨) • وهكذا أخذ ممثلو بريطانيا في عدن وفي غيرها من امارات الجنوب العربى يستعدون لمواجهة المطالب العثمانية • وقد عقدت الحكومة البريطانية سلسلة من المعاهدات مع حكام امارات الجنوب العربى المهددة من قبل العثمانيين • وبمقتضى

(٦٧) (Precis Turkish Expansion) جزء ١ ص ١١ — ١٢ •
(٦٨) « سياسة الهند الخارجية » براساد ص ٢٤٩ — ٢٥٠ •

المعاهدات المذكورة أصبحت حكومة الهند مسؤولة عن حماية هذه الامارات والاشراف على شؤونها الخارجية . وما ان حلت سنة ١٨٧٨ حتى كانت تسع من الامارات الجنوبية الغربية المجاورة لعدن ، قد ربطت بمعاهدات الحماية البريطانية ، كما ضمت الى الحماية البريطانية أيضا في سنة ١٨٨٢ جميع مناطق الجنوب العربى حتى حدود مقاطعة ظفار التابعة لسلطان مسقط وعمان . وقد جددت هذه المعاهدات ما بين سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٩٢ بحيث أصبحت بفضل التعديلات التى أدخلت عليها مؤخرا تمثل الأسس القانونية لما يعرف « بمحميات عدن » أو (محميات الجنوب العربى) واتحاد الجنوب العربى (٦٩) .

وكما حدث بالنسبة للجنوب العربى ، وجد البريطانيون أنفسهم مضطرين الى دعم وتثبيت الأسس القانونية لنفوذهم فى الخليج ، ردا على أطماع العثمانيين فى المنطقة . وخلال هذه الفترة ظهر مدحت باشا والى العثمانى فى العراق ، ومن دعاة حركة الدستور العثمانية ورئيس وزراء الامبراطورية ، ليتزعم التوسع العثمانى فى الخليج . وفى سنة ١٨٧١ اغتتم مدحت باشا انفجار الصراعات الداخلية فى السعودية فوجه حملة بحرية على ساحل الحسا استخدم فيها بعض السفن التى أسهم بها حاكم الكويت ، الذى كان يعتبر نفسه فى ذلك الوقت من أتباع سلطان الأتراك . وبنهاية العام كان العلم العثمانى يرغرف فوق سوارى المدن الكبرى على الشاطئ الشرقى للجزيرة ، بما فيها الحسا وامتدادا من الكويت حتى الدوحة كبرى مدن قطر . وفوق ذلك كانت الأطماع تراود العثمانيين فى مد نفوذهم الى البحرين وساحل الصلح بل والى عمان أيضا . أما بريطانيا فقد قررت عدم التدخل ضد العثمانيين بشأن الحسا ولم تتخذ هذا القرار الا بعد أن أبلغت الباب العالى بأنها لن تعترف بسلطة العثمانيين على أى

(٦٩) تقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ مجلد ١٠ .

منطقة أخرى على ساحل الخليج • وعلى ضوء هذا الحادث بنى ليويس بلى رأيه في موقف الضعف الذي وقفته بريطانيا في الخليج (٧٠) •

وحتى التسعينات من القرن كان البريطانيون يخشون أن يؤدي التوسع العثماني في الخليج الى انفجار الاضطرابات الملاحية من جديد أكثر مما كانوا يخشون من ذلك التوسع على وجودهم • وما ان احتل العثمانيون الحسا ، حتى أبلغ البريطانيون شيوخ البحرين وساحل الصلح ، بأن لا يورطوا أنفسهم مع العثمانيين ، بعد أن أكدت لهم تأييدها الكامل لامارتهم • وبما أن العثمانيين لم تكن لديهم قوة بحرية تعمل في مياه الخليج فقد أتاح هذا لبريطانيا أن تستمر في أعمال الدوريات البحرية عبر السواحل الشرقية للجزيرة ومواجهة أي اعتداء قد يقع على المنطقة ، وذلك استمرارا لما كانت تقوم به هناك منذ سنة ١٨٢٠ (٧١) وقد تهاوت قبضة العثمانيين عن الحسا بعد سنة ١٨٧٤ ، غير أن المنطقة العليا من الخليج أخذت تستهدف لهجمات من القراصنة الذين كانوا يستغلون سفنهم من موانئ تعتبر تابعة من الناحية الاسمية للعثمانيين • ولقد زادت عمليات الاحتكاك الناتجة عن المشاغبات الملاحية وعن مطالب العثمانيين مما اضطر بريطانيا في سنة ١٨٨٠ الى اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لصون السلام في مياه المنطقة ، دون أن تقيم وزنا للمطالب العثمانية (٧٢) « ... وكنتيجة لذلك أرسلت بعض وحدات من الجيش الهندي الى البحرين التي كان حاكمها أول حاكم يوقع عى معاهدة غير مشروطة مع البريطانيون • « كما وافق على وضع شؤون امارته الخارجية تحت اشراف البريطانيون ، والتعهد بعدم منح أي امتيازات في أراضيه لدولة غير الدولة البريطانية » • ولا تختلف هذه المعاهدة في معناها عن المعاهدات الأخرى التي عقدت في نفس الفترة مع حكام امارات الجنوب العربي ، والتي اتخذت

(٧٠) خطاب رقم ٣٨٨ — ٤٥ مؤرخ ١٨٧١/٤/٨ من بلى الى دوق ارجيل و « حول التوسع التركي » ص ١٥ — ١٦ .
(٧١) « الوجود البريطاني في الخليج » ، تأليف : كيلي .
(٧٢) « حول التوسع التركي » ص ١٥ — ١٦ .

كنموذج لسلسلة المعاهدات التي توالى إبرامها بين الحكومة البريطانية وحلفائها من حكام الخليج في الفترة الواقعة بين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٩٢ • ويعتبر الاجراء الذي اتخذ سنة ١٨٨٠ بشأن البحرين بداية لسياسة بريطانية جديدة ترمى الى تقليص النفوذ العثماني كما كانت أول خطوة لاضفاء الصفة الشرعية « لنظام » الحماية البريطانية في شكله النهائي (٧٣) • وعلى الرغم من تصلب البريطانيين خلال وجود روس في الخليج ، فان مطالب العثمانيين ومحاولاتهم لتوسيع مناطق نفوذهم في ساحل الصلح ، وفي عمان أيضا لم تتوقف • وقد قام البريطانيون بمحاولتين مع سلطان مسقط لجره الى صفهم • وكان من المألوف للسفن التركية عند زيارتها ميناء مسقط أن تتجاهل تأدية التحية الرسمية للعلم العماني (٧٤) • كما كان العثمانيون يوزعون بعض المنشورات الدعائية عن طريق الصحف المصرية التي تصل موانئ الخليج بما فيها ميناء مسقط • بالاضافة الى بعض المطبوعات الاباضية التي تصدر في مصر وتؤيد فكرة الوحدة الاسلامية • وعلى أى حال فقد كانت كل هذه الدعايات تلقى الاهمال من جانب سكان المنطقة ، وكانت تدفع بحكامها أكثر وأكثر الى أحضان الغول البريطاني • ومن ناحية أخرى فان البريطانيين لم يكتفوا بمجرد الاستنكار لمطالب العثمانيين ، وانما وجهت السلطات البريطانية ما بين سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٩٣ احتجاجات وتحذيرات كثيرة فيما يتعلق بالاجراءات والمطالب العثمانية في المنطقة (٧٥) •

ان المطالب العثمانية في الخليج كانت في حقيقتها أكاذيب أكثر منها حقائق ، واذا استثنينا دور مدحت باشا في بداية عهد العثمانيين في مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر ، فان الحكومة العثمانية قد برهنت على

(٧٣) « الدبلوماسية » ، تأليف هروتر جزء ١ ص ١٩٤ •
(٧٤) خطاب رقم ٤٤ — ١٠ بتاريخ ١٨٧٦/١/٢٥ من مايلز الى روس وآخر رقم ٢٥ بتاريخ ١٨٨٠/١٢/١٣ من روس الى اللورد هارتنجتون •
(٧٥) (Precis Turkish Expansion) ص ١٣٨ — ٤٢ وقد وجهت بريطانيا ١٠ انذارات لتركيا بشأن الخليج بين سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٩٣ •

تفككها وانهيأها في المنطقة العليا من الخليج • غير أن بعث سلطان السعوديين بقيادة عبد العزيز آل سعود ، مؤسس الدولة السعودية الحديثة ، قد اكتسح النفوذ العثماني من الحسا سنة ١٩١٣ • ثم بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تلاشت السلطنة العثمانية نفسها من الوجود •

أما في إيران فقد قام القاجار بمحاولة كتب لها النجاح في النهاية ، وذلك بتأكيدهم لسيادة الامبراطورية الايرانية على الموانئ الايرانية في الخليج • أما خلال الفترة الواقعة بين سقوط دولة زند في أواخر القرن الثامن عشر ، وبعث المصالح الايرانية في منتصف القرن التاسع عشر ، فلم تظهر أي حكومة من الحكومات الايرانية اهتماما كبيرا بمقاطعات الساحل الايراني على الخليج ، هذا رغم أن ولاية مقاطعة فارس الايرانيين كانوا يبدون اهتماما متقطعا بشؤون الخليج^(٧٦) • ولما كان ملوك القاجار وقتها مشغولين بالتوسع الروسي في مقاطعاتهم على بحر قزوين ، وبالتالي كان نشاطهم مقتصرًا في أغلبه على السهل الايراني ، فقد أهملوا ممتلكاتهم في الخليج والجزء الجنوبي من إيران ومنذ سنة ١٨٥٠ بدت القبائل التي تقيم على الجانب الايراني من الخليج تكاد أن تكون مستقلة ، وأغلبها قبائل عربية ، من سلالات وفدت الى المنطقة من شبه الجزيرة العربية • أما الى الجنوب والشرق من بندر عباس ، فقد كانت أغلبية السكان فيهما من القبائل البلوشية وقبل الخمسينات من القرن كانت قبائل الساحل تدفع اتاوة صغيرة بين الوقت والآخر للسلطات الايرانية في الداخل ، أما فيما عدا هذا فقد كانت هذه القبائل مستقلة في شؤونها^(٧٧) • غير أن الانجليز لم يقيموا علاقات أو يعقدوا معاهدات اطلاقًا مع قبائل الساحل الايراني ، كما فعلوا مع القبائل العربية • وباستثناء بعض التدابير المشتركة المؤقتة مع بعض هذه القبائل ، فإن العلاقات الايرانية الانجليزية كانت تخضع للطرق الدبلوماسية العادية •

(٧٦) « جزر البحرين » فصل ٢ — ٣ اعظمت •

(٧٧) سجلات حكومة بومبي — ١٨٥٦ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ •

وحتى سنة ١٨٥٩ كانت الحكومة البريطانية مترددة فيما اذا كانت المصالح الدبلوماسية بينها وبين ايران تخضع لحكومة لندن مباشرة او لحكومة كلكتا .
وفي سنة ١٧٥٩ كنتيجة للتنظيمات الادارية التي ادخلت الى الهند في اعقاب الثورة ، وضعت البعثة البريطانية في طهران تحت عهدة وزارة الخارجية البريطانية بصورة نهائية ، وخولت الصلاحيات اللازمة للإشراف على العلاقات الانجليزية الايرانية . وعلى أى حال فقد ظلت حكومة الهند البريطانية تهتم بالعلاقات الانجليزية — الايرانية ، وفي سنة ١٨٩٩ أسهمت حكومة كلكتا في نفقات البعثة البريطانية في ايران . كما أن عددا من الرسميين البريطانيين العاملين في ايران ، كالمقيم البريطاني في أبو شهر ، كان يتم تعيينهم من جانب حكومة الهند ، هذا بالإضافة الى أعمالهم القنصلية التي يتبعون بمقتضاها وزارة الخارجية البريطانية في لندن^(٧٨) .

منذ عام ١٨٥٣ بدأت الحكومة الايرانية محاولاتها لبعث مصالحها في الخليج . وفي هذه الفترة طرد الفرس الحاكم العثماني من بندر عباس التي كانت تخضع لمسقط منذ أن احتلها السيد سلطان بن أحمد سنة ١٧٩٨ وذلك بالإضافة الى رقعة أخرى من الأرض طولها ١٥٠ كيلومترا ، ومينائي شهباز وجواذر . ومن الواضح أن السيد سلطان كان قد وافق على دفع ايجار شهري للسلطات الايرانية مقابل هذه المراكز مقداره ٦٠٠٠ تومان ايراني أى ١٥٠٠٠ ريال نمسوى ، غير أن الايجار المذكور ربما لم يدفع لعدة سنوات .

لم يتمكن السيد سعيد من استرداد نفوذه على بندر عباس قبل سنة ١٨٥٦ ، وحتى هذا الاسترداد لم يتم الا بعد اعتراف السلطان ببندر عباس كأرض فارسية وتعهد بدفع ١٤٠٠٠ تومان أى ما يعادل (٣٥٠٠٠ ريال نمسوى) ايجارا سنويا عن استخدام الميناء المذكور^(٧٩) . وقد جرت

(٧٨) « الدبلوماسية » ، تأليف هروتز فصل ١ ص ٢٤٠ — ٤١ .

(٧٩) نفس المصدر ص ١٥٧ — ٥٨ و « الخليج العربي » ، تأليف ولسون

المفاوضات لتأجير الميناء المذكور سنة ١٨٦٨ ورفع الأيجار الى ٣٠٠٠٠ رومان
 اى (٧٥٠٠٠ ريال نمسوى) • وعلى كل فقد فسخ عقد هذا الأيجار
 سنة ١٨٦٨ عندما استولى عزان بن قيس على مقاليد السلطة في مسقط وقد
 استندت السلطات الايرانية بفسخ العقد على احد بنود الاتفاق الذى يجيز
 فسخ العقد اذا وقع اعتداء على الحكم في سلطنة مسقط • وما أن تولى
 تركى بن سعيد الحكم سنة ١٨٧١ حتى بادر الى الاتصال بالسلطات الايرانية
 لتجديد العقد ، غير أن السلطات الايرانية لم توافق على ذلك • كما منيت
 جميع محاولات تركى لاستخدام الميناء سنة ١٨٧٢ وسنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٧٧
 بالفشل ^(٨٠) • وبعد عام ١٨٦٨ استعاد الايرانيون سيطرتهم على ساحل
 ايران الجنوبى الذى كان يخضع سابقا للنفوذ العمانى • وقد رافقت محاولة
 بعث المصالح الايرانية في المنطقة ، مطالبة ايران بجزر البحرين • وهى
 المطالب التى تقدمت بها الحكومة الايرانية في أواخر الستينات من القرن
 التاسع عشر غير أن وزير الخارجية البريطانية آنذاك اللورد كلارندن قد
 قرر وضع المسألة على الرف ، وان لم يتخذ أى خطوات مضادة ضد
 المحاولات الايرانية ^(٨١) •

وفي السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر أقام الايرانيون
 أجهزة سياسية ادارية ، وان كانت بدائية على امتداد الساحل الايرانى من
 الخليج • غير أن هذه الأجهزة التى أقامها الايرانيون لحماية موانئهم على
 الساحل الايرانى ، قد تحولت لسوء الحظ الى أداة لانتزاع الضرائب من
 سكان المنطقة أكثر منها جهازا حكوميا لادارة المناطق • وبعد سنة ١٩٠٢
 تدهورت حالة ميناء لنجة بعد فترة من الازدهار عندما قفز عدد سكانها في
 الستينات الى ٢٥٠٠٠ نسمة ، وذلك نتيجة للضرائب الباهظة التى فرضت
 على سكانها ^(٨٢) • وفي منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر ، قررت

(٨٠) (Precis Persian Coast) ، ص ٣١ — ٣٢ •

(٨١) « الدبلوماسية » فصل ١ ص ١٧٢ — ٧٣ •

(٨٢) الامبريالية البريطانية — وبريطانيا العظمى — العراق والخليج

الفارسى ص ١٦٢ •

حكومة ايران ، تنفيذاً لسياستها العدوانية في الخليج ، بناء أسطول يخصص لمنطقة الخليج ، ومحاولة تأكيد سيطرة شاه ايران على الجزر الايرانية القريبة من شواطئها . وقد اتبعت هذه الخطوة في نهاية الثمانينات بمحاولة للتدخل في شؤون ساحل الصلح . وكان رد الفعل لأطماع ايران ودعاواها في المنطقة ، هو تأكيد روس لبدأ الحماية البريطانية على امارات ساحل الصلح ، وبناء أسطول مؤلف من قاربين مسلحين صغيرين لا تقل حمولة كل منهما عن ٦٠٠ طن لاستخدامهما في عمليات نقل البريد والتعليمات .

وعلى أى حال فقد كانت هناك محاولة جادة لبعث النفوذ الايراني في الخليج في نهاية القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن هذه المحاولات الايرانية قد تخللها بعض الوعود البراقة والتصريحات الجوفاء . فان من الواضح أن نوعاً من السلطة السياسية الايرانية قد ظهر الى الوجود على امتداد الجزء الأكبر من الساحل الايراني للخليج . ومما اتضح يومئذ أن المقيم البريطاني على الساحل الايراني كان يقوم بعمله كقنصل عام أكثر منه كنائب للقنصل ، على عكس ما كان معمولاً به في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية . ولم يكن في وسع البريطانيين مجرد املاء رغبتهم على الايرانيين فيطيعهم هؤلاء . وقد قام مثلاً بست محاولات فيما بين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٩٢ للحصول على موافقة الايرانيين على تعيين قنصل بريطاني في بندر عباس غير أن محاولاته هذه لم تثمر . ولم توافق الحكومة الايرانية على هذا الطلب بصورة نهائية قبل سنة ١٩٠٤ .

في أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر ، تعرض الوجود البريطاني في الخليج لتحد جديد ، ولكنه كان تحدياً وهمياً أكثر منه حقيقياً . فقد وصل الى المنطقة شخص فرنسي يدعى المسيو شابوي . وسبب وصول هذا الفرنسي الى المنطقة حرجاً وارتباكاً شديدين للمقيم البريطاني روس الذي وصفه في أحد تقاريره « بالمتآمر ، وشبه التاجر ، والمغامر » . وكان يسيطر على تفكير شابوي عدد من المشروعات الاقتصادية والرغبة في الثراء

السريع . كما كانت ترشحه الاشاعات لمنصب المعتمد السياسى الفرنسى فى المنطقة . وكان شابوى مصمما على تصفية النفوذ البريطانى فى المنطقة . وعلى أى حال ، فقد اتخذ البريطانيون من هذا الحادث ذريعة لدعم شرعية وجودهم فى الخليج . وقد أشار المقيم البريطانى فى الخليج فى تقريره الى رؤسائه بوجوب اتخاذ كافة الاحتياطات لحماية الوجود البريطانى فى المنطقة ، ومن ثم فقد ركز روس جهوده فيما بين سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٩٢ على عقد سلسلة من المعاهدات التى تربط الامارات البحرية العربية فى شرقى شبه الجزيرة العربية بمجلة النفوذ البريطانى (٨٣) .

المعاهدات غير المشروطة ١٨٨٧ — ٩٢ والنص الوارد فى المعاهدة العمانية ١٨٩١ بشأن عدم التنازل .

لاحظنا أنه كنتيجة للأزمة التى سببها نشاط الدولتين العثمانية والىرانية فى المنطقة والمخاوف البريطانية من أطماع الدول الأوربية الاستعمارية ، تقدم روس فى سنة ١٨٨٧ باقتراحات الى حكومته يطالبها بادخال بعض التعديلات على نظام الحماية البريطانية (٨٤) وحتى ذلك الوقت كان هذا النظام يقسوم على أساس « المعاهدة العامة » المعقودة فى سنة ١٨٢٠ والتعديلات التى أدخلت عليها بموجب « معاهدة الصلح البحرى الدائم » المعقودة فى سنة ١٨٥٣ والتى تخول البريطانيين التوسط فى الخلافات التى تنشأ بين حكام الخليج . وما بين سنة ١٨٥٣ وسنة ١٨٨١ كان المفروض ، وان لم ينص على ذلك ، أن تكون الشؤون الخارجية لدول الخليج تحت اشراف الحكومة البريطانية . أما فيما يتعلق بشرعية الوجود البريطانى فى الخليج فقد كان هذا الوجود أكثر ميوعة فى امارات الخليج الأعلى ، حيث يعتمد هذا الوجود على نصوص معاهدة سنة ١٨٢٩ وهى معاهدة تجارية أكثر

(٨٣) (Precis Trucial Chiefs) ص ٦١ — ٧٠ .

(٨٤) خطاب رقم ١٩١ مؤرخ ١٨٨٧/٩/١ .

منها سياسية • وحتى اليمانيات لم يكن هناك من الأسباب ما يوجب تحديد السيطرة البريطانية في المنطقة تحديدا رسميا واضحا • وعلى أي حال ، ففي عام ١٨٨٠ ، كما نلاحظ ، حثمت الأطماع والمطالب العثمانية في الخليج على البريطانيين ، عقد معاهدة مع حاكم البحرين تخول البريطانيين صراحة الاشراف على الشؤون الخارجية للامارة •

وبما أن روس كان يتوقع أن يحصل على موافقة من الحكومة البريطانية على مقترحاته الخاصة بتدعيم نطاق الحماية البريطانية لدول الخليج ، فقد عقد في سنة ١٨٨٧ اتفاقات غير رسمية مع عدد من دول المنطقة على غرار الاتفاق المعقود سنة ١٨٨٠ مع شيخ البحرين ، والذي يخول بريطانيا سيطرة غير مشروطة على الشؤون الخارجية لدول الخليج • غير أنه لم يتم التصديق على هذه الاتفاقيات غير المشروطة ، وذلك لأسباب قانونية تتصل بالنواحي الفنية ، لأن روس قام بهذه الاجراءات دون أن يكون له تفويض رسمي بذلك • وبما أن حكومتى لندن وكلكتا أعجبتا بخطوة روس ، فقد أبدتا استعدادهما للاعتراف بالاتفاقيات المذكورة كاتفاقيات شرعية ، وبذلك طلبتا الى المقيم بأن يتقدم بمقترحاته الخاصة بتفاصيل الاتفاقيات التي يقترحها للمنطقة • وقد كانت كل اتفاقية من الاتفاقيات المقترحة تحوى بندا بين بنودها يلزم كل حاكم على الاتفاقية المذكورة « بعدم التنازل » عن أي جزء من أراضيه لدولة غير بريطانيا ، اضافة الى بند آخر يخول بريطانيا سلطة الاشراف على الشؤون الخارجية للحاكم • وفي سنة ١٨٩٢ قدم الكولونيل تالبوت مسودة مشروع المعاهدات بعد تعديله الى حكام البحرين ، وامارات ساحل الصلح للتوقيع عليها ، وبعد ذلك تم التصديق عليها من جانب نائب الملك في الهند (٨٥) • غير أن وضع عمان تحت الحماية البريطانية كان عملا أكثر

(٨٥) خطاب رقم ١٠٩ مؤرخ ١٨٩٠/٩/٨ من لانس داون الى كروس ، راجع أيضا Precis Trucial Chiefs ص ٦٩ — • وتقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ للاطلاع على نصوص المعاهدات •

صعوبة من بقية الامارات • غفى سنة ١٨٨٧ اقترح روس عقد معاهدة جديدة بدلا من اتفاقية سنة ١٨٣٩ التى كان معمولا بها حتى ذلك الوقت • وعلى الرغم من حصول روس على الموافقة الرسمية للاتفاق فانه لم يتمكن من متابعة الموضوع بسبب وفاة السلطان تركى فى سنة ١٨٨٨ • وعلى كل غفى سنة ١٨٩٠ تجدد الحديث عن اعلان عمان محمية بريطانية • غير أن اللورد لانس داون ، نائب الملك فى الهند كان من رأيه أن تشمل الاتفاقية المقترحة فقرة سرية تنص نصا صريحا « على اشراف بريطانيا على الشؤون الخارجية لعمان » • وقد جاء فى تقرير لمجلس وزراء الهند فى لندن بأن ثمة اعتبارات كثيرة تجعل من عمان « محمية بريطانية » منها :

- ١ — الضمان الوارد فى حكم كاننج سنة ١٨٦١ •
- ٢ — التعويض الذى تدفعه الحكومة البريطانية لقاء تنازل السلطان عن اقليم زنجبار •
- ٣ — ضرورة اعتراف الحكومة البريطانية بأى حكم عمانى يتولى السلطة فى مسقط •
- ٤ — المناسبات الكثيرة التى كانت تتدخل خلالها بريطانيا فى الخلافات الداخلية ، الى جانب نفى بعض المطالبين بالعرش الى الهند •
- ٥ — اشراف المقيم البريطانى على المفاوضات العمانية الخاصة بمعاهدة التجارة المعقودة فى سنة ١٨٧٧ •
- ٦ — سيطرة المصالح القومية التجارية للرعايا الهنود — البريطانيين المقيمين فى عمان (٨٦) •

(٨٦) خطاب رقم ١١٣ مؤرخ ١٠/١٢/١٨٩٠ من لانس داون الى كروس وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٥٣٤ و « علاقات بريطانيا بالخليج » ، تأليف : داون ١٨٩٠ — ١٩٠٢ ص ٢٦٠ •

أما اللورد سالسبورى ، وزير الخارجية ، فقصده كان من رآيه بأن الضمان البريطانى — الفرنسى المشترك لاستقلال عمان ، والذي لم تعرف عنه حكومة كلكتا الا مؤخرا ، يستبعد على أى حال ، ممارسة بريطانيا أى نوع من الحماية على عمان ، قبل الاتفاق على مثل هذه الخطوة مع الحكومة الفرنسية^(٨٧) . ولكن اللورد لانس داون قد ظل يراوده الأمل فى أن تتمكن بريطانيا من فرض ما أسماه بالحماية المطلقة على عمان دون اعتراض على ذلك من جانب الفرنسيين . غير أن اللورد سالسبورى لم يؤيده فى الرأى وكان يعتقد أن الوقت لم يكن مناسباً لاثارة هذا الموضوع مع الحكومة الفرنسية ، وكان يفضل الانتظار حتى تحين الفرصة للقيام بهذه الخطوة . فطالما أن السلطان لم يؤسس فعلاقات خارجية ، فقد كان من الأنسب ، على حد رآيه ، ارجاء موضوع الحماية حتى تسنح الفرصة لممارسة مثل هذه السلطة بشكل رسمى سافر . وختم اللورد سالسبورى بيانه بأن قال : بأن « نظام شبه الحماية » هو أقصى ما يمكن أن تفكر فيه بريطانيا الآن^(٨٨) .

وعلى هذا الأساس وقعت فى ٩ مارس سنة ١٨٩١ معاهدة تجارية بين عمان وانجلترا تنص على توسيع الامتيازات الاقليمية البريطانية فى عمان . وقد وقعها فيصل بن تركى (١٨٨٨ — ١٩١٣) عن الجانب العمانى ، وادوارد روس عن الجانب البريطانى . وعلى كل فقد تضمنت المعاهدة المذكورة بنداً سوريا يلزم السلطان بأن لا يتنازل ، أو يبيع ، أو يرهن ، أو يسلم أى جزء من أراضيه أو ملحقاتها الى أى دولة غير بريطانيا^(٨٩) . غير أن البريطانيين لم يحاولوا فرض سيطرة مطلقة على عمان كما فعلوا فى أجزاء كثيرة أخرى من شرقى شبه الجزيرة ، لأن سلطان عمان كان يرتبط بعلاقات خارجية مع دول أخرى . ومعنى هذا أن الحماية التى كانت تمارسها بريطانيا على عمان

(٨٧) خطاب رقم ١١٣ مؤرخ ٨/١٢/١٨٩٠ من لانس داون الى كروس .

(٨٨) خطاب رقم ٤٥ مؤرخ ٢٣/١٠/١٨٩٠ من كروس الى لانس داور .

(٨٩) تقرير آيتشيسون — ١٩٣٣ .

في سنة ١٨٩١ كانت شبه حماية من الوجهة القانونية • فقد كان لبريطانيا نفوذ كبير على عمان غير أنه لم يكن نفوذا مطلقا ، وبالتالي كان في نظام الحماية البريطانية في الخليج بعض الثغرات من وجهة النظر البريطانية ويرجع السبب في ذلك الى أن عمان من الناحية القانونية تعتبر دولة مستقلة في شؤونها الخارجية •

نضوج الحكم غير المباشر في عمان سنة ١٨٧٢ — ١٨٩٢ :

تعتبر المعاهدات المعقودة في فترة ١٨٨٧ — ١٨٩٢ تنويعا للجهود التي بذلها المقيم البريطاني ادوارد روس خلال عمله في الخليج • وكان الغرض من ابرامها هو اصفاء الصبغة القانونية على السيطرة البريطانية في دول الخليج • وعلى أي حال فهذه العلاقات تتضمن الأسس التي يمكن لبريطانيا أن توجه وأن تشرف على الشؤون الداخلية لامارات الخليج ، وهذا يشكل ما كان يسمى « بالحكم غير المباشر » الذي بدى في تطبيقه في العشرينات من القرن التاسع عشر ، ثم أدخلت عليه بعض التعديلات في الستينات من القرن التاسع عشر • كان الحكم غير المباشر بمفهومه السائد في منطقة الخليج يخول بريطانيا جانبا كبيرا من النفوذ في تقرير الشؤون الداخلية للامارات ، بينما يجنب البريطانيين متاعب وتكاليف النفوذ المباشر • فالنفوذ غير المباشر يعتمد على مجموعة من المعاهدات والعلاقات الشخصية والوثائق والعادات • وكان النفوذ غير المباشر على غرار الدستور البريطاني غير المكتوب ، ويستغرق تطوره زمنا طويلا ، انعكاسا لآراء وعصبية الاداريين البريطانيين المسؤولين عن تطبيقه من ناحية ، والعرب الذين كان يعنيه هذا النفوذ من ناحية أخرى (٩٠) • وتعتبر عمان نموذجا « للنفوذ غير المباشر » الذي بدى

(٩٠) يرى بعض المعلقين ممن يتشبثون بموضوع الشرعية ، ان دول الخليج لا تعتبر محميات ، لان البريطانيين لا يمارسون أي سلطة على السياسات الداخلية للمنطقة ومن الطريف أن نواب الهند على اختلافهم كانوا يؤكدون بأن امارات الخليج بما فيها مسقط ، كانت في الواقع ، وبالرغم من وجود نص صريح بذلك في المعاهدات ، محميات بريطانية •

تنفيذه على يد المقيم البريطاني ادوارد روس . أما في الفترة الواقعة بين سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٩١ فقد كان النفوذ البريطاني على وجه العموم يعكس حاجة السلطان الى تأييد البريطانيين له ، وحاجة الانجليز الى تعاون السلطان معهم لتثبيت دعائم وجودهم في المنطقة .

وقد ظهر هذا الاتجاه بشكل أوضح في عهد السلطان تركي بن سعيد (١٨٧١ — ١٨٨٨) ولعل من الأسباب التي شجعت البريطانيين على تأييد تركي أنه كان ، رغم أخطائه . مخلصا في تنفيذه للاتفاقيات وفي مساندته للسياسة البريطانية في المنطقة . كما كان هذا التأييد في نظر البريطانيين ثمنا رخيصا يدفعونه لمنع نشوب ثورات واضطرابات تهدد المصالح البريطانية في منطقة كان البريطانيون يحرصون على استتباب السلم فيها لأسباب استراتيجية ومن أجل حماية النشاط التجاري للهنود المقيمين فيها (٩١) . ويعتبر توقيع السلطان تركي على معاهدة حظر تجارة الرقيق المعقودة في سنة ١٨٧٣ أبلغ دليل على رغبة السلطان المذكور في تأييد البريطانيين لحكمه مقابل التضحية بشعبيته . ولهذا كان تركي طوال مدة حكمه هدفا لسطح الجماعات المناوئة لحكمه . فقد تعرضت مسقط لثلاث هجمات من جانب قوات الاباضيين المحافظين وذلك في سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٨٣ . وفي جميع هذه الاعتداءات وقف الانجليز الى جانب السلطان . وقدموا اليه المساعدة العسكرية ، كما وجهوا بالنيابة عنه انذارات الى المتمردين . وليس من المعقول أن يتخلى البريطانيون عن أداة طيعة في أيديهم في مقابل مصالح مجهولة . ومما لا شك فيه أن حكم تركي كان سينهار لولا التأييد الدبلوماسي ، والمالي والعسكري الذي قدمته اليه بريطانيا (٩٢) . كما أن خصوم تركي كانوا يدركون تماما أن التأييد البريطاني له هو عامل

(٩١) محاضر وزارة شؤون الهند ١٨٧٤/١٢/١٧ وخطاب رقم ٣٦ — ٩ مؤرخ ١٨٨٥/١/٩ من روس الى كمبرلي .
(٩٢) التقرير الاداري ١٨٧٩ — ١٨٨٠ ص ١٣٣ .

حاسم في المحافظة على عرشه • ولقد حاول المحافظون كثيرا قبل شن هجومهم اقناع الانجليز باتخاذ موقف الحياد من النزاع • ولكن يبدو أن المحافظين العمانيين كانوا يجهلون الأسباب التي كانت تحمل البريطانيين على تأييد السلطان ، فكانوا يرون فيه تدخلا في شؤون عمان ليس له ما يبرره • وعندما قامت وحدة بحرية مسلحة تابعة للانجليز بصد هجوم شنه العمانيون على مسقط في سنة ١٨٧٧ ، تلقى المعتمد السياسي البريطاني في مسقط خطابا من ابراهيم بن قيس شقيق الامام ، وأحد الزعماء العمانيين البارزين يقول له فيه : « لقد تدخلتم في حرب العرب بين الحاكم ورعاياه ، وانكم أشعلتم حربا بغير وجه حق • وهذا أمر يخالف جميع القواعد والقوانين ، وما كنا ننتظره منكم • فاذا كنتم تعتقدون أن جيشكم قوى ، ودولتكم جبارة ، وشعبكم قوى ، فان الله أقوى وأعظم • وعليه نعتمد وبه نستعين • ونحن لا نسعى لغير صداقتكم فلا تعادونا بغير سبب ••• » (٩٣) •

أما البريطانيون فانهم لم يفهموا الأسباب التي كانت تدفع العمانيين الى مناصبة تركي العداء ، على الرغم من أن زعماء الاباضيين قد بلغوا الانجليز أن عداءهم للسلطان مبني على مخالفة المذكور لتعاليم الدين • ولعدم استقامته (أي بسبب اعتداله ورفضه القزمت في المسائل الدينية) (٩٤) •

أما الانجليز فكانوا يعتبرون الاضطرابات الدينية في عمان نوعا من « التمرد المسلح » ضد السلطان أو بالأحرى « مرضا مزمننا » يعود الى حدة مزاج الفرد العربي (٩٥) •

(٩٣) خطاب مؤرخ ١٨ يناير سنة ١٨٧٧ من ابراهيم بن قيس الى روبرتسون •

(٩٤) خطاب مؤرخ ٦ يونيو ١٨٧٤ من حمد بن أحمد الى مايلز • أيضا كتاب لوريير مجلد ١ ص ٥٠٥ — ٥٠٦ •

(٩٥) التقارير الادارية ١٨٧٤ — ١٩٠٤ •

غير أن المساعدة البريطانية لتركى لم تكن تقتصر على التأييد العسكرى وحسب • والى جانب ذلك كانت الحكومة البريطانية تدفع التعويض السنوى عن طريق خزينة الهند • وقد استمر دفع هذا التعويض بدون توقف طوال حكم تركى بن سعيد ، وكان يدفع اليه مقدما فى بعض المناسبات (٩٦) • أما السلطان فكان يوزع هذا المبلغ على الزعماء العثمانيين ذوى النفوذ بصورة مرتبات أو مكافآت ، أو رشوات • وبالتالي كان هذا المال يتسرب الى جيوب الكثيرين من الأفراد ، وكان له تأثير على مواقفهم خلال الأزمات التى كانت تنشأ بين وقت وآخر • فاذا لم نقل بأن المال كان الحاكم فى عمان فقد كان عنصرا هاما فى الحكم •

كذلك ساعد الانجليز تركى بن سعيد على التخلص من منافسيه على الحكم من أفراد أسرته • كانت هذه الخطوات تثير المشاكل للبريطانيين • وفى سنة ١٨٧٤ خصص الانجليز معاش تقاعد للسلطان السابق سالم لقاء تنازله عن مطالبه فى الحكم والاقامة فى الهند • وعندما حاول سالم مغادرة الهند والعودة الى عمان اعتقله البوليس البريطانى وأودعوه السجن وأقاموا حراسة مشددة عليه • وذلك عقابا له على تحديه للسلطات البريطانية • كما أنتهت حياة سالم بن ثوينى نهاية غير سعيدة فى منفاه بالهند سنة ١٨٧٦ ، ومن ناحية أخرى حاول اثنان من أبناء عمومة تركى هما حمد ومحمد ابنا ثوينى القيام بثورة ضد السلطان ، غير أن صموئيل مايلز ، المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط تمكن من القضاء على الثورة وهى فى المهد ، اذ ما أن علم مايلز بأمر الثورة التى يعد لها الاخوان حتى بادروا الى توجيه تحذير لهما • قال فيه بأن حكومته سوف تنظر الى أى محاولة يقومون بها ضد النظام نظرة خطيرة • وكانت نتيجة ذلك أن تصالح الاخوان مع الحاكم (٩٧) • غير ان أخطر منافس عائلى ظهر لتركى هو عبد العزيز

(٩٦) كتاب لوريير مجلد ١ ص ٥١٢ — ٥١٩ •

(٩٧) رسالة رقم ١٠١٩ — ١١٠٠ بتاريخ ١٨٧٤/٩/٣ من روس الى

سالمسبورى •

ابن سعيد ، الأخ غير الشقيق للسلطان • ولم تنجح المحاولات البريطانية للتوفيق بين الأخوين الا مؤقتا ولم يرضخ عبد العزيز للإنجليز الا بعد وفاة أخيه تركي ، حيث وافق على الإقامة في الهند لقاء مرتب شهري وبذلك تخاص السلطان فيصل ، خليفة تركي من أخطر منافس له على الحكم •

كان البريطانيون يتدخلون باستمرار في الخلافات التي تنشعب بين السلاطين وشيوخ القبائل في عمان • وكان تدخلهم هذا يأخذ شكل الوساطة • ولما كان النفوذ البريطاني في الخليج يعتمد في النهاية على قوة الأسطول البحري ، فقد كانت ثمة حدود للتدخل البريطاني لا يمكن تجاوزها للدفاع عن الوجود البريطاني بشكل مباشر • ويعتبر ما حدث سنة ١٨٧٣ تأكيداً لهذا الرأي فقد تلقى المقيم البريطاني روس تعليمات من حكومة الهند جاء فيها : « تخولك الصلاحيات اللازمة لمساعدة تركي مساعدة فعلية والى المدى الذي يمكن أن يصل اليه مرمى مدافع السفن الحربية البريطانية في المنطقة ، على ألا تقوم بأي عمليات عسكرية على البر » (٩٨) • وقد أبرقت هذه التعليمات الى المقيم روس أثر نزاع نشب بين سلطان مسقط وقبيلة آل سعد على ساحل الباطنة ، وبعد أن فشلت المساعي السلمية لحل النزاع • غير أن هذا الحادث وحوادث أخرى مماثلة قد أقنعت العمانيين بأن لا فائدة من القيام بأي ثورة ضد السلطان ، طالما أن البريطانيين يؤيدونه ويشتركون معه في الدفاع •

وعلى أي حال ، فقد كانت القبائل العمانية في داخلية البلاد أقل انقيادا للضغوط والتهديدات البريطانية من تلك التي كانت تقيم على الساحل ، غير أن السلطان والإنجليز قد استخدموا كل ما لديهم من الوسائل غير المباشرة للضغط على قبائل الداخلية • ومن هذه الوسائل فرض ضريبة تأديبية

(٩٨) برقية رقم ٢٨ — ب بتاريخ ٢٠ يناير سنة ١٨٧٤ من حكومة الهند الى روس •

على المصادرات الأجنبية الى عمان وفي بعض الحالات على المستوردات أيضا تدفعها كل قبيلة عمانية تناهض السلطان أو حلفاءه الانجليز • كما كان تعويض زنجبار وسيلة أخرى من الوسائل غير المباشرة لشراء زعماء في الداخل •

وقد تحددت العلاقات بين الحكومة البريطانية والسلطان تركي بشكل أوضح في سنة ١٨٨٨ عندما أعلن البريطانيون ضمانهم لاستقلال مسقط وتعهدوا فيه بتأييد تركي ضد أي اعتداء يقع عليه من جانب العمانيين ••• (٩٩) « غير أن هذا الضمان كان مشروطا من جانب الانجليز بحيث يلتزم السلطان باتباع السياسة التي يرضى عنها الانجليز في ادارة شؤون مملكته » • وقد صدر هذا الاعلان استنادا الى المقترحات التي تقدم بها المقيم روس في سنة ١٨٨٥ • الذي كان يعتقد بأن هجمات العمانيين على مسقط لابد أن تتوقف متى فهم العمانيون بأن الانجليز سوف يتصدون لهم • وقد ظن السر ديوراند ، وزير العلاقات الخارجية في حكومة الهند ، وكان يمثل سياسة التحفظ والاعتدال بالنسبة للوجود البريطاني في الخليج ، ان مثل هذا الضمان سيكون بمثابة « توسيع لنطاق المسؤولية » تجاه حاكم يواجه كثيرا من الصعوبات في الاحتفاظ بالسلطة • غين أن المقيم روس رد على هذا الافتراض ، بأن التعهد لا يلزم الحكومة البريطانية بأي مسؤوليات عدا المسؤوليات التي تتحملها بالفعل نحو تأييد السلطان تركي ، ولكنه سيؤمن الاستقرار للمنطقة • وجاء في رده أيضا بأن السلطان تركي كان ولا يزال من المؤيدين للحكومة البريطانية ، وبأن التعاون الذي أظهره السلطان المذكور في موضوع الرقيق قد قلل من شعبيته في البلاد كما قوى من مركز خصومه السياسيين • وان انهيار حكم هذا السلطان سيشكل ضربة على المصالح البريطانية • وقد أيد الكولونيل مايلز آراء روس في هذا الشأن •

(٩٩) خطاب مؤرخ ١٨٨٦/٢/٩ وقد ورد كمرفق ١ لخطاب رقم ١٤٢ مؤرخ ١٨٨٦/٨/٢٠ من دفرين الى كروس •

وصرح بأن وجود قارب بريطاني مسلح واحد في مياه مسقط كفيل بالحفاظ على عرش السلطان • وبأن الضمان الذي أعطى للسلطان كان تقديرا لما أبداه من تعاون مع البريطانيين • ويصور هذا الكلام مدى النفوذ الذي كان يمارسه روس في رسم السياسة البريطانية في الخليج ، وعلى الرغم من الشكوك التي كانت تراود كلا من حكومتى لندن وكلكتا في موقف ادوارد روس ، فقد كتب لمقترحاته النجاح في نهاية الأمر (١٠٠) • وعلى أى حال فقد استمرت حكومة الهند في ترديد أكذوبة « عدم التدخل في الصراعات العائلية والشؤون الداخلية » باعتبارها السياسة الرسمية لبريطانيا في عمان وبأن ضمان سنة ١٨٨٦ يجب أن يظل اجراء استثنائيا تعهدت به الحكومة البريطانية مقابل خدمات خاصة قدمها السلطان الى بريطانيا • وهكذا في يوم ١٣ يوليو سنة ١٨٨٦ قام المعتمد البريطاني في مسقط بتبليغ السلطان تركى بالضمان البريطاني • وذلك في حفل رسمي أقيم بهذه المناسبة وقلد فيه السلطان وسام الفارس الأعظم لنجمة الهند ، وبهذا الاجراء استكملت بريطانيا سيطرتها على عمان (١٠١) •

في مقابل المساعدة والحماية البريطانية تعهد تركى بالتعاون مع البريطانيين في تنفيذ مخططاتهم السياسية في عمان • وكان البريطانيون يفضلون بأن تبقى عمان منطقة محايدة بحيث لا تشكل أى خطر على الهند أو المواصلات الامبريالية • لقد سبق أن تناولنا موضوع تعاون السلطان تركى مع الانجليز في تحريم الرقيق • كما تعهد السلطان للمقيم روس بأن لا يتغيب لفترات طويلة عن البلاد لحاجة البريطانيين الى وجوده • غير أن السلطان كان يميل الى التقليل من أهميته بالنسبة الى البريطانيين ،

(١٠٠) خطاب مؤرخ ١٨٨٥/٨/١٢ وقد ورد كمرفق رقم ٣ لخطاب رقم ٤ مؤرخ ١٨٨٥/٩/١٦ من ديوراند الى روس وخطاب مؤرخ ١٨٨٥/١٠/٧ من روس الى ديوراند وقد ورد كمرفق رقم ٥ لخطاب مؤرخ ١٨٨٦/٢/٩ من ديوراند الى روس •

(١٠١) « من دوفرين الى كروس ٢٠ أغسطس ١٨٨٦ رقم ١٤٤ فايسروى » سجلات الهند ٤ مجلد ٤٧ •

كما كان يصاب بنوبات يأس ، حاول خلالها التنازل عن السلطة ، لو لم يقنعه روس بالعدول عن هذه الفكرة (١٠٢) • أما فيما يتعلق بالتفاصيل الادارية للحكم فلم يكن البريطانيون يتدخلون فيها ، طالما أن السلطان يحافظ على السلم في المنطقة الساحية من البلاد •

ولقد اعتاد تركي مجاملة البريطانيين كثيرا • وكان هؤلاء يردون عليه المجاملة بالمثل وقد بلغ من مجاملته للانجليز أنه أصدر أوامره في أحد أعياد الميلاد باطلاق ٢١ طلقة مدفع تحية لهذه المناسبة • وقد تلقى على هذه اللقطة شكر المقيم البريطاني في الخليج • غير أن هذا التصرف قد أثر على شعبيته بين الأوساط العمانية المحافظة كما أنه أجاز للمعتمد البريطاني أن ينتقل في البلاد كيف شاء • وأتاح هذا القرار لمايلز أن يقوم بزيارة عمان الداخلية في سنة ١٨٧٥ ، وسنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٨٥ ثم في سنة ١٨٨٦ •

غير ان أصعب مشكلة واجهها السلطان تركي هي مشكلة توفير الحماية للتجار الهنود المقيمين في عمان • ففي الحالات التي كانت تتعذر هذه الحماية ويتعرض بعض هؤلاء التجار لاعتداءات وخسائر مادية ، كان السلطان يقوم بدفع التعويضات ، اذا تعذر القبض على الجناة • ولقد اضطر تركي أكثر من مرة الى ابلاغ الانجليز بعدم استطاعته توفير الحماية للرعايا الهنود المقيمين في بعض المناطق الداخلية • وطالب بأن يحصر هؤلاء نشاطهم ضمن المناطق الخاضعة لسلطته وبأن لا يتعدوها • ورغم هذا التحذير فقد كان التجار الهنود يغامرون بالتوغل داخل المناطق الخطرة • واذا حدث أن هاجمهم أحد أو اعتدى عليهم بالسرقة أو النهب ، كان المثلون البريطانيون في مسقط يقفون الى جانبهم • وفي الحالات التي يتعذر على السلطان اتخاذ أي اجراء ضد الجناة ، فان السلطات البريطانية هي التي تتولى ردع الجناة وذلك عن طريق استخدام القوة المسلحة •

(١٠٢) رسالة مؤرخة ٨ يناير سنة ١٨٨٣ من جرانت الى تركي بن سعيد .
سجلات الهند ٤ مجلد ٤٧ •

وبذلك تتمكن من تحصيل الغرامة المفروضة عليهم^(١٠٣) . وكان من المتفق عليه أن التجار الهنود يبالغون في تقدير خسائرهم ظنا منهم أن السلطات البريطانية سوف تؤيدهم حتى في هذه الأحوال^(١٠٤) .

وعلى أى حال فإن مسألة الامتيازات الإقليمية البريطانية في عمان على أيام تركى قد وصلت الى مرحلة حرجة فقد أبلغ تركى البريطانيين ان عددا كبيرا من التجار الهنود المشمولين بالحماية البريطانية كانوا يتهربون من دفع الضرائب المحلية المستحقة عليهم دون حق . وقد أشار تركى بصفة خاصة الى الهنود المسلمين (الخوجا) ، وقال بأنه يعتبر جميع أفراد هذه الجالية رعايا عمانيين ، وبأنه لم يوافق في سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٦ على ادراجهم ضمن الهنود المشمولين بالحماية البريطانية الا قسرا . وفي عام ١٨٧٦ خول المعتمد البريطانى في مسقط صلاحية فرض الحماية على رعايا الولايات الهندية المشمولة بالحماية البريطانية ومنذ أوائل سنة ١٨٧١ بدأت الوكالة السياسية البريطانية في مسقط بتسجيل أسماء الرعايا البريطانيين المحميين في عمان ، غير أن هذه السجلات لم تكن تخلو من المتناقضات حتى بعد مضى عشرين عاما على بدء هذه الاجراءات . وكانت معظم القضايا التي تعرض على محكمة القنصل البريطانى في مسقط هي قضايا بين عمانيين وهنود وقبل سنة ١٨٧٨ كان المقيم البريطانى يمارس صلاحيات قنصلية مطلقة في الخليج دون أن يخوله القانون البريطانى تلك الصلاحيات . ولم يخول القنصل البريطانى سلطات قنصلية مطلقة قبل عام ١٨٧٨ ، كما لم يقر البرلمان قانون السلطات الخارجية والصلاحيات القانونية للمقيم قبل سنة ١٨٩٠ . أما القوانين السارية على الرعايا البريطانيين في الخليج فهي قوانين حكومة الهند البريطانية ، كما كانت المنطقة من الوجهة القضائية خاضعة للمحكمة العليا في بومبى . وكان استئناف الأحكام القنصلية في

(١٠٣) كتاب لوريير مجلد ١ ص ٥١٣ — ٥١٩ .

(١٠٤) رسالة رقم ١١ — ٤٣ مؤرخة ٢٣/٤/١٨٧٠ .

المنطقة ترفع الى تلك المحكمة • أما من الناحية الفعلية ، فقد كانت هذه المحكمة تمارس سلطة قانونية على الخليج من منطق الأمر الواقع (١٠٥) •

دور بريطانيا في عمان والخليج : ١٨٩٢ : يوم غادر ادوارد روس منصبه كمقيم بريطاني في الخليج سنة ١٨٩٢ كان قد ترك وراءه جهازا للحكم غير المباشر والسيطرة يعمل في دقة فائقة • لقد وضع روس نظاما فعالا للسيطرة وفي نفس الوقت لا يكلف بريطانيا نفقات كثيرة لأنه يقوم على أساس السيطرة غير المباشرة (١٠٦) • ويمكن القول أن الامبراطورية قد بلغت أوج قوتها في آسيا وأفريقيا على أكتاف حكام من طراز سلطان مسقط وعمان • ان ما كانت تهدف اليه بريطانيا في معظم المناطق التي سيطرت عليها هو استقرار الأمن والسلام في ربوعها لأسباب استراتيجية وتجارية • وقد استطاعت بريطانيا تحقيق هذا الهدف في أكثر الحالات بأقل جهد وتكاليف ممكنة ، وذلك عن طريق تأييدها لبعض الحكام المحليين ، وربطهم بعجلة المساعدات العسكرية والمالية ربطا لا فكاك لهم منه • وعندما لم يكن يوجد مثل هذا الزعيم فان السياسة البريطانية كانت تخلقه من العدم • ان كل ما يقع تحت سلطان نفوذ البريطانيين ، وكل ما يمكن أن يتصوروه كأن يتحول الى دول (١٠٧) • ومن هنا كان البريطانيون يتجاهلون بعض مناطق عمان وبعض مجموعات القبلية الهامة ، لا لشيء الا لأنها لا تقع تحت طائلة النفوذ الفعلي للسلطان فكل من كان يتحدى السلطان يعتبر في نظرهم « متمردا » أو « ساخطا » •

ان التدخل البريطاني المقنع لم يكن يكشف عن وجهه الا في بعض

(١٠٥) المصدر نفسه خطاب رقم ١٥٣ — ١٠ بتاريخ ١٨٧٥/٢/٦ من روس الى اللورد سالسبوري •
(١٠٦) من هاملتن الى الجين ٤ ديسمبر ١٨٩٦ رقم ٥٠ أمانة سر الهند — ملف رقم ٦ •
(١٠٧) « الادارة الاستعمارية » تأليف جي . ١ . بارنز مجلد ٢ ج ٢ صفحة ١٣٣ — ١٤٨ سنة ١٩٦٠ •

الحالات ، كموضوع الرقيق الذي تعارضت فيه وجهة النظر البريطانية مع تقاليد سكان البلاد ، أو فيما يتعلق بموضوع الدفاع عن المصالح الامبريالية البريطانية ، ففى هذه الحالة لم يكن البريطانيون يترددون فى اللجوء الى القوة لفرض سياستهم • ان معظم البريطانيين الذين لم يكونوا يحسون بوجودهم فى المنطقة ، كانوا يشيرون الى ان القيم الثقافية التى كانوا يدافعون عنها فى عمان أخذت تتعرض لموجة من الأفكار والمؤسسات والتكنولوجيا الحديثة • والواقع أن الانجليز كانوا يزعمون فى كل مناسبة بأن وجودهم فى الخليج يقوم على أساس عدم التدخل وعدم التورط فى التقاليد القومية لأهل المنطقة • وكان ليويس بلى كأحد المدركين للمؤثرات الحضارية ودعاتها الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يدرك نوع التغييرات الثورية التى يمكن أن تأخذ مجراها وراء ستار « عدم التدخل » •

لقد كان الحكم غير المباشر فى عمان يعتمد فى أكثره على مجموعة من السوابق • ولقد نجح هذا الحكم فى تحقيق الهدوء لمنطقة كانت تعتبر من أكثر المناطق تعرضا للثورات والقتال السياسية العنيفة • ولقد ظهر للبريطانيين بأن الحكم غير المباشر هو أضمن الأساليب لحماية المصالح الامبريالية الواسعة •

لقد كان الحكم غير المباشر فى عمان يعتمد فى أكثره على مجموعة من والسيادة ، على أساس أن البريطانيين هم مرجع السلطة النهائى • ورغم أن المعاهدات التى عقدتها بريطانيا لا تنص على هذا الحق نصا صريحا ، إلا انه حقيقة معترف بها من الجميع • كما أن مبدأ الخضوع لسيادة الدولة الكبرى كان يتفاوت بين منطقة وأخرى فلقد كانت التزامات عمان للبريطانيين أقل من التزامات البحرين ، كما كانت التزامات البحرين أقل بدورها من التزامات الولايات الهندية ، أما الشؤون الخارجية لدول المنطقة فقد كانت خاضعة للسيطرة البريطانية بغير استثناء ، وكانت الحكومة البريطانية تمارس هذه السلطة على الرغم من عدم وجود نص صريح بها فى المعاهدات • وإذا كانت السياسة الرسمية للحكومة البريطانية فى الخليج

تقوم على أساس « عدم التدخل » في الشؤون الداخلية لدوله ، فقد كانت الظروف الفعلية وسيلة للتأثير على مجريات الأمور في المنطقة بشكل حاسم . والأمراء العرب الذين كانوا يتعاونون مع الحكم غير المباشر ، كانوا يعيشون في مأمن من الغزو والثورات ، وغيرها من الأخطار فيما عدا الاغتيالات . ورغم هذا فقد كان البريطانيون يشكون دائما من ضعف سلطة الأمراء والزعماء الخاضعين لهم . وكأنهم يجهلون أن ضعف السلطة عند هؤلاء الحكام سببها اعتمادهم على القوة البريطانية من ناحية ، أو على الأقل انتهاجهم سياسة يرضى عنها البريطانيون بينما ترفضها الشعوب . وبالتالي فقد كان هؤلاء الحكام في موقف لا يحسدون عليه من حيث أنهم كانوا مضطرين الى ارضاء الانجليز ، وارضاء شعوبهم في نفس الوقت . وهي مهمة تكاد أن تكون مستحيلة . ومن ناحية أخرى فقد كانت الأوضاع الاقتصادية في المنطقة تزيد من حرجة موقف الحكام . فضغط رجال الحاشية والمحاسبين على الحكام لانتزاع أكبر قدر من المرتبات والمكافآت ، كان يؤدي الى افلاس الخزينة ، كما كانت القروض التي يحصل عليها الحكام تزيد الموقف المالي سوءا . وكان بعض الحكام الضالعين مع بريطانيا يقفون موقف اللامبالاة من تردى الأحوال الاقتصادية في بلادهم ، لأنه لم يكن من مصلحة البريطانيين أن يوجد حكم حازم قوى في المنطقة .

وعلى هذا القياس فان الوجود البريطاني في عمان والخليج لم يكن وجودا سافرا أو واضحا ، وعلى وجه الخصوص فيما يتصل بعلاقة بريطانيا ، باعتبارها الدولة ذات السيادة العليا ، وبالحكام المحليين . وعلى أية حال فمن المهم أن نتذكر بأن الوجود البريطاني في سنة ١٨٩٢ لم يكن قائما على أساس المعاهدات الرسمية وحدها . وانما على أساس مجموعة غير ثابتة من الاجراءات والتقاليد التي لا تشير اليها المعاهدات اشارة رسمية ، ولكنها تعتبر ملزمة لحكام المنطقة . وبالتالي فان جانبا كبيرا من

هذه التقاليد والاجراءات غير الرسمية ، كتدخل المقيم في الخلافات التي تنشب على ولاية العرش بين دول الخليج ، أو في المنازعات التي تنشأ بين حكامه ، تعتبر في حد ذاتها اتفاقات قانونية معترفا بها . وفضلا عن ذلك فإن التغييرات التي طرأت على أوضاع الخليج الاقتصادية والاجتماعية قبل سنة ١٨٦٢ كنتيجة لظهور الأساليب العصرية التي المنطقة قد أسهمت بدورها في الحد من استقلال الحكام المحليين ، وازدياد اعتمادهم على البريطانيين . ان دخول المحركات البخارية ، واقتقاد المنطقة الى ركائز مالية مستقلة وسيطرة المؤسسات الهندية والبريطانية على الحياة التجارية للمنطقة ، كل هذه العوامل قد عززت ولو بشكل غير مباشر من قبضة النفوذ البريطاني على مقدرات الخليج . وما ان حل عام ١٨٩٢ حتى كان أمراء الخليج قد وجدوا أنفسهم مرغمين على التصرف ضمن أطر من القوانين المتغيرة التي تحد من حريتهم . وبالتالي فقد كانت المهمة الأساسية والمستمرة للمقيمين البريطانيين هي التأكد من أن الحكام المحليين ، ورعاياهم ومنافسيهم السياسيين يدركون المضمون المتغير للقواعد والقوانين التي ينبغي أن يتقيدوا بها ازاء كل حادثة . أما الحكام أنفسهم فلم يكونوا أكثر من همزة وصل رئيسية في عملية نقل هذه القواعد والقوانين الى شعوبهم .

خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٢ والعشرينات من القرن التاسع عشر وصلت السيطرة البريطانية غير المباشرة في الخليج ذروتها ، الا أنها أخذت تضعف فيما بعد ، على الرغم من أن مظاهر هامة من هذه السيطرة ما تزال ماثلة حتى اليوم . فلقد بدأت سلسلة من التنازلات من جانب البريطانيين تجاه حكام البلاد ، كما بدأت السلطة البريطانية تتقلص كنتيجة لتلاشي الاحتكار البريطاني على المؤسسات الحديثة في المنطقة من ناحية ولنفاد صبر أهل البلاد من ناحية أخرى ، مما أدى الى تخفيف كبير في القيود المفروضة ، كما أن التغييرات التي تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية في وضع الامبراطورية البريطانية ، الى جانب الثراء السريع لبعض دول الخليج قد مكن عددا كبيرا من حكامه من المطالبة بالغاء الالتزامات

الرسمية التي تسندها المعاهدات • كذلك برهن الحكم البريطاني غير المباشر في القرن العشرين على أنه أسلوب إداري محدود ، لا يصلح لشيء عدا المحافظة على الأوضاع على حالتها • ولهذا لم يعد هذا النظام يستطيع الاستمرار أو الصمود في وجه التغيير • وبالتالي أصبح هدفا لهجوم من الطرفين • غير أن السر ادوارد روس كان قد وصل بنظام الحكم غير المباشر في سنة ١٨٩٢ إلى أوج قوته •

الفصل السادس

الذفَاع عن السَّيطرة البريطانيَّة في الخَلِيج

١٨٩٢ - ١٩٠٣

يوم غادر السر ادوارد روس الخليج سنة ١٨٩٢ كان الوجود البريطاني فيه قد استتب له الأمر . فلقد كانت سيادة بريطانيا عليه سيادة تعتمد على السيطرة المطلقة تقريبا على الشؤون الخارجية للامارات العربية فيه ، ذلك الى جانب ما كانت تمارسه من نفوذ قوى على الأوضاع السياسية الداخلية ، والنفوذ الشامل على اقتصاد المنطقة ، وما يشبه الاحتكار على وسائل المواصلات الحديثة . كما كانت القوات البريطانية والاداريون البريطانيون موزعين على سائر مدن المنطقة . ولم تكن هناك صورة محددة للمصالح والاهتمامات البريطانية في الخليج في ذهن واضعي السياسة الكبار في كلكتا وعلى الأخص في لندن . فقد كانت السيطرة البريطانية بالنسبة الى كثيرين من هؤلاء شيئا مقبولا ولكنهم لم يكونوا يعتبرونه أمرا حيويا بالمعنى المطلق لهذه الكلمة . وفي الواقع كان هناك احتمال دائم أن ينهار البناء المتين الذي قام على جهود عدد كبير من المقيمين البريطانيين . اذا ما عهد به الى عناصر دون المستوى المطلوب . وعلى الأخص ازاء الموقف السلبي الذي كانت تقفه كل من حكومة لندن وكلكتا من المنطقة . كما كان من المحتمل أيضا في حالة حدوث تغيير في طبيعة العلاقات بين الدول الكبرى ، أو فيما اذا تعرض أمن الهند الى تهديد خطير من خلال مناطق الحدود العازلة ، أن تضطر حكومة الهند البريطانية والحكومة البريطانية نفسها الى تقديم بعض التنازلات من سيادتها في الخليج ، مقابل تسويات لمشاكل أخرى أو مشاكل أشد إلحاحا .

وخلال التسعينات من القرن التاسع عشر بدأ كلا الاحتمالين على الوجود البريطاني في الخليج تتضح معالمه . فقد أسندت شؤون الخليج

الى « مجموعة جديدة » من المسؤولين أقل كفاءة واستعدادا ممن سبقوهم ، كما أصبح الخليج محصور أطماع الامبرياليات الفرنسية والروسية ، والألمانية . وقد بدا لفترة من الوقت أن السيادة البريطانية في المنطقة ليست موضع شك . ولكن ما أن حل عام ١٩٠٣ حتى شعر المسؤولون البريطانيون في لندن وكلكتا بالحاجة الى تدعيم الجهاز الادارى الذى تركه المقيم روس ، وتأکید السيادة البريطانية بشكل قاطع . وتمشيا مع هذه الرغبة أخذ الساسة البريطانيون يظهرون اهتماما ملحوظا بمنطقة الخليج ، كما أعلنت حكومة لندن عن عزمها على أن تأخذ بنفسها مسؤولية تقرير المصالح البريطانية في الخليج والاشراف عليها .

المقيمون السياسيون الضعاف — ١٨٩٢ — ١٨٩٩

على الرغم من أن التنظيم الادارى الذى وضعه روس للسيطرة على شؤون الخليج كان على درجة عالية من الكفاءة ، فقد كان لابد من تدريب وصقل المنتدبين البريطانيين لشغل هذا الجهاز ، وذلك تحقيقا لأفضل النتائج . وفي الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٩٢ تولى شؤون هذا الجهاز عدد من المقيمين ، والمقيمين المساعدين ، ممن يتمتعون بالكفاءة والموهبة والنشاط وقد أدوا مهمتهم على الوجه الأكمل . وعند احالة روس على المعاش تدنى مستوى الكفاءة بين المسؤولين البريطانيين الى أقصى حد . ولو كانت فترة التسعينات من القرن التاسع عشر فترة عادية ، لكان الأمر ، غير أنها كانت فترة حافلة بالأزمات الخطيرة التى أخذت تهدد الوجود البريطانى بشكل لم يسبق له مثيل . فلقد كانت هذه الأزمات أكبر من أن يتصدى لها هؤلاء المسؤولون . وبالتالي وجدت حكومتا كلكتا ولندن أن الوضع يتطلب قدرا كبيرا من الاهتمام . وكانت القروض التى تقدمها الحكومة البريطانية الى حكام الخليج ، وعلى رأسهم سلطان مسقط ، من العوامل التى أسهمت في تعزيز قبضة الامبراطورية البريطانية على المنطقة في التسعينات . غير أن الخليج لم يشهد في أعقاب سنة ١٨٩٢

ممثلا بريطانيا في مستوى بلى وروس ، ومما ساعد على اضعاف موقف المقيم البريطانى في الخليج خلال التسعينات من القرن هو صراع الدول الكبرى على المنطقة وقد فجر اضطرابات داخلية كثيرة • وبالتالي لم يكن في وسع أى مسؤول بريطانى أن يصمد في وجه الخطر المزدوج من غير تأييد حكومته وشدها لأزره • وعلى أى حال فحتى سنة ١٨٩٩ لم تكن حكومة لندن أو كلكتا تقدم الدعم المطلوب للمقيمين البريطانيين الذين تولوا مناصبهم بعد ادوارد روس • والمشاكل التى كانت تجابه المقيمين البريطانيين في الخليج لم تكن في نظر تينك الحكومتين مشكلات ملحة أو هامة ، ولهذا كانت حكومة كلكتا تختار ممثليها في الخليج من مستويات عادية • ولكن في سنة ١٨٩٩ بدأ مركز بريطانيا في الخليج ينهار •

في عام ١٨٩٢ عين اللفتنانت أى • سى • تالبوت مقيما سياسيا لبريطانيا في الخليج خلفا لادوارد روس ، الا أنه ترك هذا المنصب ليشغل منصب مساعد وزير الشؤون الخارجية في حكومة كلكتا وخلال سنة ١٨٩٤ تعاقب على شغل منصب المقيم في الخليج ثلاثة بريطانيين • فقد تولا الكولونيل اف • أى • ويلسون من ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٧ ، ثم تولا اللفتنانت كولونيل ام • جى • ميد حتى سنة ١٩٠٠ • وتغيير المقيمين البريطانيين بهذه الصورة يتناقض مع الفترات الطويلة التى شغلها كل من روس (٢٠ سنة) وبلى (١٠ سنوات) • ولم تكن أوضاع المعتمدين السياسيين في مسقط بأفضل من ذلك • فقد تولى هذا المنصب ما بين سنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٩ خمسة معتمدين سياسيين كانت أطول مدة هى تلك التى شغلها الملاجور جى • هيز سادلر (Hayes Sadler) حيث استمر أكثر من عامين • كما تولا بالنيابة في مناسبات أخرى ثلاث امتدت نحو أكثر من عام الدكتور اى • سى • جى • جاياكار (A.S.G. Jayaker) أثناء تغيب المعتمدين في الاجازات •

هذا التغيير في أشخاص رجال التمثيل البريطانى في الخليج خلال

التسعينات من القرن التاسع عشر عكس ظلاله على كفاءة الجهاز الادارى للاشراف البريطانى على الخليج . كما كان النفوذ والخبرة الشخصية التى اكتسبها الممثلون البريطانيون السابقون خلال سنوات طويلة من وجودهم فى المنطقة من مميزات نجاحهم . قبل التسعينات من القرن كان معظم المرشحين لشغل المناصب الهامة فى الخليج يتلقون تدريباً خاصاً لفترة طويلة داخل المنطقة نفسها حيث يعينون فى مناصب أقل مسؤولية . وكان لابد لهؤلاء من اجادة اللغة واكتساب الخبرة بالأوضاع المحلية ، قبل اسناد أى منصب مسؤول اليهم . وعلى سبيل المثال أمضى روس نحو تسع سنوات كمسؤول تحت التجربة فى مناصب أقل مستوى قبل تعيينه مقيماً بريطانياً فى الخليج (١) .

فى التسعينات من القرن التاسع عشر بدأت العيشة الجديدة من المسؤولين البريطانيين تفقد تباعا الى الخليج . ولقد قيل عن هذه العينة أن خبرتها الدبلوماسية محدودة بالهند ، وحياة أفرادها موزعة بين الأندية وصفوف الجيش وبحاشية الأمراء الهنود (٢) . وبالتالى لم تكن مناصب الخليج ، وعلى الأخص مسقط ، نظراً لقسوة مناخها ، بالمناصب التى تغرى أمثال هؤلاء (٣) . وبالإضافة الى ذلك كانت حكومة الهند فى تلك الفترة تعاني من نقص فى الاداريين الأكفاء المدربين على اللغات الشرقية ، ومن لهم معرفة وثيقة بالشعوب التى يسيطرون عليها . ولم يبدأ التفكير بأعداد مثل هؤلاء الأشخاص قبل هذا القرن (٤) .

(١) رسالة مؤرخة ١٨٩٣/٩/٢٧ من لانس داون الى كمبرلى وفيها ينتقد طريقة تغيير رجال السلك لحكومة الهند بسرعة مما كان له تأثيره على علاقة بريطانيا بالامراء المحليين .

(٢) نبذة من خطاب الدكتور كانتين من افراد بعثة التبشير الهندية فى مسقط وقد استشهد به . بى . جريفز P. Graves من كتابه « سيرة حياة برسى كوكس » (طبعة لندن ١٩٤١) .

(٣) مجلة كونتمپورارى ريفيو (The Contemporary Review) ص ٨٧٥ بقلم جى . تى . بنت .

(٤) مجلة ايسياتيك ريفيو Asiatic Review مقال بقلم جى . دى ريس تحت عنوان « روسيا والهند » والخليج والحدود الغربية للهند ص ٢٤٧ .

ويختلف موقف المسؤولين البريطانيين الجدد من الخليج ، ومن المسؤولين التي يتحملونها تجاه السكان العرب الذين يشرفون على أمورهم ، اختلافا كبيرا عن سبقوهم من عهد روس . فلقد استطاع كل من روس ومايلز كسب صداقة العرب واحترامهم . وكانا متفانيين في عملهما ، كما يتضح من المؤلفات العديدة التي كتبها عن المنطقة لدرجة انهما تحولوا الى عاشقين للخليج . كما كانت معاملتهما لحكام الخليج تتسم بالأدب والاحترام ، وكانا يراعيان تقاليد البلاد وعادات أهلها . أما في التسعينات من القرن التاسع عشر فلم يكن المقيمون البريطانيون يتحلون بتلك اللباقة والحماسة التي طبعت أعمال من سبقوهم من المسؤولين . ومن الواضح أن العينة الجديدة من الممثلين البريطانيين كانت تتشاطر المآجور هيز سادلر ، المعتمد السياسي البريطاني في مسقط من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٨٩٦ ، وغير الميال الى الخليج ، تشاطره رأيه في العرب اذ يقول : « لا يمكن الوثوق بأى عربى » ^(٥) . وتكشف التقارير التي تتناول هذه الفترة فقدان الانسجام بين البريطانيين والعرب وانهيار روح الثقة المتبادلة بين الفريقين تلك الثقة التي تميز بها عهد المقيم ادوارد روس . وينطبق هذا الوضع أكثر على مسقط ، حيث أخذت العلاقات بين البريطانيين والسيد فيصل تسير من سيئ الى أسوأ وظلت هكذا حتى سنة ١٨٩٨ وسنة ١٨٩٩ . عندما قام السلطان المذكور بمحاولة لاستبدال الحماية الفرنسية بالحماية البريطانية ومن الواضح أن مستوى هؤلاء الممثلين قد تدهور في التسعينات ، وما بين عام ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٦ كان أغلب الممثلين البريطانيين ، رغم ضعف مستواهم الأخلاقي يتكلمون العربية وملمين بالأوضاع المحلية في المنطقة . وما بين سنة ١٨٩٦ وسنة ١٨٩٩ وصل مستوى هؤلاء الى الحضيض فاللفتناننت ام . جى . ميد (Lt. M. J. Meade) على الرغم من حسن نيته كان رجلا أخرق . بينما المآجور سى . جى . اف . فاجان (Major. C. G. F. Fagan) على الرغم من

(٥) رسالة رقم ٣٩ مؤرخة ١٨٩٦/٩/٣٠ من الجين الى هاملتون .

مؤهلاته العسكرية التي نالها أثناء خدمته في الهند وصل بالعلاقات الانجليزية العمانية الى أدنى مستواها . وبما أن فاجان لم يكن يجيد العربية ، فقد كان يعتمد على أحد موظفيه في ترجمة خطابه للسلطان . غير أن هذا الموظف كان مغرما بافشاء أسرار الدولة في المحلات العامة . ولقد تدهورت العلاقة بين فاجان وفيصل تدهورا تاما في سنة ١٨٩٩ . وكان فاجان يتعامل مع السلطان بطريقة فظة وكان يوجهه اليه الانذارات من وقت الى آخر ، وإذا لم يرضخ السلطان هده باستخدام القوة ^(٦) . وقد أثار هذا الوضع اهتمام حكومتى لندن وكلكتا في سنة ١٨٩٩ وكان معروفا في هذه الدوائر أن فاجان يفتقر الى « أبجديات الدبلوماسية » كما قال عنه وزير الدولة لشؤون الهند فقد كان رجلا أخرق بكل ما في الكلمة من معنى ^(٧) . وفي سنة ١٨٩٩ ، بعد أن مضى خمس سنوات على المحاولات الفرنسية لتقويض الوجود البريطانى في الخليج ، تقرر ايفاد عناصر أفضل الى الخليج ، رغم أن المنطقة في رأى الدوائر العليا لم تكن تستحق هذا النوع من الاداريين ^(٨) . فقد اقتنعت هذه الدوائر من أن المشاكل التي تواجهها بريطانيا في المنطقة تعود الى عدم كفاءة ممثليها ، وبأن استعادة بريطانيا لمركزها في الخليج يتوقف على وجود رجال أكفاء يمثلون مصالحها فيه . وهكذا غادر الماجور فاجان مسقط في شهر ديسمبر سنة ١٨٩٩ ومعه طاقم الادارة البريطانية بأكمله . أما الكولونيل ميد فقد سلم العهدة في الخليج في شهر ابريل عام ١٩٠٠ .

(٦) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/٢/٦ ورسالة مؤرخة ١٨٩٩/٥/١٥ ورسالة مؤرخة ١٨٩٩/٥/١٨ من هاملتون الى كرز . وكان اللورد سالسبورى ، رئيس وزراء بريطانيا غير راض عن هؤلاء الممثلين وبالاخص عن الكولونيل ميد .

(٧) رسالة مؤرخة ١٩٠٠/١/٥ من هاملتون الى كرز . ابتداء من سنة ١٨٩٦ بدأ اللورد هاملتون وزير الدولة لشؤون الهند يعرب عن امتعاضه من نوعية الممثلين البريطانيين في الخليج . انظر خطاب رقم ٣٨ بتاريخ ١٨٩٦/٩/٩ من هاملتون الى الجين .

(٨) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/٢/١٦ من هاملتون الى كرز .

خلف فاجان في مسقط الماجور برسى كوكس الذى اشتهر باقامة دولة الانتداب البريطانى على العراق • وبقي كوكس في مسقط حتى سنة ١٩٠٤ عندما عين مقيما بريطانيا في الخليج • ولقد حقق كوكس نجاحا كبيرا في مسقط • وفي اول اجتماع له مع السلطان استطاع أن يمهّد الطريق لاقامة علاقات ودية بين عمان وبريطانيا • ويوم انتهت مدة خدمته في مسقط كانت عمان تدور بالفعل في فلك الاستعمار البريطانى أكثر من أى وقت مضى (٩) • وبالرغم من أن كوكس لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به كل من بلى وروس من استقلال في عمله ، الا انه لم يكن يقل في مستواه عن هذين الممثلين البريطانيين البارزين • وقد خلف الكولونيل ميد اللفتنانت بى • اى • كمبل الذى بقى في منصبه من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٠٤ • وعلى الرغم من أن اللفتنانت كمبل قام بواجبه على الوجه الأكمل ، الا أن الظروف لم تؤاذه لى تبرز موهبته ، لأن اللورد كرزن ، نائب الملك في الهند أصبح يشرف على كل صغيرة وكبيرة من سياسة الخليج •

كان لاهتمام كرزن بالخليج أو بالأحرى تمرسه به موقف على طرفي نقيض من موقف الذين سبقوه • ففي الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٩ لم تظهر أى من حكومة لندن أو كلكتا أى اهتمام جدى بشؤون الخليج رغم ازدياد قوى التحدى للنفوذ البريطانى هناك • وفي سنة ١٨٩٢ كتب اللورد كرزن يشكو من أن المسؤولين في حكومة الهند ولندن لا يقدرّون أهمية السيطرة البريطانية على الخليج بالنسبة للدفاع عن الهند (١٠) • فحتى ذلك الوقت كانت ممرات أفغانستان هي النقطة الوحيدة المكشوفة في خط الدفاع عن الامبراطورية في نظر المسؤولين البريطانيين (١١) • وقد

(٩) خطاب مؤرخ ١٩٠٠/١/٥ من هاملتون الى كرزن • ايضا Precise Mashtat ص ٨١ ، كذلك يمكن الرجوع الى كتاب « حياة كوكس » ، تأليف جريفز وذلك للاطلاع بصورة أوفى على أعمال كرزن •
(١٠) « فارس والمسألة الفارسية » تأليف جى • كرزن (طبعة لندن ١٨٩٢) جزء ٢ ص ٩٨/٣٩٧ •
(١١) « مسألة الشرق الاوسط أو بعض مشاكل الدفاع عن الهند » ص ٢٩١ (طبعة نيويورك ١٩٠٣) •

خلت الرسائل التي تبادلها نائب الملك في الهند مع وزير الدولة لشؤون الهند في لندن خلال الفترة الممتدة من سنة ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٥ من أى إشارة الى الخليج ! ولم يلق موضوع الخليج الاهتمام قبل سنة ١٨٩٦ عندما أثار تدهور الوضع في المنطقة انتقادات عامة من أكبر شخصيتين مسؤولتين عن رسم سياسة الهند • فلقد كانت فكرة ترك مسألة الخليج للمقيم روس لا تزال قائمة حتى سنة ١٨٩٢ ، بحيث أن حكومة الهند لم تعد تشغل نفسها بموضوع الخليج حتى بعد أن غادر روس الخليج كمسؤول بريطاني فيه • وفي أوائل التسعينات كانت حكومتا لندن وكلكتا متفقتين على أنه لا يوجد أى خطر على الهند أو على حدودها • وفي سنة ١٨٩٤ كان البريطانيون واثقين تمام الثقة أن كل شيء في الخليج قد أصبح تحت سيطرتهم بحيث أخذوا يفكرون في خفض النفقات العسكرية في الهند (١٢) •

قبيل تلك الفترة كان موضوع الخليج يشغل تفكير نائب الملك في الهند • وكان اللورد الجين دائم الشكوى من كثرة التقارير التي تقدم اليه بشأن مسقط حتى أصبحت تشكل أضخم ملفات عرفها في حياته (١٣) • وكان يقول بأن مشكلات الخليج مشكلات بالغة الصعوبة ومن العسير اتخاذ أى قرار بشأنها ، ورغم هذا فلم يكن يولى شؤون هذه المنطقة أى اهتمام • ومن الانصاف للورد الجين أن نشير الى أن المشاكل التي كانت تستأثر باهتمامه هي مشاكل الحدود الشمالية الغربية للهند وكانت تعتبر أخطر المشاكل وأهمها وبالتالي لم تكن حكومة كلكتا تحفل بالأخطار الوهمية في الخليج • وعلى كل حال ففي نهاية ١٨٩٧ بدأ القلق يساور رجال الحكم في الهند من تسرب الأسلحة التي ترد من الخليج الى منطقة قبائل الحدود الهندية — الأفغانية • وفي سنة ١٨٩٨ تأكد هذا الشك ، الأمر الذي أسفر

(١٢) خطاب رقم ٢ مؤرخ ١٨٩٤/٢/٩ من كمبرلى الى الجين •
(١٣) خطاب رقم ٣٩ مؤرخ ١٨٩٦/٩/٣٠ من الجين الى هاملتون •

عن اقناع سلطان عمان وغيره من حكام الخليج بالموافقة على تقييد تجارة الأسلحة في بلدانهم^(١٤) . وهكذا بدأت شؤون الخليج تسيطر على اهتمام السلطات العليا في الهند ، ولكن مع هذا الاهتمام بدأ التدهور يخيم على أوضاع الخليج بحكم فرض السيطرة البريطانية عليه .

اللورد كرزن والخليج العربي ، والتحدى الامبريالى — ١٨٩٩ — ١٩٠٣ :

كانت التسعينات من القرن التاسع عشر ذروة « العصر الامبريالى » ففي الفترة من ١٨٧٠ الى ١٨٨٥ ضمت كل من الدول الغربية وروسيا مناطق شاسعة اليها من العالم غير الغربى . وعلى الرغم من النزاعات التى كانت تنشب من حين الى آخر فان عملية التوسع والضم ظلت تتم فى منتهى البساطة حتى سنة ١٨٨٥ ، غير أن مشكلة بنجده فى ذلك العام كانت الطلقة الأولى فى نظرية « الحدود الاستعمارية » فعلى مستوى العالم كله أخذت تلك الدول تستفز بعضها بعضا حيث لم تبق ثمة حدود يمكن أن تضمها الى أراضيها دون أن تمس بهذه العملية حدود دول امبريالية أخرى . وهكذا أخذت تتصادم وترتطم بعضها فى بعض مطالب الدول الكبرى ، بعد أن أخذت تتلاشى المناطق العازلة بين مناطق نفوذ الدول الحديثة .

وهكذا أصبحت مناطق الصدام كثيرة — الشرق الأقصى ، جنوب شرقى آسيا ، آسيا الوسطى ، شمال وشرق وجنوب أفريقيا ، ومنطقة الكاريبى . أما المناطق الآسيوية فقد كانت على اختلافها تشكل فى مجموعها خطا متعرجا من الأراضى يلتف من شبه جزيرة العرب عبر ايران ، وآسيا الوسطى وأفغانستان ، امتدانا الى غرب وشمال الصين ، ومن بنجده جنوبا صوب كوريا والجانب الباسفيكى من الساحل الصينى ، منتهيا عند جنوب

(١٤) لوريمر ١ و ٢ ص ٥٧٤ — ٥٧٥ واتشيسون ١٢/١٩٠٩ ص

شرقى آسيا في أراضى سيام والهند الصينية • وما أن حلت التسعينات من القرن التاسع عشر حتى كان الخليج العربى قد أدرج ضمن الأراضى المتنازع عليها • والجدير بالذكر أن الصدامات الامبريالية التى نشبت على سواحل الخليج كانت جزءا من مواجهة أكبر •

في الخليج كانت تتصادم مصالح ومطالب دول أربع • فالوجود البريطانى في الخليج الذى تدعم في أوائل القرن التاسع عشر ظل وجودا غير منازع وان لم يكن معترفا به من الدول العظمى الأخرى • وقد أشرف عملاء امبراطورية الهند البريطانية على عملية الابتلاع والضم التدريجى للخليج الى جوف ذلك الجسم الهائل للامبراطورية البريطانية ، ورغم هذا فلم يكن في وسع غالبية البريطانيين في التسعينات من القرن أن يحددوا مضمون وتركيب أو حتى مبررات الهيمنة البريطانية على الخليج فيما عدا قلة من هؤلاء كانت ترى أن امارات الخليج تقوم بحماية المواصلات الى الهند ، وأن الامارات المذكورة أصبحت عاملا هاما في سلسلة « المحميات » و « مناطق نفوذ » التى تحمى حدود امبراطورية الهند البريطانية • وقد يبدو عدم الاهتمام بالخليج أمرا غريبا اذا أخذنا في اعتبارنا أحداث الماضى لأن الدفاع عن الهند في أواخر القرن التاسع عشر ، باعتباره موضوعا يأتى في الدرجة الثانية من الأهمية بعد الجزر البريطانية ، كان محور السياسة الامبريالية البريطانية • فقد كان الدفاع عن شبه القارة الهندية يعتمد على احتفاظ بريطانيا بسيادتها على العالم ، وعلى جيش هندى صغير ولكنه قوى ، ثم على مجموعة من المناطق العازلة وظيفتها حماية مؤخرة الهند • ومن هنا فان مشكلة الدفاع عن الهند قد ورطت بريطانيا في مناطق كثيرة كمراكش وقبرص ، وعمان ، ومصر وأفغانستان • وحتى جلادستون الذى من عتاة الامبرياليين لم يكن يستطيع أن يتجاهل أهمية الدفاع عن الهند ، ومن هنا كان تورطه في سنة ١٨٨٢ في مصر ، ثم في مشكلة تنجده في سنة ١٨٨٥ •

غير أن أخطر تهديد تعرضت له مناطق النفوذ البريطانية في الخليج ، هو المطالب التي تقدمت بها روسيا في المنطقة في التسعينات • فبعد سيطرة روسيا على مناطق آسيا الوسطى في السبعينات ، أصبحت قاب قوسين أو أدنى من حدود إيران الشمالية الشرقية (خراسان وأفغانستان) • ومنذ الثلاثينات من القرن بدأ القلق يساور حكومتى لندن وكلكتا من الأطماع التوسعية الروسية في الهند • وما بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٩٤ استطاعت بريطانيا عن طريق الأحلاف ، والبعثات ، والمساعدات ، والحروب ، ولجان الحدود أن تجعل من أفغانستان منطقة عازلة (Buffer State) بين الامبراطوريتين الروسية والبريطانية •

كانت أزمة بنجده في سنة ١٨٨٥ ذروة النزاع • غير أن مسرح المواجهة قد انتقل وبعد سنة ١٨٨٥ غربا الى إيران • وبالتالي أصبحت امبراطورية القاجار محور الصراع الروسى — الانجليزى حتى سنة ١٩١٤ ، بالرغم من اتفاق سنة ١٩٠٧ الذى يحدد مناطق النفوذ الروسية والبريطانية • أما في التسعينات فقد توسعت مناطق النفوذ الروسى بشكل هائل في شمال إيران • وكان الخوف يساور بعض البريطانيين من أطماع روسيا التوسعية في الهند ، وانه لو حيل بين الروس وأفغانستان فأنهم قد يتجهون صوب فارس ، ليثبتوا أقدامهم على سواحل الخليج ، وبالتالي يصبحون في وضع يسمح لهم بشن هجوم برى وبحرى على الهند من الجهة الغربية • واذا كان التهديد الروسى من الجهة الايرانية يبدو أكثر احتمالا ، فان روسيا في واقع الأمر كانت تركز ثقلها الاستعماري حتى سنة ١٩٠٤ تجاه الشرق الأقصى لا الشرق الأوسط • ومع ذلك فخلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٣ عندما كانت بريطانيا غارقة في أزمتها الامبريالية والدولية ، كنتيجة لحرب البوير ، ازداد الضغط الروسى على منطقة الخليج •

أما الدولة الثالثة من دول الصراع على الخليج فكانت فرنسا • وقد بدأ اهتمام فرنسا بهذه المنطقة منذ القرن السابع عشر • غير أن اهتمامها

حتى سنة ١٨١٠ كان نابعا من رغبتها في بسط سلطانها على الهند ، كما يرجع لأسباب تجارية ، أو لأسباب غير واضحة لدعم المصالح الفرنسية في المحيط الهندي • وكانت فرنسا ثاني دولة تهتم بمنطقة المحيط الهندي • فلقد كان لفرنسا مستعمرات صغيرة في الهند وعدد من الجزر المستعمرة • وفي الفترة الواقعة بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٩٤ ضمت اليها جزيرة مدغشقر الكبيرة ، كما أنشأت لها مستعمرة على خليج البحر الأحمر (الصومال الفرنسي) بالإضافة الى ما كان لها من نفوذ واسع في الحبشة • أما على الجانب الآخر من المحيط الهندي فقد امتد النفوذ الفرنسي الى الهند الصينية وسيام • وفي الوقت نفسه اشتركت فرنسا مع انجلترا في اصدار بيان مشترك بضمان استقلال كل من زنجبار وعمان • كما كان هناك عدد من السفن العربية التابعة للخليج يرفع العلم الفرنسي في مياه الخليج والمحيط الهندي ، وذلك بموجب قانون التسجيل الذي أصدرته الجمهورية الثالثة ، ورغبة من الملاحين العرب في ممارسة الأعمال التجارية المحظورة كتنجارية الرقيق تحت حماية العلم الثلاثي • وأخيرا في عام ١٨٩٤ افتتحت فرنسا قنصلية لها في مسقط ، تنفيذاً لخطة فرنسية توسعية في الخليج وللتدخل في شؤونه وقد بدأ تنفيذ هذه الخطة قبل احتدام الصراع الفرنسي البريطاني في المنطقة بوقت طويل •

ان السياسة العدوانية الفرنسية في الخليج تنبع من عوامل كثيرة أهمها السياسة المناهضة للوجود البريطاني في المنطقة التي بدأت منذ سنة ١٨٩٤ وارتبطت بوزير الخارجية الفرنسية المسيو هانوتو (Hanotaux) والى أن حل دلكاس (Delcasse) محله في سنة ١٨٩٨ ، حاولت فرنسا تهدئة الوضع فيما بينها وبين ألمانيا حتى تتفرغ لمواجهة البريطانيين في الصراع على المصالح الاستعمارية في العالم^(١٥) • ولقد كشفت أزمة فاشودا في سنة ١٨٩٨ عن خطر سياسة هانوتو على المصالح البريطانية في

(١٥) دبلوماسية الاستعمار ، ١٨٩٠ - ١٩٠٢ ، تأليف دبليو لانجر (طبعة نيويورك ١٩٥٦) ص ٧٩٦ •

الخليج وهى السياسة التى استمرت لبضع سنوات أخرى • كما شهد عام ١٨٩٤ توقيع الحلف الروسى الفرنسى • ولقد كانت بعض الفئات فى فرنسا تدعو الى سياسة العنف فى الخليج ، وذلك لاقناع روسيا بأهمية الدور الذى تقوم به فرنسا على نتائج الصراع الروسى البريطانى فى آسيا . وأخيرا فان المصالح الفرنسية فى الخليج والتى كانت تتوافق مع التحرك الفرنسى (فى سيام ومدغشقر على الأوضح) كانت ترمى الى تدعيم الوجود الفرنسى الامبريالى فى المحيط الهندى •

كما دخلت فى التسعينات من القرن التاسع عشر ألمانيا كدولة منافسة جديدة على اقتسام المصالح الاستعمارية ، بالرغم من أن هذه المصالح لم تصل الى ذروتها قبل الفترة الواقعة بين سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩١٤ • وفى التسعينات حققت ألمانيا توغلا اقتصاديا كبيرا داخل الامبراطورية العثمانية ، ثم امتدت هذه المصالح الى ايران فى الحقبة التى تلت ذلك • فقد وضع المارشال فون بايبرشتاين (Von Biedersien) السفير الألمانى فى اسطنبول ١٨٩٧ — ١٩١٢ ، ومصمم السياسة الألمانية فى الشرق الأدنى خطة تهدف الى تحويل بعض المناطق فى الشرق الأوسط الى « مستعمرات اقتصادية » ألمانية • وبموجب هذه الخطة تصبح المنطقة سوقا ومصدرا للمواد الخام للصناعة الألمانية ، وذلك كله على حساب الصناعة المحلية • كما تشتمل الخطة أيضا على مساندة الحكومتين التركية والايرانية ضد الدول الأوربية الأخرى • وعن طريق التأييد السياسى كان الألمان يتوقعون الحصول على امتيازات اقتصادية خاصة • وكان هدف الألمان الأساسى هو تأمين أسواق لصناعاتهم ولم يكن هدفهم الاستيلاء على أراضى • وكان الألمان ينوون فى حالة نجاح خطتهم مد شبكة من المواصلات الأرضية تتخلل مناطق كثيرة غير مطروقة من الشرق الأوسط • وكان الخط الرئيسى فى هذه الشبكة خط برلين — بغداد للسكة الحديدى • على أن تتفرع من هذا الخط خطوط فرعية أخرى بحيث تصبح منطقة الشرق الأوسط كلها فى متناول

الصناعة الألمانية (١٦) • وكان المفروض أن ينتهي الجزء الشرقي للخط على أحد موانئ الخليج ، لعله الكويت • وعن طريق هذا المشروع دخلت ألمانيا معترك الصراع على المصالح الامبريالية في الخليج • غير أن مشروع الخط الحديدي لم يكتب له النجاح • وكان الألمان قبل سنة ١٩١٤ يمثلون تحديا اقتصاديا متزايدا للأسواق البريطانية من خلال نشاط حركة السفن البخارية الألمانية داخل المنطقة •

وفي التسعينات كان هناك ثلاثة ميادين تتصارع فيها الدول الكبرى في منطقة الخليج وكان الميدان الرئيسي للصراع هو جنوب ايران وعمان ، حيث كان الفرنسيون يحاولون تحقيق نفوذ لهم هناك على حساب بريطانيا • أما ميدان الصراع الثاني فقد كان ساحل الخليج الأعلى الخاضع للنفوذ العثماني • وكان الاعتقاد السائد سابقا ان المنطقة سوف تغدو مسرحا لصراع بريطاني روسي كنتيجة لمشروع الكاونت كابنست (Count Kapnis) الذي كشف عنه في سنة ١٨٩٨ لانشاء خط حديدي من البحر الأبيض المتوسط الى الكويت تموله روسيا • وعلى أي حال فقد ظل هذا المشروع حبرا على الورق • أما بعد سنة ١٩٠٠ فقد كان الصراع بين بريطانيا وألمانيا حول مشروع خط حديد بغداد • كما اشتد الصراع الروسي البريطاني وبصورة خاصة في الفترة ما بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٣ •

وكان ضمن مناطق الصراع الثلاث هذه في الخليج قوى وعوامل أخرى أهم هي التي كانت تحدد الاطار الدولي للدبلوماسية الامبريالية في ذلك الوقت • فقد كانت بريطانيا الدولة المهيمنة على المنطقة ، وعندما بدأت

(١٦) للاطلاع على تفاصيل هذه الخطة راجع نفس المصدر فصل ١٩ و « العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وفرنسا » ، تأليف • بي • مارتن (طبعة لاهاي ١٩٥٩) و « تركيا والدول الكبرى » ، وسكة حديد بغداد » (طبعة نيويورك ١٩٢٣) تأليف اي • ام • ارل •

الدول الأخرى محاولاتها لتوسيع نفوذها وجدت الأسطول البريطاني واقفا لها بالمرصاد • وكان أشد ما تخشاه بريطانيا هو أن يطيحها التجمع المناوىء لها الى خارج المنطقة • • وكانت الصدامات في معظمها تنتقع بأقنعة قانونية فترعم كل دولة من الدول الطامعة انها تعمل من أجل مصلحة احدى دول المنطقة أو الأخرى • أما شاه ايران ، وسultan العثمانيين ، وحاكم مسقط فلم يكونوا أكثر من دمي تحركها الدول الكبرى على اختلافها •

عمان والفرنسيون في التسعينات من القرن التاسع عشر

كانت عمان خلال هذه الفترة مسرحا لأول صدام كبير بين القوى الامبريالية وذلك منذ أن بدأت فرنسا في سنة ١٨٩٤ تتحدى الوجود البريطاني هناك • وفي القرن التاسع عشر وخلال الحروب النابليونية كان اهتمام فرنسا بعمان اهتماما متقطعا أكثر مما كان يتعلق بقناة السويس خلال الستينات وآخر التسعينات •

لم يكن اهتمام فرنسا بعمان خلال الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر اهتماما مفاجئا • غفى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٨٣ وسنة ١٨٨٥ عندما كان جوليس فرى Jules Ferry مسؤولا عن شؤون المستعمرات في الحكومة الفرنسية ، حاول انشاء خط ملاحى بحرى بين فرنسا والخليج تموله الحكومة الفرنسية • ان هذا الاهتمام وما أعقبه من نشاط المواطن الفرنسى شابوى في منطقة ساحل عمان من الأسباب التى دفعت بالبريطانيين الى التعجيل في عقد اتفاقيات غير مشروطة مع حكام الخليج على اختلافهم • وحتى قبل سنة ١٨٩٤ كان القنصل الفرنسى في عدن ، واوبوك ، وزنجبار يوزع الأعلام وشهادات التسجيل الفرنسية على سكان صور وغيرها من الموانئ العمانية (١٧) • وفي نوفمبر ١٨٩٢ صرح النائب الفرنسى المسيو

(١٧) علاقات بريطانيا بالخليج ١٨٩٠ — ١٩٠٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ ، تأليف داون •

ديلونكل Deloncle في اجتماع الجمعية الوطنية الفرنسية ، وكان من عتاة الاستعماريين « أن كرامة فرنسا تحتم عليها أن يكون لها وكيل قنصلي في مسقط لتسجيل أسماء المواطنين المتمتعين بالحماية الفرنسية » واستطرد ديلونكل يقول « بأن فرنسا ستكون في وضع يسمح لها بالتعاون مع روسيا وبتثبيت وجودها كحليف قوى لها اذا ما تمكنت من تثبيت أقدامها في الخليج » . وخلال مناقشة للميزانية الفرنسية العامة سنة ١٨٩٣ عاد ديلونكل يطالب بسيطرة فرنسية فعالة في الخليج ، واقترح اعتمادا اضافيا في الميزانية في حدود ٧٠٠٠ فرنك لفتح قنصلية فرنسية في مسقط ، وقد وعد وزير الخارجية الفرنسية المسيو دنفيل أثناء المناقشة بإنشاء القنصلية في مسقط (١٨) . وكان في استطاعة الفرنسيين اتخاذ هذه الخطوة بسهولة ، لأن عمان ، بخلاف دول ساحلي الصلح الواقعة شمالا ، لم تكن مقيدة بمعاهدات تخضع شؤونها الخارجية للحكومة البريطانية .

وفي يوم ٨ نوفمبر وصل الى مسقط المسيو اوتافي (Ottavi) وهو دبلوماسي فرنسي يجيد التحدث باللغة العربية ، وقد سبق له أن عمل في زنجبار ، كما شغل مناصب أخرى في منطقة المحيط الهندي . وقد تسلم عمله كقنصل لفرنسا بالنيابة . وكغيره من الممثلين الفرنسيين الكثيرين ، أظهر اوتافي ، وكان من أصل كورسيكي ، براعة دبلوماسية ونشاطا كبيرا . وكان متحدثا بارعا ، وهكذا أصبح خصما عنيدا للمثلين البريطانيين المسؤولين عن المصالح البريطانية في عمان في (١٩) التسعينات من القرن التاسع عشر .

(١٨) Precis Maskat ص ٤٥ وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٥٤٦ —

٤٧ .

(١٩) Annuaire Diplomatic et Consulaire de France.

(طبعة باريس ١٨٩٩) أي السجل الدبلوماسي والقنصلي الفرنسي — سنة ١٨٩٩ .

عند بداية وصول اوتافى الى مسقط شعر السلطان بشيء من النفور والخوف من مجيئه فقد خشى من أن تحاول فرنسا تأكيد حمايتها على العمانيين الذين كانوا يرفعون العلم الفرنسي فوق سفنهم ، كما خاف من أن تحاول فرنسا فصل ميناء صور عن بقية أجزاء المملكة العمانية . الا انه بعد مضي خمسة أشهر على وصول اوتافى تغير موقف السلطان فيصل منه ، خصوصا بعد أن رفض البريطانيون مساعدته عسكريا ضد هجوم مسلح قام به المحافظون العمانيون على مسقط ما بين شهري فبراير ومارس من سنة ١٨٩٥ وقد ازداد الموقف تأزما عندما طالب الانجليز السلطان بدفع ٧٧٨٩٥ ريالاً نمسويا كتعويض عن الخسائر التي لحقت بالتجار الهنود نتيجة الهجوم على مسقط . وعلى عكس هذا الموقف كان موقف القنصل الفرنسي اوتافى الذي عرض على السلطان المساعدة العسكرية وأرسل بطلب السفينة الفرنسية المسلحة ترود (Troud) الا أن السفينة وصلت متأخرة . ولهذا لم يتمكن من مساعدة السلطان بشكل فعال ، غير أن موقف القنصل الفرنسي قد أكد للسلطان حسن نية الحكومة الفرنسية والامكانات التي تحت تصرفها ، وبذلك شهدت عمان تصاعدا للوجود الفرنسي استمر خمس سنوات (٢٠) .

وما أن حل عام ١٨٩٦ حتى بدأ البريطانيون يعملون على تحسين علاقاتهم مع السلطان وقد حاولوا من غير جدوى وقف نمو وتصاعد الوجود الفرنسي عن طريق التودد الى السلطان وتقديم عروض من الأسلحة والمساعدات المالية والبحرية . ثم أخذوا يثيرون موضوع الحماية، ولكنهم عادوا فصرفوا النظر عن هذه الفكرة (٢١) . أما اوتافى فقد كان

(٢٠) Precis Maskat ص ٢٢ و ٥٣ و « علاقات بريطانيا بالخليج » ، تأليف داود ١٨٩٠ — ١٩٠٢ ص ٢١٥ وكتاب لوريير ص ٥٤٧ — ٥٥٣ وخطاب مؤرخ ١٨٩٩/٤/١٤ من هاملتون الى كرز وخطاب رقم ٣٧٩ مؤرخ ١٨٩٥/٢/٢٤ من هانوتو الى جوردون .

(٢١) الخليج العربي ، تأليف ويلسون ص ٢٣٩ .

يؤكد للسلطان في كل مقابلة معه بأنه حر في شؤونه الخارجية ، باعتباره المسؤول الأول عن دقة ادارة الحكم في بلده (٢٢) . وكان يحرض السلطان على تأكيد استقلاله عن السيطرة البريطانية . ويعود السبب في نجاح اوتافى بتعكير العلاقة بين الحاكم العماني والانجليز الى أخطاء البريطانيين أساسا ، كما يعود الى تأثير اوتافى الشخصى على السلطان وعلى بعض أفراد حاشيته (٢٣) .

ومما أثار قلق الانجليز بوجه خاص هو تعيين عبد العزيز ، سكرتير القنصل الفرنسي في وظيفة هامة بدرجة سكرتير خاص للسلطان ، بينما بدأ القصر يقرب اليه العمانيين المناهضين للانجليز (٢٤) . ومن ناحية أخرى بدأ فيصل بنفسه في تشجيع المصالح الفرنسية في عمان كمحاولة لاقامة توازن بينها وبين المصالح البريطانية ، وبذلك تستطيع عمان أن تتمتع بقسط أكبر من الاستقلال .

وفي شهر مارس سنة ١٨٩٨ أحرز القنصل الفرنسي أكبر نجاح له في مهمته . فقد أوصلت الى ميناء مسقط السفينة الفرنسية المسلحة جابيس (Gabis) ، ثم أعلن بعد ذلك عن موافقة السلطان على منح الفرنسيين امتياز لانشاء مستودع للفحم في الجصّة ، وهو مرفأ حصين يقع على بعد خمسة أميال من مسقط (٢٥) . وبعد اسبوعين وصلت السفينة المسلحة سكوربيون في زيارة لمسقط وكان ذلك في شهر أكتوبر سنة ١٨٩٨ . وقد تبودلت الهدايا خلال هذه الزيارة بين الفرنسيين والسلطان حيث تلقى

(٢٢) خطاب رقم ٤ مؤرخ ١٨٩٧/٢/٢٣ من اوتافى الى هانوثو .

(٢٣) رسالة بتاريخ ١٨٩٩/٧/٦ من هاملتون الى كرز .

(٢٤) نفس المصدر .

(٢٥) نص برقية كرز الى هاملتون رقم ٣١٥ بتاريخ ١٨٩٩/٢/٢٥ انظر

ايضا صفحة ٧٥ من (Precis Maskat)

السلطان مدفع ميدان من ربحان البارجة • كما عقدت اجتماعات سرية بين الطرفين واقيل الوزير الموالي للانجليز من منصبه • كذلك قام اوتافى وبعض طاقم السفينة سكوربيون برحلة استطلاعية للمرفأ المذكور (٢٦) • وهكذا بدا يومئذ ان فرنسا توشك ان تنتزع عمان من قبضة النفوذ البريطانى المزمنة ، وتحل محلها فى منطقة كانت تعتبر حكرا على النفوذ البريطانى وحده •

وعلى أى حال ففى شهر يونيو سنة ١٨٩٨ حل دلكاسى محل هانوتو كوزير لخارجية فرنسا ، بينما عين اللورد كرزى فى شهر سبتمبر سنة ١٨٩٨ نائبا للملك فى الهند • وقد تسلم الأخير منصبه فى شهر يناير سنة ١٨٩٩ • وكانت هذه الخطوات بداية فى السياستين الفرنسية والبريطانية فى آسيا والخليج • وفى بداية التسعينات ، وعلى أثر استكمال التحالف الفرنسى الروسى كانت مدرسة الامبرياليين المتعصبين تتقدم الصفوف فى فرنسا وكانت هذه الفئة التى يتزعمها هانوتو الفئة المسيطرة فى الفترة ما بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩٨ وكان هانوتو ، وهو من أنصار جوليس فرى يؤمن ان على فرنسا اذا أرادت ان تبقى دولة عظمى أن تنشئ لها امبراطورية فيما وراء البحار • وكان على استعداد لتحسين علاقة فرنسا بألمانيا فى سبيل تركيز جهود فرنسا على التوسع الامبريالى فى أفريقيا وآسيا غير ان هذه التطلعات كان لابد لها أن تثير ثائرة الانجليز •

وفضلا عن ذلك فقد كان فريق الامبرياليين المتعصبين يستغل العلاقة بين فرنسا وروسيا ما أمكنه ذلك ضمن عملية التحدى الفرنسى للانجليز فى مختلف ميادين الصدام فى العالم (٢٧) • وهكذا انفجر الصراع بين فرنسا وانجلترا فى كل مكان ، فى سيام سنة ١٨٩٣ — ٩٦ ، وفى عمان سنة ١٨٩٤ —

(٢٦) المصدر نفسه ص ٦٢ — ٦٥ .

(٢٧) « دبلوماسية الاستعمار » ص ٧٩٦ — ٩٧ ، تأليف لانجر .

٩٨ ، وفي السودان سنة ١٨٩٦ — ٩٨ ، وغرب أفريقيا سنة ١٨٩٧ — ٩٨ ، وذلك منذ ان بدأ هانوتو وأنصاره هجومهم على مناطق النفوذ البريطانى حيث يعتقد أن هذا النفوذ لم يكن مضمونا الى حد كبير • ويعبر دور اوتافى فى مسقط تعبيرا صادقا عن هذا الاتجاه فى السياسة الفرنسية ، كما يمثل ربيع عام ١٨٩٨ ، وهو التاريخ الذى حصلت فرنسا فيه على امتياز مستودعات الفحم فى أراضى عمان ، ذروة سياسة المواجهة الفرنسية ضد البريطانيين • وعلى كل فقد تبين يومئذ ان البريطانيين مصممون على النزال والصمود ضد الفرنسيين فى ساحتين من ساحات المعركة هما أزمة فاشوده فى السودان ومشكلة نيجيريا • بيد ان فرنسا كانت فى تلك الفترة ممزقة ومنهوكة على الجبهة الداخلية نتيجة لمشكلة دريفوس ، ولهذا اضطرت تحت ضغط هذه الأوضاع الى التخفيف من سياسة التطرف الخارجية التى كانت تنتهجها • وما بين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩٠٤ أخذت تسوى مشاكلها الامبريالية مع بريطانيا •

ويعود الفضل فى وضع حد لاحتمال نشوب حرب امبريالية ضروس بين فرنسا وانجلترا الى جهود تيوفايلى دلكاسى Theophile Delcasse وزير الخارجية الفرنسية من يونيو سنة ١٨٩٨ حتى يونيو سنة ١٩٠٥ • فلم يكن هذا من غلاة الامبرياليين ، وكان يرى بأن الواجب الأول أمام فرنسا هو الاهتمام بتأمين سلامتها فى القارة عن طريق مجابهة القسوة الألمانية النامية • وبالتالي كان يرى فى تقوية العلاقة بين فرنسا وبريطانيا كعنصر أساسى للسياسة الخارجية الفرنسية • وكان يفضل على ما يبدو أن تقوى بلاده علاقتها بانجلترا على حساب علاقاتها بروسيا • وبمجرد أن تسلم زمام منصبه بادر الى العمل على التخفيف من حدة التوتر بين فرنسا وبريطانيا كنتيجة للصراع الانجلو — فرنسى على « المستعمرات وهو الشركة التى خلفها سلفه هانوتو » (٢٨) •

غير انه في ٢٠ من شهر نوفمبر أذيعت في باريس أنباء حصول فرنسا على امتياز لاقامة مستودعات للفحم في مرفأ النجسة بمسقط ، فكانت هذه الخطوة التي عجلت بما عرف بأزمة مسقط « بين الحكومتين » (٢٩) . وما ان علم مانسون السفير البريطاني في باريس بهذه الصفقة حتى بادر الى الاستفسار عنها من وزير الخارجية الذي أنكر أى معرفة بالموضوع . ومن الواضح ان دلكاسى قد شعر بحرجة الموقف من اجراء الصفقة الفرنسية التي تعتبر من مخلفات سياسة هانوتو المناهضة للبريطانيين (٣٠) . غير ان اللورد سالسبورى (رئيس وزراء بريطانيا من يونيو ١٨٩٥ حتى يونيو سنة ١٨٩٢) اتخذ موقفا مرنا من المشكلة ، لكى يعطى دلكاسى وقتا كافيا للخروج من الورطة لأن سالسبورى ، على غرار دلكاسى كان مهتما بتحسين الموقف بين فرنسا وانجلترا وفي سنة ١٨٩٧ اقترح سالسبورى على الفرنسيين عقد اتفاق عرفى « لتسوية جميع المشاكل الصغيرة المشتركة » (٣١) . وعلى الرغم من ان اقتراحه قوبل بالرفض ، كنتيجة لسياسة هانوتو المعادية ، ولأن الرأى العام في فرنسا لم يكن يؤيد هذه الفكرة في ذلك الوقت ، فمن الواضح ان سالسبورى كان يريد أن يجتنب أى صدام مع فرنسا ، وأن يصل معها الى اتفاق عام حول مشكلات المستعمرات . وبالتالي اشترك سالسبورى ودلكاسى في الفترة ما بين سبتمبر سنة ١٨٩٨ ومارس سنة ١٨٩٩ في اعداد مسودة اتفاق يتضمن حل كافة المشاكل الامبريالية الملحة التي كانت تسمم جو العلاقات بين فرنسا وبريطانيا ، بالرغم من وقوع كثير من المشكلات التي كانت تقوض المفاوضات وهي لا تزال في منتصف الطريق (٣٢) .

(٢٩) Journal des Debats باريس ١٨٩٨/١١/٢٠ .
(٣٠) خطاب رقم ٦٦٣ مؤرخ ١٨٩٨/١٢/٢ من مانسون الى سالسبورى .
(٣١) « علاقات بريطانيا بالخليج » ١٨٩٠ — ١٩٠٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، تأليف داود ورسالة مؤرخة ١٨٩٧/٣/٢٦ من كورسيل الى هانوتو . من وثائق السلك الدبلوماسى الفرنسى سلسلة ١ مجلد ١٤ .
(٣٢) تم توقيع هذه الاتفاقية في شهر مارس ١٨٩٩ .

وقد بدر أخطر تصرف يهدد المساعي المذكورة من جانب اللورد كرزن ، نائب الملك الجديد في الهند الذي تسلم عمله في شهر يناير سنة ١٨٩٩ . فمنذ سنة ١٨٩٢ وكرزن يلح على حكومته بتقوية وسائل الدفاع عن الهند . وكان الخليج وايران في نظره أضعف المناطق العازلة ، وانه لابد من ردع أى محاولة تقوم بها الدول الكبرى المنافسة لبريطانيا لاختراق هذه المناطق (٣٣) .

وخلال الأيام الأولى من وصول كرزن الى كلكتا بدأ في مواجهة ما كان يعتبره مناطق الخطر الرئيسية الثلاث على الوجود البريطانى في الخليج وايران . فبالنسبة الى ايران حاول كرزن (١) ولكنه لم يكتب له النجاح التام) وقف التسلل الروسى الى المناطق الشرقية والجنوبية من ايران . وعندما علم بموضوع الامتياز الفرنسى في عمان قرر ابطال هذا الاتفاق حتى ولو اضطر الى استخدام القوة ، كما قام أيضا باحباط المحاولات التي كانت جارية لربط الكويت بخط حديدى لا يخضع للإشراف البريطانى . فقد أدرك أن مثل هذا الخط سيخضع لسيطرة روسيا ، وذلك على الرغم مما عرف فيما بعد بأن ألمانيا كانت الدولة التي ستستفيد من مد الخط المذكور (٣٤) .

وحتى قبل أن تصله تعليمات من لندن كان كرزن قد أبلغ الكولونيل ميد ، المقيم البريطانى في الخليج بأن يسوى جميع المشاكل البريطانية في الكويت وعمان . أما الخطوة التي اتخذت بشأن الكويت فانها لم تسفر عن أزمة مباشرة اذ ان حاكم هذه البلاد الشيخ مبارك الذي كان يبحث عن حليف قوى يدعم مركزه ضد منافسيه الآخرين على الحكم وضد أسياده

(٣٣) فارس والمسألة الفارسية — كرزن ، مجلد ٢ ص ٤٦٥ .
(٣٤) دبلوماسية الاستعمار ص ٦٤٢ — ٦٤٣ ، تأليف لانجر و « حياة اللورد كرزن » فصل ٢ و ٢٣ (طبعة لندن ١٩٢٨) تأليف الايرل رونالدشى .

الاسمين الأتراك وافق على التوقيع على معاهدة يلتزم فيها بعدم التنازل عن أى شبر من أراضيه أو استقبال ممثل لأى دولة بدون موافقة سابقة من جانب الحكومة البريطانية^(٣٥) غير أن كرزى بهذه الخطوات قد فجر سلسلة من الأحداث التى تطورت الى أزمة حادة أثرت تأثيرا خطيرا على المفاوضات التى كانت جارية بين سالسبورى ودلكاسى .

ففى ١٧ من شهر يناير استدعى فاجان المعتمد السياسى البريطانى السلطان فيصل بناء على تعليمات تلقاها من كرزى وقد اعترف فيصل بالامتياز الذى عقده مع الفرنسيين . ولكن فاجان احتج على هذا الاجراء واعتبره خرقا لمعاهدة عدم التنازل المعقودة فى سنة ١٨٩١ بين الحكومة البريطانية وسلطان مسقط . الا أن السلطان فيصل رد على احتجاج المعتمد البريطانى بشجاعة لا تنقصها الصراحة ، وقال له بأنه قد أعطى وعده للفرنسيين ، ولا يمكنه الآن سحب الاتفاق ، وانه اذا كان البريطانيون لديهم اعتراض على هذه المسألة فليسوا المشكلة بينهم وبين الفرنسيين مباشرة^(٣٦) . غير ان كرزى بعد أن علم برد السلطان ، أصدر تعليماته برفع العلم البريطانى على مرفأ الجصة ، عند ظهور أى سفينة فرنسية فى المكان المذكور^(٣٧) . وقد عزز كرزى هذه القرارات بقرار آخر يقضى بوقف دفع التعويض المالى للسلطان فيصل . كما أوعد الكولونيل ميد الى مسقط ومعه انذار الى السلطان سلم اليه يوم ٩ فبراير ١٨٩٩ . وأشار كرزى فى انذاره للسلطان الى سلسلة المشاكل التى أساءت الى العلاقات العمانية الانجليزية منذ سنة ١٨٩٥ . وطالب فيصل (وقد وجه كرزى انذاره بغير علم من حكومة لندن) بفسخ الامتياز الممنوح للفرنسيين مع اعطائه مهلة ٤٨ ساعة لتنفيذ هذه الأوامر . وقد وقت كرزى ارساله الانذار الى فيصل مع طلب منه الى حكومة لندن بالموافقة على الخطوة التى اتخذها وبهذا

(٣٥) تقرير اتشيسون ١٩٣٣ .

(٣٦) Precis Maskat ص ٦٩ .

(٣٧) برقية مؤرخة ١٨٩٩/١/٢٠ من هاملتون الى كرزى .

وضعها أمام الأمر الواقع • وقد انتهت الأزمة ما بين ١١ و ١٥ فبراير •
ففى يوم ١٣ فبراير رضخ السلطان فيصل لحكم القدر ، وأبدى استعدادَه
لفسخ العقد ، وأرفق عرضه هذا بطلب حمايته من الفرنسيين اذا ما قرروا
التدخل ضده • غير ان كل هذا الاستسلام لم يكن كافيا فى نظر كل من ميد
وكرزن • وفى يوم ١٤ فبراير وصل الاميرال دوجلاس قائد الوحدات
البحرية الهندية على رأس أسطول صغير الى مسقط وطلب من السلطان
فسخ العقد مع الحكومة الفرنسية رسميا • وكان كرزى يهدف من وراء هذا
الاجراء اذلال كل من السلطان والحكومة الفرنسية • وفى يوم ١٦ من
فبراير حين لم يصل رد السلطان على الطلب البريطانى أصدر دوجلاس
أوامره باستدعاء السلطان الى ظهر سفينة القيادة • وفى غضون ذلك بدأت
السفن الحربية البريطانية تتحرك وتأخذ مكانها على مرمى من قصر السلطان
والحاميات العمانية فى مسقط ، وأعلن الأسطول بأنه على وشك ضرب
المدينة • عندها اضطر السلطان الى الرضوخ وزار القائد ووافق على جميع
ما طلب منه كرزى • ومن سخریات القدر انه عند عودة السلطان من
اجتماعه بالاميرال دوجلاس أصدر هذا أمرا باطلاق ٢١ طلقة تحية للسلطان،
وهى التحية التى تطلق عادة للحكام المستقلين (٣٨) •

منذ ذلك الحادث مباشرة تطورت علاقة البريطانيين بالسلطان الى
الأحسن حتى أن السلطان قام فى شهر مارس من ذلك العام بزيارة مجاملة
للماجور فاجان ، المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط والذى كان يحتقر
السلطان ويكرهه أشد الكره • ورغم ذلك فان العلاقات العمانية البريطانية
لم تسترد حرارتها قبل شهر أكتوبر سنة ١٨٩٩ عندما حل برسى كوكس
محل فاجان كمعتمد سياسى بريطانى فى عمان (٣٩) • ففى سبيل المصالح

(٣٨) نفس المصدر ص ٧٠ — ٧٦ •

(٣٩) المصدر نفسه ص ٧٧ — ٨١ وخطاب مؤرخ ٥ يناير سنة ١٩٠٠ من

هاملتون الى كرزى •

البريطانية ، برهنت « أزمة مسقط » على أن كرزن لا يتورع عند الضرورة عن أن يدوس حتى الاستقلال الزائف الذي يتمتع به فيصل بن تركي . كما أدرك فيصل في شهر فبراير ١٨٩٩ بدوره بأن بقاءه كسلطان على البلاد ، على الرغم من طلاقات التحية الواحدة والعشرين ، يتوقف على رغبة الانجليز . وبأن أي محاولة من جانبه لتحدي البريطانيين سوف تكلفه العرش كله . ومن المؤكد أن فقهاء القانون البريطاني قد يقررون ، اذا ما طلب اليهم ابداء رأي القانون في تصرف السلطان ، بأن نقض الاتفاقات الدولية يجيز حرمان الحاكم من عرشه . وقد أفتى هؤلاء القانونيون بالفعل فقالوا بأن الضمان الخاص لاستقلال عمان انما يضمن استقلال الأراضي العمانية ، لا شخص الحاكم نفسه (٤٠) . وقد انزعج الفرنسيون من الاجراءات التي اتخذتها بريطانيا ضد السلطان . وقدمت الحكومة الفرنسية يوم ٢٢ فبراير احتجاجها ضد الاجراءات التي اتخذها الاميرال دوجلاس (٤١) . كما أعرب دلكاسي عن اعتقاده بأن في انجلترا فئات كثيرة تعمل للحرب ضد فرنسا ، وانهم بهذه الاستفزازات يحاولون جرها الى ذلك . ويبدو من الاجراء الذي اتخذته كرزن بأن المخاوف الفرنسية كان لها ما يبررها ، وعلى الأخص عندما صفق الرأي العام البريطاني لقرار نائب الملك . وقد عززت المناقشات البرلمانية للأوضاع في مسقط من موقف الجمهور ! وعلى أي حال غفى شهر مارس عاد اهتمام الجمهور بالمشكلة فتضاءل وانتهت بذلك المناقشات البرلمانية (٤٢) .

ولقد أثار هذا الحادث ضجة كبيرة في فرنسا ، غير أن دلكاسي

(٤٠) Preci Maskat ص ٧٤ — ٧٧ رسالة ١٨٩٩/٣/١٠ من هاملتون الى كرزن .

(٤١) خطاب مؤرخ ١٨٩٩/٢/٢٢ من كامبون الى وزارة الخارجية .

(٤٢) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/١/١٣ من مانسون الى سالسبوري .

(٤٣) صحيفة التايمز اللندنية عدد ١٨٩٩/٢/٢٢ وقد أيدت الصحيفة

بشدة اجراءات كرزن ، كذلك انظر سلسلة مناقشات مجلس العموم رقم ٤

وخطاب مؤرخ ١٨٩٩/٢/٢٨ من هاملتون الى كرزن .

المأزوم ، تراجع في موقفه وبذلك تمكن من استئناف المفاوضات مع سالسبورى (٤٤) . أما سالسبورى نفسه ، فقد صدمته الطريقة التى عالج بها كرزن المشكلة مع السلطان فيصل ، وكان من رأيه أن الاجراء « غلطة كبيرة » كما انزعج مثل دلكاسى من الضجة التى أثرت حول الموضوع (٤٥) . وقد خشى سالسبورى من انفجار صراع بين فرنسا وبريطانيا « بسبب أحد الأمراء الصغار » ، قد يهدد المفاوضات التى كان يجريها مع ديلكاسى للوصول الى تسوية شاملة للمشكلات الافريقية بين الدولتين . ولئن كان سالسبورى يعارض أى تنازل فعلى من جانب هؤلاء الحكام لدول أخرى ، الا أنه من ناحية أخرى كان يقر الفرنسيين فى الحصول على تسهيلات كالتى حصلوا عليها فى مسقط لانشاء مستودعات للفحم . وخلاصة القول ان سالسبورى كان يفضل حل هذه المشكلة من غير ضجة (٤٦) غير أن كرزن الذى كان يتصور بأن سالسبورى يتخذ موقفا لينا تجاه الفرنسيين ، قد حاول الدفاع عن الاجراءات التى اتخذها ضد السلطان رغم اعتراضه بأن الفرنسيين كانوا فى حاجة الى ميناء فى عمان ، الا أن حصولهم على ميناء كهذا سوف يجعلهم فى وضع يستطيعون به تهديد الهند (٤٧) . وأخيرا فى أوائل مارس ١٨٩٩ نجح سالسبورى فى اخمداد نار هذا الخلاف عندما اقترح على الحكومة الفرنسية الاستفادة من حظائر الفحم الموجودة فى ميناء مسقط . ومنذ ذلك التاريخ حتى شهر ابريل ظلت المفاوضات بين الجانبين تتعثر ، ولكن التوتر الذى كان يسودها سابقا قد خفت حدته . ومن ناحية أخرى واصل الفرنسيون جهودهم للحصول على مستودعات للفحم خاصة

(٤٤) الجريدة الرسمية لمناقشات مجلس النواب ٦٧٧/٣/٧ ورسالة مؤرخة ٩٩/٣/٣ ورسالة أخرى بتاريخ ١٨٩٩/٣/٢٨ من هاملتون الى كرزن .
(٤٥) رسالة بتاريخ ١٨٩٩/٢/٢٢ وردت فى « الوثائق البريطانية لاسباب نشوب الحرب » اعداد جى كوش G. Gooch ه . تمبرلى H. Temperley لندن ١٩٢٦ — ١٩٣٨ مجلد ١ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
(٤٦) حياة كرزن ، تأليف رونالدشى فصل ٢ ص ٤٧ — ٥٠ .
(٤٧) المصدر نفسه وكذلك خطاب مؤرخ ١٩٠٠/٩/٥ .

بهم خارج ميناء مسقط ، بينما ظل البريطانيون مصريين على أن مثل هذه التسهيلات ينبغي أن تقدم لهم داخل منطقة ميناء العاصمة ، منعا لأن تتحول الى قاعدة بحرية في المستقبل . وقد وافق الفرنسيون في النهاية على الاقتراح البريطاني (٤٨) .

غير أن أوتافى الذى فشل فى محاولاته لكسب السلطان أخذ يستخدم بعد سنة ١٨٩٩ تكتيكا جديدا لدعم الوجود الفرنسى فى المنطقة . ولما كان الفرنسيون قد شرعوا منذ الستينات فى منح شهادة تسجيل واعلام فرنسية لعدد كبير من ربابنة السفن العمانية ، معظمهم من أهل صور ، فقد طالب أوتافى بمعاملة الملاحين العمانيين الذين يرفعون الأعلام الفرنسية معاملة الرعايا الفرنسيين ، وان هؤلاء بالتالى يعتبرون مضمولين بالحماية الفرنسية (٤٩) . غير أن البريطانيين كانوا يؤيدون السلطان فيصل فى دعواه بأن رفع الأعلام الفرنسية على السفن العمانية اجراء غير قانونى وان الغرض منه هو منع الرعايا العمانيين من اظهار ولائهم للحاكم الشرعى فى البلاد . فلقد كان البريطانيون يخشون من أن يتكاثر عدد الرعايا الفرنسيين فى عمان مما يخول لفرنسا مستقبلا التدخل فى شؤون البلاد ، أو حتى فصل ميناء صور أو أجزاء أخرى من السلطنة عن بقية البلاد . وقد كانت هذه مشكلة شائكة تمس عددا من الدول ، ولم يبت فيها الا بعد عرضها على محكمة العدل الدولية . وعلى الرغم من أن حكم المحكمة قد جاء فى صالح

(٤٨) Preci Maskat ص ٧٤ — ٨٢ انظر ايضا « الوثائق البريطانية عن اسباب الحرب » مجلد ١ ص ٢١٤ .

(٤٩) وقد وردت تفاصيل عن قضية رفع السفن العمانية والعربية الاخرى الاعلام الفرنسية فى Preci Maskat ص ٤٦ — ٥٥ وفى كتاب لوريير مجلد ١ ص ٥٤٩ — ٦٩ وفى كتاب « الخليج العربى » ، تاليف ويلسون ص ٢٣٩ — ٤٣ وفى سجلات وزارة الخارجية الفرنسية تحت عنوان

Bouttres Mascataises Francaises

(طبعة باريس ١٩٠٥) و « الحكم فى قضية السفن الشراعية التابعة لعمان » (لندن ١٩٠٥) .

البريطانيين ، الا ان النزاع الفرنسي البريطاني في عمان لم تعد له تلك الأهمية بعد ابرام الاتفاق الفرنسي — البريطاني سنة ١٩٠٤ (٥٠) .

وكانت نتيجة النشاط الفرنسي في عمان في الفترة ما بين ١٨٩٤ وسنة ١٩٠٤ انها دفعت بالسلطان فيصل أكثر فأكثر الى أحضان البريطانيين . واذا افترضنا ان السلطان فيصل كان يهدف من تشجيعه للفرنسيين الى الايقاع بينهم وبين البريطانيين فان هدفه هذا قد تبخر وأدرك السلطان من أزمة ١٨٩٩ حقيقة الوجود البريطاني وسيطرته المطلقة على مصيره ، كما ان الفرنسيين من جانبهم قد جنّبوا السلطان فيصل من أن يصبح كغيره من أمراء الخليج مجرد تابع مطلق للبريطانيين . اذ لولا تلك الأزمة لكان من الجائز أن يعلن كرزن الحماية البريطانية على سلطنة مسقط ، « لا بالاسم فقط وانما بالفعل أيضا » (٥١) . ويتداعى من ذلك ان التحدى الفرنسي قد جسد الخطر الذي يهدد السيطرة البريطانية على الخليج في التسعينات . وقد اضطر هذا حكومتى لندن وكلكتا الى تقييم مصالح حكومتيهما في المنطقة واتخاذ الاجراءات التى تكفل الحماية اللازمة لتلك المصالح . أما على الصعيد الدولى فان الخلاف الفرنسى — البريطانى في حد ذاته لم تكن له تلك الأهمية . وعلى أى حال فان النظر الى هذا الخلاف من زاوية الروح الفوضوية التى كانت تسود علاقات الدول الأوروبية في مطلع القرن العشرين ، يجعل منه خطرا يهدد المفاوضات الدائرة حول مسائل أكثر أهمية ، كانت تؤرق رأى العام وتدعم موقف المعارضين للاتفاق . وعلى الرغم من أن كبار واضعى السياسة في كل من لندن وباريس كانوا مهتمين بعد سنة ١٨٩٨ بتحسين العلاقة بين الدولتين ، فان التحسن في اتجاهات رأى العام قد استغرق وقتا طويلا . وعلى أى حال فقد استمر ممثلا

(٥٠) سجل الاعمال والبروتوكولات المتعلقة بالخلاف الفرنسى — البريطانى .

(٥١) خطاب رقم ٢٩ بتاريخ ١٨٩٦/٩/٣٠ من الجين الى هاملتون .

بريطانيا وفرنسا في عمان في تبادل التهم وعلى الأخص فيما يتعلق بتجارة الأسلحة • غير ان الخلاف الانجلو - فرنسى على تجارة الأسلحة ، والصدام المحتدم بين ممثلى الدولتين في عمان حول بعض المسائل المحلية ، قد سوى في النهاية عن طريق المفاوضات على المستويات العليا (٥٢) •

حكومة لندن تتولى المسؤولية المباشرة لتخطيط

السياسة البريطانية في الخليج

في سنة ١٨٢٠ بدأ حكام الخليج يفقدون السلطة الفعلية التى انتقلت منهم الى المقيم السياسى البريطانى ومساعديه • وقد لاحظنا ان المقيم البريطانى كان يقوم بدور فعال في رسم سياسة الخليج ما بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٩٢ هذا بالرغم من أن تقرير هذه السياسة من الناحية الرسمية كانت بيد السلطات البريطانية في حكومتى لندن وكلكتا • ومما أسهم في ترجيح فكرة « اتخاذ القرارات الخاصة بهذه السياسة على الطبيعة » هو عدم تعرض المصالح البريطانية في الخليج لأى تحدٍ خطير ، وهو ما يفسر عدم اهتمام حكومتى لندن وكلكتا اهتماما خاصا بما يجرى في المنطقة • غير ان هذا الوضع قد تغير في التسعينات ، عندما تولى مقاليد الأمور في الخليج ممثلون بريطانيون دون المستوى المطلوب ، وبالتالي لم يكونوا من مستوى التحديات التى يواجهونها والمتمثلة بمنافسة الدول الامبريالية الأخرى للوجود البريطانى • وعلى كل فحتى سنة ١٨٩٩ لم تتحرك أى من حكومتى لندن وكلكتا لمنع تدهور الموقف الذى بات يهدد ذلك الوجود في الخليج • وأخيرا عندما جاء كرزن الى السلطة في الهند في سنة ١٨٩٩ بدأ تطبيق سياسة بريطانية محددة واضحة في الخليج وبهذا انتقلت السلطة الفعلية

(٥٢) من كامبون الى لانس داون ٢ يناير ١٩٠٢ والسجلات العامة مخطوطة رقم ٣٦١١/٢٧ •

لرسم السياسة البريطانية في الخليج ، والاشراف الفعال على المصالح البريطانية فيه كنتيجة للأوضاع المتخلفة من وجود ممثلين بريطانيين غير أكفاء ، الى نائب الملك في الهند • غير أن سيطرة حكومة كلكتا على الخليج لم تعمر طويلا • فعلى الرغم من وجود سياسى بارع ككرزن في الهند حتى سنة ١٩٠٥ ، بدأت حكومة لندن تأخذ بزمام السلطة الفعلية على الجهاز السياسى البريطانى في الخليج ، حتى قبل أن يترك نائب الملك منصبه في الهند • وكان السبب الرئيسى لهذا التحول ، شأنه شأن تضائل نفوذ المقيمين في الخليج ، هو ازدياد حدة الصراع بين القوى الامبريالية في العالم • وكان من الواضح في فترة تشهد صداما بين قوى امبريالية كبرى على مناطق النفوذ في العالم ان لا تسمح حكومة لندن بوجود سياسة خارجية مستقلة في الهند ، وتتعارض في بعض الأحيان مع سياسة الحكومة البريطانية في لندن •

وقد بدا الاتجاه نحو سيطرة حكومة لندن نفسها على السياسة البريطانية في الخليج واضحا في السبعينات من القرن التاسع عشر عندما أخذت هذه الحكومة ترقب عن كثب تطورات الأحداث في آسيا وحتى الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت حكومة الهند ما تزال تمارس قسطا كبيرا من الاستقلال في شؤونها الخارجية وعلى الأخص في عهد اللورد ليتون (١٨٧٦-٨٠) وخلال السنوات الأولى من عهد كرزن • وفي خلال هذه الفترة كانت الوزارة البريطانية ، من خلال معالجتها للمشكلات التى تواجهها في آسيا والمتمثلة في التغلغل الروسى الى المنطقة ، تضع في اعتبارها أيضا الأوضاع في أوروبا والبلقان كما وجنوب غرب آسيا • بينما لم تكن حكومة كلكتا يتجاوز اهتمامها نطاق القارة الآسيوية وحدها (٥٣) • كما ان حكومة

(٥٣) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد ، الطبعة الثالثة ص ٦٩٤ ، ٧٥٢ —

الهند لم تكن ، بأى حال ، جاهلة لنقطة الضعف هذه • ولقد ثارت المناقشات فى التسعينات من القرن التاسع عشر حول ما اذا كان من المحتمل تطعيم ادارة الشؤون الخارجية فى حكومة الهند بخبراء فى الشؤون الأوروبية • غير أن اللورد الجين (نائب الملك فى الهند سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٩) ارتأى بعدم الحاجة الى ذلك ، لأن خبيراً من هذا النوع لن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة فى أية مشكلة تنشأ بين الهند ودولة أوروبية بغير موافقة حكومة لندن (٥٤) • ومما زاد فى خطورة هذا الاحساس فى التسعينات هو التسليم بعدم فعالية الجهاز المسئول عن الشؤون الخارجية فى الهند ، فى الوقت الذى كانت أعباء ومسؤوليات هذا الجهاز تتعاظم بسرعة (٥٥) • وحتى مكتب شؤون الهند فى لندن كان يفتقر الى العناصر المؤهلة لتقييم الأحداث الخارجية والتنسيق بين سياسة حكومة كلكتا وسياسة حكومة لندن الخارجيتين • فقد كان هذا الجهاز جهازاً بطيئاً فى أعماله ، أخطأ فى تصرفاته وغير مؤهل لمعالجة المشاكل التى يتطلب حلها قرارات حاسمة (٥٦) • وهكذا بازدياد تورط السياسة الخارجية لحكومة الهند فى المشاكل الأوروبية ، وصراعات الدول الكبرى ، أصبح يتحتم على وزارة الخارجية البريطانية القيام بدور أكثر فعالية فى تقرير السياسة الخارجية لحكومة الهند •

غير ان البت فى هذا الموضوع لم يتم قبل وصول كرزى الى كلكتا فى سنة ١٨٩٩ ، غير ان هذه المشكلة قد طرحت معها مشكلة الجهة التى يحق لها الاشراف على الشؤون الخارجية للهند • فقد كان اللورد سالسبورى قلقاً فى التسعينات من استقلال حكومة الهند فى سياستها الخارجية • وفى هذا الشأن بعث بمذكرات عنيفة كثيرة الى وزارة شؤون الهند يتهم حكومة الهند بانتهاج سياسة ضيقة واستفزازية فى آسيا (٥٧) •

-
- (٥٤) خطاب رقم ٤٣ مؤرخ ١٨٩٥/١٠/٢٠ من الجين الى هاملتون •
(٥٥) خطاب مؤرخ ١٨٩٩/٦/٤ من كرزى الى هاملتون •
(٥٦) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٢/١٣ من هاملتون الى كرزى •
(٥٧) خطاب رقم ٦ مؤرخ ١٨٩٢/٢/٣ من لانس داون الى كرزى •

وبعد وصول كرزن الى الهند بشهرين نشبت أزمة مسقط • وقد أبدى سالسبوري استياءه من الطريقة التي عالج بها كرزن ومرؤوسيه في الخليج هذه الأزمة • وهذا مما حملته على الدخول في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية لحل هذه المشكلة • كما انه عارض سياسة التشدد التي اتبعتها كرزن في عمان ووصفها بأنها سياسة صارمة جدا وبذلك مهد الطريق لمفاوضات فرنسا (٥٨) • أما كرزن فقد عارض موقف سالسبوري ، غير انه لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من أن يرضخ لرئيسه في النهاية (٥٩) • وبعد سنة ١٨٩٩ لم يعد في مقدور كرزن أن يستقل بسياسته في الخليج قبل الرجوع الى حكومة لندن • وفي سنة ١٩٠٣ عاد كرزن يشكو من سيطرة وزارة الخارجية البريطانية على الشؤون الخارجية للهند (٦٠) • غير ان هذا لم يكن يعنى ان حكومة كلكتا لم يعد لها صوت مسموع في شؤون الخليج ، خصوصا منذ أن تمكن كرزن من منع التدهور في الموقف ، وانما لم تعد هي الجهة المسيطرة على شؤون المنطقة • أما بعد سنة ١٨٩٩ فقد كانت اقتراحات حكومة الهند بشأن المنطقة تعرض على حكومة لندن أولا لبحثها قبل اتخاذ قرارات محددة بشأنها • بل في أثناء وجود كرزن كانت حكومة لندن تتخذ بعض القرارات فيما يتعلق بالخليج دون اشعار حكومة كلكتا بذلك • ولقد ثارت ثائرة كرزن عندما أحييت مسألة رفع العلم الفرنسي الى محكمة العدل الدولية في لاهاي (٦١) • وما ان غادر كرزن الهند ، حتى كانت هيمنة حكومة لندن على سياسة الهند ، وبالتالي (سياسة الخليج) واضحة كل الوضوح • والواقع ان اللورد هاردنج ، وزير الخارجية البريطانية قد صرح في معرض الحديث

(٥٨) حياة كرزن جزء ٢ ص ٤٨ ، تأليف : رونالدشي وخطابات مؤرخة ١٨٩٩/٢/١٠ ، و ١٨٩٩/٩/٥ و ١٨٩٩/٣/١٠ و ١٨٩٩/٣/١٥ من هاملتون الى كرزن •

(٥٩) خطاب مؤرخ ١٩٠٠/٩/٥ من كرزن الى هاملتون •

(٦٠) خطاب الميزانية للورد كرزن في ١٩٠٣/٣/٢٥ كما ورد في كتاب

« مسألة الشرق الاوسط » تأليف : شيول ص ٣ •

(٦١) رسالة مؤرخة ١٩٠٤/٥/٢٨ من كرزن الى هاملتون •

عن الاتفاق الروسى — الانجليزى المعقود سنة ١٩٠٧ ، « باننا فى الآونة الأخيرة قد أسقطنا حكومة الهند نهائيا من حسابنا » (٦٢) .

مناقشات حول السيادة البريطانية على الخليج

كان الصدام بين حكومة لندن وحكومة كلكتا حول السياسة البريطانية فى الخليج ما يزال قائما عندما طرحت المشكلة لمناقشة عامة • وبوصول الصراع البريطانى الى ذروته ، اضطرت بريطانيا الى أن تقرر ما اذا كان استمرار السيطرة البريطانية بصورتها المطلقة فى الخليج أمرا ضروريا لمصالحها أم لا •

فى سنة ١٨٩٩ نشبت حرب البوير • وقد أعرب كثيرون من البريطانيين عن تخوفهم من أن تتحالف فرنسا وروسيا وألمانيا ضد بريطانيا عن طريق استغلال موقفها الحرج فى أفريقيا ، وبالتالي تقدموا بمخططات تحول دون قيام هذا التحالف • غير أن هذا التحالف لم يظهر الى الوجود اطلاقا • كما لم تكن فرنسا التى كانت مشغولة بأزمات داخلية ، وبسبب توجيه ديلكاسى لسياستها الخارجية ، راغبة فى احياء السياسة المعادية للبريطانيين التى كان يسير عليها هانوتو • بينما كانت ألمانيا ، بقطع النظر عن نواياها تدرك أنها لم تكن تملك القوة البحرية الكافية لمواجهة بريطانيا فى حرب استعمارية ، وكانت روسيا هى الدولة الوحيدة التى يمكن أن تستغل المشكلة البريطانية فى جنوب افريقيا لمصلحتها •

وفى الفترة ما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٣ حاولت روسيا توسيع مناطق نفوذها فى ايران عبر الخليج ولم يكن هناك أدنى شك فى أن كثيرين من الزعماء الروس من القيصر حتى أصغر سياسى فى روسيا ، كانوا يرغبون فى توسيع نفوذهم فى ايران • والفقرات التالية من خطاب بعث به نيقولا الثانى

(٦٢) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد ، الطبعة الثالثة ص ٦٩٤ .

الى شقيقه قبيل نشوب حرب البوير تلقى أضواء كاشفة على مطامع الروس : « انى أدرك تماما أنه فى مقدورى أن أغير من سير الحرب فى أفريقيا — والحل بسيط • وهو أن أبرق بأوامرى الى جيش تركستان بالاحتشاد والزحف نحو الحدود • وهذا كل ما فى الأمر • وليس فى استطاعة أقوى الأساطيل أن تمنعنا من تسوية مشاكلنا مع انجلترا • وفى أقوى نقطة من نقاط نفوذها المنيع • الا أن الوقت لاتخاذ هذه الخطوة لم يحن بعد • فنحن لسنا مستعدين بعد لعمل خطير كهذا لأن تركستان ليست مرتبطة مع روسيا الداخلية بخط حديدى حتى الآن » (٦٣) •

وكان يشاطر نيقولا رغبته فى تسوية الأمور مع انجلترا بعض كبار وزرائه • ومن ناحية أخرى هاجم الكاونت ويتى هذه المغامرة الحمقاء ، ودعا الى اتباع استراتيجية صبور تقوم على التسلل الاقتصادى المقرون بخطة للتنمية الاقتصادية داخل روسيا • وحتى سنة ١٩٠٣ عندما تكاثرت سياسة المغامرين بالنصر ، ظلت سياسة روسيا الخارجية موضوع نزاع (٦٤) • غير أن حكومة سانت بيترسبرج ، ادراكا منها لواقع الأمور عارضت هذه السياسة المثيرة ، كاحتلال هرات ، أو موانئ الخليج • وصرح تيرتوف ، وزير البحرية الروسية ان أى ميناء روسى على الخليج لا يمكن الدفاع عنه (٦٥) • وعلى أى حال ففى الفترة ما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٣ حاول الروس فعلا توسيع منطقة نفوذهم فى ايران والخليج العربى ، وذلك باستخدام كل الوسائل المباحة لهم :

١ — فعن طريق تقديم القروض ، والضغوط المالية ، والقيود التجارية حاول الروس أن يسيطروا على اقتصاد المنطقة الشمالية من ايران •

(٦٣) « القيصرية والامبريالية فى الشرقين الاقصى والاوسط » — ١٨٨٠ —
١٩١٤ ص ٧ — ٨ (طبعة لندن ١٩٤٢) ، تأليف : بى • اج سمنر •

(٦٤) روسيا — فكرة وتاريخ ، ام فلورنسكى (طبعة نيويورك) ص ١٢٦٨ و ١٢٦٩ فصل ٢ •

(٦٥) القيصرية والامبريالية ، تأليف سمنر ص ٨ وص ٢٢ •

٢ — عن طريق افتتاح قنصليات روسية في أبو شهر ، وبندر عباس ،
وسيستان ، والمحمرة وبغداد .

٣ — عن طريق مرابطة مجموعات من الكوزاك تحت قيادة روس في
أصفهان .

٤ — عن طريق ايفاد بعثات علمية لمسح طرق النقل .

٥ — عن طريق فتح محاجر صحية يشرف عليها أطباء روس ، وتحت
حراسة مجموعات من الكوزاك لسد الطريق البري بين الهند وإيران .

٦ — عن طريق قيام السفن الحربية الروسية بزيارة موانئ الخليج
بانتظام (بفتح خط ملاحى بحرى بين ميناء أوديسا الروسى وموانئ
الخليج) . ولقد اعترف الروس فيما بعد بأن هذا الخط كان عملية خاسرة
من الناحية التجارية ، وقد أنشئ لأسباب سياسية . وفوق هذا كله قام
الروس بمحاولة لإنشاء قنصلية لهم في مسقط ولكن المحاولة لم يكتب لها
النجاح . وينبغى التأكيد على حقيقة واحدة وهى أن كل هذه الاجراءات
قد اتخذت على مستوى مسؤولين ثانويين ، وبغير موافقة حكومة سانت
بيترسبرج (٦٦) .

ولقد أثارت هذه الاجراءات ردود فعل حادة على المستوى الحكومى
والشعبى في بريطانيا واستمرت المناقشات من ١٨٩٩ حتى منتصف ١٩٠٢ .
وظهرت خلال هذه الفترة ثلاثة اتجاهات داخل الدوائر الحكومية . اتجاه
يقترعه اللورد سالسبورى ، وآخر يقترعه اللورد جورج هاملتون ، وزير
الدولة لشؤون الهند واتجاه ثالث يقترعه اللورد كرزن . أما سالسبورى
فقد دعا الى تجاهل المحاولات الروسية في الخليج ولم يكن هذا الموقف منه

(٦٦) نفس المصدر ص ١٤٦٨ — ٧٠ ايضا (Precis Navel) ص ٢٠ —
٢١ و ٣٧ — ٣٨ و « علاقات بريطانيا بالخليج العربى » ، تأليف : داود ص
١٧١ — ٢٠٩ .

شيئا جديدا • فمئذ توليه لوزارة الخارجية ، كان يركز اهتمامه على الوصول الى اتفاق مع روسيا • فقد كان من رأيه ان روسيا دولة كبرى أمنع من أن يؤثر فيها أى هجوم بحرى بريطانيا ، بينما أى هجوم روسى برى على الهند قد يهوى لبريطانيا الى مستوى المرتبة الثانية بين الدول (٦٧) • وكان يرى ان اعتبار الخليج كخط دفاعى عن الهند مجرد تضليل للحقيقة • وان نجاح أى دفاع ضد مثل هذا الهجوم ينبغى أن يقوم على تركيز القوات البريطانية فى بلوشستان حيث يمكن تعزيزها بخط حديدى • كما أن أية خطة للدفاع عن ايران ، فى رأى سالسبورى ، لا بد وأن تعتمد على شبكة من خطوط السكك الحديدية تمتد من الهند الى ايران (٦٨) • ولما كان سالسبورى يشك فى قدرة وسياسة حكومة الهند الانجليزية يومئذ فى فترة كانت تشهد مدا امبرياليا ، فقد كان يعتبر تحذيرات حكومة كلكتا من وقوع تغلغل من جانب دول أوربية أخرى فى الخليج تحذيرات مبالغ فيها (٦٩) • وما ان نشبت حرب البوير حتى أخذ سالسبورى ينتهج سياسة حذرة فى الخليج • وكان يرى ان القيام بخطوات عنيفة ضد روسيا وغيرها من الدول الأوربية قد يجلب ردود فعل انتقامية ، لن يكون فى مقدور بريطانيا الرد عليها نظرا « لتورطها المخيف فى جنوب افريقيا » (٧٠) • وحاول كرزى مسعينا بوزارة شؤون الهند استيضاح سالسبورى حول السياسة البريطانية فى الخليج غير أن رئيس الوزراء لم يتزعزع عن موقفه • ولقد وصف اللورد جورج هاردنج سياسة سالسبورى بأنها سياسة انتحارية ، ولكنها

(٦٧) « دبلوماسية الامبريالية » ص ٧٨٨ — ٧٨٩ ، تأليف لانجر •

(٦٨) خطاب مؤرخ ١٨٩١/١٠/٢١ تحت رقم ١٥ من سالسبورى الى

لانس داون •

(٦٩) خطاب مؤرخ ١٨٩٦/٤/٢١ من سالسبورى الى كرزى وقد استشهد

به رونالدشى فى كتابه « حياة كرزى » جزء ٢ ص ٤٨ ، وخطاب مؤرخ ١٩٠٣/٣/١٠

من هاملتون الى كرزى •

(٧٠) خطاب مؤرخ ١٩٠١/٦/٢١ من هاملتون الى كرزى •

مدرسة (٧١) • وبما أن سالسبورى كان يرى بأن مشاكل بريطانيا في الخليج تافهة بالمقارنة الى مشاكلها الأخرى ، فإنه لم يسمح لنفسه بأن يجر الى مواقف متطرفة (٧٢) •

أما اللورد هاملتون وزير الدولة لشؤون الهند فقد كان له موقف خاص من أزمة حرب البوير وعلى عكس سالسبورى كان هاملتون قلقا من التحركات الروسية في ايران والخليج (٧٣) • وقد دعا بريطانيا الى التخلي عن تأييد سياسة ايران وأن تطالب بدلا من ذلك بالمنطقة الشرقية من ايران وساحل الخليج (سيستان والموانئ الشرقية للخليج) كمنطقة نفوذ لها • باعتبارها موقعا هاما بالنسبة للدفاع عن الهند • بينما حذر هاملتون حكومته من المطالبة بأكثر مما تستطيع الدفاع عنه بشكل فعال (٧٤) • وكان ضد ما أسماه « بسياسة التوسع » التي تهدف الى الاحتفاظ بالنفوذ البريطانى عبر منطقة الخليج كله • وكان يعتقد أن روسيا لابد وأن تصل في يوم من الأيام الى منطقة الخليج ، وأنها سوف تستولى على تركيا ، وايران ، وأفغانستان وان ذلك على المدى الطويل سيكون في صالح الحضارة • وكان يعتقد انه يكفى روسيا أن تحصل ولو على ميناء واحد في المياه الدافئة للخليج ، وان حصولها عليه سوف يكون بمثابة صمام الأمان لا مصدرا للخطر (٧٥) • وكان يخشى من قوة روسيا ، ويقول ان لا أمل لبريطانيا في

(٧١) رسائل مؤرخة ٣/٢٣ و ٣/٢٩ و ٤/١٠ و ٥/١٠ سنة ١٩٠٠ من هاملتون الى كرز •

(٧٢) « حياة كرز » تأليف رونالدشى جزء ٢ ص ٤٨ الى جانب خطابين آخرين أحدهما بتاريخ ٥/١٨ والآخر بتاريخ ٦/١٦ سنة ١٨٩٩ من هاملتون الى كرز •

(٧٣) خطابات مؤرخة ٣/٢٩ و ٤/٢٧ سنة ١٩٠٠ من هاملتون الى كرز •
(٧٤) خطابات مؤرخة ٣/٢٣ و ٦/٦ و ٦/١٣ سنة ١٩٠٠ من هاملتون الى كرز •

(٧٥) رسالة بتاريخ ١/١١ ورسالة بتاريخ ٢/١ سنة ١٩٠٠ من هاملتون الى كرز •

مقاتلة روسيا والانتصار عليها في معارك برية ، الا على حدود الهند فقط (٧٦) . وعندما نشبت حرب البوير دعا هاملتون الى الهدوء وعدم اثاره ضجة . ومما قاله تعليقا على هذا الوضع « بأن بريطانيا تسيطر على امبراطورية هامة في آسيا وليست في حاجة الى توسيع هذه الامبراطورية بضم اراض جديدة اليها » (٧٧) . وكان يرى انه لو نشبت حرب فقد تواجه بريطانيا جبهة من الدول الأوروبية ، وفي هذه الحالة ستجد الهند نفسها مضطرة الى أن تدافع عن نفسها بالامكانات التي لديها ، ولن يكون في وسعنا ارسال تعزيزات اليها ، وقد تضطر الى اخلاء بعض المواقع الأمامية وهذه الاعتبارات هي وراء رغبته في منع الهند من استنزاف مواردها ، وذلك بالحد من امكاناتها (٧٨) .

أما اللورد كرزن فقد كانت سياسته معروفة . وعلى أى حال فقد كان الرأى العام البريطانى يؤيده . كما كان يؤيده كتاب متنفذون أمثالى فالنتين شيروى محرر صحيفة التايمز . وكان ينادى بأن تفرض بريطانيا على الخليج برا وبحرا سيطرة تامة ، وان هذه السيطرة ضرورية لحماية الهند والدفاع عنها (٧٩) . وكان يقول عن سالسبورى ، وهاملتون بأنهما يتبعان « سياسة النعامة » فى ايران ، وبأن الطريقة الوحيدة لمواجهة الروس هي « محاربتهم على كل الجبهات » حتى ولو تطلب ارسال قوات هندية الى الخليج (٨٠) . غير أن موضوع التحدى الروسى ، وتحدى الدول الأوروبية الأخرى وفقا لما كان يتصوره كرزن كان موضع تساؤل . ومهما يكن فان صراحة كرزن فى

(٧٦) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/١١/٢ من هاملتون الى كرزن .
(٧٧) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/١١/٩ من هاملتون الى كرزن .
(٧٨) خطابان تاريخ ١/٣ و ٦/١٣ سنة ١٩٠١ من هاملتون الى كرزن .
(٧٩) « الدبلوماسية » تأليف هروتز جزء ١ ص ٢١٩ — ٢٤٩ وذلك للوقوف على التحليلات الكلاسيكية التى وصفها كرزن للوجود البريطانى فى ايران والخليج .
(٨٠) خطاب مؤرخ ١٩٠١/٤/٢٢ من كرزن الى هاملتون .

دفاعه عن موقفه ، كانت من أهم العوامل التي دعمت من مركز بريطانيا في الخليج بعد حرب البوير •

وقد امتدت المرحلة الثانية من المناقشات عن احتمالات السياسة البريطانية في الخليج على امتداد النصف الأخير من سنة ١٩٠٢ ، والنصف الأول من سنة ١٩٠٣ • وفي يوليو ١٩٠٢ اعتزل سالسبورى وخلفه بلفور في رئاسة الوزارة البريطانية • ولم تتمكن الحكومة الجديدة من اثبات وجودها قبل سنة ١٩٠٣ ، ولكن ما ان تم ذلك حتى بدأت تهتم اهتماما بالغاً بالشؤون الآسيوية ، كما شكلت لجانا خاصة لدراسة المنطقة • ورغم امتعاض بلفور من بعض تصرفات كرزن فقد كان يشاطره الخوف من روسيا^(٨١) • أما اللورد لانس داون الذى احتفظ بمنصبه كوزير للخارجية فقد كان له موقف آخر ، على الرغم من انه كمرؤوس لسالسبورى كان أكثر تشددا من رئيسه القديم تجاه كل من ألمانيا وروسيا^(٨٢) • ومنذ سنة ١٩٠١ أخذ كرزن يكاتب لانس داون وهو نائب سابق للملك في الهند ويعرب في رسائله هذه عن آرائه • ولقد شكّا كرزن في احدى هذه الرسائل من الوضع المتدهور في فارس ، وحثه على تحريك وزارته لاتخاذ الخطوات اللازمة ، لان حكومته قد فعلت كل ما كان في وسعها^(٨٣) • وقد أعجب لانس داون بآراء كرزن ورتب قرضا لايران وزيارة يقوم بها الشاه الى لندن^(٨٤) • وفي أحد ردوده

(٨١) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٢/٢٧ من هاملتون الى كرزن وكتاب « ارثر جيمس بلفور » ، تأليف بى د جديل جزء ١ ص ٣٩٢ (طبعة لندن ١٩٣٦) •
(٨٢) خطابان بتاريخ ١٩٠١/٨/٨ و ١٩٠٣/٢/٢٧ من هاملتون الى كرزن •

(٨٣) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٥/١٤ من كرزن الى هاملتون ويتضمن اشارات كثيرة الى خطابات كرزن الى لانس داون • أيضا خطاب مؤرخ ١٩٠١/٤/٥ من كرزن الى لانس داون وقد استشهد به جوس في كتابه « وثائق عن أسباب نشوب الحرب » ص ٣٥٦ — ٦٣ مجلد ٤ •

(٨٤) سيرة حياة لانس داون ، تأليف اللورد نيوتن (طبعة لندن ١٩٢٩) ص ٢٣٢ — ٣٨ •

على رسائل كرزى ذكر لانس داوون بأنه على الرغم من أنه ليس من حق بريطانيا أن تمنع بواخر الدول الأخرى من ارتياد مياه الخليج ، إلا أنه لن يسمح لروسيا بأن تكسب لها منطقة نفوذ فيه ، ملاحية كانت أو عسكرية^(٨٥) . ومن الواضح ان لانس داوون استطاع على ضوء خطاب كرزى المؤرخ في شهر ابريل سنة ١٩٠١ والخطابات التالية الأخرى تكوين رأيه الخاص عن السياسة البريطانية في الخليج ، وهو لا يختلف في مضمونه عن سياسة كرزى هذا رغم ان لانس داوون لم يكن يستطيع اتخاذ قرارات بمفرده في هذا الشأن حتى سنة ١٩٠٢ . وما ان أشرفت حرب البوير على نهايتها حتى بدأت بريطانيا تتشدد في سياستها في الخليج . ففي أوائل شهر يناير سنة ١٩٠٢ بعثت بريطانيا بمذكرة سرية الى الحكومة الايرانية تحذرها من السماح لروسيا باقامة قاعدة لها في الخليج^(٨٦) وفي سنة ١٩٠٣ انتهت حرب البوير ، وبانتهائها تخلت بريطانيا عن سياسة « العزلة الوقورة » بتحالفها مع اليابان . وهذه الخطوة ، فضلا عن الزعامة الجديدة التي تولت مقاليد الحكم في البلاد ، بدأت بريطانيا تتخذ موقفا صلبا من المشكلات الدولية . اتخذت بريطانيا أول خطوة لها في الاتجاه الجديد في أوائل سنة ١٩٠٣ ، بعد أن تلقت معلومات عن هجوم ترمع روسيا القيام به على التبت^(٨٧) . وقد أحدث هذا النبأ موجة من القلق والاستياء في الدوائر الهندية الحاكمة ، مما حدا بلانس داوون الى تحديد موقف الحكومة البريطانية من المشاكل الآسيوية والفارسية . فبعد اجتماع لانس مع الدبلوماسيين البريطانيين وبعد ان قام بجس نبض المسؤولين الروس ، قرر الوقوف في وجه أى زحف تقوم به روسيا نحو

(٨٥) خطاب مؤرخ ١٩٠١/٥/٥ من لانس داوون الى كرزى مكتبة وزارة الخارجية — وثائق لانس داوون رقم ٢٧٧ .

(٨٦) *Precis Int'l Rivalry* ص ٤٦ .

(٨٧) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد الطبعة الثالثة ص ٧٥٣ — ٧٥٤ والواقع ، ان الدالاي لاما ، قد طالب على ما يبدو بمساعدة من الروس ضد ضغط صيني متزايد على بلاده .

جنوب شرقى آسيا • وفى الخامس من شهر يوليو أعلن لانس داون رسميا فى مجلس اللوردات : « ان اقامة أية قاعدة بحرية أو ميناء مسلح فى منطقة الخليج من جانب أى دولة سيكون بمثابة تهديد خطير للمصالح البريطانية هناك ، وان الحكومة البريطانية سوف تقاومه بكل ما تحت تصرفنا من امكانات (٨٨) » • وقد جاء رد الروس على هذا البيان لينا ، وذلك بحكم التزامات روسيا الجسيمة فى الشرق الأقصى • بل لقد صرح السفير الروسى بنكندر « بان ليس لدى روسيا أى نية فى اقامة قاعدة بحرية لها فى الخليج (٨٩) » • وعلى كل فقد كان البيان ، على حد رأى اللورد هاملتون تصرفا خاطئا ، ولهذا استقال من منصبه بعد مضى خمسة أشهر على ذلك التاريخ (٩٠) • أما كرزن فقد صفق للبيان واعتبره انتصارا لخطه السياسى • وقد علق عليه يقول : « أنه لا يسعنى الا ان أشعر بالفخر » • اذ ان هذا ما كنت أنادى به ، وهو أسلوب أصبح منذ ذلك الوقت أسلوبا معروفا (٩١) » •

وفى ربيع سنة ١٩٠٣ قام كرزن بزيارة للخليج للتأكد شخصيا من ان السيطرة السياسية والتجارية البريطانية فى المنطقة موجودة بالفعل • كما « وللبحث عن المواقع التى تصلح لاقامة قواعد بحرية بريطانية فيها » • وكان يعتقد ان زيارته « نتيجة منطقية » لتصريح لانس داون الذى اعتبره نائب الملك تمهيدا لتطبيق مبدأ مونرو البريطانى فى الخليج (٩٢) • أما الزيارة فى حد ذاتها فقد كانت نوعا من الدعاية والاعلان • وفى مسقط

(٨٨) مناقشات مجلس اللوردات — ١٩٠٣ ، ١٩٠٣/٥/٥ •

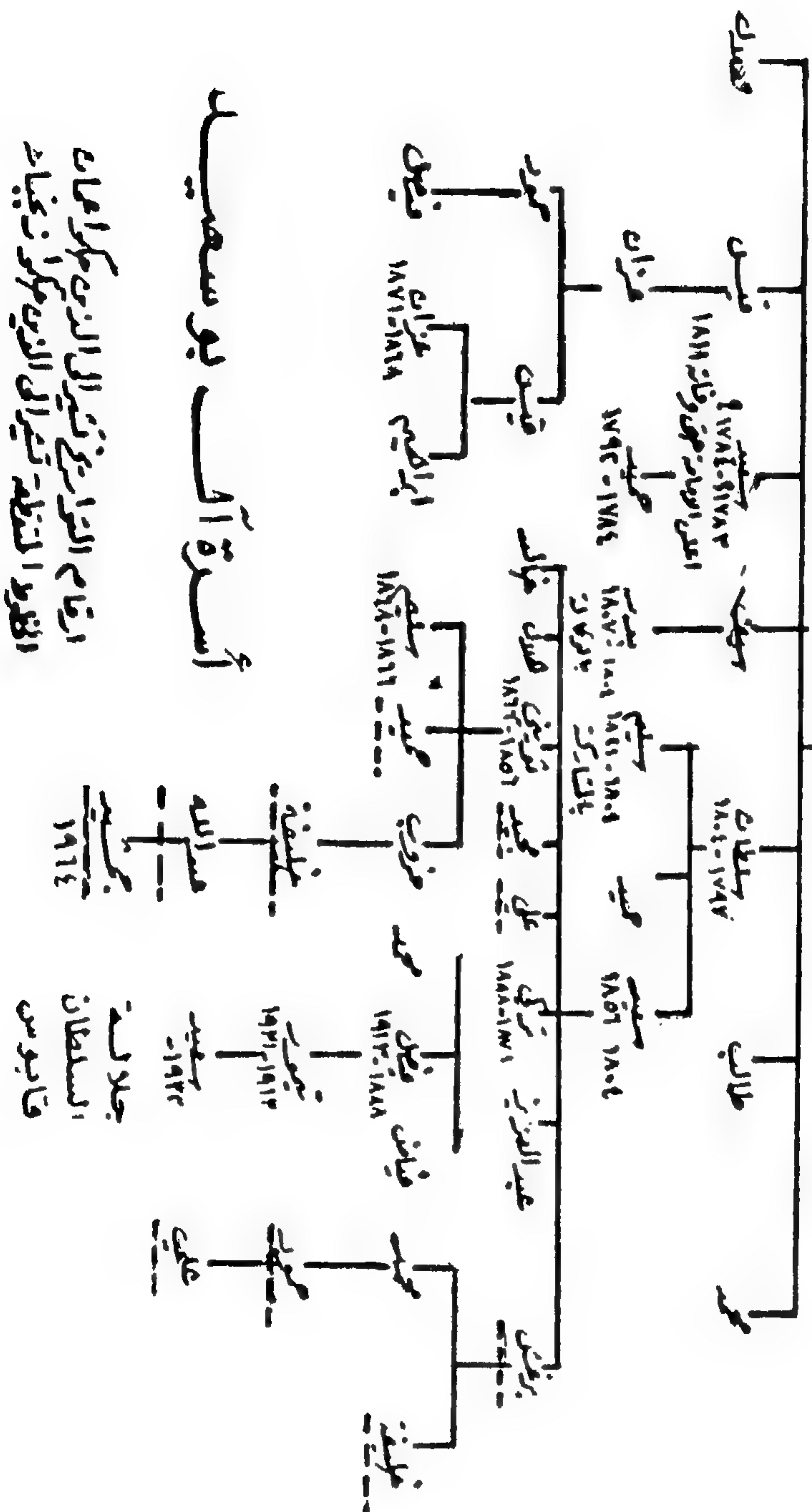
(٨٩) *Precis int'l Rivalry* ص ٤٨ •

(٩٠) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٦/٥ من هاملتون الى كرزن •

(٩١) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٥/١٤ من كرزن الى هاملتون •

(٩٢) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٦/٢١ من هاملتون الى كرزن •

NYAT-11464



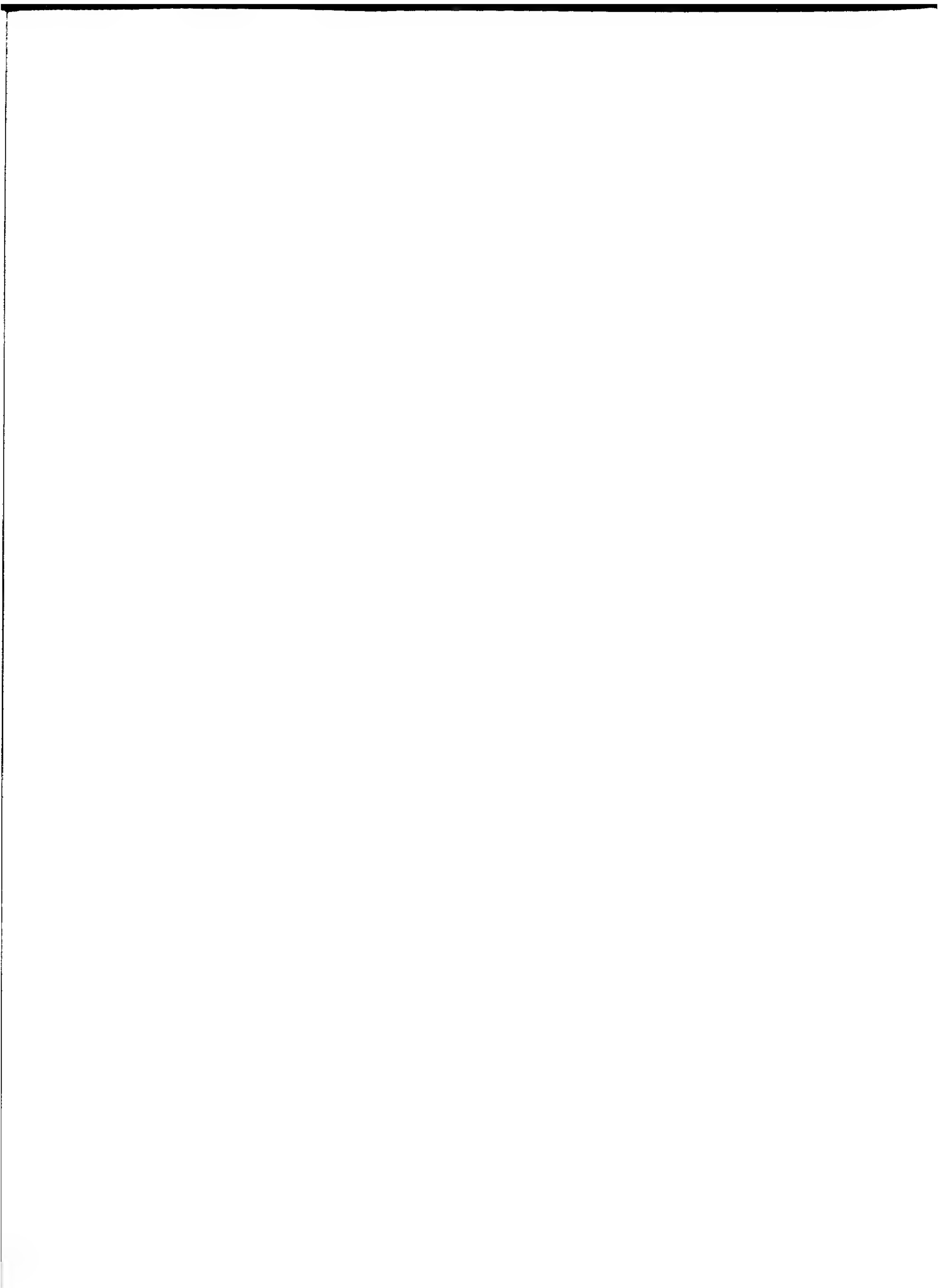
آبِ حیات

إقامة التواضع وتسير إلى الذبيحة بكرامات
الخطوة المتقدمة تسير إلى الذبيحة بكرامات

قلد كرزن السلطان فيصل وسام الصليب الأعظم للامبراطورية ، وأكد للسلطان بأنه يمكنه الاعتماد على بريطانيا في مساعدته على قمع أى ثورة شعبية تنشب ضده • ولقد وصف كرزن السلطان فيصل بأنه « الحاكم الإقطاعى والتابع المخلص للتاج البريطانى أكثر منه حاكما ذا سيادة » ، كما أضاف يقول بأن السلطان قد أعرب عن رغبته فى ان تعامله بريطانيا معاملتها لأمرء الهند فى علاقتهم بالتاج البريطانى (٩٣) • أما بالنسبة للرأى العام العالمى فى الخليج فقد كان الغرض من زيارة كرزن هى التأكيد على ان السيطرة البريطانية فى الخليج قد وجدت لتبقى ، كما كانت الزيارة نهاية لفترة طويلة من المناورات السياسية ، التى كان اعتادها الخليج لمرحلة ١٨٩٣ — ١٩٠٣ • وخلال المفاوضات التى سبقت الاتفاق الروسى الانجليزى حول ايران سنة ١٩٠٧ اعترف الروس بالوجود البريطانى فى الخليج • وبذلك تعزز تصميم بريطانيا على الاحتفاظ بسيطرتها على المنطقة • كما نجحت بريطانيا ما بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٤ فى اقناع كل من الألمان والعثمانيين بالاعتراف بالوجود البريطانى فى منطقة الخليج •

فى سنة ١٩٠٣ قررت بريطانيا الاحتفاظ بسلطانها على الخليج • ومنذ ذلك الوقت ارتبط مصير دول الخليج ببريطانيا ارتباطا واضحا • وبالتالى كان معنى تأكيد سالسبورى على مسؤولية حكومة لندن عند رسم سياسة الخليج ، أن مصائر دوله أصبحت تقرر من على بعد آلاف الأميال من أصحابها الأصليين • لقد كان جهاز السيطرة البريطانية فى الخليج فى سنة ١٩٠٣ خليطا من أفكار سالسبورى ، وكرزن ، وفرير ، وبلى ، وروس وغيرهم

من أوائل المسؤولين البريطانيين الذين وقع على كاهلهم عبء رسم السياسة البريطانية في المنطقة • ومن ثم فإن عملية فرض السيطرة البريطانية على الخليج عن طريق القوة كان يعنى ان المؤثرات الحضارية في المنطقة تبقى من حيث الأساس مؤثرات هندية بريطانية • ومن هنا يجوز القول ان الشروط الأساسية لهذه العملية كانت قائمة بالفعل في سنة ١٩٠٣ ، وهي التي شكلت وصاغت تاريخ المنطقة منذ ذلك الوقت ، كما انها هي التي أثرت في نوعية التحديث السريع للمنطقة واتجاهاته منذ بداية صناعة النفط •



الجزء الرابع

تكيف عثمان مع المرحلة الجديدة

1. The first part of the document is a list of names and addresses.

2. The second part of the document is a list of names and addresses.

3. The third part of the document is a list of names and addresses.

الفصل السابع

سقوط النظام المعتدل

١٨٥٦ - ٧١

لقد مزقت وفاة السيد سعيد بن سلطان سنة ١٨٥٦ غلالة الاستقرار التي كانت تحجب مواطن الضعف في الامبراطورية العمانية . فالدولة العريضة الشاسعة التي امتد نفوذها من بحيرات أفريقيا الوسطى غربا حتى مشارف شبه القارة شرقا ، كانت في حقيقتها انعكاسا لموهبة وشخصية رجل واحد هو السيد سعيد بن سلطان . وعلى الرغم من أن الشطر الافريقي من هذه الامبراطورية قد بعث من جديد ، الا أن الأعوام الخمسة التي أعقبت وفاة سعيد العظيم ، قد شهدت تداعى البناء السياسى الذى كان يستند عليه الحكم المعتدل في عمان . وعلى أى حال ، فلم يكن في مقدور أى انسان حتى لو كان في مستوى السيد سعيد ، أن يحول دون الكوارث التي ألمت بعمان ما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٧١ . كما لم يكن في مقدور أى حاكم عمانى أن يمنع تسرب النشاط الاقتصادى الحديث ووسائل المواصلات الحديثة الى المنطقة الغربية من المحيط الهندى والخليج في الستينات من القرن التاسع عشر . أو أن يغير من الاعتقاد بأن المؤسسات الملاحية القديمة في الخليج ذلك فإن انتشار هذه التكنولوجيا الحديثة ، كان السبب ، في تدهور النشاط قد استنفدت أغراضها بعد ظهور السفن البخارية في المياه العربية . ومع التجارى والملاحى القديم للمنطقة ، وتقويض الأسس الاقتصادية التي كان يعتمد عليها الجهاز السياسى للنظام الأباضى المعتدل ، القائم في المنطقة الساحلية من عمان ، والذي كان يدعى السيادة على الاقليم الداخلى من عمان أيضا .

ولو قيض لعمان حاكم قوى مستنير لتمكن من اخضاع مؤثرات الثورة الاقتصادية لعام ١٨٦٠ للبيئة العمانية ، وبذلك يمنع التفسخ السياسى الذى دب فى أوصال حكومة البوسعيد فى سنة ١٨٦٨ وعلى كل فخلال حكم خليفته السيد سعيد المعتدلين ، وهما ابنه ثوينى (١٨٥٦ — ١٨٦٦) ، وحفيده سالم (١٨٦٦ — ١٨٦٨) عانت عمان من ضعف فى جهازها الادارى ، ومن تأزم فى علاقاتها مع ايران والسعودية ، بالاضافة الى ازدياد التدخل البريطانى فى شؤونها الداخلية ، وأخيرا من ظهور جناح أباضى محافظ ونشط ، معارض ، استطاع فى النهاية من تصفية الحكم المعتدل واعادة تثبيت حكم الامامة المحافظ فى سنة ١٨٦٨ .

وكان يبدو للوهلة الاولى أن حكومة المحافظين العمانيين بزعامه عزان ابن قيس (١٨٦٨ — ٧١) ، وينتمى الى أحد فروع عائلة البوسعيد ، قوية وتحظى بتأييد الشعب ، غير أن النزعة المحافظة للنظام الجديد وتعصبه وافتقاره الى المرونة ، بالاضافة الى عجزه عن حل مشاكله المالية الخديرة ، سرعان ما قوض دعائم إمارة عزان . وقد جاءت بعد حكومة عزان حكومة أخرى معتدلة بزعامه تركى بن سعيد ، أحد أبناء سعيد بن سلطان ولكنها كانت حكومة مزعزعة . وعلى كل فقد تعرضت حكومته فى سنة ١٨٧١ للخطر وبدا يومها أن عمان سوف تتفتت الى عدد من الامارات الصغيرة المتناحرة ، وبالتالي تفقد كل مظاهر وحدتها السياسية . وسوف نتناول فى بقية هذا الفصل التدهور المؤقت لحكومة البوسعيد المعتدلة فى عمان ما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٧١ .

أزمة الحكم فى الامبراطورية العمانية — ١٨٥٦ — ٦٨

تقسيم الامبراطورية :

لم يكن بين أبناء السيد سعيد من يتمتع بالكفاءة والتأييد السياسى الذى يؤهله لحكم الامبراطورية العمانية والمحافظة على وحدتها . لذلك انقسمت هذه الامبراطورية بعد وفاة السلطان سعيد الى دولتين . وكان

سعيد قد عين اثنين من أنجاله نائبين عنه في كل من الجزء الأفريقي (زنجبار) والجزء الآسيوي (مسقط) من الامبراطورية للعمل أثناء الفترات الطويلة التي كان يتغيب فيها عن الحكم • ومنذ سنة ١٨٣٣ كان ثويني ينوب عن والده في العاصمة ، بينما كان الابن الثاني ماجد ينوب منذ سنة ١٨٥٤ عن والده في زنجبار • وقد أصبح لكل منهما نفوذ واسع في المنطقة التي يحكمها ، ولكن ليس بالدرجة التي تمكنه من ضم الجزء الآخر الى حيز نفوذه • كما لا يبدو أن السيد سعيد قد رشح أحد أبنائه ليخلفه على الحكم بعد وفاته •

وما أن توفي السيد سعيد حتى بدأ ماجد وثنويني يتفاوضان على حل المشاكل السياسية التي أخذت تواجه الدولة العمانية والأسرة الحاكمة فيها • وقد جاءت المبادرة من ماجد الذي عين ابن عمهما محمد بن سالم كمبعوث الى أخيه في زنجبار • وكانت نتيجة المباحثات التمهيدية ، أن تعهد ماجد بدفع ٤٠٠٠٠ ريال نمسوي كل سنة مساعدة منه الى أخيه بشرط أن يتخلى ماجد عن مطالبته باقليم زنجبار الذي كان أغنى من الاقليم الآسيوي • وهكذا بدا ان التقسيم الودي للامبراطورية هو الحل لمشكلة الخلافة (١) •

وعلى كل فان ماجد لم يتمكن من الوفاء بوعده لأخيه ، وذلك لانخفاض نسبة الضرائب الجمركية ، وبالتالي كان رد فعل ثويني على هذا الموقف ، هو الاعلان في سنة ١٨٥٦ بأنه الحاكم الشرعي لجميع أراضى المملكة العمانية بما فيها اقليم زنجبار • وتنفيذا لهذه الخطوة أخذ ثويني يدبر الثورات ضد ماجد كما جهز حملة عسكرية من ٢٥٠٠ جندي لمهاجمة زنجبار واطاحة أخيه • ولكن ما كاد أسطول الغزو يتوغل كثيرا داخل البحر وأصبح التهديد بنشوب حرب في المنطقة الغربية من المحيط الهندي أمرا واقعا ، حتى تدخل الانجليز وردوا أسطول الغزو العماني على أعقابهم ، وفرضوا هدنة على الطرفين (٢) •

(١) التحفة للسالي جزء ٢ ص ٢١٩ ، وكتاب لوريير جزء ١ ص ٤٩٦ •
(٢) تقرير حول زنجبار بقلم رجبى من سجلات حكومة بومبي ١٨٦١ وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٤٧٠ •

غير ان الحرب بينهما ظلت تنذر بالانفجار من وقت الى آخر مما أدى الى تدهور الأوضاع التجارية في كل من مسقط وزنجبار • وأخيرا في شهر مايو سنة ١٨٦٠ وتحت ضغط الأوضاع الاقتصادية في البلاد ، التي كان يغذيها الجو السياسي المضطرب ، وافق السيد ثويني على اقتراح اللورد كاننج ، نائب الملك في الهند بعرض الخلاف بينهما على التحكيم • وكان السيد ماجد قد سبق أن وافق على هذا الاقتراح •

وعلى ضوء هذا الاقتراح شكلت لجنة للتحقيق في النزاع • وفي عام ١٨٦١ أعلن اللورد كاننج ان قرارات اللجنة وتوصياتها تعتبر ملزمة على الطرفين وحكما نهائيا في النزاع • وينص قرار اللجنة في المقام الأول على تقسيم الامبراطورية العمانية الى دولتين منفصلتين وبالتالي أصبح استقلال كل من زنجبار وعمان حقيقة معترفا بها وتلقب كل حاكم من الدولتين بلقب « سلطان » كما تعهد ماجد حاكم زنجبار عن نفسه وعن خلفائه بدفع مبلغ ٤٠٠٠ ريال نمسوى كل عام الى سلطان عمان • وهو نفس المبلغ الذي كان ماجد قد وعد به أخاه في المفاوضات التي أجريها بعد وفاة والدهما مباشرة • وقد نص القرار على ان المبلغ لا يعتبر أتاوة أو جزية ، بل بمثابة تعويض لسلطان عمان مقابل تنازله عن حقوقه في زنجبار وكتسوية لتركاة لم تكن عادلة • كما وافق ماجد على أن يدفع الى ثويني الأقساط المتأخرة من التعويض وقدرها ٨٠٠٠٠ ريال نمسوى (٣) •

وفي سنة ١٨٦٢ أي بعد سنة من هذا الاتفاق ، وافقت الحكومة الفرنسية التي كانت مشغولة ذلك الوقت بمشاكلها الافريقية ، على تركية الاتفاق والاشتراك مع بريطانيا في اصدار بيان باحترام استقلال كل من

(٣) تقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ وكتاب « سلطنة عمان » أزمة مسقط — (طبعة باريس ١٩١٤) ص ١٨٣ — ١٨٥ . ثم « افريقيا الشرقية وغزاتها » فصل ٥ و ١٦ . وقد ضمت لجنة التحقيق كلا من البريجادير دبليو كوجلان المقيم البريطاني في عدن والقس بارجر أحد علماء اللغة العربية و ه . رسام وكييل حكومة بومبي الوقت في مسقط .

سلطنة زنجبار وسلطنة عمان • وقد أجرى المفاوضات مع فرنسا السفير البريطاني في باريس بالنيابة عن وزارة الخارجية • ولم يعلم ممثلو حكومة الهند والحكومة البريطانية شيئاً عن أمر هذا الاتفاق الا في سنة ١٨٩٠ عندما بدأت الأنباء عن اعلان الحماية البريطانية على الخليج تتسرب الى الخارج • وكان البيان الانجلو — فرنسي سبباً في عدول بريطانيا عن اعلان الحماية على عمان في سنة ١٨٩١ مما أعطى فرنسا مبررات للتدخل في شؤون عمان في التسعينات ، وأبقى للسلطان قسطاً من الاستقلال الشرعي أكثر مما كان يتمتع به حكام الدول البحرية الأخرى في الخليج (٤) •

غير أن تفتت الامبراطورية العمانية بهذا الشكل قد عاد بأضرار بالغة على عمان وبنوع أخص على المقاطعات الساحلية من البلاد • وعندما توفي السيد سعيد كانت معظم السفن الحربية والتجارية الخاصة به راسية في ميناء زنجبار وبالتالي فقد استولى عليها ماجد وكانت تمثل الجزء الأكبر من استثمارات سعيد المالية • كما اضطر ثويني في سنة ١٨٦٣ الى تصريف العدد القليل من السفن العمانية التي بقيت في ميناء مسقط بسبب الاهمال ، ولعدم توفر الأموال اللازمة للانفاق على ادارتها ، ما عدا سفينتين أو ثلاث • ومن ناحية أخرى تدهورت تجارة عمان التقليدية مع زنجبار ، وذلك قبل أن تظهر بواخر ماكيتون الى الوجود في الخليج سنة ١٨٦٢ • وفي الستينات من القرن التاسع عشر ، كنتيجة لتوتر العلاقات بين حاكمي مسقط وزنجبار ، أخذت السفن العمانية تقصر نشاطها على المنطقة الآسيوية وحدها متخذة من بندر عباس مركزاً لها (٥) • أما في الفترة التي سبقت عام ١٨٦١ فقد كانت رؤوس الأموال العمانية تستثمر في المشروعات الزراعية والتجارية

(٤) للاطلاع على نص الضمان راجع « الدبلوماسية » تأليف هروتر

ص ١٦ و ٥ •

(٥) رحلة عام عبر اواسط وشرق الجزيرة العربية (طبعة لندن ١٨٦٦)
جزء ٢ ص ٣٣٩ وخطاب مؤرخ ١٨٦٣/٢/١٦ من بلي الى اندرسون
و Precip in L Rivalry ص ٢٧ •

والملاحية ، وكانت حصيلة هذه الاستثمارات تسهم في دعم اقتصاد البلاد .
أما فيما بعد سنة ١٨٦١ فقد اضطر عدد كبير من التجار العرب ، لانعدام
الفرص الاقتصادية ، الى الهجرة الى زنجبار . كما غدت زنجبار ملجأ
للزعماء السياسيين المنشقين عن حكومة مسقط . وفي أكثر من مناسبة لعب
ذهب زنجبار دورا هاما في تقرير مصير الخلافات السياسية في عمان . وفي
سنة ١٨٦١ كان مجموع دخل حكومة السلطان حسب تقديرات لجنة كاننج
أقل من نصف ما كان يرد الى خزينة زنجبار ولم تعد هذه الأموال في متناول
أى حاكم عماني ، كما كان الحال قبل سنة ١٨٥٦ (٦) . وكان من المتوقع أن
يؤدي تخفيف حدة التوتر السياسي بين البوسعيد وحكام السعودية في أعقاب
اعلان اتفاق كاننج سنة ١٨٦١ الى استئناف العلاقات الاقتصادية الوثيقة
بين عمان وزنجبار الا أن تسيير الخط الملاحي في مياه الخليج سنة ١٨٦٢
قد حول ، لسوء الحظ ، المشاكل الاقتصادية التي سببتها الأوضاع السياسية
خلال سنة ١٨٥٦ — ٦٢ الى كارثة اقتصادية رهيبة .

كما ان الكارثة الاقتصادية بدورها أسهمت في الكارثة السياسية .
فانخفاض الدخل الجمركي وغيره من الدخول الضرائبية من الحركة الملاحية،
قد ازداد في الستينات من القرن التاسع عشر . ولم تتمكن أى حكومة عمانية
من حكومات ذلك العهد التغلب على المشاكل الناجمة عن تقلص مصادر
الدخل . والواقع ان الحكام العمانيين بغیر استثناء قد واجهوا في أواخر
القرن التاسع عشر مشاكل مالية خطيرة أضعفت من قدراتهم السياسية الى
حد كبير . وعلى كل فحكام ما بعد سنة ١٨٧١ قد قاموا بمحاولات كثيرة
للتغلب على هذه المشكلة ، لم يكن في وسع حكام الستينات القيام بها .

(٦) التقرير الإداري ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ص ١٢٧ — ١٢٩ وابن رزيق
و « اصطيات العبيد » ، تأليف كولومب ص ١٨٤ — ٨٦ ويذكر فيه أن مجموع
قيمة تجارة زنجبار سنة ١٨٦٧ قد بلغ ٧٠٠.٠٠٠ ج . س سنويا وكانت آخذة
في النمو بينما بلغ دخل سلطان زنجبار وحده ٣٤٥.٠٠٠ ريال نمسوى أو ما يعادل
٧٢.٠٠٠ ج . س وذلك عدا أرباح تجارة الرقيق .

ونظرا لأن النتائج المترتبة على كارثة الستينات ، كانت أكثر وضوحا في الجزء الساحلى من البلاد ، لأن السلطات فى مسقط كانت محرومة من مصادر دخلها العادية فى ذلك الوقت ، فقد تمخض الوضع عن بروز مشكلات سياسية جديدة • فالحكم البوسعيدى المعتدل ، والجزء الساحلى من البلاد ، بعد أن جردا من مصادرهما الاقتصادية التقليدية ، فقدتا الامكانيات اللازمة للاحتفاظ بالسلطة على الجزء الداخلى من البلاد وعلى مجموعاته المحافظة • وهكذا حدث تحول مثير نسبيا فى القوة السياسية لكل من العمانيين سكان الساحل والمحافظة سكان الداخل • وهكذا ارتفعت الأسهم السياسية للجزء الداخلى من البلاد والقوى المحافظة فى الستينات ، بحيث تمخض ذلك كله فى سنة ١٨٦٨ عن قيام حكم عمانى جديد استطاع تحقيق الوحدة السياسية للوطن العمانى برهة من الوقت تحت زعامة امام عمانى محافظ •

حكم ثوينى بن سعيد — ١٨٥٦ — ٦٦ :

تعرض ثوينى بن سعيد خليفة السلطان سعيد على الحكم وأكبر أبنائه أكثر من غيره من الحكام للمشاكل والأزمات السياسية التى داهمت عمان فى الفترة التى تلت وفاة والده سعيد • فثوينى لم يكن اداريا قديرا ، ومن سوء حظه أنه تولى الحكم فى فترة كانت البلاد تتطلب زعيما قديرا • ولم تكن سنة يومئذ نريد على الأربعين • وكانت والدته من أصل حبشى ، وكانت له لحية كثة سوداء ، وطوله ستة أقدام ، وكان قوى البنية ويشبه والده تقريبا • كما لم تكن له شخصية مؤثرة ، أو من النوع الذى يستقطب المؤيدين (وقد اغتاله ابنه) • وكان مغرورا ومتكبرا ولم يكن متماسكا فى شخصيته • ويتميز حكمه بأعمال جريئة تخللها عجز فى النشاط والقدرة على حسم الأمور ^(٧) وبالرجوع الى الماضى يبدو لنا أن ثوينى كان يعتمد على التنظيم

(٧) المعلومات الخاصة بشخصية ثوينى مبعثرة فى عدة مصادر ولعل أهمها الملاحظات التى كتبها عنه اسكود ص ٧٨ و ١٠٥ وما ورد عنه فى كتاب « اصطيد العبيد » ، تأليف : كولومب •

والتكتيك الذى وضع أسسه والده ، فقد كان حاكما ضيق الأفق ، وكان يعتمد على النظام الذى ورثه عن أبيه • ولم يستطع اطلاقا ان يجابه أو يتغلب على الأوضاع السيئة التى وجد نفسه فيها ، والتى كانت تتطلب رجلا قادرا على الحسم وابتكار الحلول لا مجرد الاعتماد على الأجهزة القديمة • ورغم ذلك فقد استطاع ثوينى المحافظة على الاتجاه المعتدل لنظام الحكم طوال حياته ، ولم يكن هذا بالعمل اليسير ، بالقياس الى الفترة التى حكم فيها • ولعله فى الواقع أحد الحكام العمانيين القلائل الذين استطاعوا انقاذ الحكم المعتدل والمحافظة عليه • ومن المثير أن حكومة ثوينى سرعان ما تفككت وانهارت بعد عامين من وفاته •

اضطرت حكومة ثوينى الى مواجهة المشاكل الناجمة عن انخفاض الدخل التجارى كنتيجة للصراعات الداخلية بين أفراد العائلة ، مما اضطره الى تعيين عدد من أمراء البوسعيد فى حكومته خوفا من أن ينقلبوا عليه ، بالاضافة الى المتاعب التى يثيرها الزنجباريون والسعوديون ، والفرس • أما على الصعيد الداخلى فقد تدعم حكم ثوينى باستيلائه على مسقط وسيطرته على المواقع الهامة على الساحل ، وبفضل زعامته المطلقة للدولة العمانية • ويتمثل هذا فى لقب « السلطان » الذى أطلقه على نفسه فى سنة ١٨٦١ • وكانت قواته العسكرية تتألف من عدد من السفن ، وبعض التحصينات ، وجيش من المرتزقة قوامه ٦٠٠ جندي ، نصفهم من الوهابيين النجديين • ومن سريتين من الخيالة والمدفعية ، بالاضافة الى ما يمكن تعبئته من القبائل فى الظروف الطارئة • وتعتبر هذه القوات بالمقياس العمانى ، قوة كبيرة • وكانت مزودة بالأسلحة النارية فى الوقت الذى كانت غالبية المقاتلين العمانيين مسلحين بالسيوف والرماح • غير ان السلطان فقد هذه الميزة فى السلاح أخيرا (٨) •

عندما تولى ثوينى السلطة فى مسقط ، ادرك على الفور أن مشكلته مع

(٨) اواسط وشرقى الجزيرة العربية جزء ٢ ص ٣٥٦ - ٧٥ •

زنجبار لم تكن هى المشكلة المباشرة والأساسية رغم خطورتها • فلقد ورث ثوينى وضعاً سياسياً داخلياً مضطرباً وكانت البلاد عرضة لتهديدات كثيرة وبالإضافة الى المناطق الخاضعة لحكميه كان هناك عدد من مراكز القوى السياسية التى لا سيطرة له عليها تقريباً • وما لم ينجح أى حاكم فى السيطرة على القوة السياسية الناشطة فى البلاد ، فانه لن يتمكن من الاستمرار طويلاً فى الحكم • كما كان هناك منافسون كثيرون له من أمراء البيت البوسعيدى الحاكم من بينهم أخوه تركى الذى كان منذ أوائل الخمسينات يقيم مع أنصاره فى صحار أحد معاقل مقاطعة الباطنة ، الى جانب نجله الطموح والمقتوى سالم بن ثوينى • هذا بالإضافة الى منافسيه من الزعماء المحافظين ، أمثال عزان بن قيس من فرع قيس من العائلة المالكة • كما كان على ثوينى أن يكسب القوى القبلية الرئيسية فى البلاد وعلى الأخص اتحاد قبائل الهناوية الساخطين بزعامة الشيخ صالح بن على ، زعيم قبائل الحرث ، سكان الشرقية ، ومجموعة قبائل الغافرية المتقلبة الولاء فى جعلان ووادى سمائل • وفوق هذا وذاك كان هناك الجناح المحافظ من علماء الأباضية الذى أخذ يتحرك للمرة الثانية للبحث عن وسيلة لتحقيق برنامجهِ الذاتى • وعلى الجانب الآخر بدأ اعداء عمان التقليديون — الوهابيون ينشطون على طول حدود عمان للربح الخالى • وكانوا منهمكين فى توسيع مناطق نفوذهم من مركزهم فى البريمى • حتى الانجليز أصبحوا عاملاً فعالاً فى سياسة عمان الداخلية ، بعد أن أصبحوا مسؤولين عن اتفاق كائنج والإشراف على دفع التعويض المالى لحكومة مسقط • غير ان السلطان بدوره ، بحكم الفترات الطويلة التى كان ينوب فيها عن والده فى الحكم أصبح متمرساً فى التعامل مع كافة هذا الخليط غير انه من ناحية أخرى كان لابد له كإى حاكم على عمان أن يتوقع نشوب صراعات على الحكم • وبالتالى كانت السيطرة على الأجواء السياسية والاقتصادية العاصفة فى اطار تلك الأوضاع المائعة بعد سنة ١٨٥٦ أمراً بالغ الصعوبة •

لقد أمضى ثوينى بن سعيد كل فترة حكمه فى محاولات للسيطرة على الأوضاع فى عمان • وهو هدف لم يتحقق له كاملاً • وخلال السنوات الست

الأولى فقط من حكمه قمع ثوينى عددا من عمليات التمرد الداخلية فى أنحاء متفرقة من البلاد • فما أن تولى السلطة رسميا حتى انفجرت ثورة قبائل الغافرية فى وادى سمايل ولقد تمكنت من النجاح الحملة التى أرسلت الى قمع هذا التمرد الذى وقع فى أحد الممرات الاستراتيجية ، دون أن تتكبد تضحيات كثيرة (٩) • غير أن أخطر محاولة استهدف لها ثوينى هى تلك التى ترعمها أخوه الأصغر ، تركى بن سعيد ، الذى سبق أن أثار مشاكل مع حكومة صحار خلال حكم والده السيد سعيد ، وكان يهدف من وراء ذلك الى تأكيد موقفه ضد أخيه الذى كان يومها مشغولا بمشاكله مع زنجبار — الى أن أعلن استقلاله • وعلى الرغم من اهمال أخيه ثوينى له ، فقد ازداد عنادا فى حكم كاننج فى المشكلة وتم الاعتراف بثوينى الحاكم الشرعى الوحيد لعمان • وعلى أثر ذلك قرر تركى تحدى سلطة أخيه ، حيث أعلن استقلال اقليم صحار عن السلطان ، وذلك بالرغم من نصيحة البريطانيين له بعدم الاقدام على هذه الخطوة • ونتيجة لذلك بدأ التدخل البريطانى يأخذ أبعادا أعمق ، غير أن اللفتتانت بنجلى ، المعتمد السياسى البريطانى الجديد فى مسقط استطاع الجمع بين الأخوين وعقد هدنة بينهما ، أعقبه اجتماع للصالح عقد فى بلدة السيب • غير أن هذا الاجتماع كان بمثابة الكارثة لتركى اذ على الرغم من ان المعتمد السياسى قد أكد لكلا الطرفين بأن المحادثات سوف تجرى باشرافه ، الا أن تركى رفض شروط السلطان ، وقفل راجعا الى مقره فى صحار ، مما جعل المعتمد السياسى يسحب تعهده • غير أن ثوينى فاجأ الجميع باعتقال أخيه تركى وايداعه السجن • فكان هذا التصرف سببا فى فصل بنجلى من العمل فورا ، غير أن الطريق أصبح ممهدا امام السلطان كي يفرض حكمه على المنطقة الساحلية بما فيها الباطنة • وسرعان ما تم احتلال صحار التى عين سالم بن ثوينى ابن السلطان الحاكم واليا عليها • ومن الجوانب المشؤومة لهذا الحادث أن ثوينى قبل تسوية النزاع مع

أخيه ، كان قد دعا القوات الوهابية المرابطة في البريمي لمساعدته ، غير أن هذه المساعدة ، على ما يبدو ، لم تصل في حينها ، ومع هذا فإن الخطوة المذكورة التي إتخذها السلطان قد ادخلت الى السياسة العمانية عنصرا في غاية الخطورة (١٠) .

ولقد ظلت مقاطعة الباطنة مصدر قلق للسلطان حتى بعد تسلمه السلطة . . ففى شهر سبتمبر سنة ١٨٦١ ، ثار آل سعد ، كبرى قبائل الباطنة ضد السلطان ثوينى بعد أن ألغى قرارا كان قد اتخذه والده باعفائهم من الزكاة . ومن الواضح أن السلطان قد اتخذ هذا الاجراء غير الحكيم مرغما تحت ضغط الازمة المالية . كما ان اغتيال هلال بن حمد ، أحد أفراد الأسرة الحاكمة ، ووالى السويق قبل ذلك بوقت طويل كان من أخطر الأحداث التي تمخضت عن ثورة آل سعد ، بعد محاولة قام بها المذكور لاعادة فرض الزكاة . وهكذا تحولت السويق الى ساحة قتال . كما ازداد الوضع تأزما عندما قرعمت جوخة بنت محمد ، اخت السلطان التي سبق ان اقترن اسمها بثورة ١٨٢٩ ضد السيد سعيد ، مقاومة القوات الحكومية المرابطة في قلعة السويق — غير أن آل سعد تمكنوا من اجتياح القلعة — فى نفس اللحظة التي وصل ثوينى لفك الحصار عن القلعة . وبما ان الفريقين قد استنفذا قواتهما ، فقد دخلوا فى مفاوضات لتسوية الخلاف ، تمخضت عن دعوة القوات الحكومية الى احتلال المعقل واصدار بيان جديد باعفاء آل سعد من الزكاة . وقد نتج عن هذا عودة الأمور الى نصابها (١١) .

(١٠) نفس المصدر ص ٢٢٥ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٢ — ٤٧٣ ايضا « جزيرة العرب » ، تأليف فلبى ص ١٢٢ — ٢٣ .
(١١) التحفة للسالى الجزء ٢ ص ٢٢١ — ٢٥ وابن رزيق ايضا رسالة رقم ٢٨٩ بتاريخ ١٨٦٩/٥/١٤ .

وقد نصح ثويني بالعمل على تهدئة الموقف في الباطنة بأي شكل
اذ أن خطرا جديدا قد أخذ يهدد حكمه • فلقد أخذ فرع قيس من
قبيلة البوسعيد الحاكمة ، يهدد السلطان باستئناف نشاطه القديم ضد
الحكم • فمنذ مطلع القرن التاسع عشر حاول اثنان من أبناء الامام أحمد بن
سعيد ، وهما سلطان وقيس أكثر من مرة الاستيلاء على الحكم وفرض
زعامتها على أسرة البوسعيد • وكان النصر في الصراع الذي امتد حتى
الستينيات في جانب أحفاد سلطان بن أحمد ، الأمر الذي لم يرض العناصر
الساخطة في فرع قيس من الأسرة الحاكمة • ولقد سبق للسيد سعيد
والد ثويني ان واجه تحديات كثيرة من هذا النوع ومن حلفائه في صفوف
الاباضيين المحافظين • وبالتالي لم يكن غريبا ان يصطدم ثويني بدوره
بهذه العناصر بعد توليه الحكم •

في سنة ١٨٦١ كانت قلعة الرستاق القديمة معقل أسرة قيس ، وهي
قلعة قديمة تربض فوق إحدى قمم سلسلة جبال الحجر المطلّة على سهل
الباطنة الذي كان في وقت من الأوقات عاصمة لأئمة عمان المحافظين • ففي
نفس السنة غادر قيس بن عزان ، زعيم العائلة وأحد المحرضين الرئيسيين
لثورة آل سعد ، معقله في الجبال ، الا انه لقي حتفه خلال الاشتباكات
الأولى من المعركة • وخلفه على زعامة الأسرة نجله عزان بن قيس • وبفضل
ما كان يتحلى به قيس من صفات الزعامة القديرة ، فقد نجح في ملء الفراغ
الذي أحدثته وفاة أبيه • وكانت هناك توقعات ان ينجح عزان وان يرتفع
بأسهم أسرته الى القمة ، وان يقود الجناح المحافظ من الاباضيين نحو
سيطرة مؤقتة على القطر العماني •

وعلى أي حال ، لم يكن حظ ثويني بن سعيد من الصراع ضد عزان
سيئا للغاية ، فما ان تمكن ثويني من تسوية مشاكله مع آل سعد ، حتى
نشبت بينه وبين عزان معارك صغيرة في الباطنة ، ولكنها ليست حاسمة •

وقد استمرت هذه المعارك أكثر من عامين • وعلى كل ففى سنة ١٨٦٤ استطاع ثوينى حشد قوات ضخمة لشن هجوم على معقل عزان فى الرستاق ، غير أنه سرعان ما تدخل الوهابيون فى الصراع • وكان الوهابيون يمثلون خطراً على البلاد منذ عام ١٨٦١ • وبما ان عزان لم يكن واثقاً من مقدرته على مواجهة قوات السلطان ، فقد استنجد بتركى بن أحمد السديرى القائد السعودى فى البريمى ، لأمداده ببعض القوات ، ومن هنا قرر فيصل ابن تركى ، أن يستغل موقف عزان بن قيس لمصلحته الخاصة بشكل أو آخر • وكان فيصل من أقوى الحكام السعوديين وإليه يعود الفضل فى بعث النفوذ الوهابى فى شبه الجزيرة العربية •

فى أول الأمر طالب فيصل السلطان ثوينى بزيادة المقرر من الزكاة التى كان يدفعها لحاكم الرياض ، حيث كان قد تم الاتفاق منذ أوائل القرن أن تدفع السلطات الحاكمة فى مسقط نوعاً من الضريبة السنوية الى السعوديين مقابل امتناع السعوديين عن مهاجمة عمان • ولما لم يتلق السعوديون رداً حاسماً على طلبهم فقد قرروا استعمال الضغط وكان السديرى ، القائد السعودى فى البريمى قد قام فعلاً بإرسال قوة بقيادة عبد العزيز بن مطلق لمساعدة قوات عزان بن قيس المحاصرة فى الرستاق • وبما أن وصول هذه القوة قد أرغم ثوينى على صرف النظر عن مهاجمة الرستاق ، فقد شجع هذا مطلق بالزحف نحو الجنوب الشرقى • وبعد أن عبر سلسلة جبال الحجر ، واجتاح القطاع الغربى من تلك المنطقة دخل جعلان • وفى جعلان بدأ ابن مطلق نشاطه بالتدخل فى شؤون آل وهيبه ، ثم انضم الى قوات بنى بوعلى ، وهى قبيلة غافرية ولكنها تدين بالعقيدة الوهابية وتقيم فى تلك المنطقة (١٢) •

(١٢) التحفة للسالى جزء ٢ ص ٤٢٢ - ٢٤ وابن رزىق و « الدولة السعودية » ، تأليف : ويندر ص ٢١٢ و « مذكرات حول السعودية » جزء ٢ ص ٢٢٦ - ٣٦ •

في الوقت نفسه جاول البريطانيون الذين كانوا يرقبون تحركات السعوديين بالقرب من السواحل العمانية بقلق ، التوسط في النزاع . وكنتيجة لذلك قام ليويس بلى ، المقيم البريطانى في الخليج ، في شهر مارس ١٨٦٥ بزيارة للرياض في محاولة لتسوية المشاكل العمانية السعودية وغيرها من مشاكل الخليج التى بدأت تتفاقم ، بسبب السياسة التوسعية التى كان يسير عليها السعوديون في ذلك الوقت (١٣) . غير أن المحاولة البريطانية للتوسط في النزاع باءت بالفشل . وفي شهر أغسطس من سنة ١٨٦٥ بلغ الخطر السعودى على عمان ذروته ففى ذلك العام طلبت بعض فئات قبائل الجنبه ، سكان ميناء صور مساعدة الوهابيين لهم للتخلص من سيطرة حكومة مسقط على شؤونهم . وعلى أساس هذا الطلب هاجمت قوات ابن مطلق واتباعهم من رجال بنى بو على المدينة ، فقتلوا أحد التجار الهنود ونهبو ٣٠٠٠٠ ريال نمسوى تقريباً . وقد تفاقمتم الأزمة من جراء الغارة على صور ، ورأى فيها البريطانيون تحدياً لوجودهم في الخليج . ولهذا بادر ليويس بلى الذى استاء من هذه الحركة ، رغم التأكيدات التى تلقاها من الرياض بعزم السعوديين على افتتاح « صفحة جديدة في العلاقات مع بريطانيا » الى استدعاء وحدة من الأسطول البريطانى الى الخليج فوراً . وقد اقرت سلطات الهند — البريطانية بلى في رأيه على أن السلم البحرى في مياه الخليج قد أصبح مهدداً بالأعمال التى يقوم بها السعوديون في عمان وعلى مقربة من سواحل البحرين ، ولهذا أرسلوا قاربين مسلحين الى المنطقة قام أحدهما واسمه « هاى فلاير » (High Flyer) بضرب ميناءى القطيف والدمام على ساحل الحسا وذلك في شهر فبراير ١٨٦٦ بعد أن رفضت حكومة الرياض الانذار الذى وجهه إليها المقيم البريطانى ليويس بلى . كما توجهت السفن الحربية البريطانية في نفس

(١٣) « زيارة الى عاصمة الوهابيين في اواسط الجزيرة العربية » بقلم بلى وقد نشر في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية « جزء ٣٥ (١٨٦٥) ص ١٦٩ — ٩١ وكتاب « عمان » اعداد شركة النقط العربية الامريكية ص ٢٥٥ — ٢٥٧ .

الوقت إلى ميناء صور ، غير أن ثويني كان قد أنهى المشكلة بتقديم رشوة إلى الوهابيين مقدارها ١٠٠٠٠ ريال نمسوى و ٦٠٠٠ آلاف روبية (١٤) .

إن استعراض القوة الذى قام به الأنجليز قد أحدث تغييراً فى الجو السياسى فى عمان . وقد وافق ثويني أخيراً على مقترحات قدمها إليه بلى بموجب اتخاذ تدابير دفاعية أقوى ضد التدخل السعودى ، كما أخذ يستعد لمهاجمة البريمى قاعدة النفوذ الوهابى فى جنوب شرقى الجزيرة العربية . لقد اتضح الآن أن الظروف المالية كانت من بين الأسباب التى منعت ثويني من التحرك ضد خصومه بشكل فعال قبل شتاء سنة ١٨٦٥ — ٦٦ . فلقد تأزمت حالة السلطان المالية لعدم وصول التعويض المالى من أخيه ماجد ، سلطان زنجبار . وقد حاول ثويني توفير بعض المال عن طريق مصادرة أملاك ماجد فى عمان ، ولكنه لم ينجح . كما ساعده الانجليز ببعض الذخيرة وبمدفعى ميدان . غير أن البريطانيين حلوا هذه المشكلة فى أوائل سنة ١٨٦٦ بارغام ماجد بدفع ما عليه من متأخرات لثويني (١٥) .

وبالإضافة الى ذلك كان صالح بن على ، شيخ قبيلة الحرث القوية ، وأحد الزعماء العمانيين البارزين من الجناح الأباضى المحافظ ، يحث السلطان على اتباع سياسة أعنف ضد المطالب السعودية فى عمان . وقد ذهب هذا الزعيم الى حد تنظيم جبهة قوية من قبائل الهناوية ، ووضعها تحت تصرف ثويني . كما تعزز ائتلاف القوى المناهضة للسعوديين بالاتفاق الذى عقده السلطان مع أخيه تركى بن سعيد الذى كان قد أعلن الثورة عليه .

(١٤) التحفة للسالى جزء ٢ ص ٢٢٥ وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٤٧٣ — ٧٤ و « زيارة بلى للرياض » من كتاب « عمان » أعداد شركة النفط العربية الأمريكية ص ٢٥٧ .
(١٥) خطاب رقم ٣ — ٢٤ من بليفيير الى وود ولوريير مجلد ١ ص ٤٧٤ — ٧٥ .
(م ٢٢ — عمان)

وينبني على هذا انه عندما انتقل السلطان الى صحار في أوائل سنة ١٨٦٦ على رأس القوى المتحالفة ، لوضع الترتيبات النهائية للهجوم على البريمي ، كان يومها في ذروة قوته كحاكم على بلد موحد ضد التهديدات السعودية (١٦) .

واكن عند صفو الليالي يحدث الكدر ، فذات ليلة من شهر فبراير سنة ١٨٦٦ ، وبينما كان ثويني نائماً في إحدى غرف القلعة الكبيرة في صحار ، تسلل إلى غرفة نومه ابنه سالم ، برفقة أحد عملاء الوهابيين وأطلق النار على والده فأرداه قتيلاً . وبهذا فشلت خطة الهجوم التي كان قد أعدها ثويني ، كما انحلت الوحدة الوطنية التي لم يمض عليها غير وقت قصير ، وأخذ النظام المعتدل نفسه يسير في طريق التفكك والانحيار الا أن السعوديين لم يحاولوا استغلال الفرصة التي تهيأت لهم بانحيار الأوضاع في عمان . ولقد توافقت وفاة ثويني بن سعيد مع وفاة العاهل السعودي الكبير فيصل بن تركي ، وبالتالي تخطى كل من خليفتي العاهلين السعودي والعماني عن فكرة الحرب ليركزا جهودهما في دعم مركزيهما الشخصي في مملكتيهما . ومن ناحية أخرى نجح بلي في سنة ١٨٦٦ في تحقيق الاستقرار في المنطقة باستكتاب عبد الله الفيصل العاهل الجديد للسعودية ضماناً يتعهد فيه « بعدم الاعتداء أو الهجوم على أراضي القبائل العربية المتحالفة مع الحكومة البريطانية ، وعلى الأخص ... عمان ... » (١٧) .

بعد وفاة ثويني تولى الحكم نجله سالم . وقد اعترفت به الحكومة البريطانية . أما ثويني فسوف يبقى في تاريخ بلاده من الشخصيات المأساوية . فقد تولى زمام السلطة في فترة كانت تسودها الاضطرابات ،

(١٦) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(١٧) نفس المصدر ص ٢٢٥ — ٢٦ وكتاب لوريير جزء ١ ص ٤٧٦

انظر كذلك « الدبلوماسية » ، تأليف : هروتر جزء ١ ص ١٧٢ وتقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ ص ٢٠٦ مجلد ١١ .

وسقط في الوقت الذي كان يبدو أن البلاد مقبلة على مرحلة من الوحدة الوطنية بين أبنائها • ولم يكن ثويني يحظى بشعبية في عمان ، والتقارير البريطانية في عمان تصفه « بالحاكم الضعيف المراوغ » كما لم يكن المحافظون يؤيدونه ، وإن كانوا يعترفون « بسيطرته على عمان » وكان تأييد قسم كبير منهم له يرتبط بموقفه ضد الوهابين (٨١) • ولم يستطع أن يتخذ لنفسه موقفاً محدداً من معظم المشكلات التي كانت تقض مضاجع الحكم في عهده • وحتى لو استطاع أن يكون صورة صحيحة لتلك المشكلات ، فإنه لم يكن لديه الوسائل لحلها •

حكم سالم بن ثويني :

ورث السلطان سالم ، خليفة ونجل ثويني بن سعيد كل تركة المشاكل التي خلفها أبوه وعلى الرغم مما حققه من نجاح في حل بعض المشاكل الخارجية ، إلا أنه عجز عجزاً تاماً عن معالجة مشاكل السياسة الداخلية • كما أنه على الرغم من طموحه الشديد وطبيعته — المشككة ، فقد كانت قراراته وأحكامه تتسم بالأخطاء ، وعلى الخصوص فيما يتصل بأقرب الناس إليه من المستشارين والمؤيدين • وفي غضون عامين من حكمه تضاعفت كل هذه الأخطاء ضده لتخلعه عن العرش •

يوم تولى سالم الحكم أشيع بأن له ميولا وهابية من الوجهة الدينية ، وكان أباضياً — محافظاً أكثر منه معتدلاً ، وعندما علمت الجالية الهندية ، وعلى الأخص الفئات البوذية منها ، بتولية الحكم دب الذعر في صفوفها ،

(١٨) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٥ على الرغم من أن السالمى يعبر عن موقف المحافظين وملم بتاريخ عمان ، ومؤسس امامة ١٩١٣ ، إلا أنه لا يوافق على أن ثمة دولتين في عمان ، دولة ساحلية ودولة داخلية ، على عكس بعض الكتاب المحدثين أمثال هزارد في كتابه « شرقى الجزيرة العربية » أن عمان في رأى السالمى هي مثل العمانيين الأعلى ، داخلين كانوا أم ساحليين .

فأغلقت الأسواق وتوقفت الحركة التجارية بل امتد هذا الخوف عبر البحر الى جواذر ولم تعد الأوضاع الى طبيعتها قبل شهر مايو سنة ١٨٦٦ •

كانت المهمة الأولى لسالم هي اعتراف بريطانيا به • وما أن علم بلى وفريير بالانقلاب الذى دبره سالم واستولى به على الحكم حتى قررا عدم الاعتراف به • الا أن سالم ظل يلح عليهما بالاعتراف • وفى شهر ابريل سنة ١٨٦٦ وصل اثنان من مبعوثيه الى بومبى ليعربا عن احتجاجهما على اعتراضات بلى ويجددا طلب الاعتراف • وقد نجح المبعوثان فى مهمتهما • بعد أن توجهتا الى كلكتا وظلا يلحان على المسؤولين هناك بتلبية رغبة السلطان وأخيراً قرر نائب الملك فى الهند يومئذ السرجون لورنس الاعتراف بالسلطان على أساس الأمر الواقع ، بعد أن ظهر له أن السلطان يسعى فعلاً الى تدعيم نفوذه فى عمان ، وخوفاً من أن يتحول الى الفرنسيين أو غيرهم ، وذلك على الرغم من اعتراض مرؤوسيه فى أبوشهر وكلكتا على هذه الخطوة • وبالرغم من أن بلى وفريير لم يؤيدا نائب الملك فى موضوع الاعتراف ، الا أن بلى زار مسقط فى سنة ١٨٦٦ ليقدم اعتراف حكومته رسمياً بسالم كحاكم على مسقط وعمان • وفى شهر يناير سنة ١٨٦٧ قام الكابتن اتكنسون بإعادة فتح الوكالة السياسية البريطانية فى مسقط (١٩) •

إن نجاح السلطان سالم فى اعتراف الحكومة البريطانية به لم يكن يعنى انه سيبدأ على الفور بقبض التعويض المالى من سلطان زنجبار • فقد قرر ماجد عدم دفع المبلغ أثر تلقيه نبأ مقتل أخيه • وتبريراً لهذا الرفض ادعى ماجد أن التعويض يدفع الى ثوينى بصفته الشخصية وفقاً لاتفاق كاننج وبالتالي رفض أن يمد قاتلاً بمساعدات مالية • ورغم أن الانجائيز لم يؤيدوا ماجد فى التنصل من التزاماته ، فقد وافقوا أن يكونوا وسطاء فى تسليم التعويض الى سالم حتى لا يضطروه الى التعامل مباشرة

(١٩) التحفة للسالى جزء ٢ ص ٢٢٦ و ٢٢٧ وكتاب لوريمر مجلد ١

مع أخيه • كما حذر الانجليز ماجد من محاولة التدخل في سياسة عمان الداخلية ، أو إرسال أسلحة الى المنطقة • وأخيراً وافق ماجد في ربيع سنة ١٨٦٨ (٢٠) على إرسال التعويض المالى الى سالم • ولكن ماجد كان يعاني من نقص شديد في الموارد استمر طوال حكمه • ولهذا كانت الطرق كلها مسدودة أمام سالم • فمبلغ الأربعين ألف ريال التى تسلمها في سنة ١٨٦٧ من حكومة الهند التى دفعتها بدلاً من المبلغ الذى احتجزه ماجد ، اضطر الى دفعها فوراً لتسديد بعض الالتزامات المالية عليه • وقد بعث سالم بأكثر من خطاب الى البريطانيين يطلب منهم مساعدات مالية حتى يضطر في النهاية الى الاقتراض من بعض التجار الهنود في مسقط لتمويل خزانته بالنقد اللازم • ومن ناحية أخرى استمرت واردات الجمارك في هبوطها خلال عهده بسبب التدهور السريع في حجم التجارة (٢١) كما أن توتر العلاقة بينه وبين إيران قد أسهم في متاعب سالم • فمنذ أن انقسمت امبراطورية سعيد الى دولتين ، أصبحت السيطرة على بندر عباس وساحل مكران والتجارة مع هاتين المنطقتين أهم لعمان نسبياً منها قبل تقسيم البلاد سنة ١٨٦١ • غير أن محاولات إيران لاسترجاع سيطرتها الادارية على المناطق المذكورة تلك المحاولات التى بدأت منذ سنة ١٨٥٣ ظلت مستمرة • وحتى قبل ثوينى في سنة ١٨٦٤ طالبت ايران بميناء شهباز ، بل وميناء جواذر ، وهى محاولة مهدت لأحداث مقبلة ، على الرغم من أن الايرانيين لم يفرضوا عليها السيطرة الإدارية المباشرة ، أو يضعوا حداً للنفوذ العماني على الساحل الايراني (٢٢) • وفي عام ١٨٦٦ بطل مفعول اتفاق سنة ١٨٥٦ على حد رأى المسؤولين الايرانيين كنتيجة لاغتصاب سالم الحكم وهو الاتفاق الذى أجرت إيران بموجبه ميناء بندر عباس وجزر كشم وهرمز لحكومة مسقط (٢٣) • ولكى لا تضيق بندر عباس من يده ، قرر سالم اتخاذ

(٢٠) خطاب رقم ١٨٦٨/٣/١ من بلى الى اتكنسون •
(٢١) نفس المصدر وخطاب رقم ٤١٢ بتاريخ ١٨٦٨/٩/١٧ •
(٢٢) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٦ •
(٢٣) « الدبلوماسية » جزء ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ تأليف : هروتر •

خطوة جريئة ، وهي شن هجوم بحرى ضد الايرانيين إذا لم يغيروا من موقفهم • وبما أن الايرانيين لم يكونوا يملكون أسطولا ، فقد توسط الانجليز لحسم الخلاف • ففي سنة ١٨٦٨ توجه المقيم الكولونيل بلى ، ومعه الحاج أحمد ، وزير السلطان في زيارة لشيراز • وفي نفس العام وقع سالم عقداً جديداً يستطيع بمقتضاه الانتفاع من ميناء بندر عباس مقابل إيجار سنوى أكبر مقداره ٣٠٠٠٠٠ تومان أى ما يعادل (٧٥٠٠٠٠ ريال نمسوى) وبحكم المادة ١٢ يسرى الاتفاق على سالم وورثته فقط ، وأنه في حالة استيلاء قوة أخرى على السلطة في عمان فإن الميناء يعود الى أصحابه الايرانيين (٢٤) • وعلى أى حال فبحلول صيف عام ١٨٦٨ كان سالم قد انتهى من تسوية جميع مشاكله الخارجية ، وأنه والحق يقال ، قد أظهر قدراً كبيراً من المرونة السياسية في هذا المضمار •

غير أن سالم لم يوفق في حل مشاكله الداخلية ، كما لم يكن موفقاً في اختيار مستشاريه • فأولهم وهو ثوينى بن محمد ، وأحد أمراء الأسرة الحاكمة ، قد سبق أن عمل مستشاراً • لثوينى • وعلى الرغم من كونه أحد أفراد الأسرة إلا أن هذا لم يمنع سالم من عزله عقاباً له على اشتراكه في عملية تواطؤ ضده (٢٥) • وقد خلفه في هذا المنصب الحاج أحمد لكن تبين أن هذا الآخر متآمر وخائن أيضاً ، وإن كان لم تكتشف مؤامراته • وقد حدث أن قبض الحاج أحمد التعويض المالى السنوى من زنجبار ، دون علم السلطان ، ولم يقيده لحساب الدولة (٢٦) •

والواقع أن سالم لم يكن يفتقر إلى المستشارين ، فقد كانت علاقته وطيبة بالواهبيين الذين كان لهم تأثير على سياسته ، وكان يعمل

(٢٤) تقرير ايتشييسون : ١٩٠٩ و « precis persian » ص ٢٥/٣٠ ولوريهر مجلد ١ ص ٤٨٠ •

(٢٥) خطاب رقم ٤٨٦ مؤرخ ١٨٦٨/١٠/٣١ من اتكنسون الى جون •

(٢٦) رسالة رقم ١٣٩ مؤرخه ١٨٦٩/٣/٤ من اتكنسون الى جاون •

بعضهم ضمن حاشيته الخاصة • أما في أوساط العمانيين المحافظين فقد كانت تربطه بسعيد بن خلفان الخليلى صداقة وثيقة وكان هذا من مستشاريه ومؤيديه أيضاً • ويبدو أن الخليلى كان يحاول إقناع السلطان بالتزام الخط المحافظ في الحكم ، غير أن الاثنين اختلفا فيما بعد بسبب تمسك سالم بموقفه • وحتى سنة ١٨٦٧ كان سالم يحظى بتأييد زعيم قبيلة الحرث القوى ، صالح بن على الحارثى الذى كان يؤيد والده ثوينى (٢٧)

ومن الملاحظ أن موقف السلطان سالم في عمان لم يكن موقفاً قوياً • ولقد حاول دون جدوى تبرير اغتياله لوالده ، إلا أنه لم يوفق في تطفيف سمعته السيئة • فبعد تسلمه الحكم أودع عمه تركى بن سعيد السجن ، بحجة أنه كان يساعد السلطان ثوينى • غير أن الانجليز سرعان ما أجبروا سالم على الافراج عن تركى ، الذى فر إلى الداخل بعد إطلاق سراحه ، فتوجه أولاً إلى الظاهرة ومنها إلى الشرقية ، حيث أخذ يطوف بالقبائل بحثاً عن التأييد لأقصاء ابن أخيه • إلا أنه لم ينجح في حملته هذه في منطقة ساحل عمان (نتيجة لتدخل بلى في الموضوع) وفي الظاهرة • وأخيراً وجد مؤيدين له في الشرقية وجعلان • واستطاع أن يكسب إلى صفه بعض عناصر من الحرث وأغلبية قبائل بنى بو حسن ، والحجرين والهاوية • أما صالح بن على أكبر شيوخ الحرث الهاويين فقد التزم بموقف الحياد من المذكور يؤيده في ذلك أغلبية الحرث • وعلى أى حال ففي صيف ١٨٦٧ زحف تركى وأنصاره على الساحل واحتلوا مدينة مطرح • وعندما بدا أن تركى يوشك أن ينجح في خطته تدخل المقيم بلى في الموضوع واستقر السلام • لقد سبق أن توسط الانجليز سنة ١٨٦٦ عند سالم للافراج عن تركى الذى كان معتقلاً في ذلك الوقت ، وبالتالي كسان تركى مدين للانجليز بهذه البادرة • ولهذا عندما أُلح بلى على تركى

(٢٧) التحفة للسالى ٢ ص ٢٣٠ وتقرير ايتشيسون ١٩٣٣ مجلد ١١ ص ٢٧٤ وابن رزيق وخطاب رقم ٤١٢ مؤرخ ١٨٦٨/٩/١٧ من اتكنسون الى جاوون •

بوقف الهجوم والاعتزال في الهند لم يجد تركي مفراً من قبول هذا الشرط وبهذا الاجراء أنقذ الانجليز مؤقتاً حكم سالم (٢٨) .

وعلى أثر ذلك اعتقد سالم أنه أصبح من القوة بحيث يمكنه الاستمرار في الحكم حتى على حساب العمانيين المحافظين في الداخل وبذلك ارتكب غلطة كبيرة . لقد كان تأييد صالح بن علي لسالم أثناء ثورة تركي ضده على جانب كبير من الأهمية . ولهذا قرر سالم الذي كان يظن أن صالح يتآمر عليه خفية مع تركي ، اعتقال صالح بن علي عندما جاء في زيارة لمسقط في أواخر سنة ١٨٦٧ . وكاد صالح يقع فعلاً في قبضة سالم لو لم ينتبه للأمر ويفر إلى الباطنة ، ومنها إلى الرستاق ، ثم منها إلى موطنه في الشرقية (٢٩) . غير أن هذا الحادث قد أسفر عن نهاية التحالف بين سالم والمحافظين العمانيين . وفي صيف ١٨٦٨ لم يبق لسالم من الأنصار والمؤيدين غير نفر قليل من قبائل الغافرية في جعلان - ووادي سمايل . إن طريقة سالم في التخلص من مؤيديه ، قد حملت المعتمد البريطاني في مسقط الكابتن اتكنسون إلى أن يكتب في أحد تقاريره « بأن الخطر على سالم لا يكمن في أعدائه بقدر ما يكمن في القلة من مؤيديه » (٣٠) . ففي سنة ١٨٦٧ تمرد عليه حمد بن سالم ابن أخيه وواليه في المصنع (٣١) كما نشط صالح بن علي أثر عودته إلى الشرقية لتكوين حلف من القبائل ضد سالم . وقد اتصل صالح في البداية بأستاذه القديم والأباضي المحافظ سعيد بن خلفان ، الذي أدرك بأن الوقت قد حان لتحقيق الحلم الذي حاول تحقيقه في الأربعينات

(٢٨) التحفة للسالي جزء ٢ ص ٢٢٦/٢٩ وابن رزيق وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٤٨٠ - ٨١ .

(٢٩) نفس المصدر جزء ٢ ص ٢٢٩ .

(٣٠) من اتكنسون الى جون ٢٢ سبتمبر ١٨٦٨ رقم ٤٢٠ - مسقط وسجلات الهند ٢ - مجلد ال .

(٣١) التحفة للسالي جزء ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

بحكم تدهور السلطان • وقد انبرى الخليلي نيابة عن صالح بن علي إلى تنظيم تكتل ضد سالم ، كما أخذ يرأسل ويقابل زعماء ومشايخ عمان المحافظين وشخصياتها البارزة أمثال عزان بن قيس • وفي أواخر عام ١٨٦٨ كان التكتل المحافظ قد اكتمل وأصبح قادراً على شن الثورة ضد سالم وإطاحة حكمه في مسقط وإحياء الصيغة الأباضية للنظام باعتبارها القاعدة السياسية والدينية للأمة • (٣٢) في شهر سبتمبر انتهى المحافظون العمانيون من وضع خطتهم موضع التنفيذ فشنوا هجوماً على مسقط من جهتين فقد شق عزان طريقه إلى مسقط من الرستاق ، وفي طريقه احتل بركا على الساحل • وعند مشارف العاصمة التقت القوات التي يقودها عزان بمجموعة القوات التي يقودها صالح بن علي وشيخ بني رواحه • وقبل بدء الهجوم الثنائي على مسقط ، طلب المهاجمون من السلطان سالم اعلان التوبة ، وكان الغرض من هذا الطلب أن يغير السلطان نظام حكمه الاستبدادي ، ويعود الى الصراط المستقيم (أى طريق المحافظين) أن يعمل بمشورة رجال الدين والعلم • والخلاصة أن الخليلي كان على استعداد لأن يسمح لسالم بالاستمرار في الحكم لو أنه وافق على انتقال السلطة الفعلية الى زعماء المحافظين • وقد رفض سالم الذي كان يعتمد على التأييد البريطاني ومساعدة بعض فئات الغافرية الأنداز الذي وجه اليه • غير أن خطوط دفاعه كانت ضعيفة • وفي ٢٩ سبتمبر ١٨٦٨ سقطت مدينة مسقط ، ودخلتها القوات العمانية في أول أكتوبر • وكان الجنود المهاجمون على درجة عالية من النظام • وإذا استثنينا قصر السلطان فلم يتعرض أى شيء لهجومهم • وكأجراء احتياطي تم نقل الرعايا البريطانيين إلى السفن البريطانية الراسية في الميناء • وقد وصل بلي إلى مسقط وكان ينوى التدخل لمساعدة السلطان ، إلا أنه تلقى تعليمات في يوم ٧ أكتوبر تمنعه من التدخل في النزاع • وبالتالي لم يجد السلطان الذي كان قد اعتصم بأحدى القلاع بعد سقوط العاصمة

(٣٢) نفس المصدر • ولوريير جزء ١ ص ٤٧٩ - ٤٨٠ •

مفراً من الهرب بعد أن حيل بينه وبين العون البريطاني . وفي يوم ١٢ أكتوبر غادر سالم بن ثويني مسقط في إحدى السفن المبحرة إلى بندر عباس . وهكذا ارتفع علم المحافظين الأبيض اللون على العاصمة . ويوم سقط سالم لم يكن قد بقى من مؤيديه أكثر من ٥٠٠ رجل . أما حلفاؤه الغافرية ، والجنبة وبنى بو على فلم يقدموا إليه أى مساعدة ، لأنهم كانوا مشتبكين في قتال ضد بعضهم البعض . كما أن بنى جابر ، القبيلة الكبيرة الأخرى الموالية لسالم ، والتي كانت ترابط على الممرات الاستراتيجية بوادي سمايل ، فقد كانت مستاءة من سالم بسبب تصرفه الأخير مع زعمائها ، ولهذا سمحت للقوات العمانية المهاجمة بالمرور عبر أراضيها (٣٣) .

وهكذا فخلال الفترة ما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٦٨ سقط النظام الملكي الأباضي المعتدل الذي يمثله البوسعيد في مسقط . وبالتالي فإن الذي يبحث في أحداث هذه الفترة التاريخية ، لابد وأن يتأكد من أن حكام هذه الأسرة لم يكونوا يعرفون أسباب التخبط الذي كانوا غارقين فيه . لأن أحداثاً تخرج عن سيطرة أى حاكم ، كالتدخل البريطاني والتغيرات الاقتصادية والملاحية في المحيط الهندي ، ربما كانت من الأسباب الرئيسية لانهايار . وكان من الممكن بالاستخدام الذكي للامكانيات السياسية والاقتصادية التي بقيت لدى السلاطين ، وعلى الأخص السلطان سالم ، الحيلولة دون نجاح المحافظين في سنة ١٨٦٨ ، وبدلاً من أن يتعاون أفراد عائلة السلطان الحاكمة في تلك اللحظات ، فقد أثبتوا على اختلافهم أنهم أنانيون وقصار النظر لدرجة يستحيل معها اتفاقهم . وقد بدا في الأخيرة من حكم السلطان ثويني أنه كان يستطيع بمساعدة الانجليز تحقيق نوع من الاستقرار السياسى للبلاد غير أن رصاصات سالم وضعت

(٣٣) نفس المصدر ص ٢٣١ — ٣٥ مذكره زعماء الثورة الى السلطان سالم بتاريخ ١٨٦٨/٩/٢٩ وقد وردت كملحق لخطاب رقم ٤٢٩ مؤرخ ١٨٦٨/١٠/١٥ من اتكنسون الى جاون .

نهاية لهذا الأمل • أما الحاج وغيره من المرتزقة ، الذين كانوا سيخسرون من سقوط الحكم المعتدل فلم يكن يهمهم غير ملء جيوبهم بالأصفر الرنان ، كما أن فشل هؤلاء الحكام في معالجة الأزمات السياسية والاقتصادية المتفاقمة ، قد أسهم في زيادة الاضطراب السياسى والصدام مع السلطة ، وأخيراً في نجاح المحافظين سنة ١٨٦٨ •

مرحلة زعامة المحافظين — امامة عزان بن قيس ١٨٦٨ — ٧١

طبيعة الثورة التى قام بها المحافظون :

إن أحداث عام ١٨٦٨ ليست مجرد انتقال الحكم من فئة الى أخرى • بل هى حصيلة ثورة قام بها الذاتيون * العمانيون لإحداث تغيير جذرى فى التاريخ العمانى منذ أن بدأ اليعاربة فى القرن السادس عشر تنظيم الحكم فى عمان • ولم تكن ثورة المحافظين العمانيين فى سنة ١٨٦٨ تختلف كثيراً عن غيرها من الثورات الكبرى التى نشبت قبل ظهور المجتمعات الإسلامية • فايديولوجية هؤلاء الثوار تتجسد وتتلخص فى مفهوم ثيولوجى (دينى) وبالتالى فان أهدافها الاجتماعية والسياسية كلها تنضوى تحت المفهوم الدينى للمجتمع • ولقد عبر المحافظون عن فكرتهم هذه بمحاولتهم الذاتية لاعادة الجماعة الاسلامية إلى حظيرتها الأصلية الأولى • وهاجمت الثورة المفهوم السائد للدين متهمة إياه بالانحراف والفساد • غير أن هؤلاء الثوار كانوا مترمّتين جداً فى موقفهم الاجتماعى ويرمون بالكفر كل من لم يكن ينضوى تحت لواء عقيدتهم • وقد تم الاعداد لثورة المحافظين فى مقاطعة تبعد كثيراً عن مقر السلطة الحاكمة • وكان الهدف منها الاستيلاء على جهاز الدولة بحيث يتسنى اجراء الاصلاحات التى تكفل تحقيق البيئة

* الذاتيون هم الذين ينادون بالتطبيق الحرفى للعقيدة الاسلامية وتحرير الذات من الشهوات والاهواء المادية والحسية • ويقصد بهم أنصار الامامة •
(المترجم)

الاسلامية الحققة • وكان على رأس التخطيط للثورة والقادة والزعماء الدينيون والسياسيون الأقليميون الذين يمثلون مجموعة جغرافية وقبيلية مستقلة • ولم يكن للعامل الطبقي أى دور فى نشوب الثورة ، غير أن مؤيدى نظام الحكم المخلوع من طبقة الأثرياء قد تكبدوا خسائر مادية جسيمة ، بحكم مصادرة الثورة لأموالهم بعد استيلائهم على السلطة • كما نشبت هذه الثورة فى فترة عاصفة من التغييرات الاقتصادية ، سببت بدورها مضاعفات اقتصادية أخرى • فلقد كانت الدولة التى قامت ضدها الثورة فى مرحلة من الضعف والتفسخ (٣٤) •

وفى الأربعينات من القرن التاسع عشر اندلعت ثورة مشابهة لثورة سنة ١٨٦٨ قام بها المحافظون أيضاً لتغيير نظام حكم سعيد بن سلطان المعتدل وإقامة نظام على غرار نظام إمامة العصور الوسطى (٣٥) • وربما كان عيب الثورة الأساسى أن فئة العلماء المحافظين الذين كانوا يسيطرون عليها ، لم ينجحوا فى محاولاتهم لتعبئة قوة عسكرية كافية لتحقيق أهدافهم • ومهما يكن من فشل ثورة الأربعينات ، فإنها رفعت من شأن مجموعتين من المجموعات المشتركة فى ثورة ١٨٦٨ الناجحة : الجناح الدينى بزعامة سعيد بن خلفان الخليلي ، العقل المفكر الدينى والتنظيمى وراء الثوريين ، وجناح قيس من فرع أسرة البوسعيد • وكان حمود بن عزان من الفرع الأخير مرشح الخليفة للإمامة فى ثورة الأربعينات ، بينما الذى تولى الإمامة بالفعل فى الستينيات هو عزان بن قيس ابن عم حمود ويوم قرر صالح بن على الانضمام الى تجمع سنة ١٨٦٨ المحافظ كان يعبر عن تأييد قوى من جانب الهناويين الذين لعبوا دورا لا يستهان به

(٣٤) هذه الآراء أشبهه بالملاحظات وقد وردت فى المحاضرة التى القاها البروفيسور برنارد ليويس عن التاريخ الإسلامى فى جامعة لندن سنة ١٩٥٨ • مضافا الى ملاحظاتي وآرائى الخاصة •

(٣٥) التحفة للسالى جزء ١ ص ٦٠ — ٤٠ وجزء ٢ ص ٢٠٩ — ٣٠ ويتناول برنامج ونمو الحركة الاباضية المحافظة فيما بين الأربعينات من القرن ١٩ و سنة ١٨٦٨ •

في تدعيم حكم السلاطين المعتدلين سابقاً • ولقد كان تحول صالح بن علي إلى جانب المحافظين أمراً بالغ الأهمية إذ هو قلب كفة الميزان لصالح المحافظين (٣٦) • وبالتالي فإن انتصار المحافظين سنة ١٨٦٨ يعود في أسبابه أولاً إلى تأييد قسم كبير من العمانيين لبرنامجهم ، وإلى الزعامة المخلصة للطبقة الدينية المحافظة ثانياً ، وإلى وجود بعض الزعماء الشرعيين من قبيلة قيس في معسكر المحافظين ، ثالثاً ، وإلى إيمان الزعماء القبليين بقضية المحافظين بعد سنة ١٨٦٧ رابعاً ، وأخيراً إلى الضعف والتفكك المتزايد في صفوف الحكام المعتدلين •

دعم حكومة المحافظين :

بعد فرار السلطان سالم من البلاد في شهر أكتوبر سنة ١٨٦٨ ، دعا زعماء المحافظين إلى اجتماع عام لعلماء الدين في العاصمة ، وذلك لوضع أسس الدولة الإسلامية المثلى وفقاً للقواعد الأباضية • وكان البند الأول في جدول الأعمال انتخاب الإمام • وقد أجريت عملية الاقتراع على النمط الأباضي القديم ، حيث تتفق مجموعة من الزعماء الدينيين والقبليين على مرشح واحد لاحتلال منصب الإمامة ، وتقديمه للأمة لأخذ موافقتها النهائية عليه • وقد رشح فريق الزعماء الذي يسيطر عليه الخليلى ومحمد بن سالم الغار ، وهو من الشخصيات الدينية البارزة في قبيلة آل سعد التي تقطن الباطنة ، وصالح ابن علي رشحوا عزان بن قيس ، الذي سبق أن تولى الإمامة جده الأول من أبيه ، أحمد ابن سعيد ، أو حاكم البوسعيدى يتولى الحكم في عمان في القرن الثامن عشر • وقد أيد أفراد الشعب هذا الترشيح ، وتم اعلانه رسمياً وبايع الجمهور المرشح على الإمامة • وتقوم البيعة على أساس أن يتعهد الشعب للإمام المنتخب بالطاعة مقابل

(٣٦) رسالة رقم ٤٧٩ مؤرخة ٢٩/١٠/١٨٦٨ من اتكنسون إلى جاون . وفي أوائل عام ١٨٦٨ انشقت قبائل الحرث والحجريين ، وبنى بو حسن ، الذين كانوا يؤيدون سالم بن ثوينى ، وانضموا إلى صفوف المحافظين .

المقرامه بشروط معينة والامام الذى يتم انتخابه على هذا الأساس ، يعتبر فى نظر الأمة اماما ضعيفا ، أى أنه لا يستطيع اتخاذ القرارات الهامة قبل موافقة علماء الدين عليها (٣٧) .

لقد أقام المحافظون نظام حكم على نمط نظام الإمامة القديم . وعلى الرغم من كون الامام هو السلطة الاسمية والتنفيذية للحكم ، إلا أن مجموع الشخصيات الدينية القيادية بما فيهم الإمام ، تعتبر السلطة العليا فى اتخاذ القرارات . غير أن نفوذ زعماء الدين كان نفوذا متأرجحا . فلقد كان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلى أهم شخصية بين الشخصيات القيادية ، بما فيها الامام . وكان المسئول عن وضع الخطوط العريضة للسياسة العامة للدولة ، كما كان يشرف على الشئون القضائية ، ويحدد لها الشكل العام . وكما كان معظم القرارات التى اتخذت فى عهد حكومة العمانيين المحافظين ابتداء من سنة ١٨٦٨ حتى سقوط هذه الحكومة فى سنة ١٨٧١ ، من بنات أفكار سعيد بن خلفان ونتاج خياله الخصب . ولم يحدث أن انطبق اصطلاح « القوة المحركة وراء الحكم » على شخص ما كما انطبق هذا الاصطلاح على مكانة الخليلى من حكم الإمام عزان بن قيس .

كان الخليلى من الزعماء المحافظين . وقد حافظ على خطه هذا منذ محاولته الأولى لبعث الامامة فى سنة ١٨٤٣ — ٤٦ . وقد أمضى الخليلى فترة الخمسينات من القرن التاسع عشر يدرس ويشرح فى داخلية عمان . وعلى الرغم من أن سلالاته القبلية غير معروفة إلا أنه كان يعتبر نفسه من هناويى بنى رواحه ، سكان وادى سمايل وكان الخليلى يستمد هذا النفوذ من مكانته العلمية ، كمفسر وداعية للعقيدة الإباضية الجامدة (٣٨) .

(٣٧) التحفة للسالى جزء ٢ ص ٢٣٦ — ٣٧ .

(٣٨) نفس المصدر ص ٢٠٩ ، ٢٢٩ و كتاب « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية ص ١٠٨ .

أما أنصاره فكانوا يعتقدون بأنه يتمتع بقوة سحرية حتى أن بعضهم قال بأنه يستطيع أن يحيى الموتى وبأن جبريل كان يزوره ويجاوره . أما هو فقد كان أباضيا متطرفا ومتعصبا للأباضيين ، وكان يحرم التدخين ، والخمر ، والموسيقى واطلاق الشوارب . أما منصبه الرسمي في الدولة فهو قاضى القضاة ومحافظ مسقط . أما من الناحية الفعلية فقد كان الخليلى كبير المستشارين ، الدينين ، والماليين والسياسيين . وكانت جميع المسائل حتى أصغرها تعرض عليه (٣٩) .

وكانت تناصره وتشد أزره حفنة من المتعصبين الدينين (المطاوعة) الذين كانوا يمثلون رأس الحربة للأباضية العسكرية المتطرفة ، والذين يمكن تشبيههم بالغزاة المسلمين الأوائل . وهم جماعة عقيدة راسخة الجذور بين الأباضيين ، حيث يرجع تاريخها الى القرن الثامن عشر . غير أن محور وحدتهم السياسية في الستينات من القرن التاسع عشر كان في الدرجة الأولى هي ولاؤهم المشترك للخليلى . وكان ثمة ، على ما يبدو ، فريقان من المطاوعة : علماء الدين المتصلعون ، ومهمتهم أشبه بمهمة جماعة القراء في عهد الخوارج والمحاربون (المنفذون) للبرامج التى يضعها زعماء الدين . وبذكائه ، وبما اشتهر به من التقوى والورع وبعد النظر ، وبالتأييد الفعال من جانب المطاوعة ، الذين يضمون أغلبية رجال القضاء في عمان ، استطاع الخليلى أن يقبض بيد من حديد على زمام الحكم المدنى للحكومة المحافظة في عمان (٤٠) .

أما عزان بن قيس الرئيس الاسمى للدولة فلم يكن في الحقيقة على وفاق مع الخليلى ، غير أنه كان واقعا تحت سيطرة كبير قضااته معظم

(٣٩) رسالة رقم ٣٢٤ مورخه ١٨٦٩/٦/٩ من دسبراو الى جاون وكتاب « لوريير » مجلد ١ ص ٤٨٢ .
(٤٠) ابن رزيق ص ٢٠٣ ، ٢٤٧ — ٢٤٨ . ماجورغرى (فرع المطوعة من الاباضية) لوريير جزء ١ ص ٢٧٥ . الخ ...

الفترة التي حكم فيها البلاد • وقد تم انتخاب غزان لا لأنه أقوى الشخصيات الموجودة ، بل لاستقامته ونسبه لبیت البوسعيد الحاكم • ومما لا شك فيه أن الخليلى لم يكن يريد إماماً فوياً • وفضلاً عن ذلك فإن زواج الإمام من كريمة الخليلى قد عزز من نفوذه • ويعتبر الإمام بالإضافة إلى منصبه هذا القائد الأعلى للجيش • وهى مهمة نجح فيها غزان وإن لم يكن قد برز فيها • وكان خشناً في طباعه ، وإن كان على جانب من الأدب • وهذه هى الصفة التى فرضت له الاحترام بين الاوساط القبلية ، هذا بالرغم من ان الاتجاه المتزمت للإمامة قد أفقده كثيراً من التأييد فى المنطقة الساحلية • وفى الوقت الذى استطاع غزان ببراعته التوفيق بين العناصر المتنافسة داخل حكومته ، اكتسب خبرة وشهرة حطت من اسهم الخليلى (٤١) •

أما الشخصية الثالثة فى الطبقة الدينية المهيمنة فهى صالح بن على، زعيم قبائل الحرث • ويستمد صالح أهميته من ترعمه لقبائل الهناوية فى الشرقية • وقد تولى فى البداية منصباً رسمياً فى الحكومة الجديدة يماثل منصب رئيس وزراء فى دولة علمانية ، غير أن الخليلى كان يعتدى على صلاحياته ، وبذلك فترت علاقة صالح بزملائه على مر الوقت ، وعلى الرغم من ان صالح قد اسهم بدور فعال فى انشاء الإدارة المركزية لحكومة الامامة ، إلا أنه لم يكن طرفاً مباشراً فى سقوطها سنة ١٨٧١ • وعلى أى حال فقد احتفظ صالح بمركزه كدعامة من دعائم المحافظين (٤٢) •

(٤١) التحفة للسالى جزء ٢٢ ص ٢٣٧ — ومن دسبراو الى جون ٦ اغسطس ١٨٦٩ رقم ٤٢٤ — مسقط وسجلات الهند ٢ مجلد ال • ولوريمر جزء ١ ص ٤٩١ •

(٤٢) التحفة للسالى جزء ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٧ وخطاب رقم ٤٨٦ بتاريخ ١٨٦٨/١٠/٣١ من اتكنسون الى جاوون وخطاب رقم ٢٩ مؤرخ ١٨٦٩/٢/١٨ من اتكنسون الى بلى وخطاب رقم ٤٣٧ بتاريخ ١٨٦٩/٨/١١ من دسبراو الى جاوون وخطاب رقم ٢٢٣ مؤرخ ١٨٧٠/٤/١١ من وى الى بلى •

أما محمد بن سلمان الغاربي فقد كان من الأعضاء المؤسسين بين الفئة الأوليجركية الحاكمة ، غير أن هذا الزعيم الديني الذي ينتمي إلى قبيلة آل سعد ، أخذ يضيق ذرعاً بزملائه على مر الوقت • وعلى الرغم من أنه كان إباضياً محافظاً إلا أنه لم يكن متعصباً ، وبما أن الغاربي من القطاع الساحلي من عمان ، فقد كان يعتقد بأن الخليلى لم يكن واقعياً في كثير من قراراته السياسية (٤٣) •

وقد برزت شخصية هامة أخرى في محيط الحكم المحافظ هي إبراهيم بن قيس ، شقيق الامام عزان • وكان هذا ينتقد الخليلى علناً وكان قائداً عسكرياً ، ومن المغرمين بآثاره المشاكل لحساب أخيه • وبعد وفاة عزان وسقوط الامامة في سنة ١٨٧١ ، ورث عزان زعامة قبيلة قيس ، كما ظهر زعيم عسكري هام آخر مشاغب ونعنى به فيصل بن حمود ، ابن عم الامام عزان (٤٤) •

وبمجرد ان انتهى الحكم المحافظ من تنظيم نفسه اخذ يوجه نشاطه لتدعيم قبضته على عمان وسائر ممتلكات الامامة فيما وراء البحار • وقد نجح هذا النظام في السنوات الأولى من عمره في فرض سيطرته السياسية في سنة ١٨٦٩ على جميع أراضي عمان ، بل والقضاء على الخطر السعودي المباشر على المقاطعات العمانية الواقعة على حدود الربع الخالي • ومن ناحية أخرى فان المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار على ساحل مكران لم تدخل في نفوذ الامام ، وفي سنة ١٨٧٠ بدأت متاعب النظام

(٤٣) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣٥ ، ٢٤٦ - ٢٤٧ رسالة رقم ٥٢٠ بتاريخ ١٨/١١/١٨ من اتكنسون الى جاوون ورسالة رقم ٤٣٠ في ١٨٦٩/٨/٧ من دسبراو الى جاوون •
(٤٤) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٤٥ - ٢٥١ - ٢٥٣ رسالة رقم ٥٢٠ بتاريخ ١٨/١١/١٨ من اتكنسون الى جاوون ورسالة رقم ٤٣٠ مؤرخه ١٨٦٩/٨/٧ وأخرى برقم ٤٦٥ مؤرخه في ١٨٦٩/٨/٢١ من دسبراو الى جاوون •

المالية ، والتذمر من بعض المواقف السياسية للحكومة تعصف بشعبية وتفوذ السلطات الحاكمة المحافظه . ان اهم ما انجزته حكومه عزان هو خضاعها البلاد كلها لسيطرتها وهذا ما لم يتسن إلا للقليل من رجال الحكم في عمان . وعندما تألفت الإمامة في أكتوبر سنة ١٨٦٨ ، أعلنت غالبية القبائل الهناوية ولاءها وتأييدها للحكومة الجديدة . ومن ناحية اخرى فان عدداً قليلاً من قبائل الغافرية اشترك في الثورة التي انت بالامامة . ومع ذلك فانه بالرغم من أن بعض فئات الغافرية قد اعترفت بسلطة الحكم الجديد ، إلا أن اغليتها لم تخضع للإمام . وبالتالي كان من المهام الأولية لحكومة المحافظين ، هي ان تتحرك لاختضاع أى قبيلة من قبائل الغافرية لا تعلن ولاءها للنظام الجديد .

لقد كان اقوى تجمع للقبائل الغافرية يتركز في منطقة وادي سمائل ، ومن ثم فقد كان من الطبيعي ان يسير عزان اكبر حملة عسكرية إلى هذه المنطقة لاختضاع القبائل . وعلى أى حال فقبل ان تتحرك قوات عزان تلقى الامام انباء مشجعة عن خضوع قبائل آل سعد وغيرها من قوات المحافظين لسلطته ، وذلك بعد استسلام حمد بن سالم ، محافظ السلطان سالم السابق في المصنعة (٤٥) ، وفي شهر يناير سنة ١٨٦٩ زحفت طلائع قوات الامام على سمائل وقامت بسلسلة من العمليات امتدت نحو شهر وانتهت باستسلام قبائل الغافرية لقوات الامام . وقد نشب قتال لا مثيل له في العنف حتى بالمقاييس العادية للحروب القبلية في البلاد العربية ، لاختضاع الخصوم السياسيين . فعندما رفضت هذه القبيلة دعوة الامام للاعتراف به ، شن عليها هجوماً بثلاثة آلاف مقاتل جندوا من ساحل الباطنة ، وكان يدعم هذه القوة مدفعان من مدافع الميدان . فكانت نتيجة هذا الهجوم ان انهارت قدرة السياهيين على القتال ، واستسلمت بقية قبائل الغافرية المجاورة بسرعة . وقد طلب الامام من جميع القبائل الرئيسية للمقاطعة

(٤٥) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٢٩ - ٤١ .

وهى بنى جابر ، والندابين ، وبعض القبائل الأقل أهمية ، والسيابيين أيضاً
تسليم بعض الرهائن للامام كتعهد منها بحسن السلوك تجاه الحكومة .
وجدير بالذكر ان بنى جابر كانوا قد ساعدوا المحافظين إبان الثورة ، ومع
هذا فقد طلب اليهم ان يقدموا عشرين رهينة (٤٦) .

أما القبيلة الغافرية الوحيدة الكبرى التى استمرت فى تحديها للامام
بعد شهر فبراير سنة ١٨٦٩ ، فهى قبيلة بنى ريام . فهذه القبيلة التى يقيم
افرادها على قمم الجبل الأخضر ، وهى أعلى منحدرات سلسلة جبال
الحجر ، وبقيادة زعيمها سيف بن سليمان ، قد وقفت موقف الحياد من
الصراع حتى بعد أن بعث اليها الامام بهدية من ٢٠٠ قيد كتحذير ضمنى
لها . وبما ان عزان لم ينفذ تهديداته ، فقد شجع هذا سيف بن سليمان ،
وغيره من المشايخ الأقل أهمية ممن افلتوا من حملة الامام ، على
النأمر لاعادة تنصيب السلطان السابق سالم على الحكم (٤٧) .

غير ان نشاط سالم بن ثوينى خلال ربيع سنة ١٨٦٩ لم يكن يشكل
خطراً حقيقياً على سلطة الامام . فبعد فرار سالم من مسقط فى اكتوبر سنة
١٨٦٨ لجأ إلى بندر عباس . وهناك أخذ يعد العدة لاسترجاع عرشه ،
واخيراً فى أوائل ربيع سنة ١٨٦٩ ، وبعد انذارات من البريطانيين بالتزام
الهدوء ، عبر سالم البحر خلصة إلى دبی على ساحل الصلح . وقد استقبل
فى دبی بحفاوة كبيرة . وبدأ محادثاته لتشكيل حلف مع امراء ساحل
الصلح بتأييد من بعض قبائل عمان التى لم تخضع للامام عزان ، وحليفه
المقديم تركى السديرى ، القائد الوهابى فى البريمى . وقد بدا لأول وهلة
ان سالم يحظى بتأييد واسع ، كما وعده السديرى وبنو ريام ، وبنو جابر ،
ممن أذلهم الامام عزان خلال حملته على وادى سمائل بالمساعدة ، غير أن

(٤٦) نفس المصدر ٢٤٢ — ٤٤ وخطاب رقم ٦٩ مؤرخ ١٨٦٩/٢/١٥
من اتكنسون الى بلى .
(٤٧) التحفة للسالى جزء ٢ ص ٢٤٤ .

خطة سالم بن ثويني تلقت في شهر ابريل سنة ١٨٦٩ ضربة ماحقة • فقد اغتيل السديري أثناء عراك خلال وجوده في الشارقة على ساحل عمان • وعلى الرغم من هذه الانتكاسة فقد قام سالم بجولة في المنطقة الداخلية من عمان لتجميع قبائل الظاهرة ، إلا أنه لم يحصل منها على وعود قاطعة بالمساعدة فقد تخلت القبائل العمانية عن تأييده بعد أن فقدت نصيرها في شخص السديري • وأخيراً بعث الامام بدوريات للبحث عن سالم بن ثويني والقبض عليه • غير ان سالم بعد ان شعر باليأس عاد إلى دبي • وفي شهر مايو سنة ١٨٦٩ عاد إلى منفاه بطريق البحر • وقد اقام في جزيرة كشم الواقعة على مضيق هرمز ليكون على مقربة من الأحداث في عمان ولكي يستطيع التحرك فوراً إذا سنحت الفرصة من جديد لإسترجاع عرشه (٤٨) •

في الوقت الذي كان الامام عزان بن قيس مشغولاً بحملته في وادي سمائل ، وبمواجهة المؤامرات التي يحوكمها ضده بنو ريام والسلطان السابق سالم بن ثويني ، كان فيصل بن حمود ابن أخ الامام في طريقه عبر المنطقة الجنوبية الشرقية من عمان ليتلقى مظاهر الولاء والتأييد من قبائل المنطقة ، وبعد مغادرته مسقط ، واستقباله بالترحيب والتهاتف في صور اتجه الموكب إلى جعلان ، وفي الطريق توقف فيصل في بلاد بني بو حسن • وخلال وجوده في هذه المنطقة أعلن شيخ بني بو علي الغافري ولاءه للإمام عزان وقد أنهى فيصل بن حمود جولته بزيارة للشرقية ولقبيلتها الحرث ، ومنها قفل عائداً إلى مسقط بعد ان اطمأن إلى أن سيطرة الامام على عمان الجنوبية كأقوى ما تكون (٤٩) •

في صيف عام ١٨٦٩ لم يبق من المناطق الكبيرة غير الموالية للإمام غير

(٤٨) نفس المصدر ص ٢٥١ وخطاب مؤرخ ١٨٦٩/٦/٦ من سالم بن ثويني إلى دسبراو ورد كمرفق لخطاب رقم ٣٥٨ مؤرخ ١٨٦٩/٦/٢٧ من دسبراو إلى جاوون •

(٤٩) التحفة ، تأليف : السالمى جزء ٢ ص ٢٤٥ — ٤٦ •

مقاطعتين هما مقاطعة الداخلية والظاهرة — وفيما عدا بعض القبائل الجبلية كقبيلة بنى ريام • وعلى أى حال فإن الظاهرة تعد مشكلة بالنسبة لأى حاكم عمانى ، لأن هذه المقاطعة تعتبر منذ أوائل القرن التاسع عشر داخلة ضمن منطقة النفوذ المتاخمة للحامية السعودية فى البريمى • غير أن وفاة السديرى المفجعة فى شهر إبريل سنة ١٨٦٩ ، قد اضافت عوامل جديدة من القلق وعدم الثقة إلى الوضع • وربما كانت النتيجة المباشرة لوفاة السديرى ، هو ما قررته قبيلة النعيم الغافرية المقيمة فى البريمى والمناطق المجاورة لها بالتخلص من السيطرة السعودية • ولقد نجحت هذه المحاولة لأن القائد السعودى الجديد عبد الرحمن السديرى لم يكن فى مستوى المسؤولية من ناحية ، كما ان جهاز الحكم المركزى للدولة السعودية ، كان قد بدأ يترعزع تحت ضغط الحرب الأهلية الدائرة بين نجلى عاهل السعودية ، سعود وعبد الله بن فيصل الزعيم المطلق للوهابيين • وقد تورط الامام عزان فى صراع التشعيم ضد الوهابيين وذلك لأسباب كثيرة • فمن ناحية كان عزان مستاء من اعتزام السديرى مساعدة السلطان السابق ثوينى ، كما أنه من ناحية أخرى توقف عن دفع ضريبة العشرين ألف ريال التى كانت تدفع كرشوة للسعوديين • ومن هنا بات عزان يتوقع شيئاً ما من السعوديين • وقد تقرر أخيراً ان يتوجه محمد بن على شيخ التشعيم إلى الباطنة للاجتماع بمحمد سليمان الغربى ، أحد زعماء الدين فى حكومة الامام ، للحصول على موافقته بزحف قوات الامام على البريمى واحتلالها ووضع حد للتهديد الوهابى لعمان ^(٥٠) وبعد الاتفاق المبدئى بين الرجلين اتصلا بالامام عزان وعرضا عليه الخطة فوافق الأخير عليها ^(٥١) •

وقد اتخذ الجيش العمانى من صحار نقطة للتجمع والانطلاق ، وذلك

(٥٠) نفس المصدر ص ٢٤٨ •

(٥١) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٨٤ — ٨٥ ورسالة رقم ٤٧٩ مؤرخه

١٨٦٨/١٠/٢٩ من اتكنسون الى جاون • ورسالة أخرى رقم ٣٢٤ مؤرخه

١٨٦٩/٦/٩ من دسبراو الى جاون •

في اوائل شهر يونيو سنة ١٨٦٩ • ومن صحار تحركت القوات عبر سلسلة جبال الحجر عن طريق وادي الجزى حيث انضمت اليها هناك قبائل النعيم وحلفائهم من بنى كعب • وفي ذات الوقت عقد عزان بن قيس حلفاً مع شيخ ابو ظبى الطموح زايد بن خليفة ، وكان يحتل مركزاً بارزاً بين زعماء ساحل عمان حتى وفاته في سنة ١٩٠٩ • وقد وصلت قوات الامام وحلفائه إلى البريمي في منتصف يونيو وشنت على الفور هجومها على القاعدة السعودية (٥٢) • وفي يوم ١٨ يونيو سنة ١٨٦٩ سقط المعقل السعودي بعد معركة وصفها عزان بن قيس كما يلي : « لقد ارسلنا الطرف فشاهدنا امامنا قلعة حصينة منيعة على الوصول • وهى قلعة عالية جداً وقوية التحصين • كما كان في داخلها رجال أشداء متحدى الصفوف وأخذ الطرفان يستعدان للنزال • ثم بدأ القتال وتبادلت الضربات فارساً ضد فارس ، ومرتبلاً ضد مرتجل ونصل ضد نصل وسيف ضد سيف • واخذ الرجال يتساقطون من على ظهور اللجيات • يا لها من موقعة • كان المتقاتلون يلمسون الأرض بجباههم • وقد استمر الكر والفر ثلاثة ايام بلياليها • وفي اليوم الرابع ابلى المسلمون بلاء حسناً • وقرروا احتلال القلعة • وما ان انتشر الخبر بين جنود العدو حتى دب الذعر في صفوفهم وعرضوا الاستسلام وطلبوا الرحمة • وبما أن من عادة العرب أن يمنحوا الرحمة لمن يطلبها فقد رحل العدو ، ولم تبق منه إلا ذكراه ••• » (٥٣) •

غير أن الامام عزان في تعليقه على المعركة قد اغفل الدور الذى قام به النعيم في عملية التسلل إلى داخل القلعة • كما اغفل الإشارة إلى النجيدات التى وصلت في اللحظة المناسبة بقيادة صالح بن على ، وكان لها الفضل في

(٥٢) « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية ص ٢٩ ومذكرات عن السعودية جزء ١ ص ٢٤٤ ٤٦ و « الحدود الشرقية » ، تأليف كيلي ص ٨٧ — ٨٨ ورسالة رقم ١٤٧ — ٢ بتاريخ ١٨٧٠/٥/٧ من بلى الى دوق ارجيل .

(٥٣) خطاب مؤرخ ١٨٦٩/٧/٤ من عزان بن قيس الى دسبراو وقد ورد كمرفق الخطاب رقم ٣٧٧ مؤرخ ١٨٦٩/٧/٩ من سبراو الى جاون •

تقويض معنويات المدافعين وارغامهم على التسليم • وقد أصدر الامام أمراً بتعيين حامية عمانية من مائتى جندي في قلعة رأس الخندق وانشاء جهاز إدارى تحت اشراف بريك بن سليمان من شيوخ الغافرية ، الذى عين محافظاً لمقاطعة الظاهرة • (٥٤) ويبدو ان النعيم لم يرحبوا بتعيين حاكم أباضى بدلاً من السعودى ، إذ بعد عام من هذا التاريخ انقلب النعيم على سلطة الامام (٥٥) • وطبيعى أن يسهم احتلال البريمى فى دعم مركز الإمامة • وحتى مسقط التى كانت متبرمة من الحكم المحافظ ، احتفلت بهذا النصر (٥٦) • غير أن هذا الحماس سرعان ما أثار المخاوف من احتمال قيام السعوديين بعملية انتقامية سريعة • وهو ما سوف نتحدث عنه فى الفصول القادمة •

بعد ان تم احتلال البريمى ، عاد الامام إلى مسقط ليعيد العدة لحملة أخرى على المقاطعة الوسطى من عمان وهى المنطقة الوحيدة التى ظلت خارج سلطته حتى ذلك الوقت • وقد تحركت الحملة فى شهر سبتمبر وانتهت من عملياتها فى شهر اكتوبر سنة ١٨٦٩ ، وكان الهدف من الحملة المذكورة إخضاع بعض الجيوب القبلية من الغافرية ، وعمان الوسطى ، فضلاً عن الاستيلاء على بعض التحصينات فى عمان • وقد استغل عزان مفره العائلى فى الرستاق كنقطة وثوب تنقض منها قواته فى اتجاه الجنوب الغربى من عمان عبر سلسلة جبال الحجر حتى منطقة قبائل شكيل فى مقاطعة عمان الوسطى والاستيلاء على قلعتهم الكبرى فى بهلاء • ولقد سبق لصالح بن على أن أغار على بنى شكيل من نفس المكان لكنه اخترق المنطقة من جهة أخرى واستولى على قلعة منح • وفى نفس الوقت كان فريق آخر بقيادة ابراهيم بن قيس ، شقيق الامام يشق طريقه ويستولى على ازكى وعلى قلعتها الحصينة من شيخ الغافرية الاكبر على بن جابر

(٥٤) التحفة ، تأليف : السالى ٢ ص ٢٤٩ — ٥٠ •

(٥٥) « الحدود الشرقية » ، تأليف كيلي ص ٨٨ •

(٥٦) خطاب رقم ٣٧٧ مؤرخ ١٨٦٩/٧/٩ من دسبراو الى جاون •

وقد تعزز هذا النجاح بنجاح آخر هو استيلاء ابراهيم على قلعة نزوي ومدينتها . وقبل بدء الهجوم على نزوي كان المتوقع ان احمد بن سيف البوسعيدي ، محافظ المنطقة ، واجد بقايا النظام المعتدل قاوم الامام . ومن هنا اضطر ابراهيم بن قيس إلى طلب مساعدة شيخ بنى ريام سيف بن سليمان ، زعيم بنى ريام ، الذى كان يتحين الفرصة لانهاء خلافه مع الامام . كما كانت قواته تحتل جزءاً من نزوي . وقد سقطت نزوي في يد قوات الامام وعين سالم بن عديم من بنى رواحة الهناوية محافظاً على المنطقة . ومن سوء حظ الشيخ سيف بن سليمان ان محاولته لكسب رضا الامام انتهت بطريقة فاجعة . فبعد سقوط نزوي دعاه الامام عزان لزيارته وأعطاه الامان . غير ان عزان لم يكن قد نسى موقف سيف المناوىء له سابقاً . والوعود التى اعطاها لسالم بمساعدته ضد الامام خلال محاولات الأول قبل ستة أشهر لكسب مؤيدين له بين صفوف القبائل . وهكذا وبالرغم من الامان الذى اعطاه الامام للشيخ ، فقد اعتقله عند وصوله إلى مسقط وأودعه السجن حيث توفي فيه بعد ذلك بوقت قصير (٥٧) .

شهد شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩ الفصول الأخيرة في قصة المحاولات التى كان يقوم بها الامام لتدعيم مركزه في البلاد . وقد نجح في بداية حكمه في قمع ثورة الغافرية التى اشترك فيها عدد كبير من وهابى بنى بو على ، سكان جعلان ، غير أن الموقف اللين الذى اتخذه الامام من القبائل المذكورة بعد استسلامها قد أثار استياء الخليلي . وما من شك في أن النتائج التى اسفرت عنها الحملة الأخيرة لإقرار السلام في ربوع البلاد والتى انتهت باحتلال قلعة الحزم التى كان يربط فيها بعض اليعاربة والتى نتحكم في مدخل الرستاق ، قد جاءت مرضية بالنسبة لقاضي القضاة .

(٥٧) التحفة للسالى جزء ٢ ص ٢٥١ — ٥٤ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٨٤ — ٨٦ ، وخطاب رقم ٦٥٧ مؤرخ ١٨٦٩/١١/١٠ من ديسمبر الى جان .

ولقد تمكنت قوات الامام من ابادة القوات اليعربية خلال دفاعها المستميت
عن القلعة (٥٨) .

في خريف عام ١٨٦٩ وصل نفوذ الامامة في عمان إلى ذروته . وكان
اقرى حكم شهدته عمان في كل تاريخها . فقد امتدت سلطة الامام عزان
حتى شملت البلاد كلها داخلها وخارجها ، مناطقها الساحلية ومناطقها
القبليّة ، معاقلها ومدنها ، سهولها وجبالها . وهو عمل يحق للامام عزان
أن يفخر به (٥٩) . وعلى الرغم من ذلك فان هذه السلطة المركزية التي بلغت
قمة نجاحها في سنة ١٨٦٩ ، كانت على ما يبدو تحمل في طياتها بذور ضعفها
وانهيارها . إن النجاح الذي حققه الامام عزان كان يعود في معظمه إلى
الائتلاف قبائل الهناوية القوية حوله . ومع أن قبائل الغافرية لم تكن متحمسة
للإمام عزان في أي وقت من الأوقات ، إلا أنها لم تقف ضده . ولعله من
سوء حظ الامام عزان لم يفرق ، خلال محاولاته لاختضاع القبائل المنشقة
من الغافرية ، بين تلك التي ناصرته ، كبنى جابر مثلاً والتي وقفت ضده .
وهذا ما حدا بأكثرية القبائل التي تعرضت للهوان ، إلى التكتل ضد
الامام بمجرد أن سنحت لها الفرصة في سنة ١٨٧٠ - ١٨٧١ . ومن
الحقائق التي لم تتغير في تاريخ عمان هي أن أي امامة لا يتحقق فيها
الائتلاف بين الجناحين الهناوي والغافري القويين ، لا يمكنها الاستمرار
في الحكم طويلاً . وبالتالي فان ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن امامة سنة
١٨٦٨ - ١٨٧١ لم تكن ، على ما يبدو ، تعبيراً عن هذا الائتلاف ، وإنما
كانت أقرب إلى سيطرة الجناح الهناوي على السلطة ، مما أدى إلى
انهيار الوضع . بل حتى حماس الهناوية لحكم عزان أخذ يفتر ، عندما تبين
أن جباة الزكاة الذين كان يعتمدهم الامام لا يفرقون بين الهناوية والغافرية .

(٥٨) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٥٤ - ٢٥٧ وكتاب لوريهر مجلد ١
ص ٤٨٤ - ٨٦ .

(٥٩) منذ عام ١٩٥٥ أصبح السلطان الحالي سعيد بن تيهور يسيطر
على مساحة تعادل مساحة المناطق التي خضعت للإمام عزان بن قيس قبل
مائة سنة . هذا بالإضافة إلى مقاطعة ظفار التي يحكمها السلطان سعيد .

ومن هنا فإن الأسباب التي أدت إلى إطاحة حكم السلطان ثوينى سابقاً —
وهي تخلى المؤيدين والأنصار عنه — قد تضافرت من جديد للقضاء على
حكومة الامام عزان •

كما ان المتاعب التي كانت تواجه حكم الإمام عزان قد حتمت انتهاج
سياسة صارمة نسبياً ، فلقد كانت أخطر والح مشكلة تقضى مضاجع
زعماء عمان المحافظين خلال حكمهم للبلاد هي المشكلة المالية ، والطريقة التي
يمكن بها توفير الأموال اللازمة للدولة • ومن سوء الحظ ان الوسائل
التي عمد اليها الإمام في مواجهة هذه المشكلات قد خلقت له معارضة
قوية • فقد كانت الشؤون المالية والاقتصادية في يد قاضى القضاة سعيد
بن خلفان الخليلى وهو شخص على الرغم مما كان يتمتع به من ثقافة
سياسية ودينية واسعة وما يتحلى به من اخلاق ، فقد كانت تنقصه
الخبرة بالشؤون المالية وغيرها من الأعمال المتصلة بهذه الناحية •

لم يكن نظام الحكم الجديد يتمتع بالكفاءة والقدرة على المعضلات
الاقتصادية التي كانت تعاني منها البلاد ، والشرط الساحلى بنوع
خاص ، وانما على العكس من ذلك كانت اجراءاتها وقراراتها تضاعف من
تلك المشاكل ولقد خيم على مسقط جو من الكآبة والحزن فى اليوم الذى
ارتفع فيه علم الامامة الأبيض فى المدينة • فقد كانت هذه الحكومة تخضع
للشخصيات القبلية والدينية فى الداخل وهى فئات لم تكن تدرك أهمية
مسقط كميناء عالمى • ولقد أصدر الخليلى واتباعه من علماء الدين سلسلة
من القوانين والمراسيم فى مسقط تحد من حرية الافراد كتحريم اللهو ،
والخمر ، والمخدرات ، والموسيقى والطبول • ولم يبق من المقاهى الاحد عشر
التي كانت تعمل فى مسقط قبل الثورة غير مقهيين فى منتصف عام ١٨٦٩ •
كما ان التطرف فى تطبيق القوانين الشرعية وفقاً للمفهوم الاباضى المحافظ
قد حرم البلاد من عدد من الاعمال التجارية المسموح بها قبل استيلاء
المحافظين على الحكم • كما تحطمت الثقة التجارية فى البلاد مما ضاعف
من الأزمة التجارية التي كانت تأخذ بخناق المدينة منذ أن تدهورت كمركز
للتجميع فى أوائل الستينات من القرن التاسع عشر • وفى سنة ١٨٦٩

صدر مرسوم يطلب من جميع المسلمين أن يؤموا الجوامع لأداء الصلوات ، واعتبر هذا الطلب اجباريا ، بينما فرض على السكان غير المسلمين الامتثال لهذه الأوضاع • أما المطاوعة (رجال الدين) الذين عهد اليهم بالإشراف على الاخلاق العامة ومراقبتها ، فقد كان أغلبهم من القبائل الأميين • وكانت مهمة هؤلاء الاشراف على تنفيذ القوانين ، وإيقاع العقوبة بالمخالفين • ولهذا أخذ البحارة الأجانب لا يبرحون سفنهم أثناء زيارتهم لمسقط • كما أخذ ربابنة السفن يتجنبون الدخول إلى ميناء مسقط حتى لا يتعرضوا لمعاكسات الحرس الديني وغيرهم من المتعصبين الذين كانوا يربطون في منطقة الميناء • وهكذا انخفض حجم المعاملات التجارية في أواخر سنة ١٨٦٩ إلى حد ان كميات الارز المستوردة من الهند قد انخفضت إلى ربع معدلها العادي • وكان أهالي مسقط يتناقلون شكوى كان يرددها أحد الجنود المحترفين عن عهد السيد سعيد والسيد ثويني • وقد فقد مورد رزقه بعد استيلاء المحافظين على الحكم وتقول هذه الشكوى : « بأنى رجل فقير واكسب بعض الريالات التى اعيل بها اسرتى • اننى لست شبيئا ، غير أنى لن انسى أيام السيد سعيد والسيد ثويني عندما كنا نعيش فى رخاء ، وأعلل نفسى بعودة تلك الايام بأن يعود أحد أبنائهما الى الحكم فيخلصنا من هذا الوضع » (٦٠) •

والواقع ان النزعة الضيقة للمحافظين لم تكن فى صالح المناخ الاجتماعى والاقتصادى فى مسقط حيث كانت تتعايش شتى الديانات ومختلف العقائد فى حرية تامة • وحيث كان عبدة « العجل الذهبى » ، كما يقول الرحالة بلجريف أكثر من أى فئة أخرى (٦١) • وقد طرد من البلاد

(٦٠) خطاب رقم ٤٢٤ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٦ من دسيراو الى جاوون وخطاب رقم ٧٠٤ مؤرخ ١٨٦٩/١٢/٩ من دسيراو الى بلى وكتاب لوريهر مجلد ١ ص ٤٨٢ راجع أيضا ص ٢٦ من *Precis Commerce*

(٦١) أواسط وشرقى شبه الجزيرة العربية جزء ٢ ص ٣٦٦ ، تأليف بلجريف •

أغلبية التجار المرموقين ممن كانوا يقومون بنشاط تجارى هام ، فى مسقط خلال حكم الامامة فى سنة ١٨٦٨ • ولم يكن حظ التجار المتمتعين بالحماية البريطانية أفضل من غيرهم ، فقد ساء وضع هؤلاء التجار كثيراً فى ظل هذا الحكم • وعلى الرغم من أن الإمام عزان كان يصرح دائماً بأنه لا يتدخل فى الأديان الأخرى ، إلا أنه كان يعارض دق الطبول والاجراس والصنج فى الاحتفالات الدينية للهنود (٦٢) • ولقد ارتكبت جرائم سلب ونهب وقتل ضد المستوطنين الهنود • كما هوجمت مساكنهم من جانب الحرس للتأكد من مراعاتهم لقانون منع التدخين ، كما حكم على أحد الهنود بالسجن عقاباً على حلق لحيته • أما خارج العاصمة فقد كان الوضع اسوأ إذ احرق حتى بأكمله للهنود فى بلدة الخابورم • وقد اضطر عدد كبير من الهنود إلى ترك البلاد والانتقال إلى زنجبار وغيرها من مراكز التجارة على ساحل المحيط الهندى مستصحبين معهم أموالهم وتجارتهم • وكانت الأكثرية من أفراد الجالية الهندية فى عمان تفتقر إلى سرعة الحركة ، ولهذا تحملت خسائر مالية جسيمة • وكان عدد كبير من هذه الجالية يملك عقارات وديوناً ، أو غيرها من الاموال غير المنقولة (٦٣) • وقد تعذر على الهنود تحصيل الديون التى لهم على التجار العرب المحليين • وفى سنة ١٨٧٠ خفت حدة مقاومة الحرس للنشاط التجارى والجاليات التجارية العاملة فى البلاد ، غير ان الاوضاع بوجه عام لم تتحسن ، فقد أضرب العمال احتجاجاً على ضريبة باهظة فرضتها السلطات الحاكمة فى صورة قرض أهلى (٦٤) • ومن ناحية أخرى فان تدهور الاوضاع التجارية فى ظل حكم الامامة قد سبب انخفاضاً فى دخل الدولة من الجمارك • ولم تبدأ

(٦٢) خطاب مؤرخ ١٨٦٩/٨/١١ من عزان بن قيس الى دسبراو وقد ورد كمرفق للخطاب رقم ٤٦١ بتاريخ ١٨٦٩/٨/١٩ من دسبراو الى جاون •

(٦٣) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٣٦ وخطاب رقم ٢٥٠ مؤرخ ١٨٦٩/٤/٢٦ وخطاب رقم ٢٧٨ مؤرخ ١٨٦٩/٥/١٢ وخطاب رقم ٣٥٣ مؤرخ ١٨٦٩/٦/٢٦ من دسبراو الى جاون •

(٦٤) خطاب رقم ٤٣٣-٣٣ مؤرخ ١٨٧١/١٠/٨ من بلى الى دوق أرجيل •

حكومة الامة في العمل على الاهتمام بالمشاكل الاقتصادية للمنطقة الساحلية
إلا قبيل سقوطها بقليل (٦٥) .

وقد اتخذ سعيد بن عامر ، مدير الجمارك الجديد الذي عينه
الخليلى ، ومن زعماء الحجرين أول خطوة في معالجة الوضع بتخفيض
نسبة الرسوم الجمركية تخفيضاً كبيراً . غير ان هذه الخطوة تمت في
مرحلة كانت تعاني كساداً تجارياً وبدلاً من ان تكون عاملاً لدعم التجارة ،
كانت سبباً في انخفاض الرسوم الجمركية . ان جهل المدير الجديد بشؤون
الجمارك ، وعدم كفاءته بوجه عام قد اضطر الخليلى اخيراً في سنة ١٨٦٩
إلى أن يستعين بمؤسسة كوبالداس - ماوجى الهندية في الاشراف على
الجمارك وإدارة شؤونها ، غير أن اللفتنانت كولونيل دسبراو عارض
ذلك . واخيراً استطاع الخليلى ان يؤجر الجمارك إلى احد التجار
الهنود المسلمين (الخوجا) ويدعى سليمان بن جمعه مقابل ٣٥٠٠٠ ريال
نمساوى في العام بعد أن اقنعه بأن الدخل سيكون كبيراً . ولكن ما أن
وقع جمعه على عقد الايجار حتى عاد الخليلى فأنكر تعاقدته مع التاجر
المذكور وأخذ يهدده بالغرامة والسجن ، إذا حاول التنصل من الصفقة
المذكورة . وهكذا تحايل الخليلى على التاجر المذكور (٦٦) . ومن الوسائل
القذرة والخطيرة أيضاً التى كان يعتمد اليها الخليلى لدعم الامكانيات المالية
مصادرة أملاك المؤيدين للنظام المعتدل السابق . ولكن هذه الاجراءات
لم تكن تلقى التأييد من الطبقة الدينية المسيطرة ، بما فيها صالح بن على
ومحمد بن سليمان الغاربى . وعلى الرغم من ان هذين الزعيمين لم يكونا
يؤيدان هذه الاجراءات إلا أنه لم يكن في مقدورها الحيلولة دون اتخاذها
نظراً للنفوذ الكبير الذى كان يمارسه الخليلى وزمرته من المؤيدين لسياسته

(٦٥) انظر Precis Commerce ص ٢٩ وخطاب رقم ١٤٧ - ٢ مؤرخ
١٨٦٩/٦/١٩ من بلى الى دوق أرجيل وخطاب رقم ٣٢٤ مؤرخ ١٨٦٩/٦/٩
وخطاب رقم ٤٦٤ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٢١ وخطاب رقم ٦٨٣ مؤرخ ١٨٦٩/١١/٢٥
من دسبراو الى جاون .
(٦٦) خطاب رقم ٦٦٦ مؤرخ ١٨٦٩/١١/١٣ من دسبراو الى جاون .

المذكورة (٦٧) • وقد اكتشف الخليلى أن التهديد بالمصادرة أجدى له من تنفيذها في بعض الأحوال • والحقت هذه السياسة ضرراً بأعداد كبيرة من الناس فصودرت مزرعة أحد المواطنين بتهمة تعاونه مع الحكم السابق ، كما فرضت غرامة ٣٠٠٠ ريال نمسوى على مواطن آخر بدعوى انه اشترى قطعة أرض من السيد سعيد • كذلك استولت الدولة على مجموعة من العقارات واعتبرتها من « املاك الدولة » وكثرت عليات مصادرة الاملاك في صيف سنة ١٨٦٩ حتى لم يعد هناك من يشتريها • هذا بالرغم من أن أحد أفراد أسرة البوسعيد ، وهو هلال بن سعيد جمع ثروة كبيرة من صفقات المضاربة في شراء الممتلكات المصادرة (٦٨) • وقد اتسعت حركة مصادرة الاملاك حتى شملت انصار النظام القديم • وفي سنة ١٨٦٩ فرضت حكومة الإمام على شيخ بنى جابر ، وكان من مؤيدي الامام بالتنازل عن بعض ممتلكاته وتغريمه ٤٠٠٠ ريال • ولكن هذا الاجراء قد أدى إلى تخلى شيخ بنى جابر كلياً عن تأييد الإمامة ، كما سبباً في ظهور تجمع قوى بين الغافرية أسهم في النهاية بإطاحة نظام الإمامة في عمان (٦٩) •

وبالرغم من الخطوات الحاسمة التى اتخذها الخليلى فقد كانت الخزينة خاوية في سنة ١٨٧٠ ، مما حمل الخليلى على ان يطلب إلى الامام اتخاذ اجراءات استثنائية لطرح قرض وطنى على المواطنين أو استخدام القوة ، إذا لزم الأمر لتوفير الاموال اللازمة • وقد اعتبرت الاموال التى تم الحصول عليها على هذا الاساس تبرعاً من الجمهور ، لا قرضاً قابلاً للسداد • وعلى كل حال فقد رفضت قبائل آل سعد المساهمة في هذا المشروع ولم تسمح للمحصلين بالدخول إلى منطقتها (٧٠) •

(٦٧) التحفة للسالى جزء ١ ص ٦٦ وجزء ٢ ص ٢٤٦ — ٤٨ وشجب السالى نفسه سياسة المصادرة هذه .

(٦٨) خطاب رقم ٤٣٠ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٧ ورقم ٤٩٩ مؤرخ ١٨٦٩/٩/٩ من دسبراو الى جاون .

(٦٩) خطاب رقم ٥٠ مؤرخ ١٨٦٩/٢/١ من اتكنسون الى بلى .

(٧٠) التحفة للسالى جزء ٢ ص ٢٥٧ — ٧٠ وخطاب رقم ٤٦٥ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٢١ وخطاب رقم ٤٩٩ مؤرخ ١٨٦٩/٩/٩ من دسبراو الى جاون .

وبالتالى فقد اضطر الخليلي إلى ضغط المصروفات إلى أقصى الحدود •
ومن بين الاجراءات التي إتخذت لمواجهة الأزمة ، هو وقف دفع العشرين
الف ريال ، التي كانت تدفع سنويا للحكام الوهابيين (٧١) • وقد نتج عن
هذا بالطبع انفجار الخلاف العماني الوهابي من جديد • كما امتنع الامام
عن دفع مكافأة الثلاثة آلاف ريال التي كان قد وعد بها قبائل النعيم مقابل
المساعدة العسكرية التي قدموها للامام ، مما جعلهم ينفذون من حوله
أيضاً (٧٢) • لم يكن المرتب الذي يتقاضاه الامام يزيد على مائتي ريال
شهرياً ، وكانت اعتمادات الجيش تعاني من العجز باستمرار (٧٣) • وبما
ان صالح بن علي لم يكافأ على الحملات العسكرية التي قادها باسم الامام ،
وان الخليلي هو الذي استأثر بها (٧٤) • ، فقد رفض صالح الاشتراك في
اية حملات عسكرية جديدة لحساب حكومة الامام ، وقد تضامن مع
صالح في هذا الموقف عدد غفير من الزعماء العمانيين كاحتجاج على السياسة
المالية التي كان يسير عليها الخليلي ، غير أن ذلك كله لم يجد فتيلاً •

وبما أن البريطانيين لم يعترفوا بحكومة الامام عزان فانه لم يكن
يتقلى التعويض السنوي عن زنجبار ، وكان السلطان ماجد يفضل بطبيعة
الحال ان لا يدفع التعويض المالي المذكور • وكان الامام قد تقدم إلى
بريطانيا بطلب الاعتراف بحكومته ، وبدفع التعويض المالي عن زنجبار ،
غير ان حكومته سقطت قبل ان تتمكن الحكومة البريطانية من البت في
موضوع الاعتراف ، أو استلام التعويض (٧٥) •

لقد استحال على حكومة المحافظين حل المشكلة المالية ، مما عرقل

(٧١) خطاب رقم ٤٧٩ مؤرخ ١٨٦٨/١٠/٢٩ من اتكنسون الى جاون •

(٧٢) رسالة رقم ٤٣٠ بتاريخ ١٨٦٩/٨/٩ من دسبراو الى جاون

(٧٣) رسالة رقم ٣٢٤ مؤرخه ١٨٧٠/٦/٩ من دسبراو الى جاون •

(٧٤) رسالة رقم ٢٢٣ بتاريخ ١٨٧٠/٣/١١ من وى الى بلى •

(٧٥) رسالة رقم ٢٩٩ بتاريخ ١٨٧٠/٦/٢٤ من بلى الى دوق أرجيل

(سجلات الحكومة الهندية) •

سير الأعمال الحكومية في البلاد • وكان الخليلى ومعاونوه من علماء المحافظين ، وجلهم من مواليد المنطقة الداخلية من عمان ، أقل تفهما لأوضاع عمان ومشاكلها الاقتصادية والمالية من السلاطين المعتدلين الذين سبقوهم على الحكم وعاشوا في الفترة ما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٦٨ • وعلى أى حال فقد كانت هذه السياسة سبباً في ركود الحركة التجارية وفي هروب رؤوس الأموال أو انكماشها كما افقدت النظام جانباً كبيراً من الباييد وعلى الأخص في المنطقة الساحلية من البلاد • ويبدو أن مشاكل الثروة والتجارة لم تكن تستأثر باهتمام المفكرين ورجال الحرب المحافظين • وإذا كانت رفاهية أهل عمان التاريخية تحتضر في عهد السلاطين ١٨٥٦ — ١٨٦٨ ، فإنها شهدت نهايتها على يد المحافظين •

العلاقات الخارجية في عهد المحافظين :

لم تحقق حكومة الامامة نجاحات ملحوظة في علاقاتها بالدول الاجنبية • الأمر الذى أسهم — أو بالأحرى أفشلها في الحصول على اعتراف بريطانيا بها — في اسقاطها في النهاية • وبالرغم من أن علاقه عمان بمستعمراتها على ساحل مكران الواقعة بين بندر عباس وجواذر كانت تعتبر من الشؤون الداخلية ، إلا أنها اضحت احدى مشاكل السياسة الخارجية في عهد حكم المحافظين • فمئذ الخمسينات من القرن التاسع عشر ظلت هذه المنطقة محور المصالح الايرانية بشكل متزايد • عندما استولى عزان بن قيس على مسقط سنة ١٨٦٨ • بادرت الحكومة الايرانية إلى فسخ الاتفاق المعقود مع السلطان ثوينى مستندة في ذلك إلى أحد بنود الاتفاق الذى ينص على إمكان فسخ الاتفاق في حالة انتقال الحكم إلى دولة غازية أخرى • ومع ذلك فقد اعتمدت السلطات الايرانية الحاج أحمد ، وزير السلطان المخلوع حاكماً في الميناء الايرانى المذكور ، وبسمحت لسالم بن ثوينى بالاقامة فيه • وقد حاول الامام استرجاع سلطانه على بندر عباس بالقوة ، غير أن البريطانيين عارضوه في ذلك • ورغم هذا فقد استطاع الامام ارسال قوة مسلحة خفية لغزو المدينة ، ورغم ان هذه

القوة تمكنت من احتلال الميناء ، إلا ان الامام لم يتمكن من الاحتفاظ بسلطته على المنطقة • ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم بقيت بندر عباس في حوزة الحكومة الايرانية ، غير ان العنصر العماني فيها كان هو العنصر الغالب في الأيام الأولى من استلام الايرانيين لادارة الميناء وعلى الأخص في النواحي الادارية • وكان من بين هؤلاء العمانيين الحاج احمد (٧٦) •

أما في جواذر فقد نجح الامام عزان في تعيين حاكم عماني عليها ، غير أن هذا الحاكم لم يكسب تأييد سكان لمنطقة • وقد هيا هذا الجو للقيام بانقلاب ضد الامامة في جواذر ففي شهر ابريل من سنة ١٨٦٩ تسلل السيد ناصر بن ثويني ، أحد أبناء السلطان الأخير ، ومن أم بلوشية تنتمي إلى إحدى المناطق القريبة من جواذر إلى هذه البلدة • ونظراً للقربة التي تربطه بسكان المنطقة ، لم يواجه صعوبات كثيرة في إعداد قوة مسلحة واحتلال جواذر • وقد استنجد والي الامام في جواذر بالبريطانيين ، إلا ان هؤلاء لم يستجيبوا له ، لأن ناصر بن ثويني قام بانقلابه من الداخل ولم يستخدم أى سفن حربية أو ينتهك اتفاقية السلم البحري للمنطقة • بل على العكس فقد وقفوا ضد محاولة الامام في ارسال حملة بحرية مسلحة للهجوم على ناصر (٧٧) • وكان في هذا الموقف تطبيقاً لمبادئ السلم البحري المعمول بها في المنطقة على خليج عمان • وبهذا الاجراء حالت بريطانيا بين عزان والقيام بهجوم مضاد ضد خصومه ، كما حالت ايضاً بين الجماعة المعتدلة وشن أو تنظيم هجوم من قواعدهم على حكومة عمان •

ان الانطباعات التي كونتها السلطات البريطانية عن المحافظين وسياستهم لم تكن ترضى تلك السلطات وبمضى الوقت إزدادت العلاقة سوءاً بين

(٧٦) خطاب من الحاج احمد بن محمد الى المقيم بلى وقد ورد كمرغق رقم ١ للخطاب رقم ٥٢٨ مؤرخ ١٨٦٩/١٠/٩ من بلى الى دسبراو •
(٧٧) كتاب « لوريير » مجلد ١ ص ٤٨٤ وخطاب رقم ١٨٩ مؤرخ ١٨٦٩/٤/١٢ من دسبراو الى بلى •

الجانبيين • وقد أرسل الامام عزان في اوائل حكمه وقدأ عمانياً إلى الهند في محاوله للحصول على اعتراف من الحكومه البريطانيه بحكمه ، غير أن المحاولة لم يكتب لها النجاح ^(٧٨) • وكانت العقبة الرئيسية أمام قيام علاقات طبيعية وودية بين الانجليز والامام عزان ، هي نزعة التطرف عند بعض المسئولين في حكومه الامام ومؤيديها في مسقط • وقد ازدادت علاقته تدهورا بين الحكومتين بسبب المعاملة السيئة التي كانت السلطات العمانية تعامل بها الرعايا الهنود وبسبب تدهور الاوضاع التجارية للبلاد أيضاً • وقد تآزم الموقف إلى أبعد الحدود بين الامام عزان والكولونيل دسبراو في صيف عام ١٨٦٩ ، بعد حادث اطلاق النار على إحدى السفن الحربية البريطانية وهي راسية في ميناء مسقط • ولقد قاوم دسبراو بكل ما يستطيع فكرة اعتراف حكومته بنظام الامام عزان • غير أن علاقة عمان بالانجليز تحسنت في مطلع سنة ١٨٧٠ بعد مغادرة دسبراو مسقط • ثم في أواخر سنة ١٨٧٠ تغير موقف المقيم بلى من الحكم المحافظ في عمان فطالب حكومته بالاعتراف به • وبعد اعادة النظر في هذا الموضوع قررت الحكومة البريطانية الاعتراف بحكومة مسقط ، إلا أن هذه الحكومه سقطت في أوائل سنة ١٨٧١ وذلك قبل أن يتمكن البريطانيون من ابلاغ قرارهم بهذا لحكومة عزان ^(٧٩) •

سبق ان تناولنا المرحلة الأولى من علاقة عمان المضطربة بالسعوديين • فقد كان رفض الامام عزان لدفع الزكاة أو الاتاوة في سنة ١٨٦٨ الخطوة الأولى في سلسلة من المواقف التي اسفرت عن احتلال البريمي سنة ١٨٦٩ من جانب قوات الامام • وإزاء هذا بعث حاكم السعودية إلى الامام عزان

(٧٨) خطاب من عزان بن قيس الى اتكنسون وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٤٢٩ مؤرخ ١٨٦٨/٩/٣٠ من اتكنسون الى جاون •
(٧٩) « سياسة الهند الخارجية » ص ٢٣٧ — ٤١ ، تأليف براسباد ولوريهر مجلد ١ ص ٤٨٧ — ٩٠ . ان الرجوع الى المجلد ١٦ من سجلات الحكومة الهندية يكشف كيف كان دسبراو يعارض فكرة الاعتراف بنظام الامامة في عمان •

بالرسالة التالية : « من عبد الله بن الفيصل ، امام المسلمين » إلى عزان ابن قيس ، امام اللصوص • لقد علمنا بما قمتم به ونأمل أن نزوركم بعشرين ألف رجل ، ونرجو أن تستقبلونا أحسن استقبال » (٨٠) • وكان شتاء عام ١٨٦٩ شتاء مخيفاً بالنسبة إلى عمان إذ عاشت البلاد وهي ترقب بين لحظة وأخرى غزوا وهابيا مضادا ولهذا توجه الامام عزان وشقيقه ابراهيم بجيوشهما الى البريمي استعدادا لمواجهة الغزو المنتظر • إلا أن الهجوم المتوقع لم يحدث ، ربما بسبب الحرب الأهلية التي نشبت بين الشقيقين السعوديين عبد الله الفيصل وسعود الفيصل للسيطرة على مقاليد السلطة في البلاد من ناحية ، وخوف السعودية من رد فعل بريطانيا ضدها فيما لو اقدمت على الهجوم من ناحية أخرى • وعلى أي حال فإن الاستعدادات التي اتخذتها حكومة الامامة للدفاع عن البلاد قد ضاعفت من الضغوط الداخلية في الامامة ، بسبب الاجراءات الصارمة التي اتخذتها الحكومة لتأمين النفقات اللازمة للمعركة على وجه السرعة (٨١) • ومن ناحية أخرى ازدادت علاقة الامام عزان بحكام زنجبار تدهورا • وكان السلطان ماجد يعيش في خوف من أن يقوم عزان بهجوم مسلح على زنجبار ، أو بتدبير انقلاب ضده للاستيلاء على السلطة في الجزيرة • كما كان ماجد يتمنى لو يعود فرع أسرته الحاكمة إلى السلطة في عمان • لهذا قام ماجد باتصالات مع أخيه تركي بن سعيد في أواخر سنة ١٨٦٩ • وكان تركي يعيش في منفاه الاختياري في الهند منذ سنة ١٨٦٧ ، لتخطط حركة مضادة لإطاحة حكم الامام عزان ، على أن يتولى تركي قيادة هذه الحركة ويتكفل ماجد بالنفقات التي تتطلبها • لقد كان من المقدر لخطة ماجد ان تنجح في نهاية الأمر فمن الاسباب التي قادت

(٨٠) خطاب من عبد الله الفيصل الى عزان بن قيس وقد ورد كمرغق رقم ٤٦٥ لخطاب مؤرخ ١٨٦٩/٨/٢١ من دسبراو الى جاون •
(٨١) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٣ ص ٢٥٧ - ٦٣ و « الحدود الشرقية لجزيرة العرب » ص ٨٨ ، تأليف كيلي وترجمة محمد أمين عبد الله وكذلك « انطباعات عن السعودية » ص ٢٤٥ جزء ١ •

إلى سقوط امامة عزان بن قيس ، هي الأموال التي رصدتها حكومة زنجبار لصالح الحكم المعتدل (٨٢) .

سقوط الامامة المحافظة :

في سنة ١٨٧٠ تفاقمت الحالة الداخلية في الامامة إلى حد كبير .
فخلال شتاء العام المذكور عاش العمانيون على أعصابهم في ترقب غزو
وهاجي لبلادهم . وفي الصيف تمرد بعض قبائل البدو سكان حدود الربع
الخالى ، والغافرية ، سكان رؤوس الجبان ، والظاهرة وعمان الوسطى ،
مما اضطر الامام وصالح بن علي إلى القيام بحملات عسكرية لاختماد هذه
الحركات التمردية . وفي شهر سبتمبر سنة ١٨٧٠ أضرب بعض سكان
مسقط احتجاجاً على ضريبة الحرب التي فرضت عليهم . وفي نفس الوقت
كان الامام يواجه خطراً آخر يتمثل في تمرد قبائل الهناوية سكان قطاع
جعلان بعد أن كانوا من أقوى انصاره ومؤيديه (٨٣) .

وقد كان في إمكان الامام عزان ، بلا شك ، التغلب على كل هذه
المشاكل لو لم يظهر خصم قوى جديد يتحدى نفوذه بتأييد من بعض الجهات
الأجنبية ، ونعني به تركي بن سعيد ، نجل السيد سعيد بن سلطان
واحدى الشخصيات المعروفة في عمان . وعلى أساس الوعود التي تلقاها
من حكومة زنجبار بمساعدته مالياً ، وبسبب انشغال عزان بمشاكله مع
السعوديين ، أخذ تركي يعد العدة لاسترجاع الحكم من يد المحافظين .
وحتى أواخر سنة ١٨٦٩ كان الانجليز لا يزالون يعارضون حكم عزان ،
وبالتالي رفعت السلطات البريطانية القيود على تنقلات تركي بن سعيد ، غير
أن تركي لم يغادر الهند إلى ميناء بندر عباس قبل شهر مارس ١٨٧٠ ،

(٨٢) خطاب رقم ١٦٦ - ٤ مؤرخ ١٨٧٠/٥/٢٣ من بلى إلى دوق أرجيل .

(٨٣) التحفة السالمة جزء ٢ ص ٢٦٧ وخطاب رقم ٣١/٣٩١ مؤرخ

١٨٧٠/٩/٢٤ من بلى إلى دوق أرجيل .

عندما سافر كراكب عادي على إحدى البواخر البريطانية • وما أن علمت سلطات الامامة بتحركات تركي حتى ساد الذعر في أوساطها إذ خشيت أن يكون البريطانيون وراء تلك التحركات • وبعد وصول تركي إلى بندر عباس واستقبال الحاج أحمد له ، توجه الى دبي على ساحل الهدنة تمهيدا لتنظيم الحركة وهناك نجح في اقناع زعمائها بدعم الانجليز لحركته ، واحتمال مساعدة السعوديين له أيضاً • وبالرغم من أن غالبية شيوخ الساحل كانوا يعطفون على حركته ، إلا أنه فشل في كسب تأييد زايد بن خليفة ، شيخ أبو ظبي ، الذي كان يؤيد عزان ، أو حتى زعيم قبائل النعيم ، الشيخ محمد • كما أن تركي لم يكن في الحقيقة يحظى بتأييد البريطانيين حتى أنهم حذروه من القيام بأي محاولة قد تعكر الأمن أو الهدنة الملاحية في المنطقة أو مهاجمة مسقط • والا فانه سوف يصبح عدوا في نظرهم • وفي أوائل شهر يونيو بعد أن اخفق تركي في محاولاته لتأليب شيوخ الساحل إلى جانبه ، عدل عن الخطة وعاد الى بندر عباس (٨٤) •

عاد تركي فتمسك من جديد للفكرة عندما تلقى وعداً قاطعاً من زنجبار بتقديم مساعدات مالية كبيرة اليه : ولهذا رسم خطة واسعة تهدف إلى رشوة أكبر عدد من الزعماء والشيوخ العمانيين المقيمين في المناطق الاستراتيجية وتحريضهم على التخلي عن تأييدهم للامام ومنح تأييدهم له • وقد تسلم تركي من ماجد ما قيمته ٢٠٠٠٠ ريال نمسوى لانفاقها فوراً مع تعهد بدفع ثلاثين ألف ريال أخرى بمجرد استيلائه على أحد الموانئ العمانية وبالإضافة الى عشرة آلاف ريال أخرى من الأمير السعودي إذا أمكن اقناعه بذلك (٨٥) • وبالتالي لم يكن ثمة وجه للمقارنة بين

(٨٤) التحفة للسالي جزء ١ ص ٨٦ وخطاب رقم ١٤٧ - ٢ مؤرخ ١٨٧٠/٥/٧ من بلى الى دوق أرجيل و « انطباعات عن السعودية » جزء ١ ص ٢٤٥ - ٤٦ •

(٨٥) خطاب رقم ٣٤٣ - ٢٦ مؤرخ ١٨٧٠/٨/٢٧ من بلى الى دوق أرجيل •

الامكانات السخية التي كان يتمتع بها تركي ، والامام عزان الفقير في امكاناته المالية • ولهذا عندما نجح تركي في النزول في منطقة رؤوس الجبال ، انبرى شيوخ منطقة ساحل الصلح : دبي ، ورأس الخيمة وعجمان ، وشيوخ النعيم وبنى قتب الى الانضواء تحت لواء زعامته ، كما استطاع تركي تدريجياً إقناع بعض القبائل ، وعلى الأخص من كان ينتمي منها إلى الغافرية بتأييده • وكانت هذه القبائل تضم الدروع ، والجنبة ، والحبوس ، وآل وهيبة (٨٦) • أما الامام عزان فقد أخذ يحشد قوات مضادة في نزوى • وفيما عدا صالح بن عيسى ، وبعض الشيوخ الموالين له ، رفضت أغلبية القبائل التي كانت تؤيده اسماً التقدم نحو الظاهرة لمواجهة قوات تركي بن سعيد • وقد حلت الطامة الكبرى بالمحافظين في أوائل شهر أكتوبر عندما بدأ فيلق من قوات الامام قوامه ٤٠٠٠ مقاتل يدعمها مدفعان خارج بلدة ضنك الزحف في اتجاه أحد الممرات الجبلية الضيقة حيث فاجأتهم قوات تركي بن سعيد واشتبكت معهم في معركة ضارية سقط فيها ٤٠٠ قتيل من جانب الامام مما اضطره إلى التراجع بقواته الباقية إلى مسقط بينما انط بـصالح بن علي مهمة الدفاع عن مقاطعة الشرقية بكل ما في استطاعته (٨٧) • وقد انضمت أفواج جديدة إلى صف تركي بن سعيد كنتيجة لذلك الانتصار ونجح اجتياح كل من مقاطعتي الظاهرة ومنطقة عمان الوسطى • وقد ظل تركي يتقدم حتى وصل إلى جعلان حيث انضم اليه بنو بو علي وبنى بوحسن ، ومنها زحف الجمع كله نحو مدينة صور الساحلية (٨٨) •

حتى شهر نوفمبر كان تركي قد أنفق على عملياته العسكرية حوالى

(٨٦) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٦٧/٢٦٩ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٨٦ .

(٨٧) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٦٧/٢٦٩ وخطاب رقم ٤٥/٥٢٠ مؤرخ ١٨٧٠/١١/٥ من بلى الى دوق أرجيل أيضاً « جزيرة العرب وحدودها الشرقية » ، تأليف كيلي وترجمة محمد أمين عبد الله ص ٨٨ — ٨٩

(٨٨) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٧٠/٢٢٩ .

٨٠٠٠ ريال غير أن ماجد بن سعيد ، سلطان زنجبار توفي في شهر نوفمبر ، وبالتالي فإن رصيد تركي من المال الذي كان العامل الرئيسي في نجاحه ، على ما يبدو قد نفذ . وفي الوقت نفسه كان الامام عزان يعيد تنظيم قواته . كما وجه الانجليز من ناحيتهم انذارا آخر إلى تركي بن سعيد بوجوب مراعاة السلام الملاحي في المنطقة . وهكذا ما أن حل شهر أكتوبر حتى كان تركي ، على ما يبدو ، قد انهكت قواه ، مما جعل المقيم بلى يتوقع من تركي العجز عن مهاجمة مسقط (٨٩) .

غير ان المقيم بلى لم يكن مصيباً في افتراضه . وبما ان تركي ادرك بأن عليه أن يضرب فوراً أو يخسر الحرب ، فقد قام بتوزيع قواته توزيعاً استراتيجياً . وقاد بنفسه القوات الرئيسية للجيش من صور رجوعاً إلى صمد داخل الشرقية ، حيث كان يربط الشيخ صالح بن عيسى داخل استحكاماته . وفي الوقت نفسه أرسل قوات من بنى بو حسن وبنى بو على ، وهم من أعداء الثار عادة ، عبر المنطقة الساحلية للانقضاض فجأة على مسقط . وكان على رأس هذه القوات سيف بن سليمان البوسعيدى محافظ مدينة مطرح سابقاً على عهد الحكم المعتدل ، وساعد تركي الأيمن . وفي أواخر يناير سنة ١٨٧١ دخل فيلق سليمان مدينة مطرح ليلاً . وقد اشترك الامام عزان شخصياً في المعركة التي دارت رحاها على اسوار مطرح وقتل فيها الامام ، وسيف بن سليمان ، غير أن النصر كان حليف تركي بن سعيد الذي استسلمت له كل من مدينتي مسقط ومطرح بعد مقتل الامام . وما أن علم تركي بسقوط مسقط ، وكانت قواته تقاتل صالح بن على في ذلك الوقت ، حتى أسرع إلى العاصمة في حراسة ٥٠٠ رجل من راكبي الجمال ليقبض ثمن النصر (٩٠) .

(٨٩) رسالة رقم ٥٢/٦٠٥ مؤرخه ١٨٧٠/١٢/٣ من بلى إلى دوق أرجيل ورسالة أخرى رقم ٦٥/٦٦٥ مؤرخه ١٨٧٠/١٢/٣٠ منه أيضاً .
(٩٠) التحفة ، تأليف السامى جزء ٢ ص ٧١/٢٧٠ وخطاب رقم ١٧/١٤٥ مؤرخ ١٨٧١/٢/١٣ من بلى إلى دوق أرجيل .

أما سعيد بن خلفان الخليلى الذى بقى فى مسقط فقد بذل كل ما فى وسعه للمحافظة على نظام حكم الامة المنهار • وقد تحصن فى إحدى القلعتين بمسقط ، بعد ان سلم شؤون الامة إلى إبراهيم بن قيس أخ الامام • كما طلب إلى الانجليز ان يتعهدوا بضمان حكم إبراهيم مقابل حصولهم على ربع الدخل السنوى للبلاد • غير أن المقيم بلى لم يتعهد بشئ فى رده على طلب الخليلى واكتفى بمراقبة الأحداث • أما إبراهيم بن قيس فقد أدرك أن الوضع ميؤوس منه وبالتالي فر إلى صحرار • وأخيراً فى أوائل شهر فبراير تدخل المقيم بلى للتخفيف من الأضرار والخسائر التى قد تتعرض لها الحياة التجارية والممتلكات فى البلاد • كما اقنع الخليلى بتسليم نفسه للسلطات بعد ان تعهد له تركى بالشروط التالية :

(١) ان لا يعتبر الخليلى مسؤولاً عن أعمال حكومة الامام عزان ، بما فى ذلك سياسة مصادرة الممتلكات ، (٢) أن يسمح للخليلى بالاقامة فى أى منطقة يختارها من عمان على شرط محافظة تركى على حياته حتى وصوله إلى مكان اقامته الجديد ، (٣) ان تبقى جميع الممتلكات فى أيدي أصحابها الحاليين ، (٤) ان تعتبر كافة الطلبات والدعاوى ساقطة ، (٥) ان يتكفل تركى بن سعيد بالانفاق على جيش الامام عزان ، (٦) على ان يسرى هذا الاتفاق على جميع أفراد حكومة المحافظين واتباعهم ، (٧) أن يضمن المقيم بلى تنفيذ بنود هذا الاتفاق (٩١) •

وعلى الرغم من كل هذه الضمانات فان الاتفاقية لم تنفذ • وفى شهر مارس سنة ١٨٧١ توفى سعيد بن خلفان الخليلى وبعد ٤٨ ساعة من

(٩١) نفس المصدر خطاب رقم ١٩/١٥٦ مؤرخ ١٩/٢/١٨٧١ من بلى الى دوق أرجيل •

وفاته لحقه ولده وسط ظروف تشير الى وجود مؤامرة • وبالتالي أعيدت
الممتلكات المصادرة الى أصحابها الأصليين (٩٢) •

ان حكم الامامة المحافظ لم يدم أكثر من عامين وربع العام • فلقد
فشلت الامامة ، كما فشلت قبلها السلطنة التي قامت فيما بين سنة ١٨٥٦
وسنة ١٨٦٨ ، لتضع عمان على عتبة عهد جديد • ولعل من الأسباب التي
عجلت بانتهاء حكم الامامة هي اعتقاد أصحابها بأنهم يستطيعون أن
يحكموا مجتمعا في القرن التاسع عشر بمفاهيم الحكم الاسلامي للقرن
السابع للميلاد • واذا كان مثل هذا الحكم ممكنا في المناطق الداخلية
النائية من البلاد ، فانه لم يكن ممكنا في الشطر الساحلي من عمان •
كما ان رغبة زعماء الامامة في فرض سلطانهم على عمان بأسرها داخلها
وساحلها ، هي التي أودت بهم الى المصير الذي انتهت اليه سياسة
الحكام المحافظين • أما الأسباب المباشرة لفشل امامة عزان فتعزى الى
سوء الادارة المالية واقتصاد المنطقة الساحلية ، بالاضافة الى السياسة
الخارجية ، كما والى الخلافات السياسية الخطيرة التي كانت تمزق صفوف
العصبة الدينية الحاكمة ، واخفاقها في كسب العناصر الغافرية الهامة الى
صفوفها كشركاء في ادارة دفة الحكم ، واخيرا الى تخلى القبائل الهناوية
تدريجيا عن تأييدها ، وذلك من خلال محاولة رجال الحكم فرض حكم صارم
على عمان • وكما كان الحال بالنسبة الى سلطنة سالم عند سقوطها ،
كذلك كانت الامامة في لحظاتها الأخيرة بغير انصار أو مؤيدين ، فقد
تخلى عنها أكثر المؤيدين والموالين لها من الناحية النظرية •

(٩٢) التحفة ، تأليف السالمى وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٤٩٢ وخطاب
رقم ١٧٠ بتاريخ ١٨٧١/٥/٢٧ من وى الى بلى وخطاب رقم ٨١/٩٧٣ مؤرخ
١٨٧٥/٩/١ من روس الى سالسبورى •

الفصل التاسع

اعادة بناء الحكم المعتدل

١٨٧١ - ١٩٠٣

لم يئته الاضطراب وعوامل القلق التي اقترنت بتاريخ عمان بعد سنة ١٨٥٦ باستعادة تركي للسلطة وعودة السلطنة اليها في شهر فبراير سنة ١٨٧١ . ولم تظهر على النظام المعتدل بوادر الاستقرار الحقيقي قبل سنة ١٨٧٦ . وحتى بعد هذه الفترة تعرض حكم تركي لتحديات خطيرة . ورغم هذا فان حكم تركي يعتبر من المنعطفات الهامة في تاريخ عمان من حيث أنه شهد اعادة بناء الحكم المعتدل على أسس جديدة . وعلى الرغم من طول الفترة التي استغرقتها عملية البناء فان السلطنة اعتمدت فيها على الأسس التي كان معمولا بها أيام السيد سعيد ، فلقد أخذ الحكم يعتمد على حكومة الهند البريطانية في عملية تجديده . وكان ثمن الاعتماد على دولة أجنبية ، خضوع عمان للسيطرة البريطانية ، وهي سيطرة لم تكن تعتمد على الأسس القانونية بقدر ما كانت تعتمد على أساس الامر الواقع . وعلى أي حال فقد تعرض هذا الاتفاق لتحد عنيف عند تولي السلطان فيصل للحكم في سنة ١٨٨٨ حيث كان الاخير يفضل اعتماد البلاد على نفسها ، كما كان يؤمن بقدرته الذاتية على السير في طريق مستقل ومتحرر من الوصاية البريطانية ، ولم يدرك السلطان تركي حقائق الوجود السياسي البريطاني في عمان الا في السنوات الأولى من هذا القرن . ففى سنة ١٩٠٣ اقتنع فيصل بصواب السياسة التي كان يسير عليها والده تركي . وبالتالي فإن جانباً كبيراً من الاطار الأساسي للحكم وتكتيكاته في

عهد تركى قد انتقلت الى حكومة السلطان فيصل ولا تزال سارية المفعول حتى يومنا هذا • أما الآن ، كنتيجة لانتهاء النفوذ البريطانى فى المحيط الهندى ، وانبثاق روح الاستقلال الجديدة بين العرب بمن فيهم سكان الخليج ، وازاء احتمال تدفق الأهوال على خزينة مسقط من عائدات النفط ، فان عمان سوف تشهد من غير شك تغييرات هامة فى جهازها خلال السنوات القليلة القادمة •

حكم تركى بن سعيد ١٨٧١ — ٨٨

كان تركى فى عامه الثلاثين عندما تولى الحكم فى عمان • وكان ذا بشرة سمراء وقامة فارعة بحكم كونه مزيجا من أم حبشية ووالد عظيم كالسيد سعيد بن سلطان • وكان رقيق الحاشية ، لبقا ومتحررا ودبلوماسيا فى تعامله ، كما كان شديد التمسك بالدين • وكان لهذه الصفات دور كبير فى الشعبية الكاسحة التى كان يتمتع بها حتى آخر يوم من حياته • وقد تولى تركى منصب محافظ صحار فى أيام حكم والده السيد سعيد وظل فى هذا المنصب الى ان عزله واعتقله ثوينى سنة ١٨٦١ • لقد اشرنا سابقا الى اتفاق تركى مع أخيه ثوينى ، ومحاولته التى كادت أن تنجح لإطاحة أخيه السلطان سالم فى سنة ١٨٦٧ ، وقبوله النفى الاختيارى الى الهند سنة ١٨٦٧ ، ثم اخيرا الى انتصاره النهائى فى الحرب ضد الامام عزان بن قيس • وخلال كل هذه المغامرات كانت شعبية تركى بن سعيد وواقعيته السياسية (وعلى الأخص تقديره للدولة البريطانية) ونشاطاته امورا واضحة كل الوضوح • ولقد واجه تركى بعد استيلائه على السلطة مشكلة تدعيم النظام • وفى سنة ١٨٧٣ عندما كان تركى من النجاح فى مهمته هذه على قاب قوسين أو أدنى ، أصيب بنوبة قلبية حادة كادت أن تقضى على حياته • ويعتبر مرض تركى خطأ فاصلا فى حياته ، اذ بعد اصابته بهذا المرض فقد تلك القوة وذلك النشاط الذى طبع المرحلة الأولى من حياته ، وأصبح أقل حسما وأكثر ترددا وسلبية فى تصرفاته

ومواقفه • وبعد سنة ١٨٧٣ استنزف المرض كل حيوية تركي وقواه • وكان المرض الذي يشكو منه هو الشلوريا ، وهو نوع من الشلل جعل تركي يسير على عكازين ، كما أثر على روحه المعنوية • وقد فكر تركي أكثر من مرة بالتنازل عن الحكم عندما كانت وطأة المرض تشتد عليه • وفي المرحلة الأخيرة من المرض فقد تركي قواه العقابية • • وكان يؤمن بالسحر ، وهي إحدى الخرافات المنتشرة في عمان • واعتقاده بالسحر كان يجعله يفقد شعوره ويغيب عن الوعي •

وعلى أي حال ورغم ما كان يشكو منه ، فإن أهم مرحلة في حياة تركي هي المرحلة التي جاءت بعد سنة ١٨٧٣ ، وهي التي بدأ التعاون فيها بين السلطان تركي والسر إدوارد روس المقيم البريطاني في الخابج ، والكولونيل مايلز ، المعتمد السياسي البريطاني في مسقط وذلك طوال الفترة التي شهدت بناء القواعد اللازمة للحكم المعتدل في عمان •

ولعل تركي شعر بأن ضعف عمان هو انعكاس لضعفه الشخصي • ومهما يكن فلقد أدرك تركي بعد سنة ١٨٧٣ أن بقاءه في الحكم والمحافظة على وحدة البلاد مرتين باعتماده على الحكومة البريطانية • ومن هنا التفت مصالح تركي بالمصالح البريطانية ، غير أن هذا اللقاء وعلى الأخص خضوعه لارادة الانجليز في قضية منع تجارة الرقيق قد كلفه الكثير وهبطت شعبيته بين رعاياه إلى حد كبير • غير أن التفاهم بينه وبين البريطانيين كان يعنى الكثير بالنسبة إليه وعلى الأخص في المواقف الحرجة التي كان يتعرض فيها حكمه للخطر ، حيث كانت تخف بريطانيا إلى الوقوف إلى جانبه ومساندته • ومن المؤكد على ما يبدو ، أن تركي لم يكن راضياً في قرارة نفسه عن هذه السياسة ، ولكن بما أن تركي لم يكن يستطيع الاعتماد على قوته الذاتية ، ول حاجته إلى الخبراء والمستشارين المخلصين من بين الطبقة العمانية الراقية ، لما لمسه تركي بنفسه من امكانيات الدولة البريطانية أثناء وجوده بالهند ، فقد اضطر إلى الاعتماد على بريطانيا اعتماداً كلياً خصوصاً في المراحل الأولى من حكمه • وكان البريطانيون من ناحيتهم

بيادلونه هذا الشعور ، حيث كانوا يتسترون به رغم انه كان في نظرهم حاكماً
ضعيفاً •

ولا يبدو ، أن الجهاز الإداري الذي أسسه تركي في عمان كان
حصيلة خطة سليمة مدروسة ، فهو لم يكن حاكماً مثقفاً • وبعد سنة ١٨٧٣
كان يفضل تمضية الوقت في الابتعاد عن العمل والخلود إلى الراحة •
وبالتالي كان الجهاز الإداري الذي استغرق انشاؤه فترة طويلة من الزمن
خليطاً من الفلسفة العملية التي تجمع بين الاجراءات السياسية التقليدية ،
ومحاولة التوفيق بين اتجاهات مختلفة ، فضلاً عن الاعتماد على المساعدة
البريطانية • كانت سياسة تركي تقوم على تقادي المشاكل قبل وقوعها ،
وخلق الأجواء التي تجنب الدولة إعداد الحملات التأديبية ، وأخيراً الاحتفاظ
بالدور المتزايد للسلطان في شؤون البلاد ، وعلى أي حال ، فقد كانت
الطريقة التي تعمل بها أجهزة الحكم بعد سنة ١٨٧٣ انعكاساً للموقف
السلبى الذي أرغم عليه السلطان بعد مرضه ، وهو موقف يتناقض
مع ما كان يتمتع به من حيوية ونشاط في أول عهده بالحكم (١) •

• البداية المضطربة لحكم تركي بن سعيد ، ١٨٧١ — ١٨٧٦ •

إن ما بدا من مظاهر القوة على حكومة تركي في أول عهدها بالسلطة
في شهر فبراير ، كانت في معظمها مظاهر خادعة • وإذا كان تركي قد تقلد
زمانم السلطة بالفعل ، وسيطر على كل من مسقط ومطرح ، وسيطر
أنصاره من القبائل على كثير من المعازل الداخلية ، كما وقع ميناء صور
في قبضة السلطان ، فإن تأييد هؤلاء الأنصار لم يكن تأييداً خالصاً
وإنما نظير المكافآت والعطاءات السخية التي أغدق بها عليهم ، فضلاً
عن رغبتهم بالتخلص من حكومة عزان التي كانت تتدخل بكثرة في شؤونهم •

(١) المعلومات عن حياة وسلوك تركي بن سعيد كثيرة ومتفرقة • انظر
على الأخص كتاب لوريير مجلد ١ ص ٥١٧ — ٥٢٢ •

أما بعد سنة ١٨٧٣ فقد بدأ التكتل الذي وصل بتركي إلى مقاليد السلطة في التفكك ، بعد أن توقفت الأموال ، واختفى العدو المشترك للتكتل من الوجود • وبما أن المصدر الذي كان يمول حركة تركي ابن سعيد لخلع الإمام والاستيلاء على الحكم لم يعد له وجود ، وبما أن تركي لم يكن في أوائل عهده ملماً بالشؤون المالية • فقد تعذر عليه الاحتفاظ بالنجاح الذي حققه في بداية حكمه •

لقد أخذ تركي يواجه خصوماً وأعداء كثيرين • فعلى الرغم من انهيار قوة المحافظين وضعفهم وتمزق شملهم ، فانهم لم يتحطموا نهائياً • وكان السلطان تركي في نظرهم شخصاً متمرداً اغتصب الحكم من حكومة شرعية • كما كان إبراهيم بن قيس ، شقيق الإمام الراحل ، لا يزال يسيطر على صحار والجزء الأكبر من مقاطعة الباطنة التي تعتبر منذ أواخر القرن الثامن عشر مصدر القوة لعائلة هذا الزعيم • كما كان هناك فيصل بن حمود الذي كان من مؤيدي الإمام عزان وكان يربط في قلعة الرستاق المطلة على ساحل الباطنة ، بينما كان صالح بن علي لا يزال يسيطر على مقاطعة الشرقية • فضلاً عن عدد كبير من قبائل الهناوية التي لم ترضخ لتركي • هذا بالإضافة إلى المؤامرات التي أخذ يحوكمها أقرب أقرباء السلطان لاغتصاب الحكم بدلا من الالتفاف حول البطل الجديد للاباضيين المعتدلين • وكان على رأس هؤلاء سالم بن ثويني نجل السلطان السابق الذي كان يحوكم المؤامرات من منفاه في جزيرة كشم للعودة إلى السلطة • كما كان بين الطامعين في الحكم عبد العزيز بن سعيد • الشقيق الأصغر للسلطان تركي • غير أنه من حسن حظ تركي أن بعض قبائل العافرية احتفظت بتأييدها للسلطان الجديد (١) •

ومن الواضح أن الخطر المباشر على حكم تركي بن سعيد كان يتركز

(١) التحفة للسالمى ج ٢ ص ٢٧٧ ولوريمر ج ٢ ص ٤٩١ - ٩٣ •

في تكتل قوى المحافظين في مقاطعة الباطنة بزعامة إبراهيم بن قيس • ولا شك بأن أول عمل كان على تركي أن يقوم به بعد استيلائه على مسقط ، هو حشد ما بقي لديه من إمكانات لتطهير مقاطعة الباطنة من المعارضين لحكمه والاستيلاء على صحار • وفي يونيو سنة ١٨٧١ تحركت حملة تركي ولكنها فشلت بالفشل بسبب نضوب الخزينة من المال • وكان (٣) • هذا الفشل بداية لثلاث سنوات عصيبة ، لم يقدر لجهود تركي النجاح طرق بابيه في سنة ١٨٧٤ عندما سير حملة مسلحة بمساعدة الانجليز لأخضاع المتمردين •

بعد فشل محاولة يونيو سنة ١٨٧١ رأى تركي أن يتجنب الإجراءات السافرة لتصفية نفوذ إبراهيم بن قيس فقد فضل أن يعمل عن طريق الوسائل الدبلوماسية وعن طريق المؤتمرات للقضاء على خصمه الذي كان يستند على تجمع قوى القبائل التي تؤيده • فقد وافق تركي على مشروع بتقسيم السلطة في عمان فيحتفظ إبراهيم بن قيس بالسيطرة على صحار وبقيّة ساحل الباطنة حتى بلدة الخابورة • والواقع أن هذا التقسيم من حيث المساحة أكثر من اعتراف بالأمر الواقع • وعلى أي حال فلقد تصور تركي أن اتفاقه هذا مع إبراهيم سوف يمزق التكتل الحلفي بقيادة إبراهيم ويثير ضده العناصر المتطرفة من الأباضيين الذين يعتبرون أي التقاء مع سلاطين عمان المعتدلين ضرباً من الخيانة (٤) • وفي شهر يونيو سنة ١٨٧١ بعث تركي برسالة إلى المقيم البريطاني في الخليج تطرق فيها إلى تحالف إبراهيم بن قيس مع شيخ أبو ظبي زايد بن خليفة ، وكان أقوى شيوخ ساحل عمان في ذلك الوقت • ولقد نجح هذا الخطاب في تحريك

(٣) نفس المصدر ص ٢٧٧ — ٢٧٨ ورسالة رقم ٨٧٣ بتاريخ ١٩٨١/٧/١٧ من بلي الى دوق أرجيل •
(٤) خطاب مؤرخ ١٨٧١/٨/٦ من تركي بن سعيد الى وي ، وقد ورد كمرفق للخطاب رقم ٨٧/٩٨٧ — ١٨٧١/٨/٩ من بلي الى دوق أرجيل •

المقيم للضغط على زايد لكي يقطع كل علاقة له بإبراهيم بن قيس • وبعد عام من هذا التاريخ توطدت العلاقة بين زايد وتركى بن سعيد بحيث عقدا حلفا فيما بينهما • ولما كان زايد يتحكم في المشارف الداخلية والشمالية للباطنة ، فقد كان لابد لكل من يزعم السيطرة على المقاطعة المذكورة بأقل ما يمكن من المتاعب ، أن يكون على علاقة طيبة بالزعيم المذكور • ومن الأهمية بمكان أن العلاقات بين مسقط وأبو ظبي ظلت على أحسن ما تكون منذ سنة ١٨٧٢. (٥) •

ولقد نجحت استراتيجيية السلطان تركى بن سعيد في تجريد خصمه إبراهيم من المؤيدين والحلفاء لدرجة أنه انس في نفسه القدرة على استئناف الحملة ضد إبراهيم في أكتوبر سنة ١٨٧١ • وقد ظلت المعركة في البداية تتطور لمصلحة الحكومة بعد أن أخذت سيطرة إبراهيم على صحار تنقلص بتقلص شعبيته فيها • كما نفذت موارده المالية في نهاية العام فاضطر إلى الحصول على الأموال من التجار الهنود المقيمين في صحار • وفي شهر ديسمبر سنة ١٨٧١ كتب الشيخ إبراهيم بن قيس إلى صالح بن علي يطلب منه المساعدة (٦) • ولقد تمخضت هذه الخطوة عن بعض النجاح ، فهاجم صالح قوات السلطان لعرقلة تقدم قوات تركى نحو الباطنة خلال معظم سنة ١٨٧٢ • وقد فسر السلطان حركة صالح ابن علي بأنها محاولة للتخلص منه وإعادة تنصيب سالم بن ثويني حاكما على البلاد ، اعتقاداً منه أن سالم لو عاد إلى الحكم فانه سوف

(٥) خطاب مؤرخ ١٨٧١/٦/١٧ من تركى بن سعيد الى بلى - وقد ورد كمرفق للخطاب رقم ٨٧/٧٠٣ مؤرخ ١٨٧١/٧/٣ من بلى الى دوق أرجيل وخطاب مؤرخ ١٨٧٢/٩/٢٠ من تركى بن سعيد الى بلى • انظر ايضا « الحدود الشرقية للجزيرة العربية » فصل ٣ للاطلاع على مراسيم تولى زايد بن خليفة سلطة الحكم في ساحل عمان خلال الفترة الأخيرة من القرن ١٩ •

(٦) خطاب مؤرخ ١٨٧١/١٢/٥ من إبراهيم بن قيس الى صالح بن علي • وقد ورد كمرفق الخطاب رقم ٢/٥٨ مؤرخ ١٨٧٢/١/١٣ من بلى الى دوق أرجيل •

يعتمد عليه وعلى غيره من الزعماء المحافظين ، بحيث يكون مجرد العوبة في أيديهم . وعلى أى حال فقد كان صالح شأنه شأن غيره من زعماء المحافظين يفتقر إلى المال لتنفيذ خطته ، ولهذا فشل الهجوم الذى شنّه على قوات تركى بن سعيد وكان لقبائل الغافرية دور كبير فى إحباط هذا الهجوم . وكان من نتيجة ذلك أن اضطر سالم إلى مغادرة عمان فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٢ وهو يجبر أذيال الخيبة والفشل ، ولم يعد إليها مرة أخرى . وهكذا صفا الجوّ لتركى بن سعيد الذى استطاع أن يعبئ كل قواه للقضاء على خصمه إبراهيم بن قيس فى صحار (٧) .

وحتى شهر ابريل سنة ١٨٧٣ لم يكن تركى قد تمكن من توجيه ضربة ساحقة الى إبراهيم . غير أنه حدث تغيير جذرى فى الأوضاع فى أعقاب هذه الفترة (٨) . فالمتاعب التى كان يعاني منها السلطان تركى تعود فى أغلبها الى أسباب مالية لانقطاع التعويضات التى كان يتلقاها عن اقليم زنجبار بسبب الخلاف على الجهة المسؤولة عن دفع تلك التعويضات . وفى سنة ١٨٧٤ حلت المشكلة بعد أن قرر السربارتل فريير مكافأة السلطان مالياً نظير توقيعه على معاهدة تحريم تجارة الرقيق . وقد فوض المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط بأن يدفع لتركى مبلغ ٤٠٠٠٠ ريال على الفور ، و ٢٠٠٠٠ ريال بعد ثلاثة أشهر من الدفعة الأولى على أن تقيد هذه المصروفات على حساب الحكومة الهندية (٩) هكذا أعاد تدفق الأموال إلى خزانة السلطان الخاوية الحياة إلى نظامه المتصدع المفلس . وبعد

(٧) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٧٩ وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٤٩٣ - و ص ٥٠٣ وكذلك خطاب رقم ٣٦/٥٦٦ مؤرخ ١٨٧٢/٣/٢٥ من بلى الى دوق أرجيل . توفى سالم بن ثوينى فى سنة ١٨٧٦ وذلك فى منفاه فى الهند .

(٨) خطاب رقم ٢٢/٥٤ / مؤرخ ١٨٧٣/٢/٨ من مايلز الى روس .
(٩) خطاب مؤرخ ١٨٧٣/٤/١٥ من فريير الى مايلز وقد ورد كمرق لخطاب رقم ٤٩/٥٧١ مؤرخ ١٨٧٣/٥/٣ من روس الى دوق أرجيل .

وقت قصير اتخذت بعض وحدات الجيش مواقعها على جميع الطرق المؤدية إلى مدينة صحار حيث التقت هناك ببعض وحدات المشاة التي ساهمت بها قبائل النعيم — وشيخا دبی وأم القيوين ، وبعض الجنود المحليين . وفي يونيو سنة ١٨٧٣ زحف بدر ابن سيف ، قائد قوات السلطان بجيشه على صحار . وبعد حصار قصير للمدينة وقصف بالمدفعية قرر إبراهيم بن قيس الاستسلام مقابل دفع تعويض اليه بمقدار ٥٠٠٠ ريال ومرتب شهري في حدود المائة ريال . وقد عين بدر محافظاً على صحار مكافأة له على النصر الذي حققه على قوات إبراهيم . كما وزعت بعض المناصب على غيره من أمراء البوسعيد في مقاطعة الباطنة . وقد بلغت تكاليف إخضاع المقاطعة ، بما فيها المكافآت المدفوعة لحلفاء السلطان من القبائل وشيوخ الساحل ثلاثة آلاف ريال نمسوى (١٠)

وفي شهر أغسطس سنة ١٨٧٣ كان يبدو وكأن متاعب تركي قد انتهت جميعها . فقد أحبطت المحاولات التي قام بها كل من صالح بن علي والسلطان السابق سالم بن ثويني . كما احتلت الباطنة . وأصبح إبراهيم بن قيس أشبه بالمسجون . كما أن تجديد الحلف مع المجموعات القبلية وعلى الأخص الغافرية قد أعاد الهدوء إلى المقاطعات الداخلية بينما خففت التعويضات التي تدفع عن زنجبار من المشاكل المالية . ولقد حدث في هذا الوقت أن داهم المرض تركي بن سعيد ، ومنذ ذلك الوقت كاد يشرف على الموت مرات كثيرة ، كما فقد نشاطه الجسماني بعد أن أصيبت ذراعه بالشلل (١١) .

غير أن خصوم تركي السياسيين لم يتركوا الفرصة تمر دون أن يستغلوها . أما إبراهيم بن قيس فقد أصبح من غير قواعد ينطلق منها .

(١٠) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٧٨ — ٧٩ رقم ٨٣/٨٨٩ مؤرخ ١٨٧٣/٧/٢٨ من روس الى دوق أرجيل .
(١١) نفس المصدر وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٢٩٥ .

وبما أن أوضاعه المالية قد تحسنت بفضل المبالغ التي قبضتها نظير تسليمه مدينة صحار لقوات تركي ، فقد توجه إلى عمه فيصل بن حمود • حاكم الرستاق • واتفق معه على تسليمه قلعتي الرستاق والحزم مقابل ٢٢٠٠ ريال وعدد من مزارع النخيل ، وقد تمخض هذا الاتفاق بين الرجلين عن اعتزال فيصل بن حمود الحياة العامة • أما إبراهيم بن قيس فقد أخذ يلوح من جديد بعد خريف سنة ١٨٧٣ باتخاذ الرستاق قاعدة جديدة للانطلاق منها في تنفيذ مخططاته ضد حكم السلطان تركي (١٢) • وقد تفاقم الوضع أكثر في شهر يناير سنة ١٨٧٤ عندما سرت إشاعة عن وفاة السلطان تركي • فلقد استغل صالح بن علي حالة الفوضى التي سادت البلاد يومئذ للقيام بمحاولة جديدة لتنصيب حمود بن عزان ، ابن الإمام الراحل عزان ابن قيس حاكماً جديداً للمحافظين • وكجزء من هذه الخطة أوعز إلى إبراهيم بأن يقوم بغارات جانبية على مقاطعة الباطنة بينما تحرك صالح على رأس قوة من الهناوية تقدر بثلاثمائة مقاتل بقيادة حمود بن عزان نحو مطرح ومسقط • ولقد نجحت هذه القوة في القضاء على حامية من المرتزقة الوهابيين بقيادة بدر بن سيف ، بعد أن تمكنت من تفادي الاشتباك مع قبائل الغافرية المرابطة عبر طريق وادي سمائل • ثم استولت على مدينة مطرح ونهبت منطقة الميناء • ولم يكن في مقدور السلطان تركي مواجهة الغزو بسبب مرضه ، واضطر إلى دفع ٦٠٠٠ ريال ومائة كيس من الأرز كرشوة لصالح بن علي مقابل انسحابه من المدينة • وبذلك استطاع تركي إنقاذ عاصمته وعرشه من السقوط • كما تعهد السلطان للمحافظين بإعادة أملاك المرحوم سعيد بن خلفان رئيس وزراء الإمامة السابق إلى ورثته والإبقاء على الممتلكات المصادرة في عهد الإمام السابق عزان في أيدي أصحابها من الهناوية وعلى الأخص قبيلة الحرث التي ينتمي إليها الشيخ صالح بن علي نفسه • كما اشترط صالح على السلطان تركي بأن يعلن عفوه عن جميع المخالفات التي قد يكون صالح ارتكبها ضد

(١٢) رسالة رقم ١٣٠٩ - ١٣٥ مؤرخه في ٤ أكتوبر سنة ١٨٧٣ •

الحكم • وهذه إهانة أخرى تضاف إلى سلسلة الإهانات التي وجهت إلى السلطان تركي • وهكذا لم يدفع تركي ثمناً من ماله وحسب بل ومن كرامته أيضاً، مما اضطره إلى طلب مقدم من الحكومة البريطانية من حساب التعويض المالى الذى يدفع عن زنجبار ، وذلك لتدعيم وضعه المالى ، غير أن الثأر لكرامته كان مهمة أشق من ذلك (١٣) •

فى هذه الأثناء كان إبراهيم قد نفذ ما تعهد به لصالح بتحريك قواته فى اتجاه الباطنة • وبعد تأليب آل سعد سكان المقاطعة الساحلية الموالين للمحافظين ضد تركي زحف على الباطنة واستولى على ميناءى السوق والمصنعة • وعلى الرغم من أن موقف السلطان تركي كان يبدو ميؤوساً منه ، إلا أن زحف قوات إبراهيم على الباطنة كان نقطة تحول حاسمة فى محاولات النظام المعتدل دعم سيطرته على البلاد • وقد حدث هذا التحول على أثر مقتل أحد التجار الهنود من رعايا الحكومة البريطانية فى سوق المصنعة على يد جنود إبراهيم ابن قيس خلال احتلالهم للبلدة • وقد جرت العادة على أن تتدخل الحكومة البريطانية إذا تعرضت أرواح أو ممتلكات رعاياها للاعتداء • وقد حافظ روس على هذه العادة • وعلى أثر ذلك ظهرت السفن الحربية البريطانية على ساحل الباطنة وقامت بقصف بلدة المصنعة يوم ٢٣ مارس ١٨٧٤ بعد أن صدرت إليها الأوامر من الكولونيل مايلز المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط • كما وجه المعتمد إنذاراً إلى إبراهيم بوقف الأعمال العدوانية ضد السلطان تركي وتخريم حلفائه بنى سعد مبلغ ١٥ ألف ريال نمسوى تعويضاً عن الخسائر التى سببها الهجوم • وهو مبلغ يعد كبيراً بمقاييس تلك الفترة • وقد قدم إبراهيم احتجاجاً على هذا التدخل البريطانى ، ولأنه شخص عملى فقد

(١٣) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٨٠ وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٤٩٥ — ٩٦ •

رأى أن يرضخ ، ولو بصورة شكلية للسلطان بمقابل إعادة المخصصات الشهرية له سابقاً وقدرها مائة ريال ، وقد عاد إلى الرسنق (١٤)

أما آل سعد فانهم لم يسلموا بسهولة ، مما اضطر إدوارد روس الذى كان قد تلقى بالفعل أوامر باتخاذ إجراء تأديبي ضد منافسى تركى . وكانت مناطق آل سعد أراضى مكتشفة لأى هجوم بحرى . فهى عبارة عن سلسلة من القرى ومزارع النخيل تمتد مسافة أربعة أميال على ساحل الباطنة . وهكذا ففى شهر يوليو سنة ١٨٧٤ وصلت إلى منطقة آل سعد سفينتان حربيتان بريطانيتان وكانت قد صدرت اليهما الأوامر بتقديم المساعدة اللازمة للسلطان إلى أقصى نقطة يمكن أن تصل اليها قذائف مدفعية السفينتين (١٥) . وفى نفس الوقت كانت قوات تركى التى أعيد تنظيمها تتحرك إلى شمال هذه المنطقة الكثيفة السكان . وإزاء هذا التفوق الساحق ، استسلمت القبيلة لشروط السلطان وما أن حل شهر يناير سنة ١٨٧٥ حتى كانت قد دفعت جميع ما كان عليها من ضرائب لحكومة مسقط فيما عدا أربعمائة ريال (١٦) . ومن يومها لم تعد الباطنة مصدراً لأى تحد عسكري من جانب العناصر العمانية المحافظة ، بل تحسنت علاقتها بالسلطنة تحسناً كبيراً . ومن المؤكد أن التدخل البريطانى المسلح فى سنة ١٨٧٤ لصالح السلطان كان العامل الحاسم فى ذلك التحول الذى طرأ على موقفهم لمصلحة السلطان . بل ربما كان التدخل العامل الحاسم فى إنقاذ حكم السلطان نفسه من الانهيار (١٧) . كما كان درساً قاسياً

(١٤) التحفة ، تأليف : السالمى جزء ٢ ص ٢٨٠ وخطاب مؤرخ ١٨٧٤/٣/٢٥ من ابراهيم بن قيس الى روس .

(١٥) برقية رقم ٢٠٨/ب مؤرخة ١٨٧٤/٦/٢ من حكومة الهند الى روس .

(١٦) رسالة رقم ٨٩٦ — ٨٧ مؤرخة ١٨٧٤/٧/٣٠ من روس الى سالىورى وخطاب مؤرخ ١٨٧٥/١/١٦ من تركى بن سعيد الى مايلز .

(١٧) رسالة رقم ٦٤١ — ٥٥ مؤرخة ١٨٧٤/٥/٢٠ من روس الى سالىورى .

لكل من خصوم تركى وأصدقائه على حد سواء • وهكذا جنى السلطان
ثمر تحالفه مع البريطانيين •

كذلك أسهم الانجليز فى الجهود التى بذلها تركى لحل مشكلة أخرى
من مشاكله المزمنة • فمنذ بداية حكمه أو بالأحرى منذ أن هاجمه المرض
فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٣ ، خفت جذوة النشاط فيه لا سيما وأنه
كان فى حاجة الى المستشارين والمساعدين الأكفاء والمخلصين • وفى ربيع
سنة ١٨٧٤ بذلت محاولات لمعالجة هذه الحالة ، بدعوة السيد عبد العزيز
بن سعيد لتحمل بعض أعباء الحكم عن تركى (١٨) وقد قبل عبد العزيز
دعوة أخيه وعين رئيسا للوزراء ، أو وزيرا بالاصطلاح العربى • وعلى الرغم
من أن عبد العزيز كان ذكيا ويتدفق نشاطا وحيوية ، الا أنه كان شخصا
طموحا أكثر من اللازم • وهو لا يختلف عن السلطان تركى فى أيام شبابه •
وقد عمل عبد العزيز مساعدا لأخيه لبعض الوقت ، الا أنه لم يكن بينهما
وفاق على الإطلاق ، حتى اضطر عبد العزيز الى مغادرة البلاد والاقامة
فى جواذر بعيدا عن أخيه • ولكنه فى عام ١٨٧١ أخذ يحوك المؤامرات ضد
تركى بالتعاون مع المحافظين العمانيين طمعا بالوصول الى السلطة • غير أن
تورطه مع المحافظين فى السياسة المعقدة ، قد انتهى نهاية غير سارة ،
وذلك بعد أن اعتقلته إحدى السفن الحربية البريطانية فى البحر وأرسلته
منفيا الى كراتشى مع تخصيص مرتب شهري له فى حدود ثلاثمائة ريان •
وبهذا الاجراء وضعت حداً نهائياً لنشاطه ضد السلطان الحاكم • كان
عبد العزيز لا يزال فى المنفى عندما تلقى دعوة أخيه تركى لتولى الوزارة (١٩)
وقد كان الوفاق سائدا بين الاخوين فى أواخر سنة ١٨٧٤ ، غير أن الخلاف
انفجر بينهما من جديد سنة ١٨٧٥ • بسبب تحيز السلطان مع بعض

(١٨) خطاب مؤرخ ١٨٧٤/٥/١ من تركى بن سعيد الى عبد العزيز بن
سعيد •

(١٩) لوريير مجلد ١ ص ٤٩٣ — ٤٩٥ و ٤٩٨ •

الانتهازيين من رجال الحاشية ، الذين حاولوا الحد من صلاحيات عبد العزيز كمستشار للسلطان ، كما ولا اعتقاد الحاكم بأن التأييد القبلي للحكم يعتمد على الهناوية وليس على الغافرية • وفي سنة ١٨٧٥ حسم عبد العزيز الموقف بتقديم استقالته • وبما أن صحة تركي لم تكن قد تحسنت حتى ذلك الوقت ولم يكن في مقدوره القيام بأعباء الحكم بمفرده • فقد وافق على تسليم كل الصلاحيات لعبد العزيز والتوجه الى جواذر للراحة والنقاهاة • وهكذا فمنذ شهر أغسطس حتى ديسمبر سنة ١٨٧٥ أخذ عبد العزيز يحكم البلاد كنائب للسلطان (٢٠) •

إن فشل سياسة تركي بن سعيد تجاه قبائل عمان هو من الأسباب التي حملته على الاعتكاف في أغسطس سنة ١٨٧٥ • لقد بدأت متاعب تركي قبل هذا الوقت بسنة ونصف وذلك عندما تخلى عنه عدد كبير من حلفائه من قبائل الغافرية ردا على التسوية التي عقدها مع صالح بن علي واعترف فيها بشرعية عمليات مصادرة الممتلكات الأهلية التي تمت في عهد الامام عزان بن قيس • وبموجب هذه التسوية انتقل جزء كبير من الممتلكات الغافرية الى الهناوية • وفي صيف عام ١٨٧٤ حاول السلطان تركي التوسط في بعض الخلافات التي نشبت بين الغافرية من سكان وادي سمايل غير أن المحاولة فشلت نتيجة لمعارضة الأطراف المعنية لهذا التوسط • وقد اشتدت الاضطرابات القبلية بعد صيف عام ١٨٧٤ ، وظلت تتفاقم خلال سنة ١٨٧٥ • كما انفجرت الحرب القبلية بين الهناوية والغافرية في نفس العام بسبب رغبة كل من القبيلتين في الاستيلاء على الاملاك المصادرة وقد سببت هذه الحرب أضرار جسيمة في الممتلكات والمزروعات ، مما جعل حكومة مسقط الخاضعة لسلطة عبد العزيز المباشرة تصبح تحت رحمة الهناوية • وقد تطورت المشكلة في صيف سنة ١٨٧٥ الى الحد الذي اضطر السلطان الى فصل حرسه الخاص من مرتقة الوهابيين والاستعاضة عنهم

بحرس من الهناوية • وهكذا تعذر على السلطان اتخاذ موقف الحياد من الصراع بين القبيلتين ، لأن الحرس كان في استطاعته التأثير على السلطان باتخاذ القرارات التي تتفق ومصلحة قبيلته • ولقد ضاق السلطان تركي ذرعا بهذه الأوضاع بحيث فكر بالتنازل عن العرش وتعيين نائب مؤقت عنه لو لم يتدخل الكولونيل مايلز في الأمر (٢١) •

لقد حكم عبد العزيز البلاد حكماً محافظاً وكان يعتمد على تأييد الهناوية ، وكان الغافرية يعارضونه بطبيعة الحال • وربما كان أغرب ما في موقف عبد العزيز هو تودده للمحافظين لدرجة أن صالح بن علي أصبح المستشار الأول للنائب ، وأخذ المطاوعة يفدون على العاصمة أفواجا ، كما كان الحال في عهد الإمام عزان ، وقد سبب هذا حرجا كبيرا لأخيه السلطان تركي • فقد بقيت القوانين السابقة كقانون تحريم الوسائل الترفيحية • ولقد استاء الإنجليز من هذا الوضع ، غير أنهم لم يتوقفوا عن دفع التعويض المالي عن زنجبار للسلطان في معتكفه بجواذر • ومعنى هذا أن تركي كان لا يزال يملك مصادر مالية كافية لتدعيم مركزه في عمان متى سمحت له حالته الصحية بذلك •

ان فترة الاستجمام الطويلة التي أمضاها تركي في جواذر قد فعلت فعلها فيه فاسترد صحته واستعاد نشاطه وروحه المعنوية ، وفي أواخر سنة ١٨٧٥ كانت صحته تسمح له بالعودة الى البلاد • ولما كان تركي يعلم أن عبد العزيز سوف يعارض عودته الى السلطة ، دخل البلاد خلسة ، وتسلم المسؤولية وذلك في شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ • وكان نائبه عبد العزيز متغيبا عن العاصمة في ذلك الوقت • ولقد كان تركي على حق في تشككه بأخيه ، إذ ما ان علم عبد العزيز بعودة تركي الى البلاد حتى جمع قوة على الفور للقيام بمحاولة لاطاحة حكم السلطان ، غير أن وصول نجدات

من الغافرية في الوقت المناسب احبط المحاولة ، وبالتالي لاذ عبد العزيز بالفرار الى الداخلية ، حيث جمع له بعض المؤيدين وتمركز في منطقة وادي سمائل • ولكن تركي وضع حداً لتهديد عبد العزيز عندما زحف في شهر فبراير سنة ١٨٧٦ على رأس جيش وارغم اخاه على الفرار من المعركة • وظل عبد العزيز ينتقل من مكان الى آخر في المنطقة الداخلية من البلاد مدة ١٤ عاماً في محاولات يائسة لتجنيد قوات جديدة لإطاحة أخيه • ويبدو أن تركي كان موفقاً في اختيار الوقت الذي يعود فيه إلى مسقط • فالصراعات والحروب الأهلية التي استمرت أشهراً طويلة قد استنزفت قوى القبائل العمانية ، مما مكن السلطان من اقرار السلام في ربوع البلاد كلها ، وبالتالي من إعادة علاقاته الودية مع حلفائه القدامى الغافرية (٢٢) •

ان استئناف تركي للحكم وتوطيده لدعائم السلم في البلاد خلال شتاء سنة ١٨٧٥ — ٧٦ ، يعتبر نهاية للفترة المضطربة الاولى من تاريخ الحكم في عمان • فقد أبدى تركي نشاطاً ملحوظاً خلال الأشهر الاولى من سنة ١٨٧٦ ، وبنهاية العام كان تركي قد أعاد تخطيط نظام الحكم بطريقة تجعله يبدو وكأنه قد تخلص من الأخطاء والاضطرابات الادارية السابقة •

الدفاع عن النظام المعتدل ، ١٨٧٦ — ٨٨

لقد عاد فابتسم القدر لتركی بن سعيد أثر استئنافه للسلطة في سنة ١٨٧٥ ، ومما أسهم في النجاح الذي حققه السلطان في السنوات الأخيرة من حكمه ، بانتعاش التجارة العمانية بعد فترة الركود التي سادتها من القرن التاسع عشر كنتيجة للزيادة في معدل الصادرات من البلح العماني الى الهند والولايات المتحدة • غير أن القلاقل السياسية لم تنته بأي حال ما بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٨٨ ، وأن كان الوضع لم يصل إلى حد

(٢٢) نفس المصدر ص ٥٠٢/٥٠٤ ، والتحفة ، تأليف : السالمي جزء ٢ ص ٢٨١ والتقارير الادارية ص ٧٥-٧٦ سنة ١٨٧٥ — ٧٦ •

الفوضى مثل ما حدث مرات كثيرة من قبل ، خلال السنوات الخمس الأولى من حكم تركى • ولقد ظل الخطر من العناصر الاباضية المتطرفة في داخلية عمان قائما ، وما بين سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٨٣ قامت هذه الفئات بأكثر من هجوم مركز على مسقط ، غير ان وجود السفن الحربية البريطانية قد افشل كل هذه الغارات •

كما ان التمزق السياسى داخل صفوف المحافظين العمانيين الذى حدث بعد سنة ١٨٦٧ قد اسهم بدوره فى دعم مركز السلطان • فب وفاة سعيد بن خلفان فقد المحافظون العمانيون زعيماً دينياً مرموقاً مما جعلهم يخسرون ما كان لهم من تأييد جماهيرى ، بينما لم يستطيعوا اكتساب مؤيدين جدد من العناصر الوطنية الهامة • وكان الشيخ محمد بن سليمان الغربى من ساحل الباطنة من أثقف الزعماء القياديين فى المعسكر المحافظ خلال السنوات الاولى من حكم تركى ، غير ان هذه الدعامة التى كان يستند عليها حكم الامام عزان فى وقت من الأوقات ، قد تحولت الى السلطان تركى (٢٣) •

وعلى الرغم من ان صالح بن على كان من أبرز الزعماء القبليين المحافظين وكذلك فيصل بن حمود ، الا أن التعاون بين هذه الفئة من الزعماء كان تعاوناً شكلياً حتى ان الجناح الاباضى المتطرف انقسم على نفسه فى سنة ١٨٧٦ الى فئات عديدة • فصالح بن على لم يكن يثق فى أى حركة أو مشروع إلا يكون تحت اشرافه ، بينما كان ابراهيم بن قيس فى أواخر أيامه يعيش على المنحة التى خصصها له السلطان تركى ، بحيث لم يكن فى مقدوره تقديم تأييد حقيقى لأى تكتل ضد السلطان (٢٤) • وحتى لو نجح هذا التجمع ، فان امكانات المحافظين وعلى الأخص بعد أن ضاعت

(٢٣) خطاب مؤرخ ٤ اكتوبر سنة ١٨٧٦ من محمد بن سليمان الغربى الى تركى بن سعيد •

(٢٤) رسالة رقم ٥٥٧-٢١٦ بتاريخ ١٢/١٢/١٨٧٤ من مايلز الى روس •

من ايديهم مقاطعة الباطنة ، لا تقارن بموارد السلطان المالية المدعمة من جانب الانجليز ، وامكاناته للبذل للقبائك • ومن ناحية أخرى لم تكن هناك دولة أجنبية حليفة للمحافظين يمكن أن تمدهم بالمساعدة ، كما كان الحال بالنسبة لتركى الذى يعتمد على التأييد البريطانى له عند الضرورة • وقد إضطر صالح بن على فى سنة ١٨٨٣ الى رهن املاكه الخاصة بمبلغ ٩٠٠٠ ريال تقريباً لتمويل عملية هجومية على مسقط (٢٥) •

وعلى الرغم من ان شعبية المحافظين العمانيين قد هبطت مستواها عما كان عليه فى الستينات من القرن التاسع عشر ، فانهم ما زالوا حتى ذلك الوقت يتمتعون بتأييد عدد كبير من العمانيين • غير ان برنامج المحافظين لم يكن يختلف فى أسسه النظرية عنه فى عهد الامام عزان الذى أيد المحافظون ثورته الناجحة ونظام حكمه • وقد ردد المحافظون نفس التهم التى وجهوها لحكم السلطان قبل هجومهم عليه فى سنة ١٨٧٧ وهى « الانحراف والتهاون فى المسائل الدينية » وهى نفس التهم التى أطلقوها على هذا النظام خلال حملتهم الدعائية سنة ١٨٦٨ (٢٦) • ولم تتغير أهداف الزعماء المحافظين من أمثال صالح بن على فى عهد السلطان تركى عما كانت عليه سابقا وهى بعث الامامة فى عمان على نمط امامة سنة ١٨٦٨ بحيث يشمل حكمها ساحل مسقط وعمان والشطر الداخلى من البلاد • وعلى أى حال ففى سنة ١٨٧٦ أخذ جيل جديد من الزعماء العمانيين المحافظين يشق طريقه الى عالم الوجود ، غير أن هذا الجيل كان يرى بأن تقتصر الامامة على الجزء الداخلى من عمان وبأن لا تضم مسقط والمدن الساحلية (٢٧) • وعندما عادت الامامة إلى السلطة بالفعل بزعامة سالم بن راشد الخروصي فى سنة ١٩١٣ اقتضرت سيادتها على الجزء الداخلى

(٢٥) رسالة رقم ١٨٢ بتاريخ ١٨٨٣/٧/٢٢ من موكر الى روس •
(٢٦) رسالة رقم ١٠ مؤرخة ١٨٧٧/٥/٤ من بريدو الى سالسبورى •
(٢٧) خطاب مؤرخ ١٨٧٩/٣/٢ من مسلم بن عبيد الى تركى بن سعيد ويشير فيه الى وجهة نظره السابقة حول هذا الموضوع •

من البلاد فقط وذلك على أثر الحملة التي قامت بها قوات حكومة الهند البريطانية لصد هجوم قام به المحافظون على ساحل الباطنة • وبهذا تمكنت من المحافظة على وجودها حتى سنة ١٩٥٥ • غير أنه منذ سنة ١٨٧٦ وحتى ١٩١٣ كان اصرار أغلبية الزعماء المحافظين على ضم مسقط ضمن أية إمارة تقوم في البلاد عاملاً أساسياً من عوامل الاستياء والتوتر بين السياسيين العمانيين المحافظين وجزءاً لا يتجزأ من أهدافهم ، أما الانجليز فقد كانوا يعارضون سيطرة المحافظين على أى جزء من الساحل العماني بالشكل الذى يمكنهم من التدخل بالقوة المسلحة لسحق أى تجمعات محافظة تطمح في بسط سيطرتها على مسقط والساحل العماني •

خلال الاثنى عشر عاماً من حكم تركى بن سعيد ، جابه بالاضافة إلى تمردين قبليين عاديين — محاولتين كبيرتين من جانب المحافظين لإطاحته • وقد اتسمت محاولتان بنفس الطابع • المحاولة الاولى تمت في سنة ١٨٧٧ عندما هاجمت قوات المحافظين مدينتى مسقط ومطرح بالف وخمسماية مقاتل بقيادة صالح بن على • ولما كان الهجوم مفاجئاً فقد تمكنت القوات المغيرة من احتلال مدينة مطرح ونهب أسواقها ومتاجرها ، غير أن مسقط استعصت عليهم وقد ظلت حاميتها المؤلفة من مائتى رجل تدافع عن المدينة حتى وصول الطراد البريطانى تيزر teaser الذى قام بقصف تجمعات القوات المهاجمة حتى أرغمها على الانسحاب • غير أن صالح بن على حاول ان يستغل الفرصة قبل انسحابه ، حيث اشترط دفع ٢٠٠٠٠ ريال مقابل الانسحاب ، الا أن تركى كان يعرف بالفعل أن قوات صالح بن على قد انهزمت ، ولهذا رفض طلبه ، وقد دعم هذا من موقف السلطان في جميع انحاء البلاد (٢٨) •

(٢٨) خطاب رقم ١٥ مؤرخ ١٨٧٧/٧/٥ من بريدو الى سالسبورى
والتحفة ، تأليف : السالى جزء ٢ ص ٢٨١ •

أما هجوم سنة ١٨٨٨ فقد وقع نتيجة لفشل تركي في رآب الانشقاقات التي وقعت في صفوف قبائل الغافرية المؤيدة له • وكانت هذه القبائل ترابط عبر الطريق الذي يمكن لأي جيش ينوي غزو مسقط أن يمر به • فقد انشق الرحبيون والندابيون عن السلطان استياء من السماح لبنى جابر ، وهم إحدى قبائل الغافرية بالانضمام الى المجموعات القبلية المرابطة في الممر ، وانضموا الى قوات صالح بن علي • وقد بذل السلطان جهودا يائسة لتهدئة خواطرهم ولكن دون جدوى • ففي شهر أكتوبر سنة ١٨٨٣ قاد صالح ابن علي بالاشتراك مع عبد العزيز ، أخ السلطان تركي من ابيه ، بعض قبائل الهناوية من الحرث ، والحبوس ، والحجريين عبر الممر المذكور ومنه انقضوا على مسقط • ولعل أغرب ما وقع خلال هذا الهجوم هو عملية تسلق السور الذي يحيط بالعاصمة • وقد قام بها ليلا مجموعة من المهاجمين يرتدى أفرادها جلابيب سوداء • واشترك السلطان تركي بن سعيد شخصيا في مقاومة المهاجمين الذين انسحبوا مخلفين وراءهم سبعين قتيلًا • وفي الوقت نفسه ونتيجة للهجوم المذكور أرسل البريطانيون الطراد فيلوميل إلى مسقط للمساهمة في الدفاع عن المدينة بعد أن تعذر على السلطان سد جميع الطرق على المهاجمين • وهكذا ساهم الطراد البريطاني في إنزال الهزيمة بقوات المحافظين (٢٩) • وقد فشلت هذه الحملة بعد وصول تعزيزات من رجال الغافرية للسلطان يقدر عددها بثلاثة آلاف مقاتل وذلك للقضاء على فلول القوة المهاجمة ، بينما تحرك الأمير فيصل بن تركي ، نجل السلطان وولي عهده على رأس قوة من ١٧٠٠ مقاتل للانتقام من القبائل التي سمحت لقوات صالح بن علي بالمرور عبر أراضيها (٣٠) • وقد دعم هذا الانتصار من مكانة السلطان تركي في البلاد

(٢٩) التحفة ، للسالمى : جزء ٢ ص ٢٨١-٨٢ وكتاب لوريير مجلد ١ ص ٥٠٨ - ٥١٢ وخطاب رقم ٣٦ مؤرخ ١٨٨٣/١١/٩ من روس الى كمبرلي •
(٣٠) كتاب لوريير مجلد ١ ص ٥٠٨-٥١٢ وخطاب مؤرخ ١٨٨٣/١١/١٢ من فيصل بن تركي الى تركي بن سعيد وقد ورد كمرفق الخطاب رقم ١٣١٣ - بتاريخ ١٨٨٣/١١/٢٦ من جاياكار الى روس •

بحيث أن مسقط لم تتعرض لأي هجوم جديد من المحافظين طوال الفترة التي بقيت له في الحكم • ومما هو جدير بالذكر ، على أي حال ، أن نشير الى تصريح سنة ١٨٨٦ الذي تعهد فيه البريطانيون بحماية سلطان مسقط مهما كانت الظروف ، فلقد أسهم هذا التصريح في خلق جو من السلام والاستقرار السياسي الذي تميز به حكم السلطان في السنوات الأخيرة • وباستثناء الحملتين الكبيرتين اللتين قام بهما صالح بن علي لم تقع اعتداءات ضد مسقط ذات أهمية فيما عدا مغامرتين عسكريتين قام بهما ابراهيم بن قيس على مدينة الرستاق ومقاطعة الباطنة في سنة ١٨٨١ وسنة ١٨٨٣ ، وأنه في كلتا الحملتين عاد ابراهيم فانسحب من المعركة عندما هددته السلطان بوقف المنحة التي تدفع اليه (٣١) •

قبل ان يوافي الأجل تركي في سنة ١٨٨٨ كان يستطيع ان يقول بأن عمان جميعها أصبحت تدين له بالولاء ومع أن حكمه لم يكن قويا ، إلا أن الولاة في عهده كانوا يسيطرون على كافة المدن الساحلية الرئيسية ، وعلى نخل وسمايك في مقاطعة وادي سمائل • كما كانت الرستاق وبعض اجزاء مقاطعة الشرقية تدين له بالولاء بين حين وآخر ، على الرغم من أن هذا لم يكن يحدث إلا في الأحوال التي تنضب فيها موارد الزعماء السياسيين في المناطق ويجدون أنفسهم مضطرين إلى طلب المساعدة من السلطان • وقد حافظت أغلب المناطق القبلية على علاقاتها الودية بحكومة السلطان من الناحية الاسمية ، هذا بالرغم من أن بعض فئات قبائل الهناوية ، كالحرس ، والحجريين ، والحبوس ، كانوا يتحالفون مع أي تكتل يهدف إلى الإطاحة بالسلطان طوال فترة حكمه (٣٢) • ويدل اعتلاء فيصل بن تركي

(٣١) لوريير مجلد ١٠ ص ٥١٦ والتقرير الإداري ١٨٨١ — ١٨٨٣
ص ١٣ — ١٥ •

(٣٢) لوريير مجلد ١ ص ٥١٠ والتقرير الإداري ١٨٧٨ — ١٨٧٩
ص ١١٦ •

للعرش بطريقة سلمية ، لم يتخللها أى صراعات سياسية على استقرار النظام فيما بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٨٨ • ولقد كانت هذه أول مرة منذ القرن الثامن عشر تتم فيها عملية تغيير حاكم بآخر بغير عنف أو اراقة دماء •

تركيب الحكم المعتدل وأساليبه الادارية : ١٨٧٦ — ٨٨

ان ما يشهد على مدى كفاءة الحكم فى عهد السلطان تركى بعد سنة ١٨٧٦ ، هو سلامة نظامه السياسى والتحسينات الادارية التى ادخلت على الجهاز الحكومى منذ اعادة تنظيمه • ومما يعزز هذا الرأى ان التدابير التى اتخذت فى عهد تركى لتنظيم الاداة الحكومية ظلت سارية المفعول حتى هذا اليوم • وكما أشرنا آنفاً فقد كان نظام تركى خليطاً من الاجراءات السياسية المدروسة والاستخدام الذكى لمقتضيات العرف والتوفيق ، إلى جانب الدعم البريطانى للنظام • ولقد مرت هذه الأساليب بتغييرات وتعديلات مستمرة عبر فترة طويلة من الزمن •

ولعل اعتماد تركى على التأييد البريطانى بشكل سافر ، هو البدعة الوحيدة التى استحدثها تركى فى سلسلة النظم الادارية التى كان يسير عليها حكام عمان المعتدلون • غير أن هذا الاعتماد على القوة البريطانية كان خطوة حتمية كبديل عن الاعتماد على النشاط الاجتماعى الملاحى والتجارى كمورد للدولة على عهد سعيد بن سلطان • أما فى عهد السلطان تركى فقد كان نمو المصالح الامبريالية البريطانية فى منطقة الخليج يسير جنباً إلى جنب مع حاجة سلطنة مسقط الى مصدر جديد لدعم ازدهارها الاقتصادى الذى كان العامل الأساسى للدولة فى الفترة التى سبقت عام ١٨٥٦ • ومن هنا كانت مصلحة كل من بريطانيا وسلطنة مسقط فى توثيق علاقاتهما المشتركة وتعميق أسس المساعدات المتبادلة بينهما • وابتداء من سنة ١٨٧٤ تعددت المساعدة البريطانية لتركى من العون العسكرى ، الى المساعدات المالية المنتظرة ، إلى حجز الزعماء السياسيين المناوئين لتركى فى الهند ، الى المساعدات الفورية لحل المشكلات الحكومية والخدمات الدبلوماسية • وفى سنة ١٨٨٦ تطورت هذه المساعدة بحيث تعهدت بريطانيا

بضمان حكم السلطان على الجزء الساحلى من البلاد ، ورفض أى تعديلات سياسية فى هذا الجزء من عمان • وكثمن لهذا التأييد وافق السلطان على السير فى ركاب السياسة البريطانية ومخططاتها حتى لو تعارض ذلك مع مصالح الأمة ، كما حدث بالنسبة إلى المعاهدة البريطانية — العمانية المعقودة فى سنة ١٨٧٣ لمنع تجارة الرقيق •

وعلى عكس السلاطين الذين جاءوا قبله كثوينى ، وسالم ، وعزان ، كان تركى ينظر الى مشاكل عمان من زاوية واقعية • فقد أدرك تركى أن الأوضاع فى عهده تختلف عن الأوضاع فى عهد السيد سعيد ، وأن السياسة التى كانت تلائم الحكم خلال السنوات العشرين الاولى لم تعد تصلح لأوضاع عمان فى أواخر القرن التاسع عشر • كما أدرك أيضا وبشكل خاص أن مصدر القوة الأساسى للحكم قد ضعف الى الحد الذى لا يمكن معه الاحتفاظ بالسلطة بالاعتماد على المصادر الذاتية وحدها • وأنه إذا استطاع أن يضمن تأييد النفوذ البريطانى لحكمه ، فإن ذلك سوف يجعل حكمه فى مأمن من تكتل القوى المناوئة له • وهكذا أصبح تركى فى التحليل النهائى على أتم الاستعداد للتعاون مع البريطانيين بشكل أو آخر مقابل ضمانهم لحكمه • وهكذا غدا مفتاح سياسة تركى هو توثيق علاقته بالحكومة البريطانية (٣٣) •

لقد أدرك تركى بأن الظروف تحتم عليه بأن يحكم البلاد بأحسن الطرق المتاحة له • وكان من بين الاسباب التى تدعو الانجليز الى تأييد تركى إقتناعهم بأنه يمثل الأمل الوحيد لتحقيق السلام والاستقرار فى

(٣٣) لوريمر مجلد ١ ص ٥٢٢ وخطاب مؤرخ ١٨٧١/٢/١٢ من تركى بن سعيد الى حاكم بومباى وقد ورد كمرفق الخطاب رقم ٣٤/١٥٤ بتاريخ ١٨٧١/٢/١٣ من بيلى الى دوق أرجيل أنظر كذلك « سياسة الهند الخارجية » ص ٢٤٠ تأليف : برساد •

ربوع البلاد (٣٤) • ولما كان الهدف الأساسي لتركى هو توفير النظام والحكم المعتدل لسكان البلاد ، فقد كانت المشاكل القبلية أهم المشاكل التى تستأثر باهتمامه اليومى • وكان لابد لتركى من الاعتماد على الجهاز التقليدى للإدارة بالرغم من أنه جهاز تدعمه الحكومة البريطانية وبمعنى أوسع فإن تركيب الحكم بكتلياته هو امتداد لشخص السلطان نفسه • ومما يصدق على أغلبية النظم الملكية الفردية ، أن وجود ملك أو رئيس وزراء يتمتع بالكفاءة والحماس على رأس الحكم ، يضمن لهذا الحكم سهولة الحركة ، ولكن مثل هذا الحكم معرض للانهييار إذا ما تهاون الملك عن واجباته • ولئن كانت السلطة فى مثل هذا النظام سلطة مطلقة وليس هناك حدود دستورية تقف عندها ، فإن سلطة تركى كانت مقيدة بقيود عمان الجغرافية ، وبتركيبها السياسى والاجتماعى ، وايدولوجيتها الدينية والفكرية ، وباقتصاديتها • ومن الجدير بالذكر أن حكومة السلطان تركى هى من نوع الملكيات الملاحية التقليدية ذات الطابع العلمانى التجارى وقد نشأت وتطورت ضمن هذا الإطار • وعلى عكس الائمة الذين يستمدون سلطاتهم من الاعتبارات الدينية ، والقيم الاسلامية ، كان نظام السلطان يعتمد على قدرة الحكم على ممارسة طاقاته السياسية البحتة ، وعلى كفاءاته ومركزه الشخصى •

قبل أن يبدأ السلطان تركى فى إعادة تنظيم أجهزة الحكم فى السبعينات من القرن كانت مسئولية الحكم قسمة مشتركة بين كبار افراد عائلة البوسعيد وكان السلطان يجمع بين منصبه كحاكم للبلاد ومنصبه كعميد للبيت المالك يستمد سلطانه عليها من أفرادها أنفسهم ، هذا رغم وجود بعض الارستقراطيين والوجهاء من القبائل العمانية الأخرى وبعض رجال الاعمال البارزين فى مسقط من أصل عمانى هندى مشترك يشاركونه

(٣٤) لوريمر مجلد ١ ص ٥٢٢/٥١٧ ومحاضر وزارة الهند ١٨٧٤/١٢/١٧ وخطاب رقم ٩/٣٦ مؤرخ ١٨٨٥/١١/٩ من روس الى كمبرلى •

المسئولية • أما الطبقات الشعبية ، فقد كان من النادر أن تتولى مناصب هامة في الدولة • ولقد حافظ تركى على هذا التقليد الى حد كبير حتى بعد سنة ١٨٧٦ ، بالرغم من أنه كان أقل اعتمادا من غيره من الحكام على أفراد أسرته في ادارة الحكم ، كما كان يستعين بخبرة ومشورة المعتمد السياسى المقيم بانتظام • وكان الكولونيل مايلز الذى يشغل هذا المنصب خلال الجزء الأكبر من فترة حكم السلطان تركى ، والكولونيل روس ، الرئيس المباشر للكولونيل مايلز فى الخليج على علاقة ودية وثيقة بالسلطان الذى كان يستشيرهما ويطلعهما أولا بأول على سير الأمور فى البلاد • وكان من الأسباب التى مكنت للنفوذ الانجليزى فى دوائر الحكم ، فضلا عن نفوذهما على شخص السلطان نفسه ، هو افتقار تركى الى المستشارين المخلصين الكفاء من أهل البلاد •

وعلى الرغم من جهود السلطان تركى — لتوثيق علاقته بأقرب أفراد العائلة ، وهى جهود كان النجاح فيها حليفه ، فقد كانت له مشاكل مع أخيه غير الشقيق ، عبد العزيز ابن سعيد ، والسلطان السابق سالم بن ثوينى وفى سنة ١٨٧٦ اضطر السلطان الى اتخاذ قرار بارسال محمد ، وحمود ، وحمدان ، أبناء أخيه ثوينى بن سعيد الى المنفى بتهمة تأمر هؤلاء مع أخيه عبد العزيز ضده • أما انجاله محمد ، وفيصل ، وفهد فقد عينوا ولاية لبعض المدن والمقاطعات الهامة ، فمحمد ، الأكبر كان محافظا لاقليم صحار من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٤ ، وبما أنه أثبت عجزا اداريا تاما فى منصبه فقد قرر والده تعيين ابنه الثانى الأصغر ، فيصل بن تركى وليا للعهد • ومن ناحية أخرى لم يكن السلطان يستطيع الاعتماد على أفراد عائلته الاقربين فى مشاركته المسئولية (٣٥) •

ويعتبر الوزير ، أو رئيس الوزراء من الناحية النظرية المستشار

والمساعد الأول للسلطان • غير أن هذا المنصب ، اذا ما استثنينا أخاه عبد العزيز بن سعيد لم تشغله أى شخصية قوية وبارزة في عهد تركي • صحيح أن ثويني بن محمد ، أحد أمراء البوسعيد الذي خدم الحكم في عهد كل من السلطان ثويني والسلطان سالم ، وفصل من منصبه في عهد الحاكم الأخير بتهمة الخيانة والفساد ، وكان أول وزير يعينه تركي في هذا المنصب ، غير أن ثويني بن محمد لم يبرهن على جدارته بهذا المنصب ، مما جعل تركي يرغب في التخلص منه قبل نهاية عام ١٨٧١ ، ويعتبر ثويني مسؤولا عن الخلاف الذي نشب بين تركي وأخيه عبد العزيز • ورغم ذلك فقد ظل تركي محتفظا بمنصبه هذا حتى أوائل سنة ١٨٧٣ ، عندما أقيـل منه بتهمة اشتراكه في حادث اغتيال ناصر بن علي محافظ مسقط • وقد توفي ثويني بعد هذا الحادث بوقت قصير ، عندما اغتاله انصار القتل ، بينما كان يسير في شوارع العاصمة ^(٣٦) • ولم يحتل منصبه شخص آخر ، فقد كان السلطان يقوم بعمل الوزير بنفسه الى أن داهمه المرض في شهر أغسطس سنة ١٨٧٣ • وبخلو البلاد من وزيرها وسلطانها أخذت الحكومة تسير على غير هدى ، الى أن تم تعيين عبد العزيز بن سعيد رئيسا للوزراء في ربيع سنة ١٨٧٤ • غير أن انانية عبد العزيز كرئيس للوزراء وكوصى على الحكم حتى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، لابد وأنها أسهمت في تدمير السلطان من مساعديه البوسعـيـديـن •

ولقد وجد تركي أخيرا ضالته المنشودة في شخص سعيد بن محمد ، أحد أفراد الأسرة الحاكمة ، وشقيق الوزير الأسبق ثويني بن محمد ، ومن رجال الحكومة القدماء • وبما أن سعيد كان من المقربين الى السلطان منذ بداية حكمه ، فقد عين وزيرا مساعدا للسلطان بمجرد استئناف تركي مهام الحكم في البلاد في ديسمبر سنة ١٨٧٥ •

(٣٦) نفس المصدر ورسالة رقم ١٤٠/١٢٣٤ مؤرخة ١٨٧١/١١/١ من بيلي الى دوق أرجيل •

وكان سعيد بن محمد يتمتع بجميع المؤهلات اللازمة لرجل الحكم ، وعلى الأخص أنه قد امضى الجانب الأكبر من حياته العامة في خدمة السلطان • وعلى الرغم من أن سعيد لم يكن رجل أفكار بنوع خاص بحيث يمكن الاعتماد عليه في تزويد الحكم بأفكار جديدة إذ من الواضح أن هذه المهمة يقوم بها رجال حكومة الهند البريطانية المعتمدين لدى حكومة السلطان — إلا أنه كان رجلاً مخلصاً في عمله ويحسن تنفيذ الأوامر التي تصدر إليه من السلطان • وعلى كل فقد كان سعيد نموذجاً لذوى المناصب العليا في حكومة السلطان • وكان أول عمل تولاه في حكومة مسقط هو منصب مساعد لشؤون التموين والنقل في حكومة السلطان ثويني • كما تولى منصب والي مسقط في عهد تركي قبل نقله الى منصبه الجديد • وكان شخصاً محبوباً من الانجليز لأنه كان يؤمن بالتعاون معهم • ولعل الشيء الوحيد الذي كان يقض مضجعه هو خلافه مع بدر بن سيف ، أحد المساعدين للسلطان تركي وكان بدر صديقاً حميماً للسلطان وقائداً عاماً للجيش • وفي أواخر أيامه اعفى سعيد بن محمد من عمله وأمر بنفيه إلى كشم ، بعد أن اتهمه بتعاطي « اعمال السحر » غير ان الوزير عاد لشغل منصبه بعد انتقال الحكم إلى فيصل بن تركي في سنة ١٨٩٦ (٣٧) •

ان اتهام تركي لرئيس وزرائه بممارسة السحر يعتبر دليلاً على المعتقدات التي كانت تسيطر على تركي وتتحكم في تصرفاته ، وعلى الأخص خلال نوبات المرض التي كانت تفاجئه • فقد كان تركي في أواخر أيامه ، وعلى الأخص بعد ان تدهورت صحته في سنة ١٨٧٣ يثق كثيراً في شخص يدعى نميش ويتاجر بالقصب • وهو شخص عديم الاخلاق لا ضمير له ومن نوع راسبوتين وكان يدعى معرفة السحر • وكان يتقاضى مرتباً شهرياً مقداره ١٥ ريالاً • وقد طرد أخيراً ، ولكنه بعد ان جمع ثروة طائلة تقدر

(٣٧) التقرير الاداري ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ص ٧٥ — ٧٦ والتقرير الاداري ١٩٠١ — ١٩٠٢ ص ١٠ — ١١ وخطاب رقم ٧٢/٥٦٣ مؤرخ ١٨٧١/٦/٥ من بيلي الى دوق ارجيل •

بنحو ٤٠ ألف ريال عن طريق الرشوة والنفوذ • وحتى بعد أن تولى عبد العزيز رئاسة الوزارة في سنة ١٨٧٤ احتفظ نميش بمركزه عند السلطان ، ولم يعتزل الا عندما عين عبد العزيز وصياً على الحكم في أغسطس سنة ١٨٧٥ • وعندما عاد إلى مسقط في شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ نصحه مستشاروه البريطانيون بعدم الاعتماد على اشخاص مثل نميش الذي كان يستغل غياب السلطان وميوله السوداوية واحساسه بالوحدة (٣٨) •

وإلى جانب رئيس الوزراء كان للسلطان بعض المستشارين الخصوصيين والمصطادين في الماء العكر • من هؤلاء بدر بن سيف الذي كان يتولى قيادة جيش السلطان في أغلب الأوقات ، كما عمل محققاً ووالياً على اقليم صحار ما بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٨ ثم والياً على مطرح بعد سنة ١٨٧٩ • ومنهم سليمان بن سويلم ، أحد عبيد السلطان الافريقيين وقد وصل إلى منصب السكرتير الخاص للسلطان ، كما شغل منصب الوالى في عدد من المناطق المضطربة كصور وظفار في الجنوب العربى وقد ضمت مؤخراً إلى ممتلكات السلطان تركى (٣٩) • ان مكانة سليمان بن سويلم الشخصية ونشاطه يصوران لنا المرتبة التى يكن أن يرقى إليها الافراد الكفاء ، بصرف النظر عن وضعهم الطبقي •

أما الحاشية فقد كانت تتألف من موظفى الدرجة الثانية في حكومة السلطان كالوزراء المساعدين ، أو المرافقين المستشارين الخصوصيين للحاكم • ويضم الجهاز المركزى للحكومة مجموعة متغيرة من المكاتب يخضع كل مكتب منها للإشراف المباشر لأحد السكرتارية أو الاداريين (٤٠) •

(٣٨) خطاب رقم ١٢١/٣٥٧ مؤرخ ١٨٧٣/٧/١٦ من مايلز الى روس وخطاب رقم ٥٢/٦٠٦ مؤرخ ١٨٧٥/٦/١١ من روس الى سالسبورى •

(٣٩) لوريير مجلد ١ ص ٥١١ والتقارير الادارى ١٨٧٥ - ١٨٧٦ ص ٧٥ - ٧٦ •

(٤٠) التقرير الادارى ١٩٠١/١٩٠٢ ص ١٠-١١ •

ولا نقصد من هذا ان نرسم صورة مكبرة لواقع التنظيم الادارى لجهاز الحكومة ، إذ ان هناك أنواعاً كثيرة متعددة من الوظائف التى كان يشغلها عدد من الأفراد كانت تحظى برضى الحاكم فى فترة ما ومشكلة إيجاد وتوظيف رجال أكفاء للمهام الادارية بشكل فعال كانت من المشاكل العويصة التى يواجهها الحكم . ومن المؤكد ان العلاقات العائلية كانت تلعب دوراً رئيسياً فى تحديد المؤهلات الوظيفية . ومعظم ذوى الوظائف الحكومية الهامة كانوا من فئة الطبقة العليا للمجتمع أو من العائلة المالكة ، أو من العائلات التى تناصر حكومة البوسعيد المعتذلة . كما كان هؤلاء بدوهم يعتمدون على مستخدميهم الخصوصيين . وبما أن التعليم فى البلاد يقتصر على تعليم مبادئ الدين ، فإن التدريب على الشؤون الإدارية والعسكرية يتم فى إطار العمل . وفضلاً عن ذلك فإن تعدد واجبات المسؤولين فى الحكومة يجعل تحديد هذه المسؤولية غير وارد على الإطلاق . وهذا النوع من النظام الادارى الذى يعتمد على أفراد الطبقة الحاكمة وحدها ، والتى لا تتمتع بأى مؤهلات فنية نظام محدود . ولهذا كان السلطان مضطراً إلى الاعتماد على الجالية التجارية الهندية فى مسقط فى إدارة الشؤون المالية . كما كان مضطراً أيضاً إلى اتباع سياسة متقلبة تجاه منافسيه السياسيين ، وتجاه رجال القبائل والاطماع العائلية التى كانت الشغل الشاغل لمساعديه . ان تركى كغيره من رجال الحكم الذين سبقوه أو خلفوه كان يواجه مشاكل كثيرة فى محاولاته لتنظيم قواعد الجهاز الادارى ضد طبقة عنيدة . كما ان سعيد بن محمد وبدر بن سيف ، على الرغم من ولائهما للسلطان تركى ، وبصرف النظر عما فيهما من عيوب ، كانا افضل العناصر المسؤولة فى السلطنة وبالتالى فليس مما يثير الدهشة أن يعاشر تركى أشخاصاً مثل نميش ، أو من ناحية أخرى ، ان يعتمد فى تقرير مصيره المجهول على مشورة حلفائه الأوفياء والاكفاء — مستشاريه البريطانيين .

أما فيما يتعلق بالادارات الاقليمية للدولة التى كانت ترجع فى أمورها إلى حكومة السلطان ، فقد كانت أكثر تعقيداً من الادارة المركزية .

إن معظم المدن الساحلية العمانية كان يحكمها ولاية يعينهم السلطان ، وكان كل من هؤلاء ينفذ أوامر السلطان وفقاً لكفاءاته وامكانياته واتجاهاته السياسية . وكان عدد كبير من هؤلاء الولاة من أفراد أسرة البوسعيد الحاكمة ، وكانوا يعتبرون المناطق التي يتولون عليها بمثابة إقطاعيات وراثية . أما من الناحية الشكلية فقد كان الوالى يحكم بالنيابة عن السلطان ويجمع في يده سلطات القائد العسكرى ، والبوليسى ، والقضائى والمالى فى نطاق الاقليم الذى يحكمه وكان أبرز منصب فى مناصب الولاة الأقليميين منصب والى مسقط ، غير أن الذى يشغل هذا المنصب يكون عادة ، وربما بسبب قربه من السلطان ، أقل استقلالاً من غيره من الولاة . وبعد منصب والى مسقط يأتى منصب والى مطرح ووالى صحار فى الدرجة الثانية من الأهمية . كما تعد ولايتا ظفار وسمايل من المناصب المهمة . أما منصب والى صحار فيعتبر من أصعب مناصب الولاة فى عمان . ويعمل تحت امرة هذا الوالى ولاة مساعدون فى كل من صحم ، ولوى ، وشناص فضلاً عن غيره المسؤولين الذين يشرفون على المراكز العسكرية المتقدمة ، أو الواقعة عبر الممرات الاستراتيجية فى سلسلة جبال الحجر المؤدية إلى الباطنة . وفى كثير من الأحيان لا تتعدى سلطة الوالى حدود البلدة أو المنطقة التى يحكمها . أما فى المقاطعات الريفية فلنفوذ الوالى أهمية بالقياس إلى نفوذ شيوخ المنطقة القبليين . وقد يعترف السلطان لإحدى القبائل بسلطة فعلية على منطقتها أو قد ينعم على أحد حلفائها القبليين البارزين بتعيينه والياً على المدينة الرئيسية لإحدى المقاطعات (٤١) .

وتتراوح المهام الادارية لحكومة السلطان فى عمان من عملية المحافظة على الأمن ، الى تأمين العدالة ، إلى توفير الأموال وصرفها على مختلف وجوهها . أما السلطات الإدارية للسلطان فكانت مقصورة على

(٤١) لوريير مجلد ٢ ص ١٤١٨ — ١٤٢٥ .

مسقط ومطرح ، وبعض مدن الساحل ، والمناطق البعيدة من السلطنة كسمائل ، وجواذر ، وبلوشستان وصلاله ، وظفار ، أما في المناطق الريفية ، أو الخاضعة للسلطة القبلية ، فإن نفوذ السلطان عليها لم يكن في أحسن صورة نفوذا مباشراً وإنما عن طريق الشيوخ وأكابر القبيلة . أما دور السلطان نفسه فقد كان في أغلب الاحوال دور إيجاد توازن سلمى بين هذه المناطق بحيث يترك أمر الادارة الفعلية للمناطق لرؤسائها القبليين .

وبالنسبة للمدن والمقاطعات المدنية الخاضعة للسلطان ، فإن المحافظة على الامن من اختصاص حرس الولاية ، بينما يتولى رجال السلطان البت في القضايا الجنائية والمدنية . والسلطان هو المرجع الأعلى للاستئناف في القضايا المذكورة . بينما تحال قضايا القتل والجنايات الشخصية على السلطان للبت فيها إذا تيسر ذلك . والقتل هو الجريمة الوحيدة التي تصدر فيها أحكام الاعدام ، ويتم تنفيذ هذا الحكم وفقاً للطريقة التي يستخدمها القاتل ضد القاتل . وقد تصدر احكام الاعدام في بعض الجرائم السياسية كالخيانة الوطنية ، غير ان الجرائم السياسية لا يحاسب عليها القانون . أما الجرائم الصغيرة ، فالولاية هم الذين يحكمون فيها ، عن طريق القضاة . غير أنه لا توجد هيئات محاكم ، وترفع الاحكام التي تصدر في مثل هذه القضايا إلى السلطان . ولا يوجد في عمان قانون مكتوب إذا استثنينا القرآن ، هذا بالرغم من وجود بحوث كثيرة في القانون الاباضى ، يرجع اليها القضاة المتصلعون في القوانين الدينية . ويتم الفصل في القضايا وفقاً للتفسيرات المحافظة او المعتدلة للشريعة وذلك بحسب اتجاهات القضاة الذين ينظرونها . وقد تخفف الاحكام في حالة الأخذ بالتفسيرات المعتدلة للنصوص القرآنية . ومن

(١٢) نفس المصدر : وابن رزيق ص ٣٨١ و « تقرير حول زنجبار » من وثائق سجلات حكومة بومبي (١٨٦١) ص ٦ — ٧ والتقارير الادارى ١٨٧٥/١٨٧٦ ص ٧٤ وخطاب رقم ٢٣٣ مؤرخ ١٨٨٤/٨/١٨ ميلز الى روس .

العادات المألوفة في عمان استخدام الرشوة كوسيلة للتأثير على الأحكام الشرعية • ويشرف على تطبيق الاعراف في المناطق القبلية رؤساء القبائل بالتعاون مع اكابر رجال القبيلة • ولا يتدخل السلطان الا نادراً في هذه الاحكام • وعلى أى حال ففي القضايا المعقدة ، أو النزاعات القبلية ، يحال الأمر إلى القاضي المختص ، بينما يتوسط السلطان أو نائبه في النزاعات الداخلية للمناطق القبلية • أما الجرائم الاخلاقية فعقوبتها الجلد ، بينما يفضل الطرف المعتدى عليه التعويض المالى بدلا من السجن • ولا توجد في عمان سجون حديثة ، بل يلقي بالمحكوم عليهم في زنزانات داخل إحدى القلاع • وعلى المسجونين ان يقوموا بتوفير الطعام لأنفسهم ، وباستثناء المعتقلين السياسيين من ذوى الأهمية ، فان حياة السجناء في عمان بوجه عام ليست بالقسوة التى هى عليها في بعض بلدان الشرق الاوسط • ويطلق سراح السجناء إذا كان من المواطنين إذا أمضى في السجن أكثر من عام ولا يبقى فيه حتى يموت • وحتى سنة ١٨٧٠ كانت المحاكم البريطانية هى المحاكم التى تنظر في القضايا التجارية والمدنية ، لأن الجالية الهندية في عمان جالية لها نفوذها هناك وأفرادها يتمتعون بحكم وضعهم هذا بامتيازات إقليمية تعفيهم من الترافع امام المحاكم المحلية (٤٢) •

ولما كان نفوذ السلطان على رؤساء الحكومة وقدرته على فرض أوامره يتوقفان على كمية الأموال التى تحت تصرفه ، فقد كانت إدارة المالية من أهم الادارات الحكومية • وكان السلطان يستعين في إدارة الشؤون المالية بجماعة الولاة ، وغيرهم من المسؤولين الحكوميين وعلى الأخص فئة التجار ورجال الأعمال • وكان مصدر الدخل الرئيسى للدولة في أواخر القرن التاسع عشر ، شأنه شأن الفترات التى سبقتة من ضريبة العشر أو الرسوم الجمركية التى تستوفى على الواردات • وعلى الرغم من أن نسبة الضريبة هى ١٠ بالمائة الا أنها في الحقيقة لم تكن تزيد على ٥ بالمائة من سعر السلعة وهى الحد الأقصى المسموح به وفقاً للمعاهدات التجارية

المعقودة بين سلطات حكومة مسقط والدول الغربية في منتصف القرن التاسع عشر • وعلى عهد السيد سعيد بن سلطان كانت إدارتا الجمارك في مسقط ومطرح تحصلان على نسبة كبيرة من الدخل الحكومي : فقد بلغت حصيلة دخل الجمارك عام ١٨٤٠ — ٢٤٠٠٠٠ ريال نمسوى (٤٣) • وعلى أى ففى عام ١٨٧٦ لم يكن معدل دخل الجمارك يزيد على ١١٠٠٠٠ ريال نمسوى ، واستمر الدخل محتفظاً بهذا المعدل طوال ما بقى من فتوة حكم السلطان تركى ، وذلك بالرغم من الهبوط المستمر فى قيمة الريال النمسوى (٤٤) • أما عملية إدارة الجمارك وجمع الضرائب الجمركية فقد كان يعهد بها إلى أحد التجار المقاولين على أسناس التعاقد السنوى نظير دفعه مبلغاً معيناً من المال للخزينة • وكان يتولى هذا الامتياز بدون استثناء أحد كبار التجار الهنود • غير ان المسئوليات والارباح المترتبة على هذا الاتفاق يترك فيها فى الحقيقة عدد من البيوت التجارية الهندية الكبرى فى مسقط • وخلال معظم فترة القرن التاسع عشر كان محل رتنسى برشوم هو الذى يتولى الامتياز (٤٥) • وكان السلطان يحصل على إيرادات ضخمة من جمركى مسقط ومطرح • ولقد حاول السلطان إنشاء ادارة جمركية فى ميناء صور ، غير ان دخل هذا الميناء لم يزد على ٥٠٠٠٠ ريال فى السنة • كما ان السلطة السياسية للسلطان فى صور لم تكن قوية بحيث تمكنه من فرض ضرائب جديدة على أهل البلاد • بالإضافة إلى هذه الإيرادات كان السلطان يحصل على إيراد صاف يتراوح بين ٢٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ ريال نمسوى من دخل ميناء جواذر (٤٦)

(٤٣) من وثائق سجلات حكومة بومباى ٨٥٦ ص ٦٣١ •

(٤٤) التقرير الادارى ١٨٧٥/١٨٧٦ ص ٧٧ ••

(٤٥) « Precs Slave » ص ١٨ والتقرير الادارى ١٨٨٧ — ١٨٨٨

و ١٨٩٧ — ١٨٩٨ •

(٤٦) لوريير جزء ٢ ص ١٤٢٢ — ١٤٢٥ وخطاب رقم ٢٥ مؤرخ

١٨٧٨/٧٣ من مايلز الى روس •

ومن الشروط التي يلتزم بها المتعهدون هي تقديم القروض للسلطان متى دعت الحاجة • وكان التجار الهنود هم الذين يقدمون القروض عادة سواء للحكومة أو للأفراد • وبالإضافة إلى ذلك هناك الاقساط السنوية التي تدفعها حكومة زنجبار لمسقط • وقد اضطرت حكومة مسقط في سنة ١٨٨٤ إلى أخذ قرض من حكومة زنجبار قدره ٣٢٠٠٠ روبية لتغطية العجز في ميزانيتها وبسبب المتاعب المالية التي كان يعاني منها السلطان تركي حتى أصبحت القروض ركناً هاماً من أركان مالية الحكم وأحد المميزات للنظام المالي للسلطان تركي (٤٧) •

وإلى جانب هذه المصادر توجد ضريبة الزكاة كأحد المصادر الغنية للدخل ، وهي نوع من الضريبة تستوفي على المحصولات الزراعية في عمان • وبما أن حكومة السلطان لم تكن تستوفي ضريبة الزكاة من أغلب المناطق القبلية ، فقد فرض السلطان ضريبة صادرات تستوفي من المنتجات الزراعية للمناطق القبلية والداخلية التي تصدر إلى الخارج عن طريق ميناء مسقط ومطرح • ولقد بذل السلطان تركي محاولات مستمرة لرفع نصيبه من هذه الرسوم ، حتى أنه قرر في سنة ١٨٨١ رفع معدل ضريبة الزكاة من ٢ بالمائة إلى ٥ بالمائة ، الأمر الذي أثار تذمراً واسعاً في صفوف القبائل • ومن الواضح أن هذه الضريبة كانت • تستوفي بطريقة عشوائية • إذ أن مجموع ضرائب الزكاة عن سنة ١٩٠٠ العينية وغير العينية ، لم تزد على نحو ٦٢٠٠٠ ريال ، لم يدخل خزانة الدولة منها أكثر من الربع (٤٨) •

وأخيراً هناك ضريبة بيت المال • ويعتبر بيت المال في الدول الإسلامية التقليدية عادة الخزينة المركزية للدولة ، أو مجموع دخل الدولة على اختلاف مصادره • أما في عمان فكانت ضريبة بيت المال تعنى حصيلة

(٤٧) خطاب مؤرخ ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٧ من تركي بن سعيد إلى روبرتسن •

(٤٨) لوريير مجلد ١ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ ومجلد ٢ ص ١٤٢٠ — ١٤٢٢ •

إيجار الأراضي والمباني والمؤسسات الحكومية • ولم يزد إيراد حكومة تركي من هذه الضرائب على ١٢٥٠ ريالاً في العام في الأحوال العادية (٤٩) • فضلاً عن ذلك كانت حكومة تركي تحصل على بعض الأموال من الغرامات وغيرها من الرسوم التي فرضتها الحكومة في محاولاتها للتخفيف من حدة العجز المالي • وفي سنة ١٨٧٢ صدر أمر بتحصيل رسم ريالين من ربابنة السفن أثناء دخولها ومغادرتها ميناء مسقط • كما بدأ في سنة ١٨٧٧ تحصيل رسوم ميناء ، كما فرض أيضاً رسم على عمليات وزن الشحنات التي ترسل إلى خارج البلاد • كما أخذت الحكومة تستوفي رسماً تأديبياً من القبائل المناوئة عن صادراتها ووارداتها (٥٠) •

وعلى أي حال فقد كان أهم مصدر لإيراد حكومة السلطان هو « مساعدة زنجبار » والتعويض المالي الذي تدفعه بالاشتراك مع حكومتا لندن وكلكتا بعد سنة ١٨٧٣ • وبعد سنة ١٨٨٣ أصبحت حكومة الهند — الانجليزية هي المسؤولة عن دفع هذا التعويض • وبما أن دفع هذه المخصصات يتم بالعملة الهندية — وهي الروبية • فقد كانت حكومة السلطان هي المستفيدة من ذلك إذ على الرغم من هبوط سعر الروبية بعد سنة ١٨٧٣ • فهو لم يكن ينخفض انخفاضاً مفاجئاً كانخفاض سعر الريال النمساوي • وفي سنة ١٨٧٣ كانت القيمة الرسمية لمخصصات زنجبار تعادل ٨٦٠٠٠ روبية أو ٤٠٠٠ ريال • وكان يقيد لحساب السلطان كل عام • وبما أن المبلغ كان يدفع للحكومة بالعملة الهندية وهو يعادل ٨٥٠٠ جنيه استرليني ، فإن قيمته الفعلية في سنة ١٨٧٥ لم تكن تزيد على ٧٩٠٠ ج • س • وقد انخفضت القيمة الفعلية لهذه المخصصات في سنة ١٩٠٠ إلى ٦٦٠ ج • س بسبب انخفاض سعر التبادل للعملة التي تدفع بها ، وكان من

(٤٩) نفس المصدر مجلد ٢ ص ١٤٢٣ — ١٤٢٤ •

(٥٠) نفس المصدر ص ١٥٢٣ — ١٥٢٤ •

المحتمل ان تزيد نسبة الانخفاض في قيمة المخصصات الحقيقية ، لو كان الدفع قد تم بالريال النمساوي .

كان للانخفاض المستمر في قيمة الريال النمساوي في الفترة الواقعة بين ١٨٧٥ و سنة ١٩٠٠ أهميته السياسية البالغة في عمان . فقد واجه السلطان فيصل بن السلطان تركي مشاكل كثيرة من جراء ذلك الانخفاض ترتب عليه معالجتها . كما كانت الظروف تدفع السلطان تركي نفسه من وقت إلى آخر ، وعلى الأخص في الفترة الأخيرة من حكمه إلى الاعتماد على القروض لمواجهة نفقات الحكم . ومن المحتمل ان يكون مجمل الدخل السنوي عن سنة ١٩٠٠ بما فيه إيرادات الأملاك الخاصة نحو ٣٠٠.٠٠٠ ريال ، أو ما يعادل ٢٤٠.٠٠٠ ج . س .^(٥١) وهي أعلى نسبة وصل إليها الدخل وبما ان سعر الريال النمساوي كان يزيد بمعدل الضعف بالنسبة لسعر التحويل للجنيه الاسترليني عن سعر سنة ١٩٠٠ ، فان دخل حكومة مسقط في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر كان يقدر بحوالي ٤٥٠.٠٠٠ ج . س . سنوياً بالنسبة إلى قوة الشراء الدولية ، ومن ناحية أخرى تؤكد هذه الأرقام أهمية مخصصات زنجبار التي كانت تدفع لحكومة مسقط . ففي أوائل الثمانينات كانت نسبة هذه المخصصات تمثل سدس دخل البلاد الحقيقي ، إلا أن هذه النسبة عادت فارتفعت إلى الخمس في سنة ١٩٠٠ . ومن الواضح ان حاجة السلطنة إلى وجود علاقات وثيقة لها مع الانجليز كان موقفاً يمليه عليها وضعها المالي ، والذي بدونه لم تكن تستطيع أن تحقق أي نوع من الاستقرار المالي .

ومن الطبيعي ان تكون الامكانيات المالية عاملاً أساسياً من عوامل النفوذ السياسي في مجملته . وبالتالي فان انخفاض قيمة العملة أوائل الستينات قد أسهم الى حد كبير في تعقيد الأمور ، لأنه كان يحد من قدرة

(٥١) نفس المصدر مجلد ٢ ص ١٤٢٠ — ٤٢٢ تقرير أوتافى التجارى لسنة ١٩٠١ من سجلات الحكومة الفرنسية .

السلطان على تلبية بعض المطالب • وكان الدخل السنوى للسلطنة يوزع على بنود كثيرة : النفقات الحكومية ، وتشمل المصروفات العسكرية : المرتبات ، والرشاوى ، ومعاشات التقاعد ، ومخصصات القبائل ، كما وعلى النفقات الخاصة ، كديوان الحاكم ومصروفات العائلة المالكة الخاصة وكان صرف الأموال يتم وفقاً لأوامر السلطان ، ويبدو أنه لم يكن هناك حد فاصل بين النفقات الخاصة والنفقات الرسمية • وكانت المصروفات في أغلب الأحوال تزيد على الإيرادات ، وكان يتم تغطية العجز عن طريق القروض ، وتأجيل تسديد الديون الحكومية (٥٢) •

كان البند الرئيسى فى نفقات الحكومة هو البند الخاص بالمصروفات العسكرية وشؤون الأمن ، وعلى الأخص المناطق القبلية الكثيرة ومشكلة اقرار السلام والوثام فيما بينها • ويعتبر السلطان القائد العام للقوات المسلحة ، هو كثيراً ما يضطر الى الاشراف شخصيا على المعارك الحربية وقيادتها • ويساعد السلطان فى المحافظة على النظام اقلية كبار مساعديه وولايته • ورجال الحاشية الإداريين ، إذ ليس هناك فارق بين التنظيمات المدنية والعسكرية فى الدولة (٥٣) •

ويزيد عدد أفراد الجيش النظامى على ألف رجل موزعين فى هيئة فصائل تقوم بحراسة الحاميات الموزعة على البلاد توزيعاً استراتيجياً • وعلى الرغم من بهالة تكاليف الاحتفاظ بهذه الحاميات ، إلا أنها تعتبر هامة لكونها تتحكم ببعض المقاطعات والطرق التى تربط بين أنحاء البلاد على اختلافها • كما أنها تمثل رمزاً لسلطان الحاكم وبالتالي انعكاساً

(٥٢) لوريمر مجلد ٢ ص ١٤٢٢ — ١٤٢٤ •

(٥٣) المعلومات الخاصة بالجيش والبوليس لحكومة مسقط خلال اواخر القرن التاسع عشر مبشرة ضمن مصادر كثيرة • راجع على الأخص نفس المصدر ص ١٤١٨ — ١٤٢٥ و « تقرير اوتافى التجارى » ١٩٠١ من سجلات الحكومة الفرنسية مجلد ٢ ورسالة رقم ٥٧/٥ بتاريخ ١٥/١/١٨٧٥ •

لمركزه في البلاد • وحتى لو تمكنت أى قوة معادية ان تتفادى هذه الحاميات فسوف يكون من الخطر عليها وجود حاميات مثلها خلف خطوطها • فضلا عن ذلك فان هناك شبكة من المخابرات الفعالة تؤدي دورها خارج هذه المعاقل • ويشغل بعض هذه المعاقل المهمة عساكر السلطان ، بينما تتولى القبائل الحليفة للسلطان حراسة المعاقل الاخرى مقابل مخصصات تتقاضاها عن هذه الأعمال • وتعتبر حاميتا مسقط ومطرح أكبر هذه الحاميات ويشغلها ما يقرب من ٣٠٠ جندي أما المراكز فلا يزيد عدد الحراس فيها على ٣٠ شخصا •

والسواد الأعظم من قوات مسقط النظامية هم من العساكر الذين ليست لهم ارتباطات قبلية في عمان • وفي عهد السلطان تركي كان نحو ٤٠٠ من هؤلاء العساكر من الوهابيين سكان الحسا ونجد ، ونحو ٢٥٠ شخصا من حضرموت في الجنوب العربي ، ونحو ١٠٠ من طائفة البلوش سكان مقاطعة مكران على خليج عمان ، بالاضافة الى عدد من الافريقيين • أما العمانيون فلم يكن عددهم يزيد على ٢٥٠ رجلا • ويتقاضى الجندي مرتبا شهريا يتراوح بين ٣ و ٥ ريالات نمسوية • وتتكون الوحدات الكبيرة من هؤلاء الحرس من نحو ٢٠ جنديا يترأسهم عقيد أو رقيب (جاويش) كما يترأس الحامية ضابط برتبة جمادار يتقاضى من ٢٠ الى ٣٠ ريالا في الشهر • وتكاد رتبته تعادل رتبة الكابتن (يوزباشي) • وكان السلطان تركي يتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية خلال المعارك التي كانت تنتشب في عهده ، أو يعهد بذلك الى أحد انجاله أو الى أحد القواد أمثال بدر بن سيف • وفي جميع الحالات فان جند السلطان جنود مرتقة لا يحاربون من أجل قضية ، كما أن تدريبهم العسكري في أحسن الظروف تدريب محدود •

ون ناحية أخرى فان جنود السلطان ينقصهم التسليح • وفي عهد السلطان ثويني كان قسم من الجنود يرتدى بدلة شبه أوربية بجاكيت أحمر على غرار بدلة الجندي في الهند ، غير أن مثل هذه البدلات لم تكن

تستعمل في عهد السلطان تركي • وكان هؤلاء الجنود مسلحين ببنادق حديثة الأمر الذي يجعلهم متفوقين على القبائل المعادية التي لم تكن تملك مثل هذا السلاح • غير أن هذا التفوق لم يستمر عندما أصبحت مسقط في التسعينات مركزا لاستيراد البنادق الأوروبية الصنع التي كان يعاد تصديرها الى مناطق كثيرة في جنوب آسيا ، الأمر الذي مكن القبائل العمانية من التسليح بالأسلحة الحديثة • وكان لدى السلطان تركي بعض المدافع القديمة يعود تاريخها الى أيام البرتغاليين • وكان يشرف على سلاح المدفعية طاقم من المدفعيين الإيرانيين ، وبالرغم من أن معظم هذه المدافع كان في الحاميات الجبلية ، فإن عدد مدافع الميدان لم يكن يزيد على اثنين • وربما كان هذان المدفعان هما اللذين أهداهما البريطانيون للسلطان ثويني في سنة ١٨٦٤ • كما كان في جيش السلطان وحدة تموين لتزويد القوات بالذخيرة والطعام ، وهي تستعمل الجمال في أعمالها • وعلى العكس من القوات القبلية ، لم يكن يسمح لأفراد قوات السلطان بالاقامة أو التواجد خارج منطقة العمل بقدر الامكان وبالأخص خلال العمليات •

كان الأسطول العمانى في عهد السيد سعيد كبيرا جدا ، إلا أنه بسبب تقسيم الامبراطورية العمانية سنة ١٨٥٦ ، فقد أخذ هذا الأسطول يتناقص بسرعة • ولم يبذل السلطان تركي أى مجهود لإحياء الأسطول العمانى وإعادة مجده اليه • وفي سنة ١٨٧٢ كان لدى السلطان سفينتان حربيتان شراعتان قديمتان ، من بقايا أرماذا السيد سعيد ، وهما ملتان والرحمانى ، غير أنه استغنى عنهما في سنة ١٨٧٥ • وفي أواخر السبعينات أراد السلطان شراء سفن تجارية من الانجليز ، غير أن طلبه هذا قد رفض • وأخيرا في أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر أهدى سلطان زنجبار وشقيق تركي بن سعيد لحكومة مسقط يخته الملكى ، دار السلام • وبإضافة هذا اليخت الى السفينة « السلطانى » التى تنازلت عنها حكومة زنجبار سنة

١٨٨٦ لمسقط ، تعززت امكانات الأسطول العماني فيما يختص بعملياته الساحلية (٥٤) .

أن الحروب الأهلية التي خاضتها عمان كانت سببا من أسباب تدميرها . فخلال الحرب بين الهناوية والغافرية في سنة ١٨٧٥ دمر من مزارع النخيل ما يربو ثمنه على ٥٠٠٠٠ ريال ، وهي خسارة لم تتمكن عمان من تعويضها (٥٥) . وأثناء الحرب التي خاضها « ولي العهد » فيصل بن تركي في منطقة وادي سمايل سنة ١٨٨٣ دمر قسم كبير من الممتلكات الأهلية ومزارع نخيل بأكملها . كما فرضت على القبائل المتمردة غرامة قدرها ٢٠٠٠٠ ريال (٥٦) كما كلفت الغارات على المدن والأحياء الآهلة البلاد ثمنا باهظا (٥٧) . وفي كثير من المناسبات ، حاول زعماء عمان وقادتها الروحيون التوسط في المنازعات التي تنفجر وتهدد البلاد والعباد ، وذلك حقنا للدماء . ويعتبر فصل الحصاد أفضل الفصول لشن الغارات والحروب الأهلية في عمان (٥٨) .

ويتضح من سجلات الحكومة أن امكانيات السلطان الحربية لم تكن تسمح له باخضاع البلاد كلها لنفوذه . فقد كان هذا النفوذ من الناحية العملية يرتبط بمدى قدرته على كسب تأييد عدد ملحوظ من قبائل البلاد الرئيسية وعلى الأخص التي تقيم في المناطق الاستراتيجية من البلاد ، كوادى سمايل ، كما ساعد على ذلك استعداداه وبراعته في تسوية الخلافات

(٥٤) لوريير مجلد ١ ص ٥١١ - ٥٢٠ وخطاب رقم ١٥٥ مؤرخ ١٨٧٢/٣/٢٢ .

(٥٥) خطاب رقم ٢١٨/٢١٩ بتاريخ ١٨٧٥/٢/٢٠ من روس الى سالسبوري .

(٥٦) خطاب مؤرخ ١٨٨٣/١١/١٢ من فيصل بن تركي الى تركي بن سعيد وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٣١٣ مؤرخ ١٨٨٣/١١/٢٦ من جايكاك الى روس .

(٥٧) خطاب رقم ٥١ بتاريخ ١٨٨٧/١٢/١٣ من روس الى هارتنجتون .

(٥٨) التقرير الاداري سنة ١٩٠٠/١٩٠١ ص ١٤ .

بين سكان المناطق القبلية • وبما أن الهدف الأساسي لكل حاكم هو اقرار الأمن والمحافظة على النظام • فنقد اكتشف تركي بن سعيد بان هذه المهام بالنسبة اليه تعنى طبيعة العلاقة بينه وبين هذه القبائل • ونحن اذا القينا نظرة الى هذا النوع من العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، يتضح لنا أنه لا يمكن لمثل هذا الحاكم الاحتفاظ بالحكم ، الا بإعتماده على حلفائه من القبائل • أما القبائل نفسها فقد كانت تحرص على استقلالها الذاتى أشد الحرص ، وكانت تعارض وترفض أية محاولة من جانب السلاطين أو الأئمة لفرض نفوذ مباشر عليها • وبالتالي فان كسب رضا هذه القبائل وإقناعها بتأييد الحاكم والوقوف الى جانبه عند ظهور أى خطر ، والاعتراف به كسيد أعلى وقبول قراراته واحكامه فى النزاعات الداخلية والصدامات الأهلية يعتبر أفضل تكتيك لاستقرار الحاكم ونجاح سياسته • وعلى ضوء هذه الاعتبارات فإن سلطة الحاكم العمانى فى المناطق القبلية من البلاد لا يتعدى سلطة الحكم ، وممارسة النفوذ ، وفرض النزاعات الداخلية من رجال القبائل • أما إدارة المناطق فهى من اختصاص زعماء القبائل أنفسهم • ولا مجال للاعتقاد أن العمانيين كانوا ينتوقعون من حكامهم سلاطين كانوا أم أئمة أن يحكموهم على أساس المفاهيم الغربية الحديثة (٥٩) •

كما ليس فى وسع السلطان أن يفرض ما يشاء على التكتلات القبلية لأنه لا يملك القوة العسكرية الكافية ، ويعتبر ناجحا اذا استطاع تحقيق هدفه بالوسائل السلمية • غير أنه فى جعبة السلاطين أسلحة متعددة أشد فتكا من القنبلة والمدفع • فلكى يحافظ السلطان على مركزه بين القبائل ، ويحتفظ بولائها له ، فقد كان يضع نفسه تحت تصرفها لحل أى نزاع ينشب بينها ، وينفق بسخاء فى هذا المجال ، كما كان يعفى القبائل

(٥٩) انظر « رمال العرب » ، تأليف تيسيجر ص ٣٢ وفيه تحليل عن العلاقة بين حاكم عربى ورعاياه من رجال القبائل •

أحيانا من الضرائب في سبيل دعم تحالفه معها ، أو لتسوية بعض الخلافات ، ولا يلجأ السلطان الى الضرائب التأديبية والقيود التجارية الا كحل أخير ، وحتى تدرك هذه القبائل فائدة الاتحاد بالمقارنة الى الصراع • وعندما يقرر السلطان اللجوء الى القوة بعد فشل المحاولات السلمية ، فقد كان يحرص على أن يكون قراره مدعوما من القبائل الموالية له • غير أن السلطان لم يكن يلجأ الى القوة العسكرية الا نادرا • وتعتبر مالية السلطان في عرف العمانيين دعامة نفوذه السياسي ، ولئن كان في وسع زعماء عمان القبليين أن يكونوا من أنفسهم قوة عسكرية لا تقبل عن قوة السلطان ، واذا كان بينهم من هو أبرع في الأمور السياسية فإنه لم يكن يوجد بينهم من يعادله في الامكانيات المالية • فقد لا تنجح الوسائل والأسلحة دائما في تحقيق الأهداف ، بينما في مقدور المال أن يحل المشاكل ولو حلا مؤقتا فبالمال يمكن كسب ود معظم القبائل وتأييدها سواء كان تأييدا حقيقيا أو اسميا فقط • والواقع أن عددا كبيرا من زعماء القبائل كان يتلقى من وقت الى آخر مخصصات مالية من السلطان تسلم اليهم عن طريق عامل السلطان مكافأة لهم على تأييدهم وولائهم للحاكم •

ولا تعتبر سياسة الحاكم سياسة ناجحة الا اذا استطاع الاحتفاظ بمركزه بين القبائل وهذا لا يتحقق للحاكم الا اذا كان يتمتع بأخلاق وسجايا شخصية ممتازة • فشخصية الحاكم عامل هام في بلد تقوم العلاقة فيه بين الحكومة وعدد من زعماء القبائل شبه المستقلين على أسس شخصية • كما أن الحاميات الرمزية في بعض القلاع ، والمخصصات والمنح الرمزية التي ينعم بها السلطان على بعض الشخصيات ، الى جانب الاجراءات الرمزية لحل الخلافات القبلية ، انما هي كلها تعبير عن القوة ، أكثر مما هي اعلان أو مظهر لسلطة الحاكم (٦٠) •

(٦٠) رسالة رقم ٢٢٥ مؤرخة في ١٨٨٤/٩/١٥ ورسالة رقم ١٣٩ مؤرخة في ١٨٨٥/٥/١٠ •

وحتى لو اعتبرنا السياسة في عمان ، على ضوء هذه الآراء ضربا من الألعاب التي يجيدها الحكام ، فانه لابد من الاشارة الى بعض الخطوات القوية التي كان يقوم بها السلطان تركي لتنفيذ سياسته العامة . لقد كانت سياسة السلطان في بعض مناطق البلاد الهامة تعبيرا عن نفوذه وإلا انهار حكمه . ولعل منطقة وادي سمائل أهم مقاطعة عمانية تقع خارج عاصمة السلطان ، لأن هذا الوادي والممرات المتفرعة منه تشكل الطريق الرئيسي الذي يربط منطقة مسقط بمقاطعات عمان الداخلية . ومن هنا كانت الضرورة تحتم أن يركز السلطان جهوده السياسية الرئيسية لاقرار السلام بين مختلف القبائل في هذه المنطقة ، والمحافظة على ولائها لاحتياط أي هجوم تشنه القبائل الأخرى ضد الحكم عبر وادي سمائل (٦١) . لهذا درج السلطان على تخصيص منح لعدد من قبائل الغافرية ، سكان هذه المنطقة ، والاحتفاظ بحامية في سمائل تحت قيادة أحد الولاة الأكفاء كما كان يدير شبكة واسعة من شبكات التجسس ونقاط المراقبة للتحذير من أي هجوم محتمل . أما حين تخفق كل هذه الاحتياطات فلا شيء يمكن أن يسد الطريق على القبائل الداخلية في أي عملية انقضاخ قد تقوم بها على الساحل للغزو والنهب (٦٢) .

غير أن السلطان تركي كان أكثر دبلوماسية وحكمة في معالجة المشكلة القبلية عبر مراحل حكمه . أما في بداية حكمه فقد أهدر تركي أموالا طائلة على زعماء القبائل دون تحقيق مكاسب سياسية (٦٣) . وما أن حل عام

(٦١) تقرير اداري سنة ١٨٨٣ - ١٨٨٤ ورسالة رقم ١١٤٠ - ١١٨ مؤرخة ١٨٧٣/٩/٤ من روس الى دوق أرجيل ورسالة أخرى رقم ١٨٢ بتاريخ ١٨٨٣/٧/٢٢ من موكر الى روس ورسالة رقم ٢٧٩ بتاريخ ١٨٨٣/١٠/٥ من مايلز الى روس وفي الرسالتين الأخيرتين اشارة الى الفشل السياسي الذي منى به السلطان في منطقة وادي سمائل ، وكان توطئة للهجوم على العاصمة .
(٦٢) رسالة رقم ٣٦ مؤرخة ١٨٨٦/٢/١٦ من حكومة الهند الى كمبرلي .
(٦٣) لوريمر ص ١٤٩٩ من مايلز الى روس ١٦ أكتوبر ١٨٧٤ رقم ١٨١-٤٤٩ مسقط سجلات الهند ٢ مجلد ٢٥ .

١٨٧٥ حتى كان تركى قد أفاد كثيراً من الدروس ووضحت أمامه صورة الخط السياسى الذى ينبغى أن يسير عليه فيمابقى له من أيام فى الحكم . أما بالنسبة للقبائل الداخلية فقد اكتفى تركى بالولاء الاسمى منها نظير بعض المكافآت . كما عقد مع بعض هذه المجموعات أحلافاً بالفعل ، من هذه المجموعات العبريين سكان الظاهرة والجنبة وبنى بو على فى جعلان وبنى جابر ، والندابيين ، والرحبيين ، وبنى رواجه والسياسيين ، سكان وادى سمايل . وكانت حامية المصنعة فى الباطنة تستخدم حرساً من بنى رواجه . وعلى العكس من ذلك أنفق السلطان بعض الأموال كمساعدات قدمها لبعض السياسيين المحليين المناوئين لخصومه ، خصوصاً العناصر المعادية لصالح بن على (٦٤) . وعلى العموم كان تركى ، باستثناء الفترة التى كان عبد العزيز يتولى فيها الوزارة والوصاية على الحكم ، أكثر ميلاً الى الغافرية منه الى الهناوية وكان عدد كبير من هؤلاء محافظين فى تفكيرهم السياسى ولم يحاول تركى مصاهرة أى قبيلة من القبائل الموالية الهامة ، لأن البوسعيد يفضلون الزواج من قبيلتهم نفسها . وقد كان هذا التقليد عاملاً هاماً فى توثيق الروابط بين أفراد الأسرة على اختلافها . وعلى سبيل المثال فقد تزوج تركى من كريمة ابن عمه حمد بن سالم واليه فى المصنعة ومن الشخصيات التى تتمتع بتأييد سكان هذه المنطقة ، وذلك لتدعيم مركزه بين قبائلها وسكانها .

لقد سبق أن أكدنا على استغلال السلطان تركى لموارده المالية من أجل الحفاظ على مركزه السياسى فى البلاد فقد كان كل من زعيمى الندابيين والرحبيين يتلقى مخصصات شهرية من السلطان تبلغ نحو ٣٠ ريالاً فى الشهر ، فضلاً عن الهدايا التى كانا يحصلان عليها منه وذلك

(٦٤) من روس الى سانسبورى ١٩ اغسطس ١٨٧٤ — رقم ٩٤٤ — ٩٢ سجلات الهند ٢ مجلد ١٧ ومن مايلز الى روس ١٦ يناير رقم ٢٦ مسقط وسجلات الهند ٣ مجلد ٤ .

مقابل قيامهما بحراسة قمرين صغيرين يربطان مقاطعة الشرقية التي يقيم فيها صالح بن علي ، بمنطقة وادي سمايل (٦٦) . وفي عام ١٨٨١ نجح تركي في إحباط محاولة لاثارة الاضطرابات في المنطقة نفسها مقابل رشوة مالية مقدارها خمسمائة ريال لوجهاء المنطقة (٦٧) . كما قدم السلطان رشوة إلى بعض معارضيه ونجح في كسب تأييدهم ووقف نشاطهم المعادي ضده . وبعد سنة ١٨٨٣ وافق السلطان على دفع خمسين ريالاً كل شهر إلى صالح بن علي ، ومايتي ريال لعبد العزيز كمخصصات شهرية بشرط محافظة هذين الزعيمين على العلاقات السلمية مع السلطان . كما لعب المال دوراً كبيراً في وقف نشاط الزعيم ابراهيم بن قيس في الرستاق بعد عام ١٨٧٥ (٦٨) . وعلى أي حال فقد حاول كثير من العمانيين استغلال هذا الكرم حيث أخذ بعض شيوخ القبائل يطلقون بعض الاثاعات المعادية للحكم طمعا في الحصول على بعض المال والهدايا من السلطان (٦٩) . وفي معظم الخطابات التي كان يبعث بها زعماء القبائل في عمان لم يكونوا يغفلون فيها طلب المال . فان أعرض السلطان عن إجابة تلك الطلبات فإن ذلك قد يعطى انطبعا غير محمود عنه وقد يسيء إلى مركزه وهيئته الشخصية ، لأن هؤلاء الشيوخ لم يكونوا يتصورون أن المال يمكن أن ينضب في خزينة السلطان . ولعل العبارة التي خاطب بها أحد هؤلاء الشيوخ السلطان تؤكد هذه الحقيقة فقد قال له « إن الفلوس ليست شيئاً عندكم » (٧٠) .

-
- (٦٦) خطاب رقم ١٢٦ مؤرخ ١٨٨٣/٥/٢٩ من موكلر إلى روس .
(٦٧) تقرير إداري سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ ص ١٣ - ١٥ .
(٦٨) نفس المصدر ص ١٢٧ سنة ١٨٧٧/٧٨ وص ١٣ - ١٥ سنة ١٨٨٢/٨٣ .
(٦٩) نفس المصدر ص ١٢٧ سنة ١٨٧٧/٧٨ .
(٧٠) خطاب مؤرخ ٩ أكتوبر سنة ١٨٨٣ من الشيخ محمد بن ناصر الرواحي إلى تركي بن سعيد .

وكان السلطان تركي يحاول تطويل أجل المحاولات التي يقوم بها لتسوية الخلافات التي تنتشب بين القبائل الى أبعد حد ممكن ، لأنه كان يدرك أن تسوية الخلافات أقل تكاليف من إرسال الحملات العسكرية للمحافظة على السلام وعلى سلطة الحكم • وعلى الرغم من أن مسؤولية حفظ الأمن بين القبائل كانت تقع على عاتق ولاية المقاطعات أنفسهم ، غير أن هؤلاء لا يملكون شيئاً من القوة العسكرية أو المال للقيام بمثل هذه الأعمال • وكانت الخلافات القبلية تعرض على السلطان الذي وضع أصولاً وقواعد خاصة لحسم هذه الخلافات • فقد كان يوفد أحد المبعوثين الى الأطراف المتنازعة ، مزوداً بالصلاحيات اللازمة لتسوية الخلاف ، وفي حالة إخفاق المبعوث في مهمته فإنه يحاول عقد هدنة بين الأطراف المتنازعة ريثما يتم الوصول الى تسوية عامة • وقد يستغل السلطان فترة الهدنة هذه للقيام بدراسة للوضع ، أو لايفاد لجنة استقصاء ، يتبعها دعوة الى أطراف النزاع بالاجتماع به في العاصمة أو في أي مكان آخر يتم الاتفاق عليه ، وهو غالباً ما يكون منطقة النزاع نفسها ، وعن طريق ما يجتمع لدى السلطان من حقائق ومعلومات ، تتم تسوية النزاع بعقد صلح بين الأطراف المتنازعة • أما فيما يتعلق بالنواحي الشرعية للخلاف فيستفتى في ذلك علماء الشريعة وتتخذ آراؤهم • أما اذا لم تنجح كل هذه الوسائل فإن السلطان ينفذ يده من النزاع ويترك القبائل وشأنها تقاثل بعضها البعض • غير أن السلطان لا يلبث في هذه الحالة أن يعيد المحاولة بعد مضي فترة من الوقت • أما إذا كان السلطان وحده طرفاً في النزاع ، فإنه يطلب إلى الانجليز التوسط في الموضوع (٧١) •

وكان السلطان يعمد إلى فرض الضرائب والغرامات التأديبية على القبائل المتمردة عليه كضغط عليها لقبول التسوية ، أو لإثبات سيادته

(٧١) خطاب رقم ٣٥٠ — ٣٣٥ مؤرخ ١٨٧٥/٣/٢٠ من روس الى

سالمسبوري •

الاسمية عليها • ففي سنة ١٨٧٤ حكم السلطان على آل سعد بدفع غرامة ١٥٠٠٠ ريال لاشتراكهم في حركة تمرد ضده كما فرض على الهناوية الذين غزوا مسقط في سنة ١٨٧٧ ضريبة تأديبية وقيوداً تجارية كجزء من الاجراءات التي وضعها تركي لمعالجة هذه المشكلات (٧٢) •

وعن طريق مثل هذه الاجراءات نجح السلطان تركي في توطيد سيطرته على أغلبية المدن والمعازل الكبرى في عمان • ومن المتفق عليه ان سلطة تركي على المناطق الداخلية من البلاد لم تكن فعالة ، وأنها كانت تعتمد على تعاون زعماء القبائل مع نظام حكمه •

ومن الاجراءات التي كان يستعين بها تركي لتوطيد نفوذه في عمان ، هي تركيز الجهود اتدعيم وتوسيع نطاق حكمه في الممتلكات العمانية فيما وراء البحار كجواذر وظفار • وقد ضمت جواذر الواقعة على ساحل بلوشستان إلى ممتلكاته منذ سنة ١٧٩٤ ، وبقيت تحت نفوذه حتى استردتها باكستان في سنة ١٩٥٨ مقابل تعويض • وكانت متاعب السلطان في جواذر تتلخص في خوفه من مهاجمة القبائل المحلية لها ، غير أن هذا لم يعد يحدث بعد أن ضمت بريطانيا أغلبية منطقة بلوشستان إلى نفوذها في سنة ١٨٨٦ (٧٣) • أما مقاطعة ظفار فقد ضمها السلطان تركي في سنة ١٨٧٩ عن طريق مبعوثه الخاص سليمان ابن سويلم الذي أوفده إلى حلالة وكان السيد سعيد قد احتل هذه المقاطعة لفترة مؤقتة في سنة ١٨٣٩ • وقد اتخذت حكومة مسقط هذا الاحتلال ذريعة لاسترجاع سلطانها على المقاطعة ، وعلى أي حال فقد كان كل من دواة القعيطي في الجنوب العربي والعمافيون تراودهم

(٧٢) رسالة رقم ٢٨٤ مورخه ١٨٧٧/٧/١٨ من روس روبرتسون الى بريدو •

(٧٣) لوريير مجلد ١ ص ٦٠٢ — ٦٢٢ ظلت جواذر تابعة لسلطنة مسقط وعمان حتى سنة ١٩٥٨. عندما اشترت منها باكستان الاقليم بمبلغ ٣ ملايين جنيه استرليني •

الأطماع في هذه المقاطعة • وفي سنة ١٨٨٣ وسنة ١٨٨٥ نشبت فيها اضطرابات بتحريض من العمانيين ، مما اضطر البريطانيين إلى التدخل للحيلولة دون احتلال العمانيين لها • وفي سنة ١٨٨٧ استكمل البوسعيد ضم الأقليم لحكمهم ، غير أن الثورات ضدّهم ظلت تنفجر من وقت إلى آخر إلى أن استتب الأمر للسلطان في مطلع هذا القرن • غير أن المغامرة العسكرية في ظفار استنزفت موارد السلطان • وعلى أساس من ذلك كانت هذه المقاطعة مصدر قوة لسلطين البوسعيد أكثر منها مصدر ضعف • وقد تم فصل المقاطعة من الناحية الإدارية عن عمان (٧٤) •

أما على الصعيد الخارجى فقد كان هدف السلطان تركى الاحتفاظ بعلاقاته الخاصة مع بريطانيا ، أو بالأحرى تدعيمها بقدر الأمكان • ولقد حقق نجاحاً مطرداً في هذا المضمار كما في النواحي الأخرى بمرور الوقت • وكان المسؤولون البريطانيون في الهند ممن كانت لهم خبرة بشؤون الخليج يكنون احتراماً كبيراً للسلطان تركى • ورغم أن البريطانيين قد اعترفوا رسمياً بتركى في شهر أغسطس سنة ١٨٧١ ، إلا انه لم يبدأ في قبض مخصصات زنجبار قبل سنة ١٨٧٣ ، وهى المخصصات التى أصبحت منذ ذلك الوقت تشكل جزءاً هاماً من موارده المالية • وكانت المرة الوحيدة التى لم يقف فيها المسؤولون البريطانيون في الهند إلى جانب تركى هى في سنة ١٨٧٤ — ٧٥ ، إلا انه حتى في هذه المناسبة ، وعلى الأخص في أعقاب سنة ١٨٧٥ ، فقد كان تعاون تركى مع المسؤولين البريطانيين يعتبر في تحليله النهائى عاملاً هاماً في تأييدهم السياسى والعسكرى لنظامه • وقد توج هذا التأييد ببيان سنة ١٨٨٦ الذى تعهدت فيه حكومة الهند البريطانية بضمان حكم السلطان • غير أن حكومتى لندن وكلكتا كانتا على الصعيد الرسمى تظهران بعض التحفظ ، غير أن الكولونيل روس

(٧٤) نفس المصدر ص ٥٩٥ — ٦٠٢ من الأمثلة على النظام الخاص الذى تخضع له ظفار ان السلطان اصدر عملة خاصة بالاقليم المذكور •

والكولونيك مايلز كانا في وضع يسمح لهما بالتأثير على رؤسائهما لتقديم التأييد اللازم للسلطان • وفي مقابل هذا لم يكن السلطان يمانع بوضع شؤونه الخارجية باستثناء شؤون زنجبار ، في عهدة الأنجليز • فلقد كان هذان المسؤولان يتدخلان باستمرار لمصلحة تركي لدى كل من حكومة القاجار وحكومة العثمانيين ، كما كانا يجريان مفاوضات بالنيابة عنه مع الدول الغربية ، كهولندا التي عقدت معاهدة تجارية مع عمان في سنة ١٨٧٧ (٧٥) •

ونظراً لأهمية التأييد الخارجي باعتباره الدعامة الأساسية للدولة يعتبر حكم تركي من هذه الوجهة نقطة تحول جديدة في سياسة عمان • صحيح كانت هناك علاقات وثيقة بين حكام عمان السابقين مع الحكومة البريطانية ، غير أن أولئك كانوا يعتمدون على أنفسهم وعلى أي حال فاعتقاداً من السلطان تركي أن وجوده في الحكم مرتين بالتأييد البريطاني ، قد جعله يوافق على تأدية الدور المطلوب منه في نظام السيطرة غير المباشرة التي كانت بريطانيا تحكم المنطقة من خلاله • ولقد تحدد هذا الدور بوضوح أكثر في سنة ١٨٨٦ عندما أعلنت حكومة الهند رسمياً بأنها مسؤولة عن استقلال السلطان ، وأنعمت عليه بتلك المناسبة بوسام الفارس « نجمة الهند » • وكان صاحب هذه الخطوة الحاكم البريطاني العام في الهند • غير أن الأنعام على تركي بالوسام ، على الرغم من خضوع السلطان للنفوذ البريطاني كان في الواقع انعكاساً للمكانة الرفيعة التي يحتلها السلطان عند البريطانيين من ناحية ، وموقف التبعية لهم من ناحية أخرى • وعلى أي حال فعندما قضى تركي بن سعيد نفيه في سنة ١٨٨٨ ترك وراءه لورثته مملكة تتميز بقدر كبير من التنظيم •

الحكم المعتدل الجديد أمام التحديات ١٨٨٨ — ١٩٠٣ •

يعتبر فيصل بن تركي الحاكم الوحيد من أسرة البوسعيد الذي تولى مراسم الحكم في جو سلمى • وقد كان عمره ٢٤ عاماً عندما تولى الحكم ، وكان عليه أن يثبت أنه أهل للمسؤولية التي أسندت إليه • ويعزى الجانب الأكبر من نجاح تركي السياسي في السنوات الأخيرة من حكمه إلى العلاقات التي أنشأها مع عدد كبير من الزعماء العثمانيين • ومن هنا كان يتعين على السلطان الجديد أن يحافظ على هذه الثقة الشخصية ، إذا أراد الاستمرار في الحكم •

غير أن السلطان فيصل لم يوافق على أن يكون حكمه مجرد امتداد لحكم والده ، أو أن يسير على نفس السياسة التي كان ينتهجها والده ، والتي تقوم على مبدأ العلاقة الشخصية بين السلطان وزعماء عمان • فقد كانت الأحلام الرومانسية تسيطر عليه ، وكان يطمح في أن يصبح سيد دولة موحدة مستقلة استقلالاً حقيقياً ومتحررة من أي نفوذ أجنبي • ويبدو أن فيصل كان ممتعساً بنوع خاص من سيطرة الإنجليز على سياسة وتصرفات حكومة مسقط ، دون أن يجد لذلك مبرراً معقولا • فلقد أخذ منذ البداية يعرب عن استيائه من تغلغل النفوذ البريطاني في أرجاء السلطنة ، وعلى الأخص بين العناصر التي تنادى بسياسة التبعية لحكومة الهند البريطانية ، كما كانت في أيام تركي • وكان أول قرار اتخذته في هذا الشأن هو إقالة الوزير الموالي للإنجليز والذي أمضى فترة طويلة في خدمة والده الراحل •

وعلى غرار حكم والده تركي ينقسم حكم فيصل إلى مرحلتين : المرحلة الأولى التي حاول فيها تأكيد استقلاله وتحرره من القيود التي كانت تكبل والده ، والثانية هي انتهاجه طريقاً جديداً وإن كان رجعيّاً من الوجهة الرومانتيكية •

لقد حاول فيصل أن يكون الزعيم الذي يلتف حول رأيه كافة

العمانيين • ومن هنا كان تودده الزائد إلى المحافظين العمانيين ، وعلى رأسهم صالح بن علي لدرجة أنه أطلق على نفسه لقب إمام المسلمين إلى جانب لقبه الأصلي وهو السلطان • ولسوء الحظ فإن هذه الاتجاهات المراهقة ، فضلا عن محاولات فيصل الأولى لفرض حكم قوى في بعض المقاطعات الداخلية ، قد كشفت لزعماء القبائل المحافظين عن جوانب الضعف في السلطان وافتقاره إلى النضج السياسي • كما أن السياسة المعادية للإنجليز التي سار عليها فيصل في السنوات الأولى من حكمه قد حالت بدرجة أكبر دون تحقيق أحلام هذا السلطان في مرحلة كانت تشهد مداً متصاعداً للأمبريالية الغربية •

وفي سنة ١٨٩٩ تعرض فيصل لأهانة بالغة من الإنجليز ، كما انهار نفوذه السياسي بين العمانيين إلى أقصى حد ، وقد وضعت هذه الأحداث نهاية لمراهقة فيصل السياسية • وما بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٣ أدرك فيصل هذه الحقيقة فاستدرك بالرجوع إلى الخط السياسي الذي كان يسير عليه والده • وقد أمضى فيصل السنوات العشر الأخيرة من حكمه في محاولات ناجحة وإن كانت ضعيفة للاحتفاظ بعرشه • وكان اعتماده على البريطانيين خلال هذه الفترة واضحاً تماماً كمقاومته لهم في أول عهده بالحكم • ولقد جاء في وصف أحد الرحالة لفيصل في سنة ١٩١١ أنه كان حاكماً ضعيفاً ، لكنه عطوف ووقور وكانت هوايته الوحيدة زيارة السفن الحربية البريطانية والتصوير (٧٦) •

والواقع أن هذه الصفات ، بصرف النظر عن دماثة خلقه ووقار شخصيته تعتبر من صفاته العامة • وقد قابل الرحالة ثيودور السلطان فيصل في سنة ١٨٨٩ بعد توليه الحكم مباشرة ، وقدم في مذكراته صورة

(٧٦) الهند في حكم كرزى وبمعهده ، تأليف : ال فريرز (مطبعة لندن ١٩١٢) ٩٠ - ٩١ •

جذابة للسلطان الشاب الخجول الحليق والحاد المزاج والذي كان في حكم سنه كثير التساؤلات • وعلى الرغم من أنه لم يكن كغيره من الملوك بالمعنى الدقيق للكلمة ، فقد كان حاكماً أوتوقراطياً • وعانى صعوبة كبيرة في وصف طريقة فيصل في معاملة المعتقلين في أقفاص داخل البلاط من حيث يستطيعون أن يشاهدوا الحظيرة التي يضع فيها السلطان أسداه الأليف الذي كان يستخدمه أحياناً في افتراس المحكوم عليهم بالأعدام (٧٧) •

وبمقارنة أعمال السلطان فيصل بما كان يتسم به من خجل ظاهري ، نجد أنه في أول عهده بالحكم كان يتمتع بقوة الإرادة وبيعض النشاط • إلا أنه لم يكن يعرف كيف يستغل هذه المواهب وقد اكتسب فيصل بعض الخبرات الإدارية خلال حكم والده ، إلا أن اتصالاته لم تتعد نطاق الأسرة • وكانت أم فيصل حبشية • وقد اقترن بأبنة عمه الكبرى عليا كريمة السلطان ثويني وكان أمياً لا يجيد القراءة والكتابة فيما عدا التوقيع باسمه • وعلى عكس والده فقد كانت معرفته محدودة ، بالإضافة إلى أنه لم يسافر إلى أي بلد قبل توليه الحكم (٧٨) •

مصر السياسة المستقلة للسلطان فيصل : ١٨٨٨ — ٩٩ •

لقد لاحظنا آنفاً كيف أن السلطان فيصل بعد توليه السلطة أعلن عن عزمه على تغير سياسة الحكم وقد قام بأول خطوة في هذا السبيل حين عارض إسناد منصب حكومي هام إلى سعيد بن محمد الذي لم يكن موالياً للانجليز وحسب ، بل كان مكروهاً جداً من المحافظين • ولما كان فيصل ينوي تقديم بعض التنازلات للمحافظين في محاولة لكسبهم إلى جانبه • فقد كان وجود شخص كسعيد بن محمد في حاشيته يثير إحراجاً للسلطان

(٧٧) الجنوب العربي ، تأليف ثيودور بنت ص ٥٦ — ٥٨ •
(٧٨) لوريير مجلد ١ ص ٥٢٥ و « حياة كوكس » ص ٥٦ ، تأليف جريفيز •

ولم يسترجع سعيد مركزه إلا بعد أن انتهت مرحلة المغازلة بين فيصل والمحافظين العمانيين • وكان فهد بن تركي أخ السلطان أقرب مستشاريه ، غير أن فهد كان يعاني من مرض عقلي أدى به إلى الانتحار في سنة ١٨٩٤ تخلصاً من زواج غير موفق • أما الأخ الأكبر للسلطان ، وهو محمد فقد اكتفى بالمرتب الشهري الذي كان يتقاضاه وقدره ٦٠٠ ريال ، ولم يحاول أن يحشر نفسه في دوامة المؤامرات ضد الحكم ولكنه لم يكن يصلح لأي عمل • ولم يقع اختيار فيصل على محمد بن عزان كوزير للبلاط إلا في شهر مايو سنة ١٨٨٩ وكان عزان من رجال الدولة القدامى من أسرة البوسعيد • وقد استمر يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٨٩٦ ولفترة أربعة أشهر أخرى ما بين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٨٩٩ • ولكنه • على ما يبدو • لم يكن لشخصيته أي تأثير ملحوظ على مجرى الأحداث • وكان أقوى رجلين في حاشية السلطان فيصل بدر سيف العضو العسكري في مجلس السلطان وسليمان بن سويلم مساعده الذي شغل أكثر من منصب بما فيها منصب والي ظفار • كما عين وزيراً للبلاط في سنة ١٩٠٢ • والواقع انه لم يكن بين مستشاري السلطان فيصل في اوائل عهده من كان له تأثير حاسم على شؤون الدولة ، لأن السلطان كان يفضل ان يدير شؤون الدولة بنفسه (٧٩) •

والنشاط الوحيد البارز للسلطان كان فيما يتصل بعلاقته مع الانجليز • وبالرغم من أن السلطان كان قد كتب الى البريطانيين بعد وفاة والده مباشرة بأنه سوف يحكم في ظل الحماية البريطانية وانه سوف يعتمد على صداقتهم ، فقد كان من الواضح ان فيصل قد عقد العزم على إثبات وجوده كحاكم مستقل من الوجهتين النظرية والتطبيقية (٨٠) •

(٧٩) كتاب لوريير مجلد ٢ ص ٥٣٢ و ٥٤٦ و ٥٥٦. والتقارير الاداري سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ وكذلك التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ « والجنوب العربى » تأليف بنت ص ٥٨ •

لقد انتهج السلطان منذ بداية حكمه طريقا مستقلا أثار مخاوف حكومة الهند البريطانية ولقد كتب جى • جى • لوريمر (J. G. Lorimer) وهو مؤرخ ومسؤول في حكومة الهند يقول : « ان تدمير فيصل من الالتزامات والقيود التي تربط حكمه بالبريطانيين كان له رد فعل سيء في دوائر الحكومة البريطانية » (٨١) • وقد ظل المقيم البريطاني في الخليج السير ادوارد روس ، وكانت تربطه بوالد السلطان صداقة متينة ، متحفظا جدا تجاه ولده • ورغم ان روس استمر في دفع المخصصات المقررة عن زنجبار الى حكومة فيصل الا انه ارجأ الاعتراف الرسمي بها حتى شهر ابريل سنة ١٨٩٠ (٨٢) • وربما اتخذت هذه الخطوة لتسهيل المفاوضات التي كان يجريها روس مع السلطان آنئذ • وأسفرت المفاوضات عن المعاهدة التجارية العمانية الانجليزية ، واتفاقية عدم التنازل المعقودة في سنة ١٨٩١ التي التزم فيها العاهل العمانى بعدم التنازل عن أى شبر من اراضيهِ الى دولة أخرى بغير موافقة الحكومة البريطانية • وفي الوقت نفسه كانت حكومة الهند الانجليزية تعيد النظر في علاقاتها بعمان • وربما كان تأخير اعتراف هذه الحكومة بفيصل والطريقة التي كانت تجري فيها المفاوضات قد ضايق السلطان • وكان المسؤولون البريطانيون في ذلك الوقت يدرسون احتمال إعلان سلطنة مسقط محمية بريطانية وهو موقف كان لابد وان يثير استياء السلطان فيصل لو عرف عنه • غير انه لم تقع خلافات عمانية انجليزية الا بعد استقالة المقيم روس ، في سنة ١٨٩٢ •

وقد تمكن روس ببراعته الدبلوماسية من التخفيف في حدة ثورة السلطان فيصل ضد البريطانيين ، غير ان الهدوء الظاهري الذي ساد العلاقات العمانية — الانجليزية حتى سنة ١٨٩٣ كان يعود الى انشغال

(٨١) كتاب لوريمر جزء ١ ص ٥٣٣ •

(٨٢) التقرير الادارى سنة ١٨٩٠ — ١٨٨٩ ص ٥ •

السلطان فيصل في الأيام الأولى من حكمه بالمشاكل السياسية الداخلية .
فلقد حاول فيصل في بداية الأمر انتهاز سياسة تهدف إلى فرض سيادة
مستط على جميع المناطق الداخلية والقبلية في عمان . فبعد توليه الحكم
مباشرة عقد فيصل اتفاقاً مع صالح تمكن بمقتضاه من تعبئة ٣٠٠٠ مقاتل
ضد ابراهيم بن قيس الذي كان يربط في الرستاق في سنة ١٨٨٨ ، غير أن
هذه الحملة منيت بالفشل واسفرت عن تدهور خطير في مركز السلطان .
فقد قاوم أهل الرستاق بقيادة سعود بن عزان النجل الثاني لعزان بن قيس
مقاومة عنيفة شجعت آل سعد سكان الباطنة على الانتفاض على جيش
السلطان وقصص قواته عن قواعد عملياتها في بركا . ولم يمض وقت طويل
حتى اضطر السلطان إلى التخلي عن المحاولة . وربما كان إفلاس خزينة
السلطان من المال خلال حملته على الرستاق (وهي احد المعاقل العمانية
الحصينة) أقسى عليه من فشل الحملة نفسها حتى أنه اضطر إلى الانسحاب
دون أن يدفع مرتبات أفراد جيشه والأسباب كثيرة لم يتمكن السلطان
من تعويض فشله في الحملة المذكورة التي تعتبر أول حملة بعد توليه
الحكم (٨٣) .

ان فشل حملة الرستاق ، وما كشف عنه هذا الفشل من عجز في
إمكانات السلطان فيصل قد هيأ الجو لقيام ائتلاف جديد شمل حتى القوى
الصغيرة المناوئة له بزعامة عبد العزيز بن سعيد عم فيصل واخ السلطان
تركي من ابيه ، والوزير السابق ومنافسه القديم ، وسعود وحمود ابني
عزان ، نجلى اخ ابراهيم بن قيس . غير ان رد الفعل على هذا الائتلاف
من جانب السلطان جاء سريعاً حيث قام بتعبئة جيش قوى من ألفى رجل
يضم بعض انصار السلطان من قبيلة النعيم بقيادة أخيه الأصغر فهد
بن تركي . وطوال معظم فصل شتاء عام ١٨٨٨ — ٨٩ ظل الامير فهد

(٨٣) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ وكتاب لوريمر
جزء ٢ ص ٥٢٦ — ٥٢٨ .

ينتقل بين المناطق الجبلية بحثاً عن المناوئين دون جدوى • وعلى أى حال فقد حققت هذه الحملة نجاحاً كبيراً واحداً وهو أنها اقنعت عبد العزيز باستحالة اطاحة السلطان فيصل بأى شكل من الأشكال • وبعد ١٥ عاماً من التشرّد الفاشل عبر مناطق عمان الداخلية فى محاولة لتنظيم حركة مضادة من أجل إعادته إلى السلطة ، قرر عبد العزيز فى شهر مارس ١٨٩٠ قبول منحة شهرية من حاكمى مسقط وزنجبار واعتزال السياسة فى المنفى • وقد قضى حياته فى بومباى إلى أن توفى فى سنة ١٩٠٧ ، ولم ير عمان مرة أخرى (٨٤) •

ان الفشل العسكرى الذى منى به السلطان ، والنجز المستمر فى موارده المالية قد اقنعه فى سنة ١٨٩٠ بالتخلّى عن محاولاته الرامية إلى فرض سيطرته على الجزء الداخلى من البلاد ، وباتخاذ سبل أخرى لتحقيق أهدافه فى عمان • وذلك بتحسين علاقته بالمحافظين العمانيين ودعم وسائل التفاهم الذى سبق ان توصل اليه مع الشيخ صالح بن على • وقد ظلت العلاقة بين السلطان فيصل وصالح بن على على ما يرام حتى سنة ١٨٩٤ ، أو على ما يبدو ، طوال الفترة التى كانت حكومة مسقط تدفع المخصصات المالية المقررة للشيخ المذكور • كان فيصل أكثر من والده إدراكاً لحساسيات المحافظين ومن هنا كان يحاول منذ بداية حكمه كسب ودهم وتأبيدهم • ومما يشهد على هذه المحاولات وعلى تجاوب فيصل مع أفكار المحافظين موقفه من تجارة الرقيق وحيازته • وعلى العكس من والده تركى الذى تجاوز كل الحدود المعقولة فى تعاونه مع الانجليز فى موضوع الرقيق ، أعلن فيصل أنه يؤيد العمانيين فى موقفهم من شرعية تجارة الرقيق والاحتفاظ بهم • ولم يظهر فيصل أى استعداد للتعاون مع البريطانيين فى هذا المجال ، كما رفض تقديم أى مساعدة أو تأييد لتحريم

(٨٤) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٢٨ و Precis Maskat ص ١ - ٢ •

هذه التجارة • وعلى حين اتخذ سلطان زنجبار وأحد أقارب السلطان فيصل في سنة ١٨٩٠ بعض الاجراءات التي أفضت في النهاية إلى القضاء على تجارة الرقيق في تلك البلاد ، أعرب المسؤولون البريطانيون أن موقف السلطان فيصل وتفاقم الوضع في المناطق الريفية من عمان يحولان دون الضغط للحد من تجارة الرقيق بالبلاد ^(٨٥) . والواقع أن الإنجليز قد شعروا بحق أن جهودهم الرامية إلى القضاء على تجارة الرقيق أصبحت تلاقى عقبات كثيرة من جانب الحكام المحليين أمثال فيصل بن تركي ومن سكان الخليج بوجه عام ^(٨٦) .

ويبدو ان السلطان فيصل كان يرى انه في حالة فشله في فرض الوحدة الوطنية على عمان ، فانه قد ينجح في تحقيق هدفه عن طريق التحالف مع الرأي العام ومع الكتل الوطنية ، كما كان يطمح في ان يتولى الامامة والسلطنة في وقت واحد • وقد صك هذا اللقب المشترك في بعض العملات التي اصدرها ^(٨٧) • فالأباضيون غير العمانيين • وعلى الأخص في شمال أفريقيا ، وفي مستعمراتهم الصغيرة في مصر كانوا يلقبون فيصل « بامام مسقط وعمان » وكانوا يعتبرونه أحد الزعماء واقطاب الاباضية من امثال صالح بن علي • وسعيد بن ناصر، وعلى بن محمد ، وهلال بن زاهر ، وعبد الله بن حميد السالمي ^(٨٨) • ورغم كل هذا فإن تودد السلطان فيصل إلى المحافظين ، لم يصل به إلى درجة التراجع تراجعاً أساسياً عن النظام المعتدل • ومن المحتمل أن فيصل كان يسعى إلى كسب جميع فئات الشعب العماني وليس فئة معينة •

(٨٥) « Precs Slave » ص ٤٥ — ٤٧ و كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٥٠٥ — ٢٥١٣ .

(٨٦) خطاب مؤرخ ١٩٠١/١١/٧ من هاملتون الى كرزن .

(٨٧) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٩١ ، ملحوظة .

(٨٨) كتاب الهداية ، تأليف المصري ص ٨٢ .

ومهما كانت أسباب فيصل في انتهاج السياسة التي اختطها بالنسبة إلى الوضع الداخلي وإلى الاباضيين ، فإن هذه السياسة قد فشلت في النهاية ، لأن فيصل أساء تقدير إمكاناته العسكرية والمالية ، كما أساء تقدير خطواته السياسية والدبلوماسية . وبنهاية عام ١٨٩٠ ونظراً لما أسفرت عنه سياسة التحدي بالنسبة إلى المنطقة الداخلية ، خفف فيصل من أعبائه الادارية في المنطقة كما تخلى عن سياسة التوسط في المنازعات القبلية . ولم تتضح الاسباب التي حملت السلطان إلى التخفيف من أعبائه في الجزء الداخلي من البلاد . وإن كان من المرجح أنه اضطر إلى ذلك بسبب العجز المالي المتزايد وإلى محاولته إرضاء بعض العناصر المحافظة . وعلى أي حال ، فلم يمض وقت طويل على هذه السياسة حتى بدأت الخلافات والمنازعات القبلية تتفاقم وتشتد ^(٨٦) . ففي سنة ١٨٩١ انفجر صراع قبلي في وادي سمايل بين الهناوية والغافرية وبما أن السلطان لم يفعل شيئاً لتهدئة الأوضاع في هذه المقاطعة الاستراتيجية . فقد تفاقمَت المشكلة . كما نشب قتال عنيف أثر هجوم على قافلة تجارية للحرث كانت تحمل شحنة من بلح الشرقية في طريقها إلى الساحل ^(٩٠) . وقد استمر تصاعد الحرب حتى اتسع نطاقها في سنة ١٨٩٢ — ٩٣ بحيث شملت وادي سمايل ، وجعلان ومقاطعة الباطنة مما اضطر الشيخ صالح بن علي إلى أن يطلب من السلطان التدخل لوضع حد لتلك الفوضى . وقد أغلقت الطرق العامة بين المنطقة الساحلية والداخل كما منيت تجارة مسقط ومطرح بخسارة فادحة ^(٩١) . ومن المحتمل أن يكون التدهور

(٨٩) مذكرة مؤرخة في فبراير سنة ١٨٩١ من موكر الى حكومة الهند و « Precis Slave » ص ٤٥ والتقارير الاداري ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ص ٢٤ والتقارير الاداري ١٨٩٣/١٨٩٤ ، ص ١٩ ، و « Precis Maskat » ص ٢ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٢٦ — ٥٢٨ .

(٩٠) التقرير الاداري ١٨٩٠/١٨٩١ ص ١٥ .

(٩١) التقرير الاداري ١٨٩٢/١٨٩٣ و كتاب لوريمر مجلد ١ ص

السريع في موارد السلطان المالية قد حال بينه وبين التحرك لحل المشكلة .
ومما يؤيد هذا الاحتمال أن السلطان فيصل لم يتمكن في سنة ١٨٩٤ من دفع المخصصات المقررة لشيخو الغافرية سكان وادي سماعيل ، الأمر الذي كانت له عواقب خطيرة (٩٢) . وكان من نتيجة ذلك أن تقلص نفوذ مسقط حتى في المقاطعات الساحلية ، حتى ان السلطان لم يعد في وسعه الاحتفاظ بأسطول له واضطر إلى بيع السفينة « دار السلام » في بومباي ، بينما تم تفكيك السفينة « السلطاني » . وفي سنة ١٨٩٤ أثار إهمال السلطان لهذه المشاكل استياء القبائل التي كانت تربطها بالحكم المعتدل علاقات تقليدية (٩٣) .

وكنتيجة لتشجيع السلطان لتجار السلاح باتخاذ مسقط مركزاً لعملياتهم اضيف بعد جديد إلى الوضع الملتهب . وفي سنة ١٨٩٥ بدأت قبائل عمان تحصل على السلاح الحديث والذخيرة ، وفي سنة ١٩٠٠ أصبح سكان ميناء صور ، وكذلك قبائل جعلان ، ومقاطعة الشرقية . ومنطقة الجبل الأخضر أقوى من أن يرضخو لتهديدات السلطان بقواته المسلحة (٩٤) . وفي سنة ١٩٠٢ تأزم الوضع إلى درجة أن أحد الخبراء العسكرية البريطانيين قد حذر من أن اطلاق بضع قذائف من سفينة مسلحة لم يعد يكفي لحماية مسقط من الخطر وأصبح الأمر يحتاج إلى حملة باهظة التكاليف بما فيها انزال جنود من القوات الهندية ، فيما لو تعرضت مسقط لأي هجوم من جانب العمانيين المحافظين (٩٥) . وقد صدقت تنبؤات هذا الخبير ، فقد تعرضت مسقط بالفعل لغزو عماني إبان الحرب العالمية الاولى .

(٩٢) التقرير الاداري ١٨٩٣ - ١٨٩٤ ص ١٩ - ٢٢ .

(٩٣) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٣٠ - ٥٣٢ .

(٩٤) خطاب رقم ٥ مؤرخ في ١٩٠٢/١/٣ من كرزني الى هاملتون و كتاب

لوريمر مجلد ٢ ص ١٣٩٠ و « Precis Trucial Chiefs » ص ٧١ .

(٩٥) خطاب رقم ٥ مؤرخ ١٩٠٢/٥/٥ من الكولونيل سي . اي . بيتس

الى حكومة الهند ، الشؤون الخارجية .

وعلى أى حال فقد ازدادت العلاقات العمانية — الانجليزية تدهوراً
ما بين سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ بحيث أصبح تدخل بريطانيا تدخلا
مسلحاً لحماية عرش السلطان أمراً لا مفر منه . ان زوال الجو الودى
الذى كان يميز العلاقات بين سلطنة مسقط وحكومة الهند — الانجليزية
كان نتيجة لخليط من الظروف والأسباب الطارئة . من أهمها رغبة السلطان
فيصل في الحد من اعتماده على البريطانيين ، وإلى تصرفات جيل ما بعد
ادوارد روس من المسؤولين البريطانيين من رجال حكومة الهند البريطانية
في الخليج الذين اتسمت أعمالهم بالطيش والغباء وسوء الفهم ، كما
وإلى المغامرات الدبلوماسية الناتجة عن الصراع بين الدول الامبريالية
الكبرى على الخليج في التسعينات . فقد أخذ السلطان فيصل يضيق
ذرعاً بالامتيازات الاقليمية التى يتمتع بها رعايا الحكومة الهندية البريطانية
ويسبئون استعمالها في بعض الاحيان . وعلى أى حال فقد كانت
احتجاجات السلطان في هذا الصدد تسبب المضايقات للمسؤولين
البريطانيين . وفي عام ١٨٩٣ تدهورت العلاقات بين السيد فيصل والملاجور
هيز — سادلر ، المعتمد السياسى البريطانى في مسقط إلى درجة ان
تعرض فيها السلطان للإهانة (٩٦) وعندما بدا الصدام بين مطامع الدول
الامبريالية المتنافسة واضحاً بعد إنشاء قنصلية فرنسية في مسقط سنة
١٨٩٤ ، أدرك السلطان فيصل على الفور أن الوقت قد أصبح مناسباً
لتوجيه ضربة إلى الانجليز (٩٧) . ومنذ سنة ١٨٩٥ بدأ السلطان يلعب
لعبة التوازن بين النفوذ البريطانى والفرنسى . وسواء كان السلطان على
حق في هذا أم لم يكن ، فقد أثار هذا الموقف استياء حكومة الهند —
البريطانية ، في وقت كان فيه نفوذ السلطان ينهار بين القبائل العمانية .
وقد انفجر الوضع في عمان سنة ١٨٩٥ ، وكان تولى فيصل عن صالح
بن على سبباً للانفجار . فخلال سنة ١٨٩٥ بدأ السلطان يتوعد إلى

(٩٦) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٣٥ — ٥٣٦ و ٥٥٥ .

(٩٧) » Precis Maskat « ص ٦١ .

زعيم آخر من زعماء الحرث ليكون على رأس الزعامة وذلك نكاية بصالح بن علي ، غير أن صالح اكتشف المحاولة في حينها فوجه رسالة إلى السلطان ، ولما لم يتلق رداً على رسالته تحرك المحارب على الفور لانشاء تحالف قبلي ضد السلطان (٩٨) . غير ان الوضع هذه المرة كان يختلف عنه في سنة ١٨٦٨ ؛ عندما أدى تخلي صالح بن علي عن السلطان إلى اطاحة السلطنة . فقد كان تحرك الامامة في هذه المرة يفتقر إلى الوحدة الوطنية التي توفرت لها تحت زعامة عزان بن قيس ، وسعيد بن خلفان الخليلى ، وصالح ابن علي نفسه عندما كان لا يزال فتى يافعاً في سنة ١٨٦٨ . ورغم هذا فقد كان في امكان الزعيم ان يستقطب بعض قبائل الهناوية بمن فيهم الحرث ، والحبوس ، وبنى بطاش ، والعوامر وبنى رواحة وبعض الفصائل الثانوية من بنى هنا سكان الباطنة والمقاطعات المجاورة للريستاق ووادي سمايل (٩٩) . وقد تلقى هذا التحالف دعماً من جهة لم تكن متوقعة ، وهى السلطان حمود سلطان زنجبار الذى امضى فترة صباه في عمان وكانت تراوده احلام لخلق دولة عمانية زنجبارية موحدة . ففي سنة ١٨٩٤ زار وفد من زعماء عمان المحافظين السلطان حمود في زنجبار وعادوا من عنده محملين بالهدايا والأموال وبثلاثة مدافع و ٣٠٠ برميل بارود . وما أن علم البريطانيون بهذا الأمر حتى حاولوا احباط المؤامرة ، وطلبوا حمود بعدم اقحام نفسه في سياسات عمان ، غير ان التحذير البريطانى جاء متأخراً ، ولم يفلح في منع وصول المساعدات إلى عمان (١٠٠) .

وأخيراً علم فيصل بالنجاح الذى حققه صالح في انشاء تكتل قبلي ضده . وما أن أدرك فيصل أنه قد اهل حلفاءه من القبائل ، كما اهل

(٩٨) التحفة ، تأليف السالى جزء ٢ ص ٢٨٤ والتقارير الادارى ١٨٩٤ / ١٨٩٥ ص ١٥ - ١٨ .
(٩٩) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٤٣ .
(١٠٠) « Precs Maskat » ص ٢٤ - ٢٥ .

اعداد وسائل الدفاع عن عاصمته نفسها حتى بدأ بتغيير سياسته • غير أن مساعيه لم تنجح في منع صالح بن علي من الانقضاض بقواته على ضواحي مسقط في سنة ١٨٩٥ عبر ممر وادي سمايل الذي لم تكن عليه حراسة في ذلك الوقت • وما ان وصلت القوات إلى مسقط حتى عرض فيصل التفاوض مع المغيرين واستقبل في ديوانه الشيخ عبد الله بن صالح ، النجل الأكبر للشيخ صالح ، وممثله وقائد قواته • غير أن المغيرين استغلوا هذه الفرصة لجمع معلومات عن تحصينات العاصمة ومواقع دفاعها • وقد ظن فيصل انه يستطيع انقاذ عرشه وعاصمته بتقديم الرشوة فبعث بمبلغ ١٢٠٠ ريال إلى الشيخ عبد الله بن صالح أملاً منه في أن ينسحب الجيش المهاجم ويعود إلى داخلية عمان • غير أن القائد فاجأ السلطان بالانقضاض على العاصمة ليلة ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥ ، واحتلال أحد مداخلها ، كما قاد مجموعة من رجاله كانوا يكمنون وراء السور واحتلوا أهم المراكز في المدينة • وقد كشف المهاجمون عن أهدافهم عندما رفعوا العلم الأبيض فوق قصر السلطان ونصبوا سعود بن عزان ابن الامام الراحل عزان رئيساً اعلى للحركة • وخلال المرحلة الأولى من احتلال المحافظين لمسقط أبدوا كثيراً من الاهتمام بعلاقتهم مع الانجليز وادعوا أنهم لا ينشبدون سوى صداقة حكومة الهند البريطانية كما امتنعوا في حذر شديد من الاعتداء على متاجر الجالية الهندية أو نهبها • أما الماجور هيز — سادler المعتمد السياسي البريطاني في مسقط فقد التزم الحياد الدقيق من الأحداث ، رغم أن موقفه كان في مصلحة صالح بن علي أكثر مما كان في مصلحة السلطان المحاصر • غير ان نقطة الضعف الأساسية في التجمع المحافظ شأنه شأن أي ائتلاف من نوعه في أواخر القرن التاسع عشر هي أنه لم يكن يضم فئات من الغافرية • ولهذا استجاب في شهر مارس سنة ١٨٩٥ لنداء السلطان ووعدته بتقديم الأموال نحو ٤٠٠٠ رجل من الغافرية جاءوا لفجدة العاصمة المحاصرة ورابطوا حولها • وبالرغم من وقوع إصابات في المناوشات التي نشبت بين

الجانبيين ، لم يتمكن أى منهما من زحزحة الآخر عن المواقع التى كان يحتلها • ونتيجة لذلك تجمد الوضع •

فى هذه الفترة بدأت المفاوضات • وفى ٩ مارس ١٨٩٥ عقدت معاهدة سلام ، كما عفا السلطان عن صالح بن على وأنصاره ، وأعيدت له المخصصات التى كان يتلقاها قبل وقوع هذه الحوادث • كما تسلم صالح مبلغاً خاصاً يتراوح بين ١١ر٠٠٠ و ١٧ر٠٠٠ ريال • ومن سوء حظ المحافظين ان الانضباط الذى كان يسود صفوفهم قد عاد فتبخر على أثر انسحابهم من مسقط • وقد رافق هذه العمليات أعمال سلب ونهب شاملة للمدينة • كما اشعلت فيها الحرائق أما التجار الهنود فقد تعرضوا بنوع خاص لخسائر جسيمة نتيجة للحرائق وأعمال السلب والنهب التى قام بها المهاجمون (١٠١) •

وقد نجا فيصل من الموت أو الأسر بأعجوبة فكان هجوم المحافظين على عاصمته فى سنة ١٨٩٥ درساً بليغاً • ولهذا ما أن هدأت الأمور حتى بدأ فى تقوية وسائل الدفاع عن مسقط ومطرح بعد أن كان فيصل يهمل هذه الأمور • فنصبت مدافع من عيار ١٢ رطلاً فى كل قلعة ، كما ضم السلطان نحو ٤٠٠ أفريقى إلى القصر للقيام بأعمال الحراسة ، هذا بالإضافة إلى تسليح رجال الحرس السلطانى بأحدث أنواع البنادق التى امكنه الحصول عليها ، كما أخذ يخزن الذخيرة • ومن ناحية أخرى قام فيصل بخطوات جديدة لتعزيز أحلافه مع الجنبه ، وبنى بو على • وبنى بو حسن والحجريين وسائر القبائل الجنوبية فى جعلان بوجه عام كما وقبائل النعيم سكان المنطقة الشمالية من السلطنة (١٠٢) • ومن العوامل الأخرى

(١٠١) للاطلاع على تفاصيل الحملة على مسقط والآثار المباشرة لها انظر التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٦ •
(١٠٢) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٤٥ والتقارير الادارى ١٨٩٥/١٨٩٦ ص ١٣ — ١٥ •

التي ساعدت فيصل على استرجاع ما فقده من النفوذ في الجزء الداخلي من البلاد هو التفكك الذي ساد صفوف المحافظين في أعقاب جلائهم عن مسقط ومطرح في سنة ١٨٩٥ • فلقد كان هجوم صالح بن علي آخر محاولة من جانب الزعماء العثمانيين الذين كانوا يسيطرون على الجناح المحافظ منذ منتصف القرن التاسع عشر • بل وحتى صالح بن علي قد أصيب هو الآخر في إحدى الحروب القبلية التي نشبت في سنة ١٨٩٨ • وبوفاة إبراهيم بن قيس سنة ١٨٩٨ خلا المسرح تماماً من الشخصيات التي أسهمت بدور طليعي في شؤون عمان ما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧١ ، فيما عدا فيصل بن حمود الذي لم يكن يقوم بأي نشاط • وبزوال الجيل العماني من الزعماء والعلماء ورجال الحرب ، وجد المحافظون انفسهم بلا زعماء ثابتين • كذلك فإن وفاة صالح بن علي في سنة ١٨٩٨ قد حرم المحافظين من زعيم قوى • وقد انقضت فترة طويلة من الوقت قبل أن يبرز زعماء جدد ، غير أن ظهور هؤلاء في نهاية الأمر فيما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ ، قد أثبتت أنهم أكثر كفاءة ومقدرة من أسلافهم (١٣) • وعلى أي حال ففي عام ١٨٩٦ وجه السلطان حملته على بعض القبائل الداخلية التي تكتلت ضده في سنة ١٨٩٥ وكانت يومئذ متقسمة على نفسها وبدون زعامة •

وقد توقع المراقبون ان السلطان فيصل وقد خرج من أزمة عام ١٨٩٥ سوف يتحرك كما فعل والده من قبل في سنة ١٨٧٥ — لإعادة تنظيم الحكم على أسس سليمة وواقعية • غير أن هذه التوقعات لم تتحقق ، لأن فيصل في سنة ١٨٩٥ كان يواجه أوضاعاً مالية متدهورة إلى أبعد حد ، ولأن استيائه من البريطانيين كان قد بلغ درجة من الحدة لم يبلغها من قبل بسبب رفضهم مساعدته عند هجوم المحافظين على عاصمته في شهر فبراير سنة ١٨٩٥ •

منذ أن امتنعت الهند عن سك الفضة في معاملها سنة ١٨٩٣ ، ظلت حكومة السلطان تحاول دون جدوى معالجة الأزمة الاقتصادية التي تفاقمت • صحيح إن السلطات العمانية منذ وفاة السيد سعيد في سنة ١٨٥٦ كانت تعاني ضائقة مالية متسترة ، وإن الحكومة كانت تفرض ضغطاً على المصروفات ، إلا أن أزمة التسعينات كانت أشد خطورة • وكان السلطان الأكثر من سبب عاجزاً عن مواجهة الأزمة لأنه كان أمام مشكلتين : مستوى ثابت من الدخل نسبياً من ناحية وارتفاع في الأسعار من ناحية أخرى • ومن ناحية أخرى كانت المشكلة المالية جزءاً من أزمة اقتصادية دولية نتجت عن انخفاض في سعر العملات في العالم • غير أن جهل السلطان بالشؤون المالية قد أسهم بدوره في متاعبه • ففي عام ١٨٩٨ أجرت مصلحة الجمارك لأحد المتعهدين بمبلغ ١٤٠٠٠٠ ريال في العام ، بينما حصل المتعهد المذكور من العمليات الجمركية على ٢١٤٠٠٠ ريال هذا في الوقت الذي كانت الخزينة تعاني من عجز بمعدل ٧٠٠ ريال في الشهر وهو مبلغ يعد كبيراً بالمقاييس العمانية غير أن هذا العجز كان يمكن تغطيته لو أن السلطان كان يحصل على الدخول الجمركية بكاملها (١٠٤) •

وكننتيجة لهجوم سنة ١٨٩٥ ، أفلست الحكومة • وأخذ زعماء الغافرية الذين ساعدوا السلطان في شهر فبراير سنة ١٨٩٥ ولبوا نداءه لانقاذ عرشه ، يطالبونه بالمكافآت والأموال كثمن لتلك المساعدة • بينما طالبه البريطانيون بمبلغ ٧٧٨٩٥ ريالاً كتعويض عن ممتلكات التجار الهنود التي دمرت أثناء هجوم المحافظين على مسقط • وقد قدر مجموع خسائر التجار الهنود في البداية بمائتين وستة آلاف ريال ، غير أنه تبين أن هناك تزويراً ومبالغة في هذه التقديرات • وعند تقديم قائمة الخسائر

(١٠٤) كتاب لوريير مجلد ١ ص ٥٤٦ « Precis Maskat » ص ١٣٤ •

الى السلطان اقترح الماجور هيز سادلر أن تسدد هذه الخسائر من ضرائب تأديبية على جميع السلع الواردة من داخلية عمان بصرف النظر عن اشتراك اصحابها في الهجوم على مسقط أو عدم اشتراكهم . وقد تقدم سادلر بهذا الاقتراح للسلطان على اساس ما كان يؤمن به ، وهو أن لا يمكن أن يثق أحد بالعرب . غير أن الممثل البريطانى قد وافق أخيراً على الاقتراح يقضى بفرض ضريبة تأديبية غير مباشرة بنسبة ٢٠ في المائة على القبائل التى اشتركت في القتال فقط ، إلا أن المعتمد البريطانى لم يتعهد للسلطان بأى مساعدة في حالة وقوع اضطرابات ضده نتيجة لفرض الضريبة المذكورة . غير ان هذا الموقف أثار غضب السلطان على المعتمد لدرجة أن كرهه للبريطانيين اشتد أكثر من ذى قبل ، ودفع به أكثر فأكثر إلى جانب الفرنسيين . ورغم ان الحكومة البريطانية قررت العدول عن هذا الخط السياسى في سنة ١٨٩٦ ، فان تعديل موقفها هذا لم يعوض عن الاضرار التى سببها موقف الكولونيل هيز سادلر في تلك الفترة العصيبة . غير أن الضريبة التى فرضت لم تحقق للسلطان أكثر من ٢٠٠٠٠ ريال خلال العام الواحد ، ذلك لأن تحصيلها ، كما كان الحال بالنسبة لدخل الجمارك ، يتم عن طريق محلات رتنسى برشوتم صاحبة التعهد (١٠٥) .

وفي أعقاب سنة ١٨٩٥ تضاعفت الديون على السلطان لصالح محلات برشوتم وشركائه من التجار الهنود ، مما جعله يتمادى في الاقتراض من هؤلاء المرابين كى يتمكن من تسديد الديون التى عليه . وكمحاوله لائقاذ خزينة مسقط من الإفلاس قدمت سلطات الهند — البريطانية في سنة ١٨٩٥ قرضاً للسلطان مقداره ٦٠٠٠٠ روبية ، ثم عادت فقدمت إليه قرضاً آخر في سنة ١٨٩٧ . وقد ساعدته هذه القروض على تسديد ما عليه من ديون بما فيها الفوائد المستحقة عنها . غير أن القروض البريطانية

للسلطان قدمت اليه بشرط عدم الاقتراض من أى دولة أجنبية أخرى •
وفي سنة ١٨٩٧ بلغت ديون السلطان فيصل للمرابين العرب والهنود حوالى
١٣٠.٠٠٠ ريال من هذه القروض والقروض الذى أخذه فيصل من أحد
الصرافين ويبلغ ٣٠.٠٠٠ ريال بفائدة ٢٤ بالمئة وفى سنة ١٨٩٨ قفز
مجموع الديون على السلطان إلى ١٩٠.٠٠٠ ريال • وفى العام نفسه
اكتشف السلطان فيصل انه قد بدد القرض الذى حصل عليه فى سنة
١٨٩٧ • ورغم هذا كله ظل السلطان يرفض فكرة تنظيم الجهاز المالى •
وكان الانهيار التام يبدو أمراً حتمياً فى الفترة التى اعقبت أزمة إنشاء
مستودعات الفحم الفرنسية سنة ١٨٩٩ ، بعد أن قرر الانجليز وقف
دفع التعويضات المالية عن اقليم زنجبار (١٠٦) •

إن عزم السلطان فيصل على انتهاج سياسة مستقلة كان يبدو أمراً
لا مفر منه منذ اللحظة التى اختلف فيها مع الانجليز • وكما أشرنا
أنفا أصبح السلطان فيصل مكروهاً من ممثلى الحكومة البريطانية فى
مسقط حتى قبل سنة ١٨٩٥ ، وذلك رغم ان صداقة هؤلاء الممثلين لفيصل
كانت عاملاً حيوياً بالنسبة لبقائه فى السلطة • ومع ذلك فان سياسة
اولئك الممثلين كانت سياسة خاطئة أيضاً ، وأن عجزهم كانت تثير
حساسيات السلطان وتدفعه إلى اتخاذ المواقف غير الودية من
البريطانيين (١٠٧) • وقد تدهورت العلاقات بين السلطان والبريطانيين
تدهوراً سريعاً فى أعقاب هجوم المحافظين على البلاد فى سنة ١٨٩٥ •
فقد اعتبر فيصل موقف الحياد التام الذى اتخذه المعتمد البريطانى من
احتلال العمانيين لمسقط دليلاً على تخلى الحكومة البريطانية عن التزاماتها
تجاهه (١٠٨) وربما نسى فيصل أن سياسته الودية ازاء أصدقاء الأسرة

(١٠٦) لوريمر مجلد ١ ص ٥٧٢ — ٧٣ و « Precis Maskat » ص ٦٦ •

(١٠٧) التقرير الادارى ٩٦/١٨٩٥ ص ١ •

(١٠٨) « Precis Maskat » وكتاب « لوريمر » مجلد ١ ص ٥٥١ •

القدامى وحماتها ، هي التي حالت بينه وبين الحصول على المساعدة البريطانية التي هي ، على أى حال مساعدة ضمنية وليست الزامية •

من خلال هذه الثغرة في علاقات مسقط بالانجليز تسلسل المسيو أوتافى ، القنصل الفرنسى الخبيث الذى وصل مسقط فى سنة ١٨٩٤ للقيام بتدعيم النفوذ الفرنسى فى عمان ، واستطاع بلباقته حمل السلطان على مقاومة التسلط البريطانى • وقد ازداد النفوذ الفرنسى فى بلاط السلطان بعد تعيين عبد العزيز الرويحى سكرتيراً خاصاً للسلطان ، بالإضافة إلى عمله كسكرتير للقنصل الفرنسى أيضاً • وكان لعبد العزيز نفوذ على السلطان يفوق نفوذ وزيره سعيد بن محمد الموالى للانجليز الذى فصل أخيراً من الخدمة فى سنة ١٨٩٨ (١٠٩) •

ومع أن نفوذ القنصل الفرنسى على السلطان فيصل كان مقصوراً على السياسة الخارجية فإن هذا لم يخفف إطلاقاً من اثر الصدمة التي منى بها البريطانيون من موقف السلطان • غير ان بعض المسؤولين فى حكومة الهند البريطانية قد أدركوا أن التدهور الخطير فى العلاقات العمانية كان ، من بعض الوجوه نتيجة لامتناع الانجليز من مساعدة السلطان خلال أزمة سنة ١٨٩٥ • ومن هنا بدأت محاولات جديدة لترضية السلطان فيصل • من هذه المحاولات تقديم قروض مالية اليه وبعض المساعدات العسكرية لقمع ثورة نشبت ضد حكمه فى مقاطعة ظفار • وقد توجت هذه المحاولات بالإنذار الذى وجهته الحكومة البريطانية إلى زعماء القبائل العمانية بأنها لن تقف مكتوفة اليدين من أى اعتداء أو هجوم يقع على مسقط ومطرح • وهذا الإنذار يشبه البيان الذى اصدره الانجليز فى سنة ١٨٨٦ بالنيابة عن السلطان تركى بن سعيد • غير ان رد السلطان فيصل على المبادرة البريطانية جاء فائراً ، فقد اعتقد السلطان ان التغيير فى موقف البريطانيين قد جاء نتيجة لاحتساسهم بتسرب النفوذ

الفرنسي ، كما أن هذا التغيير جاء متأخراً عن مواعده (١١٠) . وقد ظل السلطان متمسكاً بموقفه من البريطانيين . وتجلى هذا التصلب بشكل أقوى في قرار فيصل باعطاء الاولوية للتجار العمانيين فيما يتعلق بصرف التعويضات عن الخسائر التي لحقت بهم في حرب سنة ١٨٩٥ . وسواء كان هذا قراراً عادلاً أم غير عادل ، فقد فسره الانجليز على انه برهان آخر على عناد السلطان وتمادييه في سياسته (١١١) .

ولقد ساءت العلاقات بشكل خطير في سنة ١٨٩٨ عندما رفض السلطان أن يصدر أوامره بإطلاق مدافع التحية العادية بمناسبة عيد الملكة فكتوريا . ووقع حادث آخر ضد الانجليز عندما وجه أحد عبيد السلطان اهانة الى بعض ضباط الاسطول البريطاني . ولقد تقدم السلطان باعتذار رسمي عن كلتا الحادثتين ، غير ان سلطات الهند — الانجليزية رأت فيهما دليلاً جديداً على عداوة السلطان لبريطانيا (١١٢) . ومن ناحية أخرى فان البيان الذي صدر من السلطان بمنح الفرنسيين امتيازاً لإنشاء مستودعات للفحم في منطقة تقع بالقرب من العاصمة قد أضاف بعداً جديداً إلى المشكلة العمانية البريطانية إذ اعتبره الانجليز تهديداً مباشراً لوجودهم في منطقة الخليج وخطراً على سلامة وأمن امبراطورية الهند البريطانية . وبالتالي عقد المسؤولون البريطانيون ابتداء من وزير الدولة لشؤون الهند في حكومة لندن وانتهاء بالمعتمد والقنصل البريطاني في مسقط العزم على وضع حد لتحدي « هذا الحاكم الصغير » (١١٣) . ووبربط هذه المشكلة بأزمة فاشودا ، اعتبرت الأزماتان جزءاً من المجابهة العالمية بين الامبريالية البريطانية والامبريالية الفرنسية . ومن ثم فقد

(١١٠) « Preci Maskat » ص ٢١ — ٢٢ و كتاب « لوريمر » مجلد ١

ص ٥٥١ — ٥٥٥

(١١١) « Preci Maskat » ص ٢٣ .

(١١٢) نفس المصدر ص ٦٣ — ٦٤ .

(١١٣) خطاب مؤرخ ١٨٩٩/٣/١٠ من هاملتون الى كرز .

فكانت أغلبية المسؤولين البريطانيين يهتما الوصول إلى حل لهذه المشكلة ، وكانوا مقتنعين بأنه لا بد من اتخاذ خطوة حاسمة « لانتهاء الاوضاع التى لم تغد تحتل » • وهكذا تم تنفيذ العملية • فقد تحرك الماجور فاجان ، المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط برفقة الكولونيل ميد ، المقيم البريطانى فى الخليج ، والاميرال دوجلاس ، قائد الحامية البحرية البريطانية لمنطقة الهند الشرقية على إحدى السفن الحربية البريطانية إلى مسقط وطلبوا إلى السلطان فيصل الحضور الى السفينة ، وتحت التهديد بضرب العاصمة واعتقاله أرغموه على فسخ عقد الامتياز الممنوح للفرنسيين وذلك فى الوقت الذى كانت الحكومة البريطانية قد اوقفت دفع التعويض المالى للسلطان الذى كان يعانى من الافلاس ، كما اصدر خبراء القانون الرسميون فى بريطانيا فتوى تبرر للحكومة البريطانية معاقبة او بالأحرى خلع أى حاكم عمانى يخل بالتزاماته تجاه الملكة الامبراطورة (١١٤) •

إن أزمة ١٨٩٨ — ١٨٩٩ كانت بمعنى من المعانى الحفرة التى دفنت فيها « سياسية فيصل المستقلة » • كما أن مؤامرات القنصل أوتافى وتشدد كرزى قد دفعا بفرنسا إلى موقف أصبحت فيه امام خيارين ، إما الانسحاب من عمان ، أو مقاومة التصميم البريطانى على ثل النفوذ الفرنسى • وعلى الرغم من تدخل اللورد سالسبورى فى الوقت المناسب للحيلولة دون تفاقم المشكلة وبخاصة فى تطيف الجو إلى حد ما بين الحكومتين ، إلا أن فرنسا لم يكن فى وسعها إلا الانسحاب من الميدان غير ان هذا الانسحاب قد وضع فيصل تحت رحمة البريطانيين حيث لم يبق له مفر من الاذعان لمطالبهم فى سبيل الاحتفاظ بمركزه كحاكم فى البلاد • وعندما كان السلطان يوقع بيده على وثيقة الاستسلام وهو على ظهر السفينة الحربية البريطانية طلب من الحكومة البريطانية ان تضمن

له الحماية فيما لو فكرت الحكومة الفرنسية باتخاذ أى إجراء انتقامى منه لفسخه الاتفلق (١١٥) . وهكذا كتب للسلطان فيصل البقاء فى الحكم .

استئناف التعاون بين العمانيين والبريطانيين — ١٨٩٩ — ١٩٠٣ .

فى فبراير سنة ١٨٩٥ كانت سلطة الحكم قد تدهرت إلى أقصى درجات الضعف والتفكك . فجهود السلطان فيصل فى فرض سلطانه على المنطقة الداخلية من عمان خلال الفترة الأولى من حكمه ، فضلا عن رفضه المشاركة فى الأحداث القبلية فيما بعد ، قد أدت إلى انفجار الاضطرابات فى المناطق الريفية من عمان . كما اسفرت خطته للتقرب إلى المحافظين عن هجوم سنة ١٨٩٥ الذى قاده صالح بن على ضد السلطان . ومن ناحية أخرى أثار احتكاكه بالانجليز ، الذين تعتبر صداقتهم له أمراً ضروريا لاستمراره فى الحكم ، ثائرتهم عليه . واخيراً سببت محاولته ضرب النفوذ البريطانى بالنفوذ الفرنسى أزمة سنة ١٨٩٠ . وبالإضافة إلى كل هذه العوامل كان السلطان يعانى من الإفلاس . ولعل الشئ الوحيد الذى حال بين فيصل وانهيار حكمه هى كونه لا يزال الحاكم الشرعى المستقل للبلاد وسلطان مسقط وعمان . وفى الفترة الواقعة بين شهر فبراير وشهر اكتوبر سنة ١٨٩٩ كانت العلاقة بين بريطانيا وعمان ، بل ومستقبل السلطان نفسه يكتنفها الغموض (١١٦) . غير ان تلبد الجو بين الطرفين ما لبث أن تبدد أخيراً فى شهر اكتوبر بوصول الماجور برسى كوكس ليحل محل الماجور فاجان كمعتمد سياسى بريطانى فى مسقط . فبعد بضعة أشهر من وصول المعتمد السياسى الجديد استطاع بلباقتة وحسن أسلوبه من تخفيف حدة العداء للانجليز مما جعل السلطان فيصل ينحو منحى جديدا يقوم على الاعتماد على مشورة المعتمد البريطانى فى مسقط . وقد سنج

(١١٥) نفس المصدر ص ٧٣ — ٧٤ .

(١١٦) خطاب مؤرخ ١٨٩٩/٦/٣٠ من هاملتون الى كرزى .

الوضع الجديد لأن للوزير سعيد بن محمد بأن يستعيد ما كان له في عهد السلطان تركي من نفوذ على البلاط . وفي أواخر سنة ١٨٩٩ طلب السلطان فيصل إلى الحكومة البريطانية بأن تتقدم عنه باحتجاج إلى الحكومة الفرنسية على رفع بعض السفن العمانية للعلم الفرنسي . قد جاءت هذه الخطوة دليلاً على اعتماد السلطان على الانجيز في الشؤون الخارجية اعتماداً كلياً (١١٧) .

أما على الصعيد الداخلي فقد عاد فيصل إلى انتهاج الأسلوب الذي كان يسير عليه والده تركي . وعند إحالة الوزير سعيد بن محمد في سنة ١٩٠٢ على التقاعد خلفه قطب قديم آخر من أقطاب الجناح المعتدل هو سليمان بن سويلم (١١٨) . وخلال هذه الفترة نجح السلطان في تحقيق بعض الاستقرار المؤقت في أوضاعه المالية ، عن طريق قروض جديدة من البريطانيين واستغلال الجمارك من جانب الحكومة نفسها . وتنفيذاً لهذه السياسة أنشأ السلطان مصلحة للجمارك في سنة ١٨٩٩ وكنتيجة لهذا الاجراء ارتفعت حصيلة دخله من الجمارك فيما بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٤ إلى ٨٠٠٠٠ ريال في العام وهو رقم يزيد على الرقم الذي كان يدخل إلى خزينته عندما كانت الجمارك في يد القطاع العام (١١٩) . كما ان ضعف المعارضة العمانية لفيصل من جانب القوى المحافظة ، قد مكن فيصل باستخدامه لتكتيك والده من استعادة نفوذه في المنطقة الداخلية من البلاد . وفي سنة ١٩٠٣ أصبح نفوذه في المناطق الريفية أقوى من أي وقت مضى ، كما دانت له بعض المناطق الهامة في داخلية عمان كمدينة نزوى حيث كان لوالده تركي مجرد نفوذ اسمي في أحسن الحالات . وفي

(١١٧) خطاب مؤرخ ١٩٠٠/١/٥ من هاملتون الى كرزن .

(١١٨) كتاب « لوريير » مجلد ١ ص ٥٢٥ .

(١١٩) نفس المصدر ص ٥٧١ - ٧٣ و ٥٨٤ - ٥٨٦ .

سنة ١٩٠٣ ابتاع السلطان سفينة مسلحة لتعزيز نفوذ مسقط على المقاطعات الساحلية من عمان (١٢٠) .

إن الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٣ تعتبر بداية لمرحلة جديدة في مصير الاباضيين المحافظين في عمان . فب وفاة ابراهيم بن قيس في مدينة الرستاق سنة ١٨٩٨ خسر المحافظون آخر زعيم على قيد الحياة من زعماء إمامة سنة ١٨٦٨ - ٧١ ممن لهم نشاط سياسي ملحوظ . ولقد قام سعود بن عزان ، نجل الامام عزان بن قيس بمحاولات جديدة لاهياء الحركة المحافظة واعادة تنظيمها فدعا في سنة ١٨٩٨ إلى مؤتمر عام في مدينة الرستاق لبحث إمكانية بعث الإمامة في عمان بزعامته . وكان يبدو الأول وهلة أن حركة سعود قد تنجح ، غير أن الزعماء والساسة الشبان الذين ورثوا زعامة المحافظين ، لم يكونوا قد حققوا النضج والخبرة والنفوذ اللازم لتحقيق التناسق السياسي والديني الذي لا بد من أن يتوفر لنجاح أي حركة لبعث الحكومة الذاتية في البلاد (١٢١) . غير أن اغتيال سعود بن عزان في سنة ١٨٩٩ قد قضى نهائياً على هذه الآمال . ومع ذلك فقد ظهر من بين الصفوف زعماء جدد من جيل الشباب العماني المحافظ . حيث ظهر عيسى بن صالح ، نجل صالح بن علي كأهم زعيم بين الزعماء الذين يؤيدون النظام المحافظ في عمان . كما كانت الحاجة ماسة إلى زعيم ديني وفكري جديد يلتفت من حوله الرأي العماني العاه المحافظ ويشغل المكان الذي شغل ب وفاة سعيد بن خلفان سنة ١٨٧١ . وقد تركزت الانظار على عبد الله بن حميد السالمي ، المؤرخ والقاضي وعالم الحركة الاباضية في عمان . وفي بداية القرن العشرين وقع حادث هام في عمان الداخلية . فقد قرر بعض قبائل عمان الشرقية ، اعتزال

(١٢٠) التحفة ، تأليف السالمي جزء ٢ ص ٢٩١ و كتاب « لوريمر مجلد ١ ص ٥٨٣ - ٥٨٤ .

(١٢١) التحفة ، تأليف السالمي جزء ٢ ص ٢٨٩ - ٩١ .

السياسة والاثنزواء في الداخل • وفي سنة ١٩٠٢ منع عيسى ابن صالح بعثة مؤلفة من بعض العلماء البريطانيين من التقيب عن الفحم في إحدى المناطق الواقعة في الجزء الداخلي من اقليم صور • كما رفض عيسى بن صالح طلبا تقدم به الماجور برسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج بفتح المنطقة سلمياً للأبحاث العلمية ورد على اقتراح المقيم بعبارة تقول : « أننى لست مستعداً للاجتماع به أو لاجتماعه بى » (١٢٢) • ولقد تحققت هذه التنبؤات ، إذ ما ان عادت الامامة إلى عمان الداخلية في سنة ١٩١٣ ، بجهود زعماء أمثال عيسى بن صالح ، حتى اعتنقت سياسة التقوقع والانعزال على الصعيد الرسمي •

غير ان الامامة المحافظة في عمان سنة ١٩٠٣ لم تكن لها تلك الشعبية ولا استقطبت ذلك الولاء الذى كان لها في الماضى ، وبذلك صفا الجو للسلطان فيصل لى ينعم بالسلطة • غير ان زيارة اللورد كرزن لمسقط في سنة ١٩٠٣ كجزء من برنامج زيارته العسامة لاقطار الخليج والتي كانت تستهدف تأكيد السيطرة البريطانية على المنطقة قد كشفت حقيقة السلطة الفعلية التي يمارسها السلطان فيصل • فقد كتب اللورد كرزن في سياق تقرير له عن تلك الزيارة بأن السلطان فيصل كان يمثل « دور التابع المخلص للتاج البريطانى أكثر مما كان يمثل دور الحاكم المستقل » • كما أشار اللورد بأن وضع السلطان بالنسبة للحكومة البريطانية لا يختلف اطلاقاً عن وضع « أمراء الهند المرتبطين بعجلة الحكم البريطانى » ولقد كافأ اللورد كرزن السلطان فيصل على ولائه هذا بأن تعهد له بأن حكومته سوف تخف حمايته ، وبالقوة إذا دعا الأمر (١٢٣) في أى وقت يتعرض حكمه للتهديد • ولقد نفذت بريطانيا تعهدها هذا بعد مضي عشر سنوات من ذلك التاريخ •

(١٢٢) نفس المصدر ص ٣٠١ Precis Maskat ص ١١٥ •

(١٢٣) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٦٣٤ — ٣٦ •

ولئن كان فيصل في سنة ١٨٩٩ على استعداد لأن يمثل دور « التابع المخلص للتاج البريطاني » فإنه في قرارة نفسه لم يكن راضياً عن ذلك الوضع وهذا يفسر حالة اليأس التي كانت تتنابه من حين إلى آخر . وفي عام ١٩٠٣ وهو نفس العام الذي استسلم فيه السلطان فيصل لشروط الانجليز ، أخذ يفكر جدياً في التنازل عن الحكم (١٢٤) . وربما كان إحساس فيصل بالعزلة وخيبة الأمل والقلق من المستقبل أقوى ما يكون في تلك المرحلة من حياته . فلقد اتهمه العمانيون بالتواطؤ مع الاجنبي ، ورغم ذلك فقد كان إيمانه بعمان وولاؤه لتقاليدها أمراً لم يكن يرقى اليه الشك . والدليل على ذلك هو لقب « الامام » على العملة الرسمية التي اصدرها . وبالرغم من إدراك فيصل ، بعد الحادث الذي تعرض له في سنة ١٨٩٩ ، أنه يعيش في عصر ، الكلمة العليا فيه للدول الحديثة ، فإنه في الواقع . لم يكن يفهم ما تريد تلك الدول ، وكان يبدو متشائماً من التغييرات التي قد يكشف عنها المستقبل . ومن المفارقات العجيبة حقاً أن الرجل الذي حاول في وقت من الأوقات أن يحافظ على استقلال بلاده وكرامتها ، لم يظهر أى استعداد لتخليص بلاده من تقاليدها البالية .

(١٢٤) نفس المصدر ص ٥٨٧ .

الفصل التاسع

خاتمة

عمان في القرن العشرين

في غضون النصف الأول من القرن العشرين ظلت الاحداث في عمان تسير على نفس المنوال الذي سارت عليه ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٩٠٣ . فلقد كانت الحكومة في مسقط تمثل مصالح سكان المنطقة الساحلية والاباضية المعتدلة . وكانت تتمتع بحماية الحكومة البريطانية ومساعدتها . وكان المعتدلون يواجهون معارضة من المجموعات الاباضية المحافظة المتحصنة داخل الحدود الداخلية للبلاد . وكانت هذه المجموعات تسعى بحكم عقليتها البالية إلى المحافظة على بيئتها الدينية والسياسية المتجانسة . ومن ناحية أخرى ظلت الحالة الاقتصادية — وكانت تمر بمرحلة ركود في سنة ١٩٠٣ — تسير من سىء إلى أسوأ . وقد ظلت هذه السمات ، وفقاً للظروف المتغيرة تستقطب واقع المجتمع العماني حتى سنة ١٩٥٥ . فابتداء من هذا التاريخ بدأت تظهر بوادر تغييرات اساسية في صلب المجتمع العماني . وكان في حكم المؤكد ، على ما يبدو ، أن عمان على أبواب مرحلة جديدة في تاريخها وأنها تشهد بداية النهاية لمرحلة مؤلمة من التخلف السياسى والاقتصادى استمرت مائة عام وقضت على أهمية البلاد ومكانتها في جميع أنحاء العالم . .

انقسام عمان الى سلطنة وامامة ، ١٩١٣ — ١٩٥٥

قضى السلطان فيصل معظم الفترة ما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ يعمل ، كما يبدو ، على تعزيز مركزه في البلاد . ويتضح من وضع عمان ،

إذا ما نظرنا اليه من زاوية الماضي ، أنه قد تطور تطوراً واضحاً • فالسلطان فيصل لم يسترد مركزه من جراء النكسة التي منى بها في سنة ١٨٩٩ عندما عصفت الأحداث بأمانيه وأحلامه في حكم مستقل ، واهينت كرامته الشخصية اثناء وجوده على ظهر السفينة الحربية البريطانية • وطوال الفترة التي كان فيها السر برسي كوكس معتمداً سياسياً للحكومة البريطانية لدى السلطان — سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٤ ، كان السلطان المغلوب على أمره ينفذ أوامر البريطانيين • وهكذا استطاع السلطان فيصل بفضل القروض الانجليزية وتوجيه « الملك غير المتوج للخليج » تحسين أوضاعه المالية إلى حد ما (١) • كما استعاد بعض ما فقده من نفوذ بين قبائل عمان الداخلية وذلك كله بفضل العودة إلى سياسة وتكتيك والده السلطان تركي بن سعيد ، وهي سياسة تقوم على إقرار السلام والوثام في ربوع السلطنة الداخلية والساحلية • غير أن الجانب الأكبر من النجاح النسبي الذي حققه السلطان فيصل بعد سنة ١٩٠٣ لا يعود اليه شخصاً بقدر ما يعود إلى جهود سليمان بن سويلم وزير حكومة مسقط من سنة ١٩٠٢ حتى سنة ١٩٠٧ ، وأحد العبيد السابقين • وبما أن زعماء عمان المحافظين كانوا يومئذ منقسمين على أنفسهم ولا يثق بعضهم ببعض الآخر ، حتى سنة ١٩١٣ عندما عادوا فاتفقوا من جديد ، فإن هذا يعني أن السلطان لم يكن يواجه معارضة قوية ضد الحكم تستنفد جانبا من اهتمامه • ولهذا ساد البلاد جو من الهدوء النسبي استمر لبعض الوقت • في عام ١٩٠٦ تمكن السلطان من إقامة علاقات ودية — على المستوى الرسمي على الأقل — مع الشيخ عيسى بن صالح الذي تولى زعامة الحرث سكان المقاطعة الشرقية • خلفاً لوالده صالح بن علي ، كما كان أحد زعماء الهناوية البارزين • وكان الشيخ عيسى مشغولاً

(١) رسالة بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٩١٧ من كرزن إلى كوكس نقلاً عن جريفيز في كتابه « حياة كوكس » وقد المح فيه إلى إشارة كرزن إلى المكانة التي أصبح يحتلها كوكس في الخليج خلال عمله هناك .

في ذلك الوقت بالبحث عن حلفاء يؤيدونه في نزاعه مع الشيخ حمد بن ناصر زعيم بنى ريام (٢) .

أما فيما يختص بعلاقات عمان الخارجية فقد اتسمت الفترة الواقعة بين سنة ١٩٠٤ و سنة ١٩١٤ بالاستقرار المتزايد إذا قورنت بالأحوال المضطربة الحافلة بالمناسورات في الفترة السابقة . وقد تمت تسوية الخلافات الانجليزية - الفرنسية على عمان ، وحصلت بريطانية على اعتراف من جانب الدول الكبرى بسيادتها على منطقة شرقي الجزيرة . وكننتيجة لا اتفاق سنة ١٩٠٤ بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية سويت مشكلة السفن العمانية التي كانت ترفع العلم الفرنسي « عن طريق محكمة لاهاي » وفي الفترة ما بين سنة ١٩٠٨ و سنة ١٩١٤ بذلت بريطانيا جهوداً واسعة للحد من تجارة السلاح في مسقط ، وهي الجهود التي اسفرت عن اعتراف دولي باطلاق يد بريطانيا في معالجة هذه المشكلة والقضاء عليها . ولقد قاوم الفرنسيون هذه المحاولات في البداية واعتبروها استراتيجية بريطانية موجهة ضد حق فرنسا في حرية الوصول إلى الأسواق العمانية ، غير أن حكومة باريس وافقت أخيراً على مبدأ التعويض الذي اقترحته الحكومة البريطانية . وكان عام ١٩١٤ خاتمة لمحاولات دامت عشرين عاماً بذلتها فرنسا لتوطيد نفوذها وحقوق معاهداتها مع عمان . وبانسحاب فرنسا من حلبة الصراع لم تحاول أى دولة كبرى غيرها تحدى السيطرة البريطانية في عمان . ولما كان ابن سعود مشغولاً في ذلك الوقت بمحاولاته التي أدت إلى إقامة دولة سعودية في شبه الجزيرة العربية ، لم يعد امام زعماء عمان أو حلفائهم البريطانيين مشاكل مباشرة .

غير ان الفترة القصيرة التي نعمت فيها عمان بالاستقرار الداخلى سرعان ما انتهت في سنة ١٩٠٧ . فقد اغتيل سليمان بن سويلم في منطقة

(٢) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ و كتاب عمان اعداد شركة الزيت العربية الامريكية ص ٥٢ .

السيابيين ، بينما كان عائداً من زيارة إلى القابل مقر الشيخ عيسى بن صالح بمقاطعة الشرقية ويبدو أن اغتيال هذه الشخصية ذات النفوذ قد جاء نتيجة لزيادة السخط في اوساط بعض القبائل العمانية ضد تدخل المذكور في شؤونهم الداخلية . كما كان الاعتداء على حياته مقدمة لسلسلة من المتاعب للسلطان في هذا الجزء الحيوى من عمان . فقد سير السلطان حملة عسكرية لتأديب السيابيين . ورغم ما حققته الحملة من اجراءات انتقامية ضد هذه القبيلة الا أنها لم تساهم في تعزيز مركز السلطان في وادى سمائل . كما كانت الحملة آخر محاولة جادة من فيصل لفرض سلطته في المنطقة الداخلية من عمان . وبما ان حكومة فيصل قد ضعفت بوفاة واحد من ابرز رجالها فقد دب فيها التفكك والانحيار . فالاستقرار المالى الذى تحقق للبلاد فيما بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٤ كان الضحية الأولى لهذا التدهور . ورغم وعود السلطان بالرجوع إلى البريطانيين في أموره المالية ، إلا أنه عقد قروضاً جديدة كبيرة مع التجار الهنود المستوطنين ، ومع الجمارك ، كما أخذ قرضاً من المسيو جوجيور ، أكبر تاجر اسلحة فرنسى في مسقط . ولقد ساءت الحالة المالية في سنة ١٩١٠ كنتيجة لانخفاض ايرادات الجمارك بعد الحصار الاقتصادى الذى فرضه البريطانيون على شواطئ الخليج لمنع اعادة شحن الاسلحة منه إلى الخارج ، في عام ١٩١١ تقدمت سلطات الهند — البريطانية بقرض كبير وبدون فوائد للسلطان لانقاذه من افلاس مؤكد ، غير ان الجهاز المالى غير الفعال للسلطان استمر على حالته (٣) .

وفي سنة ١٩١٢ انفجر الوضع المتدهور من جديد عندما وافق السلطان على مشروع بريطانى بإنشاء مركز لخزن الذخيرة وتوزيعها في عمان فمنذ سنة ١٨٩٨ ظل البريطانيون يضغطون على السلطان بفرض

(٣) التحفة ، تأليف السالمى ٢ ص ٣٠٣ — ٣٠٥ و « تجارة الاسلحة » — ١٩١٣ من سجلات الحكومة الهندية .

حظر أشد على تجارة الأسلحة ، كما أرغمت الحكومة البريطانية رعاياها الهنود على عدم الاشتراك في أى صفقات تجارية في الأسلحة ، وقد أدت هذه الاجراءات إلى تحول الأرباح إلى المؤسسات الفرنسية والالمانية . وعلى الرغم من أن السلطان قد وافق في النهاية على التوقيع على اجراءات الرقابة الضارة باقتصاده تحت ضغط الانجليز ، إلا أنه سبق أن عارض المحاولات البريطانية للحد من تجارة الاسلحة ، لأنها كانت تمثل جانبا هاما من النشاط التجاري في البلاد ، وكانت مربحة اخزانة السلطان الخاوية . ففى عام ١٩٠٧ حصل السلطان على سبيل المثال على ١٤٥٠٠ ج . س . كضرائب من شحنات الاسلحة التى وردت إلى البلاد . ولكن بعد ان تعهدت بريطانيا للسلطان بزيادة نسبة المخصصات التى تدفعها اليه عن زنجبار إلى ١٠٠٠٠٠ روبية أو (٦٦٦٦ ج . س) وافق على فرض قيود على هذه التجارة وقد أعطيت له هذه الزيادة لتغطية الخسارة المالية التى قد يتعرض لها إذا ما وافق على الحد من تجارة السلاح . وإذا كانت القيود التى فرضها السلطان على الأسلحة ، قد وضعت نهاية لعمليات تهريب الأسلحة في الخليج وكان ذلك في مصلحة الانجليز ، فإنها من ناحية أخرى قد عجلت بانفجار أخطر أزمة تجارية يواجهها الحكم في مسقط (٤) .

وقد رأى كثيرون من العمانيون ان توقيع فيصل على الاتفاقية دليل على خضوعه التام للنصارى من الاجانب وعلى ميوله الهرطقية . فلقد أصبح اعتماد السلطان على المساندة العسكرية البريطانية ، واضطراره إلى تبني وجهة النظر البريطانية فيما يتعلق بتجارة الأسلحة أمراً واضحاً كل الوضوح . والواقع أن الشيخ عيسى بن صالح قد بعث في سنة ١٩٠١ برسالة شديدة اللهجة إلى السلطان فيصل يحتج فيها على اطلاق المسؤولين البريطانيين سراح العبيد الذين يفرون من

(٤) الخليج العربى ص ٢٧ تأليف ارنولد ويلسون و « م . ان » اعداد شركة الزيت العربية السعودية ص ٥٣ .

اسيادهم (٥) . كما عاد فاحتج في سنة ١٩١٢ على قيود الحظر التي فرضت على تجارة الأسلحة . غير أن الزعماء الآخرين من المحافظين لم يكتفوا بتوجيه خطابات الاحتجاج وحسب . ففي شتاء سنة ١٩١٣ استطاع زعماء ودعاة الإباضيين المحافظين تعبئة الرأي العام في المقاطعات الوسطى من عمان . وفي منطقة الجبل الأخضر وفي الشرقية ضد الاقتراح البريطاني بإنشاء مركز لتوزيع الأسلحة ، لكونه محاولة من الانجليز لحرمان العمانيين من الحصول على حاجتهم من الأسلحة الحديثة . وإذا كان هذا الاجراء قد افاد السلطان من الوجهة السياسية ، لأنه يحرم القبائل العمانية من أسلحة يستخدمونها ضده ، غير أنه قد غاب عن ذهن السلطان ان قبائل عمان كانت تقوم بجمع الاسلحة والذخيرة منذ فترة تمتد عشرين عاماً . وكانت مسلحة حتى الذقون وان الاجراء الذي اتخذهُ السلطان قد جاء متأخراً (٦) .

في ربيع سنة ١٩١٣ بدأ خليط من زعماء المحافظين بالتجمع والاستعداد لمواجهة ما كانوا يعتقدون أنه خطر يتهددهم . وكانت ثمة ثلاث طوائف رئيسية بين المحافظين . كانت هناك المجموعة التي يتزعمها الشيخ عبد الله بن حميد السالمي ، العالم الديني الضير وأبو التاريخ العماني ورائد العقيدة الإباضية ، وأكثر المجموعات تطرفاً في العقيدة بمفهومها الكلاسيكي الذي يهدف إلى إقامة الدولة الإباضية الفاضلة . وكان الشيخ السالمي يحظى بتأييد الشيخ سالم بن راشد الخروصي ، زعيم بني خروص وهي قبيلة انجبت عددا كبيرا من الأئمة العمانيين في القرون الوسطى . ومجموعة بني هنا بزعامة عيسى بن صالح شيخ الحرث وهي قبيلة عسكرية وتمثل النواة الصلبة في قوة المحافظين

(٥) حياة برسي كوكس ، ص ٦٣ ، تأليف جرينز .

(٦) « الحرب العربية » جرتود بيل . من تقارير سرية كانت تبعث بها المؤلفة الى القيادة البريطانية العامة . وقد أعيد نشرها من النشرة السرية العربية ص ٢١ (طبعة لندن ١٩٤٠) .

العسكرية واليهما يعود الفضل في نشوء إمامة عزان بن قيس سنة ١٨٦٨ •
وكان الشيخ عيسى بن صالح زعيماً لامعاً قوى الشكيمة ، وقد نشأ
كوالده الراحل نشأة سياسية في المقام الأول • وكان يسعى إلى
تحقيق الاستقلال الذاتى لقبيلته واحتلال مركزها الطليعى بين قبائل
الهناوية وإلى تأكيد زعامته للقوى المحافظة في عمان • ولم يكن الشيخ
عيسى مترمماً كالسالمى في مسائل العقيدة ، وكان بالتالى ميالاً إلى الحلول
السياسية ان توفرت • أما المجموعة الثالثة فهى قبائل بنى ريام وأحد
أركان قوى الإباضية في عمان وكان يتزعمها حمير بن ناصر النبهانى شيخ
مشايخ بنى ريام الغافرية • ومقر هذه القبيلة مدينة تنوف الواقعة على منحدرات
الجبل الأخضر المطل على مقاطعة عمان الوسطى • وقد ظل الشيخ ناصر
معتزلاً في مقره ولم يشارك في إمامة عزان بن قيس وفي نشاط المحافظين
بوجه عام حتى أوائل القرن العشرين • وكانت المخاوف تساور الشيخ
حمير على استقلاله وعلى مستقبل العقيدة الإباضية من التدخل المقترايد
للقوى الأجنبية في شؤون البلاد الداخلية والتلاعب بمقدراتها مما دفعه
إلى الانضمام إلى المحافظين والانحياز إلى صفوفهم • وقد تأثر شيخ
بنى ريام في قراره هذا بالمصالح القبلية أكثر مما تأثر بأهداف مؤسسى
امامة سنة ١٩١٣ • كما ان فصيلة النباهنة من بنى ريام قد ساهمت بعدد
من الزعاء الذين وصلوا إلى مراكز القمة في داخلية عمان فيما بين القرن
الثانى عشر والسابع عشر (٧) • وقد تم تشكيل الائتلاف المحافظ على
مرحلتين • فقد اجتمع كل من حمير بن ناصر وحميد السالمى ، وسالم
بن راشد الخروصى في مدينة تنوف في شهر مايو سنة ١٩١٣ واتفقوا
على ترشيح الخروصى إماماً على عمان ، ثم شرعوا في تعبئة بقية

(٧) « الحكم العربى ، فى ظل أسرة البوسعيد العمانية » برترام توماس :
موضوع محاضرة القاها فى الاكاديمية البريطانية - سلسلة ١٤ (١٩٣٨)
ص ٤٧ و كتاب عمان اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية ص ٥٣ و ٧٥-٨٢ •

العمانيين لتأييد هذا الترشيح للإمامة الجديدة (٨) . وفي أعقاب هذا المؤتمر لعلماء الدين الإباضيين أعلنوا خلع السلطان فيصل عن الحكم لانحرافه عن جادة المسلمين أي (الإباضيين) وباعتبار وجوده على الحكم غير شرعي وأحكامه باطلة (٩) وتعيين الخروصي اماماً على عمان . وكان الواضح من هذه الخطوة أنها تهدف في الأساس إلى إقامة إمامة على غرار إمامة سنة ١٨٦٨ - ٧١ وتضم كل عمان ساحلياً وداخلياً . في البداية لم يشترك عيسى بن صالح في هذا التجمع ، نظراً لعدائه الشديد لحمير بن ناصر وعبد الله بن حميد السالمى من ناحية ، ولما يتمتع به من حس سياسي عملي جعله يتريث حتى يعرف موقف الراى العام بالنسبة إلى النظام الجديد ، إلا أن إنتظاره لم يطل . ففي شهر يونيو سنة ١٩١٣ أعلنت نزوى ، ذات المكانة العريقة في تاريخ عمان ، عاصمة للإمامة الجديدة . وفي يوليو تبعها بلدة ازكى المجارة . وفي هذه الاثناء أعلنت غالبية القبائل العمانية — غافريين وهناويين — ولاءها للإمام الجديد . ويعتبر تأييد الهناوية والغافرية للخروصي ومساهماتهم في تنظيم وإنشاء الامامة الجديدة أمراً بالغ الأهمية . فقد كان من الأسباب التي اطاحت بإمامة عزان بن قيس ، وما أعقبها من فشل المحافظين في صراعهم ضد السلاطين المعتدلين . غير ان عيسى بن صالح ما لبث أن أدرك الحقيقة فانضم إلى الامامة في يوليو سنة ١٩١٣ ، وأصبح بعد قليل أحد أركانها . بانضمام عيسى إلى المؤيدين للإمامة تعززت جبهة الهناوية — الغافرية وظلت محتفظة بقوتها وبوحدتها للأمة زهاء أربعين عاماً (١٠) .

في شهر يوليو سنة ١٩١٣ أثارت الأحداث داخل عمان مخاوف المعتمد السياسى البريطانى في مسقط مما دفعه إلى توجيه تحذير إلى

(٨) مذكره السعوديه مجلد ١ ص ٣١٨ و « الحرب العربيه »

جرترودييل ص ٣١ .

(٩) مذكره السعوديه مجلد ١ ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

(١٠) « أسره ابو سعيد » ، تأليف برترام توماس ملف ٢٤ ص ٤٧ .

الزعماء العمانيين من القيام بمهاجمة مسقط أو مطرح ، وقال لهم في رسالته :
بأن حكومته لن تقف مكتوفة اليدين إزاء عمل كهذا • غير أن الماجور نوكس
لم يرتح لرد الإمام الذي حذره فيه من تدخل بريطانيا في شؤون
الاباضيين ، أو الاعتداء عليهم ^(١١) • وإزاء هذا الوضع أصبح من المحتتم
إنزال فصيلة صغيرة من القوات الهندية في مطرح في شهر يوليو كتعبير
عن عزم حكومة الهند البريطانية على تنفيذ التزاماتها بالدفاع عن السلطان •
وعلى أى حال فقد تدهور موقف السلطان تدهوراً خطيراً في شهر
أغسطس ، لأن الممرات الواقعة في وادي سمايل ، كما ومنطقة سمايل
نفسها قد سقطت في أيدي أنصار الإمام • وغدت كل من مسقط ومطرح
معرضتين للتهديد المباشر من جانب نظام الإمام الذي كان قد أعلن بأن
هدفه هو إطاحة حكم السلطان • وتحسباً لهذا ضوعفت في شهر سبتمبر
سنة ١٩١٣ القوات الهندية المرابطة في أراضي السلطان وانتقل الجنود
إلى خنادقهم وتحصيناتهم في بيت الفلج على مدى قريب من المدينتين
الساحليتين ^(١٢) •

في الرابع من شهر أكتوبر سنة ١٩١٣ توفي سيء الحظ فيصل بن تركي
بعد أن وهنت سلطته على مملكته • وخلفه على الحكم ابنه الأكبر تيمور ،
وكان يومئذ في السابعة والعشرين من عمره • وكان له نشاط ملحوظ في
حكومة والده الراحل • وبما أن تيمور قد تولى الحكم في فترة كانت خزانة
الدولة فارغة وسلطة الحكم مزعزعة في البلاد فقد حاول بكل ما في
طاقته أن يعمل على تحسين الأوضاع • ولهذا بادر إلى دعوة صديقه القديم
الشيخ عيسى بن صالح إلى مسقط للدخول في حوار معه وكان ذلك في
شهر ديسمبر سنة ١٩١٣ • غير أن محادثاته مع صالح لم تسفر عن نتيجة ،

(١١) مذكرة الحكومة السعودية مجلد ١ ص ٣١٩ •

(١٢) الحرب العربية ص ١٢ ، تأليف جرتروود بيل •

وفي ربيع سنة ١٩١٤ كان رصيد الامام من التأييد بين قبائل عمان الساحلية قد ازداد كثيراً • وقد احتل المحافظون المدينتين الساحليتين بركا على ساحل الباطنة وقريات الواقعة على مسافة ٤٠ ميلا إلى الجنوب من مسقط • ولم يبق تحت سيطرة السلطان تيمور سوى مسقط ومطرح وصور وصحار وبعض الموانئ الساحلية الصغيرة على ساحل الباطنة • غير أن المحافظين تلقوا في شهر أبريل سنة ١٩١٤ أول ضربة عندما قام الطرادان البريطانيان فوكس ودرمرت باقصائهم من بركا وقريات • فبعد وجود استمر مائة عام لم يعد البريطانيون يهتمون أى تهديد لنفوذهم على شواطئ الخليج ، غير أن نشوب الحرب العالمية الأولى في شهر أغسطس سنة ١٩١٤ جعل السفن الحربية والقوات المسلحة البريطانية غير متوفرة ومستعدة للعمل بالسرعة والشكل اللذين كانا متوفرين من قبل • وفي نفس الوقت كانت الدعاية الألمانية التي أخذت تتسلل إلى عمان عن طريق زنجبار وأفريقيا الشرقية الألمانية (تنجانيقا) تعلن أن النفوذ البريطاني في الخليج لم يعد له وجود • وعلى كل ففى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ وصلت مجموعة أخرى من القوات الهندية الى مسقط • ومن ثم فعندما قام الامام سالم الخروصي والشيخ عيسى بن صالح بهجومهما المنتظر على العاصمة في شهر يناير سنة ١٩١٥ كانت وسائل الدفاع عن البلاد على أتم الاستعداد (١٣) •

ولقد قامت بالهجوم على مسقط قوة تتألف من ٣٠٠٠ مقاتل ضد ٧٠٠ جندي من القوات الهندية المرابطة وراء تحصينات قوية • ثم التحم الجيشان ، جيش الامام الواصل من نفسه ضد جيش مسقط الذي يقل عنه عدداً ولكنه يفوقه تدريباً وتنظيماً • ونشبت معركة بين الطرفين في وضوح النهار • غير أن انعدام أى أثر للتكتيك العسكري في جانب قوات

(١٣) نفس المصدر ص ٢١ - ٢٣ و « عمان » اعداد شركة ارامكو ص ٥٤ •

الامام اسفر عن مجزرة رهيبة في صفوفها اضطرها إلى التقهقر نحو المرتفعات الداخلية دون أن تفكر في إعادة الكرة مرة أخرى (١٤) . ولقد تم تطهير المنطقة الساحلية من فلول قوات الامام بعد هجوم شنته قوات مسقط في شهر يوليو سنة ١٩١٥ بقيادة السلطان تيمور على قبيلة بنى بطاش التي لم تكن قد المقت السلاح . وقد استسلمت حيل الغاف ، عاصمة هذه القبيلة ، كما استسلمت أيضاً بلدة دغمر ، ميناء المنطقة الجنوبية من مسقط حيث اقام العمانيون بعض التحصينات الدفاعية . وعلى الرغم مما اشييع يومئذ عن أن لقوات الامام تستعد للزحف على صور في شهر أكتوبر سنة ١٩١٥ ، إلا أن السلطان تيمور لم يجابه أى تحركات معادية بعد ذلك الوقت (١٥) .

أما وقد فشلت خطة المحافظين العمانيين في اللقاء تيمور وقواته إلى البحر ، أصبحت الفرصة مؤقتة لاجراء مفاوضات بين السلطان والامام . وقد جرت هذه المفاوضات بناء على اقتراح اللورد هاردنج الحاكم البريطاني العام في الهند ، الذي عرض خلال زيارته لمسقط في شهر فبراير سنة ١٩١٥ مساعدة المعتمد السياسي البريطاني كوسيط بين الجانبين . وقد فسر المحافظون موافقة السلطان على اقتراح اللورد هاردنج بإجراء مفاوضات بين مسقط والعمانيين على أنه علامة ضعف من جانب السلطان وبالتالي توقعوا أن ينهار حكمه . ومن ناحية أخرى كان هذا الاقتراح مثاراً للتردد والحيرة في أوساط المحافظين ، فلقد ساورهم الشك بنزاهة الوساطة البريطانية وعدم تحيزها بعد العشرات من زملائهم الذين سقطوا صرعى على يد القوات البريطانية قبل شهر من ذلك التاريخ . وعلى أى حال . فقد بدأت الاتصالات الرسمية في شهر ابريل سنة ١٩١٥ ، تبعها في شهر مايو محادثات بين عيسى بن صالح والمعتمد السياسي البريطاني .

(١٤) أسرة البوسعيد ، تأليف : برترام توماس ص ٤٨ ملف ٢٤ .

(١٥) الحرب العربية ص ٢٥ — ٢٧ ، تأليف ج . بيل .

واستمرت الاتصالات بشكل متقطع على امتداد صيف سنة ١٩١٥ تبين في نهايتها أن الاتفاق يكاد يكون مستحيلا بين الجانبين وبالتالي صرف النظر عنها (١٦) .

وتكتسب الشروط والمطالب التي تقدم بها المحافظون أهميتها من حيث الضوء الذي تلقيه على أهداف الامام سالم الخروصي ، كما ومن الذي أدرج معظم تلك الشروط والمطالب ضمن معاهدة السيب لسنة ١٩٢٠ التي وضعت حدا نهائيا للحروب التي كانت تتفجر بين السلطنة والامامة . وقد أكد المحافظون أكثر من مرة خلال المفاوضات أنهم لم يكونوا ضد الوجود البريطاني في عمان ، وانما كانوا يعارضون وجود القوات البريطانية في البلاد ويفضلون انسحابها ، كما ذكروا أيضا أن السلطان لم يعد يمثل الشعب لأنه خالف الصيغة الاباضية للحكم ، وطلبوا من الحكومة البريطانية الامتناع عن تأييده في سياسة تتعارض مع حقيقة الدين . ومن المآخذ التي عددها المحافظون على الانجليز من وجهة النظر الاباضية ، أن الانجليز كانوا يحرمون الحلال كإقتناء العبيد والأسلحة ويحلون الحرام كإباحة الخمر والتدخين . كذلك كان المحافظون يعارضون سيطرة بريطانيا على البحار التي ينبغي أن تبقى حرة للجميع كما انتقدوا المرسوم الذي يلزم جميع السفن العاملة فيما وراء البحار بالتوجه الى مسقط أولا لدفع ما عليها من ضرائب . كما أثار هؤلاء مسألة انخفاض قيمة الريال وآثاره الضارة على أهل عمان ، وإلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية والأقمشة . وعلى الرغم من أن هذه المشاكل كانت موجودة منذ عشرات السنين ، إلا أن التدهور الاقتصادي الذي أسفر عن الحرب العالمية الأولى قد ضاعف من الأزمة الاقتصادية ، وعلى كل فقد كان المحافظون يلقون كل اللوم على السلطان والانجليز ، ويتضح من هذا أن الحصار المفروض على واردات عمان الداخلية كان من أسباب المشكلة . ومن المشاكل التي أثارها المحافظون

موضوع ممتلكات وأموال قبائل عمان الداخلية ، والحرث منهم على الأخص في المنطقة الساحلية من لبلاد وفي زنجبار أو الذين عليهم ديون الأفراد يسكنون هذه المناطق ، ولم يكن في وسعهم الاشراف على أعمالهم أو تسوية ديونهم • وبالتالي لم يكن من المستغرب أن يعتبر المحافظون الاتجار في الرقيق أو الأسلحة حقاً مشروعاً من حقوقهم يتعين عليهم الدفاع عنه • وبالإضافة إلى تهمة الكفر التي وجهها المحافظون إلى السلطان ، فقد اتهموه أيضاً بإفساد العدالة وبالمحسوبية ، وبالتنكر لأصول الشريعة الاباضية ، وبأنه يبدد أمواله التي يستدين أكثرها من رجال الأعمال والتجار الهنود في الاحتفاظ بعدد كبير من الموظفين ، وعلى اقاربه وغيرهم من المحسوبين عليه • وعلى الرغم من كل هذه التهم فقد أعرب المحافظون عن استعدادهم لقبول السلطان حاكماً على عمان إذا وافق على أن تكون السلطة التنفيذية والادارة الفعلية للبلاد في يد الامام وفقاً لقانون الشريعة الاسلامية ، أما شخصياً أو عن طريق مندوب له في مسقط • ويبدو من هذا أن المحافظين كانوا يرغبون في الوصول إلى حل حتى ولو أدى ذلك إلى احتفاظ السلطان بالعرش ، إذا وافق أن يكون مجرد اداة في يد السلطات العمانية (١٧) •

غير أن السلطان تيمور رفض هذه الشروط كما تأكد لديه أن الامام لم يكن يرغب في الصلح لأنه كان يرفض الانسحاب والعودة الى وادي سمائل ، هذا في الوقت الذي كان الشيخ عيسى بن صالح مستعداً للاتفاق على مثل هذه الخطوة لمصلحة السلام • وعلى أي حال فإن السلطان وحلفاءه البريطانيين قد اتخذوا كافة الاحتياطات الدفاعية على امتداد الساحل ومن ناحية أخرى عاد الامام الى الداخلية حيث بدأ في تدعيم مركزه • وكجزء من حملة عسكرية قام بها الامام للاستيلاء على منطقة وديان جبال

(١٧) نفس المصدر ص ٢٣ — ٢٤ •

(م ٣٠ — عمان)

النحجر الواقعة إلى الشمال من وادي سمايل ، وقد أبعد أحمد بن ابراهيم ، ابن أخ الامام السابق عزان بن قيس ، وابن عم سلطان مسقط وصديقه من مدينة الرستاق . غير أن الشيخ عيسى بن صالح عارض هذا الاجراء ، فقد كان يفضل بقاء أحمد بن ابراهيم في مكانه . غير أن هذا الابعاد من ناحية أخرى قد وضع حدا للخلاف القديم بين فرعى قيس بن أحمد وسلطان بن أحمد من أسرة البوسعيد ، ولهذا لجأ أحمد بن ابراهيم إلى مسقط حيث احتضنه الحكم المعتدل هناك (١٨) .

فيما بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩٢٠ تدهورت الأوضاع في كل مقاطعات عمان الساحلية والداخلية بسبب الحرب الاهلية والتفكك الذي طرأ على الأوضاع العامة في منطقة الخليج كنتيجة للحرب العالمية الأولى . ففي داخلية عمان أدرك زعماء نزوى أن مواردهم لا تكفي لإطاحة حكم السلطان المؤيد من جانب البريطانيين ، خصوصا بعد أن استنفدوا طاقاتهم في الحروب التوسعية . وكنتيجة لانقطاع الاتصالات بين موانئ عمان ومقاطعاتها الداخلية ، وارتفاع الأسعار أصبح وجود النقد نادراً في المناطق التي يسيطر عليها المحافظون مما اضطرهم في سنة ١٩١٦ إلى مصادرة أملاك المؤيدين لآل بوسعيد ، ثم جاء حظر تصدير العملات في سنة ١٩١٨ إلى الخارج ليزيد الطين بلة . أن ما سببته الحرب الأهلية من مآسى للعمانيين يفوق حتى ما سببته موجة الكوليرا التي اجتاحت العالم في سنة ١٨١٨ — ١٨١٩ وراح ضحيتها ٢٠ ألف عماني وعلى الأخص في مقاطعات عمان الداخلية مما حمل الامام إلى إقامة صلاة عامة (١٩) أما في المنطقة الساحلية فقد أخذت سلطة حكومة مسقط تتدهور بشكل متزايد مع استمرار الظروف الطارئة . وعلى الرغم من أن السلطان تيمور كان

(١٨) نفس المصدر وكتاب « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية ص ٦٤ راجع أيضا سجل التقارير الشهرية للمقيم البريطاني في الخليج رقم ٢٢٩٧ سنة ١٩١٩ . ويقول بعض المصادر ان مدينة الرستاق سقطت في شهر يوليو سنة ١٩١٦ غير ان معظم المراجع تتفق ان احتلال هذا المعقل قد تم في ١٢/٨/١٩١٧ .

(١٩) التقرير الاداري الشهري ص ٤٧ لمكتب المقيم البريطاني في الخليج .

رجلا جديا ، إلا أنه لم يكن اداريا قديرا ، كما لم يكن يفهم شيئا في الشؤون المالية أو يستطيع وضع حد للفوضى التى كانت تضرب اطنابها في سلطنته . أما أقاربه فلم يكونوا في وضع يسمح لهم بتقديم أى مساعدة ادارية اليه وكانت غالبيتهم لا يهتمها من الأمر إلا أن تقبض مخصصاتها المالية من الدولة دون أن تقدم أى خدمة في مقابل ذلك . ومن ناحية أخرى فقد السلطان الدعم القبلى بانخفاض المكافآت المالية التى كان يتلقاها شيوخ المحافظين من حكومته . وعادت قبائل الهناوية فانضمت إلى الامام ، كما حذا بعض الغافرية حذوهم ، بينما اختار آخرون الحياد بين الجانبين . وفي سنة ١٩١٨ ضربت عمان أزمة تجارية خطيرة ارتفعت فيها الأسعار ارتفاعا مهولا كنتيجة للحروب الاهلية وعجز الحكومة عن ايجاد حل لمشكلة الديون التى تراكمت على السلطان للتجار الهنود حتى بلغت رقما يزيد على ٧٥٠.٠٠٠ روبية . وكانت الفوائد على هذه الديون تصل إلى ٤ بالمائة . وبما أن البريطانيين كانوا مشغولين بالحرب العالمية فقد تركوا مسقط تصارع مشاكلها مع الاستمرار في امدادها بجرعات دورية من القروض التى لا تخضع لفوائد على أساس اقتطاعها مستقبلا من مستحقات اقليم زنجبار لحكومة السلطان . وفي أعقاب سنة ١٩١٣ تدهورت الحالة التجارية في مسقط بدرجة تشبه ما منيت به في الستينات من القرن التاسع عشر بسبب حظر تجارة الأسلحة من جانب وتوقفت حركة النقل في عمان ، ساحلها وداخلها نتيجة للحرب الاهلية من جانب آخر فضلا عن منافسة ميناء دبی على ساحل عمان وعلى الأخص خلال الحرب العالمية الأولى التى أدت الى تعطيل حركة النقل وبالتالي نقص السلع التموينية في منطقة الخليج بأسرها . وفي سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ انخفض مجموع قيمة تجارة مسقط الى ٣٢٣.٨١٥ ج . س . أى نصف مجموعها قبل الحرب

تقريبا • وكان الجانب المشرق الوحيد في تلك الصورة المعتمدة للاوضاع انتعاش حركة النقل لدى أصحاب السفن والملاحين العمانيين الذين نجحوا مؤقتا في مزاولة بعض النشاط التجارى كنتيجة لغياب السفن البخارية ، وعمليات التهريب التى أوجدتها ظروف الحرب (٢٠) •

وكان من الواضح أن البلاد يمكن أن تستعيد بعض الاستقرار لو ساد ربوعها السلام ، وأعيد تنظيم العلاقة بين الإباذيين المعتدلين ، ولو أمكن تجديد الجهاز الادارى الذى لم تدخل عليه إلا بعض التحسينات الطفيفة منذ أيام السلطان تركى • وكان الانجليز يعلمون أن سبب الأزمة المستحكمة يعود الى حد كبير الى الفساد المستشري فى حكومة مسقط وإلى ضعفها وعدم شعبيتها • كما كانوا يعرفون أيضا بأن نظام السلطان يعتمد فى بقائه على مساعدة الانجليز وأموالهم ومساعداتهم ، وبالتالي فإن فشل تلك الحكومة كان انعكاسا سيئا لموقف الحكومة البريطانية نفسها • فى أوائل سنة ١٩١٤ قدم السير برسى كوكس ، المقيم البريطانى فى الخليج مشروعا إلى حكومة مسقط المتصدعة ، لتنظيم الادارة واقتراح تزويدها « بمستشار ادارى سرى » وبضابط من الجيش الهندى البريطانى للإشراف على الجيش ، غير أنه تعذر وضع هذا المشروع موضع التنفيذ بسبب انشغال بريطانيا بالحرب • كذاك كان البريطانيون يأملون بإمكان اقناع السلطان تيمور بالموافقة على وضع برنامج اصلاحى متى شاءوا ذلك ، وذلك بسبب الوضع المالى المتردى واضطراره الى الاعتماد عليهم فى النواحي المالية • أو كما عبر برسى كوكس نفسه « أنه طالما كان السلطان مديونا للحكومة البريطانية فانها ستكون فى موقف أقوى لفرض ما تريده بالنسبة لشؤون السلطنة » (٢١) • وفى خريف ١٩١٨ قدم الماجور هيوارث ، المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط مشروعا لاعادة تنظيم الادارة المالية ، وجهاز الأمن ، والحق بعض رجال الخدمة البريطانية فى

(٢٠) نفس المصدر - شخصيات عربية - ١٩١٧ ص ٧١ - ٧٢ •
(٢١) من كوكس الى الحاكم العام وقد ورد كمرفق لبرقية الحاكم العام الى وزير الدولة لشؤون الهند فى لندن - ١٩١٦/١١/٢٠ •

الهند بسلك المناصب الرئيسية لحكومة مسقط • ويشبه هذا المشروع مشروعات عديدة أخرى سبق للانجليز أن طبقوها في اقطار أخرى من الشرق الأوسط • ولما كان السلطان تيمور يائسا من امكان اصلاح أوضاعه السياسية بجهوده الخاصة ، فقد وافق على مشروع هيوارث وتسلم قرضا منه بمبلغ ٦٥٠.٠٠٠ روبية لتسديد الديون التي عليه ، غير أنه اضطر في مقابل ذلك إلى التنازل عن جانب هام من سلطته الفعلية في مجال الاشراف اليومي على شؤون الحكم في البلاد (٢٢) •

وقد تولى تنفيذ هذا المشروع المأجور آر • اى ال وينجيت الذى خلف هيوارث في منصب المعتمد السياسى البريطانى في مسقط وذلك في الفترة ما بين سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢١ • ففي سنة ١٩٢٠ عين الكابتن مالكولم الذى كان معتمدا سياسيا في الكويت ، أول وزير في قائمة الوزراء والمستشارين الماليين البريطانيين الذين ترأسوا حكومة مسقط • وقد فرضت قيود ومراسيم مالية صارمة فخفضت مخصصات السلطان وأفراد عائلته تخفيضا كبيرا ، كما أعيد تنظيم الخدمات الجمركية ، كما استحدثت وظائف جمركية جديدة في الموانئ البعيدة كميناء صور وصحار • وحل موظفون مصريون مدربون من قبل البريطانيين محل الموظفين الهنود في الخزينة المركزية • كما أنشئت مراكز تنفيذية تطورت فيما بعد الى ادارات مالية وجمركية ، وداخلية وخارجية وموائىء ، تم تشكيلها من رؤساء هذه الادارات وغيرهم من مساعدي السلطان ، مجلس وزراء للبت في شؤون الدولة في حالة غياب السلطان عن البلاد • وفي سنة ١٩٢١ عين الكابتن إى • فى مكارثى — من ضباط الجيش الهندى — أول قائد عام لجيش السلطان فقام بتنظيم هذا الجيش تحت اسم : « فيلق مشاة مسقط » • وقد شكل الجيش في البداية من بعض المرتزقة الايرانيين • ثم بدأ يضم افرادا من أهل البلاد ومن

(٢٢) من التقارير الشهرية التى يبعث بها المقيم البريطانى الى حكومته
ملف رقم ٢٢٩٧ سنة ١٩١٩ •

أقليم مكران • وقد حل هذا الجيش محل القوات الهندية — الانجليزية التي يعود اليها الفضل في انقاذ حكم البوسعيد خلال جربهم مع الامامة في سنة ١٩١٣ — ١٩٢٠ • كما قامت حكومة السلطان في سنة ١٩٢١ بشراء زورقين مسلحين كدليل على عزمها على الاشراف على حماية السواحل ومن ناحية أخرى أعيد تنظيم المحاكم التي كانت هدفا لنقد شديد من جانب العمانيين المحافظين بسبب ما كان يسودها من فساد وفوضى • وقد أضيفت اليها ادارة للشرطة الإسلامية ، كما انشئت محكمة عليا في مسقط يسمح باستئناف احكامها الى السلطان (٢٣) •

لقد أدرك الأنجليز أن نجاح أى خطة لتنظيم الحكم المعتدل يتوقف على وضع حد لعملية استنزاف الموارد المحدودة للسلطان عن طريق الحروب المستمرة بينه وبين أئمة عمان • ولهذا تقدم وينجيت (Wingate) في شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ ، أى في نفس العام الذي بدأ فيه تنفيذ برنامج هيوارث الإصلاحى في مسقط ، بدعوة الى الامام لاستئناف مفاوضات السلام التي كانت قد توقفت ، غير أن الامام سالم بسبب موقفه المقرر رفض دعوة المعتمد السياسى في مسقط • ولقد حاولت حكومة السلطان تيمور تصعيد ضغطها على الامام لحمله على الموافقة فرفعت نسبة الضريبة التأديبية على منتجات الامامة الى ٥٠ بالمائة من قيمة بعض هذه المنتجات (٢٤) • ومع ذلك فان فكرة الوصول الى اتفاق مع الامام لم تتبلور إلا في أعقاب مصرع الامام سالم بن راشد الخروصى على يد أحد الناقمين من قبيلة آل وهية وذلك في شهر يوليو سنة ١٩٢٠ • وبسرعة

(٢٣) « أسرة البوسعيد » ، تأليف برترام توماس من سجلات الأكاديمية البريطانية مجلد ٢٤ (١٩٣٨) ص ٤٩ — ٥٢ يعتبر تعيين وزير بريطانى في حكومة مسقط من الناحية النظرية ضرورة املتها الظروف ، بينما هو من الناحية العلمية تغيير في موقف حكومة السلطنة .

(٢٤) من التقارير الشهرية للمقيم البريطانى في أبو شهر ملف رقم

٢٢٩٧ و٢٢٩٨ سنة ١٩١٩ •

انتخب العمانيون محمد بن عبد الله الخليلى إماماً جديداً لهم • وكان هذا من قبيلة بنى رواحة الهناوية ، ومن خلاء الشيخ عيسى بن صالح ، وحفيد سعيد بن خلفان الخليلى الرأس المنظم والمستشار الأول لإمامة عزان بن قيس التى قامت منذ خمسين عاماً • واعتبر انتخاب الخليلى تحولا فى موقف العمانيين نحو قبول مبدأ المفاوضات مع السلطان والذى كان يؤيده الشيخ عيسى بن صالح • ومن ثم فقد بدأت المفاوضات على الفور • وبتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٠ وعن طريق وساطة الماجور وينجيت توصل الجانبان الى اتفاق على عقد معاهدة السيب بين حكومتيهما وهى المعاهدة التى وضعت مبدأ التعايش السلمى بينهما كما تعهد شيوخ عمان وقبائلها بالكف عن شن هجمات على المناطق الساحلية (٢٥) •

غير أن معاهدة السيب اتفاقية يحيط بها الغموض من نواح عديدة فهذه المعاهدة على سبيل المثال لا تحدد بشكل دقيق طبيعة حقوق السيادة الخاصة بالسلطان ، كما أن استقلال الامامة عن السلطنة غير واضح تماماً من المعاهدة • ومن ناحية أخرى فإن المعاهدة لا تنص بشئ عن حق الامام فى إقامة علاقات خارجية مع الدول الأجنبية رغم أن أحد المصادر المطلعة قد أشار الى وجود بند سرى يحرم طلب أى تدخل من الخارج (٢٦) • ومع ذلك فتنص المعاهدة عددا من الشروط كحرية تبادل السلع والأفراد بين المناطق التى يسيطر عليها كل من الحكومتين ، وتسليم المجرمين • ومجمل القول أن كلا الطرفين المتعاقدين يعترف ، فيما يبدو بالاستقلال الذاتى للطرف الآخر ضمن حدود كل دولة منهما وإن كانا قد تحاشيا النص بشكل صريح ومحدد على موضوع السيادة الشائكة • إن هذه المعاهدة تختلف فى صياغتها عن المعاهدات المعروفة فى الغرب فهى معاهدة تفتقر إلى التحديد

(٢٥) ترجم هذا النص عن النص العربى الذى وزعته الادارة السياسية للامانة العامة لجامعة الدول العربية •

(٢٦) مسقط — آسيا الفرنسية مجلد ٢٣ سلسلة رقم ٢١١ (مايو ١٩٢٣) •

في بنودها • فهي من حيث المسائل التي تتناولها أكثر منها اتفاقية للهدنة • غير أنها لا ترقى الى مستوى التسوية المحددة لجميع المشاكل التي تسببت في تعكير صفو العلاقات بين فرعى الأباضية في عمان • وقد تم الوصول إلى صيغة هذه المعاهدة بين المعتمد السياسي وينجيت نائبا عن السلطان والشيخ عيسى بن صالح نائبا عن الامام • وقد صادق الامام على المعاهدة في وقت لاحق ، ثم هذا حذوه نحو ١٥ شيخا من شيوخ القبائل المناصرة للإمام •

في الفترة الواقعة بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٥٠ لم تقع خلافات كبيرة بين الحكومتين اللتين تسيطران على عمان • ففي منطقة السلطان واجه المسؤولون مشكلتين خطيرتين : مشكلة الركود الاقتصادي في الجزء الساحلي من البلاد والاهتمام بالتغلب عليه • ومشكلة اسعاده الحكومة للثقة في قدرتها على ممارسة سلطاتها في البلاد بشكل فعال • غير أن المشكلات الاقتصادية التي واجهها النظام المعتدل لم تكن من النوع الجديد عليه ، هذا بالرغم من تفاقم هذه المشكلات بدرجة أخطر بعد سنة ١٩١٢ • وقد انتعشت التجارة مؤقتا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، غير أن البلاد تعرضت لأزمة جديدة في منتصف العشرينات من القرن التاسع عشر جعلت الاقتصاد عاجزا عن مقاومة موجات الركود الاقتصادي التي اجتاحت العالم في مطلع الثلاثينات من القرن التاسع عشر • وقد ظل البلح البند الرئيسي في صادرات عمان ، غير أن محصول البلح الجديد من العراق والولايات المتحدة قد أشتأثر بالنصيب الأكبر في الأسواق الأمريكية ، التي كانت تعتمد سابقا على منتجات عمان من هذا المحصول قبل منتصف العشرينات من القرن التاسع عشر • وقد بلغ مجموع قيمة تجارة عمان ٥٧٥٠٦٠٣ ج • س • في سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، و ٦٣٧٠٨١٧ ج • س • في سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦ ، و ٤٧٤٠٢٠٢ ج • س • في سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ ، و ٣٦٤٠٩٠٥ ج • س • في سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ ثم عاد فارتفع الى ٤٠٠٠٠٠ ج • س • بعد زوال أخطر مرحلة من مراحل الركود الاقتصادي شهدتها الثلاثينات

من القرن التاسع عشر • وعلى غرار الوضع في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى ظلت أرقام الواردات محتفظة بتفوقها على أرقام الصادرات من حيث مجموع القيمة ، كما لم تتغير أنواع المنتجات التي كان يجري التبادل فيها تغييرا يذكر باستثناء الأسلحة والذخيرة التي تدهورت أسواقها بعد إبرام معاهدة سنة ١٩١٢ الخاصة بأنشاء مركز لتوزيع الأسلحة في البلاد • كذلك ففي الثلاثينات بدأت المنتجات اليابانية الرخيصة تغزو الأسواق العمانية وتطرد منها السلع البريطانية مثل الأقمشة والمنسوجات • أما ريال ماريا تاريزا فقد ظل سعره يتأرجح سعر الفضة العالمي ، وبوجه عام ظل سعره منخفضا بالنسبة الى سعر الروبية والجنيه الأسترليني • وفي أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص تدنى سعر الريال النمساوي تدنيا كبيرا هذا بالرغم من أنه استعاد مركزه فيما بعد إلى حد ما • غير أن تحول التجارة عن مسقط الأمر الذي ضاعف منه تطور دبي كمركز تجارى لتبادل السلع مع أجزاء واسعة من جنوب شرقى الجزيرة العربية التي كانت تترود سابقا بحاجاتها عن طريق ميناء مسقط ، قد أرغم العدد الأكبر من أفراد الجالية التجارية الهندية في عمان على مغادرة البلاد والانتقال الى مطرح التي أخذت تستعيد نشاطها التجارى في أعقاب استئناف حركة النقل والمواصلات بين داخلية عمان والمنطقة الساحلية من البلاد • وفي منتصف العشرينات من القرن العشرين انخفض عدد سكان مدينة مسقط إلى ٤٠٠٠ نسمة فقط بعد أن خسرت المدينة جانبا كبيرا من نشاطها الاقتصادى الذى تحول إلى مدينة مطرح ، وإن كانت في الحقيقة ظلت محتفظة بأهميتها السياسية (٢٧)

خلال العشرينات من القرن العشرين كان يبدو أن احتمال اكتشاف

(٢٧) « الأوضاع الاقتصادية في الخليج » ابريل سنة ١٩٢٩ ، بقلم اللفتنانت كومودور فورستر (طبعة لندن ١٩٢٩) ص ١٦ — ١٨ وكذلك « الأوضاع الاقتصادية في الخليج » اكتوبر سنة ١٩٣٤ بقلم اف . ج جاميل (لندن ١٩٣٥) ثم تقرير عن الأوضاع الاقتصادية في الخليج — ديسمبر سنة ١٩٣٦ ، بقلم اف . ج . تود (لندن ١٩٣٨) .

النفط بكميات تجارية في عمان قد يؤدي الى التخلص من الأزمة الاقتصادية المزمنة التي كانت تعاني منها البلاد . ففى سنة ١٩٢٣ تعهد السلطان تيمور لحكومة الهند البريطانية بأن لا يقدم على منح أى امتيازات لاستغلال النفط في عمان قبل استشارة المعتمد السياسى البريطانى في مسقط أولا ، ثم موافقة حكومة دلهى على ذلك ، ولا تختلف هذه الاتفاقية عن الاتفاقيات الأخرى التي عقدت مع شيوخ ساحل عمان في سنة ١٩٢٢ (٢٨) وفي سنة ١٩٢٥ منح السلطان تيمور امتيازاً للبحث عن النفط والغاز الطبيعى وغيرها من المعادن لشركة دى - اركى للتقيب (٢٩) غير أن البعثة الجيولوجية التي توجهت الى منطقة الحجر الغربى من عمان لم توفق إلى اكتشاف أى شئ ذي قيمة من الوجهة التجارية . وقد انتهت مدة العقد بصورة تلقائية بعد ثلاث سنوات من تاريخ إبرامه (٣٠) .

وفي عام ١٩٣٧ منح السلطان الجديد سعيد بن تيمور ابن السلطان تيمور وخليفته على الحكم امتيازاً للتقيب عن النفط وإنتاجه ونقله إلى مؤسسة تنمية بترول (عمان و ظفار) المحدودة وهي فرع من شركة نفط العراق ومدة الامتياز ٧٠ عاماً غير أن هذه المؤسسة تنازلت فيما بعد عن جزء من منطقة امتيازها وهو مقاطعة ظفار الى إحدى الشركات الأمريكية (٣١) .

لقد حالت المشاكل الاقتصادية التي تعاني منها السلطنة دون تنفيذ الخطة الأصلية . فبعد إعادة تنظيم الجمارك واجهت هذه المصلحة عداء

(٢٨) تقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ مجلد ١١ ص ٢١٦ — ٢١٩ .

(٢٩) نفس المصدر ص ٢٨٤ .

(٣٠) « سلطنة مسقط وعمان » ، بقلم سى . جى . ايكليس — مقال في مجلة جمعية آسيا الوسطى الملكية مجلد ١٤ جزء ١ (١٩٢٧) ص ٢٨ — ٢٩ .

(٣١) دليل شركة النفط العربية الأمريكية (١٩٦٠) ص ١١٦ . في سنة ١٩٦٠ أعيد تنظيم شركة تنمية النفط المحدودة في عمان ، وكنتيجة لذلك انتقل ٨٥ ٪ من ملكيتها الى الفرع البريطانى من شركة شل المحدودة و ١٥ ٪ الى جوبلنكيان .

أفراد الجالية التجارية الهندية التي كانت المستفيدة الوحيدة من الأوضاع السابقة . هذا ولم تواجه حكومة السلطنة بعد انشائها مراكز جمركية جديدة في صور وصحار وفي كثير غيرها من موانئ الباطنة في سنة ١٩٢٠ معارضة قبائل المنطقة وحسب بل والولاة المستقلين من عائلة البوسعيد ، كوالى صحار ، الأمير حمد بن فيصل الذى هدد رجال الجمارك بالضرب إذا حاولوا التدخل في نطاق سلطته . غير أن حمد وغيره من أمراء البيت الحاكم ، اضطروا آخر الأمر الى الاذعان لقرار الحسد من مصروفاتهم الخاصة ضمن الحدود التي رسمها المستشار البريطاني الجديد للحكومة . أما قبيلة آل سعد التي عرفت باثارة المشاكل ضد حكومة مسقط فقد تحدثت قرار هذه الحكومة بإنشاء مراكز جمركية في مناطقها ولم تخضع للقرار الا بعد أن شنت السفن الحربية البريطانية وقوات السلطنة التي كان قد أعيد تشكيلها هجوما على هذه القبائل . إلا أن الحكومة لم تنجح في فرض سلطتها على الجزء الجنوبي من البلاد . وعلى الرغم من أن السفن البريطانية قد أرغمت سكان صور ، الميناء العماني الهام ، على الأذعان لقرار السلطان ، إلا أن منطقة جعلان الداخلية أيدت مقاومة أشد . فقد تحول سكان هذه المنطقة من قبائل بنى بو على من موقف عدم الامتثال لقوانين مسقط الى تحديها في أواخر العشرينات من القرن العشرين ، عندما أخذ زعيم هذه القبيلة يلقب نفسه « بأمير جعلان » (٣٢) .

وعلى العموم فقد نجحت السلطات في مسقط في دعم وضعها المالى والدولى ، وتعزيز كفاءاتها الادارية خلال العشرينات من هذا القرن . وعلى الرغم من احتفاظ الدولة بالكثير من أشكالها القديمة ، خصوصا في النواحي الادارية ، فان العناصر الأوروبية التي طعم بها الجهاز الحكومى قد نجحت في ادخال الأساليب الادارية الجديدة في البلاد . كذلك فان

(٣٢) من التقارير الشهرية التي يبعث بها المقيم البريطانى في الخليج ملف رقم ١٧٤٩ / سنة ١٩٢١ .

سياسة التدخل البريطاني المباشر في شؤون السلطنة الداخلية ، الذي بدأ منذ أيام ليويس بلى قد وصل الى نهايته المنطقية ، إذ بلغ النفوذ البريطاني أقصى ذروته في عهد السلطان تيمور ، الذي درج على ترك الأمور لمستشاريه ليتصرفوا بها كيف يشاؤون وكان يقوم بزيارات كثيرة للهند وهو في طريقه من وإلى أوربا • غير أن التنظيم الجديد للإدارة كان بداية لطريقة جديدة للحكم في مملكة السلطان ، فقد كان بمثابة تغيير بطيء ولكنه حذر نحو ممارسة الحكومة سيطرة أكثر على مقدرات البلاد • وقد استمر هذا الوضع ابتداء من العشرينات من هذا القرن ، هذا بالرغم من أن « سلطنة مسقط وعمان » لا تزال تحكم وفقا لنفس المبادئ الأساسية التي بدأت في عهد السلطان تركي ، كما لا تزال سلطتها على معظم مناطق البلاد سلطة غير مباشرة وعن طريق زعماء القبائل • وعلى أي حال ، فبالرغم من أن شيوخ القبائل ظلوا محتفظين بالسلطة في مناطقهم ، إلا أنهم اضطروا الى تنفيذ السياسة التي كان يقررها المسؤولون في حكومة مسقط ، لا السياسة الناتجة عن المساومات القائمة بين السلطان وشيوخ القبائل •

غير أن الاستقرار الذي أخذت تنعم به أرجاء السلطنة تدريجيا خلال العشرينات من هذا القرن ، عاد من جديد يهدد الاقتصاد العماني ونظامه المالي الضعيف كنتيجة للأزمة الاقتصادية التي شهدتها العالم في الثلاثينات من هذا القرن • ونظرا للتدهور التجاري تدهورت قيمة الريال النمساوي ، كما أن عجز الحكومة عن معالجة الأزمة الاقتصادية وما سببته من مضاعفات سياسية ، أرغم السلطان تيمور على التنازل عن الحكم في شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ لأسباب صحية ، بينما استقال مستشاره البريطاني برترام توماس • ولقد حذا تيمور حذو جده السلطان تركي بن سعيد قبل نصف قرن عندما حاول وقف انهيار دولة البوسعيد وحكمها في عمان وذلك بالاعتماد على المساعدة الشاملة والسافرة للحكومة البريطانية وأخذ

مشورتها • وقد كوفىء السلطان تيمور على هذه السياسة باستمرار أسرته في الحكم ، هذا بالرغم من أنه شخصياً قد اضطر الى التنازل عن الحكم والاعتكاف في الهند •

في أوائل سنة ١٩٣٢ تولى سعيد بن تيمور الابن الأكبر لتيمور الحكم خلفاً لوالده الذى اعتزل وكان في الحادية والعشرين من عمره • تلقى سعيد تعليمه في إحدى مدارس الأمراء التى تشرف عليها حكومة الهند — الانجليزية • وقد اعترف الانجليز بسعيد كولى للعهد خلال حكم والده وذلك كأجراء متبع في عمان الأعطاء الأولوية في الحكم لابن البكر عند اختيار الحاكم • وعلى الرغم من أن السلطان سعيد ظل يعتمد على عدد من المستشارين البريطانيين والأجانب ، فقد تميز حكمه باستقلال السلطنة وحرية التصرف من الوجهتين الفعلية والقانونية • ولقد أدرك الحاكم الجديد أن السبب الأساسى لتدهور استقلال البلاد هو الأفلاس المالى المزمن والأعتماد على التأييد البريطانى • وبالتالي أظهر السلطان حكمه وبعد نظر يكاد يكون نادرا بين أقرانه من سلاطين عمان السابقين ، في إدارة دفعة الشؤون المالية دون المساس بفاعلياتها الحقيقية • كما استطاع بمرور الوقت إثبات وجوده في مجال الإشراف الفعلى على سير الأمور في سلطنته • وبذلك أكد السلطان حقوقه الشرعية ، وتصميمه على أن يكون مستقلا وسيدا لمصيره ، ونجح في ارغام الانجليز على التخفيف من القيود غير المباشرة التى كانت يفرضونها على سياسة الحكم في عمان منذ سنة ١٨٩٩ • ورغم كل هذا فقد رحب السلطان سعيد بالتعاون مع البريطانيين خلال الحرب العالمية الثانية وسمح لهم باقامة مهابط لطائرات سلاح الطيران البريطانى في عدد من المناطق بين صلالة ومسقط ، وقد ظل العمل مستمرا في هذه المهابط حتى بعد نهاية الحرب للرحلات المدنية •

أما في داخلية عمان فقد كان الحكم يتجه نحو العزلة والانغلاق أكثر

فأكثر وحتى الأربعينات من هذا القرن كان الحكم المحافظ يخضع لثلاث شخصيات : محمد بن عبد الله الخليلى ، إمام المنطقة ، والشيخ عيسى بن صالح زعيم الحرث ، والشيخ سليمان بن حمير الذى خلف والده على زعامة بنى ريام قبيل توقيع اتفاقية السيب (٣٣) . وكان الامام فى الخامسة والثلاثين عند انتخابه زعيما للمحافظين وبما أنه كان من أنصار العزلة فقد قاوم كل محاولة لاجراء اتصال بين بلاده والعالم الخارجى إلا فى أضيق الحدود واكتفى بإبقائها ضمن الجزء الداخلى من عمان . وحتى وفاته فى سنة ١٩٤٦ كان الشيخ عيسى بن صالح يمثل الشخصية العسكرية ، والسياسية ، والدبلوماسية القيادية فى الامامة كما كان يتحلى بالوقار والاتزان ويحظى بالاحترام كزعيم عملى من زعماء البلاد . أما الشيخ سليمان فقد كان شخصية متعاطمة بحبها لذاتها . وعلى الرغم من أنه كان مواليا للإمام ومخلصا له ، الا أنه كان مغرما باللقاب فكان يلقب نفسه تارة بملك بنى نبهان وتارة بأمر الجبل الأخضر . ونظرا لاهتمامه بالأجهزة الحديثة فقد كان يفتنى الراديوات والسيارات . وبعد وفاة الشيخ عيسى بن صالح أصبح سليمان من القادة العلمانيين فى الحكم المحافظ (٣٤) .

واقدر سبق أن أكدنا فى أكثر من موضع من هذا الكتاب إخلاص إمامة الخليلى للأديولوجية الذاتية التى تقوم عليها عقيدة أهل عمان . وفى سنة ١٩٢٥ ساورت الامام المخاوف من أن يقوم عبد العزيز بن سعود ، مؤحد المملكة العربية السعودية ، والذى كان قد خرج لتوه من معركة ظافرة ضد الهاشميين فى الحجاز بالتوسع شرقا نحو البريمى والظاهرة فأصدر أوامره الى القوات العمانية بالزحف شمالا واحتلال المناطق التى قد تتعرض لتهديد السعوديين . وتحركت قوة من الجيش العمانى مؤلفة من الهناوية والغافرية بقيادة الشيخ عيسى بن صالح ومساعدته سليمان

(٣٣) كان الشيخ سليمان أحد الشهود الموقعين على معاهدة السيب .

(٣٤) « عمان » ص ٧٠ — ٨٤ ، اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية .

بن حمير إلى بلدة عبرى بمقاطعة الظاهرة الخاضعة للمحافظين ويحكمها وال تم تعيينه في هذا المنصب بعد إخضاع كل من بلدتي الدريز ووضنك للإمام وأثناء الرحلة مرض الشيخ عيسى بن صالح وتفككت الحملة مما اضطر الإمام إلى الاستقالة بسبب ما منى به من فشل في حملته على البريمي . غير أن استقالته لم تقبل ، وعلى الرغم من زيارة قامت بها بعثة سعودية للبريمي وتبادل المذكرات بين أحد شيوخ النعيم وعبد الله بن جلوي ، أمير السعودية في الحسا والمنطقة الشرقية ، فقد كان الملك عبد العزيز مشغولاً وقتها بتدعيم انتصاراته . ولم يكن لديه من الوقت ما يخصصه لموضوع البريمي . ومهما يكن فقد كان العاهل السعودي يؤمن بأن من حقه المطالبة بأي منطقة سبق أن حكمها أو سيطر عليها أسلافه ، أو خضعت لنفوذهم خلال القرن التاسع عشر . وإذا أخذنا هذا التفسير كأساس للحدود فإن مطالب السعودية تمتد إلى ما وراء مقاطعة البريمي بل وتشمل عمان نفسها ، لأن حكام مسقط كانوا يدفعون « رسم حماية » للحكام السعوديين (وهو من نوع الزكاة) لفترة امتدت سنتين عاماً قبل سنة ١٨٦٨ . ومن هنا كانت المخاوف تراود إمام عمان طوال حياته من أن يتحرك السعوديين نحو الحدود الشرقية ، هذا على الرغم من أن خليفة الإمام محمد قد أقام علاقات ودية مع الرياض خلال الأيام الحرجة من سنة ١٩٥٤ (٣٥) .

وبضم عبرى إلى الإمامة امتدت الإمامة في القرن العشرين حتى أقصى حدودها الإقليمية وبالرغم من أن هذه الحدود لم تعين تعييناً دقيقاً ، إلا أنها بوجه عام تضم من الجنوب واحة بنى بو حسن ، وهي قاعدة لاحدى قبائل الهاوية المعروفة بأسمها . أما من الشرق فيعتبر رأس سلسلة جبال الحجر حدوداً للإمامة ، هذا بالإضافة إلى أن بلدة سمايل الواقعة في منطقة

(٣٥) نفس المصدر ومذكرة الحكومة السعودية جزء ١ ص ٣٤٣ - ٤٤
و « مسقط وعمان » ، بقلم ايكليس (مجلة جمعية آسيا الوسطى الملكية)
مجلد ١٤ جزء ١ (١٩٢٧) و « الحدود الشرقية للجزيرة العربية » ص ١١٨ - ١١٩ .

وادي سمائل ، وبلدة الرستاق على المنحدرات المطلّة على البحر من سلسلة جبال الحجر على ساحل الباطنة تخضع لسلطة الامام أيضا • أما من الشمال فتحدها بلدة عبري ومن الغرب تحدها رمال الصحراء الغربية أو الربع الخالي • وهكذا أصبحت مقاطعة عمان الوسطى ، والشرقية ، ووادي سمائل ، والجبل الأخضر والجزء الشمالي من جعلان ، والجزء الجنوبي من مقاطعة الظاهرة كلها تخضع للامامة (٣٦) •

كانت إدارة شؤون الدولة في عهد الامام الخليلى تسير بطريقة خالية من التعقيدات والمظاهر ولكنها فعالة • وكان الامام يدير الدولة الاباضية المحافظة من مقره في حصن نزوى الكبير المطل على المدينة نفسها • وكان يجلس على الأرض فوق سجادة والى جانبه رجال الدولة لأن الجلوس على الكراسى في نظر المحافظين تقليد خاص بالملوك • ويحتفظ الامام بسجلاته في دفاتر خاصة وتقع خزانة الدولة في أحد بيوت العاصمة • ويكتب الامام رده على الرسائل التى ترد اليه على الجزء غير المكتوب من الرسالة ، أو يعهد الى قاضى قضاته ، وكان هذا المنصب يشغله لعدة سنوات ، منصور الفارسى بكتابة الرد : وكان منصور هذا يجمع الى جانب وظيفته القضائية منصب السكرتير ، والوزير والمستشار فى آن واحد • وتحتفظ إدارة الدولة فى عمان بملفات تضم العرائض والمراسلات • لما كان الامام يمثل السلطة الدينية والسياسية للأمة ، وهو منصب يضعه فوق مستوى الخلافات القبلية التى تقض مضاجع بنى قومه فقد كان يصرف معظم أوقاته فى نظر القضايا المعروضة عليه أو البت فيها ، وفى تسوية الخلافات القبلية ، وفقا للمفهوم الاباضى المحافظ للحكم • وبالرغم من نفور الامام من الاجانب الا أنه فى متناول أفراد الشعب وهم ينفذون اليه بمنتهى السهولة لعرض مشاكلهم وقضاياهم ، أو لطلب المعونة منه •

يساعد الامام فى عمله مجموعة من القضاة الشرعيين الى جانب رجال

(٣٦) كتاب « عمان » اعداد شركة النفط العربية الامريكية ص ٧ — ٩ •

الدولة المسؤولين مباشرة أمامه ، كما يساعده الأقطاب القبليون الكبار أمثال عيسى بن صالح وسليمان بن حمير وغيرهما من رؤساء القبائل الأدنى مرتبة . ويوجد بالإضافة الى الولاة والقضاة الذين يتولون السلطة في المناطق الأكثر أهمية ، جمهور محصلي الضرائب أو جباة الزكاة والرؤساء القبليين . ويتم تعيين كل هؤلاء الرسميين بما فيهم شيوخ القبائل بأمر الإمام . وتشكل الزكاة التي تعتبر في عمان ضريبة عقارية اسلامية تشبه الى حد ما العشر ، المصدر الرئيسي لدخل الدولة ، هذا بالإضافة الى الأموال الى تقتطع من الدخول الخاصة لبعض الزعماء وتستغل للمصلحة العامة . وعلى الرغم من أن المسؤولية العسكرية تنحصر في القوات القبلية من المشاة ، يحتفظ الإمام بقوة عسكرية خاصة من ٤٠٠ الى ٥٠٠ رجل ترابط باستمرار في مقر الإمام وهي تحت تصرفه . ولالإمام علمها الخاص المكون من أرضية بيضاء يعلوها سيف تحته العبارة التالية : « نصر من الله وفتح قريب » (٣٧) وبالإضافة الى مشاكل الامامة مع السلطان ، والحكومة السعودية في الرياض ، كانت هناك مشكلة عويصة أخرى هي مشكلة الجفاف الحادة التي شهدتها البلاد في العشرينات ، والثلاثينات والأربعينات من هذا القرن والتي أدت الى إتلاف جانب كبير من المناطق الزراعية الخصيبة في مقاطعة الشرقية . وفي أواخر الأربعينات أخلت قرى كثيرة من سكانها نتيجة للجفاف وحتى بلدة القابل التي كانت في يوم من الأيام الواحة الرئيسية في المقاطعة ومقر قبيلة الحرث ، رحل عنها سكانها تقريبا . وقد اضطر عدد كبير من مزارعي الشرقية الى تناول الأسماك المجففة

(٣٧) نفس المصدر ص ٧٠ - ٧٤ اطلع المؤلف شخصيا على علم الامامة ، بمكتب امامة عمان في جمهورية مصر العربية عند زيارته للمكتب في شهر يوليو سنة ١٩٥٩ . وقد تم وضع تصميم العلم منذ وقت غير بعيد .

المستوردة من مسقط كما أن غياب عدد كبير من أصحاب هذه المزارع عن البلاد في زنجبار التي كانوا يفضلون الإقامة فيها قد ضاعف من المشكلة . وكان هؤلاء يقومون بشحن محصول البلح الى مدينة مطرح لبيعه هناك بفائدة كبيرة لا يمكنهم أن يحصلوا عليها فيما لو تم تصريفه في المنطقة الداخلية من البلاد ^(٣٨) ومن المؤكد أن إيادة العرب في زنجبار وطردهم منها في أعقاب ثورة ١٩٦٤ ، التي أطاحت بسلطان البوسعيد ، قد أرغم أعداد كبيرة من أصحاب الأراضي الزراعية العمانيين الى العودة الى موطنهم في الشرقية .

توحيد عمان في ظل الحكم المعتدل

ظلت الحالة مستقرة في عمان طوال حكم الامام محمد بن عبد الله الخليلى كنتيجة لمعاهدة السيب التي وقعت في سنة ١٩٢٠ . غير أنه بعد وفاة الامام المذكور في سنة ١٩٥٤ قامت قوات السلطان سعيد في ديسمبر سنة ١٩٥٥ باحتلال نزوى عاصمة الامامة وهذا الحدث الذى لم يسبق له مثيل في تاريخ عمان جاء نتيجة لجملة من العوامل المعقدة ليس أقلها أهمية محاولة السعوديين فرض سيطرتهم من جديد على المناطق الداخلية من جنوب شرقى شبه الجزيرة العربية على الأقل ، فضلا عن تضارب مصالح شركات النفط العالمية في المنطقة . بدأت هذه التطورات أول ما بدأت في شبه الجزيرة العربية عندما حصلت شركة ستاندارد أويل كمنى أوف كاليفورنيا في شهر مايو سنة ١٩٣٣ على امتياز لاستغلال النفط في المقاطعات الشرقية من المملكة العربية السعودية غير أن حقوق هذا الامتياز الذى أدخلت عليه تعديلات في سنة ١٩٣٦ قد انتقلت الى شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) وهى مؤسسة بترولية تملكها بالتضامن كل من شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا وتاكساكو ستاندارد أويل أوف

(٣٨) شركة الزيت العربية الأمريكية — كتاب « عمان » ص ٨٢ .

نيو جرسى ، وسوكونى موبيل • ومنذ الثلاثينات من هذا القرن أصبحت
ثروة المملكة العربية السعودية تعتمد على نجاح شركة أرامكو فى استغلال
مصادر النفط فى المملكة السعودية •

وقد اعتبر هذا الامتياز منافسة لشركة نفط العراق التى يملكها
البريطانيون ، غير أن الشركة البريطانية استطاعت ، دفاعا عن مركزها
وبتأييد من الحكومة البريطانية تحريض شركات نفط متفرعة عنها بالحصول
على امتيازات بترولية فى قطر (١٩٣٥) وساحل عمان (١٩٣٧) ثم فى
عمان نفسها سنة (١٩٣٧) • ويشمل عقد الامتياز الذى وقعه السلطان
سعيد بن تيمور كلا من أراضى السلطنة والإمامة • كما يشمل أيضا
مقاطعة ظفار التى انتقلت حقوق امتيازها فيما بعد الى شركة ظفارسيتى
سرفيس كمبنى انكوربوريشن التى تشاركها فى الملكية مؤسسة ريتشفيلد
للنفط •

ولقد ثارت مشكلة أساسية بالنسبة الى هذه الامتيازات ، وإن
كانت لا تمس شركة سىتى سرفيس الأمريكية • حيث لما كانت الحدود
الدولية بين السعودية ومختلف بلدان جنوب ، وجنوب شرقى الجزيرة
العربية الخاضعة للحماية البريطانية لم تعين ، فقد نشأت صعوبات حول
معرفة حدود كل امتياز من امتيازات النفط الممنوحة للشركات • وابتداء
من سنة ١٩٣٣ كان التنافس بين الفنيين والدبلوماسيين على أشده لتحديد
هذه المناطق وما اذا كان التحديد يتم قبل أو بعد التأكد من المناطق التى
تشملها الامتيازات • وعلى أى حال فقد تحرك رجال الحفر الى مناطق
الامتياز قبل أن يتحرك الدبلوماسيون ووزراء الخارجية للدول المعنية •
ففى عام ١٩٣٤ بعد مرور سنة على توقيع أول اتفاقية للنفط فى المنطقة
الشرقية من الجزيرة ، بدأت المفاوضات بين وزارة الخارجية البريطانية
وزراعة خارجية المملكة العربية السعودية فى محاولة لتسوية مشاكل الحدود
فى المناطق الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة • وقد استمرت هذه
المفاوضات حتى سنة ١٩٣٨ دون الوصول الى تسوية ثم نشبت الحرب

العالمية الثانية^(٣٩) وقد تجدد النزاع على الحدود وعلى منابع النفط ما بين سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٤٨ وذلك عندما بدأت شركة تنمية النفط المحدودة عمليات البحث عن البترول في مناطق البريمي وساحل عمان ، وهى المناطق التى لم تعين حدودها بشكل واضح • ولما كانت شركة الزيت العربية الأمريكية لا تريد أن تحرم نفسها من بترول بعض المناطق التى لم تعين حدود السيادة فيها ، فقد بعثت بفرق البحث التابعة لها إلى المناطق الواقعة على حدود الربع الخالى والقريبة من ساحل الصلح • وقد حدث ما كان لابد أن يحدث • إذ ما أن توغلت إحدى فرق البحث الأمريكية داخل هذه المنطقة فى شهر ابريل سنة ١٩٤٩ حتى أصدر الضابط السياسى البريطانى فى أبو ظبى الأمر اليها بمغادرة المنطقة التى كانت تعمل فيها بحجة أن المنطقة المذكورة هى جزء من امارة أبو ظبى • ولعل أكثر ما أثار السلطات البريطانية فى المنطقة أن البعثة كانت تضم بعض الجنود السعوديين • وهى لم تكن تعلم أن فرق النفط الأمريكية التى تجوب مناطق شبه الجزيرة العربية تصطحب معها مثل هذه الحماية العسكرية دائما^(٤٠) • وفى ٢٦ أبريل سنة ١٩٤٩ تقدمت الحكومة السعودية الى السفارة البريطانية فى جدة بمذكرة احتجاج • أرفقتها بطلب مضاد مفاده أن المنطقة التى طردت منها البعثة هى جزء من الأراضى السعودية • ومنذ ذلك اليوم بدأ النزاع حول البريمي • وهو نزاع ليس فى بقعة واحدة باحدى الواحات بل يشمل منطقة مساحتها آلاف الأميال من شبه الجزيرة العربية^(٤١) • وفى إطار هذا

(٣٩) مذكرة الحكومة السعودية جزء ١ ص ٤٠٠ - ٤١٨ و « الحدود الشرقية لجزيرة العرب ١٢٣ - ١٢٩ » .
(٤٠) شركة الزيت العربية الأمريكية - تعليمات لفرق البحث فى السعودية (١٩٤٩ . ٤) ص ١٤ - ١٧ .

(٤١) ان مواقف كل من الحكومة السعودية ، وبريطانيا والحكومات الموالية لها من موضوع الحدود وراة فى مذكرة كل من الحكومة السعودية والحكومة البريطانية ، وفى قرار هيئة التحكيم الخاص بمنطقة البريمي والحدود المشتركة بين أبو ظبى والسعودية ، كما وفى المذكرة البريطانية (لندن ١٩٥٥) انظر أيضا « جزيرة العرب وحدودها الشرقية » ترجمة العرب ، وتاليف كيلي فصل ٥ وهو يتضمن وجهة النظر البريطانية حول تطور النزاع حتى سنة ١٩٥٤ .

الخلاف المتشعب رأى البعض أن مصير بريطانيا نفسها قد يتأثر بنتائج ذلك الصراع ، لا لكون الجانب الأكبر من الصناعة البريطانية والأوروبية الغربية تتحرك بنفط الخليج وحسب ، بل ولل فوائد المالية ، وعلى الأخص الأموال اللازمة للاستثمارات الصناعية الجديدة ، التي قد تنشأ فيما لو بقيت شركات الكتلة الاسترلينية والأمراء المحليون الموالون لبريطانيا مسيطرين على حقول النفط الجديدة .

وعلى الرغم من المفاوضات التي بدأها الدبلوماسيون البريطانيون والسعوديون حول مشكلة الحدود سنة ١٩٤٩ ، وموافقتهم على تأليف لجنة لدراسة المشكلة ، فإن نتائج محادثاتهم لم تكن بأفضل من نتائج محادثات سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٨ . وفي نفس الوقت كان الجانبان يدفعان بفرق البحث عن النفط ، وبقواتهما العسكرية عبر المناطق المتنازع عليها . بينما أخذت قوات الطرفين تحتل مراكزها في واحة البريمي . وفي شهر أكتوبر سنة ١٩٥٢ أصبح كل من السلطان سعيد بن تيمور والامام محمد مقتنعين بأن السعوديين يخططون للاستيلاء على البريمي بالقوة . ولهذا أخذ الحاكمان يعدان العدة لمواجهة هذا الخطر عسكريا . ومن ناحية أخرى ظلت الدبلوماسية ومؤامراتها تعمل في الخفاء رغم المحاولات التي بدأت في صيف سنة ١٩٥٤ لاحالة النزاع الى التحكيم .

وفي الانتخابات التي تلت ذلك . لم يتجح السلطان في محاولاته لكسب تأييد العناصر المحافظة ، كما خسرها أيضا كل من المرشحين السابقين ، نجل الامام سالم بن راشد الخروصي ، والعلامة محمد بن عبد الله السالمى ، نجل القطب الدينى عبد الله بن حميد السالمى الذى أسهم بدور هام فى تأسيس امامة عام ١٩١٣ . فقد فاز بالمنصب أحد رجال قبيلة بنى هناه ، هو غالب بن على الهنائى ، الذى حصل على تأييد كل من سليمان بن حمير ، وصالح بن عيسى ، الزعيم الشاب الذى خلف

والده عيسى على زعامة المشيخة • ولم يكن الامام المنتخب من بين الشخصيات المعروفة في الأوساط السياسية العليا المتمرسه في جنوب شرقى الجزيرة العربية ، ولذلك سرعان ما وجد نفسه هدفاً لضغوط كثيرة وقد تكتسفت الأمور في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٤ ، عندما تأكد لكل من بريطانيا والسلطان سعيد بن تيمور ، ان الامام الجديد قد أخذ يتلقى الأسلحة والأموال من السعوديين ، وأنه قد يتحول الى اداة في يد حكومة الرياض قد تهدد مستقبل المصالح البترولوية في المنطقة وانه لو صحت هذه المعلومات ، فانه قد يسبب متاعب للانجليز الذين كانوا في ذلك الوقت قد بدأوا عمليات الحفر في الفهود الواقعة بين المنطقة التى يسيطر عليها الامام والمنطقة غير المخططة من الربع الخالى على الجانب السعودى • كما ساد الاعتقاد بأن كلا من سليمان بن حمير وطالب بن على ، شقيق الامام هما القوة الحقيقية وراء تحركات حكومة نزوى • وان هذين الزعيمين لن يترددا في قبول المساعدة من الحكومة السعودية ، إذا كان في تلك المساعدة أية فائدة مادية • وعلى هذا الأساس وبفضل المؤمرات التى كانت تدبر في الظاهرة ضد الإمامة ، وعن طريق الاستعانة ببعض الفصائل من قبيلة الدروع تحركت قوات مسقط وعمان واحتلت مدينة عبرى نيابة عن السلطان • ولو أن الامام لم يكن على اتصال بالسعوديين قبل احتلال عبرى ، وهى المنطقة التى ظلت تحت سيطرته منذ سنة ١٩٢٥ لأصبح من العسير عليه أن يتجنبهم بعد ذلك الحادث (٤٢) • وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ قام الامام بخطوة حاسمة عندما قدم عن طريق شقيقه الشيخ طالب طلباً للانضمام الى جامعة الدول العربية • ويبدو من خطوة الامام هذه أنه كان يبحث عن قاعدة دبلوماسية ينطلق منها ، كما كان يأمل أن يربط قضية بلاده بالنضال العام للقومية العربية ضد الامبريالية

(٤٢) « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية ص ٤٧ و « الحدود الشرقية لجزيرة العرب » ص ١٨٥ - ١٨٦ تأليف ، كيلي وترجمة العرب .

البريطانية ، وكان هذا النضال يمر يومئذ بفترة حاسمة • وجاء في طلب
الامام الى الجامعة أن عمان دولة مستقلة تحكم وفقاً لمبادئ الشريعة
الاسلامية (٤٣) • غير أن المسؤولين في جامعة الدول العربية لم يكونوا ،
على ما يبدو ، واثقين من الخطوة التي يمكن للجامعة اتخاذها بطلب من
دولة صغيرة مجهولة • وفي شهر ديسمبر سنة ١٩٥٤ ، استطلعت الجامعة
رأي الحكومتين السعودية واليمنية في الموضوع ، وبالتالي قرر مجلس
جامعة الدول العربية إرجاء البت في طلب إمامة عمان ريثما تقتضى دراسته
بشكل أوفى • وفي شهر أكتوبر سنة ١٩٥٥ أعلن مجلس جامعة الدول
العربية « بأنه يرحب بإمامة عمان عضواً في الجامعة » ، غير أنه لم يتخذ
خطوة جديدة في الموضوع (٤٤) وقبل أن يتخذ مجلس جامعة الدول العربية
في الموضوع قراره النهائي كانت القوات قد احتلت الامامة • غير أن طلب
الامام الى جامعة الدول العربية أثار موضوع اتفاقية السيب المعقودة في
سنة ١٩٢٠ من جديد ، وما اذا كان من حق عمان أن تتمتع بإدارة شؤونها
الخارجية •

وقد تطورت الأمور بسرعة نحو ذروتها في سنة ١٩٥٥ فبعد أن فشلت
محاولات حل النزاع عن طريق التحكيم في جنيف في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٥
وسط اتهامات واتهامات مضادة بين الحكومتين الانجليزية والسعودية ،
حيث كان كل جانب يشكك في موقف هيئة التحكيم ، تحركت قوة مشاة
ساحل عمان بأمر من سلطان مسقط وحاكم أبو ظبي واحتلت البريمي
وطردت منها الحامية السعودية المرابطة فيها • وقد أعلنت الحكومة
البريطانية يومئذ بأن المحاولات التي بذلت للتوصل الى تسوية عادلة
للنزاع قد فشلت بسبب المؤامرات التي كانت تدبرها السعودية ، مما اضطر

(٤٣) الادارة السياسية بجامعة الدول العربية ، مذكرة الأمين العام
بشأن قضية عمان (القاهرة في ٦/٨/١٩٥٧) •
(٤٤) نفس المصدر ص ١٠ •

البريطانيين الى فرض حلهم لهذا النزاع على أساس اتفاقية « خطة الرياض » لسنة ١٩٣٧ الذى تدخل بموجبها المناطق المتنازع عليها ضمن سيادة حاكم أبو ظبى وسلطان مسقط (٤٥) . ولقد ظل وضع الحدود بغير تسوية منذ سنة ١٩٥٥ ، لأن السعودية كانت ترفض الاعتراف بشرعية الاجراءات البريطانية ، أو وجهة النظر البريطانية بالنسبة لهذه المشكلة . ولما كانت بريطانيا عازمة بكل ما تملك من قوة على الاحتفاظ بنفوذها في جنوب الجزيرة العربية ، لم يبق لآمام عمان الذى ارتبط بصورة شرعية أو غير شرعية بالسعوديين أى أمل في البقاء داخل عمان . وحتى خريف عام ١٩٥٥ كان دور السلطان سعيد بن تيمور دور المتفرج أكثر منه دور المخطط للأحداث . وعلى أى حال فقد كان السلطان مقتنعا ، فيما يبدو ، بأن الامام بعمله هذا قد انتهك ما كان يعتبره السلطان مبادئ الحكم الذاتى لا الاستقلال كما خشى من أنه لو تحولت نزوى بالفعل الى صف حكومة الرياض ، فان استقلاله هو الآخر سوف يتعرض للخطر . وعلى هذا الأساس شن السلطان خلال شهر هجوما مفاجئا على الامامة . وكان السلطان قد تمكن بمساعدة شركات النفط من بناء قواته المسلحة بحيث أصبحت تضم أربع وحدات يقوم البريطانيون بتدريب أفرادها وقيادتهم وهى : قوة ظفار التى ترابط في صلالة ، وقوة ميدان آلية ترابط في معسكر شركة تنمية نفط ساحل عمان (المحدودة) في فهود، وقوة ساحل الباطنة المرابطة في صحار ، ووحددة المشاة القديمة التى ترابط في بيت الفلج بالقرب من العاصمة وفي شهر ديسمبر تحركت قوات السلطان . وقد غادرت القوة الآلية مركز عبرى المتقدم يوم ١٥ ديسمبر وشقت طريقها نحو عمان الوسطى . وبعد احتلالها لشروى ازعمت الزعماء العمانيين على الفرار

(٤٥) « الحدود الشرقية للجزيرة العربية » ص ٢٠٢ — ٢٠٦ و « الاستعمار البريطانى في الجنوب العربى » مكتب جامعة الدول العربية في نيويورك (١٩٥٨) ص ٧٦ — ٧٨ . ان هذين المصدرين يتناقضان في عرضهما للاسباب التى أدت الى فشل التحكيم .

وكل ذلك في مقابل رصاصة واحدة فقط أطلقت على القافلة الامامية • وبعد يومين اكتسحت قوة مشاة الباطنة مدينة الرستاق بعد مقاومة عنيفة إلى حد ما من جانب طالب بن علي • وبعد هذه العمليات العسكرية الخاطفة وصل سعيد بن تيمور إلى نزوى عاصمة الامامة ليتسلم المقاطعات الجديدة بعد أن قطع ٦٠٠ ميل في رحلته البرية من ظفار • وقد برر السلطان هذا الاجراء بزعمه بأن إمام عمان قد نقض معاهدة السيب بتآمره مع السعوديين لاقامة دولة ذات سيادة مطلقة في عمان ، تكون اداة في يد حكومة الرياض بالسعودية (٤٦) •

وكان يبدو ان السلام قد عاد فاستتب في عمان ، بعد أن أعلن الامام غالب وسليمان بن حمير مصالحتهما مع السلطان ، وقد سمح لهما بالعودة إلى بلديهما • غير أن شقيق الامام طالب ابن علي تمكن من الافلات والوصول إلى السعودية حيث افتتح له مركزاً في مدينة الدمام • غير أن الحكومة السعودية بعد أن درست احتمال توجيه تهمة الاعتداء ضد بريطانيا في مجلس الأمن عادت فعدلت عن الفكرة ، وآثرت الاحتفاظ بعلاقاتها الدبلوماسية مع لندن — وربما كان هذا بايعاز من الحكومة الأمريكية غير أن العلاقات السعودية الانجليزية عادت فتدهورت من جديد على أثر قطع العلاقات الدبلوماسية في أعقاب أزمة السويس في سنة ١٩٥٦ • خلال هذه الفترة قام طالب بن علي بمعاونة اثنين من أبناء عيسى بن صالح بافتتاح مكتب لامامة عمان في القاهرة « باسم مكتب امامة عمان » الذي أخذ يقوم بحملة دعاية ضد بريطانيا وسلطان مسقط ويتهما بشن عدوان على دولة عربية مستقلة واحتلالها •

وفي أوائل سنة ١٩٥٧ كان طالب يقوم بتهريب الأسلحة والرجال من

(٤٦) « سلطان في عمان » (طبعة نيويورك) ويعتبر هذا الكتاب بحثاً طريفاً ولكنه هام لهذه الاحداث والتطورات •

اللاجئين العمانيين المحافظين الى داخلية عمان • وفي شهر يونيو سنة ١٩٥٧ عاد طالب الى عمان حيث التحق بأخيه وأعلننا بعث الامامة من جديد ، وقامت بعض فرق من العمانيين باحتلال نزوى • وما أن حل شهر يوليو من العام المذكور حتى كانت جميع مدن عمان ومقاطعات الجبل الأخضر التي يحكمها سليمان بن حمير يرفرف فوقها علم الامامة الأبيض • وقد عجز السلطان عن قمع الحركة الجديدة المضادة ، مما اضطره الى طلب المساعدة البريطانية التي قدمت اليه فوراً في أواخر صيف العام المذكور • وقد رأى السلطان في حركة الامام تمرداً موجهاً ضده ، بينما أعلن الامام أنه يخوض حرباً لاسترجاع الاستقلال الذي انتزع منه في سنة ١٩٥٥ • وبالرغم من أن السعوديين ، وجامعة الدول العربية كانوا يؤيدون الامام بمساعدات قليلة ودعاية كثيرة ، إلا أن قوات السلطان عادت فاستولت على نزوى مرة أخرى في شهر سبتمبر ، غير أن القتال ظل مستمراً في سفوح الجبل الأخضر الى أن تمكنت قوات السلطان بعد تعزيزها بثلاثمائة جندي بريطاني من الاستيلاء على الجبل الأخضر وسحق المقاومة العمانية • وفي شهر يناير سنة ١٩٥٩ تمكن الامام غالب ، وأخوه طالب وسليمان بن حمير وغيرهم من وجهاء عمان من الهرب الى الدمام حيث أنشأوا حكومة عمانية في المنفى • بينما استمرت عمليات زرع الألغام والقناصة ، وغيرها من نشاط حرب العصابات في البلاد (٤٧) •

وقد أدت هذه الأحداث الى تصلب موقف السلطان تجاه محاولات السعوديين لاستئناف التحكيم ، وقد أيدته في ذلك وزارة الخارجية البريطانية • غير أنه في شهر سبتمبر تبنى السكرتير العام للأمم المتحدة المسيو داج همرشولد قضية عمان بصورة رسمية ، وبعد عام من ذلك التاريخ ادرجت مسألة عمان « في جدول أعمال الأمم المتحدة » كما استأنف

(٤٧) « الحدود الشرقية لجزيرة العرب » ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، تأليف كيلي وترجمة العرب .

المسعوديون في شهر يناير سنة ١٩٦٣ علاقاتهم الدبلوماسية مع انجلترا ،
واتفقتا على بحث مشاكل الحدود بين بلديهما عن طريق لجان الأمم المتحدة .
وهذا هو المدى الذي وصلت اليه المشكلة . اما الامام واتباعه فما يزالون
حتى الآن يصدرن بيانات يتحدون فيها البريطانيين ويمنون أنفسهم
بعودة مظفرة إلى عمان (٤٨) .

في غضون هذه الفترة خفت حدة المشاكل التي كان يواجهها السلطان
سعيد ، على الرغم من قدم هذه المشاكل . فتوحيد عمان في إطار دولة
سياسية موحدة ، وهو ما لم يتحقق لعمان منذ سقوط امامة عزان في سنة
١٨٧١ ، وضع السلطان امام مطالب جديدة لبلد يحاول اللحاق بالعالم
المتطور الذي سبقه الى التقدم ، فضلا عن رغبة السلطان في السيطرة على
عملية التغيير ، والاحتفاظ بالنظام القائم في نفس الوقت .

في أواخر الخمسينات أخذت الأمور تمضي بسرعة . فقد بدأ رجال
النفط بعد أن اطمأنوا على حرية اعمالهم بعد أحداث سنة ١٩٥٥ —
يسرعون في عمليات التنقيب والاختبار . وقد استبدلت طرق القوافل بطرق
حديثة للسيارات تربط مسقط بالشرقية عن طريق وادي سمائل ونزوى
بالبريمي وفهود عن طريق عبري . كما شق طريق من مسقط عبر ساحل
الباطنة في اتجاه صحار والشرقية على ساحل عمان . كذلك انشئت في عام
١٩٥٩ ادارة حكومية للتنمية تتحمل الحكومة البريطانية الجزء الأكبر من
ميزانيتها وتقوم بتطوير الامكانيات الزراعية والصحية والتعليمية ووسائل
النقل فيها . وتحت اشراف هذه الادارة انشئت مزارع تجريبية في صحار
ونزوى لتحسين وسائل الري وتخصيب التربة وأعمال الحصاد (٤٩) .
غير أن كل هذا النشاط لم يغير من الواقع الكئيب الذي تعيشه عمان

(٤٨) نفس المصدر ص ٢٦٦ — ٢٦٨ .

(٤٩) مطبوعات أوربا « مسقط وعمان » الشرق الاوسط وأفريقيا الشمالية

١٩٦٤ — ١٩٦٥ ، (طبعة لندن) ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

كبلد زراعي وملاحي وله نشاط محدود في صيد الأسماك . وذلك الى أن تكتشف وسائل جديدة لتغيير الأسس التي تقوم عليها موارد البلاد .

ففى بداية الستينات من هذا القرن ، كان الاقتصاد العماني يمر بفترة ركود على الصعيد السياسى ، امتداداً لوضعه خلال المائة عام الأخيرة . وعلى الرغم من الخط الجوى الذى أسسته شركة طيران الخليج بين مسقط والبحرين ، ظلت خطوط الملاحة البحرية لشركة الهند البريطانية ، وشركة ستريك لاين النافذة الوحيدة التى تطل منها عمان على العالم الخارجى ، وذلك على نفس ما كان عليه الوضع فى التسعينات من القرن التاسع عشر . وعلى حين كانت الارقام تشير الى ارتفاع فى قيمة تجارة مسقط بالمقارنة الى مجموعه خلال الثلاثينات من القرن ، قدرت قيمة الواردات فى سنة ١٩٦٢ بثلاثة ملايين وسبعمائة ألف ج . س . (٣٧٠٠٠٠٠) والصادرات بسبعمائة ألف (٧٠٠٠٠٠) ج س وتعتبر حركة تضخيم العملة وتخفيض قيمتها — بالاضافة الى ارتفاع مستوى الأسعار مسؤولة الى حد كبير عن ارتفاع أسعار التجارة . وعلى حين تتألف الواردات من العربات وقطع الغيار ، والأسمت — أى جميع الأشياء التى تستخدم فى أعمال التنقيب عن النفط — الى جانب السلع التقليدية الأخرى كالبن ، والحبوب ، والسكر ، والمنسوجات القطنية ، فان الصادرات لا تزال فى معظمها من السلع العمانية التقليدية كالبلح ، والسماك ، والفواكه . كما أن الريال النمساوى ، والعملات المحلية الصغيرة التى تتداولها البلاد ، لا تزال مرتبطة بالعملة الهندية (التى هى الروبية) ، والتى ترتبط بدورها بالجنيه الاسترلينى (٥٠) .

غير أن تحولا قد طرأ فى سنة ١٩٦٣ فقد عثرت شركة تنمية نفط

عمان (المحدودة) والتي اعيد تكوينها في سنة ١٩٦١ على أساس مساهمة شركة شل (المحدودة) بـ ٨٥ بالمئة من رؤوس الأموال ، عثرت على النفط أخيراً في عمان بكميات كبيرة • فقد اكتشفت ثلاثة حقول في فهود ، وفي منطقتين أخريين قريبتين منها وهما ننتيه ، وبيال وقد قدر مجموع ما سوف تنتجه هذه الحقول مجتمعة بعشرة ملايين طن في العام • وفي سنة ١٩٦٤ تم اعداد خطة لانشاء خط انابيب من خليج عمان لتسييل النفط من الحقول الجديدة • ومن ناحية أخرى نجحت سيتي سرفيس ورنشفيلد التي سبق أن عثرت في عملياتها على بعض النفط ، فضلاً عما قامت به شركة بيور اويل (Pure Oil) من نشاط في سنة ١٩٦٢ ، نجحت في اكتشاف حقول كبيرة أخرى للنفط في مقاطعة ظفار • وواضح من هذا أن الأموال اللازمة لتطوير السلطنة وتحويلها الى دولة عصرية سوف تتدفق على البلاد (٥١) •

ومما لا شك فيه أن الجهاز السياسي للسلطنة سيكون بين المؤسسات التي سوف يتناولها التغيير • وبالرغم من أن الرغبة لانشاء جهاز اداري فعال كانت موجودة منذ أن أعيد تنظيم الاداة الحكومية في سنة ١٩١٩ — ٢١ ، فإن ادخال التنظيم العصري الى البلاد يتطلب وجود طاقم من الخبراء والموظفين الفنيين الذين لا بد وان يكون أكثرهم من الأجانب • فحتى سنة ١٩٦٣ كانت ميزانية مسقط متواضعة لا تزيد على المليون جنيه استرليني في العام ، كما ظل الجهاز الاداري بوضعه الأول منذ انشائه في سنة ١٩٢١ كما لا يزال المستشار الشخصي للسلطان انجليزيا هو الماجور شونبسي ، أما وزير الداخلية ، والحاكم الفعلي للمقاطعات الداخلية التي ضمت أخيراً ، فهو أحمد بن ابراهيم أحد أمراء البوسعيد ، وهو رجل يتمتع بثقة سلاطين عمان منذ أن اقاله الامام سالم الخروصي من

ولاية الترسناق في سنة ١٩١٧ • هذا بالاضافة الى سكرتير الشؤون الخارجية ، والسكرتير العسكري • ومدير مصلحة الميناء والجمارك وهم كلهم من الأجانب (٥٢) •

أما بالنسبة للمستقبل فإنه يبدو من المؤكد أن تغييرات كبرى سوف تتم في عمان في المدى القريب • وبالفعل فإن الأسس القديمة التي كانت تقوم عليها الأوضاع في الماضي قد تغيرت بشكل نهائي • ان عزلة المنطقة الداخلية ، وما كان يسود البلاد من ركود اقتصادي ، فضلا عن السيطرة البريطانية على منطقة حوض المحيط الهندي — كل هذه الاعتبارات والعوامل هي الآن في طريقها الى الزوال ، فاستغلال الموارد الطبيعية سوف يؤدي الى التطور الاقتصادي ، وربما الى استعادة عمان لمركزها الملاحى ، أو على الأقل لأهميتها كم منطقة لصيد الأسماك • ان مشاكل البناء السياسى ، هي بلا شك من أصعب المشاكل كما أن خوف السلطان ، وهو خوف ينبع من نظرتة الاباضية المحافظة إلى التجديد اذا استثنينا بعض الاتصالات التي لا مفر منها مع بعض الاقطار الخارجية ، سوف تزيد الأمور تعقيدا • أن الفجوة بين الاباضية المحافظة والاباضية المعتدلة ينبغي أن تضيق ، هذا على الرغم من أن الاباضية تعتبر من أعتى الايديولوجيات مقاومة للتغير • كما ستكون هناك مشكلة علاقة عمان بالسعودية • وهى مشكلة عمرها الآن مائة وستون عاما • فلا بد من التغلب عليها كما لا بد من تنظيم مستقبل العلاقات العمانية الانجليزية أيضا • أن تغيير لقب الممثل البريطانى من معتمد سياسى الى قنصل عام يعتبر دلالة على تحول وضع التبعية الى تحالف • رغم أن السلطان لا يزال يعتمد على المساعدات

العسكرية البريطانية • وفي سنة ١٩٤٧ عين أول قنصل عام للهند في عمان • أن قيام علاقات أقوى بين عمان والولايات المتحدة وغيرها من الدول في المستقبل أمر لا مفر منه • وأخيراً فأن على السلطنة أن تلتقي مع القوى العصرية والقومية الجديدة التي تفجر العالم العربي بالثورة • ولكي تتحقق هذه الاهداف لا بد للسلطنة من اختيار عدة طرق وان لم تكن واردة حالياً • منها الدخول في اتحاد مع امارات الخليج بل والجنوب العربي ، باعتباره نواة لاتحاد اعظم يضم دولة الجزيرة العربية كلها • كخطوة لاتحاد أشمل لدولة عربية تضم العالم العربي كله • وقد تتولى الحكم في السلطنة خلال السنوات القادمة دولة ثورية عصرية • كما أنه من المحتمل أن يتولى تسيير دفة الأمور جيل جديد من زعماء البوسعيد ممن التحقوا بكلية ساندهرست البريطانية • مثل الأمير قابوس ممن يستطيعون التكيف مع متطلبات العصر •

وبصرف النظر عن الافتراضات والتخمينات • فإنه من الواضح ، أن السلطان سعيد رغم كل شيء ونظراً لتورطاته • ومهما يكن مترددا ازاء انضمام عمان إلى ركب الحياة العصرية • كان ولا يزال أهم حكام البوسعيد منذ عهد سميح العظيم سعيد بن سلطان قبل أكثر من قرن •



11

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٥

الجزء الأول

عمان ووضعها القديم في الخليج

الفصل الأول

١٣	الخليج قبل العصر الحديث
١٦	الحضارة التقليدية في الخليج
٢١	تاريخ الخليج قبل القرن التاسع عشر

الفصل الثاني

٤١	عمان قبل القرن التاسع عشر
٤١	البلاد — أهلها — مواردها
٥٠	المخلافه — التيار المحافظ — الامامة في القرون الوسطى
	ازدياد أهمية عمان الملاحية والتجارية
٦٤	وظهور حركة الأباضية المعتدلة
٦٩	دولة ابو سعيد وذرورة الدولة الأباضية

الجزء الثاني

تأثير المرحلة الاقتصادية والتكنولوجية الحديثة على الوضع في عمان

الفصل الثالث

٩٣	بداية المرحلة العصرية في الخليج
----	---------------------------------

الصفحة

الموضوع

٩٦	أثر الخصائص الهندية على التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية في الخليج
٩٨	إدخال الرسائل الحديثة على المواصلات في الهند ومنها إلى الخليج
١٠٧	مساعي حكومة الهند البريطانية لإدخال النظم الحديثة إلى الخليج
١١٢	الثورة والركود الاقتصادي في الخليج العربي

الفصل الرابع

١٢٨	التغيرات الاقتصادية في أواخر القرن التاسع عشر
١٢٨	وضع الاقتصاد العماني في سنة ١٨٥٦
١٣٣	الركود الاقتصادي ١٨٦٢ - ١٩٠٠
١٨٥	الاقتصاد العماني في سنة ١٩٠٠

الجزء الثالث

دعم السيطرة البريطانية في الخليج

الفصل الخامس

١٩٣	نشوء الحكم غير المباشر ١٨٦٢ - ٩٢
١٩٢	ازدياد السيطرة السياسية البريطانية في الخليج قبل سنة ١٨٦٢
٢٠٧	إعادة تنظيم الحكم البريطاني في الهند وانعكاساته على الأوضاع في الخليج
٢٠٩	قضية جونز ١٨٦٢ - ١٨٦٣ اتجاهات جديدة للسيطرة البريطانية في الخليج
٢١٢	ليويس بلي والتوسع البريطاني في الخليج

الصفحة	الموضوع
٢١٩	ليويس بلى ورؤساؤه والسياسة البريطانية في الخليج
٢٤٠	ادوارد روس وذروة الوجود البريطانى في الخليج
٢٤٦	الادارة البريطانية في الخليج في عهد روس

الفصل السادس

٢٧٦	الدفاع عن السيطرة البريطانية في الخليج ١٨٩٢ — ١٩٠٣
٢٧٧	المقيمون السياسيون الضعاف ١٨٩٢ — ١٨٩٩
	اللورد كرزن والخليج العربى والتحدى الامبريالى
٢٨٤	١٨٩٩ — ١٩٠٣
٢٩٠	عمان والفرنسيون في التسعينات من القرن التاسع عشر
	حكومة لندن تتولى مباشرة المسؤولية لتخطيط السياسة
٣٠٤	البريطانية في الخليج
٣٠٨	مناقشات حول السيادة البريطانية على الخليج

الجزء الرابع

تكيف عمان مع المرحلة الجديدة

الفصل السابع

٣٢٣	سقوط النظام المعتدل ١٨٥٦ — ٧١
٣٢٤	أزمة الحكم في الامبراطورية العمانية ١٨٥٦ — ٦٨
٣٤٧	مرحلة زعامة المحافظين — امامة عزان بن قيس ١٨٦٨ — ٧١

الفصل الثامن

٣٧٨	اعادة بناء الحكم المعتدل ١٨٧١ — ١٩٠٣
-----	--------------------------------------

الصفحة	الموضوع
٣٧٩	حكم تركي بن سعيد ١٨٧١ — ٨٨
٤٢٧	الحكم المعتدل الجديد أمام التحديات ١٨٨٨ — ١٩٠٣

الفصل التاسع

خاتمة

٤٥٣	عمان في القرن العشرين
٤٥٣	انقسام عمان الى سلطنة وامامة ١٩١٣ — ١٩٥٥
٤٨٢	توحيد عمان في ظل الحكم المعتدل

—

—

.

—

رقم الإيداع ٨٨/٥٠٨
بتاريخ ٨٨/١١/١٥



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Wakalaat al-Kutub al-Ahliyya



